عيسى، عبد الجليل، ١٩٧٢ - ....
تيسير القرآن الكريم للقراءة والفهم المستقيم/ عبد الجليل عيسى.- القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩
مج ٢ ؛ ٢٨ سم.
المحتويات: من سورة يونس إلى آخر سورة العنكبوت.
تدمك ١ ٧٦١ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨
١- القرآن - تفسير.
أ - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٩/٥٥٢١

I.S.B.N- 978 - 977 - 420 - 761 - 1

ديوى ٢٢٧

تيسير القرآن الكريم

للقراءة والفهم المستقيم

من سورة يونس إلى سورة العنكبوت

الجزء الثانى

لفضيلة الأستاذ الشيخ

عبد الجليل عيسى

شيخ كلية اللغة العربية
بالأزهر الشريف (سابقا)

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٩

(١٠) سورة يونس مكية
وآياتها تسع ومائة

بسم الله الرحمن الرحيم

الر[1] تلك آيات[2] الكتاب[3] الحكيم ﴿١﴾ أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون[4] إن هذا لساحر[5] مبين ﴿٢﴾ إن ربكم الله الذى خلق السموات[6] والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون ﴿٣﴾ إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا

سورة يونس

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: . ﴿الر﴾: تقدم الكلام على مثل هذه الأحرف المقطعة أول سورة البقرة.

﴿أكان للناس﴾: الهمزة تفيد الإنكار وتعجيب السامع من حيرة مشركى العرب وتعجبهم.

﴿للناس﴾: المراد بهم مشركو العرب خاصة.

﴿أن أنذر﴾: أن حرف يدل على أن مابعده تفسير لما قبله، والإنذار إعلام بشىء مع التخويف من مخالفته. ﴿الناس﴾: المراد بهم هنا جميع المكلفين.

﴿قدم﴾: أصل القدم أسفل الرجل من الشخص، ثم أطلقت على السبق والتقدم فى كل شىء، يقال فلان له قدم فى العلم أى سابقٌ غيرَه فيه.

﴿صدق﴾، أصل الصِّدق فى القول ضد الكذب، ثم استعمل فى صفات الفضائل المشرفة، انظر الآية (٨٠) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٥.

﴿ستة أيام﴾: هى أوقات لايعلم مقدارها إلا الله عز وجل. ورد أن اليوم كألف سنة كما فى الآية (٤٧) من سورة الحج صفحة ٤٤٠، وورد أنه كخمسين ألف سنة كما فى الآية (٤) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥.

(١) الفْ لامْ را.
(٢) آيات.
(٣) الكتاب.
(٤) الكافرون.
(٥) لساحر.
(٦) السموات.

﴿استوى﴾: تقدم فى شرح الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١، وهو استواء يليق به تعالى لايعلمه غيره.

﴿العرش﴾: تقدم فى آخر التوبة وأنه شىء عظيم لايعلم حقيقته إلا الله تعالى.

المعنى: . تلك الآيات الرفيعة المنزلة التى يتألف منها القرآن هى آيات الكتاب صاحب الحكمة فى معانيه ومبانيه. واعجب أيها السامع من استغراب كفار العرب أن يوحى الله إلى رجل منهم وحيًا هو الأمر بإنذار الناس جميعا بما شرعه الله مع تخويفهم من عصيانه، انظر الآية (٩٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٧.

وبشر المؤمنين خاصة بأن لهم سبقا فى الفضل ومنزلةً رفيعةً عند ربهم، وكان من نتيجة تعجب هؤلاء الكفار أنهم لما رأوا عجزهم عن الإتيان بسورة من القرآن قالوا ليضللوا الناس: إن هذا الرجل لساحر مبين.

ثم أبطل الله تعالى تعجبهم وافتراءهم بقوله: إن ربكم أيها المنكرون هو الذى خلق العوالم العلوية التى فوقكم والأرض التى تعيشون عليها فى ستة أوقات، فى كل وقت منها طور من أطوارها، ثم استوى على عرشه الذى جعله مركزا لتدبير هذا الملك العظيم، ومَنْ كانت هذه قدرته وأحكامه فهو سبحانه قدير لايستكثر عليه أن يختار من عباده من يشاء لتبليغ رسالته إلى خلقه، فاحذروا غضبه عليكم، ولا تعتمدوا على غيره من معبوداتكم التى زعمتم أنها تشفع لكم عنده كما فى الآية (١٨) الآتية فى هذه السورة صفحة ٢٦٨، فإنه لايشفع عنده سبحانه أحد إلا بعد إذنه له بذلك إذنا مبنيا على الحكمة بأن يكون الشفيع من الأخيار، والمشفوع لهم ممَّنْ رضى سبحانه عنهم، انظر الآية (١٠٩) من سورة طه صفحة ٤١٦، والآية (٢٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٣، والآية (٢٦) من سورة النجم صفحتى ٧٠١، ٧٠٢.

ذلكم العظيم الموصوف بما ذكر هو وحده الله ربكم الذى يستحق العبادة. فاعبدوه وحده ولاتشركوا به غيره أتجهلون كل هذا فلا تتذكرون فى خلقه لترجعوا إلى الحق، والحال أن رجوعكم جميعا فى الآخرة إليه وحده فيحاسبكم ويجازيكم، وقد وعد وعدًا حقا لايتخلف.

إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَآءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى اخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ

المفـــردات: ـ ﴿الخلق﴾: المراد بهم هنا المكلفون، لأنهم هم الذين يبعثون ليحاسبوا. ﴿القسط﴾: العدل. ﴿حميم﴾: هو الماء الشديد الحرارة كما فى الآية (٤٤) من سورة الرحمن صفحة ٧١١. ﴿ضياء﴾: فى الأصل اسم مصدر وأريد به هنا اسم الفاعل، أى مضيئة، والضوء هو ماينشأ من الشىء بلا واسطة كضوء الشمس والنار والسراج، انظر الآية (٦١) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٧. ﴿نورا﴾: هو ما ينشأ عن الشىء بواسطة غيره كنور القمر والمرآة. ﴿لآيات﴾: أى أدلة وبراهين دالة على وجوده تعالى وقدرته.

﴿لايرجون لقاءنا﴾: أى لايتوقعونه لأنهم ينكرونه ﴿يهديهم ربهم بإيمانهم﴾: يقول أبو السعود فى شرح ذلك: يهديهم بسبب إيمانهم إلى الجنة، وإنما لم يصرح بها اعتمادا على ظهورها من سياق الكلام، ولا سيما بعد ملاحظة ما سبقها من بيان مأوى الكفار وما لحقها من قوله جنات النعيم.

المعنى: ـ بيَّن سبحانه ما وعد به بأنه هو الذى أنشأ الخلق عند تكوينه أول مرة، ثم يعيده بعد موته للحساب والجزاء، فيجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بما بيّنه فى الآية (٩) هنا جزاءً عادلاً لاينقص من أجر أحدهم مثقال ذرة، ويجزى الذين كفروا بأن يسقيهم كلما استغاثوا من العطش ماء شديد الحرارة يقطع أمعاءهم، ثم يغرقهم بعد ذلك فى عذاب شديد

(١) يبدأ. (٢) الصالحات. (٣) الآيات. (٤) اختلاف.
(٥) الليل. (٦) السموات. (٧) لآيات. (٨) بالحياة.
(٩) آياتنا. (١٠) غافلون. (١١) ماواهم. (١٢) الصالحات.
(١٣) بإيمانهم. (١٤) الأنهار. (١٥) جنات. (١٦) دعواهم.

الألم، وذلك بسبب استمرارهم على الكفر انظر الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥، والآية (١٥) من سورة محمَّد صفحة ٦٧٤. ومن بلاغة القرآن أنه لايذكر المعلوم من السياق إلا لأغراض خاصة ولهذا لم يتعرض فى مجازاة الكفار للقسط اكتفاء بذكره فى مجازاة المؤمنين، ولم يذكر مايجازى به المؤمنين اكتفاء بذكر مقابله فى الكافرين.

ثم فَصّل سبحانه ما أجمله فى خلق السموات والأرض وتدبير الملك مما يدل على كمال القدرة على إرسال الرسل وبعث الخلق للحساب فقال: هو الذى جعل الشمس مضيئة، والقمر منيرا، وقدر سير القمر فى منازل كل ليلة فى واحدة لايختلف فى شهر عن شهر، وَمِنْ سَيْره هذا يتكون الشهر، ومنه تتكون السنون، فيعلم الناس عدد السنين وحساب العبادات كالصيام والحج والعِدَّة، والمعاملات كالإجارة والرهن، وغير ذلك، انظر الآية (١٨٩) من سورة البقرة صفحة ٣٧. ما خلق الله الشمس والقمر بهذا النظام إلا خلقا مقترنا بالحكمة والمصلحة، ولم يخلقه عبثا، انظر الآية (١٦) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١، والآية (١١٥) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٦. يجعل سبحانه الآيات الدالة على الحكمة مفصلة واضحة ينتفع بها قوم يستعملون عقولهم ولم يهملوها فيكونوا كالأنعام كما فى الآية (١٧٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢، ثم أتبع هذه الآيات السماوية بالإشارة إلى جميع الآيات سماويةً وأرضيةً، فقال ﴿إن فى اختلاف الليل والنهار﴾ بما تقدم فى الآية (١٦٤) من سورة البقرة صفحة ٣١، ﴿وماخلق الله فى السموات والأرض﴾ من جمادات مختلفة، وحيوانات متنوعة، ونباتات لاتحصر، دلائل وبراهين على وجود صانع حكيم ينتفع بها قوم يتقون الله ويخافون عاقبة الإهمال، انظر آيتى (٢٧، ٢٨) من سورة فاطر صفحة ٥٧٥، ثم بيَّن سبحانه حال مَنْ كفر بالبعث لغفلته عن النظر فى الآيات فقال: إن الذين لايرجون لقاءنا يوم القيامة للحساب، ورضوا بمتاع الحياة الدنيا، واطمأنوا بزخارفها، وارتاحت نفوسهم لشهواتها بسبب غفلتهم عن تدبر آياتنا، أولئك مسكنهم فى الآخرة نار جهنم بسبب استمرارهم مدة حياتهم على اكتساب الخطايا. أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيهديهم ربهم بسبب إيمانهم الصادق وعملهم الصالح إلى دار السعادة حال كونهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم، ويكون دعاؤهم فيها ....

فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ * وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ

المفـردات : - ﴿لقضى إليهم أجلهم﴾: أى لقضى الله بوصول نهاية أجلهم إليهم، فالمراد لأهلكهم. ﴿فنذر﴾ أى فنترك . ﴿يعمهون﴾: أى يتحيرون ويرتبكون فلا يهتدون إلى صواب ﴿القرون﴾: جمع قرن، تقدم بيانه فى الآية (٦) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٢، ١٦٣ ﴿خلائف﴾: أى خلفاء لمَنْ قبلكم كما تقدم فى الآية (١٦٥) من سورة الأنعام صفحة ١٩٢، والآية (٧٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٤.

المعنى : - يكون دعاؤهم هو قولهم : سبحانك اللهم، أى ننزهك عن كل نقص يا الله، وتحيتهم التى تحييهم بها الملائكة هى قولهم: سلام عليكم من كل مكروه، انظر آيتى (٢٣، ٢٤) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥، والآية (٢٦) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤. وختام دعائهم: الحمد لله رب العالمين، انظر آخر سورة الزمر. ثم أراد سبحانه أن يبيّن حالاً من أحوال الإنسان التى جاءت الشرائع لتنظيمها بالصبر واستعمال العقل لأن تركها بدون تنظيم يجر إلى مخاطر كثيرة، وهو حب العجلة، وطلب الأشياء قبل أوانها، الذى يجر إلى التسرع فيما يضر تحت تأثير غضب أو عناد أو جهل أو استهزاء، انظر الآية (١١) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٥ والآية (٣٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٤. ومن آثار هذه الحالة اندفاع المشركين إلى الاستهتار بتوعد الله لهم بالعذاب، وتخويفهم من يوم الحساب، انظر آيات (٧٠) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٣ و (٣٢) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١، و (٢٥) من سورة الملك صفحتى

(١) سبحانك. (٢) سلام. (٣) دعواهم. (٤) العالمين.
(٥) طغيانهم. (٦) الإنسان. (٧) بالبينات. (٨) جعلناكم.
(٩) خلائف. (١٠) آياتنا. (١١) بينات. (١٢) بقرآن.

٧٥٦، ٧٥٧، فقال سبحانه فى ذلك، ولو يعجل الله للناس، خصوصا الذين لا يرجون لقاء ربهم، الشرَّ الذى يستعجلونه سفها كاستعجالهم للخير، وهذا الشر هو عذاب الإفناء، لأهلكهم جميعا، ولكنه سبحانه لم يعجل لأنه قدَّر لهذه الأمة البقاء إلى قيام الساعة؛ لذلك ترك هؤلاء الكفار فى طغيانهم يتحيرون ولا يهتدون ليزدادوا إثما فيزدادوا عذابًا.

ثم شرع سبحانه فى بيان شأن آخر من شئون الإنسان هو أنه إذا اشتد به كرب لجأ إلى الله يدعوه ليكشفه عنه، فإذا أنقذه نسى الله ولم يؤد حقه، انظر الآية (٦٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٣، فقال ﴿وإذا مس الإنسان الضر﴾ كشدة مرض أو خوف من غرق مثلا، دعا الله ليكشفه عنه من كل حال من أحواله، سواء كان مضطجعا لجنبه، أو قاعدا فى داخل بيته، أو قائما على قدميه، حائرا فى أمره، فلما كشفنا عنه ضره مضى واستمر على ما كان عليه قبلا من عصيان الله، ونسى حال البلاء كأنه لم يُصَبْ ولم يَدْعُ إلى ضر مسه.

كهذا النحو من معرفة الله فى الشدة ونسيانه فى الرخاء زين الشيطان للمسرفين فى الكفر من طغاة مكة وغيرهم ما كانوا يعملون. ثم هدد كفار مكة بقوله: ولقد أهلكنا القرون الذين مضوا قبلكم كقوم نوح وعاد وثمود حين ارتكبوا الظلم، وأشده الشرك كما فى الآية (١٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٠، والحال أن رسلهم جاءتهم بالبينات القاطعة على صدق ما جاءوا به، وما كانوا ليؤمنوا أبدًا لو بقوا أحياء لتمكن الكفر من قلوبهم؛ كهذا الجزاء الشديد نجزى كل مجرم. ثم جعلناكم يا مَنْ أرسل إليكم محمّد خلفا لتلك الأمم التى عذبناها على عصيانها لننظر كيف تعملون بعد ماعلمتم ما حل بهم، ونجازيكم على عملكم من خير أو شر، انظر الآية (٤١) من سورة الحج صفحة ٤٣٩. وبعدما سفه المشركين على إنكارهم الوحى وأقام على ذلك الحجج، أراد أن يبيّن بعض جناياتهم المنافية لما أريد من استخلافهم فى الأرض فقال: ﴿وإذا تتلى﴾ إلخ؛ أىْ وإذا تتلى على كفار مكة آياتنا المنزلة حال كونها واضحات فى الدلالة على الحق، قال الذين لا يرجون لقاءنا المتقدم ذكرها قريبا للرسول الذى يتلو عليهم القرآن: إئت بقرآن إلخ ...

غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ[1] نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم[2] بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ[3] إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا[4] عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ[5] ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ[6] وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ[7] وَتَعَٰلَىٰ[8] عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً[9] فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ

المفردات : ـ ﴿تلقاء نفسى﴾ : أصل تلقاء اسم مصدر من لقى كرضى لقاء، وأريد به ظرف مكان نحو جهة أو عند كما فى الآية (٢٢) من سورة القصص صفحة ٥٠٩. ﴿لبثت فيكم عمرًا﴾: أى مكثت فى وسطكم عمرًا طويلاً.

أمة واحدة فاختلفوا تقدم بيانها فى الآية (٢١٣) من سورة البقرة صفحتى ٤١، ٤٢. ﴿كلمة سبقت من ربك﴾: هى وعده سبحانه وتعالى بتأخير جزائهم التام إلى يوم القيامة و﴿لولا﴾ حرف يدل على المبالغة فى طلب ما بعده.

المعنى : ـ إئت يا محمّد بقرآن غير هذا ليس به ما لا نعقله من البعث، ولا ما نكرهه من ذم آلهتنا، أو بدله بأن تجعل بدل الآية التى فيها ما لا نريد آية أخرى فيها ما نحب. وكان سؤالهم هذا مكيدة وخدعة يطمعون أن يجيبهم ﷺ إلى ما يطلبون، فيعلنوا فى الناس أن محمدًا كاذب فى قوله إن هذا القرآن من عند الله، لأنا طلبنا منه قرآنا غيره فجاء به. فرد سبحانه طلبهم التبديل بقوله: قل لهم ما يصح لى حتى لو فرض المحال وكنت أستطيع أن أبدله من عند نفسى ما أتبع فيه إلا ما يوحيه ربى إلىّ بدون تصرف فيه، لأنى أخاف إن عصيت ربى بالتصرف فيه عذاب يوم عظيم الخطر. ثم لقنه الجواب عن السؤال الأول، وفصله عن الثانى لأهميته، فقال: وقل لهم ردًا على الاتيان بغيره: ليس هذا القرآن من عندى حتى آتيكم بغيره، بل هو من عند الله، ولو شاء عدم إنزاله على ما تلوته عليكم، حتى لو شاء أن يذهبه من قلبى لفعل كما فى الآيات من (٨٥ إلى ٨٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦ وبذلك ما كنتم تدرون بشىء منه. ثم أرشدهم إلى الدليل القاطع بصدقه وجهلهم فقال: ﴿فقد لبثت﴾ إلخ، أى كيف تطلبون هذا مع أنى أقمت فيكم وخالطتكم تمام المخالطة أربعين سنة لم تعرفوا عنى فيها أنى خطيب كفحول خطبائكم، بل ماكنت أعلم شيئًا

(١) تلقاء. (٢) أدراكم. (٣) بآياته. (٤) شفعاؤنا. (٥) اتنبئون.
(٦) السموات. (٧) سبحانه. (٨) وتعالى. (٩) واحدة.

من علوم هذا القرآن حتى الإيمان الصحيح ماكنت أعرفه، انظر آيتى (٤٨) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٧، و (٥٢) من سورة الشورى صفحة ٦٤٦، فهل تجهلون كل هذا أفلا تعقلون استحالة الإتيان بمثل هذا القرآن من مخلوق خصوصا مثلى فى الأمية. ثم أراد أن يبيّن لهم أن شر أنواع الظلم شيئان، الأول: افتراء الكذب على الله كالذى كانوا يقترحونه على النبى ﷺ، والثانى التكذيب بآياته كما كذبوا؛ لأن كلا منهما جرم شنيع، والمقرر فى سنة الله سبحانه الجارية فى خلقه أن المجرم لايفلح أبدًا، انظر آيات (٢١، ١٤٤) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٥. ١٨٧، و(٣٧) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٧، ١٩٨. ثم بيَّن سبحانه ماجراهم على الكفر فقال: ويعبدون من دون الله مخلوقات لاتضرهم إذا لم يعبدوها، ولاتنفعهم إن عبدوها ويقولون لتبرير عبادتهم هؤلاء الذين نتقرب إليهم بالذبائح والنذور والطواف حولهم والاستغاثة بهم لأنهم مقربون إلى الله، فبواسطتهم يقربوننا إليه بشفاعتهم لنا لأنا عصاة والعاصى لايصح أن يخاطب ربه. فالمنكرون البعث يشفعون لهم فى رفع بلاء الدنيا وكثرة الخير، انظر الآية (٣٨) من سورة النحل صفحة ٣٥٠، والشاكُّونَ فيه يحتاطون بعملهم هذا خوف أن يكون البعث صحيحا، انظر الآية (٣٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦، و (٥٠) من سورة فصلت صفحة ٦٢٧، فرد سبحانه عليهم بقوله (قل اتنبئون) إلخ أى أتخبرون الله بما لايعلم له أصلا لا فى السموات ولا فى الأرض، ومالايعلمه الله مستحيل أن يوجد، لأنه لو كان هناك شفعاء فى السموات كالملائكة، أو فى الأرض كمعبودات المشركين لَعَلِمَهُ، سبحانه وتعالى عما يشركون. ثم أراد سبحانه أن يسلى رسوله بأن اختلاف الناس طبع من طبائعهم فلا تحزن إذا لم يتبعوك جميعا، فقال: وماكان الناس فى حال من الأحوال إلا أمة واحدة مميزة عن جميع أمم الحيوانات الأخرى المشار إليها فى الآية (٣٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨، لها خصائص العقل والتفكير، وذلك يستدعى الاختلاف تبعا لاختلاف الرغبات كما تقدم تحقيق ذلك فى الآية (٢١٣) من سورة البقرة صفحتى ٤١، ٤٢. ولولا كلمة سبقت من ربك بأن يؤخر جزاءهم ليوم القيامة لعجله لهم فى الدنيا وقضى بينهم فيما اختلفون فيه بإهلاك المبطل منهم ونجاة المصلح، انظر الآية (٩٣) الآتية صفحتى ٢٨٠، ٢٨١. وبعدما أبطل سبحانه خديعتهم باقتراح تبديل القرآن شرع فى بيان نوع آخر من تعنتهم وتبريرهم الكفر بنبوته ﷺ، وهو ادعاؤهم أنه لو كان رسولا حقا لأنزل الله تعالى عليه معجزة موسى وعيسى، أو معجزة مما يقترحونه عليه، انظر الآيات (٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٠، و (٧) من سورة الفرقان صفحة ٤٧١، و (٤٨) من سورة القصص صفحتى ٥١٣، ٥١٤، و (٥٠، ٥١) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٨، وغير ذلك.

عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ

المفـردات: ـ ﴿مكر فى آياتنا﴾: المكر هو التدبير الخفى شرا أو خيرًا، والمراد مكر بالطعن فى آياتنا.

﴿أسرع مكرا﴾: مِن سرع سرعا بوزن صغر إذا صار سريعا.

﴿رسلنا﴾: هم الحفظة المشار إليهم فى الآيات (١٠، ١١، ١٢) من سورة الانفطار صفحتى ٧٩٥، ٧٩٦.

﴿الفلك﴾: يطلق على السفينة الواحدة وعلى الجمع.

﴿ريح عاصف﴾: أى شديدة قوية تعصف كل ما يلاقيها.

﴿أحيط بهم﴾: أى أحاط بهم الموج فلا خلاص لهم من الهلاك.

المعنى: ـ قل لهم أيها النبى فى رد طلبهم الآيات: إنما الآيات من عند عالم الغيب سبحانه وتعالى، فهو الذى يعلم الآيات وأوقات نزولها حسب حكمته، وأنا لا أعلم إلا مايوحيه إلىّ، فانتظروا مايفعل الله بى وبكم إنى معكم منتظر.

وفيه تهديد لهم بالعذاب، انظر آيتى (١٠١، ١٠٢) من هذه السورة صفحة ٢٨٢، والآية (٩) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٧.

ثم أراد سبحانه أن يبين طبيعة عنادهم فى صورة أخرى فقال ﴿وإذا أذقنا الناس﴾ أى وإذا أذقنا هؤلاء الكفار أثرًا من آثار رحمتنا كصحة وغنى من بعد ضراء مستهم كمرض وقحط ما

(١) الشاكرين. (٢) انجاهم. (٣) متاع. (٤، ٥) الحياة

كان منهم إلا المبادرة إلى المكر بالطعن فى آياتنا المنزلة للهداية، وبتشكيك الضعفاء فيها والاحتيال على إبطال أثرها فى النفوس. قل أيها النبى لهؤلاء الذين يسرعون فى المكر: الله أسرع مكرا منكم، لأنه سبق أن قدر أنه سيعاقبكم على خبثكم فى الدنيا قبل الآخرة.

ثم أكد ما سيحصل لهم بقوله: إن رسلنا يكتبون كل ماتمكرون به فى صحفكم فلا تظنوا أن مكركم خاف علينا، والله هو الذى سخر لكم البحر والريح والفلك والدواب وغيرها لتسيروا بها فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى أثناء سيركم فى البحر راكبين فى السفن وجرت بهؤلاء الكفار، وإنما لم يقل ﴿بكم﴾ إعراضا عن خطابهم احتقارا لهم، بريح لينة موافقة لغرضهم، وفرحوا بسهولة الريح، بينما هم كذلك هبت على سفنهم ريح شديدة تحطم كل مايلاقيها، واضطرب البحر، وأحاط بهم الموج حتى اعتقدوا أنهم هالكون، دعوا الله فى تلك الحالة ليكشف عنهم، مخلصين له فى الدعاء والطاعة، قائلين يارب وعزتك لئن أنجيتنا من هذه الشدة لنكونن من الشاكرين لنعمتك بالتوحيد والطاعة؛ لأن الشدة نبهت الفطرة، ورفعت عنها الغطاء الباطل الذى أفسدوها به من اتباع الآباء وتغليب الشهوات.

قال الألوسى فى تفسيره: ومن المحزن أن يكون حال المسلمين الآن أتعس من حال مشركى العرب؛ لأن كثيرا منهم الآن إذا وقع فى شدة يستنجد بغيره تعالى، مع أن المشركين نسوا فيها كل ماعداه، فلا حول ولا قوة إلا بالله فلما استجاب الله دعاءهم ونجاهم من الغرق إذا هم يفاجئون الناس فى الأرض التى وصلوا إليها بالبغى عليهم والظلم، بعيدين عن الحق الذى كان يجب أن يكون منهم شكرًا لله ثم هددهم سبحانه هم وأمثالهم بقوله: ياأيها الناس الضالون الغافلون إنما وبال بغيكم عائد على أنفسكم؛ لأنه إنما تتمتعون به متاع الدنيا الفانية ثم إلينا مرجعكم فى الآخرة فننبئكم بعملكم الذى داومتم عليه، ونجازيكم شر الجزاء. ثم أراد سبحانه أن يصور حقارة المتاع الفانى بما يمنع العاقل من البغى لأجل الحصول عليه فقال سبحانه وتعالى: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء﴾ إلخ.

أَنزَلْنَٰهُ(١) مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ(٢) حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ(٣) عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ(٤) أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا(٥) حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ(٦) لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ(٧) وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ(٨) مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ(٩) ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ(١٠) ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ(١١) مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ(١٢) ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ(١٣) ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا

المفردات: . ﴿أتاها أمرنا﴾: أى نزل بها أمرنا المقدر لإهلاكها.

﴿حصيدا﴾: أى محصورا، والمراد هالكًا كما فى الآية (١٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١.

﴿لم تغن بالأمس﴾: أى كأن لم يكن موجودا نباتها بالأمس، انظر الآية (٦٨) من سورة هود صفحة ٢٩٤.

﴿وزيادة﴾: هى النعيم الروحى بالنظر إلى وجهه الكريم.

﴿لا يرهق وجوههم﴾: يقال رهقه الشىء إذا تغلب عليه حتى غطاه مع تضايقه منه، ويقال أرهقه، انظر الآية (٧٣) من سورة الكهف صفحة ٣٩١.

﴿قتر﴾: هو الدخان الصاعد من اللحم المشوى، ويكون مشوبا بشىء من الدهن، فإذا علقت غبرته بالوجه قبح منظره وفيها إشارة إلى أنه صاعد من شئ جنوبهم بالنار.

﴿أغشيت﴾: جعل لها غشاء وغطاء.

المعنى: . إن مثل متاع الدنيا فى افتتان الناس به مع سرعة زواله مع ظنهم أنهم تمكنوا منه، كمثل الأرض التى نزل عليها الماء فأنبتت أنواعا شتى من النبات تشابكت بسبب الماء أغصانه وأوراقه واختلط بعضها ببعض من قوة نموه وكثرة أغصانه، وكان فى هذا النبات ما يغذى الإنسان والحيوان كما فى الآية (٥٤) من سورة طه صفحة ٤١٠، والآية (٢٤) ومابعدها من

---

(١) انزلناه. (٢) والأنعام. (٣) قادرون. (٤) أتاها. (٥) فجعلناها. (٦) الآيات. (٧) السلام.
(٨) صراط. (٩) أصحاب. (١٠) خالدون. (١١) الليل. (١٢) أصحاب. (١٣) خالدون.

سورة عبس صفحة ٧٩٢، حتى إذا استوفت الأرض حسنها وبهجتها، وازينت بأشكال النبات وألوانه، وظن أهلها أنهم قادرون على التمتع بها، أمرنا بإهلاك كل مافيها فى ليل أو نهار على غرة منهم، فلم يبق من زرعها شىء حتى كأنه لم يكن موجودًا بالأمس كهذا المثل فى بيانه لحقيقة الدنيا وغرور الناس بها وسرعة زوالها نفصل الآيات فى حقيقة التوحيد وأحوال التشريع تفصيلا ينتفع به المفكرون دون الغافلين.

وبعد مابيَّن سبحانه غرور الغافلين أتبع ذلك بما ينبغى أن يكون عليه المؤمن مع المقارنة بين حال كل منهما فقال ﴿والله يدعو﴾ إلخ؛ أى إذا كان الإسراف فى حب الدنيا والبغى للحصول عليها يدعو إليه الشيطان فيسوق متبعيه إلى دار الهلاك، فالله تعالى يدعو عباده إلى دار السلام وهى الجنة التى فيها السلامة من كل كدر وتحية أهلها السلام، ويهدى مَنْ يشاء ممَنْ حسن استعداده إلى طريق الخير، ويجازى الذين أحسنوا أعمالهم بالمثوبة الأكثر حسنًا، لأنها مضاعفة إلى عشر، انظر الآية (١٦٠) من سورة الأنعام صفحة ١٩١.

ويزيدهم من فضله بنعيم روحى عظيم ويصون وجوههم فلا يغشاها غبرة ولا ذل أولئك المحسنون هم أصحاب الجنة وحدهم خالدين فيها.

والذين عملوا السيئات من الكفر والمعاصى جزاء كل سيئة منهم مقدرة بمثلها فقط، وترهقهم ذلة، ولا يعصمهم أحد، ولايمنع عنهم عذاب الله، ويبلغ من سواد وجوههم أنها تصير كأن رجلا غطاها قطعا بعضها فوق بعض من ليل شديد الظلمة ليس فيه نور قمر ولا لمعان نجم، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، انظر آخر سورة عبس صفحة ٧٩٣.

واذكر أيها النبى لفريقى الناس المتقدم ذكرهم يوم نحشرهم جميعا فى موقف الحساب، انظر الآية (٢٢) من سورة الأنعام صفحة ١٦٥، والآية (١٧) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢، وغير ذلك كثير.

المفردات: . ﴿مكانكم﴾: المراد الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم لاتغادروه حتى نفصل بينكم.

﴿فزيلنا بينهم﴾: أصله من زلت الشىء عن مكانه أى باعدته عنه، فالمراد فرقنا بينهم

قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا۟ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَادْعُوا۟ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ

المفردات: . ﴿فأنى﴾: فكيف. ﴿تؤفكون﴾: تصرفون عن الحق كما تقدم فى الآية (٣٢) من هذه السورة صفحة ٢٧١. ﴿لايهدى﴾: أى لايهتدى ﴿أن يفترى﴾: أن والفعل فى تأويل مصدر أريد به اسم المفعول، أى مفترى. ﴿الذى بين يديه﴾: أى ما سبقه. ﴿الكتاب﴾: المراد جنسه، فيشمل جميع الكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم إلخ.

﴿ولما يأتهم﴾: لما حرف يفيد نفى ما بعده مع انتظار وقوعه كما فى قوله فى الآية (٨) من سورة ص صفحة ٥٩٨.

﴿لما يذوقوا عذاب﴾ : أى وسيذوقونه.

﴿تأويله﴾: أى مايؤول إليه حالهم من العذاب آخر الأمر.

المعنى: . وإذا كان لايستطيع أحد من شركائكم أن يبدأ الخلق ولايعيده، فالله وحده هو الذى يفعل ذلك، فكيف بعد ذلك يصرفكم الشيطان عن الحق إلى الباطل. ثم قل لهم أيها النبى أيضا: هل يوجد واحد ممَّنْ جعلتموهم شركاء لله يهدى غيره إلى الحق بأن يخلق له عقلا ويرسل له رسلا وينزل كتبا إلى غير ذلك؟ فإذا استحال ذلك على غير الله فقل لهم: الله وحده هو الذى يهدى جميع العقلاء إلى الحق، وحيث إن الأمر كذلك هل مَنْ يقدر فيهدى غيره إلى الحق أحق أن يتبع فيما يأمر به أم مَنْ لايهتدى إلى الصواب إلا بعد أن يهديه غيره؟ فأى شىء حصل لكم فى عقولكم حق اتخذتم هؤلاء العاجزين شركاء لله؟ ثم أنكر عليهم وجعل السامع يتعجب منهم فقال: ﴿كيف﴾ أى كيف تحكمون بالباطل الذى يرفضه العقل؟ ثم بيَّن سبب أخطاء حكمهم فقال: وما يتبع أكثرهم فى معتقداتهم ومجادلاتهم إلا ظنًا ضعيفًا

---

(١) يبدأ. (٢) أم من. (٣) القرآن. (٤) الكتاب. (٥) العالمين. (٦) افتراه. (٧) صادقين.

مستندا إلى خيالات، والظن مطلقا فضلا عن الضعيف منه لا يغنى عن اعتقاد الحق شيئا من الإغناء ولو قليلا؛ لأن العقائد لابد فيها من العلم القاطع، وإنما قال أكثرهم لأن قايلا منهم كان يعلم الحق تمام العلم ولكن ينكره حسدا واستكبارا كما فى الآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥؛ إن الله يعلم بفعلهم وسيجازيهم شر الجزاء. ولما كان عمدة الدين هو القرآن اهتم سبحانه بإقامة الحجج على بطلان كل ما يحاولون به صرف الناس عنه، فبعدما أبطل مكرهم فى الآية (١٥) من هذه السورة صفحتى ٢٦٧، ٢٦٨، أراد هنا أن يخرسهم بحجة أخرى لا تمكنهم المكابرة فيها فقال: ﴿وماكان﴾ إلخ، أى لا يصح أن يكون هذا المعجز لجميع البشر فى أسلوبه ومعناه مفترى من أحد على الله، ولكنه كان تصديق كل ما سبقه على لسان الرسل، كدعوة إبراهيم فى الآية (١٢٠) من سورة البقرة صفحة ٢٥، وبشارة موسى وعيسى به ﷺ كما فى الآية (١٥٧) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٧، ٢١٨، وتفصيل ما أجمل فى كتب موسى وعيسى، لاشىء فيه محل للشك، لأنه تنزيل من رب العالمين. ثم بعد ما بيَّن سبحانه أن القرآن أعلى من أن يفترى، انتقل إلى حكاية عنادهم وزعمهم أن محمدًا افتراه ليبطلهما فقال منكرًا عليهم: أم يقولون أن محمدًا افتراه؟ فإن قالوا ذلك فقل تبكيتا لهم وتعجيزًا: فأتوا بسورة ولو قصيرة تكون مثله فى أسلوبه وتأثيره وعلمه بجميع أسرار الخلق ما وجد منها وما لم يوجد مما أثبتت الأيام صدقه فيه، وادعوا لمساعدتكم مَنْ استطعتم دعوته من الإنس والجن إن كنتم صادقين فى أن محمدًا افتراه، لأنكم بشر مثل محمد، بل فيكم مَنْ اشتهر بالخطابة قبل محمد كما تقدم فى الآية (١٦) من هذه السورة صفحة ٢٦٨. وكما سيأتى فى الآية (٨٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦، وبعد ما أقام عليهم الحجة انتقل إلى بيان بعض ما كذبوه من القرآن لظنهم أنه محال أو لكراهتهم لوقوعه، وهو ما أنذرهم به من عذاب.. يحل بهم فى الدنيا والآخرة إذا لم يؤمنوا، فقال ﴿بل كذبوا﴾ إلخ؛ كذبوا بما لم يعلموه من جميع وجوهه حتى يصح لهم الحكم الصحيح، والحال أن هذا العذاب الذى لم يقع لهم إلى الآن سيقع قطعًا، انظر الآية (١٥٣) من سورة الأعراف صفحة ٢١٦. وهذه هى عادة الكفار مع رسلهم فكما كذب هؤلاء رسولنا محمدًا لما توعدهم بالعذاب كذب الذين من قبلهم رسلهم، ولكنه وقع رغم تكذيبهم فانظر أيها السامع كيف كانت عاقبتهم، انظر الآية (١٠٥) ومابعدها إلى الآية (٢٠٩) من سورة الشعراء خصوصًا الآية (١٣٨)، والآية (١٨٧) صفحات من ٤٨٦ إلى ٤٩٢.

كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ (١)(٢) ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ

المفردات : ـ ﴿لم يلبثوا﴾ : ـ أى لم يمكثوا.

﴿وإما نرينك﴾ : أصلها إن بكسر فسكون ما نرينك، وما حرف يدل على شدة ارتباط الشرط ﴿نرينك﴾ بالجزاء

﴿فإلينا مرجعهم﴾.

المعنى: ـ فتأمل كى تعلم على أى حال من الهلاك كانت عاقبة الظالمين. ومن كفار قومك أيها النبى مَنْ يؤمن فى الباطن بأن القرآن كلام الله حقا وإنما يكذبه فى الظاهر حسدًا وكبرًا كما كان حال أهل الكتاب وقوم فرعون، انظر الآية (١٤٦) من سورة البقرة صفحة ٢٨، والآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥.

ومنهم مَنْ لا يؤمن به جهلا وتقليدا لغيرهم، ومن هؤلاء مَنْ فى آيتى ٤٢، ٤٣ هنا، وربك أعلم بمَنْ يفسد فى الأرض بالشرك والظلم، وإن أصروا على تكذيبهم فقل لهم لى عملى لا أجازى إلا عليه، ولكم عملكم لا تجازون إلا عليه، كما فى الاية (٥٢) الآتية صفحة ٢٧٤، والآية (٥٤) من سورة النور صفحة ٤٦٦، فأنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ففيه تهديد لهم ليتنبهوا من غفلتهم، انظر الآية (٣٥) من سورة هود صفحة ٢٨٩، والآية (٢١٦) من سورة الشعراء ٤٩٣، ومن هؤلاء المشركين أناس يستمعون إليك إذا قرات القرآن أو بينت ما فيه من العبر، ولكن لا يفهمون ولاينتفعون، فهم كالصم، أفأنت تسمع الصم ولو جمعوا مع الصمم عدم العقل، انظر الآية (٢٥) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٥، ١٦٦.

(١) عاقبة. (٢) الظالمين.

ومنهم فريق ينظر إليك ولكن لا يبصرن ما آتاك الله من نور الإيمان وهيبة الخشوع وسكينة المؤمنين، فهم كالعمى أفأنت تهدى العمى ولو جمعوا مع البصر فقد البصيرة، انظر الآية (١٧٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢.

وإنما جمع المستمعين وأفرد الناظر للإشارة إلى كثرة السامعين، لأن السامع يسمع من كل جهة، أما الناظر فلا يرى إلا ما أمامه، إن الله لا يظلم الناس شيئا من الظلم ولو قليلا، فلا يعاقبهم قبل أن ينبههم إلى الحق ويرسل الرسل ويعطيهم العقول، فإذا فرطوا بعد ذلك فلم يظلموا إلا أنفسهم بعد استعمال ما وهبهم الله فيما خلق لأجله، ثم خوفهم بما سيلاقيهم يوم القيامة من الشدائد التى تنسيهم كل ما مضى، وتجعل الساعة فيها كآلاف الأعوام، فقال ﴿ويوم نحشرهم﴾ إلخ؛ أى واذكر لهم أيها النبى يوم يحشرهم الله فيتوهمون من شدة الهول أنهم لم يمكثوا فى الدنيا زمنًا بما فيه مدة القبور إلا لحظة من نهار لا تتسع إلا لمقدار تعارفهم فقط ثم تزول، انظرالآية (٥٥) من سورة الروم صفحة ٥٣٨، والآية (٣٥) من سورة الأحقاف صفحتى ٦٧١، ٦٧٢، وآخر سورة النازعات صفحة ٧٩١.

قد خسر هؤلاء المكذبون باليوم الآخر كل خير، وما كانوا فيما اختاروا لأنفسهم مهتدين لطريق التجارة الرابحة المشار إليها فى آيتى (١٠، ١١) من سورة الصف صفحة ٧٣٩، وبعدما وبخهم على تكذيبهم بما لم يعلموه مما لم يأتهم إلى الآن فى الآية (٣٩) هنا، أراد أن يؤكد لهم وقوع ما وعدهم به من العذاب سواء فى زمن حياته ﷺ أو بعدها قطعا لأطماعهم فى أنه لو مات ﷺ فإنهم يأمنون نزول العذاب، فقال: ﴿وإما نرينك﴾ إلخ، أى وإن نريك بعض الذى نعدهم به من عذاب الدنيا أو نتوفاك قبل نزوله ففى الحالين لا مرجع لهم إلا إلينا أى فلابد من عذابهم، شاهدت أنت أيها النبى أم لم تشاهده، لأن الله وحده هو الشهيد على العالم بكل ما يفعلون، فلا فائدة لهم فى انتظار موتك، لأن العذاب واقع ولابد، انظر آخر سورة طه صفحة ٤١٩، وآيتى (٤١، ٤٢) من سورة الزخرف صفحة ٦٥١، وأول سورة الطور صفحتى ٦٩٦، ٦٩٧.

أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا

المفردات: ﴿القسط﴾: العدل.

﴿أرايتم﴾: أى أخبرونى كما تقدم فى الآية (٤٠) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨.

﴿بياتا﴾: أى فى الليل كما فى الآية (٤) من سورة الأعراف صفحة ١٩٢.

﴿أثم إذا ما وقع﴾: الهمزة للاستفهام المراد به التوبيخ، وثم حرف عطف على مقدر والأصل تستعجلون العذاب استهزاء ثم إذا وقع آمنتم بصدق الوعد به ﴿الآن﴾ : الهمزة للاستفهام التوبيخى أيضًا.

﴿يستنبئونك﴾: يطلبون منك النبأ أى الخبر.

﴿أحق هو﴾ : أى العذاب الذى تتوعدنا به والاستفهام منهم على جهة الإنكار والاستهزاء.

﴿إى وربى﴾ : إى حرف بمعنى نعم، أى نعم وحق ربى. ﴿بمعجزين﴾: لا تعجزون مَنْ يطلبكم ليوقع بكم العذاب.

المعنى : . لكل أمة يوم القيامة رسول تنتسب إليه، فإذا جاء رسولهم للموقف ليشهد عليهم بما لا قوا به دعوته من إيمان وطاعة أو كفر ومعصية، قضى الله تعالى بينهم بالعدل، وحكم بنجاة المؤمنين وعقاب الكافرين، ولا يظلم منهم أحدا شيئًا، انظر الآية (٤١) من سورة النساء صفحة ١٠٧، والآية (٧١) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٤ ويقول كفار قريش للنبى ﷺ ومَنْ معه من المؤمنين متى يتحقق هذا الوعد الذى وعدتمونا فيه العذاب؟ كما فى آيتى (٣٩، ٤٦) من هذه الصورة صفحتى ٢٧٢، ٢٧٣، وآيتى (٢٣، ٢٤) من سورة الجن صفحة ٧٧٢، إن كنتم

(١) صادقين. (٢) يستأخرون. (٣) أرايتم. (٤) أتاكم.
(٥) بياتا. (٦) آمنتم. (٧) الآن.

صادقين فى قولكم إن الله تعالى سينتقم لكم منا. ولقن سبحانه نبيه الجواب بقوله: ﴿قل لا أملك﴾ إلخ، أى إنما أنا بشر مثلكم لا أملك لنفسى فضلاً عن غيرها شيئًا من التصرف حتى أدفع عنها الضر أو أجلب لها النفع، فكيف أملك شئونكم حتى أتسبب فى إتيان عذابكم الموعود حسبما تريدون، ولكن ماشاءه الله لابد أن يكون، ولا شأن لى فيه لأنه خاص به تعالى، انظر الآية (١٨٨) من سورة الأعراف صفحتى ٢٢٣، ٢٢٤. ثم أجاب سبحانه على سؤالهم فقال ﴿لكل أمة أجل﴾ حدده الله تعالى لبقائها وهلاكهم لا يستأخرون عنه لحظة كما أنهم لايتقدمون عليه لحظة، انظر الآية (٣٤) من سورة الأعراف. وقل لهم أيها النبى أخبرونى عن حالكم وما يمكنكم عمله إذا أتاكم عذاب الله الذى تستعجلونه وقت مبيتكم فى الليل، أو وقت اشتغالكم بلهوكم ومعاشكم فى النهار، انظر آيات (٤، ٩٧، ٩٨) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٢، ٢٠٨، فأى شيء من العذاب تستعجلونه أيها المجرمون والعذاب كله مكروه لايستعجله إلا سفيه أو مجنون؟ فهل تستعجلون بالعذاب أيها المجرمون ثم إذا وقع بالفعل آمنتم بصدق الوعد به، وعند ذلك يقال لكم توبيخا الآن آمنتم به اضطرارًا، وقد كنتم قبل ذلك تستعجلونه تكذيبا واستنكارًا، انظر الآية (١٥٨) من سورة الأنعام صفحتى ١٩٠، ١٩١، وماقيل لفرعون فى الآية (٩١) من هذه السورة صفحة ٢٨٠. ثم قيل للذين ظلموا أنفسهم بالكفر والفسوق لزيادة التوبيخ: ذوقوا العذاب الخالد، لاتجزون اليوم إلا بما استمررتم على اكتسابه فى الدنيا من الكفر والمعاصى . ويستنجزك أيها النبى هؤلاء المجرمون فيقولون على سبيل الاستهزاء والإنكار: هل حق هذا العذاب الموعود؟ قل لهم: نعم وعزة ربى إنه لحق حاصل رغم أنوفكم وما أنتم بمعجزين الله إذا أراد تعذيبكم، لأنه سبحانه لايعجزه شيء فى الارض ولا فى السماء. وقد بلغ من هول هذا العذاب الموعود به أن كل نفس ظلمت بالكفر ولو كانت تملك كل ما فى الأرض لقدمته فداء لها من العذاب ولكنه لايقبل منها كما فى الآية (٩١) من سورة آل عمران صفحتى ٧٧، ٧٨. وأسر الظالمون حسرتهم وندمهم ولم يستطيعوا النطق بها لشدة مادهاهم العذاب، انظر الآية (٤٥) من سورة الشورى صفحة ٦٤٥، وعندما يسمعون قوله تعالى ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ الآية (١٠٨) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٥، وانظر آيتى (٣٥، ٣٦) من سورة المرسلات صفحة ٧٨٥.

ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم(١) مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا(٢) قُلْ ءَآللَّهُ(٣) أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ(٤) إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟(٥) مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ(٦) وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا

المفردات: ـ ﴿ألا﴾: حرف تنبيه لأهمية مابعده كما تقدم. ﴿موعظة﴾: هى الوصية بالخير والبعد عن الشر بأسلوب مؤثر. ﴿الصدور﴾: المراد بها هنا القلوب. ﴿وهدى﴾: إلى طريق الحق المستقيم.

﴿ما أنزل الله لكم من رزق﴾: الإنزال هنا معناه الخلق والإيجاد كما فى الآية (٦) من سورة الزمر صفحة ٦٠٦، والآية (٢٥) من سورة الحديد صفحة ٧٢٣.

﴿فى شأن﴾: الشأن هو الأمر المهم.

المعنى: ـ وقضى الله تعالى بين جميع الخلائق بما فيهم هؤلاء العدل، فلا يظلم أحدا مثقال ذرة، ثم أقام سبحانه الدليل على قدرته على إنجاز وعده وتنفيذ أحكامه فقال: ﴿ألا إن لله﴾ إلخ؛ أى أن جميع العالم خاضع لتصرفه، فليتنبه الغافلون إلى أن كل ما وعد الله تعالى به على لسان رسله حق واقع، لأنه وعد المالك القادر، ولكن أكثر الناس لايعلمون ذلك بإنكارهم البعث والجزاء، أو كأنهم لايعلمونه لإهمالهم ماينجيهم من هول هذا اليوم، والله وحده هو الذى يحيى ويميت، وإليه ترجعون جميعا يوم القيامة، فاحذروه. وبعدما أقام سبحانه البراهين على أصول العقائد وهى التوحيد والرسالة والبعث، أراد أن يبين فضله فى إرشاد الناس إلى أصول الفضائل العملية فقال مخاطبًا جميع

(١) ارأيتم.
(٢) حلالا.
(٣) ء الله.
(٤) القيامة.
(٥) تتلو.
(٦) قرآن.

المكلفين: يأيها الناس قد جاءكم كتاب جامع لكل ما فيه سعادتكم من مواعظ حسنة لإصلاح الأخلاق والأعمال مع الترغيب فى فضل الله عز وجل والترهيب من عذابه، وشفاء لأمراض قلوبكم من الشرك والنفاق والحقد وحب الشر، ومبين لطرق الخير والشر، لتتجنبوا مايضركم كما فى الآية (٣) من سورة الإنسان صفحة ٧٨١، وجالب الرحمة للمؤمنين لأنهم هم الذين ينتفعون به. ثم أمر نبيه ﷺ أن يبلغ المؤمنين أنه يحق لهم الفرح بفضله عليهم فقال تعالى: قل لهم ليفرحوا بفضل الله عليهم بهذا القرآن وبرحمته تعالى حيث جعلهم من أهله ووفقهم للعمل بما فيه، فبذلك فقط فليفرحوا؛ فالمراد إن كان فى الدنيا شىء يستحق أن يفرح به فهو فضل الله تعالى ورحمته؛ لأن ماذكر من الفضل والرحمة أنفع من كل مايجمعونه من الذهب والفضة وسائرمتاع الدنيا، انظر من الآية (١٤ إلى ١٧) من سورة آل عمران صفحتى ٦٤، ٦٥. ثم أراد سبحانه أن يوبخ المشركين على مقابلتهم نعمه عليهم بالكذب عليه سبحانه، فقال قل لهم أيها النبى: خبرونى عن هذا الرزق الذى أفاضه الله تعالى عليكم من فيضه الأسمى فجعلتم بعضه حراما وبعضه حلالا كما فى الآية (١٠٣) من سورة المائدة صفحة ١٥٧، ومن الآية (١٣٦ إلى ١٥٠) من سورة الأنعام صفحات من ١٨٥ إلى ١٨٩. ثم شدد التوبيخ بتكرير الأمر فقال: قل لهم: هل الله أذن لكم فى هذا التقسيم بوحى من عنده؟ كلا بل أنتم على الله تفترون لأنه لم يوح إليكم بذلك. ثم بيَّن سبحانه هول ما سيلقونه يوم القيامة بعد ثبوت افترائهم فقال: ﴿وماظن﴾ إلخ؛ أى: أى شىء يظن المفترون؟ هل يظنون أنهم يتركون بغير عقاب؟ كلا بل سيعاقبون أشد العقاب. تالله إن الله لذو فضل على الناس فى كل ماخلقه لهم من رزق وكل ما شرعه لهم ليبيّن لهم طريق الخير ولكن أكثرهم لايشكرون هذا الفضل بل يقابلونه بالكفر والعصيان، انظر الآية (١٣) من سورة سبأ صفحة ٥٦٤. وبعد ما ذكّر سبحانه عباده بفضله ومايجب عليهم من شكره أتبع ذلك بتذكيرهم بإحاطة علمه بكل شئونهم وأعمالهم كبيرها وصغيرها، فخاطب أشرافهم فقال: وما تكون أيها النبى فى أمر من أمورك المهمة التى تعالج بها شئون أمتك، وماتتلو لأجل ذلك من قرآن، ثم عمم الخطاب لكل الأمة فقال: ولاتعملون من عمل من خير أو شر إلا كنا عليكم شهودا...

عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

المفردات: . ﴿تفيضون فيه﴾: الإفاضة الاندفاع فى الشىء بقوة. ﴿يعزب﴾: أى يغيب. ﴿ذرة﴾: هو الجزء الذى بلغ من الصغر أقل مقدار يتخيله البشر، وانظر ماتقدم عن ابن عباس فى الآية (٤٠) من سورة النساء صفحة ١٠٧. ﴿ألا﴾: حرف تنبيه كما تقدم مرارًا. ﴿أولياء الله﴾: جمع ولى وهو يطلق على المتولى أمر غيره بالرعاية، والولاية كما تكون بين المؤمنين بعضهم مع بعض تكون بين المنافقين والكفار كذلك، انظر الآية (٥١) من سورة المائدة صفحة ١٤٧، و الآية (٧١) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣، وكما تكون بين الله وعباده الصالحين تكون بين الشيطان وأتباعه الأشقياء، انظر الآية (٢٥٧) من سورة البقرة. فأولياء الله هم الذين والوا ربهم بالطاعة، ووالاهم سبحانه بالعون والتوفيق، وقد بينهم سبحانه فى الآية الآتية بأنهم هم المؤمنون الأتقياء، وفى الآية (٣٤) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١ بيّن سبحانه أنه لا ولى له غير الأتقياء، فكل مؤمن تقى ولى، وتتفاوت ولايتهم بتفاوت تقواهم وإن نفى الخوف والحزن فى القرآن ثبت للمؤمنين الصالحين فى كل مكان، انظر الآيات (٣٨، ١١٢، ٢٦٢، ٢٧٧) من سورة البقرة صفحات ٩، ٢٢، ٥٥، ٥٦، ٥٩، والآية (١٧٠) من سورة آل عمران صفحة ٩١، والآية (٦٩) من سورة المائدة صفحة ١٥١، والآية (٤٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٩، وآيتى (٣٥، ٤٩) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٧، ٢٠٠، والآية (٦٨) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٤، والآية (١٣) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٧؛ ولا يحزنك قولهم أى بالطعن فيك بأنك ساحر أو كذاب أو مجنون إلى غير ذلك مما افتروه عليه ﷺ. ﴿العزة﴾: القوة والقهر. ﴿يخرصون﴾: أى يقدّرون بغير علم تقديرا باطلا كما تقدم فى الآية (١٤٨) من سورة الأنعام صفحة ١٨٨.

---

(١) كتاب. (٢) الحياة. (٣) لكلمات. (٤) الليل. (٥) لآيات.

المعنى: إلا كنا عليكم رقباء حين تفعلونه، فنحصيه عليكم ونحاسبكم عليه، ولايغيب عن علم ربك أيها النبى أقل شىء يوزن بذرة فى الوجود علويه وسفليه، ولا شىء أصغر من الذرة مما لاتبصرونه من دقائق الكون، انظر الآية (٣٩) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣ تعلم إعجاز القرآن حين أخبر بموجودات لم تكن تخطر على بال مخلوق فى ذلك العصر، فمن أين جاء بها محمّد الأمى إذا لم تكن من العليم الخبير؟ فكل المخلوقات ماصغر منها وما عظم مسجل فى كتاب تام البيان وهو اللوح المحفوظ.

وبعد ما ذكّر سبحانه عباده بفضله وأنه يحصى عليهم أعمالهم، أراد أن يبين ما سيكون للمتقين من حسن الجزاء فقال ﴿ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم﴾ مما يخاف منه أعداؤه سبحانه كالخذلان والإذلال، ولايحزنون فى الآخرة عند الفزع الأكبر، انظر الآية (١٠٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١. ثم بيّن سبحانه أولياءه بأنهم هم الذين آمنوا وداوموا على تقواه، ولهم البشرى فى الحياة الدنيا بإخبار الله فى كتابه كما فى الآية (١٥٥) من سورة البقرة صفحة ٣٠، وبما يريهم فى المنام مما يطمئنهم على حسن مصيرهم، وعند الموت باطلاعهم على مكانهم فى الجنة. انظر الآية (٣٠) من سورة فصلت صفحتى ٦٣٣، ٦٣٤، روى عبد الحى بن عماد المتوفى سنة ١٠٨٩ فى كتابه شذرات الذهب فى أخبار مَنْ ذهب بصفحة ٣١ أن بلال ابن رباح مؤذن رسول الله ﷺ لما حضرته الوفاة سمع امرأته تقول واحسرتاه فقال لاتقولى واحسرتاه بل قولى وافرحتاه غدًا يلقى بلال الأحبَّة محمَّدًا وصحبه؛ وكذلك فى الآخرة ببياض وجوههم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، لا تغيير لوعد الله، فليطمئن الأتقياء. ذلك المبشر به هو الفوز العظيم. ولما كانت الكثرة فى مكة مشركة وكانوا يؤذونه ﷺ بالباطل بما يحزنه كما فى الآية (٦) من سورة الحجر صفحة ٣٢٨، وماتقدمت الإشارة إليه فى الآية (٣٣) من سورة الأنعام صفحة ١٦٧، أراد سبحانه أن يسلى رسوله ويطمئنه بالنصر فقال: ولا يحزنك أيها النبى قولهم فيك لأن القوة والقهر كلها لله وحده وسينصرك عليهم، وهو السميع لما يفترون عليك، العليم بما يدبرون، وكيف لاينصرك وكل مَنْ فى السموات والأرض تحت تصرفه وحده. ومايتبع هؤلاء الكفار شركاء لله حقيقة حتى يرجوا منهم نفعا. ومايتبعون إلا ظنًا ووهمًا لا حقيقة له، وما هم فى اتباع هذا الوهم إلا يخبطون على غير هدى ، وكيف يكون له سبحانه شركاء وهو وحده الذى جعل لكم الليل مظلما لتستريحوا فيه من تعب النهار، وجعل النهار سببا وممكنا من الإبصار أى مضيئا لتطلبوا فيه الرزق، انظر آيتى (١٢، ٥٩) من سورة الإسراء صفحات ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٧٢، وآيات (٧١، ٧٢، ٧٣) من سورة القصص صفحة ٥١٧. إن فيما ذكر لدلائل وبراهين على قدرة الله عز وجل لقوم يسمعون سماع قبول واعتبار.

يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ[1] هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ[2] بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ[3] فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ * وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ[4] إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ[5] اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ[6] وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ

المفردات : ـ ﴿إن عندكم من سلطان﴾ : إن حرف نفى، ومن مؤكدة لهذا النفى والسلطان: البرهان. (متاع فى الدنيا) : متاع خبر لمبتدأ مقدر مفهوم من سياق الكلام، والأصل ذلك الذى هم فيه من النعيم هو متاع فى الدنيا فقط.

﴿كبر عليكم مقامى﴾ : أى شق عليكم طول قيامى ومكثى بينكم ألف عام إلا خمسين أحذركم عقاب الله كما فى الآية (٢٥) وما بعدها من سورة هود صفحة ٢٨٧ ومابعدها والآية (١٤) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٢.

﴿فأجمعوا أمركم﴾ : يقال أجمع الرحيل مثلاً إذا عزم عليه عزمًا قويًا، انظر الآية (٦٤) من سورة طه صفحة ٤١١.

﴿غمة﴾ : أى خفيا يقتضى الحيرة والتردد.

﴿اقضوا إلىَّ﴾ : أى نفذوا ماتريدون إيصاله إلىَّ من الشر، انظر الآية (١١) من هذه السورة صفحة ٢٦٧.

﴿ولاتنظرون﴾ : أى ولا تمهلونى انظر الآية (٥٥) من سورة هود صفحة ٢٩٢.

﴿الفلك﴾ : انظر شرح الآية (١٦٤) من سورة البقرة صفحة ٣١.

المعنى: ـ بيَّن سبحانه هنا نوعًا آخر من كفر المشركين غير اتخاذهم أصناما هو زعمهم أن الملائكة بنات الله كما تقدم بيانه عند الآية (١١٦) من سورة البقرة صفحة ٢٣، واتفق معهم اليهود فقال بعضهم: العزير ابن الله، والنصارى فقالوا: المسيح ابن الله، فأبطل سبحانه هذا

(١) سبحانه. (٢) سلطان. (٣) متاع. (٤) ياقوم. (٥) بآيات. (٦) فنجيناه.

الزعم بقوله ﴿قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه﴾ أى تنزيها له عن هذا الباطل لأنه وحده هو الغنى عن كل ماعداه، وكل ما فى العالم علويه وسفليه مملوك له تعالى يفعل به مايشاء، وإنما يكون الولد لمَنْ يحتاج إليه، وتعالى الله عن الحاجة لمخلوق. وليس عندكم برهان على هذا الذى تفترون.

فالعجب منكم أن تقولوا على الله مالا تعلمون، بل ما قام الدليل على بطلانه. فقل لهم أيها النبى محذرا: إن الذين يفترون على الله الكذب لايفوزون بما يرغبون من النجاة من عذاب الله، ولايغتر أحد بما هم فيه فى الدنيا من نعيم زائل، فإنه تمتع قليل، وفى لحظات قليلة بالنسبة لنعيم الجنة الكثير الخالد ثم إلينا مرجعهم بالبعث، ثم نذيقهم شديد العذاب بسبب استمرارهم على الكفر.

ولما سبق فى الآيات (١٣، ١٤، ٣٩، ٤٧) من هذه السورة صفحات ٢٦٧، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤ أنه حذرهم من أن يحل بهم ماحل بمَنْ كفروا برسلهم من قبل، أراد أن يفصل بعض هذا الإجمال فقال: ﴿واتل عليهم﴾إلخ؛ أى اقرأ أيها النبى على هؤلاء المكذبين قصة نوح مع قومه وماحصل بينهم حين قال لقومه ياقوم إن كان شق عليكم طول قيامى فيكم ناصحًا ومذكرًا لكم بآيات الله فى خلقه لترجعوا عن الشرك فإن أردتم التخلص منى فإنى لا أعبأ بكم، لأنى لا أعول إلا على الله، فاعزموا على ماتريدون ومعكم شركاؤكم الذين اتخذتموهم من دون الله يساعدونكم، ثم لاتترددوا فيما عزمتم عليه، ثم نفذوا ما ترون إيصاله إلىَّ من الشر ولا تمهلونى لحظة إن استطعتم.

وهذا منه عليه الصلاة والسلام تحد لهم وتعجيز يدل على قوة إيمانه بربه. فإن توليتم بعد ذلك عن نصحى فلن يضرنى ذلك شيئًا لأنى ماسألتكم أجرًا على نصحى ولن أطلب أجرًا إلا من الله الذى أمرنى أن أكون من المنقادين لكل مايأمر به. فلما استمروا على تكذيبه ولم تنفعهم كثرة مواعظه التى جاء بعضها مفصلا فى سورة نوح نجاه الله ومَنْ آمن معه فى السفينة من الغرق.

وَجَعَلْنَٰهُمْ(١) خَلَٰٓئِفَ(٢) وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا(٣) فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ(٤) ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ(٥) فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ(٦) بِـَٔايَٰتِنَا(٧) فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ(٨) ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ(٩) عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ

المفردات: . ﴿خلائف﴾: جمع خليفة كما تقدم فى الآية (١٤) من هذه السورة صفحة ٢٦٧.

﴿نطبع﴾: انظر شرحها فى صفحة ٢٠٨.

﴿وملئه﴾: هم وجهاء قومه كما تقدم فى الآية (٨٨) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٦، ٢٠٧.

﴿لتلفتنا﴾: أى تصرفنا.

المعنى: وجعلنا الذين نجيناهم مع نوح يخلفون المكذبين فى عمارة الأرض، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا، فانظر أيها المخاطب العاقل بعين بصيرتك كيف كانت عاقبة الذين حذرهم رسولهم فلم يسمعوا. ثم بعثنا من بعد نوح رسلا مثله إلى أقوامهم كهود إلى عاد وصالح إلى ثمود وشعيب إلى قومه أهل مدين وجيرانهم أصحاب المؤتفكة كما تقدم فى الآية (٧٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣، فجاء كل رسول قومه بالبراهين الدالة على صدقه، فما كان المتأخر منهم ليؤمن بما كذب به آباؤه، لرسوخ عادة التقليد الأعمى فيهم، حتى طمست على قلوبهم، ومثل هذا الطبع على أتباع الرسل الماضين نطبع على قلوب المعتدين المتجاوزين حدود الحق رضوخا لشهواتهم كما تقدم فى الآية (٧) من سورة البقرة صفحة ٤.

ثم ذكر سبحانه قصة موسى وهارون مع فرعون وقومه فى الآية (١٩) ليبين أن علة الكفر بالأنبياء ترجع فى الأكثر إلى سببين: الأول التقليد الأعمى باتباع الآباء، والثانى الخوف على

(١) جعلناهم. (٢) خلائف. (٣) بآياتنا.
(٤) عاقبة. (٥) بالبينات. (٦) وملئه.
(٧) بآياتنا. (٨) الساحرون. (٩) ساحر.

الرياسة من أن تذهب من الزعماء إذا اتبعوا الرسول وصاروا كغيرهم من أفراد الأمة تأمل آية (٧٨) الآتية هنا، فقال: ﴿ثم بعثنا من بعدهم﴾ إلخ؛ أى من بعد أولئك الرسل موسى وهارون إلى فرعون وملئه أى وقومه كما فى الآيات (١٠، ١١، ١٢) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٠، والآية (١٢) من سورة النمل صفحة ٤٩٥، والآية (٥٤) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٢، مؤيدين بآياتنا المفصلة فى الآية (١٠٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٩، والآية (١٣٣) من نفس السورة صفحة ٢١٢، فأعرضوا عن الإيمان كبرا لرسوخهم فى الإجرام كما فى الآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥.

ثم فصل هذا الإجمال فقال ﴿فلما جاءهم الحق﴾ أى الآيات الدالة على أن ماجاء به موسى حق من عند الله أقسموا أن هذا الذى جاء به موسى سحر واضح، انظر الآية (١٠٩) من سورة الأعراف صفحة ٢١٠، والآية (٣٤) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٢، والآية (٣٦) من سورة القصص صفحة ٥١٢.

عند ذلك قال موسى مندهشا من جرأتهم على الكذب: أتقولون هذا القول الباطل للحق لما جاءكم وعرفتموه كما فى الآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥؟ ثم أنكر قولهم متعجبا فقال: أسحر هذا؟ أى هل هذا الذى ارتجفت من عظمته قلوبكم سحر والحال المعروف أن الساحر لايفلح ولايفوز بقهر خصمه، وقد رأيتم قوتى عليكم فلما غلبتهم الحجة لجأوا إلى التمويه على بسطاء الشعب فقالوا: ﴿أجئتنا﴾ إلخ، أى هل جئت ياموسى أنت وأخوك إلا لتصرفنا عما وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا وتكون لك ولأخيك كبرياء الرياسة الدينية وما يتبعها من رئاسة الملك فى أرض مصر كلها، ومانحن لكما مهما فعلتم بمصدقين ولامتبعين. وقال فرعون لجنوده: أحضروا لى كل ساحر راسخ العلم بالسحر. فلما جاء السحرة المطلوبون قال لهم موسى بعد أن خيروه فيمن يلقى أولاً كما فى الآية (١١٥) من سورة الأعراف صفحة ٢١٠...

أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ[1] وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ[2] أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ[3] إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[4] ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ[5] ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ[6] وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ

المفـردات: ـ ﴿على خـوف من فـرعـون وملئهم﴾: قال السيد رشيد رضا فى تفسير المنار جزء (١١) صفحة ٤٦٩ ﴿على خوف من فـرعـون وملئـهم أن يفـتنهم﴾ أى آمن هؤلاء الذرية على خوف من فرعون وملئهم أى كبار قومهم الجبناء المرائين فإن الملوك يستذلون الشعوب ويستعبدونهم بواسطة هؤلاء الذين يخـتـارونهم للرئاسـة على مَنْ دونهم. وقـال الألوسى: والمعنى أن هؤلاء الذرية من قـوم مـوسى آمنوا بموسى مع خـوفـهم من بطش فـرعـون، ومن وشـاية كـبـار قـومـهم الذين اسـتـعـبـدهم المال فـأعلنوا كـفـرهم بموسى ليحظوا عند فرعون بالرضى ويجمعوا تبعًا لذلك أموالاً طائلة كقارون ومَنْ تبعه انظر الآيات من (٧٦ إلى ٨٢) صـفـحـات ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩. ﴿أن يفـتنهم﴾ الفـتنة هى الابتـلاء الشـديد بالتعذيب والقتل وغيره كما تقدم فى الآية (٤٩) من سورة البقرة صفحة ١٠، والآية (١٩١) من نفس السورة صفحة ٣٧. ﴿لعال فى الأرض﴾: أى مستعل بالقهر والاستبداد انظر الآية (١٢٧) من سورة الأعراف صفحة ٢١١. ﴿لاتجعلنا فتنة﴾: أى لا تعذبنا وتخذلنا حتى لا يظن الكافرون أنهم على حق فيزدادوا كفرًا. ﴿أن تبوءا لقومكما﴾: التبوء: اتخاذ المباءة أى المسكن الذى يبوء إليه صاحبه أى يرجع، كما أن التوطن اتخاذ الوطن.

﴿قبلة﴾: قبلة الشىء مايقابله؛ قال سعيد بن جبير: أى اجعلوا بيوتكم متقابلة أى قريبا بعضها من بعض؛ وقال مجاهد والضحاك وغيرهما المراد اجعلوا بيوتكم مساجد وصلوا فيها قال ابن كثير وكان هذا والله أعلم عندما اشتد بهم البلاء من فرعون وقومه وضيقوا عليهم

(١) بكلماته. (٢) وملئهم. (٣) ياقوم. (٤) الظالمين. (٥) الكافرين. (٦) الصلاة.

فأمروا بكثرة الصلاة فى البيوت بعيدا عن عيون قوم فرعون لتساعدهم الصلاة على الصبر كما أمر بها المسلمون فى الآية (٤٥) من سورة البقرة صفحة ١٠، وانظر ماحل بهم من فرعون فى الآيات (١٢٧، ١٢٨، ١٢٩) من سورة الأعراف صفحتى ٢١١، ٢١٢.

المعنى: ـ فلما ألقوا حبالهم وعصيهم كما فى الآية (٦٦) من سورة طه صفحة ٤١١ قال لهم موسى: ماجئتم به هو السحر، لا ماجئت به أنا، وإن الله سيظهر بطلانه للناس ويذهب أثره بما أعطانى من المعجزة؛ لأنه سبحانه لابد أن يفسد عمل المفسدين بمحقه وإزالة أثره، ويثبت الحق ويقويه بقوله ﴿كن﴾، وبحججه التى يؤيد بها رسله ولو كره الطغاة المفسدون، انظر آيتى (٧، ٨) من سورة الأنفال صفحة ٢٢٧. ثم ألقى موسى عصاه فابتلعت حبالهم وعصيهم إلى آخر ما فى الآية (١١٧) من سورة الأعراف صفحة ٢١٠، فلما فشل سحرة فرعون أراد أن يغطى هذه الهزيمة أمام العامة فأمر بقتل مَنْ آمن بموسى وقال: ذرونى أقتل موسى أيضًا كما فى آيتى (٢٥، ٢٦) من سورة غافر صفحتى ٦٢٠، ٦٢١. عند ذلك دب الذعر فى قوم موسى فلم يصدقه أى يؤمن به ويتبعه إلا ذرية قليلة من بنى إسرائيل مع خوفهم من فرعون وملئهم أن يعذبهم ليردوهم عن إيمانهم، ولهم شبه عذر فى الخوف؛ لأن فرعون كان عاتيا مستبدا فى أرض مصر، وكان مسرفا فى تجاوز حدود العدل إلى الظلم الشديد. وقال موسى لمَنْ آمن من قومه بعد ما رأى خوفهم: ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه وحده اعتمدوا فإنه يكفيكم شر أعدائكم إن كنتم فى إيمانكم مستسلمين خاضعين بصميم قلوبكم، فإن شرط نفع الإيمان الرضا القلبى بالمؤمن به، أما إذا خالطه كره وحسد فهو الكفر بعينه، انظر الآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥. قالوا: على الله وحده توكلنا ياربنا لا تخذلنا فتجعلنا بذلك سببا فى زيادة كفر وعصيان الظالمين حيث يظنون أنهم هم المحقون ونحن المبطلون، ونجنا برحمتك من ظلم الكافرين وقلنا لموسى اتخذ أنت وأخوك لقومكما بيوتا فى مصر يلجئون إليها عند الخوف، واجعلوها أنتما وقومكما متجاورة ومتقابلة ليسهل تبليغهم ما به نجاتهم، وأقيموا الصلاة فى بيوتكم لتستعينوا بها على الشدائد. ولم يصح عن النبى حديث فى الجهة التى كانوا يصلون إليها. وبشر ياموسى المؤمنين من قومك بحفظ الله لهم من فرعون وملئه. وقال موسى بعد أن أعد بنى إسرائيل للخروج من مصر إعدادا دينيا بكثرة الصلاة، ودنيويا بالتجاور والتعاون ياربنا إنك آتيت إلخ...

فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا[1] فِى ٱلْحَيَوٰةِ[2] ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ[3] وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا[4] بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ[5] وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ[6] ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم[7] مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ[8] فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ

المفردات: ـ ﴿أطمس على أموالهم﴾: أصل الطمس إزالة أثر الشىء، والمراد هنا محقها.

﴿واشدد على قلوبهم﴾: أى قـو رباط القسوة على قلوبهم حتى يزدادوا طغيانا.

﴿وجاوزنا ببنى اسرائيل﴾: أصله تخطينا البحر بمصاحبتهم، والمراد جعلناهم يتجاوزونه بمقدرتنا. ﴿بغيا﴾: طغيانا.

﴿عدوا﴾ تعديا.

﴿ننجيك﴾: أى نجعلك على نجوة من الأرض وهى المكان المرتفع.

﴿ببدنك﴾: أى بمجرد جسمك الذى لا روح فيه ويقول الشيخ عبد الوهاب النجار إن آخر بحث يثبت أن فرعون موسى هو منفتاح بن رعمسيس من الأسرة ١٩. ﴿بوأنا﴾: أى أنزلناهم ﴿مبوأ صدق﴾: أى مكانا صالحا مرضيا.

المعنى: ـ إنك أعطيت فرعون وملأه ما يتزينون به من حلى وثياب وأثاث ومقادير كثيرة من أنواع الأموال، فلم يشكروا عليها بل جعلوها فى إضلال الناس وفتنتهم عن أسباب الهدى انظر شيئًا من ذلك فى شرح الآية (٨) من سورة القصص صفحة ٥٠٧، فكانت عاقبة هذا العطاء

(١) أموالا.
(٢) الحياة.
(٣) أموالهم.
(٤) وجاوزنا.
(٥) آلآن.
(٦) لغافلون.
(٧) ورزقناهم.
(٨) الطيبات.

الواسع أنهم استعانوا به على إضلال الناس عن سبيل الحق، انظر آيتى (٦، ٧) من سورة العلق صفحة ٨١٤.

ربنا أهلك أموالهم وشدد قسوة قلوبهم حتى لاينفعهم الإيمان إذا حصل منهم بعد مشاهدتهم العذاب. وإنما قال موسى هذا عند يأسه من إيمانهم النافع، كما طلب نوح ذلك فى الآيات من (٢١ إلى ٢٨) من سورة نوح صفحتى ٧٦٩، ٧٧٠. ولما كان موسى يدعو وهارون يؤمن، قال سبحانه: قد أجيبت دعوتكما، وسلط على قوم فرعون ماجاء فى الآية (١٣٣) من سورة الأعراف، فاستقيما على ما أنتما عليه من الدعوة إلى الله ولا تتبعان طريق الجهلة الذين لايثقون فى صدق وعد الله. ولما كان من دعاء موسى طلب النجاة وإهلاك فرعون قال سبحانه فى إجابة ذلك وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر، فلحقهم فرعون وجنوده للبغى عليهم والفتك بهم، فخاضوا البحر وراءهم حتى إذا شاهد فرعون الغرق قال آمنت بأنه لا إله إلا الرب الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المنقادين الخاضعين له. فقيل له على سبيل الإنكار والتوبيخ أتسلم الآن بعد فوات الوقت الذى يصح فيه الإيمان وهو الوقت الذى تكون فيه مختارًا تأمل الحياة، فهل تؤمن الآن وقت الغرغرة والحال أنك قد عصيت الله من قبل بالكفر به وكنت من المفسدين فى الأرض بالظلم، انظر الآية (١٨) من سورة النساء صفحة ١٠١. اليوم بعد موتك نلقى جسدك على ربوة من الأرض لتكون لِمَنْ يأتى بعدك عبرة ينزجر بها عن عصيان الله.

ثم عرض سبحانه بكفار قريش وغيرهم ممَنْ لم يعتبروا فقال: وإن كثيرا من الناس لغافلون عن آياتنا الدالة على انتقامنا ممَنْ يحارب رسلنا، انظر الآية (١٠٥) من سورة يوسف صفحة ٣١٩.

ثم أراد سبحانه أن يبشر المؤمنين بالنصر وينذر المشركين فقال: ﴿ولقد بوأنا﴾ إلخ، أى أسكناهم مكانا فاضلا فى جنوب بلاد السلام هو فلسطين، ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا فى أمور دينهم إلا من بعد علمهم بأحكام التوراة. وهذا توبيخ حيث جعلوا ماجاء ليحقق الوفاق سببا للخلاف، انظر ما تقدم فى الآية (٢١٣) من سورة البقرة صفحتى ٤١، ٤٢، والآية (٤) من سورة البينة صفحة ٨١٦.

جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[1] فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ[2] الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ[3] مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ[4] اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ[5] ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا[6] إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ[7] الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ[8] إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ[9] مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ

المفـردات: ﴿الكتـاب﴾: المراد جنسـه، فيشمل التوراة والإنجيل.

﴿الممترين﴾: الشاكين.

﴿حقت عليهم كلمة ربك﴾: أى قضاؤه عليهم بالعذاب.

﴿فلولا﴾: حرف أصل معناه الحث على مابعده وهو هنا مشرب بالتوبيخ لأن الحث هنا لايفيد لأنهم ماتوا.

المعنى: إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما اختلفوا فيه، فيميز المحق بالثواب، ويجزى المبطل بالعقاب.

أراد سبحانه أن يعرض بكفار مكة على عدم إيمانهم مع وضوح الحجة فقال موجها الخطاب للنبى ﷺ: فإن كنت على سبيل الفرض فى شك مما أنزلنا إليك فى قصة نوح وموسى وماحصل لقومهما فاسأل علماء اليهود والنصارى، لقد جاءك الحق الواضح الذى لاشك فيه من ربك، فلا تكونن من المترددين، بل استمر على ماأنت عليه من اليقين. ثم أكد

(١) القيامة.
(٢) فاسأل.
(٣) الكتاب.
(٤) بآيات.
(٥) الخاسرين.
(٦) إيمانها.
(٧) الحياة.
(٨) ومتعناهم.
(٩) لآمن.

التعريض بالمشركين بقوله: ﴿ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين﴾ فى الدنيا والآخرة.

ولما كان ﷺ رحيم القلب يؤلمه بقاء قومه على الكفر ويطمع فى هدايتهم، أراد سبحانه وهو العليم بما فى قلوبهم أن يعلمه حقيقتهم فقال: ﴿إن الذين حقت عليهم﴾ إلخ؛ أى أعلم أيها النبى أن الذين ثبت عليهم الحكم من ربك بالعذاب لايؤمنون أبدا ولو جاءتهم كل معجزة مما اقترحوه وغيره حتى يروا العذاب الأليم بأعينهم، وعند ذلك لا ينفعهم إيمانهم لأنه اضطرارى لا اختيار لهم فيه، فهو كإيمان فرعون عند الغرق المتقدم.

وسبب ذلك رسوخهم فى الكفر والطغيان، فختم على قلوبهم كما فى الآية (٧) من سورة البقرة صفحة ٤.

فلولا كان أهل قرية من أقوام الرسل السابقين الذين أهلكهم الله بالعذاب آمنت بمجرد دعوتهم وإقامة الحجة وقبل معاينة العذاب فكان ينفعها إيمانهم ولاتعذب، أى لم يؤمن قوم منهم فى حال الاختيار فهلكوا؛ لكن قوم يونس لما آمنوا قبل وقوع العذاب عندما شعروا بمقدماته وأماراته وإن كانوا غير قاطعين به كشفنا عنهم عذاب الذل والهوان فى الدنيا، ومتعناهم بالحياة ومنافعها إلى حين انقضاء أعمارهم الطبيعية، وفيه تحذير لأهل مكة وتنبيه لهم ليختاروا لأنفسهم انهلاك كقوم نوح وفرعون، أوالنجاة كقوم يونس.

ولو شاء ربك أيها النبى أن يجعل الناس كلهم مؤمنين جبرا عنهم بجعلهم كالملائكة، وبهذا يتغير نظام هذا العالم ونظام الآخرة ولايكون هناك نار ولاعذاب، ولكنه سبحانه أراد أن يكون المكلف مختارا كما تقدم بيان ذلك فى الآية (١٠٧) من سورة الأنعام صفحة ١٨٠، والآية (١٧٨) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢، وإذا كان الأمر كذلك فهل تريد أنت أيها النبى أن تكره الناس على الإيمان حتى يكونوا كلهم مؤمنين؟ هذا مستحيل لأنه ليس فى قدرتك.

إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ

المفـــردات: ـ ﴿الرجس﴾: أصل الرجس الشىء المستقذر حسا كالميتة، انظر الآية (١٤٥) من سورة الأنعام صفحتى ١٨٧، ١٨٨؛ أو معنى كالميسر، انظر الآية (٩٠) من سورة المائدة صفحة ١٥٥، ويطلق على الكفر كما فى الآية (١٢٥) من سورة التوبة صفحة ٢٦٤؛ وعلى الكافر كما فى الآية (٩٥) من سورة التوبة أيضًا صفحتى ٢٥٨، ٢٥٩ وعلى العذاب المترتب على الكفر كما فى الآية (٧١) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٣، ٢٠٤؛ ومنه ماهنا. ﴿النذر﴾: جمع إنذار، وهو التحذير من الوقوع فى شر.

﴿أيام﴾: يطلق على الوقائع فيقال أيام العرب، والمراد ما وقع بينهم من حروب، فالمراد هنا ماحل بالذين مضوا، انظر الآية (٥) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٠.

﴿خلوا﴾: أى: مضوا.

﴿أقم وجهك للدين﴾: أصله حول وجهك للدين فقط؛ والمراد وجه نفسك بالكلية إلى عبادة الله تعالى وحده.

﴿حنيفا﴾ أى مائلا عن الباطل إلى الحق.

المعنى: ـ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بالنظام الذى وضعه الله تعالى للنفوس من حرية الاختيار، وتيسيره لها ما تختار فى الآيات من (١٨ إلى ٢٠) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧؛ أى فلو أراد جبرها على غير الإيمان لما أمكن أن تؤمن، وإذا كان المكلفون لايخرجون عن

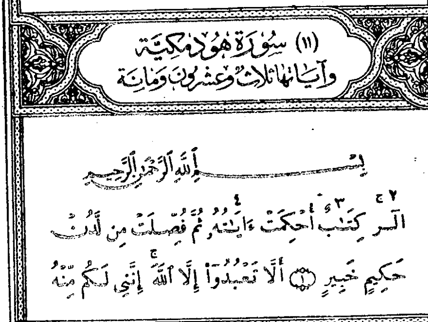
(١) الآيات. (٢) يتوفاكم. (٣) الظالمين.

هذا النظام فإنه سبحانه جعل الفوز الناتج عن الإيمان للذين يتدبرون فى أسرار كونه، ويجعل الخزى والخذلان على الذين يهملون عقولهم فلا يعتبرون، وإذا كان الأمر كذلك فقل أيها النبى لقومك الذين تحرص على هداهم: انظروا بعيون أبصاركم وبصائركم ماذا فى السموات والأرض من الآيات والعبر كما فى آيتى (٢٠، ٢١) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٣، وما تنفع الآيات والنذر فى دفع العذاب عن قوم صمموا على عدم الإيمان وتمكن منهم الحقد والحسد حتى طمس على قلوبهم، فهؤلاء لا ينتظرون من الله إلا مثل ما وقع لمَنْ كفر بأنبيائه من الأمم الماضية من الخزى والعذاب، فقل لهم أيها النبى منذرا ومهددا: انتظروا ما سيحل بكم إنى معكم من المنتظرين الواثقين بصدق وعد الله، وسنتنا فى رسلنا مع أقوامهم أنهم إذا بلغوهم وأقاموا الحجة وآمن بعض وكفر بعض أننا نهلك الكافرين وننجى رسلنا والذين أمنوا، وكهذا الإنجاء ننجى المؤمنين معك أيها الرسول ونهلك المكذبين، نعدك بهذا وعدا حقا علينا لا نخلفه.

قل أيها الرسول لقومك إن كنتم فى شك من ثباتى على دينى وترجون بكل مكايدكم تحويلى عنه فاعلموا أنى لا أعبد أحدًا ممَنْ تعبدونهم من دون الله، ولكن أعبد الله الذى يقبض أرواحكم بالموت، ثم يبعثكم ويجازيكم، ولا يقدر أحد مما تعبدون على أن يفعل ذلك، وأمرنى ربى أن أكّون من المؤمنين الذين وعدهم بالنجاة من عذابه، وأمرت بأن أقيم وجهى للدين؛ أى اجعل قلبى لا يلتفت لغيره حال كونى بعيدا عن الباطن، وأمرت أن لا أكون من المشركين العرب الذين يزعمون أنهم حنفاء على ملة إبراهيم، والحنيفية الصحيحة لا تجتمع مع الشرك بالله، وقال لى ربى أيضا: لاتّدع من دون الله مخلوقا لا ينفعك إذا لجأت إليه ولا يضرك إذا تركته، فإن دعوت غيره تعالى فقد دخلت فى زمرة الظالمين لأنفسهم الظلم الأكبر المبين فى الآية (١٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٠.

ثم أكد أن معبوداتهم لاتضر ولا تنفع، وأن ذلك لله وحده، فقال تعالى ﴿وإن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو﴾...

لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾



(١١) سُورَةُ هُودٍ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا ثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ وَمِائَةٌ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ

سورة هود

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات : . ﴿آلر﴾ : تقدم الحديث عن هذه الحروف المقطعة فى أول سورة البقرة.

﴿أحكمت آياته﴾ : أصل الإحكام إتقان البناء، والمراد أن آياته لا يعتريها خلل من مخالفة الواقع أو البعد عن الحكمة أو تناقضها أو نسخها بشرع آخر. ﴿ثم فصلت﴾ : فى النزول إلى سور وآيات وإلى مباحث شرائع وعقائد ومواعظ؛ وقسم نزولها على ٢٣ عاماً للحكمة المبينة فى الآية (٣٢) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٤.

﴿ألا تعبدوا .. إلخ﴾ : بيان لأعظم حكمة فى إحكام آيات القرآن وتفصيلها وهى عبادة الله وحده أى أحكمنا آياته وفصلناها لتتركوا عبادة غيره تعالى. ﴿إننى لكم منه نذير﴾ : على تقدير قول مفهوم من سياق الكلام قل أيها النبى إننى لكم منه نذير وبشير... إلخ وهذا الأسلوب كثير فى القرآن؛ انظر الآية (١٠٦) من سورة الأعراف صفحة ٨٠، والآية (٤٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٠، والآية (٢١) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٤، والآية (٢٠) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٩.

المعنى : . وإن يرد لك خيرا فلا أحد يستطيع رد فضله عنك، فهو وحده الذى يصيب بكل من الخير والضر مَنْ يشاء من عباده، ولولا مغفرته الواسعة وفضله ورحمته العامة لهلك جميع الناس بذنوبهم، ولكنه سبحانه يعفو لهم عن كثير، انظر الآية (٥٨) من سورة الكهف صفحة ٣٨٩، والآية (٤٥) من سورة فاطر صفحة ٥٧٨، والآية (٣٠) من سورة الشورى صفحة ٦٤٣. قل أيها النبى لكفار مكة : قد جاءكم الحق وهو القرآن وما اشتمل عليه، من ربكم لإنقاذكم من الضلال، فمَنْ اهتدى واتبع الحق فما نفع إلا نفسه، ومَنْ اختار الضلال فما ضر إلا نفسه، وما أنا بمهيمن عليكم فأكرهكم على الإيمان وأمنعكم بقوتى من الكفر والعصيان وإنما أنا بشير ونذير. فإن سمعوا فقد نجوا، وإلا فلا تسأل عنهم، واتبع ما يوحى إليك

(١) الحاكمين (٢) الِفْ لام را (٣) كتاب (٤) آياته.

نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

واصبر على إيذائهم وتكذيبهم حتى يحكم الله تعالى لك بالنصر عليهم، وهو خير الحاكمين، لأنه مطلع على السرائر فلا يخطئ أبدا.

هذا القرآن كتاب قدر إحكام آياته، ثم فصلت عند نزولها حسب المصلحة والحكمة وكل ما اشتملت عليه، من عند حكيم يعالج كل شيء بما يصلح له، خبير لا يفعل إلا الصواب. فقل لهم أيها النبى لا تعبدوا أيها الناس إلا الله إنى لكم من قبله سبحانه نذير.

المفردات : . ﴿إلى أجل مسمى﴾ : هو انتهاء أعمارهم. ﴿تولوا﴾ : أصلها تتولوا حذفت إحدى التاءين تخفيفا. ﴿ألا﴾ : حرف يدل على تنبيه السامع لما بعدها لأهميته. ﴿يثنون صدورهم﴾ : أى يطوونها على بطونهم من شده الكمد. ﴿يستغشون ثيابهم﴾ : أى يجعلون ثيابهم غشاء وغطاء لوجوههم. ﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها﴾ : الدَّب والدَّبيب الانتقال الخفيف البطىء كدبيب الطفل والشيخ المسن، والعقرب، ويطلق مجازا على سريان السُّكر والسّم فى الجسم، والفساد فى الأمة.

والدابة اسم عام يشمل كل نفس حيّة تدب على الأرض زحفا أو على قوائم، قال تعالى ﴿والله خلق كل دابة من ماء فمنهم مَنْ يمشى على بطنه ومنهم مَنْ يمشى على رجلين ومنهم مَنْ يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾ الآية (٤٥) من سورة النور صفحة ٤٦٥ وقوله تعالى ﴿يخلق ما يشاء﴾ أى مما تعلمون ومما لا تعلمون، مما يكون على الأرض، أو يطير فى الهواء، أو يسبح فى الماء؛ وإطلاق دابة على ما يركب من الخيل، والبغال، والحمير؛ عُرفٌ طارئ لا من أصل اللغة.

ورزق الدابة هو غذاؤها الذى تعيش به، ومعنى كونه على الله أنه سبحانه أوجب على نفسه

(١) متاعا (٢) كتاب (٣) السموات.

خلق هذا الرزق على الوجه الذى اقتضته حكمته. كما أوجب على نفسه الرحمة. كما فى الآية (٥٤) من سورة الأنعام صفحة ١٧٠، فالمعنى أن عليه سبحانه أن يخلق لها ما تتغذى به، وسخره لها، وهداها إلى طلبه وتحصيله، كما قال ﴿أعطى كل شىء خلقه ثم هدى﴾ الآية (٥٠) من سورة طه صفحتى ٤٠٩، ٤١٠ وقال ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ الآية (٢٠) من سورة الحجر صفحة ٣٣٩، وليس معنى الآية أن الله سبحانه وتعالى يوصل رزقها إلى جوفها من غير سعى منها، ولا يغرنك ما وقع فيه كثير من المفسرين من خطأ واضح حيث قالوا إن الرزق يصل إلى صاحبه ولو بدون سعى، وقال بعضهم لو فررت من الرزق لسعى وراءك، وغفل هؤلاء عن أن الله سبحانه قد وضع الأسباب والمسببات وقال ﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه﴾ الآية (١٥) من سورة الملك صفحة ٧٥٥. وقال ﷺ: (لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانا) فانظر إلى إشارته ﷺ إلى سعى الطير فى طلب الرزق بقوله تغدو خماصا أى تذهب فى أول النهار خالية البطون وتروح بطانا أى تعود شباعا. ولم يقل إن الله يضع لها رزقها فى فمها وهى نائمة، فالحديث أمر بالسعى فى طلب الرزق مع التوكل على الله ليسهل للطالب ما طلب، ولأن السعى لا ينافى التوكل قال ﷺ للأعرابى الذى قال عندما نزل عن ناقته هل أعقلها يا رسول الله أم أتوكل؟ قال له النبى صلوات الله عليه: (اعقلها وتوكل). وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: اعملوا فإن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة فالله، سبحانه وتعالى خلق الرزق وألهم الحيوان السعى لتحصيله وألهم الطفل والحيوان الصغير التقام الثدى مثلا، والكبير تناول طعامه بما هيأه له من يد أو منقار مثلاً. وقد يعاقب الله الفرد أو الأمة بالجوع حتى تموت إذا فرطت فى الأخذ بالأسباب المشروعة؛ ومنها عدم السعى أو عدم الانتقال من المكان القفر إلى المكان الذى فيه الرزق. فتكون عصت ربها فتدخل فى عموم قوله تعالى: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ الآية (٩٧) من سورة النساء صفحتى ١١٨، ١١٩، لأن ظلم النفس هو تعريضها لما فيه آلام التعذيب أو الهلاك بقى أن يقال وما الحكم فى الشيخ الهرم أو الطفل الضعيف، أو النساء المسنات، من كل مَنْ لا يستطيع تحصيل الرزق؟ والجواب أن كل هؤلاء مكلف

بتحصيل أرزاقهم إما الدولة أو الأقارب الأقوياء، أو المسلمون المقيمون بينهم. أما من أخذ حيطته، وأعد قوته الذى به حياته ثم أصابته مصيبة أهلكت قوته ولم يجد ما يعيش به كما إذا كان فى سفر مثلا ولم يجد قوتا ولا ماء حتى مات، فإن هذا وأمثاله ممَّنْ سبق قضاء الله عليهم بموتهم على هذه الصورة، بل إنه سبحانه إذا قضى على حى بالموت فإنه يحول بينه وبين طعامه ولو كان بين يديه، بل ولو وصل إلى حلقه، بل قد يكون الطعام نفسه هو سبب هلاكه وفى هذا الحال لا ذنب عليه. ﴿مستقرها﴾ : مكان استقرارها من الأرض. ﴿ومستودعها﴾ : المكان الذى كانت مودعة فيه قبل الاستقرار من أصلاب أو أرحام أو بَيْضَةٍ أو بيضة أو غير ذلك، وقد تقدم بعض معناها فى الآية (٩٨) من سورة الأنعام صفحتى ١٧٨، ١٧٩. ﴿كتاب مبين﴾ : هو اللوح المحفوظ.

﴿ستة أيام﴾ : لا يعلم مقدارها إلا الله تعالى كما بينا ذلك فى الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١؛ وانظر الآية (٥) من سورة السجدة صفحة ٥٤٥، والآية (٤) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥.

﴿عرشه على الماء﴾ : لا نعلم عن العرش إلا أنه مركز تدبير الملك كما تقدم فى الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١، والآية (٣) من سورة يونس صفحة ٢٦٥، و ﴿الماء﴾ هنا هو الماء الذى جاء فى حديث عمران بن حصين الذى رواه البخارى فى كتاب (بَدءُ الخلق)، وهو قوله (قال ﷺ كان الله ولم يكن شىء غيره وكان عرشه على الماء. وخلق السموات والأرض إلخ الحديث) وظاهر هذا الحديث يدل على أن الماء خلق قبل العرش وأنهما معا خلقا قبل كل شىء فهو ليس الماء المعروف لنا الآن قطعا ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة: (قلت: يا رسول الله أخبرنى عن أصل كل شىء فقال: كل شىء خلق من الماء) ولعل هذا الماء هو ما يعبر عنه علماء زماننا بالسديم ويقولون إن كل شىء يتحلل فإنه فى النهاية يرجع إلى هذه المادة السائلة. والله أعلم بأسرار خلقه.

﴿ليبلوكم﴾ : أى يختبركم.

المعنى : - إنى نذير لكم من جهته تعالى إن لم ترجعوا عن الشر، وبشير لكم بثوابه إن آمنتم، ولأن تستغفروا ربكم مما حصل منكم من شرك ومعصية ثم تتوبوا إليه من كل ما يعرض لكم فى المستقبل من ذنوب؛ إن تفعلوا ذلك يمتعكم فى الدنيا متاعا طيبا كما فى

الآيات (١٠، ١١، ١٢) من سورة نوح ٧٦٨، إلى أجل مسمى ومقدر عنده تعالى وهو انتهاء العمر المقدر لكم فى علمه، ويعطى كل ذى فضل من علم وعمل جزاء فضله فى الآخرة كاملا، وإن تتولوا عما دعوتكم إليه فإنى أتوقع لكم عذاب يوم كبير هوله وشدَّته، وهو يوم القيامة، وذلك لأنكم جميعا لابد راجعون إليه سبحانه بالموت والبعث، وهو قدير على كل شىء ومنه بعثكم وحشركم وتعذيبكم فاحذروا مخالفته. ثم بيَّن سبحانه ما كان منهم بعد كل هذه الإنذارات فقال: تنبه لحالهم عند سماع القرآن ترى هؤلاء الكافرين والمنافقين يحنون ظهورهم وينكسون رءوسهم كأنهم يحاولون طى صدورهم على بطونهم ليستخفوا منه ﷺ لئلا يرى آثار الحسرة والغيظ من سطوة القرآن على وجوههم وهذا هو شأن الكفار المعاندين مع رسل الله سبحانه انظر الآية (٧) من سورة نوح صفحة ٧٦٨.

(ألا): أى تنبه أيها السامع واعلم أن الله يستوى فى علمه سرهم وعلانيتهم حين يجعلون ثيابهم غطاء على وجوههم كراهة الاستماع لكلام الله كما فعل قوم نوح فى الآية (٧) من سورة نوح صفحة ٧٦٨؛ لأنه سبحانه عليم بأسرار الصدور وخواطر القلوب.

وبعد ما بيَّن سبحانه قدرته على كل شىء وأحاطة علمه، أراد أن يبين ما يهم الناس من آثار قدرته وعلمه وحكمة خلقه هذه الأجرام العظيمة فقال: وما من دابة من الدواب المشار إليها فى الآية (٤٥) من سورة النور صفحة ٤٦٥ إلا تكفل سبحانه برزقها وهداها لاكتسابه بغريزتها أو ما يهديها إليه العلم إن كانت من العقلاء بعد الأخذ فى أسبابه انظر الآية (١٥) من سورة الملك صفحة ٧٥٥، ويعلم مستقرها فى الأرض وقبل ذلك المكان الذى كانت مودعة فيه من أصلاب الرجال وأرحام النساء وغير ذلك كل واحد من الدواب وأرزاقها وأحوالها ثابت فى كتاب واضح ما فيه، انظر الآية (٣٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨. والله سبحانه هو وحده الذى خلق السموات والأرض وما بينهما كما فى الآية (٥٩) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٧، والآية (٤) من سورة السجدة صفحة ٥٤٥، فى ﴿ستة أيام﴾ وكان عرشه قبل خلقهما على الماء. وكيفية ذلك لا نعلمها كما قال سبحانه: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض﴾ الآية (٥١) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨. ثم بيَّن سبحانه بعض حكمته فى خلق ما ذكر مما يخص المكلفين المخاطبين بالقرآن فقال ﴿ليبلوكم﴾ إلخ؛ أى يجعل ذلك ابتلاء وامتحانا لكم فيظهر أيكم أحسن إتقانا لعمله كما فى آخر الأنعام. صفحة ١٩٢. وتالله لئن قلت للناس أيها النبى إنكم مبعوثون من بعد الموت للحساب والجزاء كما فى الآية (٣١) من سورة النجم صفحة ٧٠٢ لسارع الكافرون منهم لتكذيبك مؤكدين أن هذا القرآن الذى يقول بالبعث ما هو إلا كالسحر فى الخديعة والبطلان واللعب بالعقول.

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾

المفردات : . ﴿أمة﴾: اصل الأمة الجماعة المتجانسة كما تقدم فى الآية (٣٨٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨، والمراد هنا فترة: من الزمن، أى مدة كما فى الآية (٤٥) من سورة يوسف صفحة ٣١٠.

﴿ألا﴾ : حرف تنبيه كما تقدم.

﴿حاق﴾ : أى نزل وأحاط بهم.

﴿لعلك﴾ : المراد من لعل هنا الاستفهام المقصود به النهى.

﴿لولا﴾ : حرف يدل على طلب حصول ما بعده، انظر معانيها فى شرح الآية (٤٦) من سورة النمل صفحة ٥٠٠.

﴿أم يقولون﴾ : ﴿أم﴾ حرف يفيد الانتقال من كلام إلى كلام كحرف ﴿بل﴾.

المعنى : . بعد ما بيَّن سبحانه إنكارهم للبعث شرع فى بيان إنكارهم لما توعدهم به فى الآية (٣) من هذه السورة صفحة ٢٨٤ فقال:

ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى مدة قليلة فى حسابنا، وغرهم أنهم يرونه بعيدًا، انظر آيتى (٦، ٧) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥؛ يقول المنكرون استهزاءً وإنكارا: أى شىء يمنع هذا العذاب لو كان ما يقول محمَّد حقًا؟ ألا إن لهذا العذاب يوما محددا فى علمنا يأتيهم فيه، وحينئذ لا يستطيع مخلوق صرفه عنهم، وسيحيط بهم قطعا هذا العذاب إذا استمروا على الاستهزاء به رغم التحذير منه مرارا كما فى الآية (٣٩) من سورة يونس صفحتى ٢٧٢، ٢٧٣. ثم بيَّن سبحانه بعض أنواع أخبار الإنسان المتقدم فى الآية (٧) السابقة فقال ﴿ولئن أذقنا

(١) الإنسان (٢) نزعناها (٣) أذقناه
(٤) الصالحات (٥) افتراه (٦) مفتريات
(٧) صادقين.

الإنسان﴾ إلخ؛ أى ولئن أعطيناه بعض النعم رحمة منا كالصحة وسعة الرزق والولد، ثم لحكمه نزعناها منه بمرض وفقر وموت، يسرع إليه اليأس الشديد من الرحمة والسخط على قضاء ربه، ويتغلب عليه كفران نعم الله السابقة عليه والتى لايزال يتمتع بها، فيجمع بين الحرمان من الصبر والشكر. ولئن أعطيناه نعمة بعد ضر كشفناه عنه ليقولن ذهب ما كان يسوءنى ولن يعود، ويصير شديد الفرح الذى يربط قلبه بحب الدنيا، ومبالغا فى الفخر والتعالى على الناس فيشغله ذلك عن شكر الله، ويغفل عن أنه ربما يعود إليه ما كان فيه من المصائب فكان يجب أن يكون على حذر مراقبا ربه ليحفظه مما يسوءه، ولذلك طلب سبحانه من عباده أن يشكروه ليداوم عليهم نعمه، انظر الآية (١٥٢) من سورة البقرة صفحة ٢٩.

هذا هو الغالب فى طبع الإنسان كما فى سورة العصر، ولا ينجو منه إلا الصابرون على الشدائد إيمانا بالله وتسليما لقضائه وعملوا الصالحات شكرًا لله تعالى، وهؤلاء لهم مغفرة لما قد يكون لهم من ذنوب، وفى الآخرة أجر كبير من الجنة ورضوان الله تعالى. ولما كان ﷺ شديد الحرص على إيمان قومه، شديد الحزن على كفرهم إلى حد كان يضيق فيه صدره الشريف غما عليهم كما تقدم فى آيتى (٣٣، ٣٥) من سورة الأنعام صفحة ١٦٧، والآية (٢) من سورة الأعراف صفحة ١٩٢، والآية (١٢٧) من سورة النحل صفحة ٣٦٣، والآية (٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠، وكان مما يحزنه تعنتهم فى اقتراح معجزات لمجرد العناد، قال سبحانه: ﴿فلعلك تارك﴾ إلخ، أى هل يجول بخاطرك أيها النبى تأخير تبليغ بعض ما يوحى إليك مما يشق سماعه على المشركين كتوبيخهم على الشرك واحتقار آلهتهم خوفا من قبح ردهم واستهزائهم؟ وهل يضيق صدرك أحيانا خوفا من أن يقولوا لولا جاءه من الله كنز من غير تعب فينعم كالملوك وتنعم معه أو يجىء معه ملك يخبرنا بصدقه؟ لا، لا تحزن أيها الرسول فليس عليك إلا الإنذار والتبليغ لما يوحى إليك؛ ولماذا يضيق صدرك وأنت تعلم أن الله على كل شىء رقيب ومهيمن، وسيفعل بهم ما يستحقون، انظر مثل هذه الحالة فى آيتى (٧٣، ٧٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٤ بل يقول هؤلاء الكفار إن محمدًا افترى هذا القرآن من عند نفسه ونسبه لله. قل لهم إن كان الأمر كما تزعمون فافتروا وأنتم أرباب الفصاحة والبلاغة عشر سور مثله فى الإتقان وعدم الاختلاف مع كثرة تكرار القصة الواحدة والإخبار بالغيب وحكمة التشريع، واستعينوا بما يمكنكم الاستعانة به من الإنس والجن، كما فى الآية (٨٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦ إن كنتم صادقين فى دعواكم إنه كلام بشر.

فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾

المفردات : ﴿حبط﴾ : أى ذهب نفعه.

﴿بينة من ربه﴾ : أى حجة ونور بصيرة وهبها له ربه كما فى الآية (٢٢) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩.

﴿شاهد منه﴾ : هو القرآن.

﴿كتاب موسى﴾: هو التوراة.

﴿إماما﴾ : أى متبعا. ﴿الأحزاب﴾ : هم قبائل مكة وما جاورها الذين تحزبوا وتعاونوا على مقاومة دعوته ﷺ ﴿مرية﴾ : شك

﴿الأشهاد﴾ : جمع شاهد كأصحاب وصاحب، أو شهيد كأشراف وشريف، والمراد بهم الملائكة الحفظة والأنبياء كما فى الآية (٤١) من سورة النساء صفحة ١٠٧. ﴿ألا﴾ : حرف تنبيه كما تقدم مرارًا.

المعنى : فإن لم يستجب - لكم أيها المشركون - مَنْ تدعونهم لمساعدتكم لعجزهم فيجب أن تعلموا أنه ما أنزل إلا مقترنا بعلم غيره فلا يقدر عليه سواه. وإذا ثبت هذا فاشهدوا أنه لا إله إلا هو سبحانه.

وبعد انقطاع كل شبهة فيجب أن تدخلوا فى الإسلام. ثم أراد أن يبين سبب انصرافهم عن الحق وهو أنهم حصروا همهم من الدنيا فى شهوات أنفسهم، لا يلتفتون لما وراءها، فقال:

(١) الحياة
(٢) أعمالهم
(٣) وباطل
(٤) كتاب
(٥) الأشهاد
(٦) الظالمين.

﴿مَنْ كان يريد﴾ إلخ، أى بجميع أعماله فى الدنيا حتى ما كان منها فى صورة الإحسان التمتع بزينة الدنيا من زيادة النفع أو الثناء عليه يعطيهم الله ثمرات أعمالهم فى الدنيا من صحة وسعة رزق ورئاسة وأولاد، لا ينقصون شيئا من ثمرات أعمالهم فى الدنيا مع ما يحيط بها من منغصات لابد منها كما فى الآية (١٢٥) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣، والآية (١٢٤) من سورة طه صفحة ٤١٨، وفى الآخرة ليس لهم فيها إلا النار لذهاب فائدة ما صنعوا لأنه فى نفسه باطل لخلوه من نية التقرب إلى الله، كما فى آيتى ١٧، ١٨ من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧. ثم نفى سبحانه المساواة بين أصحاب النار وأصحاب الجنة فقال: أفمن كان يسير على نور بصيرة من ربه، ويقوى هذا النور شاهد عظيم من الله يشهد بصحة وصدق تلك البينة وهو القرآن، ومن قبل القرآن شاهد آخر هو كتاب موسى حال كونه إماما متبعا فى الهدى ورحمة لمَنْ آمن به وعمل بما فيه، أى أفمن كان عنده هذه الحجج الثلاث كمَنْ ليس له من الدنيا إلا المتعة الفانية؟ الحق أنهما لا يستويان؛ أولئك الجامعون بين البينة وبين شهادة الكتب السماوية يؤمنون بصحة كل ما جاء به محمَّد. ومَنْ يكفر به ممَنْ تحزبوا على رسولنا فليس له مكان إلا النار التى وعدناه بدخولها فى الآية السابقة، فلا تكن أيها السامع فى شك من هذا الوعد لأنه حق من ربك، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون لغلبة الشر عليهم، انظر الآية (١٠٣) من سورة يونس صفحة ٢٨٢. ثم أراد سبحانه أن يبين فى السبع الآتية حال كل فريق من الفريقين المذكورين فقال سبحانه : ﴿ومَنْ أظلم﴾ إلخ أى لا أحد أشد ظلما لنفسه ولغيره من الفريق الذى يفترى على الله شيئا من الكذب بأن ينسب إليه مالا يليق كالولد والشريك، وأنه لم يجعل من البشر رسولاً إلى غير ذلك، هؤلاء يعرضون يوم القيامة على ربهم لمحاسبتهم، ويقر الشهداء عليهم بأنهم هم الذين كذبوا على ربهم فيفضحونهم بهذه الشهادة المقرونة باللعنة، أى طلب حرمانهم من الرحمة، لأنهم استمروا على الظلم والشرك طول حياتهم.

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ

المفردات : . ﴿يبغونها عوجا﴾ : أصل المعنى يريدونها عوجاء لتوافق شهواتهم.

﴿معجزين فى الأرض﴾ : أى مفلتين من عقابه لعجزه.

﴿يضاعف لهم العذاب﴾ : أى يعذبون عذابا على ضلالهم وعذابا على إضلالهم غيرهم بصدهم عن سبيل الله قال تعالى ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ الآية (٨٨) من سورة النحل صفحة ٣٥٧، وكذلك الآية (٦٩) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٨.

﴿وضل﴾ : أى غاب.

﴿لا جرم﴾ : قال الخليل وسيبويه والفرَّاء وغيرهم أن ﴿لا﴾ و ﴿جرم﴾ يستعملها العرب كلمة واحدة ومعناها حَقَّ بفتح الحاء والقاف المشددة فعل ماض بمعنى ثبت وجملة ﴿أنهم فى الآخرة﴾ فاعل لهذا الفعل وهو حَقَّ. ونقل عن الخليل أيضا أنه قال ﴿لا﴾ حرف نفى وأن معنى التركيب ﴿لا جرم﴾ لابد ولا محالة من أنهم... إلخ ﴿أخبتوا إلى ربهم﴾: خشعوا له واطمأنت قلوبهم بالإيمان، انظر الآية (٥٤) من سورة الحج صفحة ٤٤١.

(١) كافرون
(٢) يضاعف
(٣) الصالحات
(٤) أصحاب
(٥) خالدون.

المعنى : . لعنة الله على الظالمين الذين يصرفون الناس عن الطريق الموصل إلى رضا الله، ويقصدون بصدهم عنها جعلها معوجة فى نظر الناس لينفروهم منها، والحال أنهم هم وحدهم الكافرون بالآخرة كفرا فظيعا، جعل كفر غيرهم كأنه عدم، أولئك الموصوفون بما ذكر لم يكونوا مفلتين من عقاب الله إذا أراد عقابهم فى أرض هذه الدنيا على سعتها، ولو تحصنوا فى بروج مشيدة، ولكن اقتضت حكمته أن يؤخر عقابهم للأجل الذى حدده، فإذا جاء فلن يكون لهم من دون الله مَنْ يتولاهم فيمنع عنهم عذابه، وحينئذ يضاعف لهم العذاب تجمع ما كانوا يستحقونه فى الدنيا على ما استحقوه فى الآخرة، وعلى جرائمهم المتعددة، لأنهم لشدة كفرهم صاروا يكرهون سماع القرآن كما فى الآية (٢٦) من سورة فصلت صفحة ٦٣٣، وما كانوا يبصرون آيات الله فى الكون الدالة على الحق وقدرته وتفرده بالملك وعلى عدله فى تصرفه فى الخلق؛ أولئك هم الذين خسروا أنفسهم حيث باعوها للشيطان بثمن بخس هو متاع الدنيا الزائل، فخلدوا فى الآخرة فى جهنم، وغاب عنهم ما افتروه من شفعاء يدفعون عنهم العذاب. ثبت حقا أنهم فى الآخرة أشد أهل النار خسرانا. ويقابل هؤلاء المشركين، الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وخشعت قلوبهم واطمأنت إلى قضاء ربهم، أولئك وحدهم هم المستحقون للجنة الخالدون فيها. مثل الكافر والمؤمن كالأعمى الذى يسير على غير هدى، والأصم الذى لا يسمع ما يدل على السلامة، وقوى البصر الذى يعرف طريق النجاة، وشديد السمع الذى يسمع كل نافع، هل يستوى الفريقان فى الصفة والحال؟ أتجهلون أيها المخاطبون هذا الفارق الواضح فلا تتذكرون ما بينهما من التباين؟ والمراد يجب أن تتفكروا لتعتبروا وتهتدوا.

ثم أراد سبحانه أن يسلى رسوله على ما يعانيه من قومه، ويحذر المشركين بما حصل لقوم نوح لما خالفوه من هلاكهم ونجاة المؤمنين، فقال: ﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه﴾ قائلا لهم إنى لكم نذير واضح الإنذار، بأن لا تعبدوا إلا الله؛ لأنى أخاف عليكم إذا أشركتم عذاب يوم شديد لما فيه من الألم.

أليم (٢٦) فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك(١) إلا بشرا مثلنا وما نراك(٢) اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين(٣) (٢٧) قال يا قوم(٤) أرأيتم(٥) إن كنت على بينة من ربى وآتانى(٦) رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون(٧) (٢٨) ويا قوم(٨) لا أسألكم(٩) عليه مالا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو(١٠) ربهم ولكنى أراكم(١١) قوما تجهلون (٢٩) ويا قوم(١٢) من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون (٣٠) ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا لمن

﴿رحمة﴾: المراد بها هنا النبوة.

﴿فعميت عليكم﴾ : أى خفيت.

المعنى : . قال زعماء الكفر من قوم نوح فى ردهم على نوح ﷺ : لا مزية لك علينا حتى نكون تابعين لك والحال أنه لم يتبعك إلا رعاع الناس من أول وهلة بلا فكر ولا روية، ولو فكروا

(١. ٢) نراك
(٣) كاذبين
(٤) يا قوم
(٥) أرايتم
(٦) وآتانى
(٧) كارهون
(٨) ويا قوم
(٩) أسالكم
(١٠) ملاقو
(١١) أراكم
(١٢) ويا قوم.

المفردات : . ﴿الملأ﴾: هم الزعماء.

﴿أراذلنا﴾ : جمع أرذل وهو الأشد رذالة كما فى الآية (١١١) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦، يقال رذل المرء بضم الذال كضخم وهو الخسيس الدون.

﴿بادى الرأى﴾ : أى فى الرأى أول ظهوره قبل البحث عن صحته.

﴿أرأيتم﴾ : أى أخبرونى.

﴿على بينة﴾ : أى نور بصيرة وحجة كما تقدم فى الآية (١٧) من هذه السورة صفحة ٢٨٦.

ما تبعوك، وما نرى لك أنت ومَنْ اتبعك أقل فضل تمتازون به علينا مع أننا أرباب المال والجاه، بل فضلا عن ذلك نظنكم كاذبين؛ أنت فى دعوى الرسالة، ومَنْ اتبعك فى دعوى أنهم صدقوك.

قال نوح يا قوم أخبرونى إن كنت على بصيرة من ربى أهلتنى لأن يعطينى ربى رحمة من فضله فحجب البينةَ عنكم جهْلكُم وغروركُم بالمال والجاه فلم تدركوا أنها هى السبب فى اختيار ربى لى رسولا لكم، هل نلزمكم اعتقادها جبرا والحال أنكم كارهون لها جحودا واستكبارا؟ انظر الآية (٧) من سورة نوح صفحة ٧٦٨.

أى هذا ما لا يمكن أن نفعله لأن العقائد لا تكون بالإكراه أبدا. ويا قوم لا أسألكم على تبليغ رسالة ربى مالاً، فما أطلب أجرًا على ذلك إلا من الله الذى أرسلنى.

ولما كان يؤخذ من كلامهم أنهم يستحسنون طرد العوام الذين اتبعوه، وأن الغنى والجاه هو المعول عليه فى كون الرجل عظيما، وأن الذين اتبعوه كاذبون فى تصديقهم له، وأن الرسول لا يكون إلا من الملائكة لا بشرًا، قال فى الرد على كل هذا ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾ عن معاشرتى لأجل احتقاركم لهم، لأنهم سيلاقون ربهم يوم القيامة فيشكوننى إليه إن طردتهم، فلا يكون لى جواب أنجو به من عقاب الله، ولكنى أراكم قوما تجهلون ما يصح أن يمتاز به الناس بعضهم عن بعض من اتباع الحق وعمل الخير، وتظنون أن الامتياز لا يكون إلا بالمال والجاه.

ويا قوم مَنْ يمنع عنى عقاب الله إن تركتهم وهم أولياؤه؟ أتصرون على جهلكم فلا تتذكرون أنَّ لهم ربا ينتقم لهم. ولا أقول لكم بادعاء الرسالة: إن عندى خزائن رزق الله أتصرف فيها كما أشاء، فأجعل مَنْ اتبعنى غنيا مثلكم، ولا أقول لكم إنى أعلم الغيب حتى أكشف عن قلوب مَنْ اتبعنى، ولم أدع أنى مَلَك من السماء حتى تردوا على بما نراك إلا بشرا، ولا أحكم على الفقراء من أتباعى بأن الله لن يؤتيهم خيرا فى الدنيا والآخرة إرضاء لشهواتكم؛ لأن الله هو الذى يعلم ما فى أنفسهم من إخلاص وغيره، إنى إذا قلت فيهم ما تحبون أكون من الظالمين لنفسى للقول بغير علم، وللمؤمنين بإنكار حقهم عند الله.

ٱلظَّٰلِمِينَ(١) ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ(٢) قَدْ جَٰدَلْتَنَا(٣) فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا(٤) فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ(٥) ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ(٦) قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى(٧) فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

المفردات : . ﴿بما تعدنا﴾ : أى ما فى الآية (٢٦) السابقة صفحتى ٢٨٧، ٢٨٨.

﴿معجزين﴾ : أى لا تعجزون الله إذا أراد عذابكم.

﴿يغويكم﴾ : أى يهلككم بالعذاب، انظر الآية (٥٩) من سورة مريم صفحة ٤٠٢.

﴿أم يقولون افتراه﴾ : أم حرف بمعنى ﴿بل﴾ التى تفيد الانتقال من جانب من الكلام إلى جانب آخر منه. قال ابن عباس المعنى بل يقول قوم نوح عنه أنه هو الذى افترى على الله سبحانه وتعالى كلَّ ما يأمرنا به وينهانا عنه.

﴿إجرامى﴾ : الجرم الذنب العظيم.

﴿لا تبتئس﴾ : أى لا يستول عليك البؤس أى الحزن.

﴿الفلك﴾ : السفينة والفلك يطلق على الواحد والجمع. ﴿بأعيننا﴾ : المراد بعنايتنا، انظر الآية (٣٩) من سورة طه صفحة ٤٠٨، والآية (٤٨) من سورة الطور صفحة ٧٠٠، والآية (١٤) من سورة القمر ٧٠٥. ﴿وكلما مَرَّ عليه ملأ﴾ إلخ: ﴿كل﴾ منصوب على الظرفية و ﴿ما﴾ مصدرية وقتية أى كل وقت مرورهم والعامل فى الظرف ﴿كل﴾ سخروا وهو يشبه الجواب لها، انظر الألوسى والمغنى، ومثلها كلما رزقوا من ثمرة رزقا، وهو تركيب كثير فى القرآن.

المعنى : . لما عجزوا عن مقاومة الحجة بالحجة لجأوا لمجرد العناد وقالوا يا نوح قد شرعت فى جدالنا وأطلت حتى مللنا ولم نعد نتحمل ذلك؛ فإن كنت صادقا فيما تقول فأت بهذا العذاب الذى تتوعدنا به. فقال: إن هذا بيد الله وحده لا قدرة لى عليه، فهو سبحانه

(١) الظالمين (٢) يا نوح (٣) جادلتنا (٤) جدالنا (٥) الصادقين (٦) افتراه (٧) تخاطبنى

الذى يأتيكم به إن شاء حسب حكمته، ولستم بمفلتين من عذابه إذا جاء، لأنه لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء. ولا ينفعكم نصحى مهما أحببت الخير لكم إن كان الله قدر هلاككم بالعذاب لعلمه بتصميمكم على الكفر والفساد، وانطماس قلوبكم حتى صارت لا تقبل حقا. والجملة على أسلوب (إن أحسنت إلىَّ أحسنت إليك إن قدرت) فالشرط الثانى قيد فى الجزاء الأول، وجزاء الثانى معلوم من المقام، هو سبحانه ربكم الذى يعلم ما فى قلوبكم، وسترجعون إليه فى الآخرة فيجازيكم بما تستحقون.

ولما كان الغرض من ذكر قصة نوح مع قومه هو تسليته ﷺ بما حصل لإخوانه النبيين قبله، وتهديد المشركين بما حصل لقوم نوح كما تقدم، أراد سبحانه أن ينبه السامع لسفاهة كفار مكة وسط قصة نوح تعجيلا لبعض الفائدة فقال: ﴿أم يقولون افتراه﴾ أى أن هذا القصص الحق الذى قصه الله تعالى عن نوح وقومه ما كان يعلمه أحد منهم كما سيأتى فى الآية(٤٩) الآتية من هذه السورة صفحة ٢٩١، فهل يصح أن يقول مشركو مكة قد افترى هذا الذى يحكيه عن نوح؟ قل لهم أيها النبى: إن كنت افتريته على الله فرضا فهو إجرام عظيم علىَّ إثمه، وبما أن هذا محال ممَّنْ يعلم فظاعة الكذب على الله فأنتم المجرمون وأنا برىء من إجرامكم ونظير هذا تقدم فى الآية (٤١) من سورة يونس صفحة ٢٧٣. ثم رجع سبحانه لقصة نوح فقال: ﴿وأوحى﴾ إلخ، أى أوحى الله إلى نوح ما يصرفه عن الطمع فى إيمانهم، فأعلمه بأنه لن يؤمن منهم بعد الآن إلا مَنْ سبق منه الإيمان قبل ذلك، فلا تحزن يا نوح بسبب ما فعلوه من تكذيبك وإيذائك، لأنا سننتقم منهم قريبا، واصنع السفينة التى أوحينا إليك بصنعها سننجيك عليها حال كونك ملحوظا بعنايتنا معلما بوحينا لك كيف تصنعها، ولا تخاطبنى فى شأن هؤلاء الظالمين بعد الآن بطلب رحمة أو تأخير عذاب، لأنه قضى عليهم بالهلاك غرقا. وشرع نوح يصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه وسألوه عما يصنع ويقول لهم أمرنى ربى أن أصنع بيتا يجرى على الماء ولم يكن هذا معروفا قبل ذلك استهزءوا به وضحكوا ورموه بالجنون، انظر الآية (٩) من سورة القمر صفحة ٧٠٥. ولما كان واثقا من وعد ربه قال: إن تسخروا منا بجهلكم، فأنا أيضا نسخر منكم، لكن بحق، فسوف تعلمون إلخ...

مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا[1] وَمُرْسَىٰهَآ[2] إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ[3] ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ[4] ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ[5] إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ[6] أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ[7] ﴿٤٤﴾

المفردات : . ﴿مقيم﴾ : دائم خالد.

﴿فار﴾ : ارتفع بقوة. ﴿التنور﴾ : هو ما يصنع فيه الخبز. ﴿زوجين﴾ : أى ذكر وأنثى. والعرب تسمى كل فرد لا يستغنى عن زميله زوجا، فيقال للمرأة زوج، ولزوجها زوج، انظر الآية (١٤٣) من سورة الأنعام صفحة ١٨٧، والآية (٤٥) من سورة النجم صفحة ٧٠٣.

﴿مجريها﴾ : جريانها. ﴿مرساها﴾ : إرساؤها عند وقوفها عن سيرها.

﴿فى معزل﴾ : أى مكان منعزل عما فيه نوح والمؤمنون معه.

﴿سآوى﴾ : سألجأ. ﴿أقلعى﴾ : كفى عن الأمطار. ﴿غيض الماء﴾: يقال غاض الماء ذهب، وغاضه الله أذهبه، فهو فعل لازم ومتعد، وما فى الآية من الثانى كأغاض. ﴿استوت﴾: استقرت ﴿الجودى﴾ : جبل بالموصل. ﴿بعدا﴾ : يقال بعد الشىء بكسر العين بعدا بضم فسكون إذا صار بعيدا لا يرجى عوده، ثم استعمل فى الهلاك وهو المراد هنا.

المعنى : . فسوف تعلمون مَنْ هو الذى يأتيه عذاب فى الدنيا يذله ويحل عليه فى الآخرة عذاب دائم، حتى إذا جاء وقت أمرنا بهلاكهم، ونبع الماء بقوة من جوف تنور إعلاما له بالاستعداد لركوب السفينة، ثم تتابع تفجر الماء من الأرض ونزوله من السماء كما فى آيتى

(١) مجريها
(٢) ومرساها
(٣) يابنى
(٤) الكافرين
(٥) سآوى
(٦) ويا سماء
(٧) الظالمين.

(١١، ١٢) من سورة القمر صفحة ٧٠٥؛ عند ذلك قلنا لنوح احمل فى السفينة من كل نوع من الحيوانات ذكرًا وأنثى، لتتناسل وتبقى أنواعها بعد الطوفان، واحمل فيها أيضا أهل بيتك جميعا إلا مَنْ سبق عليه حكمنا بهلاكه لكفره كامرأته وابنه، واحمل فيها أيضًا مَنْ آمن من قومك ولم يكونوا إلا عددا قليلا، لم يصح فى تحديد عددهم حديث عن النبى ﷺ. وقال نوح لأهله وللمؤمنين اركبوا فى السفينة حالة كونها بعناية الله وقدرته جريها ووقوفها، إن ربى واسع المغفرة لعباده، فلم يهلكهم جميعا بما وقع من بعضهم، رحيم بالمؤمنين سخر لهم ما به نجاتهم، فركبوا، وبينما هى تجرى بهم فى موج عظيم الارتفاع، وقبل تفاقم الخطر وانقطاع علاقة السفينة بالبر، رأى نوح ابنه فى معزل لم يركب معهم، فقال له: يا بنى اركب معنا ولا تبق مع الكافرين بعيدا عن السفينة، وإنما قال نوح هذا بعد ما نهاه الله تعالى عن طلب النجاة للكافرين كما فى الآية (٣٧) السابقة صفحة ٢٨٩ ظنا منه أن ابنه مؤمن، ولكنه فى الحقيقة كان منافقا يظهر لأبيه الإيمان ويخفى الكفر كأمه زوجة نوح كما فى الآية (١٠) من سورة التحريم صفحة ٧٥٣، فكان جوابه لأبيه: إنى سألجا إلى جبل يحفظنى من خطر الماء. قال نوح : لا شيء فى هذا اليوم العصيب يحفظ أحدا من أمر الله الذى قضى به هلاك الكافرين، لكن مَنْ رحمه الله من عباده يحفظه من الغرق. وبعد هذا مباشرة لجأ نوح إلى ربه بما سيأتى فى الآيات (٤٥، ٤٦، ٤٧) من هذه السورة صفحة ٢٩١، وبعد هذه الضراعة من نوح إلى ربه كان الماء قد ارتفع وكثر الموج حتى حال بينهما فكان ابنه من المغرقين. وبعد هلاك الجميع قال سبحانه للأرض أى أمرها أمر تكوين بأن تخفى ما عليها من الماء فى جوفها بقوة، وأمر السماء أن تكف عن الأمطار، فكان ما أراد، وغاض الماء، ونفذ أمر الله سبحانه بنجاة المؤمنين وهلاك الكافرين، واستقرت السفينة على الجودى، وقيل هلاكا وسحقا للقوم الظالمين أنفسهم بالكفر. وهل القائل هو الله عز وجل، أو ملائكته أو الجميع كما فى الآية (١٦١) من سورة البقرة صفحة ٣١ الله سبحانه وتعالى أعلم. وإنما قلنا إن طلب نوح نجاة ابنه مقدم على الغرق لأنه بعد غرقه تبين قطعا أنه ليس بمؤمن، لأن الله تعالى وعد نوحا بنجاة المؤمنين معه، وبالغرق لابد أن يعلم أنه ليس مؤمنا، فلا يصح أن يخاطب ربه فيه بعد أن نهاه عن ذلك فى الآية (٣٧) السابقة صفحة ٢٨٩.

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ (١) ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ (٢) إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ (٣) ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ (٤) مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٥) ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ (٦) مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٧) ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ (٨) ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ (٩) مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ (١٠) عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ (١١) لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ (١٢) ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

المفردات : ﴿عمل غير صالح﴾ : الأصل أنه عامل عملا غير صالح، ولشدة كفره جعله نفس العمل الطالح مبالغة، كما يقال فى الرجل الشرير إنه شر أى صاحب شر شديد.

المعنى : أن نوحا لما رأى ابنه فى خطر، وكان يظن أنه مؤمن كما تقدم، وكان الموج لم يحل بينهما نادى نوح ربه بما يأتى، وإنما قدم سبحانه حيلولة الموج وغرقه على هذا النداء لحكمة بلاغية هى تتميم القصة المبينة لوجه العبرة التى سيقت لها، وهى تسليته ﷺ، وتحذير المشركين من أن يحصل لهم مثل ما حصل لمَنْ كفر قبلهم. وبعد ما أتمها سبحانه أراد أن ينبه المسلمين لأمور مهمة وقعت فى حادث نوح وابنه منها أن الأنبياء إذا أخطأوا فى اجتهادهم يلامون لعظم منزلتهم، ومنها أن الإيمان والصلاح لا علاقة له بالوراثة والنسب، إذ لو كان بأحدهما لما كفر ابن نوح، ومنها أن الله تعالى يجزى الناس فى الدنيا والآخرة بأعمالهم لا بأنسابهم ولا يحابى أحدًا لأجل أبيه مهما كانت منزلة الأب، ومنها أنه لا يجوز أن يطلب العبد من الله شيئا إلا إذا كان عالما بجوازه، أما إذا جهل حكم الله فيه فإنه لا يجوز أن يطلبه من الله، ومن باب أولى إذا علم بحرمته، فقال سبحانه فى ذلك ﴿ونادى نوح ربه﴾ إلخ. المراد وقد كان نداء نوح ربه عقب امتناع ابنه من الركوب معه وتعرضه للخطر طالبا من الله أن ينقذه فقال: يارب إنك وعدتنى

(١) الحاكمين	(٢) يا نوح	(٣) صالح
(٤) تسألن	(٥) الجاهلين	(٦) أسألك
(٧) الخاسرين	(٨) يا نوح	(٩) بسلام
(١٠) وبركات	(١١) العاقبة	(١٢) يا قوم

بنجاة أهلى وابنى منهم فوفقه للركوب معنا لأن وعدك هو الحق الذى لا يتخلف وأنت أحسن الحاكمين حكما كما فى الآية (٥٠) من سورة المائدة صفحة ١٤٧، أى لا تنفذ جزاء عمل إلا بالعدل. ومراد نوح بهذا الثناء على الله استجلاب رحمته تعالى لينقذ له ولده. قال سبحانه: يا نوح إن ابنك هذا ليس من أهلك الذين أمرتك بأن تحملهم فى السفينة لينجوا، لأنه شَرٌّ صرف، حيث كان يخفى كفره، فولاية الإيمان بينك وبينه منقطعة، فكأنه ليس بينه وبينك نسب أصلا، انظر آيتى (٦٧، ٧١) من سورة التوبة صفحتى ٢٥٢، ٢٥٣، والآية (٢٨) من سورة يونس صفحتى ٢٧٠، ٢٧١. فلا تسألنى أن أجيبك فى قضاء شىء ليس لك بجواز طلبه علم، إنى أعظك أى أنهاك نهيا يصل إلى شغاف قلبك حتى لا تكون من الذين يسألون بغير علم. قال نوح يارب إنى أحتمى وأتحصن بك من أن أسألك بعد الآن ماليس لى به علم صحيح، وإن لم تغفر لى ما فرط منى وترحمنى بقبول توبتى أكن من الخاسرين. وبعد ذلك حال الموج بينه وبين ابنه فغرق مع الكافرين؛ قال محمد أبو السعود فى تفسير (إرشاد العقل السليم) فى قوله تعالى ﴿فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق﴾ إلى قوله تعالى ﴿قال يا نوح إنه ليس من أهلك﴾.. قال أبو السعود: لما كان دعاء نوح عليه السلام بتذكير وعده سبحانه مبنيًا على كون ابنه من أهله، نفى سبحانه أولاً كونه منهم بقوله ﴿إنه ليس من أهلك﴾ أى ليس منهم أصلاً لأن مدار الأهلية القرابة الدينية، ولا علاقة بين المؤمن والكافر؛ أو ليس من أهلك الذين أمرتك بحملهم فى الفلك لخروجه عنهم بالاستثناء ﴿إلا مَنْ سبق عليه القول﴾ وعلى التقديرين فليس ابنه من الذين وعد الله بإنجائهم، ثم علل عدم كونه منهم على طريقة الاستئناف التحقيقى بقوله تعالى ﴿إنه عمل غير صالح﴾ أصله أنه ذو عمل غير صالح فجعله نفس العمل مبالغة. وإيثار عمل غير صالح على فاسد إما لأن الفاسد بما يطلق على ما فسد ومن شانه أن يكون صالحا فلا يكون نَصًّا فيما هو من قبيل الفاسد المحض كالقتل والظلم.

وإما للتلويح بأن نجاة مَنْ نجا إنما هو لصلاحه. وقرأ الكسائى ويعقوب: إنه عَمِلَ غير صالح، أى عمل عملاً غير صالح، ثم فَرَّع سبحانه على كل ما تقدم نهى نوح عن سؤال إنجاء

ابنه لكنه جاء به عامًا ليندرج فيه ذلك ومثله فقال ﴿فلا تسألنى﴾ أى إذا وقفت على حقيقة الأمر فلا تطلب منى ﴿ماليس لك به علم﴾ أى مطلب لا تعلم يقينا أن حصوله صواب وموافق للحكمة والمصلحة، ويجوز أن يكون المعنى ماليس لك علم بأنه صواب أو غير صواب فيكون النهى واردًا على مشتبه الحال، ويعلم منه حال معلوم الفساد بالأولى؛ ثم قال أبو السعود : وهذا صريح فى أن نداء نوح عليه السلام ربه ليس استفسارًا عن سبب عدم إنجاء ابنه مع مسبق الوعد بإنجاء أهله، وابنه منهم كما قيل، نقول ليس استفسارا لأن النهى عن استفسار مالم يعلم غير موافق للحكمة، لأن عدم العلم بالشىء داع إلى الاستفسار عنه، لا إلى تركه، وهذا فى القرآن كثيرا ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ و ﴿يسألونك عن الأهلة﴾ و﴿يسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير﴾ إلى غير ذلك كثير.

وحينئذ يكون نداء نوح هذا دعاء منه لإنجاء ابنه حين حال الموج بينهما وكان يظن أنه لازال حيا لأن حيلولة الموج بينهما لا يستوجب هلاكه فضلا عن العلم به، فطلب من الله تقريب الفلك إلى المكان الذى فيه ابنه، أو يجعل الموج يطرحه فى السفينة مثلاً، ولم يكن ابنه مجاهرًا بالكفر كما تقدم وقصده الالتجاء إلى الجبل ليس نصًا فى الإصرار على الكفر لجواز أن يكون ذلك لجهله بانحصار النجاة فى الفلك وزعمه أن الجبل مثل الفلك؛ وإنما أخر سبحانه هذا الجزء من القصة لأن من سنته سبحانه أنه قد يأتى بنهاية القصة للتعجيل بالعبرة المقصودة منها ثم يأتى بباقيها بعد ذلك كما هنا.

وقال الزمخشرى فى توجيه لوم نوح عليه السلام: إن الله سبحانه قدم لنوح الوعد بنجاة أهله مع استثناء من سبق عليه القول منهم فكان على نوح أن يتنبه إلى أن فى جملة أهله مَنْ هو مستوجب للعذاب وأن كلهم ليسوا ناجين.

وما كان لنوح عليه السلام أن تخالطه شبهة عندما أشرف ابنه على الغرق فى أنه ممَنْ استثناهم الله عز وجل. فعوتب على أنه اشتبه عليه ما يجب أن لا يشتبه فيه خصوصا وهو الذى سأل إهلاك الكافرين جميعا فى الآية (٢٦) من سورة نوح صفحة ٧٦٩. فكان ينبغى له

أن يتنبه إلى أن الله سبحانه جعل المعنى المعتبر فى النجاة هو الإيمان لا القرابة، فكان المطلوب منه أن يفحص أفراد أهله ويتحرى أعمالهم، ولو فحص لأدرك أمارات نفاق ابنه من أنه لم يركب مع المؤمنين مع أنه سمع من أبيه أنه لا عاصم اليوم من أمر الله... إلخ؛ وفى هذه الحالة كان قد علم أنه ليس من المؤمنين. ولأنه عليه السلام لم يتحر يكون قد قصر وأولو العزم مؤاخذون على النقير والقطمير لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين كما يقولون.

وذهب الطوفان ورست السفينة على الجودى وقال سبحانه: يا نوح اهبط من السفينة أو الجودى إلى الأرض ممتعا بسلام منا فلا يؤذيك كافر بعد اليوم لأننا قضينا أن لا يبقى خالدًا فى الدنيا نسل لغيرك، اقرأ قوله تعالى: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ الآية (٧٧) من سورة الصافات صفحة ٥٩١، وبركات فى الرزق والنسل مغدقة عليك وعلى أمم سيتناسلون ممَّنْ معك، وممَّنْ معك أمم سنمتعهم فى الدنيا بمتعها دون سلام منا، ثم يمسهم منا فى الآخرة عذاب شديد الألم.

ثم أراد سبحانه أن ينبه الكفار إلى دليل صدق رسوله فقال: تلك القصة التى قصصناها عليك أيها النبى عن نوح وقومه هى من أخبار الغيب الماضية من زمن بعيد، نوحيها إليك، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا الوحى على هذا الوجه من التفصيل الدقيق، فاصبر على أذى قومك كما صبر نوح، فإن العاقبة لك كما كانت لنوح، لأنكما تتقيان الله فلا تفعلان ما يغضبه.

ثم شرع سبحانه فى ذكر قصة هود مع قومه للغرض الذى قصد من قصة نوح وقومه فقال: ﴿وإلى عاد﴾ إلخ؛ أى وأرسلنا إلى عاد الأولى أخاهم فى النسب والقومية هودا، انظر الآية (٥٠) من سورة النجم صفحة ٧٠٣، قال لهم وكانوا يتخذون من دون الله آلهة: يا قوم اعبدوا الله وحده لأنه ليس لكم إله حق غيره، وما أنتم إلا كاذبون عليه سبحانه فى جعلكم له شركاء يقربونكم إليه.

يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ

المفردات: ﴿فطرنى﴾: أى خلقنى على الفطرة السليمة. ﴿السماء﴾: المراد بها هنا المطر. ﴿مدرارا﴾: كثيرا. ﴿عن قولك﴾: ﴿عن﴾ هنا حرف يفيد أن ما بعده علة وسبب فى حصول لما قبله كما تقدم فى الآية (١١٤) من سورة التوبة صفحتى ٢٦١، ٢٦٢.

﴿لك بمؤمنين﴾: أى مصدقين كما فى الآية (١٧) من سورة يوسف صفحتى ٣٠٤، ٣٠٥. ﴿إن نقول﴾: ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى لا. ﴿اعتراك﴾: أى أصابك بعض آلهتنا بشر لسبك لهم ولمنعك الناس عن عبادتهم.

﴿لا تنظرون﴾: أى لا تمهلونى. ﴿من دابة﴾: ﴿من﴾ لإفادة النص على عموم ما بعده، و ﴿دابه﴾ هى كل ما دَبّ على وجه الأرض.

﴿آخذ بناصيتها﴾: أصل الناصية مقدم شعر الرأس، والأخذ به كناية عن القهر والإخضاع الذى لا مفر منه. ﴿إن ربى على صراط مستقيم﴾: أى أفعاله لا تجرى إلا على الحق والعدل. ﴿تولوا﴾: أصلها تتولوا حذفت إحدى التاءين تخفيفا.

المعنى: قال هود يا قوم لا أسالكم على تبليغ الرسالة أجرًا، فما أجرى إلا على ربى الذى خلقنى، فهل تغفلون عن ذلك فلا تعقلون أن مَنْ لا يطلب منكم أجرا لا يكون متهما فى قوله. ﴿ويا قوم استغفروا ربكم﴾ إلخ: تقدم بيانها فى الآية (٣) من هذه السورة صفحة ٢٨٤، فإن فعلتم ذلك وأنتم فى أشد الحاجة للمطر لعدم وجود أنهار فى أرضكم فإنه تعالى يرسل المطر عليكم كثيرا. ومما يدل على شدة حاجتهم إلى المطر فرحهم بما ظنوه سحابا، وإذا هو العذاب، انظر الآية (٢٤) من سورة الأحقاف صفحتى ٦٦٩، ٦٧٠، ويزدكم قوة إلى قوتكم التى

(١) يا قوم (٢) أسالكم (٣) ويا قوم (٤) ياهود
(٥) آلهتنا (٦) اعتراك (٧) آخذ.

تفخرون بها، أنظر الآية (١٥) من سورة فصلت صفحة ٦٣١، وهذه القوة التى جعلتهم جبارين، انظر الآية (١٣٠) من سورة الشعراء صفحتى ٤٨٧، ٤٨٨، فاسمعوا نصحى، ولا تعرضوا عما أطلبه منكم حال كونكم مصرين على إجرامكم وكفركم، فما كان لهم رد إلا العناد والمكابرة بإنكار ما قدم لهم من الآيات الدالة على صدقه، فقالوا تبجحا فى الكذب : يا هود ما جئتنا ببينة. وهذا هو شأن الكفار مع كل نبى.

يتعامون عن الأدلة القاطعة ليوهموا ضعاف العقول أنهم على حق، انظر الآية ٥٩ الآتية فى هذه السورة صفحة ٢٩٣، وما قاله كفار مكة لنبينا ﷺ الذى جاءهم بأكبر المعجزات فى الآية (٣٧) من سورة الأنعام صفحة ١٦٧، والآية (٢٠) من سورة يونس صفحتى ٢٦٨، ٢٦٩، وقد روى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (ما من نبى إلا أوتى من المعجزات ما يصح أن يؤمن به البشر). أنظر الحديث وشرحه فى كتابنا صفوة البخارى وقال ابن تيمية فى مجموعة تفسيره لِستٍّ سور من قصار المفصل أولها ﴿الأعلى﴾ وآخرها سورة ﴿الكافرون﴾ قال فى صفحة ١٧٥ إن بينة صالح كانت مبصرة ﴿أى ظاهرة مُحَسَّة﴾ وهى الناقة، أما بينة هود فكانت عقلية غير مُبْصَرَة بالعيون وهى التى أشار إليها بقوله: ﴿إنى أُشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون﴾ إلى قوله ﴿مستقيم﴾ ومن أعظم الآيات أن يخاطب رجل واحد أمة كبيرة تفخر بقوتها وشدة بطشها كما تقدمت الإشارة إلى ذلك فى الآية (١٣٠) من سورة الشعراء صفحتى ٤٨٧، ٤٨٨، والآية (١٥) من سورة فصلت صفحة ٦٣١ وقالوا: وما نحن بالذين يتركون عبادة آلهتهم لمجرد قولك مع أنك بشر مثلنا، وما نحن لك بمصدقين، وما نجد من قول نقوله إلا أن بعض آلهتنا غضب عليك فأصابك بجنون وخبل فصرت تقول ما لا يعقل. قال هود: إنى أشهد الله أنى برىء مما تشركون، واشهدوا أنتم أيضا بذلك، فإنى لا أبالى بكم ولا بآلهتكم، فكيدونى أنتم وآلهتكم إن استطعتم ولا تمهلونى لحظة واحدة. وهذا منه عليه السلام توبيخ وتعجيز لآلهتهم لو كانوا يعقلون، وإنما لا أبالى بكم لأنى وكلت حفظى وخذلانكم إلى الله مالك أمرى وأمركم والمتصرف فى كل حى يتحرك فى الأرض أو فى السماء، انظر الآية (٢٩) من سورة الشورى صفحة ٦٤٣، إن ربى فى كل أفعاله على الحق والعدل، فينصر المخلصين ويخذل المفسدين. فإن تتولوا ولا تطيعوا أمرى فقد ثبتت الحجة عليكم، وحق عليكم العذاب، لأنى بلغتكم ما أمرنى ربى تبليغه لكم، فإذا هلكتم فسيستخلف ربى فى الأرض قوما غيركم، ولا تضرونه شيئا ولو قليلا بعدم إيمانكم فإنه غنى عنكم، وهو على كل شىء حفيظ.

شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ
آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾
وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا
أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ
قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ * وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ
اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ
الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ
إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا
مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا
لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ
إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي

المفردات : . ﴿حفيظ﴾ : رقيب عالم بكل ما تعملون.

﴿جاء أمرنا﴾ : الأمر واحد الأمور، والمراد به العذاب.

﴿عذاب غليظ﴾ : أى شديد الفظاعة، انظر وصف هذا العذاب الغليظ فى آيتى (٤١، ٤٢) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٥، وآيتى (١٩، ٢٠) من سورة القمر صفحة ٧٠٦ وآيات (٦، ٧، ٨) من سورة الحاقة صفحتى ٧٦١، ٧٦٢. ﴿وتلك عاد﴾ : عبَّر عن ﴿عاد﴾ بلفظ ﴿تلك﴾ الموضوع للمؤنث باعتبارها قبيلة وأعاد الضمير عليها مذكرا فى قوله جحدوا وعصوا واتبعوا باعتبار أنها ﴿قوم﴾ انظر آخر الآية بعدها والآية (٨٦) الآتية من هذه السورة صفحة ٢٩٧.

﴿جحدوا بآيات ربهم﴾ : الجحود هو إنكار الشىء فى الظاهر مع العلم بأنه حق، انظر الآية (٣٣) من سورة الأنعام صفحة ١٦٧، والآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥ وجملة جحدوا وما بعدها بيان لبعض جرائمهم التى استحقوا بها الهلاك.

﴿وعصوا رسله﴾ : المراد أنهم بعصيانهم رسولهم كأنهم عصوا جميع رسل الله، كما يقول الكبير لِمَنْ أهان خادمه لا يصح أن تهين رجالى؛ وأيضا هم بنوا إنكارهم رسالته عن الله على أنه بشر مثلهم وعلى حَدِّ تعبيرهم لا يرسل الله إلا ملكا، وهذا المبدأ يستلزم إنكار رسالة رسل الله من البشر جميعًا، انظر إنكارهم هذا فى آيات:

(٢٧) من هذه السورة صفحة ٢٨٨، و (١٠) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣١، و (٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٠، و (٢٤) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٧، و (٣٣، ٣٤) من نفس السورة صفحتى ٤٤٨، ٤٤٩، و (١٥٤) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٩، و (١٨٦) من نفس السورة

(١) ونجيناهم (٢) بآيات (٣) القيامة (٤) صالحا (٥) يا قوم
(٦) يا صالح (٧) أتنهانا (٨) يا قوم (٩) أرأيتم.

صفحة ٤٤٩، و (١٥) من سورة يس صفحة ٥٨٠. ﴿جبار﴾ : هو القاهر الذى يجبر غيره على مالا يريد.

﴿عنيد﴾ : هو الطاغية الذى لا يخضع للحق مهما قوى دليله.

﴿واتبعوا فى هذه الدنيا لعنة﴾ : أى جعل الله اللعنة تابعة لهم فى الدنيا من كل مَنْ علم بجرمهم، وتلحقهم يوم القيامة من الأشهاد المتقدم ذكرهم فى الآية (١٨) من هذه السورة صفحة ٢٨٦. ﴿ألا﴾ : حرف تنبيه كما تقدم.

﴿مريب﴾ : أى مُوقع فى سوء الظن وقلق النفس.

المعنى : . إن ربى محيط بتصرفاتكم وسيجازيكم عليها. ولما نزل عذابنا بساحتهم نجينا منه هودا والمؤمنين معه بسبب رحمتنا لهم بالتوفيق للإيمان، والذى نجيناهم منه هو عذاب بالغ النهاية فى الشدة فى الدنيا بريح صرصر عاتية كما فى الآية (٦) من سورة الحاقة صفحة ٧٦١، وفى الآخرة بنار حامية، وتلك الأجسام الصرعى هى عاد الباغية التى كان بغيها أنهم كفروا بآيات ربهم وجحدوها وقالوا ما جئتنا ببينة كما تقدم، وعصوا رسل الله فى شخص رسولهم، لأنهم بنوا إنكار رسالته على أنه بشر مثلهم، وهذا يستلزم إنكار جميع الرسل. واتبع عوامهم فى هذا أمر كل جبار عنيد من رؤسائهم، فلحقتهم لعنة الله والناس أجمعين فى الدنيا والآخرة. ألا إن عادا جحدوا نعمة ربهم ولم يشكروها بالإيمان.

ألا بعدا لعاد وطردًا لهم عن رحمتنا، أى عاد قوم هود، وهى عاد الأولى، انظر الآية (٥٠) من سورة النجم صفحة ٧٠٣ لاعاد إرم ذات العماد الآتى ذكرها فى الآية (٧) من سورة الفجر صفحة ٨٠٦. وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا، وقد تقدم شىء عنهم فى آيات من سورة الأعراف، انظر الآية (٧٣) وما بعدها صفحة ٢٠٤؛ قال لهم يا قوم اعبدوا الله وحده لأنه ليس لكم إله حق غيره، وهو وحده الذى خلقكم من الأرض، ومكنكم من استعمارها والانتفاع بخيراتها، فاستغفروه من شركـكم، ثم ارجعوا إليه كلما وقع منكم ذنب، إن ربى قريبة رحمته منكم، انظر الآية (٥٦) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١، مجيب دعاء المخلصين، انظر الآية (١٨٦) من سورة البقرة صفحة ٣٦، قالوا يا صالح قد كنت فيما بيننا مرجوا للسيادة قبل هذا الذى تدعونا إليه من تبديل ديننا، فهل يصح أن تنهانا عن أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا من قبل، وإنا لفى شك مما تدعونا إليه من ترك التوسل بشفعائنا الذين يقربوننا إلى الله وتعظيم تماثيلهم، فنحن لا ندرى ماذا تريد، فإن قولك موجب للريب، أى سوء الظن وقلق النفس.

قال يا قوم أخبرونى إن كنت على بصيرة ويقين من ربى وآتانى من فضله النبوة والرسالة فمَنْ ينصرنى من الله إن خالفته؟...

مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ(١) هَٰذِهِۦ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ(٢) أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا(٣) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِىُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَٰرِهِمْ(٤) جَٰثِمِينَ(٥) ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا(٦) كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ(٧) بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَٰمًا(٨) قَالَ سَلَٰمٌ(٩) فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ(١٠) أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ

المفردات : . ﴿غير تخسير﴾ : أى غير أن تجعلونى خاسرًا بإبطال أعمالى وتعريضى لسخط الله سبحانه.

﴿آية﴾ : أى أن أحوالها معجزة تدل على كمال قدرة خالقها سبحانه وتعالى.

﴿ومن خزى يومئذ﴾ : أى من ذله وفضائحه التى لحقت الكفار فى هذا اليوم من سوء الذكرى ولعنة الله الأبدية.

﴿الصيحة﴾ : أصلها الصوت الشديد، وتقدم فى الآية (٧٨) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٥ أنها سميت فى بعض الآيات الرجفة والصاعقة.

﴿جاثمين﴾ : أى ساقطين على وجوههم.

﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ : كأن لم يكونوا موجودين قبل ذلك، انظر الآية (٢٤) من سورة يونس صفحتى ٢٦٩، ٢٧٠.

﴿ألا﴾ : حرف للتنبيه للعناية بما بعده.

﴿بعدا لثمود﴾ : طردا لهم عن رحمة الله كما تقدم قريبا. ﴿حنيذ﴾ : الحنيذ هو المشوى على الحجارة المحماة بالنار وهو أنظف المشويات من اللحوم. ﴿أيديهم لا تصل إليه﴾ : لا تمتد إليه للأكل منه.

(١) ويا قوم (٢) ثلاثة (٣) صالحا
(٤) ديارهم (٥) جاثمين (٦) ثمود
(٧) إبراهيم (٨) سلاما (٩) سلام
(١٠) رأى.

﴿نكرهم﴾ : يقال نكر الرجل غيره بوزن تعب، وأنكره إذا رأى منه شيئًا لم يعهده، وهذا الإنكار هنا لعدم الأكل غير الإنكار عند أول مقابلتهم لأنهم كانوا على صورة غير ما يعهدها من الناس، انظر الآية (٢٥) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٣. ﴿أوجس﴾: شعر فى نفسه خوفا منهم.

المعنى : . فمَنْ يمنعنى من عذاب الله تعالى إن عصيته بعدم تبليغ رسالته، فما تزيدوننى بحرصكم على ترك التبليغ إلا الوقوع فى الخسران بتقديم رضاكم على رضا الله سبحانه. ويا قوم هذه ناقة شرفها الله بنسبتها إليه لامتيازها دون الإبل بما تشاهدونه فى أكلها وشربها كما تقدم فى الآية (٧٣) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٤، وسيأتى فى الآية (١٥٥) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٩، جعلها الله لكم آية دالة على صدق ما أقول، فاتركوها تأكل وتشرب مما فى أرض الله، ولا يمسها أحد منكم بسوء لئلا يعمكم عذاب قريب، فبلغ من تجبرهم أنهم لم يكتفوا بمنعها من الأكل والشرب بل أقدموا على ماهو أفظع فقتلوها غير مبالغين بالوعيد، فضرب لهم صالح ثلاثة أيام فقط يتمتعون فيها بالحياة فى بلادهم ثم بعدها ينزل بهم الهلاك وقال لهم: ذلك وعد من الله غير مكذوب فيه.

فلما جاء أمرنا كما تقدم فى الآية (٥٨) من هذه السورة صفحة ٢٩٣. نجينا صالحا والمؤمنين معه من هذا الهلاك برحمة خاصة منا، ونجيناهم أيضا من خزى هذا اليوم وفضائحه التى ستبقى مدى الحياة. إن ربك أيها النبى هو القوى الغالب فسينجيك ويعذب قومك إذا أصروا على الكفر.

ثم أراد سبحانه أن يبين كيفية إهلاكهم فقال: ﴿وأخذ الذين ظلموا﴾ إلخ؛ أى أهلكهم بالصيحة لظلمهم فأصبحوا فى ديارهم ميتين لا حراك بهم كأنهم فى سرعة زوالهم لم يكونوا موجودين قبل ذلك. ألا إن ثمود كفروا نعمة ربهم، ألا بعدا لثمود، تقدم شرحها فى الآية (٦٠) من هذه السورة صفحة ٢٩٣. ولما كان المقصود من القصص فى هذه السورة هو ذكر أعمال الأمم مع رسلهم وما حل بهم كما تقدم عند الآية (٢٥) من هذه السورة صفحة ٢٨٧، وكان لوط ابن أخى إبراهيم عليهما السلام وآمن برسالة عمه لما كانا موجودين فى العراق، وبعدما نجى

الله تعالى إبراهيم من النار هاجر هو وابن أخيه لوط إلى الشام، فنزل إبراهيم بأعلى البلاد وهو الجزء المسمى الآن سوريا ولبنان وفلسطين، ونزل لوط فى قرى الجنوب، وهو المسمى الآن بشرق الأردن، وكانت عاصمتها سدوم القرية التى كانت تعمل الخبائث المشار إليها فى الآية (٧٤) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٨، وانظر الآية (٧١) من سورة الأنبياء أيضا صفحة ٤٢٧، والآية (٢٦) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤، والآية (٩٩) من سورة الصافات صفحة ٥٩٢، وأرسل الله تعالى لوطا إلى أهل هذه القرى؛ لما كان كل ذلك كان المقصود الأصلى فى هذا المقام هو قصة لوط وقومه، وإنما مرت الملائكة على إبراهيم فى الطريق ليعجلوا ببشارته بإنجاء ابن أخيه، وبولده بعد الكبر؛ لكل هذا غيَّر سبحانه أسلوب القصص السابق وقال: ﴿ولقد جاءت رسلنا﴾ أى من الملائكة إلى إبراهيم تحمل إليه البشرى بنجاة ابن أخيه وهلاك الكافرين وبالولد بعد الكبر، قالوا نسلم عليك سلاما، قال عليكم سلام.

ولم يمكث زمنا طويلا حتى قدم إليهم عجلا مشويا سمينا كما فى الآية (٢٧) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٤، فلما رآهم لا يأكلون خاف وقال لهم إنا منكم وجلون كما فى الآية (٥٢) من سورة الحجر صفحة ٣٤١. قالوا لا تخف... إلخ وهنا يجب أن نقف على قوله تعالى: ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى﴾ .. كرر القرآن هذه الحادثة فى ثلاث سور، هنا، وفى سورة الحجر صفحة ٣٤١، وفى الذاريات صفحة ٦٩٣. وبما أنها فى حادث واحد يجب أن تعلم أولاً أن القرآن ليس كتاب تاريخ يسرد الحوادث مرتبة حسب وقوعها، بل يذكر من الحوادث الجزء الذى فيه العبرة التى هى المقصد الأول من مقاصد القرآن، وإذا كرر القصة عدة مرات فإنه قد يذكر فى كل مرة مالم يذكره فى الأخرى، وقد يقدم بعض أجزاء الحادثة الواحدة على البعض الآخر لحكمة أرادها سبحانه فى المقام الذى ذكرت فيه القصة، ومما جاء فيه بعض حوادث القصة دون بعض، اعتمادًا على أن هذا البعض المتروك قد ذكر فى موضع آخر.

قصة مناجاة الله سبحانه وتعالى لموسى فى الطور أول إبلاغه أنه رسول الله إلى فرعون وقومه، فذكر سبحانه فى بعضها أنه قال لموسى ﴿وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء﴾ الآية (١٢) من سورة النمل صفحة ٤٩٥، وفى موضع آخر قال ﴿واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء﴾ الآية (٢٢) من سورة طه صفحة ٤٠٧ وبما أن الحادثة واحدة كما هنا فيجب أن يكون أصل الكلام أدخل يدك فى جيبك ﴿أى فتحة ثوبك العليا﴾ ثم أَمِلْ يدك إلى جنبك حتى تصل إلى تحت ساعدك ثم أخرجها تخرج بيضاء وعلى هذا يقال هنا أصل ترتيب القصة هو ما جاء فى سورة الحجر صفحة ٣٤١ وسورة الذاريات صفحة ٦٩٣ وحاصله أن الملائكة أول ما دخلوا على إبراهيم سلَّموا، فرد السلام، وقدّم إليهم الطعام، ولما رآهم لا يأكلون خاف منهم فأدركوا ذلك منه فأخبروه بحقيقتهم وأنهم ملائكة لا بشر وبشروه بغلام عليم.

فتعجّب من أن يولد له ولد وقد مسه الكبر، وكانت امرأته فى مكان قريب منه، فلما سمعت ذلك ضحكت سرورًا بسرور زوجها، فبشروها هى أيضا بأن هذا الغلام المبشر به إبراهيم سيكون منها هى، لا من زوجة أخرى، وأنه سيعيش إلى أن يولد له ولد، فأقبلت عليهم تصيح: كيف ألد وأنا امرأة عجوز؟ وإلى هنا لم يأت لقوم لوط ذِكْر، ولما اطمأن إبراهيم وسرّ بهذه البشرى، وأدرك أن لهؤلاء الملائكة مهمة أخرى غير ذلك، لأن الغالب فى مجرد البشرى أنه يكفى فيها مَلَك واحد كما حصل لنبى الله زكريا ولمريم عليهما السلام، انظر صفحتى ٣٩٦، ٣٩٧ لذلك قال: فما خطبكم أيها المرسلون؟ قالوا إن الله سبحانه أرسلنا لإنقاذ لوط وإهلاك المجرمين من قومه.. إلخ بقى أن يقال ولمَ قدم سبحانه الكلام على قوم لوط قبل البشرى فى سورة هود؟

الجواب: أن هذا التقديم هو فى الذكر فقط، لا حكاية للترتيب الأصلى، وإنما فعل ذلك سبحانه لأن المقام فى سورة هود يقتضى أن يذكر المهمة الأصلية أولاً، لأنها مكان العبرة الكبرى، والدرس الدائم لكل مَنْ تحدثه نفسه بعصيان ربه وتكذيب رسوله.

إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا(١) بِإِسْحَٰقَ(٢) وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ(٣) يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ(٤) ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ(٥) ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ(٦) عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ(٧) ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا(٨) فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ(٩) لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ(١٠) مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ(١١) أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ(١٢) عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ(١٣) ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ(١٤) هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ

المفردات: ﴿يا ويلتى﴾ : أصلها يا ويلتى بكسر التاء، وهى كلمة تقال عند المفاجأة بشىء غريب.

﴿عجوز﴾ : بلغت فوق التسعين سنة.

﴿شيخا﴾ : كانت سنه فى ذلك الوقت مائة عام لذلك تعجب بخلاف حاله عندما بشروه بإسماعيل انظر الآية (١٠١) من سورة الصافات صفحة ٥٩٢ فإنه لم يتعجب لأنه كان فى سن يولد فيها للإنسان عادة.

﴿حميد﴾ : محمود كثيرا من الحمد بمعنى المفعول، أى يستحق جميع أنواع الحمد والثناء الجميل.

﴿مجيد﴾ : من المجد وهو صفة تدل على كمال صاحبها فى الشرف وسعة الفضل والجود. ﴿الروع﴾ : الخوف.

﴿يجادلنا فى قوم لوط﴾ : أى يناقش رسلنا فى شأن قوم لوط.

﴿حليم﴾ : لا يعجل بالانتقام من المسىء تتجلى طبيعته هذه فى الآية (٣٦) من سورة إبراهيم صفحة ٢٣٥. ﴿أواه﴾ : كثير التأوه خوفا من الله، وخوفا على الناس من كل سوء.

﴿منيب﴾ : راجع إلى الله فى كل أموره. ﴿سئ بهم﴾ : وقع فيما يسوءه ويغمه بمجيئهم.

---

(١) فبشرناها (٢) بإسحاق (٣) إسحاق
(٤) يا ويلتى (٥) رحمة (٦) وبركاته
(٧) إبراهيم (٨) يجادلنا (٩) إبراهيم
(١٠) أواه (١١) يا إبراهيم (١٢) آتيهم
(١٣) السيئات (١٤) يا قوم.

﴿وضاق بهم ذرعا﴾ : ذرع الإنسان غاية طاقته التى يحملها بمشقة، فضيقه كناية عن العجز، أى عجز عن احتمالهم.

﴿عصيب﴾ : شديد الأذى. ﴿يهرعون﴾ : يقال هُرِع الشخص بضم فكسر إذا أسرع كأن غيره يدفعه.

﴿السيئات﴾ : بيَّنت بعضها الآية (٢٩) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤.

المعنى : . قالوا لا تخف، وبشروه بغلام عليم، وكانت امرأته قائمة فى مكان قريب منهم، فسمعت البشارة فضحكت سرورا، وبشرناها هى أيضا بإسحاق وبولده يعقوب؛ عند ذلك أقبلت على مجلسه وهى تصيح وتضرب جبهتها بيدها من شدة التعجب، وقالت فى صيحتها. ياويلتى! كيف ألد وأنا عجوز عشت طول حياتى عقيما، وهذا زوجى كما ترونه شيخا كبيرا لا يولد لمثله من مثلى! قالت الملائكة ردا عليها: ﴿أتعجبين﴾ إلخ؛ أى لا ينبغى أن تعجبى من شىء هو من أمر الله الذى لا يعجزه شىء، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، ثم دعوا لها ولزوجها فقالوا: رحمة الله الخاصة بالمؤمنين وبركاته أى خيراته الكثيرة عليكم يا أهل بيت النبوة والرسالة، إنه سبحانه صاحب كل فضل يستحق عليه الثناء، واسع الفضل والإحسان.

بعد ذلك قال لهم إبراهيم: ما خطبكم، أى ما شأنكم الذى جاء بكم على هذه الصورة؟ قالوا إن الله أرسلنا إلى قوم لوط المجرمين لنهلكهم لم يقولوا ذلك بعدما تقدم مباشرة بل قالوه لما سألهم عن مهمتهم، انظر الآية (٣١) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٤.

وقد أوجز الكلام هنا اكتفاء بأنه مفصل هناك كما تقدم فى الصفحة السابقة.

﴿وامرأته قائمة﴾ أى وراء ستر تسمع المحاورة فضحكت بعد أن علمت مما سبق أنهم بشروا إبراهيم بالولد قبل الكلام على قوم لوط، وبهذا تعلم أن ضحكها هنا كان سرورًا بذلك ﴿فبشرناها بإسحاق﴾ المراد بشرناها بشرى خاصة بها، وهى أن هذا الولد الذى بشر به إبراهيم سيكون منها هى.

﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ أى إنه سيعيش حتى يولد له ولد و ﴿يعقوب﴾ منصوب بفعل مفهوم من سياق الكلام، أى بشرناها واهبين لها من إسحاق يعقوب، وقد جاء هذا الفعل

صريحًا فى آية أخرى فقال سبحانه ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ الآية (٧٢) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٧.

﴿إن هذا لشىء عجيب﴾ أى فى نظر البشر وفيما جرت به سنة الله سبحانه فى البشر، فلما ذهب عن إبراهيم الخوف وجاءته البشرى أخذ يجادل رسلنا فيما أرسلناهم به من عقاب قوم لوط؛ لأنه كان شديد الحلم رَقيقًا رجاعا إلى ربه، وكل هذه صفات تورث تغليب الرحمة على الغضب قالت الملائكة يا إبراهيم أعرض عن هذا الجدل لأن الحال والواقع أنه قد جاء أمر ربك بهلاكهم، وأنهم عما قريب سينزل بهم عذاب غير مردود بجدل ولا بغيره ولما وصلت رسلنا لوطا ورأى هيئاتهم وجمالهم استولى عليه الغم خوفا عليهم من خُبَثاء قومه وشعر بالعجز عن حمايتهم، وقال هذا يوم شديد الكرب.

ولما علم بهم قومه جاءوا مسرعين، وسبب تسرعهم أنهم كانوا من قبل ذلك متعودين الجرأة على الفواحش بلا حياء.

قال لوط يا قوم هؤلاء نساء أمتى جميعا هن بناتى، لأن النبى فى أمته كالوالد فى عشيرته فليستمتع بهن المتزوج منكم، وليتزوج غيره منهن، فإنهن أطهر...

وقد اعترض على هذا الرأى محمد الأمين الشنقيطى فى كتابه (أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن) جزء (٣) صفحة ٣٥ وقال إن النبى أب لكل بنات أمته المؤمنات فقط ولا أبوة له على الكافرات وذكر هذا الاعتراض الآلوسى، ورجح رأيين: الأول هؤلاء بناتى من صلبى تزوجوهن وكان زواج الكافر للمؤمنة جائزا حتى فى أول عهد سيدنا محمَّد خاتم الرسل ﷺ فقد تزوجت بنته رقية رضوان الله عليها العاص بن الربيع.

والثانى وقد نسبه لبعض جِلَّةِ المفسرين أن لوطًا لم يكن يقصد هذا القول على ظاهره بل يريد استجلابهم إليه، فيؤمنوا ويتزوجوا بناته، وهذا أنسب لقولهم ﴿لقد علمت مالنا فى بناتك من حق﴾... إلخ.

٢٩٦ (الجزء الثاني عشر)

أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) * وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ

المفردات : ﴿أطهر﴾ : بالغات فى الطهر غايته، فالتفضيل غير مقصود، لأنه لا طهر فى غيرهن.

﴿من حق﴾ : المراد من حاجة.

﴿قوة﴾ : أى قدرة على دفعكم بنفسى، أى لدفعتكم.

﴿آوي﴾ : أى ألجأ.

﴿ركن شديد﴾ : أى قوم من عصبتى يساعدوننى على طردكم، أى لطردتكم ودفعتكم عن ضيفى. وقال ذلك لأنه كان غريبا عنهم جاء مهاجرا من العراق كما سبق.

﴿فأسر﴾ : أصل الإسراء السير فى الليل، والمراد هنا مطلق السير، وذكر الليل ليحدد الجزء الذى يسيرون فيه.

﴿بقطع من الليل﴾ : أى بجزء من الليل يكفى للخروج من حدود القرية قبل طلوع الفجر.

﴿عاليها سافلها﴾ : ضمير عاليها يعود على القرية التى كانت تعمل الخبائث وهو مفهوم من سياق الكلام كما فى الآية (٦١) من سورة النحل صفحة ٣٥٢، وانظر الآية (٦٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤٢.

﴿سجيل﴾ : طين متحجر، انظر الآية (٣٣) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٤.

﴿منضود﴾ : متراكب متتابع بعضه فى أثر بعض ليس بين نزولها فاصل.

﴿مسومة﴾ : أى معلمة بعلامة خاصة معلومة عند ربك نجعلها خاصة بهم لا تصيب غيرهم.

---

(١) آوى (٢) يا لوط (٣) الليل
(٤) عاليها (٥) الظالمين (٦) يا قوم
(٧) أراكم.

﴿الظالمين﴾ : المراد بهم مشركو مكة الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب رسولهم. ﴿مَدْيَنَ﴾ : تقدم فى الآية (٨٥) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٦.

المعنى : إن تمتعكم بنساء أمتى يكفيكم، لأنهن بالغات النهاية فى الطهر، فخافوا الله واجتنبوا الفاحشة التى تخزينى فى انتهاك كرامة ضيفى، أليس منكم رجل ذو رشد وعقل يرشدكم للصواب؟!

قالوا : لقد علمت مالنا فى النساء من حاجة، وإنك لتعلم ما نريد، فلا تحاول منعنا منه. فلما رأى تصميمهم قال: لو أن لى قوة أو عصبة لطردتكم. عند ذلك أسرعت الملائكة لنجدته وتطمينه فقالوا: يا لوط لا تخف.إنا ملائكة أرسلنا ربك لننجيك من شرهم بهلاكهم، ولن يصلوا إليك بما يسوءك، ورموهم بما طمسوا أعينهم فصاروا لا يبصرون لوطا ولا مَنْ معه، انظر الآية (٣٧) من سورة القمر صفحة ٧٠٧، فسر يا لوط فى جزء من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلى وراءه لئلا يرى العذاب فيصاب بشر، إلا امرأتك فلا تمكنها من السير معكم لأنه سيصيبها ما قدر لهم، لأنها كانت كافرة خائنة، وإن موعد هلاكهم الصبح. ولما رأوا منه استعجالا قالوا أليس الصبح بقريب؟ أى أنه موعد قريب جدا فلا تخف. فلما جاء موعد أمرنا بعذابهم قلبنا هذه القرية وما حولها على مَن فيها بعذابهم، وأرسلنا أو قذفنا عليهم فى أثناء القلب حجارة من طين متحجر لزيادة التعذيب، ولتصيب مَنْ كان منهم متفرقا بعيدا عن مكان الخسف، فكانت الحجارة عذابا فوق عذاب، انظر الآية (٣٤) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٥، وكانت تنزل متتابعة لا فاصل بينها مخصصة لهم لا تصيب غيرهم من الأبرياء ثم ختم سبحانه القصة ببيان الحكمة من ذكرها فقال: ﴿وماهى﴾ إلخ أى ليست هذه القرى بمكان بعيد عن الكافرين من أهل مكة، بل فى طريقهم إلى الشام كما فى الآية (٧٦) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣، وآيتى (١٣٧، ١٣٨) من سورة الصافات صفحة ٥٩٥. والمشهور أن تلك القرى تحت الماء المعروف الآن ببحيرة لوط. وأرسلنا إلى قبيلة مدين أخاهم فى النسب شعيبا، قال لهم يا قوم اعبدوا الله وحده فمالكم من إله غيره، ولا تنقصوا الناس ما تكيلون لهم وما تزنون، إنى أراكم فى سعة من الرزق حقها أن تقابل بالشكر لا بالكفر وإيذاء الناس، وإنما نصحتكم لأنى أخاف عليكم عذاب الله فى يوم إلخ، انظر القصة وشرحها فى الآيات من (٨٥ إلى ٩٣) من سورة الأعراف صفحات ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨.

عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾

المفردات: ﴿محيط﴾ : أى شامل.

﴿القسط﴾ : العدل.

﴿تبخسوا الناس﴾: يقال بخس من باب نفع إذا أضر غيره بنقص أو غش. ﴿تعثوا فى الأرض﴾ : يقال عثى يعثى كرضى يرضى عثيا بكسرتين مع تشديد الياء وعثا يعثو كغزا يغزو عثوا بضمتين مع تشديد الواو، وهو شدة الإفساد.

﴿مفسدين﴾ : المراد متعمدين الاستمرار فى الإفساد فى كل شىء.

﴿بقية الله خير﴾ : أى ما بقى لكم من الأموال الحلال. ﴿بحفيظ﴾ : أى رقيب. ﴿أصلاتك تأمرك﴾: الاستفهام صدر منهم للإنكار عليه والاستهزاء به.

﴿إنك لأنت الحليم﴾ : وهذا منهم استهزاء ثان، والحليم العاقل المتأنى.

﴿الرشيد﴾ : الراسخ فى الرشد وهو الهداية.

﴿أرأيتم﴾ : أى أخبرونى ﴿على بينة﴾ : أى بصيرة وحجة.

﴿رزقا حسنا﴾ : مالاً حلالاً لا شبهة فيه. ﴿أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾: أى ما أريد مجرد مخالفتكم لتتصرفوا عما أنهاكم عنه لأسبقكم إليه وأسعد به دونكم.

(١) ويا قوم (٢) بقية (٣) يا شعيب
(٤) أصلاتك (٥) أموالنا (٦) نشاء
(٧) يا قوم (٨) أرايتم (٩) أنهاكم
(١٠) الإصلاح (١١) ويا قوم (١٢) صالح.

﴿ما استطعت﴾ : ﴿ما﴾ مصدرية زمانية أى مدة استطاعتى.

﴿أنيب﴾ : أرجع فى كل أمورى.

﴿لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم﴾ : جرم الذنب أو المال الحرام يجرمه بفتح الياء وكسر الراء جرما بفتح فسكون" كسبه، ويتعدى لاثنين بمعنى جعل غيره يكسبه كما هنا، وانظر الآية (٢) من سورة المائدة صفحتى ١٣٤، ١٣٥، والآية (٨) من نفس السورة صفحة ١٣٧؛ وفى المختار: قال الجُرْمُ الجريمة والذنب تقول منه جَرَمَ وأجرم واجترم وجرم أيضا كسب من باب ضرب، وقوله تعالى ﴿لا يجرمنكم شنئان قوم﴾ أى لا يحملنكم ويقال لا يكسبنكم.

وفى الراغب : أصل الجرم قطع الثمرة عن الشجرة وأجرم صار ذا جرم نحو أثمر واستعير لكل اكتساب مكروه.

وفى المنار : يجرمنكم بفتح الياء وكسر الراء من جَرَم الذنب. أو المال بمعنى اكتسبه وفى قراءة ابن كثير بضم الياء مأخوذ من أجرمته الذنب إذا جعلته جارما له أى كاسبا له. فجرمه وأجرمه: ككَسَبه هو وكَسَّبَ إياه غيره أى جعله يكسبه؛ يتعدى الثلاثى فى كل منهما بنفسه إلى مفعول واحد. وإلى مفعولين وحينئذ يكون كالرباعى وقوله تعالى ﴿لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم﴾إلخ أى لا تحملنكم وتكسبكم مشاققتكم وعداوتكم إلى أن تقضى بالإصرار عليها إلى إصابتكم بمثل ما أصاب مكذبى الرسل قبلكم.

وفى البيضاوى : لا يكسبنكم ﴿شقاقى﴾ أى معاداتى أن يصيبكم مثل . إلخ و ﴿جرم﴾ يتعدى لمفعول ولمفعولين ككسب؛ وما قوم لوط منكم ببعيد أى زمانا أو مكانا فإن لم تعتبروا بمَنْ قبلهم فاعتبروا بهم انظر الآية (٨٣) من هذه السورة صفحة ٢٩٦ والآية (٧٦) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣، والآية (١٣٧) من سورة الصافات صفحة ٥٩٥.

وفى العربى : لا يجرمنكم أى لا يكسبنكم. شقاقى أى معاداتى وهو فاعل يجرمنكم. والكاف مفعوله الأول، وأن يصيبكم مفعوله الثانى، وجرم مثل ﴿كسب﴾ تتعدى لواحد واثنين أى لا يكسبنكم شقاقى أن يصيبكم إلخ.

المعنى : . أخاف عليكم من عذاب الله فى يوم محيط ما يقع فيه من العذاب بكم فيهلككم جميعا ثم بعد ما رغب سبحانه فى الكف عن نقص الكيل بالميزان، رغب ثانيا فى الإيفاء ليقتلع عادة شر تمكنت منهم، فقال: ﴿ويا قوم أوفوا﴾ إلخ؛ أى أتموا المكيل والموزون للناس بالعدل، لا تظلمون ولا تظلمون. ثم عمم النهى عن كل ما يضر الغير مقال ولا تبخسوا الناس فى الأشياء التى تعطونها لهم بأن تكون رديئة أو مغشوشة، ولا تفسدوا فى الأرض حال كونكم متعمدين الإفساد فى كل شىء غير ما تقدم، كقطع الطريق وسلب أموال الناس الضعاف إلى غير ذلك، فما يبقى لكم بعد البعد عن الحرام من الربح الحلال خير مما تجمعونه من حرام فإنه وبال عليكم إن كنتم مؤمنين بالله الذى تلجئون إليه عند الضراء فيجب أن تفضلوا الحلال عن الحرام وهذا ترغيب فى الإيمان الصحيح. وما أنا عليكم برقيب أحصى هذه المعاصى وأجازيكم عليها، وإنما أنا مبلغ فقط، والحفيظ هو الله وحده. قالوا مستهزئين به لكثرة صلاته: يا شعيب هل صلاتك التى تداوم عليها هى التى تأمرك أن تحملنا على ترك ما كان يعبده آباؤنا من هذه الأصنام، وأن نمتنع عن التصرف بما ينمى أموالنا كما نشاء مما نراه فى مصلحتنا؟ إنك إن حاولت أنت ذلك العاقل الرشيد. يريدون . قبحهم الله . الجاهل السفيه حيث تحاول المستحيل ونظير استهزاء قوم شعيب به استهزاء كفار مكة بخاتم الرسل ﷺ، انظر الآية (٦) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨. قال شعيب يا قوم أخبرونى إن كنت أسير فى عملى على بصيرة تفضل بها علىَّ ربى ورزقنى مالاً حلالاً فهل أستطيع كتمان ما أمرنى ربى أن أبلغه لكم، والحال أنى لا أريد أن أنفرد بالتمتع بما فى أيديكم من الحرام الذى نهيتكم عنه، بل أنا متمسك بالنهى قبلكم، وما أريد بنصحى لكم إلا إصلاحكم مادمت أستطيعه، لأنه أمر بمعروف ونهى عن منكر، وما توفيقى ونجاحى فيما أريد إلا بمعونة الله، عليه اعتمدت، وإليه أرجع فى كل أمورى. ويا قوم لا توقعنكم معاداتكم لى فى أن يصيبكم من العذاب مثل ما أصاب قوم نوح من الغرق أو قوم هود بالريح العاتية أو قوم صالح بالصيحة وهو صوت شديد مزعج مصحوبًا بزلزلة شديدة مهلكة، أو قوم لوط بالخسف وما هلاك قوم لوط ببعيد عنكم فى الزمن فاعتبروا به.

وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ(١) مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ(٢) فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ(٣) وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ(٤) أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ(٥) ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ(٦) سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ(٧) وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ(٨) جَٰثِمِينَ(٩) ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا(١٠) وَسُلْطَٰنٍ(١١) مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾

المفردات: . ﴿ودود﴾ : أصل الود العطف والإحسان، ويراد لازمه وهو المحبة.

﴿رهطك﴾ : رهط الرجل هم عشيرته الأقربون وهو لا يتجاوز العشرة.

﴿لرجمناك﴾ : أى لقتلناك رجما بالحجارة.

﴿ظهريا﴾ : أصله المنسوب إلى الظهر وكسرت الظاء عند النسب، والمراد مهملا.

﴿على مكانتكم﴾ : غاية إمكانكم كما تقدم فى الآية (١٣٥) من سورة الأنعام صفحة ١٨٥.

﴿الصيحة﴾ : هى المعبرة عنها بالرجفة، انظر الآية (٩١) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٧، والآية (١٧) من سورة فصلت صفحة ٦٣٢.

﴿جاثمين﴾ : أى ميتين كما تقدم فى الآية (٦٧) صفحة ٢٩٤.

المعنى : . واستغفروا ربكم من الشر ومما أنتم فيه من الأمور المتقدمة وتوبوا إليه كلما وقع منكم ذنب، إن ربى رحيم بمن يطلب مغفرته، كثير المحبة للتوابين، انظر الآية (٢٢٢) من سورة البقرة صفحة ٤٤. ولما عجزوا عن معارضته بالحجة لجئوا للمكابرة وجعلوا كلامه من قبيل

(١) يا شعيب (٢) لنراك (٣) لرجمناك
(٤) يا قوم (٥) ويا قوم (٦) عامل
(٧) كاذب (٨) ديارهم (٩) جاثمين
(١٠) بآياتنا (١١) وسلطان.

تخليط المجانين الذى لا يفهم فقالوا استهزاء به: يا شعيب ما نفهم كثيرا مما تقول، وإنا لنراك فيما بيننا ضعيفا لا تقدر على نفع ولا ضر، ولولا مراعاة خاطر عشيرتك لقتلناك شر قتلة، وما أنت عندنا بعزيز محترم حتى نمتنع عن رجمك لشخصك، وإنما نكف عنك مراعاة لحرمة عشيرتك، لأنهم ثبتوا على ديننا ولم يتبعوك ولا يتصور أنهم خافوا من قوة رهطه وهو قلة مع أنهم هم ألوف مؤلفة فهم يريدون أن المانع من قتلك احترامنا لقومك فقط.

قال: يا قوم هل يصح أن يكون رهطى أعز عليكم من الله حتى تراعوا حرمتهم ولا تراعوا حرمته تعالى، وتتخذونه بسبب إعراضكم عن رسوله منسيا مهملا وراء ظهوركم؟ إن ربى الذى أهملتم أوامره محيط علما بكل أعمالكم، وسيجازيكم.

وهذا تهديد لعلهم يتنبهون. ويا قوم إن لم تسمعوا نصحى فاعلموا بآخر ما يمكنكم، إنى عامل كذلك يؤيدنى ربى، سوف تعلمون مَنْ يأتيه عذاب يذله: هل أنا أم أنتم، وتعلمون أيضا مَنْ الكاذب فى قوله هل أنا أم أنتم. وكانوا أنذروه بالإخراج كما فى الآية (٨٨) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٦، ٢٠٧. وانتظروا مراقبين لما سيحصل، إنى أراقبه معكم.

ولما جاء أمرنا بعذابهم الذى أنذرناهم به نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة خاصة منا، وأخذتهم صيحة الصاعقة، فأصبحوا فى ديارهم جثثا هامدة بسبب ظلمهم لأنفسهم بالكفر، كأن لم يكونوا موجودين فى تلك الديار بالأمس، إلا طردا لهم عن رحمة الله كما طردت عنها قبلهم ثمود، انظر آيتى (٦٧، ٦٨) من هذه السورة صفحة ٢٩٤.

ولقد أرسلنا موسى بآياتنا التسع المشار إليها إجمالا فى الآية (١٠١) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٨، والمذكورة تفصيلا فى الآيات (١٠٧، ١٠٨، ١٣٣) من سورة الأعراف صفحات ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٢، وسلطان مبين، أى حجة ظاهرة وهى العصا، وخصها بالذكر مع دخولها فيما قبلها لأنها أكبرها وأولها وجودًا.

إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ(١) فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ(٢) فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ(٣) ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ(٤) وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ(٥) ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ

المفردات: . ﴿وملئه﴾ : هم أشراف قومه.

﴿برشيد﴾ : أصل الرشد ضد الغى فالرشيد هو البعيد عن الضلال، والمراد أنه ليس بذى رشد لسوء عاقبته.

﴿يقدم قومه﴾ : يتقدمهم.

﴿الورد﴾ : أصل الورد بكسر الواو اسم مصدر من ورد على الماء، وأريد به الماء نفسه الذى يرد عليه العطاش، فجعل جهنم وردهم تهكما بهم وإنذارا بأنه لا مغيث لهم إلا هى. ﴿المورود﴾: الذى يرد عليه العطشى ليطفئوا ظمأهم.

﴿وأتبعوا فى هذه لعنة﴾ : أى جعلت اللعنة تابعة لهم. ﴿الرفد﴾ : أصل الرفد بكسر الراء: العطاء أى الشىء الذى يعطى، يقال رفده من باب ضرب أى أعطاه. ﴿المرفود﴾ : أى المعطى، وسميت اللعنة عطاء تهكما.

﴿قائم﴾ : أى باق إلى اليوم بعضه منحوت فى الصخر بين الحجاز والشام.

﴿حصيد﴾ : هالك كالزرع المحصود الزائل من مكانه.

﴿فما أغنت عنهم﴾ : أى ما دفعت عنهم عذاب الله. ﴿من شىء﴾ : من زائدة لتأكيد العموم، أى شيئا ولو صغيرا. ﴿تتبيب﴾ : هو من التباب وهو الهلاك، يقال تب تتبيبا أى أهلك. ﴿مجموع له الناس﴾ : أى مجموع له الناس للحساب والجزاء. ﴿إلا لأجل معدود﴾ : ﴿لام لأجل﴾ تسمى لام التعليل والمعنى إلا لانقضاء أجل وهو مدة الدنيا. و ﴿معدود﴾ المراد قليل انظر الآية (٨) من سورة هود صفحة ٢٨٥، والآية (٢٠) من سورة يوسف صفحة ٣٠٥. ﴿يوم يأت﴾ : أصلها يأتى بالياء وحذفت تخفيفا كما تحذف الواو فى ﴿يدع﴾ انظر الآية (١١)

---

(١) وملئه (٢، ٣) القيامة (٤) ظلمناهم (٥) ظالمة.

من سورة الإسراء صفحة ٣٦٥، والآية (١٨) من سورة العلق صفحة ٨١٥. وفاعل يأت ضمير يعود على اليوم المشهود باعتبار هوله وكربه انظر ما قيل فى أيام فى الآية (١٠٢) من سورة يونس صفحة ٢٨٢.

المعنى : . أرسلنا موسى إلى فرعون وقومه جميعا خصوصا الملأ منهم لقوة تأثيرهم فى غيرهم من الأتباع، فكفر به فرعون وأمر قومه بالكفر به، فاتبع الجميع أمر فرعون، مع أن أمره سيء العاقبة، لأن عاقبته أنه سيتقدمهم جميعا إلى الهلاك يوم القيامة فيوردهم النار وردًا محققا لاشك فيه، وقبح الورد المورود النار. وأتبعهم الله جميعا فى هذه الدنيا لعنة شديدة لأنها منه تعالى ومن ملائكته والناس أجمعين كما تقدم فى الآية (٦٠) من هذه السورة صفحة ٢٩٣، ويوم القيامة أيضا يلعنهم أهل الموقف جميعا، فاللعنة تابعة لهم حيث كانوا كما اتبعوا أمر فرعون، وقبح العطاء المعطى هذه اللعنة التى أتبعتهم فى كل مكان وزمان.

ذلك القصص الذى قصصناه عليك أيها النبى هو بعض أخبار القرى المهلكة بجناية أهلها، نقصه عليك حال كون تلك القرى منها ماهو باق شاهد بما حصل كقرى قوم صالح، ومنها زائل لا أثر له كقرى قوم لوط، وما ظلمناهم بإهلاكهم، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بشركهم وإفسادهم، فما نفعتهم آلهتهم التى كانوا يدعونها ويطلبون منها أن تشفع لهم فى دفع الضر، وتركوا إفراد الله بالدعاء والعبادة لما جاء أمر ربك بعذابهم، وما زادهم آلهتهم غير تخسير وهلاك، انظر تبت يدا أبى لهب صفحة ٨٢٥. وكهذا الأخذ الذى أخذ به ربك قرى قوم نوح وعاد وثمود يأخذ جميع القرى الظالمة بالكفر وغيره، إن أخذه سبحانه قوى الألم شديد لا يرجى منه أى خلاص. إن فى ذلك القصص لعبرة لمَنْ خاف الآخرة لأنه إذا رأى ما حصل لهم انزجر عما يوجبه ذلك، أى يوم القيامة المفهوم من كلمة ﴿الآخرة﴾ يوم يجمع الله تعالى فيه الناس للحساب والجزاء. وذلك يوم حاضر فيه الناس جميعا مشاهدون لما يجرى فيه. وما نؤخر ذلك اليوم إلا لانتهاء مدة قليلة حددناها له ليأتى فى نهايتها. ﴿يوم يأت﴾ المراد باليوم هنا الوقت غير المحدد، وأصل يأت ﴿يأتى﴾ حذفت الياء تخفيفا اكتفاء عنها بالكسرة. والمعنى فى الزمن الذى يأتى فيه هذا اليوم الخاص لا تتكلم نفس بما ينفع أو بشفاعة إلا بعد إذنه تعالى، انظر الآية (٣٨) من سورة النبأ صفحة ٧٨٨، ولا مانع من جعل الزمن المطلق ظرفا لزمن معين كما قالوا: ﴿يوم يأتى العيد أفعل كذا﴾ انظر الآية (٣٨) من سورة الحجر صفحة ٣٤٠.

فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ[1] فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ[2] فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ[3] فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ[4] إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

المفردات : . ﴿شقى وسعيد﴾ : يصح أن يراد بالشقى الكافر، وبالسعيد المؤمن الذى رجحت حسناته على سيئاته فلا يدخل النار أبدا، وعلى هذا يكون هناك قسم وسط مسكوت عنه وهم عصاة المؤمنين الذين غلبت سيئاتهم على حسناتهم فإنهم يدخلون النار ثم يخرجون. ويصح أن يراد بالشقى مَنْ يدخل النار مطلقا كافرًا وعاصيا، وبالسعيد مَنْ لا يدخل النار أصلا. ﴿زفير﴾: هو إخراج النفس بشدة. ﴿شهيق﴾ : صوت دخول الهواء فى الرئة بشدة. ﴿مادامت السموات والأرض﴾ : المراد بهما ما يكون فوقهما وتحتهما فى الآخرة وهذا تركيب يراد به الكناية عن تأبيد الخلود فى دار العذاب أو دار النعيم على ما يأتى فى الآية التالية، ويصح أن يراد بالسماء والأرض سماء دار العذاب وأرضها، وسماء دار النعيم وأرضها، وذلك أن النار دركات، أى طبقات بعضها فوق بعض كما فى قوله تعالى: ﴿إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار﴾ الآية (١٤٥) من سورة النساء صفحة ١٢٨. والجنة كذلك طبقات قال تعالى ﴿غرف من فوقها غرف مبنية﴾.. الآية (٢٠) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٨، ٦٠٩، والعرب تطلق على كل ماهو فوق رأس الإنسان سماء وكل ماهو تحته أرض بالنسبة إليه. فالسقف سماء كما فى الآية (١٥) من سورة الحج صفحة ٤٣٥، والسحاب سماء فى قوله: ﴿وأنزل من السماء ماء﴾ الآية (٢٢) من سورة البقرة صفحة ٦.

(١، ٢) خالدين
(٣) الكتاب
(٤) أعمالهم.

ويكون المراد من التركيب مادامت سموات النار وأرضها أو سموات الجنة وأرضها

﴿عطاء﴾ : الأصل يعطهم الله عز وجل فى الجنة عطاء.

﴿مجذوذ﴾ : من جذه يجذه إذا قطعه، أى دائما غير مقطوع انظر الآية (٣٣) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤.

﴿مرية﴾ : اى شك.

﴿الكتاب﴾ : هو التوراة ﴿كلمة سبقت من ربك﴾ : بتأخير الانتقام الشديد منهم إلى يوم القيامة.

﴿لقضى بينهم﴾ : بإهلاك البغاة منهم فى الدنيا كما فعل بقوم نوح وعاد.

﴿مريب﴾ : أى موقع فى الريبة والحيرة، انظر الآية (٦٢) السابقة من هذه السورة صفحة ٢٩٣.

﴿وإنّ كلا لمّا .. إلخ﴾ : ﴿لمّا﴾ هذه بمعنى ﴿إلاّ﴾ كما فى الآية (٤) من سورة الطارق صفحة ٨٠٢ والمعنى وإن كل طرف من هؤلاء المختلفين إلا والله ليوفينهم جزاء أعمالهم وقد تستعمل ﴿إلا﴾ بدون أن يسبقها نفى. كقولهم: سألتك بالله إلا فعلت كذا. فإن قالوا هذه معها نفى مقدر مفهوم من سياق الكلام. والأصل سألتك أن لا تفعل إلا كذا يقال لهم: فلنقدر هنا نفيا كذلك ويكون الأصل وإن كل فريق لا يترك إلا بعد أن يحاسب ليوفيهم ربك جزاء أعمالهم ويجب أن يلاحظ أن كلام الله هو أصح الأصول العربية.

فيجب أن يكون الأصل المعول عليه، يرجع غيره إليه. لا أن نجّره وراء كلام جلف من أجلاف العرب فتنبه ولا تكن أسير التقليد والله الموفق للصواب.

هذا وقال ابن هشام : الأولى أن لمّا هنا هى التى تجزم الفعل المضارع. والفعل بعدها هنا مقدر. والأصل وإن كلا لما يوفوا أعمالهم. أى إنهم إلى الآن لم يوفوا جزاءهم وسيوفونها قطعا، والدليل على هذا الفعل المقدر هو قوله بعد ﴿ليوفينهم﴾ فهذا دليل على أن التوفية لم

تتم ولكنها ستحصل. ومثل ﴿لمَّا﴾ ما فى قوله تعالى ﴿بل لمَّا يذوقوا عذاب﴾ الآية ٨ من سورة ص صفحة ٥٩٨ أى وسيذوقوه؛ فاختر لنفسك ما تطمئن إليه. ﴿فاستقم كما أمرت﴾: المراد داوم على الاستقامة انظر الآية (١٥) من سورة الشورى صفحة ٦٤٠.

المعنى : . إن أهل الموقف شقى وسعيد؛ فأما الذين شقوا فمصيرهم إلى النار خالدين فيها إلا ما شاء ربك؛ إنْ جَرَيْنَا على الرأى الأول يكون المعنى إلا الوقت الذى يشاء الله إخراجهم فيه من النار إلى الزمهرير أو الحميم، انظر الآية (٦٨) من سورة الصافات صفحة ٥٩١، والآية (٤٤) من سورة الرحمن صفحة ٧١١. وعلى الرأى الثانى يكون المعنى إلا النوع الذى يشاء سبحانه إخراجه منها وهم عصاة المؤمنين بعد استيفاء ما قدر عليهم من العذاب. إن ربك فعال لما يريد لا يقدر أحد على منعه.

وأما الذين رزقوا السعادة ففى الجنة خالدين فيها إلا ما شاء ربك؛ على الرأى الأول يكون المعنى خالدين فى نعيم الجنة الجسمانى إلا فى الوقت الذى يشاء الله تعالى نقلهم منه إلى النعيم الروحانى ورضوانه الأكبر، والنظر إلى وجهه الكريم.

وعلى الرأى الثانى يكون المعنى إلا النوع الذى يشاء الله تعالى إبعاده عن الجنة أول الأمر وهم عصاة المؤمنين، وتكون مدة التخليد مبتدأة من انصراف أهل الموقف إلى ما لا نهاية، والتأبيد ينتقض فى أول وقته المعين كما ينتقض فى آخره؛ تقول مكثت فى البيت يوم الخميس إلا ساعة، فيصح أن تكون هذه الساعة أول النهار أو آخره؛ فالمراد أن أهل الموقف لا يخرجون عن القسمين، وأن حالهم لا يخرج عن السعادة أو الشقاء، وهذا لا يمنع أن يجمع بعضهم بين الصفتين باعتبارين؛ فالموحدون العصاة شقوا بعصيانهم، وسعدوا بتوحيدهم. يعطى سبحانه هؤلاء السعداء فى الجنة عطاء غير مقطوع انظر الآية (٣٣) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤. وإذا كان أمر الأمم المشركة ما قصصناه عليك فلا تكن فى أدنى شك من عاقبة شرك هؤلاء الكفار بمكة؛ لأنهم اتفقوا معهم فى أن كلا لا يعبد إلا كعبادة آبائهم، فهم مقلدون لا يتبعون حجة، وإنا لموفون الجميع نصيبهم من العذاب كاملا.

ثم أراد سبحانه أن يحذر المؤمنين من الوقوع فيما وقع فيه أهل الكتب قبلهم من التفرق الذى سبب لهم الشقاء فقال: ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف قومه من بعده بغيا بينهم وتنازعا على الرياسة، انظر ما تقدم عند (٢١٣) من سورة البقرة صفحتى ٤١، ٤٢، ولولا أن الله سبحانه قضى بتأخير عذابهم الشديد ليوم القيامة لأهلك المبطل من أهل الكتاب فى الدنيا وإن هؤلاء الذين اختلفوا فى كتاب موسى لفى شك وحيرة فى كتابهم، بعد أن جرفه أسلافهم، فأصبحت معرفة الحقيقة منه متعسرة، انظر الآية (٤٥) من سورة فصلت صفحة ٦٣٦ ، وآيتى (١٣، ١٤) من سورة الشورى صفحتى ٦٣٩، ٦٤٠.

﴿وإن كلا لمّا ليوفينهم﴾ إلخ، لمّا هنا بمعنى إلا كما فى الآية ٤ من سورة الطارق صفحة ٨٠٢. والمعنى : وإن كل طرف من هؤلاء المختلفين إلا والله ليوفينهم ربك أجزهم. وقد تستعمل ﴿إلا﴾ بدون نفى فى الكلام كقولهم :

(سألتك بالله إلا فعلت كذا) فإن قالوا هذه مقدر معها نفى مفهوم من المقام، والمعنى سألتك ألا تفعل إلا كذا، يقال لهم فلنقدر هنا نفيا كذلك ويكون المعنى: وإن كل فريق لا يترك إلا بعد أن يحاسب ليوفى أجره.

ويجب أن نلاحظ أن كلام الله هو كما ذكرنا أصح الأصول العربية.

﴿إن الله بما تعملون خبير﴾ لا يخفى عليه منه شىء فيوفى كل ذى حق حقه.

وإذا كان هذا هو حال الأمم التى أوتيت كتابا فاختلفت فيه فسبب اختلافها لها شقاء، فداوم أنت أيها النبى على الاستقامة كما أمرك ربك بالتزام الصراط المستقيم أنت ومَنْ تاب من الشرك من المؤمنين معك، ولا تطغوا أى تتجاوزوا حد الاعتدال بالتفريط فيما أمرتم به أو الغلو والمبالغة فيه بتكليف أنفسكم ما لا تطيقون فتعجزوا فينقطع بكم طريق الوصول، انظر ما حدث لأهل الكتاب فى الآية (٢٧) من سورة الحديد صفحة ٧٢٣.

بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ[1] طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ[2] وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ[3] يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ[4] ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً[5] وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ

المفردات : . ﴿ولا تركنوا﴾ : لا تميلوا إليهم أقل ميل.

﴿الذين ظلموا﴾ : أنفسهم والناس بالكفر أو غيره.

﴿طرفى النهار﴾ : أى فى طرفى النهار، والمراد صلاة الصبح وصلاة العصر وهى الصلاة الوسطى المذكورة فى الآية (٢٣٨) من سورة البقرة صفحة ٤٩.

﴿زلفا من الليل﴾: جمع زلفة بضم أوله بوزن غرفة وهى الساعة من الليل مطلقا.

﴿ذكرى﴾ : تذكير بالله تعالى وعظة.

﴿للذاكرين﴾ : أى تنفع المستعدين لها، انظر الآية (٥٥) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦.

﴿فلولا﴾ : ﴿لولا﴾ هنا حرف يدل على أن المتكلم يريد من السامع أن يتحسر على هؤلاء الأقوام الذين أوقعوا أنفسهم فى الهلاك.

انظر معانى لولا فى الآية (٤٣) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨. ﴿كان﴾ : أى وُجِدَ ﴿القرون﴾ : جمع قرن وهو الجيل من الناس، والمراد الأمم. ﴿أولوا بقية﴾ : أى أصحاب بقية، والبقية هى الفضل والخير، سمى بذلك لأن الإنسان يستبقى عادة أفضل ما عنده ولا يفرط فيه أى خيار عقلاء لهم كلمة مسموعة.

(١) الصلاة
(٢) الليل
(٣) الحسنات
(٤) للذاكرين
(٥) واحدة

﴿إلا قليلا﴾:

﴿إلا﴾ حرف معناه هنا لكن.

﴿ممَنْ أنجينا﴾ : ﴿من﴾ فى ممَنْ بيانية تدل على أن ما بعدها بيان للقليل المذكور قبلها.

﴿ما أترفوا فيه﴾ : أى ما جعلهم الله تعالى مترفين فيه، والترف هو التنعم بمتع الحياة عن سعة، انظر الآية (٣٣) من سورة المؤمنون صفحتى ٤٤٨، ٤٤٩، وتقول العرب ترف فلان بفتح فكسر بوزن فرح أى توسع فى التنعم، وقد يترفه الله سبحانه وتعالى عقابا له، أى يوسع عليه فى الرزق حتى يستغرق فى ملاذه وشهواته وينسى شكر ربه سبحانه، انظر الآية (٤٤) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨، وآيتى (٥٥، ٥٦) من سورة المؤمنون صفحتى ٤٥٠، ٤٥١.

﴿بظلم﴾ : الباء للمصاحبة، أى مصاحبا لظلم والمراد حال كونه ظالما.

﴿ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة﴾ : تقدم شرحها فى الآية (٤٨) من سورة المائدة صفحة ١٤٦. ﴿وتمت كلمة ربك﴾ : أى نفذت كلمته وهى قوله ﴿لأملأن جهنم﴾ إلخ ونلاحظ ﴿أل﴾ فى الجِنَّة والناس للعهد، والمعهود هم الجن والإنس الذين اتبعوا الشيطان، انظر الآية (١٨) من سورة الأعراف صفحة ١٩٤ ﴿من الجِنَّة﴾ : أى الجن.

المعنى :. ولا تميلوا إلى الظالمين فتصيبكم بسبب ذلك نار جهنم، فمالكم فى حال ميلكم صديق يدفع عنكم عذاب الله، ثم تكون عاقبتكم أنكم لا ينصركم الله تعالى أبدا، لأنه لا يركن إلى الظالم إلا مَنْ يماثله فى حب الظلم، وقد حكم الله أنه ما للظالمين من أنصار.

وبعدما أمر سبحانه المؤمنين بالاستقامة وتجنب الطغيان والميل للظالم، أراد سبحانه أن يرشدهم إلى أعظم العبادات والأخلاق التى تعينهم وهى الصلاة فرضا أو نفلا، والصبر، والنهى عن المنكر، فقال: وأقم الصلاة فى طرفى النهار، وفى زلف من الليل، لأن الأعمال الصالحة تطهر النفوس فتذهب السيئات؛ إن فيما ذكر من الأوامر لموعظة للمستعدين لقبولها. واصبر أيها النبى على احتمال المشقة فى سبيل تنفيذ ما أمرت به يعطك الله أجرا

عظيما لأنه لا يضيع أجر من أحسن عملا، فهلا وجد من الأمم الذين سبقوكم وأهلكناهم بظلمهم جماعة أصحاب فضل وعقل ينهون غيرهم عن الفساد فى الأرض؟ المراد كان يجب أن يكون فيهم ذلك ليمنعوا عنهم العذاب، ولكن الذى حصل أنه لم يكن من أصحاب الكلمة المسموعة من فعل ذلك، لكن كان هناك قليل من المؤمنين المستضعفين غير مسموعى الكلمة ونجاهم الله مع رسلهم بعد أن كانوا مضطهدين لاحق بهم الأذى، واتبع الظالمون الأكثرون أسباب الترف والنعيم الذى رزقهم الله، فأفسدهم البطر والكبر على رسلنا، وصاروا راسخين فى الإجرام لا يمكن رجوعهم عنه، فاستحقوا الهلاك والظلم والإجرام يظهران أولاً فى الكبراء والرؤساء ثم يسريان بالتقليد فى العامة، فيكونان سببا للهلاك وإذا كان هذا حال الميل القليل إلى مَنْ وجد منه ظلم أى ظلم كان ولو قليلا فكيف يكون حال مَنْ يميل إلى الراسخين فى الظلم والعدوان ميلا عظيمًا ويتهالك على مصاحبتهم ومعاشرتهم، ويبتهج بمؤانستهم مادًا عينيه إلى ما هم فيه من زهرة الحياة الفانية، وفى الحكمة المأثورة (مَنْ دعا لظالم بالبقاء أحب أن يُعصى الله سبحانه فى أرضه). وما كان يصح أن يهلكهم الله تعالى ظالما لهم وهم مصلحون؛ لأن الله تعالى حرم الظلم على نفسه، فلو كانوا مصلحين لما عذبهم.

ولو شاء ربك أيها النبى الحريص على إيمان قومه لجعل الناس على دين واحد جبرا عنهم كالملائكة، ولكان العالم غير هذا العالم، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك، بل تركهم مختارين، فلا يزالون مختلفين فى كل شىء تبعا لميولهم وشهواتهم وتفكيرهم يتعصب كل منهم لرأيه وما تعوده إلا الذين رحمهم ربك لسلامة فطرتهم، فإنهم اتفقوا على حكم كتاب الله فيهم وسماع كلمة رسوله؛ ولهذه المشيئة التى اقتضتها حكمة نظام عالم الدنيا خلق الله تعالى الناس مختلفين ليرتب على ذلك العقاب والثواب واستحقاق الجنة والنار.

وتحققت كلمة ربك على أتم وجه، وهى قوله: لأملأن جهنم من عالم الجن والإنس الذين لم يهتدوا بكتبه ولا بنصائح رسله، انظر آيات (١٣، ١٤، ١٥) من سورة السجدة صفحة ٥٤٦. ثم ختم سبحانه السورة بأربع آيات تلفت النظر إلى ما سبق من العبر، وترشد إلى طريق النجاة، فقال تعالى: ﴿وكلا نقص عليك﴾ أيها الرسول...

مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِى هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

(١٢) سُورَةُ يُوسُفَ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا إِحْدَىٰ عَشْرَةَ وَمِائَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ

المفردات:ـ ﴿وموعظة﴾: اعتبار.

﴿وذكرى﴾: أى تذكير بما حل بالغير ليجتنب ما يضر.

﴿اعملوا على مكانتكم﴾: تقدم بيانها فى الآية (٩٣) من هذه السورة صفحة ٢٩٨ .

المعنى: ـ وكل نوع من أخبار الرسل نقص عليك أيها النبى منه ما نقوى به قلبك على القيام بمشاق الرسالة.

وجاءك فى هذه السورة بيان الحق الذى دعا إليه الرسل، وهو توحيد الله، واتقاء ما يغضبه، والرجوع إليه إلخ.

وجاءك أيضًا فيها ما به العظة والاعتبار والتذكير بعاقبة الظلم والفساد ينتفع بها المؤمنون بالفعل والمستعدون للإيمان؛ فهؤلاء بشرهم بالنجاة.

وقل لمَنْ لم يؤمن منذرًا ومهددا:

اعملوا على آخر ما فى قدرتكم فى محاربة الدعوة وإيذاء المؤمنين. إنا نحن ثابتون على ما نعمل.

---

(١) عاملون.
(٢) بغافل.
(٣) الف لام را
(٤) آيات
(٥) الكتاب
(٦) انزلناه

وانتظروا بنا ما تتمنونه من بطلان دعوتنا بالموت أو بغيره كما فى الآية (٣٠) من سورة الطور صفحة ٦٩٨، إنا أيضًا منتظرون ما وعدنا ربنا من النصر عليكم.

وهذا من المواضع التى حققت الأيام صدقها، وأثبتت أن القرآن من كلام العليم بالمستقبل القدير على فعل ما يريد.

ولله وحده علم كل غيب فى السموات والأرض فيعلم ما سيحل بكم وما سيكون لنا، وإليه يرجع كل أمر، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وإذا كان الأمر كذلك فاعبده وحده، وتوكل عليه ولا تخش غيره، وما الله بغافل عما تعملون جميعًا أنتم والمشركون، وسيجازى كلا بما يستحق فى الدنيا والآخرة.

والله تعالى أعلم.

﴿سورة يوسف﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ـ ﴿آلر﴾: تقدم الكلام عليها أول البقرة.

المعنى: ـ تلك الآيات المذكورة فى هذه السورة هى من آيات الكتاب الموضح لحقائق الدين ومصالح الدنيا والآخرة.

إنا أنزلنا هذا الكتاب على رسولنا العربى حال كونه قرآنا عربيًا بلغتكم يا مَنْ تحملتم الرسالة أول نزولها لتبلغوها لغيركم لعلكم تعقلون أى تفهمون ما فيه.

ولو جعلناه أعجميًا لاعتذرتم عن اتباعه بجهلكم بلغته، انظر الآية (٤٤) من سورة فصلت صفحة ٦٣٦، والآية (٤) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٩ . نحن نقص عليك أيها الرسول....

أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ (١) ③ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ (٢) ④ قَالَ يَٰبُنَيَّ (٣) لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ (٤) لِلۡإِنسَٰنِ (٥) عَدُوّٞ مُّبِينٞ ⑤ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ (٦) وَإِسۡحَٰقَۚ (٧) إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ⑥ ۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ (٨) لِّلسَّآئِلِينَ (٩) ⑦ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ (١٠) مُّبِينٍ ⑧ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ

المـفـردات: . ﴿يا أبت﴾: أصلها يا أبى، والعرب تبدل الياء فى نداء الأب والأم تاء.

﴿يجتبيك ربك﴾: أى يصطفيك ويختارك دون أخوتك.

﴿تأويل﴾: أى بيـان مـآل الرؤيا وهو تفسيرها.

﴿الأحاديث﴾: سميت الرؤيا حديثًا لأنها تحكى ويتحدث بها.

﴿آل يعقوب﴾: أى أهله، ولا يستعمل آل إلا فيمن لهم مقام عال كآل إبراهيم وآل النبى، ولا يقال آل الزبال مثلاً. ﴿آيات﴾ أى دلائل.

﴿للسائلين﴾: للمستفسرين عن قصتهم المليئة بالعبر.

﴿عصبة﴾: جماعة من عشرة فما فوق.

---

(١) الغافلين.
(٢) ساجدين.
(٣) يا بنى
(٤) الشيطان
(٥) للإنسان.
(٦) إبراهيم
(٧) إسحاق
(٨) آيات
(٩) للسائلين
(١٠) ضلال

﴿ضلال﴾: خطأ فى الرأى وبُعد عن المساواة فى المحبة مع أننا أنفع له من يوسف.

﴿اطرحوه أرضًا﴾: أى ارموه فى أرض مجهولة بعيدة عن العمار حتى لا يستطيع العودة إلى أبيه.

المعنى: . نقص عليك أحسن القصص صدقا ووضوحًا وفائدة بإيحائنا إليك هذا القرآن، وإن الحال أنك كنت من قبل هذا الإيحاء من جملة الغافلين عنه من قومك لا تعلمون منه شيئًا، انظر الآية (٥٢) من سورة الشورى صفحة ٦٤٦ .

ثم شرع سبحانه يبين أحسن القصص فقال ﴿إذ قال يوسف﴾ وكانت سنه حينئذ اثنى عشر عامًا: يا أبت إنى رأيت فى المنام أحد عشر كوكبا والشمس والقمر، ثم بيَّن كيف رآهم فقال: رأيتهم ساجدين لى كسجود العقلاء. عند ذلك أدرك يعقوب من الرؤيا أن الله تعالى سيختار يوسف لأمر مهم، فخاف عليه من حسد إخوته فقال مشفقًا عليه: يا بنى لاتذكر رؤياك هذه على إخوتك، يريد إخوته من أبيه، وكانوا عشرة، فإنك إن قصصتها عليهم يحسدوك فيحتالوا لإهلاكك بإغراء الشيطان لأنه عدو ظاهر العداوة لبنى الإنسان. وكما اجتباك ربك لمثل هذه الرؤيا الدالة على شرف المنزلة يجتبيك للنبوة والأمور العظيمة، ويعلمك من علمه الإلهى تعبير الرؤيا وتفسيرها على الوجه الصواب، ويتم نعمته عليك بالنبوة والرسالة والرياسة وعلى آل يعقوب بالمقام الكريم وتسلسل النبوة فيهم إلى زمن معين كما أتمها على أبويك إبراهيم وإسحاق من قبل هذا العهد؛ إن ربك عليم بمَنْ يستحق الاصطفاء، حكيم يضع الشىء فى محله.

ثم شرع فى القصة فقال: لقد كان فى قصة يوسف وإخوته لأبيه العشرة حين قالوا: والله ليوسف وأخوه بنيامين، ولم يذكروه باسمه للإشعار بأن محبة يعقوب له كانت بالتبع لمحبة يوسف، ولذا لم يتعرضوا له بأذى، أحب إلى أبينا منا، وكانت محبة يعقوب ظهرت بعد رؤيا يوسف، والحال إنا عصبة قوية قادرون على خدمته، إن أبانا فى ترجيحهما فى المحبة مع أننا أنفع له لفى خطأ فى الرأى ظاهر، ولا حل لذلك إلا بأحد أمرين: إما قتله، أو نفيه إلى أرض بعيدة يستحيل عليه الرجوع منها. إن فعلتم ذلك كان كل إقبال أبيكم عليكم وحدكم.

لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين ﴿٩﴾ قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴿١٠﴾ قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ﴿١١﴾ أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ﴿١٢﴾ قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴿١٣﴾ قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون ﴿١٤﴾ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابت الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴿١٥﴾ وجاءوا أباهم عشاء يبكون ﴿١٦﴾ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا

المفردات: . ﴿يخل لكم وجه أبيكم﴾: أصل الوجه الجزء المعروف من البدن، والمعنى لا يكون أمام وجهه غيركم، والكلام كناية عن تخليص محبته لهم لعدم اشتغاله بغيرهم.

﴿صالحين﴾: صلاحًا دينيا بالتوبة والعمل الصالح ودنيويًا بالتفات أبيكم إليكم.

﴿غيابة الجب﴾: الجب هو البئر غير المبنية، وغيابته ما يغيب عن رؤية البصر من قعره أو حفرة بجانبه تكون فوق سطح الماء ينزل فيها مَنْ أراد إخراج شيء وقع فى البئر.

﴿السيارة﴾: المسافرون الذين يسيرون لمسافات بعيدة.

﴿لناصحون﴾: بالبعد عما يضره فلا يخاف عليه.

﴿يرتع﴾: الرتوع هو أكل ماطاب من الفاكهة وغيرها من خيرات الزرع.

﴿ويلعب﴾: بالسباق والصراع والرمى بالسهام.

﴿وأجمعوا﴾: عزموا عزمًا أكيدًا، انظر الآية (٧١) من سورة يونس صفحة ٢٧٧

﴿وأوحينا إليه﴾: عندما ألقوه فى البئر وحيا إلهاميًا ليطمئن قلبه كما أوحى إلى أم موسى فى الآية ٧ من سورة القصص صفحتى ٥٠٦، ٥٠٧ .

---

(١) صالحين. (٢) غيابة. (٣) فاعلين.
(٤) لناصحون. (٥) لحافظون (٦) غافلون
(٧) لخاسرون (٨) غيابة (٩) وجاءوا
(١٠) يا أباءنا (١١) متاعنا

﴿نستبق﴾: أى نجرى يسابق كل منا صاحبه تسلية.

﴿بمؤمن﴾: أى بمصدق.

المعنى: . إن قتلتموه أو نفيتموه يخلص حب أبيكم لكم، وبعد ذلك تتوبون من هذا الذنب وتكونون أهلا لحياة سعيدة. قال واحد منهم: لا ترتكبوا جريمة القتل لأنها عظيمة لا تؤمن المغفرة معها، واستعيضوا عن ذلك بإلقائه فى حفرة من الجب المعروف فى طريق المسافرين يأخذه بعضهم إلى مكان بعيد، فيتم لكم إبعاده عن أبيه، إن كنتم فاعلين الصواب فاعملوا هذا. ثم توجهوا الى أبيهم وكانوا قد شعروا أن أباهم يحرص على بعد يوسف عنهم خوفا من أن يذكر لهم شيئًا عن الرؤيا فقالوا: يا أبانا أى شيء عرض لك جعلك لا تأمنا على يوسف مع أننا نخصه بالنصح دائمًا؟ أرسله معنا غدًا حين نخرج كعادتنا إلى مراعينا وراء أنعامنا يتمتع بالأكل ويلعب كما نلعب، وإنا له لحافظون من كل سوء. قال:

إنى أحزن لبعده عنى، وأيضًا أخاف أن يأكله الذئب لصغره وأنتم عنه غافلون باشتغالكم بأنعامكم أو بلعبكم. قالوا: والله لئن اختطفه الذئب من بيننا ونحن جماعة قوية إنا إذا وقع هذا لخاسرون لكل شيء حتى مواشينا. أى وهذا لن يكون. عند هذا التأكيد منهم سمح يعقوب بما طلبوا.

فلما ذهبوا به فى الغدو اتفقوا على جعله فى غيابة الجب، نفذوا ما عزموا عليه.

عند ذلك ألقى الله تعالى فى قلبه أنه سينجو ويرى إخوته ثانيًا ويخبرهم بما صنعوه معه وهم لا يشعرون أن الذى أخبرهم بما حل بيوسف هو يوسف نفسه، وقد تحقق هذا الإلهام، انظر أيتى (٨٨، ٨٩) من هذه السورة صفحة ٣١٦ . وبعد ما اطمأنوا إلى أنهم تخلصوا منه جاءوا أباهم فى وقت العشاء وهو ما بعد الغروب حال كونهم يبكون ليقنعوه بما يدعون وهو قولهم يا أبانا إنا ذهبنا من مكان اجتماعنا إلى مكان بعيد نتسابق فيه بالجرى أو السهام وتركنا يوسف عند متاعنا من ثياب أو آنية طعام فأكله الذئب، وما أنت بمصدق لنا فى قولنا هذا لشدة محبتك ليوسف وسوء ظنك بنا.

وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۢ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ

المفردات: . ﴿بدم كذب﴾: الكذب مصدر وصف به الدم للمبالغة فى دلالته على الكذب حتى كأنه هو الكذب نفسه، كما تقول فلان شر أى صاحب شر. ﴿تصفون﴾: أى تكذبون، انظر آيتى (١٠٠، ١٣٩) من سورة الأنعام صفحتى ١٧٩، ١٨٦، والآية (٦٢) من سورة النحل صفحة ٣٥٣، والآية (١٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٢ . ﴿سولت﴾: أى زينت وسهلت. ﴿سيارة﴾: أى جماعة تبالغ فى السير من مدين إلى مصر. ﴿واردهم﴾: هى الذى يرد على الماء ليحمل منه لرفقته. ﴿دلوه﴾:هو وعاء من جلد مؤنث فيقال الدلو نزعتها. ﴿يا بشرى﴾: هذه كلمة تستعمل عند السرور من غير قصد إلى نداء كما يقال عند الجذع يا حسرتا. ﴿وأسروه بضاعة﴾: أى أخفاه السيارة حال كونهم جاعلين له متاعًا من التجارة. ﴿وشروه﴾: أى باعوه، فشرى تستعمل فى معنى باع واشترى. ﴿بخس﴾: أى مبخوس ناقص عن ثمن مثله، من بخس الشىء نقصه. ﴿معدودة﴾ المراد قليلة لأن العرب كانت تعد القليل وتزن الكثير. ﴿مثواه﴾: إقامته. ﴿مكنا ليوسف فى الأرض﴾: أى جعلنا له مكانة ومنزلة. ﴿غالب على أمره﴾: أى قادر على تنفيذ كل أمر يريده ولايغلبه أحد على منعه. ﴿أشده﴾ : أى بلغ غاية نمو جسمه واشتداد قوته. وذلك يكون عادة ببلوغ الإنسان خمسة وعشرين عامًا، وهو دون الاستواء الذى عنده تكون النبوة، وهو أربعون عامًا، انظر الآية (١٤) من سورة القصص صفحة ٥٠٨ .

﴿حكمًا﴾: أى حكمة وهى معرفة أسرار الأشياء. ﴿راودته﴾: المراودة المطالبة فى رفق ولين مع شىء من المخادعة. ﴿عن نفسه﴾: المراد خادعته لتصرفه عن رغبة نفسه الشريفة فى العفاف.

(١) صادقين	(٢) وجاءوا	(٣) يا بشرى	(٤) غلام
(٥) بضاعة	(٦) دراهم	(٧) الزاهدين	(٨) اشتراه
(٩) مثواه	(١٠) آتيناه	(١١) وراودته	

المعنى: . لست يا أبانا مصدقًا لنا ولو كنا فى الحقيقة صادقين، وجاءوا على قميص يوسف بدم يدل على كذبهم لكونه على ظاهر القميص، ولم يختلط بخيوطه، وأيضًا فقد وجد يعقوب أن القميص سليم لم يمزق، حتى روى أنه قال: (ما أحلم هذا الذئب الذى يأكل ابنى ولا يمزق قميصه)، كل هذا مع ما علم يعقوب من رؤيا يوسف أنه سيعيش حتى يكون نبيًا جعله يحكم بكذبهم ويقول: (لم يأكل ابنى ذئب بل سولت لكم أنفسكم الأمارة بالسوء أمرًا منكرًا، فصبرى صبر جميل، لا أشكو لأحد، وأطلب العون من الله على إظهار كذبكم، وعلى تحمل هذه المصيبة، وجاءت من جهة الشام إلى مصر سيارة فأرسلوا مَنْ يأتى لهم بماء من الجب، فأدلى دلوه، فتعلق به يوسف، فقال أبشروا وجدت غلامًا جميلاً. وأخفوه لئلا يراه أحد ويأخذه منهم، وقصدوا جعله بضاعة يبيعونه فى مصر على أنه رقيق، والله عليم بما يعمل الجميع من إخوة يوسف والسيارة، فلن يترك يوسف أبدًا، ولما وصلوا مصر باعوا يوسف بثمن ناقص هو دراهم قليلة، وكانوا غير راغبين فيه لئلا يظهر مَنْ يطالبهم به، وقال الذى اشتراه من مصر وهو كبير وزراء الملك، ويلقب بالعزيز كما سيأتى. قال لامرأته: أكرمى إقامته بيننا بحسن المعاملة ولا تعامليه كالخدم، وبيَّن سبب ذلك بقوله: عسى أن ينفعنا فى القيام بشئوننا، أو نتخذه ولدا نسر به، وكان عقيما، قال تعالى وكما جعلنا ليوسف إقامة كريمة جعلنا له فى أرض مصر منزلة ممتازة، وفعلنا له ما ذكر لنتم عليه النعمة، ولنعلمه من تأويل الأحاديث كتعبير الرؤيا الذى كان سببا فى نجاته، ووصوله إلى المنزلة العليا فى الدولة، كما سيأتى فى الآيات (٣٦، ٣٧، ٤٧) من هذه السورة صفحتى ٣٠٨، ٣١٠، والله قوى قادر على تنفيذ كل أمر يريده ومنه رفعة قدر يوسف، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك ومنهم إخوة يوسف عندما ظنوا أنهم قادرون على التفريق بين يوسف وأبيه ليخلو لهم الجو، ففشلوا وتم ما أراد الله، ولما بلغ يوسف غاية قوته آتيناه من لدنا حكمة وعلما نافعًا فى كل شىء من تأويل الرؤيا وتدبير الامور، وقد ظهر ذلك فى تنظيم أقوات مصر، ومنع المجاعة وحيلته فى إحضار أخيه إليه، وعدم مسارعته فى الخروج من السجن عندما طلبه الملك، إلى غير ذلك، ومثل هذا الجزاء الحسن الذى جازينا به يوسف نجزى كل محسن لعمله بما هو الأصلح له فى دينه ودنياه، ثم شرع سبحانه فى بيان ما جرى ليوسف فى منزل العزيز فقال: وراودته إلخ.. أى وخادعته لتصرفه عن عفافه إلى ما تريد.

وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ(١) وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ(٢) ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَى(٣) بُرْهَانَ(٤) رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى(٥) الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي(٦) عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ(٧) ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٨) ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى(٩) قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا

المفردات: . ﴿هيت﴾: اسم فعل بمعنى أقبل. ﴿لك﴾: أى أن الخطاب لك أنت. ﴿معاذ الله﴾: . الأصل أعوذ به معاذا، أى أتحصن به تحصنًا قويًا. ﴿إنه ربى أحسن مثواى﴾: أى إنه سبحانه ربى أحسن إقامتى فى بلد الغربة.

﴿همت به وهم بها﴾: قال شارح مسلم الثبوت محمد بن نظام الدين الأنصارى فى كتابه (الأصل الثانى السنة) أنها همَّت بقتله وهمّ هو بقتلها دفاعًا عن نفسه، وذلك لأن الهم لا يكون إلا بفعل والمرأة قابلة لا فاعلة، انظر مادة الهم كلها فى القرآن فإنها لا تدل إلا على ذلك، ومنها ما فى الآية (٧٤) من سورة التوبة صفحة ٢٥٤ فافهم واحترس مما افتراه أعداء الدين على أنبياء الله حتى وقع فيه كثير من المفسرين عن غفلة. وتأمل ما سيأتى من قولها: ﴿فاستعصم﴾. ﴿برهان ربه﴾: أى طريقًا للخلاص بإلهام من ربه. ﴿السوء﴾: القتل بدون سبب لإمكان الخلاص بدونه.

﴿والفحشاء﴾: الزنا. ﴿المخلصين﴾: هم الذين أخلصهم ربهم من النقائص ﴿واستبقا الباب﴾: أراد كل منهما أن يسبق صاحبه إلى جهة الباب: هو ليخرج، وهى لتمنعه. ﴿وقدت قميصه﴾: قطعته. ﴿من دبر﴾: من خلف فوق كتفيه. ﴿وألفيا﴾: وجدا. ﴿سيدها﴾: زوجها وهو العزيز كما سيأتى. وتأمل إضافة السيد إليها دونه تعلم أن هذا يبعد أن يكون يوسف يقصد العزيز فى قوله ﴿ربى أحسن مثواى﴾. ﴿لدى الباب﴾: أى عند الباب الخارجى الذى بعده

---

(١) الأبواب (٢) الظالمون (٣) رأى
(٤) برهان (٥) لدى (٦) راودتنى
(٧) الكاذبين (٨) الصادقين (٩) رأى

الخلاص. ﴿بأهلك﴾: أى بزوجك. ﴿سوءًا﴾: أى شيئًا يسوءك. ﴿شاهد من أهلها﴾: هو رجل عاقل جيد التفكير واستجلاء الحقائق، وسمى قوله شهادة لأنه أدى مؤداها فى براءة يوسف. ﴿من قُبل﴾: أى من الأمام من جهة الصدر. ﴿أعرض عن هذا﴾: أى اكتمه ولا تحدث به أحدا.

المعنى: وراودته امرأة العزيز فامتنع، بدليل اعترافها الآتى فى الآية (٣٢) من هذه السورة صفحة ٣٠٧، وعطفها استعصم بالفاء على المراودة عند ذلك غلقت الأبواب وقالت تعال أنت، فقال: معاذ الله أن أقابل نعمة ربى بعصيانه فأكون من الظالمين، فلما رأت منه هذا الاحتقار لها امتلأ صدرها بنار الغيظ، وصممت على الانتقام من خادم اشترته ويهينها، فهَمّت بالبطش به، وهَمّ هو أيضًا بقتلها، ولكنه سرعان ما أدركته العناية فأدرك أن للخلاص طريقًا غير القتل وهو الفرار. كهذا التثبيت تثبت يوسف دائمًا فى المستقبل لنصرف عنه السوء والفحشاء لأنه من عبادنا المخلصين.. وأسرع يوسف للباب الذى يوصله للخارج فأسرعت وراءه وصارت تمنعه بجذبه من قميصه من الخلف حتى قطعته، وعند الباب وجدا زوجها يريد الدخول، فمن شدة دهائها أنها لم تتلعثم عند المفاجأة، وأنها جعلت مراودته لها أمرًا لاشك فيه، فقصرت كلامها على نوع العذاب الذى يجازى به، فقالت لاجزاء له إلا أن يسجن أو عذاب أليم. ولعلها كانت تفضل السجن مدة قصيرة حتى لا يبعد عنها فإذا استمر على عناده يعذب العذاب الدائم. قال يوسف دفاعًا عن نفسه: هى التى راودتنى عن نفسى. فلما اختلف قولهما تقدم رجل عاقل من أهلها ليس فى شهادته تهمة وقال: إن كان قميصه قطع من الأمام فتكون هى الصادقة وهو كاذب لأنه مهاجم وهى مدافعة، وإن كان قطع من الخلف فهى الكاذبة وهو الصادق. ولو كان هذا الشاهد طفلاً كما يقولون لكان مجرد نطقه بأن يوسف برىء كافيا ولا حاجة لهذا الاستدلال، فتأمل. فلما رأى العزيز أن قميص يوسف قد قطع من الخلف علم براءته وقال إن هذا العمل ومحاولة التنصل منه باتهام البرىء هو من كيد النساء المعهود عنهن، إن كيدكن معشر النساء عظيم لا يفطن الرجال لحيلكن فيه. ثم التفت إلى يوسف وقال: يا يوسف أعرض عن حكاية ما حصل....

وَاستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين (٢٩)
* وقال نسوة في المدينة امرأت العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين (٣٠)
فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم (٣١)
قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين (٣٢) قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين (٣٣) فاستجاب له ربه

المفردات: . ﴿نسوة﴾: اسم جمع للمرأة لا واحد له من لفظه.

﴿فتاها﴾: خادمها.

﴿شغفها حبا﴾: مأخوذ من شغاف القلب وهو غلافه المحيط به، فشغفها أى اخترق حبه شغاف قلبها وغاص فى داخله حتى صارت لا تبالى.

﴿بمكرهن﴾: لعلها سمعت قولهن مكرا لشبهه به فى الخفاء، ولأنهن يردن طرده ليتمتعن به.

﴿اعتدت﴾: أى أعدت وهيأت.

﴿متكأ﴾: قال ابن عباس: هو الأترنج، وهو نوع من الفاكهة.

﴿أكبرنه﴾: أى عظمنه ودهشن من جماله. ﴿وقطعن أيديهن﴾: أى جرحنها جروحًا شديدة.

﴿حاش لله﴾: أصل المراد بها إعلان تنزيهه تعالى عن كل نقص وأردن بها التعجب وتنزيهه تعالى عن أن يخلق هذا الشاب من نوع البشر.

﴿فاستعصم﴾: أى أسرع فى المبالغة فى العصمة والامتناع. ﴿من الصاغرين﴾: هو من صغر بكسر الغين كفرح إذا ذل واحتقر، أى من الأذلاء المهانين، انظر الآية (٢٩) من سورة

---

(١) امرأة (٢) تراود
(٣) فتاها (٤) لنراها
(٥) ضلال (٦) وآتت
(٧) واحدة (٨) حاش
(٩) راودته (١٠) آمره
(١١) الصاغرين (١٢) الجاهلين

التوبة صفحتى ٢٤٤، ٢٤٥ . ﴿أصب إليهن﴾: أى أمل. ﴿من الجاهلين﴾: السفهاء. ﴿فاستجاب له ربه﴾: أى أجاب دعاءه على أحسن وجه.

المعنى: . والتفت إلى زليخا بفتح الزاى وقال: وأنتِ استغفرى لذنبك إنك كنت من جنس مرتكبى الخطايا عمدا من رجال ونساء. وقال نسوة فى عاصمة مصر: امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه لأن حبه قد ملأ قلبها، وهذا أمر عجيب منها، إنا نعتقد أنها فى بعد عن الصواب واضح، فلما سمعت زليخا بمكرهن مكرت بهن كما مكرن بها، فدعتهن إلى حفل فى دارها، وأعدت لهن فيما قدمته من الطعام أترجا يحتاج أكله إلى تقشيره وتقطيعه بالسكين، ولذا وضعت لكل واحدة منهن سكينًا. ويبدو أنها أجادت سنها حتى يحصل ما تريد من إقامة الحجة عليهن فيعذرنها، وكانت حجزت يوسف فى غرفة داخل الغرفة التى كان فيها الطعام، ولذا قالت ﴿اخرج عليهن﴾ لتفاجئهن به وهو على أحسن صورة، وكن لم يرينه قبل ذلك، وبينما كن مشغولات بتقطيع الفاكهة وقعت عليه أعينهن. فاستولت عليهن الدهشة، وتحركت السكاكين فى أيديهن من غير شعور، فجرحت أيديهن جروحًا كثيرة، وقلن متعجبات: معاذ الله أن يكون هذا من البشر، إنما هو ملك كثير المحاسن، وهذا صدر منهن بناء على تصور الإنسان أن الملك أحسن الأحياء صورة كما يتصور أن الشيطان أقبحهم صورة، مع أن الإنسان لم ير ملكًا ولا شيطانًا، وبعد أن أقامت عليهن الحجة على عذرها باحت بما فى نفسها فقالت: لقد راودته عن نفسه فأسرع فى مقابلة طلبى بالرفض الشديد، وتمسك بالعصمة وعصانى، وإنى أقسم لئن لم يفعل ما أمرته به لأجمعن له بين السجن والإهانة، بعد أن كنت قد اقترحت على زوجى واحدا منهما. كما تقدم فى الآية ٢٥ من هذه السورة صفحة ٣٠٦ فلما رأى يوسف تصميمها وموافقة النساء لها فزع إلى الجناب الأعلى وقال: يارب إنى أحب السجن وأكره ما يدعوننى إليه، وإن لم تصرف عنى شر كيدهن لى لإيقاعى فى المعصية فلا منجاة لى من الميل إليهن، وعند ذلك أكون من السفهاء الذين لا يعملون بما يعلمون. فاستجاب له ربه تضرعه....

فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ(١) لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي(٢) أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي(٣) أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ(٤) مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ(٥) ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي(٦) إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَا صَاحِبَيِ(٧) السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ

المفردات: . ﴿بدالهم﴾: أى ظهر رأى آخر هو سجنه المفهوم مما بعده.

﴿الآيات﴾: هى الشواهد على براءته: من حال القميص، وشهادة الشاهد، ومبالغته فى العفة حتى أمام جمع النسوة، واحتقاره الشهوات المغرية فى مثل بيت العزيز إلى غير ذلك مما لم يذكره سبحانه لنا.

﴿حتى حين﴾ إلى زمن غير محدد.

﴿أعصر خمرًا﴾: أى عنبا يصير خمرًا.

﴿إلا نبأتكما بتأويله﴾: أى أخباره التى يؤول إليها، والحالة التى سيكون عليها.

﴿تركت ملة﴾: تركت دخولها واتباع أهلها.

﴿قوم لا يؤمنون﴾: هم المشركون فى مصر وغيرها.

﴿يا صاحبى السجن﴾: أى يا ساكنين فى السجن كقوله أصحاب الجنة مثلاً.

المعنى: . فصرف عنه كيدهن وعصمه أن يكون من الجاهلين، إنه سبحانه هو السميع لدعاء مَنْ لجأ إليه، العليم بنيات المخلصين.

---

(١) الآيات
(٢، ٣) أرانى
(٤) نراك
(٥) كافرون
(٦) آبائى
(٧) يا صاحبى

لدعاء مَنْ لجأ إليه، العليم بنيات المخلصين.

ثم ظهر للعزيز ورجاله رأى بسجنه فقالوا والله لنسجننه إلى أجل غير معين ليكون تحت تصرفها. وهذا يدل على أن زليخا كانت مالكة لزمام زوجها تقوده كما تشاء، فسجنوه. ودخل معه السجن بطريق المصادفة فتيان من خدام ملك مصر، أحدهما خازن الطعام، والآخر ساقى الملك.

فرأى كل منهما رؤيا منامية، فقصاها على يوسف، وقال أحدهما إنى رأيت فى المنام أنى أعصر عنبًا ليصير خمرًا، وقال الآخر: إنى رأيت أنى أحمل خبزًا فوق رأسى تأكل منه الطير، أخبرنا يا يوسف بتفسير هذه الرؤيا لأنا نراك من المحسنين للناس ولتعبير الرؤيا فانتهز يوسف الفرصة التى مكنته من الدعاية لما يعتقده الحق من توحيد الله سبحانه، فقال لهما ما يمهد به لقبول دعوته: لا يأتيكما طعام غدًا مثلا من غير كسب منكما إلا كنت عالمًا به قبل وصوله فأخبركما بما سيكون عليه قبل أن يأتيكما؛ ذلك العلم الغيبى مما علمنى ربى بوحيه إلىّ به ليكون فيه دليل على صدقى، أى كما كان دليلاً على صدق عيسى عليه السلام فى الآية (٤٩) من سورة آل عمران صفحتى ٧٠، ٧١ .

ثم بين سبب هذه النعمة فقال: إنى ابتعدت عن اتباع ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة على الوجه الصحيح كافرون، لأنهم كانوا يعتقدون أن الملوك سيعودون فى الآخرة ملوكًا، ولذا كانوا يحفظون معهم حليهم وأموالهم.

ولعل هذا هو السبب فى التأكيد بذكر ضمير (هم). واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ما كان لنا أن نشرك بالله شيئًا مطلقًا، ذلك الفضل العظيم بالنبوة والهداية من فضل الله علينا وعلى الناس بإرسالنا إليهم، لنبشر فيهم الحق، وندعوهم لطريق النجاة، ولكن أكثر الناس لا يشكرون نعم الله عليهم، فهم يشركون معه غيره، ياساكنين

متفرقون خير أم الله الواحد[1] القهار ﴿٣٩﴾ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان[2] إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿٤٠﴾ يا صاحبي[3] السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴿٤١﴾ وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه[4] الشيطان[5] ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين ﴿٤٢﴾ وقال الملك إني أرى سبع بقرات[6] سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات[7] خضر وأخر يابسات[8] يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي[9] إن كنتم للرؤيا[10] تعبرون ﴿٤٣﴾ قالوا أضغاث[11] أحلام[12] وما نحن

المفردات: . ﴿متفرقون﴾: فى ذاتهم وصفاتهم وأنواعهم. ﴿إلا أسماء﴾: أى مجرد أسماء لا حقيقة لها. ﴿أنزل﴾: المراد أوجد كما فى الآية (٢٥) من سورة الحديد صفحة ٧٢٣ . ﴿سلطان﴾: برهان. ﴿القيم﴾: المستقيم. ﴿يا صاحبى السجن﴾: أى المقيمين فيه كما يقال أصحاب الجنة وأصحاب النار. ﴿ظن أنه ناج﴾: عبَّر بذلك تأدبًا مع الله عز وجل، وإلا فهو يعلم نجاته بدليل قوله ﴿قضى الأمر﴾ إلخ. ﴿ربه﴾: سيده وهو الملك، وكان من ملوك العرب الرعاة.

﴿اذكرنى عند ربك﴾: أى اذكر صفاتى التى شاهدتها عند الملك. ﴿ذكر ربه﴾: أى ذكر يوسف عند ربه، فالإضافة لأدنى ملابسة كما يقولون. ﴿فلبث فى السجن﴾: أى مكث. ﴿بضع سنين﴾: البضع من ثلاثة إلى عشرة، والمشهور أن كل مدة مكثه كانت سبعًا. ﴿عجاف﴾: جمع عجفاء وهى الضعيفة الهزيلة. ﴿الملأ﴾: هم أشراف القوم وزعماؤهم. ﴿أفتونى﴾: الاستفتاء هو السؤال عن الأمر المشكل المجهول، سواء أكان حكمًا شرعيًا أم خبرا عن شىء، وما هنا

(١) الواحد (٢) سلطان
(٣) يا صاحبى (٤) فانساه
(٥) الشيطان (٦) بقرات
(٧) سنبلات (٨) يابسات
(٩) رؤياى (١٠) للرؤيا
(١١) اضغث (١٢) احلام.

من الثانى. ﴿تعبرون﴾: أصله من عبر النهر، أى تنتقلون من معناها الخيالى إلى المعنى الحقيقى، والمراد تعرفون تفسير الرؤيا. ﴿أضغاث﴾: جمع ضغث بكسر أوله كما فى الآية (٤٤) من سورة ص صفحة ٦٠٢، وهى الحزمة من العيدان والحشائش المختلفة، والمراد خواطر وخيالات مختلفة لا ترمى إلى معنى.

المعنى: هل عبادة أرباب متعددين خير لكم أم عبادة الله الإله الحق المنفرد بالألوهية القهار الذى لايغلبه أحد.

وإذا كانت عبادة الواحد خيرًا فما تعبدون أنتم من دون هذا الإله الحق شيئًا إلا مجرد أسماء فارغة لا معنى لها فى الخارج. جعلتموها أسماء بمحض الجهل والضلال أنتم وآباؤكم ما أقام سبحانه عليها حجة، وليس الحكم الصحيح فيما يصح أن يعبد وما لا يصح إلا لله وحده.

ثم بيَّن هذا الحكم فقال: أمر سبحانه بأن لا تعبدوا أحدا غيره؛ ذلك التخصيص بالعبادة هو الدين المستقيم ولكن أكثر الناس يجهلون ذلك لتقليدهم آباءهم وتركهم النظر فى الدليل، انظر الآية (١٠٣) الآتية من هذه السورة صفحة ٣١٨ . وبعد ما أدى واجبه فى بيان الحق شرع فى جواب سؤالهما فقال: يا صاحبى السجن تفسير مناميكما أن عاصر الخمر سيخرج ويكون فى حاشية الملك ويكون هو ساقى الخمر، وأما صاحب الخبز فيصلب ويترك مصلوبًا حتى تأكل الطير من رأسه. وقد تم الأمر ونفذ الحكم على الوجه الذى بينته لكما بما تستفتيان. وقال يوسف للساقى: اذكرنى عند الملك بما رأيت عسى أن ينصفنى ممَّنْ ظلمونى. وهذا من قبيل الأخذ بالأسباب لاعيب فيه، فشغل الشيطان ذلك الساقى بأمور أخرى حتى نسى ذكر يوسف عند ربه، فمكث يوسف فى السجن بضع سنين. وقال الملك إنى رأيت فى المنام سبع بقرات سمان يأكلهن سبع ضعاف، وفى ليلة أخرى رأيت سبع سنبلات خضر وأخر يابسات

ولعل الرؤيا الثانية كانت لتوجيه الذهن إلى معنى الرؤيا الأولى كما فهم يوسف عليه السلام، وقد جاءت فى التوراة على هذا الوجه.

وقال الملك أفتونى أيها الزعماء إن كنتم تعرفون تفسير الرؤيا. قالوا هذه الرؤيا تخاليط أحلام ووسوسة شيطان لا نعرف لها تأويلاً.

بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ[1] بِعَالِمِينَ[2] ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ[3] سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ[4] خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ[5] لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ[6] مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي[7] قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ[8]

المفردات: ﴿وادكر﴾: أى تذكر.

﴿أمــة﴾: أى مـدة من الـزمن طـويلة، انظر الآيـة (٨) مـن سـورة هـود صـفـحـة ٢٨٥ .

﴿الصـديق﴾: أى بالغ النهـاية فى صدق الأقوال والأفعال.

﴿تزرعون﴾: خبر بمعنى الأمر، أى ازرعوا، وهو مقدمة لتفسير الرؤيا.

﴿دأبا﴾: أصله مصـدر داب فى العمل إذا واظب عليـه، وأريد به هنا اسم الفـاعل، أى دائبين مداومين. ﴿ذروه﴾: اتركوه.

﴿فى سنبله﴾: أى فى عيدانه حتى ينتفعوا بالحب وينتفع الحيوان بالتبن فهو من قبيل إطلاق الجزء على الكل. ﴿شداد﴾: أى فى الجدب والقحط.

﴿يأكلن ما قدمتم لهن﴾: إسناد الأكل للسنين للمبالغة، والمراد يأكل الناس فيهن كل ما قدموه للادخار.

(١) الأحلام.
(٢) بعالمين.
(٣) بقرات.
(٤) سنبلات.
(٥) يابسات.
(٦) فاسأله.
(٧) اللاتى.
(٨) راودتن.

﴿تحصنون﴾: أى تحفظون وتدخرون للبذر. ﴿يغاث الناس﴾: يأتيهم الله بالغوث من مطر وخصب.

﴿يعصرون﴾: كل ما يعصر لاستخراج شرابه أو زيوته كالعنب والزيتون والسمسم.

﴿ما بال النسوة﴾: أى ما حقيقة حالهن.

﴿ما خطبكن﴾: أصل الخطب هو الشأن العظيم الذى يتخاطب بخصوصه الناس، انظر الآية (٥٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤٢، والآية (٩٥) من سورة طه صفحة ٤١٥، والمراد هنا ما حالكن وشأنكن.

المعنى: . وقال الذى نجا من صاحبى السجن والحال أنه قد تذكر بعد مدة طويلة وصية يوسف: أنا أخبركم بتفسيره بعد تلقيه عمَّنْ يعرفه، فأرسلونى إلى السجن الذى هو فيه، فأرسلوه فجاء وقال يا يوسف، يا شديد الحرص على الصدق، أفتنا فى رؤيا سبع بقرات سمان إلخ، لعلى أرجع إلى أولى الأمر بما تقوله لعلهم يعلمون معناها ويعرفون فضلك وعلمك. فأراد يوسف أن ينبههم إلى ما يجب عمله قبل أن يفسر الرؤيا ليتلافوا ما سيكون من الخطر، فقال: ازرعوا القمح والشعير سبع سنين مداومين على ذلك، وما تحصدونه منه اتركوه محفوظا فى سنبله بطريقة تبعد عنه السوس، إلا قليلاً مما تأكلونه فى هذه السنين الخصبة مع الاقتصاد، وسيأتيكم بعد ذلك سبع سنين شديدة الجدب يأكل الناس فيها كل ما قدمتم لهم من هذه الحبوب المدخرة، واحفظوا قليلاً من تلك الحبوب ليكون بذرا لما يزرع فى المستقبل، ثم يأتى بعد تلك السنين المجدبة عام يغاث الناس فيه ويعصرون كل ما يعصر للشرب والأدام. فذهب الرسول إلى الملك ورجاله وأخبرهم فقال الملك: أحضروا لى يوسف.

فلما جاء رسول الملك ليوسف يطلبه للمقابلة قال له ارجع إلى سيدك واسأله قبل ذهابى إليه ما حقيقة مسألة النسوة اللاتى قطعن أيديهن؟ وما سبب ذلك؟ واعلموا أن هناك كيدا دبر للأبرياء، وربى هو وحده العليم بكيد النساء. فبلغ الرسول كلام يوسف للملك، فلفت نظره هذا الموقف العجيب من يوسف، فسأل، فأخبروه بما شاع من مراودة امرأة العزيز، فجمع النساء المجروحات أيديهن وقال ما شأنكن عندما راودتن يوسف؟

يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ * وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ

المفردات: . ﴿حصحص الحق﴾: ظهر واتضح.

﴿لم أخنه بالغيب﴾: المراد فى غيبته.

﴿استخلصه لنفسى﴾: أجعله خالصًا لنفسى.

﴿مكين﴾: ذو مكانة ومنزلة رفيعة.

﴿اجعلنى على خزائن الأرض﴾: أى ولنى أمر خزائن أموال وحبوب أرض مصر لأتصرف فيها بما فيه المصلحة.

﴿مكنا ليوسف﴾: أى جعلناه متمكنا من التصرف فى أرض مصر.

﴿يتبوأ منها﴾: أصلها يتخذ مباءة أى منزلاً، فالمراد ينزل فى أى مكان فيها، انظر الآية (١٢١) من سورة آل عمران صفحة ٨٣، والآية (٧٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٤ .

المعنى: . هل وجدتم من يوسف ميلاً؟ وما سبب سجنه؟ قلن جميعًا حماه الله ما علمنا عليه أدنى شىء يسوء شرفه.

وقالت امرأة العزيز: الآن ظهر الحق، أنا التى راودته عن نفسه وهو لم يراودنى، بل أسرع

(١) حاش
(٢) امرأة
(٣) الآن
(٤) راودته
(٥) الصادقين.

بالعصمة والإعراض عنى، وإنه لَمِنَ الصادقين فى قوله هى راودتنى. ذلك الإقرار بالحق له ليعلم يوسف الآن حين يبلغه قولى هذا أنى لم أخنه فى غيبته من يوم سجن إلى وقتنا هذا، فلم أمس شرفه وعفته، وليزداد علما بأن الله لا يهدى كيد الخائنين، بل تكون عاقبة كيدهم وبالاً عليهم.

وما أبرئ نفسى من الخطأ لأن طبيعة النفس أنها كثيرة الأمر بالسوء فى كل وقت، إلا وقت رحمة ربك لصاحبها فإنه يحفظها، إن ربى عظيم المغفرة لما يعترى النفوس بمقتضى طباعها إذا تاب العبد منها، واسع الرحمة فلا يعجل بالعقوبة.

فلما تحقق للملك نزاهته قال ائتونى به من السجن اجعله خاصًا بى ومن أهل مشورتى، فأتوا به: فلما كلمه الملك ورأى حسن إجابته ورجاحة عقله قال إنك من الآن ذو مكانة ومنزلة رفيعة عندى مؤتمن على كل شىء.

قال يوسف: اجعلنى رئيسًا على إدارة خزائن المال والأقوات فى أرض مصر، لأنى شديد المحافظة على ما فى عهدتى، عليم بأحسن وجوه التصرف فيه، وأنتم مقبلون على شدة، فيجب الاحتراس من خطرها.

وكهذا التمكين البديع الذى تصورتموه الآن مكنا ليوسف فى أرض مصر ينزل فى بلادها حيث شاء، نختص برحمتنا فى الدنيا بالملك والغنى مَنْ نشاء حسب حكمتنا، ولا نضيع أجر المحسنين كما فى الآية (٣٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٥ .

وعزتى لأجر الآخرة من النعيم الدائم خير للذين آمنوا واستمروا على التقوى بالبعد عن المعاصى.

ولما كان القحط فى هذه السنين الشداد قد عم مصر وما جاورها من الشام واشتهر فيما حول مصر أن بها حبوبًا تباع، أرسل يعقوب أولاده جميعًا ما عدا أصغرهم وهو بنيامين شقيق يوسف، ولما وصلوا مصر دخلوا على يوسف....

فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا

المفردات: . ﴿منكرون﴾: أى جاهلون به ولا يعرفونه.

﴿بجهازهم﴾: أصل الجهاز ما يعد من الأمتعه للتنقل والمراد هنا ما يحتاجونه من الحبوب.

﴿المنزلين﴾: هو من أنزلت الضيف عندى أى أحسنت ضيافته.

﴿لفتيانه﴾: جمع فتى والمراد عماله الكيالون.

﴿بضاعتهم﴾: المراد ما جاءوا به من الشام ليشتروا به غلالاً وكانت نعالا وجلودا وفضة.

﴿رحالهم﴾: جمع رحل وهو وعاء المتاع.

﴿انقلبوا﴾: أى رجعوا.

﴿نكتل﴾: يقال اكتال أى أخذ ما يكال كما فى الآية (٢) من سورة المطففين صفحة ٧٩٦، والمراد نكتال من الطعام ما نحتاجه.

﴿خير حافظًا﴾: حافظًا أى خير من جهة الحفظ.

﴿ما نبغى﴾: أىّ ما الذى نطلبه بعد هذا الإكرام:

(١) سنراود (٢) لفاعلون (٣) لفتيانه (٤) بضاعتهم (٥) لحافظون
(٦) آمنكم (٧) حافظا (٨) الراحمين (٩) متاعهم (١٠) بضاعتنا

﴿نمير أهلنا﴾: أى نجلب لهم من الميرة وهى الطعام الذى ينقل من بلد إلى آخر.

المعنى: . فلما دخلوا على يوسف يطلبون غلالاً، عرفهم على الفور وهم لم يعرفوه. يقال إنه عليه السلام لما أراد الحيلة لحضور أخيه بنيامين من حيث لا يشعرون أظهر لهم أنه يشك فى أنهم جواسيس لدولة أخرى، وإلا فما هو السبب فى مجيئهم مجتمعين بهذا العدد، فدافعوا بأنهم جميعًا إخوة لرجل واحد، بل إن لهم إخوة آخرين من زوجة أخرى.

فلما جهزهم بما يطلبون من حبوب وأعطى كل واحد حمل بعير وطعامًا يأكلونه فى الطريق، قال لهم إن كنتم صادقين فأحضروا لى فى المرة الثانية أخا من أبيكم حتى أتحقق من صدقكم، ألا ترون أنى وفيت لكم الكيل وأحسنت ضيافتكم مدة إقامتكم بمصر، فإن لم تأتونى به فلا تنتظروا منى فى المرة الثانية شيئًا، بل لا تقربوا بلادى فأمنعكم من دخولها.

ومن إتقان الحيلة أنه لم يقل بأخيكم من أبيكم، خوف أن ينتبهوا إلى أنه يعرفه. قالوا سنراود عنه أباه، أى نستميله بلطف وحيلة، وإنا لواصلون لغرضنا لشدة حاجتنا إلى الطعام. وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم التى جاءوا ليشتروا بها الطعام فى رحالهم من حيث لا يشعرون لعلهم يعرفون فضل إرجاعها لهم وإعطائهم الغلة بلا ثمن، لعلهم بعد معرفة ذلك يرجعون إلينا ثانيًا بعد علمهم كرمنا.

فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا إن عزيز مصر أمر بمنع الكيل لنا فى المستقبل إذا لم نحضر معنا أخانا بنيامين، فأرسله معنا نكتل ما نطلبه بقدر عددنا، وإنا سنحافظ عليه فى الذهاب والإياب، قال: هل يصح أن أخطئ ثانيًا وآمنكم عليه كما أخطأت عندما أمنتكم على أخيه يوسف من قبل فأضعتموه فالله خير مَنْ يحفظه لى وهو أرحم الراحمين، فأرجو أن يرحمنى بحفظه، ولا يبتلينى بفقده كما فقد أخوه.

ولما فتحوا أوعية طعامهم وجدوا فيها مع الغلة ما كانوا دفعوه من بضاعة ثمنًا للغلال. عند ذلك قالوا يا أبانا أى شىء نريده بعد هذا الإكرام الذى أكرمنا به العزيز؟ وهذه أيضًا بضاعتنا ردت إلينا تفضلاً منه، فأرسل معنا أخانا نمير أهلنا ونحفظ أخانا من كل مكروه.

وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ

المفردات: . ﴿نزداد كيل بعير﴾: بزيادة عددهم بأخيهم بنيامين.

﴿كيل يسير﴾: المراد من الكيل المكيل.

﴿موثقًا﴾: عهدا مؤكدًا بالقسم بالله عليه.

﴿أن يحاط بكم﴾: أن يحيط بكم عدو فيهلككم، انظر الآية (٢٢) من سورة يونس صفحة ٢٦٩ .

﴿آوى إليه أخاه﴾: أى ضمه إليه.

﴿تبتئس﴾: أى يلحقنك بؤس وحزن.

﴿السقاية﴾: وعاء يسقى به ويكال به الطعام، وهو المعبر عنه فيما سيأتى بالصواع.

المعنى: . ونزيد ما نأتى به مقدار حمل جمل من المكيل؛ ذلك المكيل يسير حصوله بوجود أخينا معنا.

قال يعقوب: لن أرسله معكم إلا إذا أعطيتمونى عهدا تقسمون عليه بالله لترجعن بنيامين فى كل حال إلا فى حال فنائكم جميعًا.

---

(١) آتوه
(٢) يابنى
(٣) واحد
(٤) أبواب
(٥) قضاها
(٦) علمناه
(٧) آوى.

فلما أعطوه العهد قال: اعلموا أن الله رقيب وشهيد على ما قلته وما قلتم، فاحذروا ما يغضبه.

وقال : يا بنى لا تدخلوا عاصمة العزيز من باب واحد حتى لا تحوم حولكم الشبهة كالمرة الأولى، أو يكيد لكم الكائدون، وما أدفع عنكم بتدبيرى هذا من قضاء الله تعالى شيئًا إن أراد بكم مكروها، فليس القضاء فى تدبير العالم إلا له سبحانه وحده، له دون غيره فوضت أمرى، وعليه يجب أن يعول كل متوكل بعد أخذ الأسباب العادية.

ولما دخلوا من أبواب متفرقة كما أمرهم أبوهم، ما كان دخولهم هذا يدفع عنهم من قضاء الله شيئًا كما اعتقد يعقوب، فقد أصابهم ما أحزنهم باتهام أخيهم بالسرقة، وحجزه بمصر، وشدة المصيبة عليهم وعلى أبيهم.

لكن تلك الوصية من يعقوب كانت لحاجة تدور بخلده وهى الاحتياط لسلامة بنيامين والعودة به.

وقد حققت الوصية، ولكن قضاء الله تعالى فوق كل تدبير، وإن يعقوب لصاحب علم خاص به وبأمثاله الأنبياء لما علمناهم بالوحى.

ولذا مع كونه احتاط قال لا أغنى عنكم من الله شيئًا ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الواجب الجمع بين الاحتياط والتوكل عليه تعالى.

ولما دخلوا على يوسف فى مجلسه الخاص انتهز فرصة ضم فيها أخاه إليه وقال له سرًا أنا أخوك يوسف فلا تحزن بما كانوا يعملون بنا فيما مضى؛ لأن الله قد أنجانا وجمعنا على أحسن وجه.

ولما جهز لهم طلباتهم دس هو بيده السقاية فى متاع أخيه بدون أن يشعر به أحد اتقانا للسرية...

ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ[1] ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ[2] ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ[3] إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ[4] ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ[5،6] كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ[7] ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ[8] مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ * قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾

المفردات: ﴿أذن مؤذن﴾: أى نادى مناد.

﴿العير﴾: هى الإبل التى عليها أحمالهم، والمراد أصحابها.

﴿صواع الملك﴾: الصواع هو الصاع الذى يكال به، وهو المعبر عنه فيما تقدم بالسقاية، فيعاد الضمير عليه مذكرا ومؤنثًا وكانت من فضة.

﴿وأنا به زعيم﴾: أى كفيل وضامن، وهذا من كلام المؤذن.

﴿رحله﴾: هو وعاء المتاع كما تقدم فى الآية (٦٢) من هذه السورة صفحة ٣١٢.

﴿أوعيتهم﴾: أى رحالهم التى فيها متاعهم.

﴿كدنا ليوسف﴾أى دبرنا لصالحه تدبيرا خفيًا.

﴿فى دين الملك﴾: أى شريعته وقانونه.

﴿مكانًا﴾: أى منزلة.

﴿تصفون﴾: تكذبون كما تقدم فى الآية (١٨) من هذه السورة صفحة ٣٠٥.

---

(١) لسارقون
(٢) سارقين
(٣) جزاؤه
(٤) كاذبين
(٥، ٦) جزاؤه
(٧) الظالمين
(٨) درجات

المعنى: . وبعدما شرعوا فى الانصراف افتقد الفتيان السقاية التى يكيلون بها، ولما لم يكن فى المكان سوى إخوة يوسف، نادى أحد الفتيان عليهم مكررا نداءه قائلاً فيه: يا أصحاب الإبل إنكم لسارقون. قالوا وهم راجعون إلى الفتيان: ما الذى فقدتموه؟ ولم يقولوا: ما الذى سرق، مبالغة فى إبعاد شبهة السرقة عنهم، ولفتا لنظر الفتيان إلى حسن الخطاب؛ ولذا تنبه الفتيان وعدلوا عن الاتهام وقالوا: فقدنا صواع الملك الذى عليه شارة الدولة، ولمَنْ أوجده أو أرشد إلى مكانه حمل جمل من الغلال مكافأة. وقال المؤذن وأنا ضامن تسليم هذا الحمل.

قال إخوة يوسف: والله لقد علمتم من سيرتنا أثناء إقامتنا بينكم أننا ما جئنا لنفسد فى أرض مصر بالسرقة؛ لأن السرقة ليست من عادتنا.

قال الفتيان بأمر يوسف: فما جزاء سارقه إن كنتم كاذبين فى دعوى النزاهة؟ قالوا جزاء سرقته أخذ مَنْ وجد فى رحله وجعله رقيقًا، هذا هو جزاؤه عندنا فى شريعة يعقوب، وكذلك هو جزاء كل ظالم. وكانت شريعة ملك مصر أن السارق يضرب ويغرم ضعف قيمة المسروق. عند ذلك بدأ يوسف عليه السلام بمعاونة غلمانه بتفتيش أوعيتهم جميعًا مبتدئًا بأوعيتهم قبل وعاء أخيه لنفى تهمة أنهم هم الذين وضعوه فيها، فلما فتشوا وعاء أخيه أخرجها منه، فنفذ الجزاء وحجزه. وبهذا كدنا ليوسف كيدًا مثل كيدنا المعهود عنا دائمًا بالإتقان والإحكام، فحققنا له غرضه بهذا التدبير الخفى، ومنه أنه ألهم أن يستفتيهم فيفتوا بما يحقق طلبه، ولولا ذلك ما استطاع أن يأخذ أخاه؛ لأن شريعة ملك مصر تخالف ذلك كما تقدم، ولكن يوسف أخذ أخاه بمشيئة ربه وتيسيره. والله يرفع درجات مَنْ يشاء بالعلم والفضل كما رفع درجات يوسف. وفوق كل عالم من أصحاب هذه الدرجات عليم لا يدانيه أحد من خلقه وهو المولى سبحانه وتعالى. وعندما ظهرت هذه الفضيحة حاول بعضهم وهم أشدهم كراهة ليوسف وأخيه أن يبعدوها عنهم بالكذب والزور فقالوا: إن يسرق اليوم بنيامين فقد سرق أخ له من قبل، يريدون يوسف، لأنهما من أم غير أمنا ورثوا السرقة عنها، فهذا عيب قاصر عليهما لا يمسنا بسوء. فأضمر يوسف هذه التهمة فى نفسه ولم يظهر أثرها لهم فى قول أو فعل، وقال فى نفسه: أنتم شر منزلة عند الله وعند مَنْ يعرف حقيقتكم، والله وحده هو العليم بكذبكم.

قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

المفردات: ـ ﴿استيئسوا﴾: أى يئسوا يأسا شديدًا.

﴿خلصوا﴾: أى صاروا خالصين من غيرهم وانفردوا بأنفسهم بعيدا عن الناس.

﴿نجيًا﴾: أصله مصدر كالتناجى وهو التخاطب سرا وأطلقوه على المتناجى مبالغة، فالنجى هو الذى يخاطب غيره سرا، يقال للواحد والجمع، انظر مع ما هنا الآية (٥٢) من سورة مريم صفحة ٤٠١ .

﴿موثقًا﴾: أى عهدا مؤكدا بالحلف بالله.

﴿ما فرطتم فى يوسف﴾: أى تفريطكم فيه.

﴿لن أبرح الأرض﴾: أى لن أفارق أرض مصر.

﴿وما كنا للغيب حافظين﴾: وما كنا عالمين بما سيكون مما غاب عنا.

﴿واسأل القرية﴾: أى اسأل أهل القرية وهى مصر.

﴿سولت لكم أنفسكم﴾: أى زينت وسهلت.

(١) نراك
(٢) متاعنا
(٣) لظالمون
(٤) استيأسوا
(٥) الحاكمين
(٦) حافظين
(٧) واسأل
(٨) لصادقون.

المعنى: ـ فلما ثبت لديهم أن بنيامين مدين، قالوا: يأيها العزيز إن له أبا شيخًا كبيرًا فى السن يحزنه فراقه، فخذ أحدنا بدله حتى ترحم بإحسانك هذا الشيخ الكبير، إنا نراك من المحسنين.

قال يوسف: نعوذ بالله أن نأخذ بريئًا، فلا نأخذ إلا مَنْ وجدنا صواعنا عنده لأنا إذا أخذنا البرىء نكون من الظالمين.

فلما استحكم يأسهم من تخليصه اعتزلوا الناس متناجين بالتشاور فيما يقولون لأبيهم؛ قال كبيرهم عقلاً ورأيًا ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم عهدًا مؤكدا لتردن بنيامين إليه؟ وألم تعلموا أيضًا تفريطكم فى يوسف قبل ذلك بعد تأكيد المحافظة عليه؟ فلن أفارق أرض مصر حتى يأذن لى أبى بالرجوع إليه، أو يحكم الله لى بأمر من عنده مما هو غائب عنى ولو بالموت، وهو سبحانه خير الحاكمين، لا يحكم إلا بالعدل، فارجعوا أنتم إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق صواع الملك فأخذه رقيقا وزيره العزيز.

وما شهدنا عليه بالسرقة إلا بعلمنا ذلك، وما كنا عندما أعطيناك العهد بحافظين للغيب حتى نعلم أنه سيسرق فلا نعطى عهدًا. واسأل أهل مصر الذين كنا عندهم، وأهل الجمال الذين كانوا هناك وأقبلوا معنا، وإنا لصادقون بما نقول لك.

فرجع الإخوة وقالوا ما وصاهم به كبيرهم. فقال يعقوب: لستم صادقين فيما تقولون، بل زينت لكم أنفسكم كيدًا آخر فنفذتموه كما سولت فى أخيه من قبل، وما فعلوه فى يوسف من دعوى أكل الذئب هو الذى حمله على سوء الظن بهم، وإن كانوا فى الواقع صادقين هنا كاذبين هناك.

لكن مَنْ له سابقة كذب يسهل لغيره اتهامه. فصبر جميل أليق بى كما تقدم، عسى الله أن يأتينى بيوسف وأخيه، أنه هو العليم بحالى وضعفى، الحكيم فيما يبتلى به عباده وفيما يدفع به البلاء. وإنما حمله على ترجى رجوعهما علمه بصدق رؤيا يوسف، ولأن الشدة إذا بلغت غايتها يعقبها الفرج.

وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن

المفردات: . ﴿يا أسفى﴾: الأسف شدة الحزن على ما فات، وقد تقدم أن مثل هذا التركيب يراد به إظهار التحسر.

﴿كظيم﴾: شديد كظم غيظه لا يشكو لمخلوق.

﴿تفتأ﴾: معناه تزال، وحذف حرف النفى معها قياسي، والأصل لاتزال.

﴿حرضًا﴾: أصله مصدر حرض بكسر الراء كطرب أى قرب من الهلاك، وأريد به اسم الفاعل، أى القريب من الهلاك.

﴿بثى﴾: البث فى الأصل تفريق الشيء، ومنه بث الريح التراب، ويطلق على الشيء المبثوث المنتشر، وأريد به هنا الغم.

﴿وحزنى﴾: الحزن ألم فى النفس ينشأ من شدة الغم.

﴿فتحسسوا﴾: أى ابحثوا واطلبوا معرفة خبر من أخبار يوسف.

﴿روح الله﴾: فرجه ورحمته.

﴿الضر﴾: الضعف من شدة الجوع.

---

(١) تفتأ (٢) الهالكين
(٣) أشكو (٤) يابنى
(٥) تيئسوا (٦) ييئس
(٧) الكافرون (٨) ببضاعة
(٩) مزجاة (١٠) جاهلون.

﴿مزجاة﴾: رديئة يدفعها كل واحد عن نفسه لرداءتها، انظر الآية (٤٣) من سورة النور صفحة ٤٦٥.

المعنى: . وانصرف يعقوب عنهم، وتذكر يوسف عند هذه المصيبة، وأعلن حسرته من عدم وجوده فى هذه الساعة ليسارع إلى خلاص أخيه وإرجاعه إليه، واشتد عليه الحزن والبكاء حتى اضطربت أعصابه وغطت عينيه غشاوة جعلته لا يكاد يبصر، وقد ساعد ذلك أنه كظيم لغيظه، ولم يفرج عن نفسه بالشكاية منه.

قالوا والله لاتزال تذكر يوسف وتتفجع عليه حتى يذيبك الحزن ويضعفك أو تهلك نهائيًا.

قال: لا أشكو غمى المبعثر حولى من كل جانب وحزنى إلاّ إلى الله؛ لأنى أعلم من لطفه ورحمته ما لاتعلمون فأرجو أن يرحمنى ويلطف بى.

يا بنى اذهبوا فتعرفوا شيئًا من أخبار يوسف وأخيه، ولا تيئسوا من رحمة الله لأنه لا ييئس منها إلا الكافرون لجهلهم بسعة رحمته سبحانه. فلما سمعوا وصية أبيهم سافر بعضهم إلى مصر ليبحث ويجلب قوتًا، فلما دخلوا على يوسف قالوا يأيها العزيز أهلكنا الجوع وجئنا نطلب غلة بثمن ردىء، فأوف لنا الكيل تفضلا منك ولا تنقصه لرداءة الثمن، وتصدق علينا بقبول بضاعتنا الرديئة.

قال يوسف منبهًا لهم لخطئهم: هل علمتم الآن قبح ما فعلتم بيوسف وأخيه حين كنتم فى جهالة وطيش، أم مازال الجهل مخيما عليكم؟ وما فعلوه بأخيه هو سوء معاملته، وجفاؤهم له، وإشعاره بأنه مكروه منهم، حتى كان يشعر أنه ذليل بينهم؛ وهذا تحقيق لما وعده الله به فى الآية (١٥) من هذه السورة صفحة ٣٠٤.

فلما سمعوا ذلك وكان ما فعلوه بيوسف تقادم عليه العهد لا يعلمه أحد تفرسوا فى القائل فعرفوه، فقالوا نقسم إنك أنت يوسف. قال: حقًا أنا يوسف، وهذا أخى الذى فرقتم بينى وبينه، قد مَنّ الله علينا بما ترون.

يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ[1] ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ[2] ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ[3] ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ[4] ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ[5] عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ[6] ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ[7]

المفردات: . ﴿آثرك الله﴾: أى اختارك وفضلك.

﴿لاتثريب﴾: يقال ثرب فلان على فلان بتشديد الراء إذا عدد عليه ذنوبه، والمراد هنا لا لوم ولا تأنيب.

﴿فصلت العير﴾: يقال فصل عن البلد إذا انفصل عن حيطانه مفارقًا له. والعير تقدم بيانها.

﴿تفندون﴾: تنسبوننى إلى الفند بفتحتين وهو الكذب وفساد الرأى وضعف العقل.

﴿فى ضلالك القديم﴾: فى خطئك الذى قلناه سابقًا عنك، انظر الآية (٨) من هذه السورة صفحة ٣٠٣ .

﴿آوى﴾. أى ضمهما وعانقهما.

المعنى: . قد تفضل سبحانه علينا بكرمه لأن من اتقاه بالبعد عن معاصيه، وصبر على الشدائد ثقة بعدله، لا يضيع له أجر؛ لأنه سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عمله بالإخلاص فيه.

(١) آثرك
(٢) لخاطئين
(٣) الراحمين
(٤) ضلالك
(٥) ألقاه
(٦) خاطئين
(٧) آوى.

قالوا والله لقد فضلك الله علينا بالحلم والتقوى، وما كنا فيما فعلنا إلا متعمدين الخطيئة.

فلما أعلنوا خطأهم قال لن أوبخكم أبدا، ولكن لكم عندى صفح وعفو، وأرجو أن يغفر الله لكم؛ لأنه أرحم الراحمين لمن تاب من خطيئته.

وكان قد علم أن شدة الحزن أثرت فى نظر أبيه، وأن السرور يعيده كما كان، قال لإخوته: خذوا قميصى هذا الذى كنت ألبسه على بدنى واذهبوا به إلى الشام واطرحوه على وجه أبى فإنه يرجع بصيرًا وبعد ذلك ائتونى بأهلكم كلهم من الرجال والنساء والذرارى.

وقد روى أنهم عند دخولهم مصر كانوا سبعين رجلاً وامرأة وخرجوا مع موسى فى نحو سبعمائة ألف فلما انفصلت الجمال التى كان يركبها إخوة يوسف عن بنيان مصر قال يعقوب لمنْ بقى معه من أولاده وأحفاده: إنى لأشم ريح يوسف لولا أن تنسبونى إلى ضعف العقل لصدقتمونى. وهذا سر من أسرار الأرواح الطاهرة لا يعرفه إلا مَنْ منَّ الله عليه بنور البصيرة.

قالوا تالله إنك لفى خطئك القديم من إفراطك فى حب يوسف فلما وصل البشير يحمل ثوب يوسف وألقاه على وجه يعقوب رجع بصيرًا كما كان.

قال لمنْ عنده: ألم أقل لكم إنى أعلم من علم الله ورحمته مالا تعلمون، انظر الآية (٨٦) من هذه السورة صفحة ٣١٦ .

قالوا جميعًا يا أبانا اطلب من الله أن يغفر لنا ذنوبنا التى ارتكبناها فى حقك وحق إخوتنا، إنا كنا فيما مضى خاطئين، ولأنا تبنا إلى الله.

فلم يسرع يعقوب إلى الاستغفار، ليشعرهم أن جرمهم كان عظيمًا، وليزداد خوفهم من الله حتى تطهر قلوبهم تمامًا. لذا قال: سوف استغفر لكم ربى فى المستقبل، إنه واسع المغفرة والرحمة لمَنْ يحسن التوبة.

ثم بعد ذلك تجهزوا جميعًا للسفر إلى مصر حسب طلب يوسف، فلما دخلوا على يوسف...

إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) * رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ

المفردات: . ﴿العرش﴾: المكان الذى يجلس عليه لإدارة شئون الدولة.

﴿خروا له سجدا﴾: أى هبطوا برءوسهم نحو الأرض تعظيمًا له لا عبادة وكان ذلك هو تحية الملوك والعظماء فى عهدهم؛ ولكن الإسلام حرمه وجعله كفرا إذا قصد به التقرب.

﴿البدو﴾: البادية التى يعيش أهلها على الترحال وراء المرعى.

﴿نزغ الشيطان﴾: أصل النزغ نخس الفرس بالحديد لتجرى، ثم استعمل فى وسوسة الشيطان.

﴿لطيف لما يشاء﴾: يقال لطف بضم الطاء لطافة أى دق وصغر حتى خفى عن الأنظار، فهو لطيف، ضد كثيف، ثم استعمل فى التدبير الخفى السهل النفاذ. فاللطيف هو المدبر للأمور بدقة المسهل لصعابها.

﴿الملك﴾: المراد التصرف فى أمور مصر بلا منازع ﴿فاطر السموات والأرض﴾: موجدهما لا على مثال سابق. ﴿أجمعوا أمرهم﴾: جمعوا كلمتهم على إلقاء يوسف فى الجب.

(١) آمنين
(٢) يا أبت
(٣) رؤياى
(٤) الشيطان
(٥) آتيتنى
(٦) السموات
(٧) وليى
(٨) بالصالحين
(٩) تسألهم

المعنى: . فلما دخلوا على يوسف فى المكان الذى أعده لاستقبالهم خارج مصر، ضم إليه أبويه وعانقهما، وقال لهما ولإخوته ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين على أنفسكم وأنعامكم من الجوع والهلاك وبعدما وصل مصر جلس على العرش ورفع أبويه عليه تكريما لهما، وسجدوا جميعًا الأحد عشر بما فيهم بنيامين، تحية له، وكانت بدل المصافحة، وقال يوسف يا أبت هذا السجود منكم هو تفسير رؤياى التى أخبرتك بها من قبل، وهى فى الآية (٤) من هذه السورة صفحة ٣٠٢، قد جعلها ربى حقيقة واقعة وقد شملنى ربى بإحسانه حين أخرجنى من السجن الذى ترتب عليه وصولى أعلى المراتب، وتفضل علىّ لما جاء بكم من البادية القاحلة إلى الحضر الخصيب؛ فعل ربى كل هذا بعد أن أفسد الشيطان بينى وبين إخوتى، إن ربى محكم التدبير لما يشاء إنفاذه، إنه هو العليم بمصالح عباده وطرق تحقيقها، الحكيم الذى يضع كل شىء فى محله.

ومن حسن أدبه عليه السلام أنه لم يتعرض لخروجه من الجب لئلا يؤلم إخوته، وجعل أثر الشيطان مشتركًا بينه وبين إخوته،مع أنه خاص بهم، تلطفًا بهم، فما أروع هذا الأدب النبوى. وبعد ذلك اتجه يوسف إلى ربه معددًا نعمه عليه طالبًا حسن الخاتمة، فقال: يا رب قد أعطيتنى التصرف فى ملك مصر، وعلمتنى بعض العلوم التى أعرف بها مآل الأمور وتعبير الرؤيا على الوجه الصواب، يا مبدع السموات والأرض، أنت متولى أمورى فى الدنيا والآخرة، اقبضنى إليك على الإسلام تحقيقًا لوصية جدى إبراهيم فى الآية (١٣٢) من سورة البقرة صفحة ٢٥، وألحقنى بزمرة الصالحين من عبادك. وبعدما فرغ سبحانه من قصة يوسف أراد أن ينبه الكفار إلى وجه دلالتها على صدق رسوله، فقال سبحانه مخاطبًا نبيه ﷺ: ذلك القصص الذى قصصناه عليك بالحق من أخبار الغيب التى ما كنت تعلمها، أوحيناها إليك لأنك ما كنت يا محمد حاضرًا عندهم حين عزموا أمرهم على رمى يوسف فى الجب، وهم فى عملهم هذا يمكرون بيوسف، ويطلبون له الهلاك؛ ومع هذه الأدلة فإن الذى يؤمن بك من قومك قليل؛ لأن أكثر الناس مهما حرصت على إيمانهم لا يؤمنون لغلبة العناد عليهم، وقومك لا يؤمنون بك مع إنك لا تسألهم أجرًا على تبليغك رسالة ربك بما فى هذا القرآن، ففائدته عائدة عليهم لأنه تذكير لكل الناس وإرشاد....

لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ

المفردات: ـ ﴿كأين﴾: أى كثير. ﴿من آية﴾: أى دليل على وجود صانع عليم قادر.

﴿غاشية﴾: أى عقوبة تغشاهم وتعمهم.

﴿على بصيرة﴾: أى على يقين ناتج عن برهان.

﴿استيئس الرسل﴾: اشتد يأسهم.

﴿ظنوا﴾: توهموا.

﴿كذبوا﴾: أى كذبت عليهم أنفسهم حين أوهمتهم أن نصرهم سريع الوقوع، أو توهموا أن أممهم يكذبون عليهم فى إظهار الإيمان بهم؛ لأن تأخير ما وعدوهم به من هلاك الكافرين لم يحصل، فأورثهم ذلك شكا فى إيمان قومهم، وقد يكون كل ذلك كناية عن المبالغة فى تراخى النصر حتى تبلبلت النفوس، انظر الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢ .

﴿بأسنا﴾: أى عقابنا وعذابنا.

المعنى: ـ وما القرآن وما فيه من القصص إلا تذكير وعظة لجميع العالم. بعدما ذكر سبحانه أن أكثر الناس لا يؤمنون مهما حرص ﷺ على إيمانهم، أراد أن يبين سبب ذلك، وأنه

(١) للعالمين
(٢) السموات
(٣) غاشية
(٤) أدعو
(٥) وسبحان
(٦) عاقبة
(٧) استياس.

الغفلة عن التفكير فى آيات الله فى الكون، فقال: وكثير من أدلة وجوده سبحانه وصدق رسله يمرون عليها وهم معرضون لا يفكرون فيها ولا يعتبرون، ولا يغرنك زعمهم أنهم مؤمنون بالله كما فى الآية (٨٢) من سورة الأنعام صفحة ١٧٥، والآية (٦١) وما بعدها من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٩؛ لأنهم أفسدوا إيمانهم هذا بإشراك معبوداتهم وأحبارهم ورهبانهم مع الله فى الخضوع لهم والتوسل بهم إلى الله كما فى الآية (٣) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٥ ، ٦٠٦، فكيف يطمئن ضمير هؤلاء المشركين؟ فهل أمنوا من أن تأتيهم عقوبة تعمهم، أو تأتيهم الساعة فجأة فلا يستطيعون الرجوع من الشرك فيخلدوا فى النار. قل أيها النبى للناس هذه الشريعة هى طريقى إلى النجاة، أدعو إليها عن بينة أنا ومَنْ اتبعنى وصدق بى، وأنا وهم بريئون من شرك المشركين. ولما كان مما منع المشركين من الإيمان زعمهم أن الله تعالى لا يرسل بشرًا كما تقدم فى الآية (٩١) من سورة الأنعام صفحة ١٧٧، والآية (١٤) من سورة فصلت صفحة ٦٣١، رد سبحانه عليهم بقوله ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا﴾ لا ملائكة كما يزعمون، نوحى إليهم ما نريد تبليغه للخلق، واخترناهم من أهل القرى أى الأمصار دون البوادى ليتبعهم سائر البلدان، ولأن أهل القرى أحلم وأعلم وأحسن سياسة، وأنت أيها النبى مثلهم كما فى الآية (٩) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٧، أفلم يسر هؤلاء المشركون فى الأرض فينظروا كيف كانت عاقبة المكذبين من قبلهم كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم فيرجعوا إلى الحق فيفوزوا بالنعيم الدائم بدل هذا الزائل.

ووالله لنعيم الدار الآخرة خير للذين اتقوا الشرك والمعاصى. أجهلتم كل هذا فلا تعقلون أن النعيم الدائم خير، فتنبهوا، ولا يغرنكم ما أنتم فيه من الرخاء وتأخير العقاب، فإن مَنْ قبلكم من الأمم الذين كذبوا رسلهم أمهلوا أكثر مما أمهلتم كقوم نوح مثلا حتى إذا يئس الرسل من نصرهم عليهم وتوهموا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فجأة بإهلاك أعدائهم ونجاة مَنْ شاء الله نجاتهم من الأنبياء ومَنْ آمن معهم.

وهذه سنتنا، فلا يستطيع مخلوق رد عقابنا عن المجرمين لقد كان فى قصص الأنبياء مع أممهم ومنها قصة يوسف عبرة.....

عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى الْأَلْبَٰبِ(١) مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

(١٣) سُورَةُ الرَّعْدِ مَدَنِيَّة وَآيَاتُهَا ثَلَاثٌ وَأَرْبَعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓرٓ(٢) تِلْكَ ءَايَٰتُ(٣) الْكِتَٰبِ(٤) وَالَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَٰتِ(٥) لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ

المفردات: ﴿بين يديه﴾: أى تقدم عليه من الكتب.

سورة الرعد

انمفردات: ﴿المر﴾: تقدم الكلام على مثل هذه الحروف أول سورة البقرة.

﴿رفع السموات﴾: أى خلقها مرفوعة كما تقول سبحان من كبر الفيل وصغر البعوض أى خلقه كذلك.

﴿عمد﴾: هو ما يعتمد عليه، اسم جمع أو جمع واحده عماد بكسر أوله، انظر الآية (٧) من سورة الفجر صفحة ٨٠٦.

﴿استوى على العرش﴾: تقدم بيانه فى الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١.

﴿أجل مسمى﴾: هو قيام الساعة.

المعنى: فى سيرة هؤلاء الأنبياء مع أممهم عبرة يتعظ بها أصحاب العقول الخالصة من ظلمة الشرك. ما كان هذا القرآن وما فيه من القصص حديثا مكذوبا على الله على ما يزعم الكافرون. ولكنه كان تصديقا لما تقدمه من الكتب السماوية، أى لما فيها من الحق لا ما زادوه فيها من الخرافات والأباطيل ومفصلا لكل شىء يحتاج إليه المؤمن فى عقيدته وفى أعماله وهاديا من الضلال، وسبب رحمة فى الدارين لمن اتبعه من المؤمنين. والله أعلم.

المعنى: تلك الآيات من هذه السورة هى بعض آيات الكتاب المعجز للإنس والجن، وكل القرآن الذى أنزل إليك من ربك هو الحق الذى لا شك فيه، ولكن أكثر الناس لا ينتفعون به فلا يؤمنون لإغفالهم النظر والتأمل فيما حواه من العلوم والمعارف التى ما كان يعلمها أحد قبل نزوله. ثم أراد سبحانه أن يقيم الدليل على وجوده وقدرته تنبيها للغافلين فقال ﴿الله الذى رفع السموات﴾ إلخ، الله هو الذى خلق السموات مرفوعة بلا عماد تعتمد عليه وأنتم ترونها كذلك فلا يمسكها أن تقع على الأرض إلا هو، انظر الآية (٦٥) من سورة الحج صفحتى ٤٤٢،

(١) الألباب (٢) ألف لام ميم. (٣) آيات. (٤) الكتاب. (٥) الآيات.

رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ(١) وَأَنْهَٰرًا(٢) وَمِن كُلِّ الثَّمَرَٰتِ(٣) جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِى الَّيْلَ(٤) النَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ(٥) لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ(٦) وَجَنَّٰتٌ(٧) مِّنْ أَعْنَٰبٍ(٨) وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَٰحِدٍ(٩) وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ(١٠) لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ * وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا(١١) أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ الْأَغْلَٰلُ(١٢) فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ(١٣) النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ(١٤) ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَٰتُ(١٥) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ

٤٤٣)، ثم استوى على عرش ملكه استواء يليق به تعالى، وذلل الشمس والقمر وجعلهما طائعين لما أريد منهما، كل منهما يجرى فى منازله بنظام محكم إلى قيام الساعة، يدبر أمر ملكه على أحكم وجه، ويخلق دلائل وجوده مفصله واضحة لكى تتفكروا فيها لعلكم تعلمون أن من قدر على هذا الصنع الدقيق قادر على إعادة الموتى للحساب والجزاء.

المفردات: ﴿مد الأرض﴾: أى جعلها ممتدة طولا وعرضا ليمكن زرعها والانتفاع بها. انظر الآية (١٥) من سورة الملك صفحة ٧٥٥.

﴿رواسى﴾: جمع راسية، والتاء للمبالغة فى الثبوت كما يقال فلان طاغية.

﴿زوجين اثنين﴾: أى ذكرا وأنثى، والزوج يطلق على الواحد الذى له مقارن كما تقدم فى الآية (١٤٣) من سورة الأنعام صفحة ١٨٧. ﴿يغشى الليل النهار﴾: أى يجعل الليل غشاء للنهار فيصير مظلما. ﴿صنوان﴾: الصنوان هو نخلات أصلها واحد. ﴿الأكل﴾: هو ما يؤكل كما فى الاية (٢٦٥) من سورة البقرة صفحة ٥٦، والآية (١٤١) من سورة الأنعام صفحة ١٨٦.

﴿الأغلال﴾: جمع غل بضم أوله وهو طوق من حديد طرفاه فى اليدين ويلتف حول العنق.

﴿خلت﴾: مضت. ﴿المثلات﴾: جمع مثلة بفتح فضم، وهى العقوبة التى تماثل الذنب كما فى الآية (٤٠) من سورة الشورى صفحة ٦٤٤.

(١) رواسى. (٢) وأنهارا. (٣) الثمرات. (٤) الليل. (٥) لآيات.
(٦) متجاورات. (٧) وجنات. (٨) أعناب. (٩) واحد.. (١٠) لآيات.
(١١) ترابا. (١٢) الأغلال. (١٣) أصحاب. (١٤) خالدون. (١٥) المثلات.

المعنى: نصبنا لهم البراهين لعلهم يوقنون أى يعلمون علما قاطعا بلقاء ربهم فى الآخرة فيخافون ولا يفسدون فى الأرض. وبعد ما بين سبحانه الدلائل السماوية أراد أن يبين الدلائل الأرضية فقال: وهو الذى مد الأرض ليمكن الاستقرار عليها وجعل فيها جبالا ثابتة لا تتزحزح لتحفظ الأرض من التصدع والاضطراب كما فى الآية (١٥) من سورة النحل صفحة ٣٤٧، والآية (٧) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧، وجعل فيها أنهارا لمنافع الإنسان والحيوان، وجعل فيها من كل أصناف الثمرات زوجين اثنين ذكرا وأنثى، وهذا من إعجاز القرآن الذى جاء به نبى أمى فى وقت لم يكن فى العالم كله من يعلم ذلك. ومن قدرته تعالى أنه يذهب ضوء النهار بظلمة الليل والعكس كما فى الآية (٥) من سورة الزمر صفحة ٦٠٦، وإنما اقتصر هنا على ما ذكر لأن المقام للتخويف بقيام الساعة وهى تكون بتكوير الشمس وذهاب ضوئها. إن فيما ذكر من بديع خلق الله لأدلة وبراهين لقوم يتفكرون فيعرفون الحق. ومن أدلة قدرة الله سبحانه تلك الأرض التى ترونها أمامكم وفيها قطع متجاورة مختلفة، فبعضها سبخ لا ينبت، والآخر خصب ينبت كل شىء وبعضها رخو وبعضها صلب أو متحجر، ولولا تخصيص قادر حكيم لكانت على صفة واحدة، وفى الأرض جنات من أشجار الكرم وزرع من كل نوع، وفيها نخيل بعضه جذعه واحد له عدة خلفات، وبعضه منفرد فى أصله وفرعه، يسقى جميع ما تقدم بماء واحد لا يختلف طعمه، ومع ذلك نفضل بمحض القدرة بعضها على بعض فى ثمراتها شكلا وقدرا ورائحة وطعما. إن فى ذلك الصنع العجيب لأدلة قاطعة على وجود صانع لقومك يستعملون عقولهم.. وبعد ما ثبت الحق بكل هذه الأدلة أراد سبحانه أن يوبخ من أعرض عنها واستمر على جحوده للحق فقال: ﴿وإن تعجب﴾ إلخ، أى وإن تعجب أيها السامع من إنكارهم الحق فأجدر بالعجب قولهم منكرين البعث بتكرار التعجب منه: هل إذا صرنا ترابا هل نرجع إلى خلق جديد، لأن من قدر على الإنشاء من العدم قادر على الإعادة بل هى أسهل كما فى الآية (٢٧) من سورة الروم صفحة ٥٣٤. هؤلاء هم الذين كفروا بربهم مع وضوح أدلة وجوده ووحدانيته وهم الذين سيسحبون إلى جهنم والأغلال فى أعناقهم، انظر الآية (٧١) من سورة غافر صفحة ٦٢٧، وآيات (٣٠، ٣١، ٣٢) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣، وهم الملازمون للنار خالدين فيها. وبعد ما ذكر إنكارهم لعذاب الآخرة أراد أن يبين جرأتهم على إنكار عذاب الدنيا أيضا الذى هددهم به الرسول ﷺ فقال: ويستعجلونك بالعقوبة السيئة التى هددوا بها إذا

لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا

استمروا على كفرهم قبل العافية من العذاب بالإيمان، انظر الآية (٣٢) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١، يستعجلونك بذلك مستهزئين، والحال أنه مضت ووقعت فى الأمم قبلهم العقوبات لأنهم عملوا مثلهم، فكان حقهم أن يعتبروا وينزجروا. وبعد ما هددهم لعلهم يرجعون فتح أمامهم باب الأمل لئلا يوقعهم الشيطان فى اليأس، فقال: وإن ربك أيها النبى لذو صفح وعفو لمن تاب من خلقه مع ظلمه السابق، وإنه لشديد العقاب لمن استمر على عناده ولم يسارع إلى التوبة.

المفردات: ﴿لولا﴾: حرف يدل على طلب

﴿تغيض﴾: يقال غاض الماء أى ذهب وغاضه غيره أذهبه فهو فعل لازم ومتعد، وما هنا متعد، أى تذهب منه شيئا من أجزائه أو زمنه المعتاد، والمراد ينقص فيها.

﴿وماتزداد﴾: أى وما تزيده فهو متعد أيضا كما فى الآية (٦٥) من سورة يوسف صفحتى ٣١٢، ٣١٣، والآية (٢٥) من سورة الكهف صفحة ٣٨٤.

﴿الكبير﴾: العظيم الشأن الذى كل شىء دونه. ﴿المتعال﴾: المستعلى على كل شىء بقدرته.

﴿سارب﴾: أى بارز فى سيره.

﴿معقبات﴾: جمع معقبة، والمراد الجماعة من الملائكة يعقب بعضها بعضا فى الحفظ. انظر الآية (٤) من سورة الطارق صفحة ٨٠٢.

---

(١) عالم. (٢) والشهادة. (٣) بالليل.
(٤) معقبات. (٥) والملائكة. (٦) الصواعق.

﴿من أمر الله﴾: من بمعنى الباء أى بأمر الله.

﴿وال﴾: أى متولى أمورهم يجلب لهم الخير ويدفع الشر.

﴿يسبح الرعد بحمده﴾: المراد أن صوت الرعد يدل على خضوعه وتنزيهه له سبحانه وعلى استحقاقه لكل حمد، انظر الآية (٤٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٠.

﴿الصواعق﴾: تقدمت فى الآية (١٩) من سورة البقرة صفحة ٥.

المعنى: بعد ما ذكر سبحانه طعنهم فيه ﷺ لأنه يقول بالبعث، ولأنه توعدهم بعذاب، أراد أن يذكر طعناً آخر لأنه لم يأتهم بمعجزة كمعجزات الأنبياء قبله، فقال: ويقول الذين كفروا تعنتا: هلا يأتينا بمعجزة كعصا موسى، أنظر الآية (١٢٤) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣، والآية (٤٨) من القصص صفحتى ٥١٣، ٥١٤، أو كمعجزات عيسى، أو مثل ما طلبناه منه فى الآيات (٩٠) وما بعدها من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦ وما بعدها، ورد سبحانه عليهم فى مواضع أخرى بما تراه فى الآية (٥٩) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٢، والآية (٥١) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٨، فلما كان ﷺ لشدة رغبته فى هدايتهم يحدث نفسه بالميل إلى إجابة طلباتهم، قال له ربه عز وجل العليم بنياتهم: إنما أنت منذر، أى أن مهمتك التى بعثت لها هى تخويف الناس من عاقبة عصيان ربهم، وليس فى قدرتك الإتيان بالمعجزات. ومن حكمته تعالى أنه جعل لكل أمة من الأمم السابقة نبيا يهديهم مؤيدا بمعجزة تليق بزمانهم، وأنت بإعطائك القرآن وهو المعجزة الخالدة بخلود الدنيا تتحدى كل عالم على وجه الأرض، انظر الآية (٥١) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٨. ثم أراد سبحانه أن يقيم لهم أدلة أخرى على كمال علمه بأحوال خلقه وقدرته على كل شىء تنبيها على أنه قادر على إنزال ما يقترحون لو علم صدقهم فى قولهم ولكنه يعلم أنهم مكابرون، فلم يجبهم إلى تلاعبهم، أنظر آيات (٧، ٣٣، ٣٨) من سورة الأنعام صفحات ١٦٣، ١٦٧، ١٦٨، فقال: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾ من إنسان أو حيوان، أى يعلم أحواله وهو فى رحم أمه من ذكر أو أنثى، واحد أو متعدد، شقى أو سعيد،

أبيض أو أسود، إلى غير ذلك مما لا يحصى من أحواله، ويعلم ما ينقص من الجنين فى الأرحام من جسده أو مدة حمله، وما يزيد من ذلك، وكل شىء فى الوجود خلقه بمقدار محدد لا يتعداه، أنظر الآية (٤٩) من سورة القمر. الله سبحانه هو الذى يستوى عنده علم ما غاب عنا وما حضر، وهو العظيم الشأن المستعلى على كل شىء. ثم دلل على ذلك بقوله ﴿سواء منكم﴾ إلخ؛ أى يستوى فى علمه إسراركم القول والجهر به؛ ويستوى فى علمه عمل من هو مبالغ فى الاختفاء فى ظلام الليل ومن هو ظاهر ماش فى بياض النهار، لكل واحد من هؤلاء ملائكة تتعاقب على حفظه من أمامه ومن خلفه، يحفظونه من كل ما قدر سبحانه عدم إصابته به، وهذا الحفظ صادر بأمر الله سبحانه. ثم أراد سبحانه أن يؤيد ما سبق ببيان حكم عام هو أنه سبحانه لا يغير حال أمة من عز إلى شقاء وبالعكس إلا إذا غيروا ما هم عليه، أى فلا مطمع فى هداية كفار مكة إلا إذا أصلحوا أنفسهم وتركوا العناد وتقليد الآباء، وإذا أراد الله بقوم سوءًا لإصرارهم على المعاصى فلا راد لما أراد، وليس لهم من يواليهم وينصرهم بإبعاد العذاب عنهم.. والله هو الذى يريكم البرق الذى يتقدم المطر عادة ليخيف من يضره المطر ويطمع فى الخير من ينفعه، وينشىء السحاب الثقال بالماء الكثير. يسبح الرعد أى ينزه ربه تنزيها مقارنا لحمده سبحانه. وفى الآية (٤٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٠ ما يفيد أن السموات والأرض ومن فيهن كلها تسبح ولكنا لا نفقه كيف تسبح،. والذى نفهمه أنها خاضعة لسلطانه، مسخرة فيما خلقت له، منادية بوجود صانع حكيم، وتسبح الملائكة من هيبته تعالى إجلالا له، ويرسل سبحانه الصواعق ليصيب بنارها من يشاء إصابته بها فيهلكه.

المفردات: ﴿يجادلون فى الله﴾: أى يجادلون فى صفات الله كالقدرة على البعث والحساب فينكرون ذلك.

﴿المحال﴾: أى المماحلة والمكايدة، يقال محل فلان بفلان إذا كاده ومكر به، فالمراد شديد الكيد لأعدائه.

مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ(١) فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ(٢) كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ(٣) وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ(٤) إِلَّا فِي ضَلَالٍ(٥) ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم(٦) بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ(٧) ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ(٨) وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ(٩) الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ(١٠) كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ(١١) الْقَهَّارُ(١٢) ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا

﴿وما دعاء الكافرين إلخ﴾ المراد هنا دعاؤهم لأصنامهم فإنه هو الذى لا يجاب لأنها لا تستطيعه كما فى الآية (١٩٤) إلى الآية (١٩٨) من سورة الأعراف صفحتى ٢٢٤، ٢٢٥. أما دعاؤهم له سبحانه وتعالى فإنه قد يستجيبه لهم أنظر الآية (٢٢) وما بعدها من سورة يونس صفحة ٢٦٩، ويصح أيضا أن يقال أن دعاء الكافر ضائع غير نافع فى دفع الخلود فى النار، وهذا لا يمنع أنه قد ينفع فى غير ذلك.

﴿الغدو﴾: واحدها غداة وهى أول النهار.

﴿الآصال﴾: واحدها أصيل وهو ما بين العصر والمغرب. ﴿اودية﴾: واحدها واد وهو الموضع الذى يسيل فيه الماء. ﴿بقدرها﴾: أى بمقدارها. ﴿أحتمل﴾: أى حمل.

﴿زبدا﴾: هو ما يعلو وجه الماء عند زيادته كالرغوة وغيرها.

المعنى: قدمنا كل هذه البراهين، ومع ذلك يجادل الكافرون فى صفاته تعالى، وينكرون وحدته وقدرته على البعث يوم القيامة، والله سبحانه لا يغلبه مخلوق لأنه شديد الكيد لأعدائه، له سبحانه وحده الدعوة الصحيحة الثابتة الواقعة فى محلها لأنه لا يجيب الدعاء

(١) يجادلون. (٢) كباسط.
(٣) ببالغه. (٤) الكافرين.
(٥) ضلال. (٦) وظلالهم.
(٧) والآصال. (٨) الظلمات.
(٩) فتشابه. (١٠) خالق.
(١١) الواحد. (١٢) القهار.

غيره، أما الذين يدعوهم المشركون غيره فإن دعاءهم لهم ذاهب فى الهواء لأنهم لا يستجيبون بشىء من طلبات الداعين إلا كاستجابة الماء لمن يبسط كفيه له من بعيد، ويطلب منه أن يصل إلى فمه، وليس الماء بواصل فمه أبدا، لأنه جماد لا يشعر بعطش الطالب ولا يسمع دعاءه.

وإذا كان الأمر كذلك فما دعاء الكافرين لمعبوداتهم إلا فى ضلال وضياع وانحراف عن طريق الصواب. وكيف يكون لغيره سبحانه قدرة على إجابة دعاء مع أن كل شىء فى السموات والأرض خاضع لعظمته منقاد لإرادته حتى ظلال من له ظل منها فإنها خاضعة أيضا تبعا لخضوع صاحبها فى أوقات الغدو والآصال؛ فإن الجميع خاضع طائعا أو كارها.. والكلام كناية عن أنه لا مناص من هذا الخضوع؛ فإن استمروا على عنادهم فقل لهم أيها النبى: من رب هذه الأجرام العلوية والسفلية التى تحير العقول فى بديع صنعها وإتقان نظامها؟ فليس هناك إلا جواب واحد لا ينكرونه كما فى الآية (٦١) وما بعدها من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٩. وإذا كان الحال كذلك فبادر أنت به وقل لهم: هو الله وحده، ثم قل لهم بعد ذلك: أجهلتم هذا فاتخذتم من دونه سبحانه من لا يملكون لأنفسهم فضلا عن غيرهم نفعا يجلبونه ولا ضرا يدفعونه؟ ثم قل لهم أيضا منبها لخطئهم: هل يستوى الأعمى الذى إذا سار لا يأمن الخطر، والبصير الذى يعرف طريق الأمن؟ وإذا كانا لا يستويان فكذلك لا يستوى الكافر الضال والمؤمن المهتدى. وهل تستوى الظلمات التى لا يرى فيها الطريق والنور الذى يجلو كل شىء؟ وإذا كان لا يستويان فكذلك لا يستوى الكفر والإيمان. وإذا كان هذا هو الواقع فما سبب حيرتكم؟ هل خلق ما جعلتموهم شركاء لله خلقا كخلق الله فاشتبه عليكم أمر خلقها مع خلق الله فجعلتموهم شركاء له؟ وإذا كان هذا مستحيلا فقل لهم إن الله وحده هو الخالق لكل شىء سواه وبعد ما بين سبحانه الفرق الواضح بين المؤمن والكافر والإيمان والكفر، وأبطل وجود صانع غيره أراد أن يضرب لهم مثلا للحق فى ثباته وللباطل فى اضمحلاله وزواله ليحيطهم بالدليل من كل جانب ويقطع معاذيرهم يوم القيامة فقال: ﴿أنزل من السماء ماء﴾ إلخ؛ أنزل سبحانه من السحاب مطرا فسالت مياه الأودية على حسب مقدارها فى الصغر

رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ[1] زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ[2] فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ[3] جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾ * أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ[4] ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ[5] ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا

والكبر، فحمل السيل الذى تكون من ذلك الماء زبدا.

المفردات: ﴿رابيا﴾: عاليا مرتفعا.

﴿ابتغاء حلية﴾: أى طلبا لما يتحلى به كالذهب والفضة.

﴿أو متاع﴾: هو ما يتمتع به الناس كالقدور والمحاريث وآلات المصانع من الحديد والنحاس مثلا.

﴿زبد مثله﴾: زبد المعادن هو ما يخالطها من الأشياء الغريبة المضعفة لقيمتها وتعلو على سطحها عند غليانها.

﴿جفاء﴾: مصدر جفأت الشىء أى طرحته ورميته، وأريد بالمصدر اسم المفعول أى مرميا ضائعا.

﴿استجابوا لربهم﴾: أجابوا دعوة ربهم بالقبول. ﴿الحسنى﴾: المثوبة الحسنى وهى الجنة.

﴿بئس المهاد﴾: قبح المكان الممهد لنزولهم فيه. ﴿بعهد الله﴾: هو ما أخذه عليهم من الإقرار به حيث ركب فيهم العقول وأقام لهم الأدلة كما قال فى الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١ وكذا ما أخذه عليهم على لسان رسلهم كما فى الآية (٨١) من سورة آل عمران صفحة ٧٦. ﴿الميثاق﴾: العهد المؤكد. ﴿إلا ابتغاء وجه الله﴾: تقدم فى الآية (٢٧٢) من سورة البقرة صفحة ٥٨.

المعنى: فحمل السيل فى أثناء جريانه زبدا طافيا فوق سطحه، وبعض المعادن التى يوقدون عليها حالة كونها فى النار، وهذا القيد للتأكيد كقوله (ولا طائر يطير بجناحيه) فى

(١) متاع. (٢) والباطل. (٣) ومأواهم. (٤) الألباب. (٥) الميثاق.

الآية (٣٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨، يوقدون عليها ابتغاء حلية، أى طالبين عمل حلية من ذهب أو فضة أو اتخاذ متاع من نحو الحديد والنحاس والرصاص زبد مثل زبد الماء. كهذا المثل يضرب الله مثل الحق والباطل؛ فكما أن الزبد يذهب مهملا ضائعا فكذلك الباطل يزول، وكما أن الماء والمعدن الصافى يبقى فى الأرض لنفع الناس كذلك الماء يبقى فى بطن الأرض فى العيون والآبار، ويغذى الحبوب والثمار، والمعدن يمكث مددا طويلة، وكذلك الحق يبقى ويعلو. كهذين المثلين فى الجلاء والوضوح يضرب الله الأمثال دائما للناس ليبصرهم بالصراع الشديد بين الشر وأنصاره والخير وأنصاره يتنازعان البقاء والبقاء دائما للأصلح. وإنما نوع التمثيل بالماء والمعادن ليفهم جميع الطوائف من زراع لا يرون إلا الماء وصناع لا يرون السيول وإنما يعيشون بين المعادن وصهرها. وبعد هذا البيان الرائع فالذين يجيبون دعوة ربهم بقوة إخلاص، لهم عنده المثوبة الحسنى فى الآخرة وهى الجنة والذين لم يستجيبوا له فلهم عذاب شديد بلغ من شدته أن الواحد منهم لو كان يمتلك كل ما فى الأرض ومثله معه لدفعه لينقذ نفسه منه ولكنه لا يقبل منه إذا فرض وملك كما فى الآية (٣٦) من سورة المائدة صفحة ١٤٣. أولئك الذين لم يستجيبوا لله لهم أسوأ حساب وأشده كما فى الآية (٨) من سورة الطلاق صفحة ٧٥٠، ومكانهم الذى يأوون إليه هو جهنم، وقبح المهاد والمستقر جهنم. أفمن يعلم أنما أنزل إليك أيها النبى هو الحق المبين فى المثل السابق كمن لا يعلم لأنه أعمى القلب. والمعنى هل بعد بيان حال كل من الفريقين ومصيرهما يتوهم غافل مساواتهما؟ كلا، فلا يقول ذلك إلا مجنون لأنه لا يتذكر ويدرك ما بينهما من فرق إلا أصحاب العقول الخالصة من تقليد الآباء على الباطل وحب الجاه الكاذب. ثم وصف سبحانه أصحاب العقول بتسع صفات فقال: الذين يوفون بعهد الله الذى أخذه عليهم فى كتابه من طاعة رسوله ولا ينقضون العهود المؤكدة التى بينهم وبين الله وبينهم وبين العباد، فالكلام تعميم بعد تخصيص. والذين يصلون ما أمر الله بوصله كالرحم والمؤمنين وكل ما فى وصله ومودته تقرب لله سبحانه، ويخشون ربهم، والخشية خوف مقرون بتعظيم من يخشى منه، ولذا خصها الله تعالى بالعلماء الذين يعرفون ربهم حق المعرفة كما فى الآية (٢٨) من سورة فاطر صفحة ٥٧٥، فالمراد أنهم يخافون خوف مهابة وإجلال، فلا يفعلون ما يغضبه خوفا من عقابه لأن نتيجة فعل ما يغضبه وقوعهم فى سوء الحساب يوم القيامة، وفضيحتهم على رءوس الأشهاد

الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ

والذين صبروا على مشاق التكاليف وقسوة المصائب طالبين بذلك رضا ربهم لا رياء ولا سمعة، وأقاموا الصلاة...

المفردات: ﴿يدرءون﴾: أى يدفعون.

﴿عقبى الدار﴾: العقبى هى العاقبة المذكورة فى الآية (١٢٨) من سورة الأعراف صفحة ٢١١ والآية (٤٩) من سورة هود صفحة ٢٩١، والآية (١٣٢) من سورة طه صفحة ٤١٩. ﴿عدن﴾: أى إقامة وخلود.

﴿صلح﴾: أى كان مؤمنا صالحا.

﴿ميثاقه﴾: أى توكيده. ﴿ويقدر﴾: يضيق.

﴿متاع﴾: أى شىء قليل كمتاع الراعى والمسافر سفرا قصيرا.

﴿لولا أنزل﴾: أى هلا، فهى كلمة تدل على طلب ما بعدها.

---

(١) الصلاة.
(٢) رزقناهم.
(٣) جنات.
(٤) آبائهم.
(٥) وأزواجهم.
(٦) وذرياتهم.
(٧) والملائكة.
(٨) سلام.
(٩) ميثاقه.
(١٠) بالحياة
(١١) وماالحياة
(١٢) متاع.

﴿آية﴾: أى معجزة.

﴿من أناب﴾: أى رجع.

المعنى: وأدوا الصلاة كاملة حسا ومعنى، وأنفقوا فى وجوه الخير بعض ما رزقهم الله تعالى سرا فيما بينهم وبين ربهم وعلانية أمام الناس، وقد تقدم بيان محلهما فى الآية (٢٧١) من سورة البقرة صفحتى ٥٧، ٥٨ ويدفعون الشر بالخير، انظر الآية (٣٤) من سورة فصلت صفحة ٦٣٤؛ أولئك الموصوفون بما ذكر لهم العاقبة الحسنة التى تعقب دار الدنيا التى أحسنوا عملهم فيها، وفسر هذه العاقبة بأنها جنات عدن يدخلونها خالدين فيها هم ومن عمل صالحا من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ليتم أنسهم بأهلهم.

وفى الكلام دليل على أنه فى ذلك اليوم لا تنفع الأنساب إذا لم يكن معها عمل صالح. ويؤيده ما فى الآية ٤٦ من سورة هود صفحة ٢٩١، والآية (١٠١) من سورة المؤمنون صفحتى ٤٥٤، ٤٥٥، والآية (٨٨) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٩، والآية (٤١) من سورة الدخان صفحة ٦٥٩ ومثل ما هنا فى الآية (٢١) من سورة الطور صفحة ٦٩٧، ٦٩٨. وكيفية اجتماع أهل الجنة وائتناس بعضهم ببعض لا نعلم كيفيته لأنه من أحوال الآخرة التى لا نعلم كيفيتها. وإذا كان أهل الجنة وهم فى الجنة يرون أهل النار وبالعكس ويتخاطبون مع بعد المسافة بينهما، فأيسر من ذلك رؤية أهل الجنة بعضهم لبعض، انظر آيتى (٤٤، ٥٠) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٩، ٢٠٠، والآيات من (٥١ إلى ٥٩) من سورة الصافات صفحة ٥٩٠، وانظر بقية ذلك فى تفسير صفحة ٦٩٨.

ثم ذكر سبحانه ما لأهل الجنة من الكرامة بتسليم الملائكة عليهم فقال: ﴿والملائكة يدخلون عليهم﴾ إلخ؛ أى وتدخل عليهم الملائكة من كل باب قائلين أمان من الله عليكم بسبب صبركم على مشاق العبادة والجهاد والمصائب احتسابا لوجه الله فلا خوف عليكم أبدا، فنعم عاقبة الدنيا هذه الجنة. وبعد ما بين سبحانه ما أعده للمتقين بين حال الأشقياء وما أعد لهم

من العذاب فقال: والذين ينقضون عهد الله الذى أخذه عليهم بالإقرار به حيث ركب فيهم العقول التى بها الوصول للحق من بعد توثيقه وتأكيده بنصب الأدلة على وجوده فى الكون وفى أنفسهم كما تقدم فى الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١، ويقطعون ما أمر الله بوصله مما تقدم فى الآية (٢١) من هذه السورة صفحة ٣٢٤، ويفسدون فى الأرض بالظلم والطغيان وإثارة الفتن، هؤلاء لهم الطرد من رحمة الله، ولهم سوء العاقبة وهى جهنم. ثم لما كان بعض الكفار أغنياء وتسبب غناهم فى عنادهم وشدة كفرهم، أراد سبحانه أن يبين حكمة تقسيمه الأرزاق على المؤمن والكافر، فقال: ﴿الله يبسط الرزق﴾ أى يوسعه لمن يشاء من خلقه ممن كان له مهارة فى جمع المال، ولا علاقة لهذا بكفر أو إيمان ولا بصلاح أو معصية، ويضيق على من يشاء ممن هو ضيق الحيلة فى الكسب، ولا علاقة له أيضا بكفر أو إيمان، بل قد يوسع على الكافر استدراجا ويضيق على المؤمن لزيادة أجره وإدخارًا لنعيم دائم، ولذا قال: ﴿وفرحوا﴾ أى فرح الكفار ببسط الرزق فى الحياة الدنيا واعتبروه أكبر متاع، وهم فى هذا مخطئون، إذ ليس نعيم الدنيا كله إذا قيس بنعيم الآخرة إلا شيئا يسيرا جدا سريع الزوال كمتاع الراعى الذى لا يكفى إلا مدة يسيرة.

وقد غر المال كفار مكة حتى تعنتوا وتغافلوا عن المعجزة الخالدة وهى القرآن، وقالوا عنادا: هلا أنزل على محمد معجزة من ربه كما تقدم فى الآية (٧) من هذه السورة صفحة ٣٢٢؟ ولما كانوا كثيرا ما رددوا قولهم هذا كررها القرآن لذلك. قل لهم ما أعظم عنادكم بعد علمكم بالمعجزة التى عجزتم جميعا عن الإتيان بمثلها؟ فلا جواب لكم عندى إلا أن أقول لكم إن الله تعالى يضل من يشاء لعناده بعد ظهور الحق، ويهدى من رجع عن العناد وأقبل على الحق، فإذا أردتم الهداية فارجعوا إليه تنالوها، والراجعون إلى الله تعالى هم الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم دائما بتذكر الله عند كل شدة، فلا يبالون بشىء ولا يحزنون على فوات مرغوب، ثقة بما عند الله...

أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ⁽¹⁾ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ⁽²⁾ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَيْأَسِ⁽³⁾ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ

المفردات: ﴿ألا﴾: كلمة تنبه للعناية بما بعدها.

﴿طوبى لهم﴾: مأخوذة من الطيب وهى كلمة تدل على الحياة الطيبة والسرور.

﴿وحسن مآب﴾: (مآب) أى مرجع، هنا من إضافة الصفة للموصوف.

﴿خلت﴾: مضت

﴿متاب﴾: أصلها متابى أى مرجعى فى الآخرة.

﴿ييئس﴾: أى يعلم.

﴿قارعة﴾: أى داهية تقرع قلوبهم وتقلقهم، انظر سورة القارعة. صفحة ٨١٩.

﴿وعد الله﴾: بموتهم أو بقيام الساعة.

﴿فأمليت﴾: أى أمهلت.

﴿قائم﴾: أى رقيب.

المعنى: لا يطمئن القلوب ويطرد عنها الفزع والاضطراب إلا تذكرهم لله سبحانه. ثم بيَّن سبحانه جزاء ثواب المطمئنين فقال: الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم الفرح وقرة العين والمرجع الحسن يوم القيامة. وبعد ما ذكر سبحانه تعنت الكفار فى طلباتهم من رسوله وبيَّن أنهم لن يهتدوا لأنهم غير مخلصين، أراد أن يسلى نبيه بأن هذه عادة الأمم مع أنبيائهم، وأن عاقبة المعاندين وخيمة، فقال: ﴿وكذلك﴾ إلخ؛ أى أرسلناك لك ولأمتك كإرسالنا للرسل قبلك

(١) الصالحات. (٢) أرسلناك. (٣) ييأس.

إلى أمم مضت، لتتلو على أمتك الكتاب الذى أوحيناه إليك، كما فى الآية (١٠٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٩، والحال أن كفار قومك يكفرون بربهم عظيم الرحمة ومن رحمته إرساله لإرشادهم إلى مافيه نجاتهم ومنها أنه أرسلك لهم رحمة. قل لهم: هو، أى الرحمن الذى كفرتم به ربى، لا أقر بإله غيره، ولا أتوكل إلا عليه، وإليه وحده مرجعى فى الآخرة. أما أنتم فميئوس منكم ما دمتم على حالكم، لأن حالكم لو أن قرآنا سيرت به الجبال عن أماكنها، أو شققت به أرض مكة وجعلت أنهارا وعيونا أو إحياء رجل بقراءته الموتى وكلمهم، ولو أن قرآنا جاءكم. يا كفار مكة وشاهدتم منه ما ذكر لما آمنتم، لتمكن الكفر والعناد من قلوبكم، انظر الآية (١١١) من سورة الأنعام صفحة ١٨١، فلا تطمعوا أيها المؤمنون فى هدايتهم؛ لأن الله لو علم فيهم خيرا لأجابهم إلى طلبهم، ولا يعجز عنه، لأن الأمر جميعه بيده. وإذا كان الأمر كذلك فهل غفل المؤمنون فلم يعلموا أن الله لو شاء لهدى الناس جميعا قهرا فيكونون كالملائكة كما تقدم شرح ذلك فى الآية (٤٨) من سورة المائدة صفحة ١٤٦، والآية (٩٩) من سورة يونس صفحة ٢٨١، ولكنه سبحانه شاء أن يكونوا مختارين، ولابد أن يختلفوا كما فى الآية (١١٨) من سورة هود صفحة ٣٠١، ويبقى كفار مكة تصيبهم بسبب عملهم السيئ وإصرارهم على الكفر مصائب شديدة من قتل وأسر، أو تحل تلك المصائب فى مكان قريب منهم يسكنه أناس على صلة بهم تجمعهم صفات مشتركة من الكفر والمعاصى فيحزنهم ذلك ويزعجهم خوف أن يصيبهم شررها ولا يزالون فى هذا القلق حتى يأتى أمر الله بموتهم أو بقيام الساعة، وهذا وعد صادق لابد من تحققه، لأن الله لا يخلف الميعاد. وإذا اشتد إيذاؤهم لك أيها النبى واستهزاؤهم بك فلا تحزن لأن أمم إخوانك الرسل قبلك استهزءوا بهم، فأمهلت هؤلاء الكافرين ليزدادوا كفرا، ثم أخذتهم بالعقاب أخذ عزيز مقتدر، ارجع إلى الآية (١٧٨) صفحة ٩٢، فانظر وتأمل على أى حال كان عقابى لهم، ألم أنكل بهم وأجعلهم عبرة لغيرهم. ثم رجع سبحانه إلى تسفيه المشركين فى التسوية فى العبادة والدعاء بين الله وخلقه فقال: ﴿أفمن هو قائم﴾ إلخ...

عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ(١) مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ(٢) الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ * مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ(٣) أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ(٤) النَّارُ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ(٥) الْكِتَابَ(٦) يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ(٧) ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ(٨) حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ

المفردات: ﴿سموهم﴾: أى اذكروا أسماءهم، وهو كناية عن أنه لا حقيقة لهم، انظر الآية (٧١) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٣، ٢٠٤ والآية (٧٤) من سورة غافر صفحة ٦٢٧.

﴿بظاهر من القول﴾: أى بقول له ظاهر وليس له حقيقة فهو كالخيال.

﴿واق﴾: أى حافظ يقيهم.

﴿مثل الجنة﴾: أى صفتها العجيبة.

﴿أكلها﴾: أى ما يؤكل فيها كما تقدم فى الآية (٤) من هذه السورة صفحة ٣٢١. ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾: المراد بهم من أسلم من اليهود والنصارى. ﴿الأحزاب﴾: الذين تحزبوا من الكتابيين عليه ﷺ وساعدوا المشركين.

﴿مآب﴾: أصلها مآبى أى مرجعى. ﴿حكما﴾: أصل الحكم مصدر أريد به الحاكم مبالغة فى الفصل بين الحق والباطل. ﴿عربيا﴾: أى بلسان العرب لأنهم قومك أيها النبى ولم يرسل الله رسولا إلا بلسان قومه، انظر الآية (٤) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٩.

(١) بظاهر.
(٢) الحياة.
(٣) الأنهار.
(٤) الكافرين.
(٥) آتيناهم.
(٦) الكتاب.
(٧) مآب.
(٨) أنزلناه.

المعنى: أفمن هو رقيب على كل نفس صالحة أو طالحة عليم بما كسبته من خير أو شر، كمن ليس كذلك ممن جعلتموهم شركاء لله؟ ولذا قال ﴿وجعلوا لله﴾ إلخ؛ وبعد هذا الفارق العظيم جعلوا لله شركاء عبدوهم وطلبوا منهم قضاء مصالحهم. ثم وبخهم توبيخا آخر فقال: قل أيها النبى لهم سموا لنا هؤلاء الشركاء فمن هم؟ بل أنتم تخبرون الله سبحانه بشركاء لا يعلم لهم وجودا فى الأرض مع أنه يعلم كل شىء فيها، بل أنتم تسمونهم شركاء بمجرد ظاهر القول دون أن يكون لهم حقيقة، فدعوا كل هذا الباطل.. بل الحقيقة أن الشيطان زين وحسن لكم أيها الكافرون مكركم وكيدكم للإسلام، وصدكم بوسوسته عن سبيل الله المستقيم المبين فى سورة الفاتحة، ومن يضلله الله لفساد قلبه كما فى الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨ فليس له من أحد يقدر على هدايته. لهؤلاء الذين أضلهم الله عذاب فى الدنيا بالقتل والأسر وأنواع المحن، ووالله لعذاب الآخرة أشق لشدته ودوامه، وليس لهم واق مطلقا يقيهم من عذاب الله. هذا جزاء من كفر، أما جزاء المؤمنين فاعلم أن صفة الجنة التى وعدهم الله بها هى أنها تجرى مِنْ تحت قصورها الأنهار، ومأكولاتها دائمة لا تنقطع وظلها كذلك، كما فى الآية (١٣) من سورة الإنسان صفحة ٧٨٢؛ تلك الجنة هى عاقبة المتقين، وعاقبة الكافرين النار، ثم أراد سبحانه أن يطمئن نبيه بأن العلماء بالكتب السابقة المخلصين يفرحون بالقرآن الذى أنزل إليك لأنه موافق للحق الذى فى كتبهم ولهذا سارعوا إلى الإيمان بك كعبدالله بن سلام وأصحابه من اليهود ونصارى نجران واليمن والحبشة، ومنهم قوم تحزبوا ضدك حسدا وعنادا فأنكروا بعض مافى القرآن وهو ما يخالف ما حرفوه. قل للمنكرين إنما أمر ربى أن أعبد الله وحده ولا أشرك فى ربوبيته أحدا، وإلى توحيده وطاعته أدعو جميع الخلق، وإليه وحده مرجعى للجزاء يوم القيامة. ومثل إنزالنا للكتب لمصالح الناس أنزلنا هذا القرآن حال كونه حاكما بين الحق والباطل، بلسان عربى، ليسهل على أول من كلفوا به فهمه للقيام بنشر دعوته، ووالله لئن اتبعت أيها المخاطب شهوات الكفار بعدم مخالفتهم أو السكوت عن تجهيلهم بعدما جاءك من العلم القاطع بأنهم على باطل، وأن ما فى القرآن هو الحق...

مَالَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا(١) وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ(٢) إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُواْ(٣) ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ(٤) ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا(٥) نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ(٦) وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ(٧) لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ(٨) ﴿٤٣﴾

المفردات: ﴿ولى﴾: أى صديق ينصرك، انظر آيتى (١٠٧، ١٢٠) من سورة البقرة صفحتى ٢١، ٢٣.

﴿واق﴾: أى واقى يقيك العذاب.

﴿آية﴾: المراد معجزة.

﴿أجل﴾: المراد وقت معين.

﴿كتاب﴾: المراد بالكتاب المكتوب المحتم أى الحدث المكتوب فى الأزل وجوب حصوله، انظر آيتى (٢٤، ١٢٧) من سورة النساء صفحتى ١٠٣، ١٢٤، فالمراد معجزة محتم وجودها فى هذا الأجل.

﴿أم الكتاب﴾: أم كل شىء أصله؛ فالمراد أصل كل مكتوب ومقدر وهو اللوح المحفوظ.

﴿وإن ما نريك﴾: أصله وإن نريك وجىء بما لتأكيد الربط بين الشرط والجزاء تقدمت فى الآية (٥٧) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٥، وانظر آيتى (٤١، ٤٢) من سورة الزخرف صفحة ٦٥١.

(١) أزواجا.
(٢) بآية.
(٣) يمحو.
(٤) الكتاب.
(٥) وإما.
(٦) البلاغ.
(٧) الكفار.
(٨) الكتاب.

﴿بعض الذى نعدهم﴾: هو عذاب الدنيا لأنه وعدهم به.

﴿الأرض﴾: إذا أطلقت الأرض فى القرآن فسياق الكلام يبين المراد منها كما فى الآية (٧٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٥، والآية (٤) من سورة القصص صفحة ٥٠٦؛ والسياق هنا يدل على أن المراد بها الأرض التى ظلم أهلها من الأمم السابقة كما تقدم فى الآيات (٦) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٢، ١٦٣ و(٩) من سورة الروم صفحة ٥٣١، و(٨٢) من سورة غافر صفحتى ٦٢٨، ٦٢٩.

﴿ننقصها من أطرافها﴾: الطرف الناحية والطائفة من الشىء كما فى الآية (١٢٧) من سورة آل عمران صفحتى ٨٣، ٨٤. قال عكرمة: ونقصانها بتخريب قراها وإهلاك أهلها انظر الآية (٢٧) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧٠.

﴿معقب﴾: المعقب هو الذى يأتى فى عقب الشىء والمراد هنا من يأتى ليبطل.

﴿مكر الذين من قبلهم﴾: أصل المكر التدبير الخفى لإيصال الضرر بالغير وهو لا يشعر.

﴿ومن عنده علم الكتاب﴾: المراد بهم علماء اليهود والنصارى الذين أسلموا فإنهم يعلمون من كتبهم صدقه ﷺ، انظر الآية (١٩٧) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٢.

المعنى: إن اتبعت أهواءهم بعد علمك ببطلانها فما لك ولى ولا واق يحفظك من عذاب الله، والمراد من هذا التهديد قطع أطماع الكفرة فى إرجاع مسلم عن دينه وحث المؤمنين على الثبات.

ولما كان المعاندون يحاولون وضع العراقيل فى سبيل دعوته ﷺ بتشكيكات كثيرة، فتارة يقولون لو كان محمد رسولا لما شغل نفسه بالزواج والأولاد ولتفرغ للعبادة كيحيى وعيسى، وبعضهم يقول لن نؤمن به حتى يأتينا بمعجزات مثل معجزات الرسل قبله كما تقدم عند الآية (٧) من هذه السورة صفحة ٣٢٢، ونظيره فى الآية (٤٨) من سورة القصص صفحتى ٥١٣، ٥١٤)، وبعضهم يقول لو كان محمد صادقا لجاءنا بالعذاب الذى توعدنا به؛ لما كان كل هذا

أبطله سبحانه بقوله: ولقد أرسلنا رسلا من قبلك كثيرين وجعلنا لهم أزواجا وذرية، حتى روى أنه كان لداود وسليمان نحو مائة زوجة، وما منع ذلك رسالتهم أما المعجزات فما كان فى قدرة رسول أن يأتى قومه بمعجزة لكن بتيسير الله المبنى على الحكمة تأتى المعجزة المناسبة لزمن الرسول، ولكل وقت من أوقات الرسل وأممهم معجزة معينة تناسب زمنها محتم وجودها فيه لا يصلح غيرها.. يمحو الله ويذهب من المعجزات ما يشاء ويثبت بدلها ما يشاء حسب حكمته، وعنده أصل كل مكتوب مقدر. وإن ما نرينك أيها النبى بعض ما توعدناهم به وهو عذاب الدنيا بأن ننزله بهم فى حياتك أو نتوفاك قبل إنزاله فإنه ليس من شأنك لأنه ليس عليك إلا تبليغ ما كلفناك تبليغه لهم، ومنه وعيدهم بالعذاب إن لم يؤمنوا، أما محاسبتهم على أعمالهم وتعذيبهم فعلينا وحدنا فى حياتك أو بعد موتك، فهل شك هؤلاء فى العذاب ولم يروا أنا أهلكنا الظالمين فى الأرض بالكفر والمعاصى وخربنا ديارهم، انظر آيتى (٦٩، ٧٠) من سورة التوبة صفحتى ٢٥٢، ٢٥٣ والآيات من (٩ إلى ١٤) من سورة إبراهيم صفحات ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، والآية (٧٨) من سورة القصص صفحة ٥١٨، وسيأتى مثل هذه الآية فى الآية (٤٤) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥، فكان الواجب عليهم أن ينتبهوا لأن الله إذا حكم فلابد من تنفيذ حكمه؛ لأنه ليس فى الوجود من يبطله وهو سبحانه سريع الحساب فسيحاسبهم قريبا فى الآخرة بعد عذابهم فى الدنيا.

ثم أراد سبحانه أن يطمئن نبيه بأن العاقبة له فقال: وقد مكر الذين كفروا قبل كفار مكة بأنبيائهم ودبروا لهم المكايد كما فعل قومك أيها النبى فأحبط الله مكرهم ونصر عباده المخلصين؛ لأن المكر والتدبير الذى لا يخيب هو لله وحده، أما مكر غيره فلا يضر إلا صاحبه، لأنه سبحانه يعلم ما تكسب كل نفس من خير أو شر فيجازى كلا بما يستحق. وسيعلم الكفار قريبا لمن العاقبة المحمودة.

ويقول الذين كفروا برسالتك لست مرسلا من عند الله، قل لهم: حسبى الله شهيدا بصدقى، وحسبى يشهد بينى وبينكم أيضا علماء أهل الكتاب الذين لم يقدموا الدنيا على الدين...

سورة إبراهيم

(سورة إبراهيم)

٣٢٩

(١٤) سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا ثِنْتَانِ وَخَمْسُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر[1] كِتَٰبٌ[2] أَنزَلْنَٰهُ[3] إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ[4] إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ[5] ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ[6] وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ[7] مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ[8] ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ[9] بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿الر﴾: تقدم مثل هذه الحروف المقطعة أول سورة البقرة.

﴿لتخرج الناس... إلخ﴾: اللام فى (لتخرج) لام الحكمة وتقدم مثلها فى الآية (٦٤) من سورة النساء صفحة ١١١.

﴿إلى صراط العزيز﴾: هو بيان للنور، ونظيره فى إعادة حرف الجر على المبين فى الآية (٧٥) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٤، ٢٠٥. والعزيز الغالب القادر على كل شىء.

﴿الحميد﴾: المستحق لكثرة الحمد لكثرة نعمه وإن لم يحمده الغافلون.

﴿ويل﴾: أى هلاك. ﴿يستحبون﴾: أى يحبون حبا شديدا.

﴿يبغونها عوجا﴾: تقدم فى الآية (٩٩) من سورة آل عمران صفحة ٧٩.

---

(١) الف لام را
(٢) كتاب.
(٣) أنزلناه.
(٤) الظلمات.
(٥) صراط.
(٦) السموات.
(٧) للكافرين.
(٨) الحياة.
(٩) ضلال.

المعنى: هذا القرآن كتاب أنزلناه إليك أيها النبى لحكمة هى إخراج الناس كافة بما فيه من التعاليم من ظلمات الشرك والجهل إلى نور الإيمان والعلم بتيسير ربهم، هذا النور هو طريق الخير الذى شرعه العزيز الحميد. ثم بين العزيز بأنه هو الله الذى له كل ما فى السموات وما فى الأرض خلقا وملكا يتصرف فيه كما يشاء، وإذا كان هذا هو حال الإله الحق فالهلاك للكافرين بعذاب شديد، الذين يحبون الحياة الدنيا ويفضلونها على الآخرة، ويمنعون الناس عن الدخول فى دين الله الحق، ويرغبون أن يرى الدين معوجا فى نظر الناس لينفروهم منه، هؤلاء فى ضلال بعيد عن الحق لا يمكن رجوعهم إلى الصواب.

ثم أراد سبحانه أن يسلى رسوله على عناد قومه بأن هذه عادة الأمم مع كل أنبيائهم مع أنه سبحانه سهل عليهم ما جاءتهم به رسلهم حيث جاءهم بلغتهم التى يسهل عليهم فهمها، فقال: ﴿وما أرسلنا من رسول﴾ أى من الرسل السابقة إلا متكلمًا بلغة قومه الذين بعث فيهم ليفهموا عنه ما يبين لهم من شرعه تعالى، ومع ذلك عاند كثير واستكبروا، فأضلهم الله حسب سنته التى وضعها من إضلال الفاسقين وهداية من رجع إليه وأناب، انظر الآية (٢٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦. والله سبحانه هو الغالب الذى لا يغلب، الحكيم الذى يضع كل شىء فى محله؛ فالمراد بالقوم هنا هم الذين أرسل الرسول فيهم وإن كان مرسلا لغيرهم، لأنهم إذا فهموا الشرع وآمنوا به أمكن نقله لغيرهم بكل الطرق، ولهذا قال سبحانه لنبينا ﷺ ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ الآية (٢١٤) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٣، وذلك لأن إرسال رسول لجميع العالم بكل لغة أمر عسير لا يكاد يتحقق، بل قد يكون مستحيلا إذا كانت اللغات تتوالد ويتجدد منها ما لم يكن موجود، انظر الآية (١٩٥) وما بعدها من سورة الشعراء صفحتى ٤٩١، ٤٩٢.

المفردات: ﴿أيام الله﴾: تطلق العرب الأيام على الحوادث الجسام التى حصلت فى الماضى، فيقال أيام العرب فى الجاهلية أى حروبها،

﴿يسومونكم﴾: أى يطلبون لكم، انظر ما تقدم فى الآية (٤٩) من سورة البقرة صفحة ١٠.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا(١) أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ(٢) إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ(٣) اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ(٤) لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم(٥) مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ(٦) يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ(٧) الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ(٨) فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ(٩) وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا

﴿بلاء﴾: امتحان وفتنة.

﴿تأذن﴾: أخبر خبرا مؤكدا كما تقدم فى الآية (١٦٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٠.

﴿فردوا أيديهم فى أفواههم﴾: المراد بأيدى هنا النعم أى الأيادى التى جاء بها الأنبياء من الشرائع والعقائد التى تنقذهم من الهلاك، وهذا كناية عن رفضها وعدم قبولها كما يقول الرجل لآخر إذا لم يعجبه كلامه احفظ كلامك لنفسك فإنى لن أسمعه. هذا هو أنسب المعانى لكلمة (ردوا).

المعنى: بعدما أجمل سبحانه القول فى إرسال الرسل بلسان قومهم، أراد تفصيل الإجمال بعض تفصيل فقال: ولقد أرسلنا موسى مؤيدا بمعجزتنا من العصا واليد وبقية التسع المشار إليها فى الآية (١٠١) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٨، وتقدم بعضها فى الآية (١٣٣) من سورة الأعراف صفحة ٢١٢، وقلنا له أخرج قومك بنى إسرائيل من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى والإيمان، وأنذرهم بالوقائع التى أوقعها الله بالأمم قبلهم كقوم نوح وعاد وثمود كما تقدم فى الآية (١٠٢) من سورة يونس

(١) بآياتنا.
(٢) الظلمات.
(٣) بأيام.
(٤) لآيات.
(٥) أنجاكم..
(٦) آل فرعون.
(٧) نبأ.
(٨) بالبينات.
(٩) أفواههم..

صفحة ٢٨٢، إن فى تذكر أيام الله دلائل تنبه للخوف من عصيان الله كل قوى الصبر على المشاق والبعد عن الشهوات كثير الشكر لنعم ربه بالبعد عما يغضبه.

ثم فصل سبحانه ما قاله موسى فقال: وإذ قال موسى لقومه تنفيذا لأمر ربه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم حين أنجاكم من آل فرعون عندما كانوا يكلفونكم بالأعمال الشاقة مع القهر والإذلال، ويذبحون أبناءكم الذكور ويبقون النساء ذليلات مستضعفات، وهذا من أشد المصائب على النفس الحرة، وفى كل مما ذكر من التعذيب والإنجاء منه اختبار وامتحان من الله لكم عظيم ليظهر للناس مقدار صبركم وشكركم بالرجوع إلى الله سبحانه، انظر الآية (١٦٨) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٠. واذكروا يا بنى إسرائيل وعد ربكم المؤكد حين أعلمكم بأنكم إن شكرتم نعمه بامتثال أوامره لأزيدنكم من نعمى عليكم، ولئن كفرتم بنعمى حل بكم عذابى المؤلم، لأن عذابى لمن كفر وعزتى لشديد. ثم بيَّن موسى لهم أن شكرهم لا يعود نفعه إلا عليهم، وعدمه لا يعود ضرره إلا عليهم، فقال: إن تكفروا أنتم وجميع من فى الأرض فلن يضر الله شيئا، لأنه هو الغنى عن جميع خلقه، المستحق لجميع الحمد، لأنه مصدر كل النعم، سواء أشكرتم أم كفرتم. ولما أحس موسى من قومه المضى فى العصيان، شرع يفصل لهم ما أمره الله بتذكيرهم إياه، وهو أيام من قبلهم، فقال موسى: يا قوم ألم يأتكم خبر الذين مضوا قبلكم من قوم نوح وعاد وثمود والأمم الذين جاءوا بعدهم بلغت حدًا من الكثرة لا يعلمه إلا الله، انظر الآية (٧٨) من سورة غافر صفحة ٦٢٨. ثم بيَّن هذا الخبر فقال: جاءتهم رسلهم بالأدلة القاطعة بصدقهم، مبينين لهم محاسن ما شرعه الله تعالى لسعادتهم، فردوا الحديث عن تلك الشرائع إلى أفواه أنبيائهم أى رفضوها وطلبوا عدم الحديث بها، وبالغوا فى الرد فأعلنوا كفرهم بتلك الشرائع.

المفردات: ﴿مريب﴾: أى موقع فى الريبة والحيرة. ﴿أجل مسمى﴾: هو انتهاء آجالهم.

﴿إن أنتم﴾: (إن) حرف نفى بمعنى (ما). ﴿سلطان مبين﴾: أى معجزة واضحة مما نقترحه نحن.

المعنى: إنا كفرنا بما زعمتم أن الله أرسلكم به مما تدعون أنه بينات، بل هو سحر، وإنا لفى شك محير مما تدعوننا إليه من العقائد والشرائع. قالت لهم رسلهم: أفى وجود الله شك؟

أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب ﴿٩﴾ * قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا[1] فأتونا بسلطان[2] مبين ﴿١٠﴾ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان[3] إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿١١﴾ وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا[4] سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا[5] وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴿١٢﴾ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن

وكيف ذلك وهو وحده خالق السموات والأرض، يدعوكم إلى الحق ليغفر لكم بعض ذنوبكم إذا أطعتم، وهى الذنوب التى بينكم وبينه تعالى، لا الذنوب المتعلقة بحقوق العباد، ويؤخركم أى لا يعاجلكم بعذاب الإفناء الكلى، بل يمتعكم بخيرات الدنيا ويكثر لكم من أسباب كثرة الثواب فى الآخرة، ولا تكونوا ممن قضى عليهم بالهلاك عند جمودهم على المعاصى، قالوا فى ردهم على الرسل ما أنتم إلا بشر مثلنا، لا فضل لكم علينا، فلم خصكم بالنبوة؟ تريدون أن تمنعونا من عبادة الأصنام التى كان يعبدها آباؤنا؟ فأتونا بحجة واضحة مما نقترفه عليكم. ولما كان هذا منهم عنادا يعلم الله أنه لو جاءهم بما اقترحوا لا يؤمنون كما هو حال أمثالهم فى آيتى (٧، ١١١) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٣، ١٨١، والآية (٧٦) من سورة يونس صفحة ٢٧٨، والآية (١٣) من سورة النمل صفحة ٤٩٥، قالت لهم رسلهم: نعم، ما نحن إلا بشر مثلكم، ولم ندع أننا ملائكة، ولكن لا نسلم لكم أن كل البشر عند الله سواء، بل إن الله يمن على من يشاء من عباده بالنبوة والرسالة لما يعلمه فيه من صفاء الطبع وإخلاص النية، كما فى الآية (١٢٤) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣، وما كان فى قدرتنا أن نأتيكم بما تقترحون إلا بإذن الله ومشيئته، وعلى الله وحده فليتوكل كل مؤمن، ونحن أيها الأنبياء فى المقدمة فلنتوكل عليه فى الصبر على عنادكم، وأى عذر لنا فى أن لا نتوكل على الله والحال أنه قد هدانا سبيلنا التى توصلنا إلى معرفته ومعرفة كل خير، بإرشادنا إلى طريق النجاة، وتوفيقنا لسلوكها، ولنصبر على إيذائكم لنا بالعناد واقتراح الآيات والاستهزاء، وعلى الله وحده فليثبت المتوكلون على توكلهم، محتملين كل أذى فى سبيل الله. ولما عجز هؤلاء الكفار عن مقاومة الدليل عمدوا إلى القوة وحلفوا

(١) آباؤنا. (٢، ٣) بسلطان. (٤) هدانا. (٥) آذيتمونا.

الظالمين[1] ﴿١٣﴾ ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ﴿١٤﴾ واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ﴿١٥﴾ من ورائه[2] جهنم ويسقى من ماء صديد ﴿١٦﴾ يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه[3] عذاب غليظ ﴿١٧﴾ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم[4] كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال[5] البعيد ﴿١٨﴾ ألم تر أن الله خلق السموات[6] والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴿١٩﴾ وما ذلك على الله بعزيز ﴿٢٠﴾ وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء[7] للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء قالوا لو هدانا[8] الله

على أن يفعلوا أحد أمرين: إما إخراجكم أيها الرسل من أرضنا أنتم ومن آمن بكم، أو يعود من آمن بكم فى ملتنا كما كانوا، انظر ما تقدم فى الآية (٨٨) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٦، ٢٧٧. وعندما اشتد عنادهم وانقطع الأمل فى إيمانهم أوحى الله إلى رسله قائلا وعزتى لنهلكنهم لأنهم ظالمون...

المفردات: ﴿مقامى﴾: أصل المقام مكان القيام كالحضرة مكان الحضور، ويكنى به عن الذات الحاضرة فيه على سبيل التعظيم، انظر الآية (٤٦) من سورة الرحمن صفحة ٧١١.

﴿واستفتحوا﴾: أى استنصروا الله على أعدائهم كقوله تعالى إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح. وكأنهم لما قوى تكذيبهم وأذاهم للمؤمنين، ولم يعاجلهم الله عز وجل بالعقوبة ظنوا أن ما قيل لهم باطل، فاستفتحوا على سبيل التهكم والاستهزاء كقول قوم نوح ﴿فأتنا بما تعدنا﴾، وقوم شعيب ﴿فأسقط علينا كسفا من السماء﴾ وقولهم هم أنفسهم ﴿ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب﴾ الآية (١٦) من سورة ص صفحة ٥٩٩؛ وقيل الضمير للرسل ومكذبيهم، لأنهم كانوا كلهم سألوا الله أن ينصر المحق ويهلك المبطل. وقلنا فى ﴿عجل لنا قطنا... إلخ﴾ الآية (١٦) من سورة ص صفحة ٥٩٩ لما سمع الكفار تهديدهم بعذاب الآخرة قالوا على سبيل الاستهزاء والسخرية يا ربنا عجل لنا نصيبنا من هذا العذاب ولا تؤخره ليوم الحساب كما يزعم محمد، وهذا منتهى الحماقة كما فى الآية (٣٢) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١، وانظر الآية (٨٩) من سورة البقرة صفحة ١٧، والآية (١٩) من سورة الأنفال صفحة ٢٢٩.

(١) الظالمين. (٢، ٣) ورائه. (٤) أعمالهم. (٥) الضلال.
(٦) السموات. (٧) الضعفاء. (٨) هدانا.

﴿صديد﴾: هو ما يسيل من جلود أهل النار من قيح مخلوط بدم.

﴿يتجرعه﴾: يتكلف شربه جرعة بعد جرعة.

﴿ولا يكاد يسيغه﴾: يكاد أى يقرب، والسوغ مرور الشراب فى الحلق بسهولة، أى لا يقرب من سوغه.

﴿أعمالهم﴾: بدل من (مثل) على حذف مضاف أى مثل أعمالهم.

﴿عاصف﴾: أى شديد الرياح.

المعنى: قال الله لرسله وعزتى لنسكننكم أرض هؤلاء الكفرة من بعد هلاكهم. ذلك النصر وإهلاك العدو حاصل لمن خاف ذاتى العلية، وخاف وعيدى بالعذاب لمن عصى فهو مؤمن صادق الإيمان وعلىّ نصره.

وبعد هذا الوعد من الله طلب كل من الرسل والكفار النصر على حصمه، فجاء نصر الله لأهل الحق، وخاب كل جبار شديد العناد، فحل به الهلاك فى الدنيا، ومن ورائه فى الآخرة عذاب جهنم، ويسقى فيها من ماء صديد منتن، يضطر لشدة عطشه أن يشربه جرعة جرعة لقبحه ولا يقرب من استساغته لأنه لا يمكن أن يستساغ، ويحيط به أسباب الموت من كل جهة، وكل واحد منها كافٍ فى موته لو كان فى الدنيا، وما هو فى جهنم بميت فيستريح ولا يحيا حياة طيبة، انظر الآية (٣٦) من سورة فاطر صفحة ٥٧٦، ومن ورائه بعد كل هذا عذاب آخر أشد، انظر الآية (٥٥) وما بعدها من سورة ص صفحة ٦٠٣، وآيات (٤٢، ٤٣، ٤٤، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥) من سورة الواقعة صفحتى ٧١٥، ٧١٦.

ثم بيَّن سبحانه حال الكفار التى استحقوا بها هذا الشقاء فقال: ﴿مثل الذين كفروا﴾ إلخ؛ أى حال أعمال الكافرين التى كانوا يعملونها فى الدنيا كصلة الأرحام، وإغاثة الملهوف، وفداء الأسرى وخدمة البيت، كحال رماد اشتدت بتفريقه الريح فى يوم عاصف، وهو تأكيد لما قبله، لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا منها فى الدنيا على الانتفاع بشىء منها، فلا يرون له أثرا

من الثواب، كما لا يقدر صاحب الرماد المتطاير فى الريح على إمساك شىء منه، وذلك لأن شرط نفع الأعمال فى الآخرة هو الإيمان، انظر الآية ٢٦٤ من سورة البقرة صفحة ٥٦، والآية ١١٧ من سورة آل عمران صفحة ٨٢؛ ذلك العمل على غير أساس هو الضلال البعيد عن الصواب.

ثم ذكر سبحانه بعض أدلة وحدانيته لبيان غفلتهم فقال: ألم تر أيها السامع وتعلم أن الله هو الذى خلق السموات والأرض مقترنين بالوجه الحق الذى اقتضته الحكمة، ومن قدر على ذلك قادر على إهلاككم أيها الكافرون والإتيان بخلق جديد غيركم، وما ذلك عليه بعزيز، أى ممتنع ومتعذر. ثم أراد سبحانه أن يصور ما سيكون يوم القيامة من الخصام والحوار بين الشيطان وأنصاره ومن ضلوا بهم من الجهلاء، فقال: وسيبرزون لله يوم القيامة بروزًا لا شك فيه كأنه واقع فعلاً فيقول ضعفاء الفكر والرأى من الأتباع للقادة المستكبرين: إنا كنا فى الدنيا مبالغين فى اتباعكم فى تكذيب الرسل ومحاربتهم، فهل أنتم اليوم مغنون عنا من عذاب الله من شىء ولو قليلا، أى تدفعونه عنا؟ قال المستكبرون معتذرين: لو كنا أهلاً لهداية الله وهدانا إلى الصواب.

المفردات: ﴿محيص﴾: أى منجى ومهرب.

﴿لما قضى الأمر﴾: أى نفذ أمر الله بإدخال أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

﴿من سلطان﴾: أى تسلط وقدرة على إرغامكم على الكفر والمعصية.

﴿بمصرخكم﴾: الصراخ رفع الصوت طلبا للإغاثة، يقال استصرخته أى استغثت به فأصرخنى، أى أزال سبب صراخى بأن أغاثنى، كما يقال مرضته أى أزلت سبب مرضه.

﴿ضرب الله مثلا﴾: أى وضعه الموضع اللائق به.

﴿كلمة طيبة﴾: هى كل ما يدل على الحق ككلمة التوحيد والدعوة إلى الإسلام والقرآن.

﴿أكلها﴾: ما يؤكل من ثمرها.

لهديناكم[1] سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص (٢١) وقال الشيطان[2] لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان[3] إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين[4] لهم عذاب أليم (٢٢) وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات[5] جنات[6] تجري من تحتها الأنهار[7] خالدين[8] فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام[9] (٢٣) ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء (٢٤) تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون (٢٥) ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة

﴿كلمة خبيثة﴾: هى كل كلمة ضارة كالإقرار بالشرك، والدعوة إليه، وتكذيب الرسل.

المعنى: قال المستكبرون للضعفاء: لو وفقنا الله لأرشدناكم، فنحن وأنتم الآن يستوى علينا الجزع والصبر فلا خلاص لنا من العذاب..

وقال الشيطان زعيمهم الأكبر لما قضى الله الأمر بتنعيم الطائعين وتعذيب العاصين: إن الله وعدكم وعدًا حقًا بالبعث والجزاء، ووعدتكم وعدًا باطلاً بأنه لا بعث ولا جزاء، وحتى إن كان هناك بعث على سبيل الفرض فإن الأصنام ستشفع لكم، وما كان لى عليكم من قدرة أرغمكم بها على اتباعى، لكن كل ما فعلته أنى دعوتكم بوسوستى إلى الكفر والمعصية فأسرعتم إلى إجابتى لأنها وافقت شهواتكم، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم، لأنكم سمعتم قولى وأهملتم قول ربكم، فما أنا اليوم بمغيثكم من العذاب، ولا أنتم بقادرين على إغاثتى، إنى اليوم كفرت بإشراككم إياى مع الله فى الدنيا بأن أطعتمونى كما يطيع العبد خالقه.

(١) لهديناكم.
(٢) الشيطان.
(٣) سلطان.
(٤) الظالمين.
(٥) الصالحات.
(٦) جنات.
(٧) الأنهار.
(٨) خالدين.
(٩) سلام..

وقال هذا ظنا أنه يبرئه من تبعة إضلالهم، ولكنه لا ينفعه. ثم علل تبرأه بأن الظالمين لهم عذاب أليم، انظر موقفا للشيطان مثل هذا فى الآية (٤٨) الأنفال. هذا ما كان من شأن العصاة والكافرين وزعيمهم إبليس.

أما المؤمنون الذين عملوا الصالحات فتدخلهم الملائكة جنات تجرى من تحت قصورها الأنهار خالدين فيها بأمر ربهم تحيتهم التى تحييهم بها الملائكة هو قولهم السلام عليكم، انظر الآية (٢٤) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥.

وبعد ما ذكر سبحانه أحوال الأشقياء والسعداء ليحذر ويبشر، أراد أن يضرب لعمل كل من الفريقين مثلا بالمشاهد المحس لتقرير ما تقدم من ثبات أمر المؤمنين وبطلان أعمال الكافرين فقال: ﴿ألم تر﴾ إلخ، أى ألم تعلم أيها السامع علم يقين كيف وضع الله للخير والشر مثلا، ثم فسر ذلك فقال: ﴿كلمة﴾ إلخ، أى جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة كل شيء فيها نافع وهى النخلة، أصلها ضارب بعروقه فى الأرض فهو ثابت لا تؤثر فيه الرياح، وأعلاها مرتفع إلى السماء من شدة نموها تعطى ثمرها كل وقت عَيّنه الله لإثمارها بإرادة خالقها وتسخيره. ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون بما فيها من تصوير المعنويات بصور المحسات لفتا لأذهان الغافلين.

ومثل الكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة، وهى كل شجرة كريهة الطعم أو الرائحة، تنبت بجذور ضعيفة فوق سطح الأرض كالحنظلة مثلاً..

المفردات: ﴿اجتثت﴾: أى اقتلعت جثتها بالكلية فلم يبق منها شيء.

﴿دار البوار﴾: أى الهلاك.

﴿يصلونها﴾: أى يقاسون حرها بدخولهم فيها..

﴿أندادا﴾: جمع ند بكسر أوله وهو النظير فى استحقاق العبادة.

﴿ولا خلال﴾: هو المخالة بتشديد اللام والصداقة.

﴿الفلك﴾: هو السفينة، ويطلق على الواحد والجمع.

﴿دائبين﴾: أى دائمين.

المعنى: إن مثل الكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة التى اقتلعت من جذورها حتى صارت ليس لها استقرار بل ذهبت مع الريح، فهذا المثل كالمثل السابق فى الآية (١٧) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٣، ٣٢٤، والمراد كل قول باطل لا ثبات له. يثبت الله الذين آمنوا بالقول المؤيد بالحجة المتمكن من قلوبهم فى الحياة الدنيا فلا يتزحزحون عن دينهم مهما اشتدت عليهم الفتن والتعذيب كما حصل لزكريا ويحيى وأصحاب الأخدود، انظر الآية (٤) وما بعدها من سورة البروج صفحة ٨٠١، وفى الآخرة فى كل مواقفها الشديدة وأهمها يوم الفزع الأكبر، فلا يحزنهم شىء لثبات يقينهم برحمة ربهم، انظر ما تقدم فى الآية (٢٦) من سورة يونس صفحة ٢٧٠، والآية (١٠٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١، ويضل الله الظالمين لأنفسهم بمحاربة الحق، ويفعل الله ما يشاء من هدايته وإضلال حسب ما اقتضته حكمته وعدله.

اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴿٢٦﴾ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة[1] الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين[2] ويفعل الله ما يشاء ﴿٢٧﴾ * ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار ﴿٢٨﴾ جهنم يصلونها وبئس القرار ﴿٢٩﴾ وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴿٣٠﴾ قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلوة[3] وينفقوا مما رزقناهم[4] سرا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال[5] ﴿٣١﴾ الله الذى خلق السموات[6] والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات[7] رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار[8] ﴿٣٢﴾ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين[9]

---

(١) الحياة.
(٢) الظالمين.
(٣) الصلاة.
(٤) رزقناهم.
(٥) خلال.
(٦) السموات.
(٧) الثمرات.
(٨) الأنهار.
(٩) دائبين.

ثم ذكر سبحانه بعض أسباب سوء عاقبة الظالمين فقال: ألم تر أيها السامع وتعجب من هؤلاء الذين بدلوا نعمة الله كفرا، أى وضعوا مكان شكرها الذى وجب عليهم كفرا به تعالى، وهذا غاية الجحود لفضله، ومنهم كبار مشركى قريش الذين أسكنهم الله حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء وشرفهم بإرسال رسول منهم، فكفروا بكل ذلك، فأنزلوا أنفسهم وقومهم دار الهلاك، وهى جهنم التى يقاسون حر نارها، وقبحت المستقر. ومن أفظع جرائمهم أنهم جعلوا لله الواحد الصمد نظراء، واتخذوهم من الأصنام شركاء له تعالى فى العبادة لتكون عاقبة عملهم إضلال الناس عن سبيل الله، ثم أمر سبحانه نبيه أن يهددهم بقوله تمتعوا بشهواتكم قليلا، فإن نهايتكم النار خالدين فيها.

ثم أمر نبيه ﷺ أن يعرض عنهم ويرشد صالحى أمته بما فيه سعادتهم فقال: قل يا أيها النبى لعبادى الذين آمنوا أقيموا الصلاة وأنفقوا، فيقيموا الصلاة على أصولها، وينفقوا بعض ما رزقناهم من الحلال سرا فى التطوع وعلنا فى الواجب من قبل أن يأتى يوم لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بصحبة وصداقة، انظر الآية (٢٥٤) من سورة البقرة صفحة ٥٣.

ثم ذكر سبحانه الأدلة الواضحة على وجوده واستحقاقه العبادة وحده، ومع ذلك أعرض عنها الكافرون فاستحقوا الجزاء المناسب، فقال: الله وحده هو الذى خلق السموات والأرض، وأنزل من السحاب ماء فأخرج بسببه رزقا لكم من ثمرات الزرع والشجر ما بين مطعوم وملبوس وغير ذلك، وسخر لكم السفن لتجرى فى البحر تحمل أرزاقكم وأمتعتكم بإذنه ومشيئته فخلق الماء والهواء صالحا لحملها وتسييرها حسب ما تشاءون، انظر الآية (٤٦) من سورة الروم صفحتى ٥٣٦، ٥٣٧، والآية (١٢) من سورة فاطر صفحة ٥٧٣، وسخر لكم الأنهار العذبة فجعلها معدة لانتفاعكم، وعلمكم كيف تنتفعون بها، وسخر لكم الشمس والقمر دائمين للإضاءة وإصلاح ما تحتاجون إليه من زرع وثمر.

المفردات: ﴿هذا البلد﴾: هو مكة.

﴿واجنبنى وبنى﴾: أى باعدنى وأبنائى.

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ[١] ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم[٢] مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ
وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ[٣] لَظَلُومٌ
كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ[٤] رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا[٥]
وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ
كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي
فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ
غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ[٦]
فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ
الثَّمَرَاتِ[٧] لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ
مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ
وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى
الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ[٨] وَإِسْحَاقَ[٩] إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾

﴿بيتك المحرم﴾: هى الكعبة التى حرم الله التعرض لها بسوء أو التهاون بها.

﴿أفئدة﴾: أى قلوبا.

﴿تهوى﴾: المراد تميل إليهم شوقا وودادًا.

المعنى: وسخر سبحانه لكم أيها الناس الليل للراحة، والنهار للسعى، كما فى الآيات (٧١، ٧٢، ٧٣) من سورة القصص صفحة ٥١٧، ﴿وآتاكم من كل﴾ إلخ، أى هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه فى دنياكم مما شأنه أن يطلب، سواء أطلبتموه أم لا.

وإن تعدوا ما أنعم الله به عليكم لا يمكنكم حصر أنواعه فضلا عن أفراده؛ إن الإنسان الذى قابل نعم الله بكفره أو عدم شكرها لشديد الظلم لنفسه حيث تسبب لها فى الهلاك والحرمان، كثير الكفر بمقدار النعم. ثم أراد سبحانه أن يوبخ مشركى العرب على زعمهم أنهم على ملة إبراهيم وإبراهيم منهم برىء فقال: ﴿وإذ قال إبراهيم﴾ إلخ، أى واذكر أيها النبى

---

(١) الليل.
(٢) وآتاكم.
(٣) الإنسان.
(٤) إبراهيم.
(٥) آمنا.
(٦) الصلاة.
(٧) الثمرات.
(٨) إسماعيل.
(٩) إسحاق.

لقومك قول أبيهم إبراهيم بعد بناء الكعبة يارب اجعل هذا البلد الذى فيه الكعبة ذا أمن لكل من سكنه فلا طغيان ظالم، وأبعدنى وأبنائى من أن نعبد الأصنام.

ثم بيَّن سبب طلبه الحفظ من هذا الشر فقال: إن الأصنام تتسبب فى إضلال كثير من الناس بواسطة وسوسة الشيطان، فمن تبعنى من ذريتى وابتعد عنها فإنه منى أرجوك شموله برحمتك، ومن عصانى فإنك قادر على توفيقه للتوبة فيدخل فى مغفرتك؛ وقال ابن كثير ذكر إبراهيم أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس وأنه تبرأ ممن عبدها، ورد أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم كقول عيسى عليه السلام إن تعذبهم فإنهم عبادك أنظر الآية (١١٨) من سورة المائدة صفحة ١٦١. ربنا إنى أسكنت بعض ذريتى بواد لا ينبت زرعا يعيش عليه الإنسان عند بيتك الذى حرمت إهانته بسفك دم بجواره أو إيذاء لاجئ إليه حتى من الحيوانات البرية كما تقدم أول سورة المائدة صفحتى ١٣٤، ١٣٥. ياربنا أسكنت ذريتى هنا ليقيموا الصلاة عند بيتك فيدوم ذكرك، فاجعل قلوبا خيرة تميل إليهم ميل محبة وشوق، وارزقهم من الثمرات بأن تسخر من عبادك من يجلبها إليهم من كل ناحية، رجاء أن يشكروك.

ثم بيَّن إبراهيم عليه السلام أن دعاءه هذا إنما هو إظهار للعبودية فقال: ربنا إنك يستوى عندك علم سرنا وعلانيتنا، فأنت أعلم بمصالحنا وأرحم بنا من أنفسنا، وما يخفى عليك يا الله شىء مطلقا ولو صغيرا فى الأرض ولا فى السماء. ولما كان الشكر يزيد النعم ويجلب الرحمة، قال الحمد لله الذى وهب لى مع كبرى فى السن إسماعيل أولاً وإسحاق ثانيًا إن ربى والله لمجيب دعاء المخلصين.

وقد ولد له إسماعيل وكانت سنة ٩٩ سنة، وإسحاق وكانت سنة ١١٢ سنة.

المفردات: ﴿يقوم الحساب﴾: أى يقع ويتحقق كقولهم قامت الحرب.

﴿تشخص﴾: يرتفع جفنها وتبقى مفتوحة.

﴿مـهطعـين﴾: أى مسـرعـين فى ذل وانكسار، وهى حال من أصحاب الأبصار المفهومين من السياق.

﴿مقنعى رءوسهم﴾: أى رافعيها من غير التفات إلى شىء كأنها مشدودة من الخلف فهى كالمقمع فى الآية (٨) من سورة يس صفحة ٥٧٩.

﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾: أصل طرف العين هو تحريك جفنها إلى أسفل، ويطلق على الجفن نفسه، وهو المراد هنا، والمعنى أن شخوص أبصارهم دائم لايزول من شدة الهول.

رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَوٰةِ[1] وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ[2] وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَٰفِلًا[3] عَمَّا يَعْمَلُ الظَّٰلِمُونَ[4] ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَٰرُ[5] ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ[6] الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ

﴿وأفئدتهم هواء﴾: أى قلوبهم خالية من الفهم ووزن الأمور كالهواء والخلاء الذى ليس فيه شىء، انظر الآية (١٠) من سورة القصص صفحة ٥٠٧.

﴿مالكم من زوال﴾: أى لا يصيرون من الدنيا إلى البعث كما فى الآية (٣٨) من سورة النحل صفحة ٣٥٠.

﴿مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾: بالكفر والمعاصى كعاد وثمود.

(١) الصلاة.
(٢) ولوالدى.
(٣) غافلا.
(٤) الظالمون.
(٥) الأبصار.
(٦) مساكن.

﴿يوم يأتيهم العذاب﴾: أى خوف الناس هول يوم يأتيهم فيه العذاب.

﴿مكروا مكرهم﴾: أى دبروا فى خفية كيدهم الفظيع لإبطال الحق.

﴿وعند الله مكرهم﴾: أى علمه عنده، وهو قادر على إحباطه..

﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾: أى وأنه كان مكرا شديدا بلغ شدته أنه يكاد يزيل الجبال. (إن) حرف شرط، وجواب الشرط مقدر مفهوم من سياق الكلام كما سيأتى، واللام فى (لتزول) للتعليل، ويسميها علماء العربية لام (كى) والمعنى: وعند الله جزاء مكرهم، وإن كان مكرهم معدا لزوال الجبال، أى الأمور العظيمة، فلن يبلغ مكر الله بهم.

كما يقال: أنا أعلم من فلان وإن كان فلان معدا لحل عويصات المسائل، انظر الآيات (٥٤) من سورة البقرة صفحة ٧١، و(١٢٣، ١٢٤) من سورة الأنعام صفحة ٨٣، و(٢١) من سورة يونس صفحة ٢٦٩، و(٥٠، ٥١) من سورة النمل صفحة ٥٠٠.

المعنى: قال إبراهيم عليه السلام فى دعائه: يارب أجعلنى ووفقنى لأن أؤدى الصلاة على أصولها ووفق من ذريتى لذلك من صلحت قلوبهم، ربنا استجب دعائى، ربنا أغفر لى ولوالدى، قال ذلك قبل أن ينهاه ربه عن الاستغفار لأبيه كما تقدم فى الآية (١١٤) من سورة التوبة صفحتى ٢٦١، ٢٦٢. وأغفر يا رب للمؤمنين جميعا يوم يقوم الحساب وبعدما فرغ سبحانه من تذكيرهم بما كان عليه أبوهم إبراهيم، أراد أن يسلى من تعدى عليهم طغاة قريش ويهدد الكفار فقال: ولا تحسبن ايها المخاطب ربك غافلا عما يعمل الظالمون من محاربة الإسلام وإيذاء المؤمنين، بل هو سبحانه عالم بكل صغيرة وكبيرة من أعمالهم، ولم يعجل بعقوبتهم الشديدة لأنه قدر تأخيرها ليوم عبوس عسير عليهم غير يسير. ثم صور حالهم فى هذا اليوم بما تنخلع له القلوب لو كانوا يعقلون فقال: ليوم تشخص فيه أبصارهم، فلا تقر من هول ما ترى، حال كونهم مسرعين إلى الداعى كما فى الآية (٨) من سورة القمر صفحة (٧٠٥)، رافعين رءوسهم لا يلتفتون إلى شىء، مثبتة أجفانهم فى أماكنها لا تطرف من الذهول، وقلوبهم كالهواء ليس فيها تفكير ولا تدبير من شدة الحيرة. وأنذر الناس أيها النبى وخوفهم من يوم يأتيهم فيه

العذاب الذى سمعتم بعض آثاره؛ فيقول الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصى يارينا أخرنا أى أمهلنا وأخر عنا العذاب إلى أجل قريب نجب دعوتك إلى التوحيد. ونتبع الرسل فيما أمروا به، وهذا الكلام يحصل منهم فى موقفين: عند الموت ومشاهدة مقدمات العذاب كما فى آيتى (٩٩، ١٠٠) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٤، والآية (١٠) من سورة المنافقون صفحة ٧٤٤. وعند مشاهدة عذاب جهنم فى الآخرة كما فى الآية (٢٧) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦، والآية (٣٧) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٦، ٥٧٧. ويقال ردا عليهم: أتقولون هذا الآن ونسيتم أنكم أقسمتم من قبل هذا الموقف أنكم إذا متم تبقون ميتين ولا تبعثون للحساب، فالمراد كفرتم بالبعث، وسكنتم فى الدنيا فى مساكن الظالمين من الأمم قبلكم، وعلمتم ما كانوا عليه من الكفر مثلكم يا كفار قريش، وتبين لكم كيف نكلنا بهم وعذبناهم على عملهم، وضربنا لكم الأمثال، أى بينا لكم صفات ما فعلوا وما حل بهم بصور بديعة كالأمثال السائرة لعلكم تعتبرون، فلم ينفع كل هذا فيكم ثم بين سبحانه فظاعة كيد مشركى العرب وكيف أحبطه فقال: وقد مكر هؤلاء المشركون مكرهم الفظيع لإبطال الدعوة، وعند الله علم كل شىء عن مكرهم هذا الذى بلغ من قوته أنه تكاد تزول منه الجبال عن أماكنها، أى أنه فى غاية الشدة؛ فإن الله تعالى أقوى منهم مكرا، فأبطل كيدهم ورده إلى نحورهم. ثم أراد سبحانه تثبيت المؤمنين على الثقة بوعد ربهم فقال: ولا تحسبن أيها المخاطب لما رأيت من إمهالنا لهؤلاء أن الله يخلف ما وعد به من عذابهم..

المفردات: ﴿مخلف وعده رسله﴾: أصل التركيب مخلف رسله وعده الذى وعدهم به.

﴿عزيز﴾: غالب لا يقهر. ﴿مقرنين﴾ أى مقرون كل واحد منهم مع شيطانه كما فى الآية (٩٤) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٥. ﴿فى الأصفاد﴾: جمع صفد بفتحتين وهو القيد من الحديد يوضع فى الأيدى والأرجل. ﴿سرابيلهم﴾: جمع سربال بكسر أوله وهو القميص.

﴿قطران﴾: مادة سوداء تسيل من نوع من شجر البادية تشبه الزفت المذاب، سريعة الالتهاب منتنة الرائحة.

﴿بلاغ﴾: كفاية. ﴿ربما﴾: كلمة تدل على قلة حصول ما بعدها وأريد بها هنا التهكم.

﴿الر﴾: تقدم الكلام على مثل هذه الحروف فى أول سورة البقرة.

مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ[1] لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ[2] وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ[3] ﴿٥٢﴾

(١٥) سُورَةُ الْحِجْرِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَتِسْعُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر[4] ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ[5] ٱلْكِتَٰبِ[6] وَقُرْءَانٍ[7] مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا

المعنى: فلا تحسبن الله مخلف رسله ما وعدهم به من نصرهم، انظر الآية (٥١) من سورة غافر، والآية (٢١) من سورة المجادلة؛ لأنه سبحانه غالب لا يمنعه أحد عما يريد شديد الانتقام ممن كفر به وعصى رسله، فينتقم منهم يوم القيامة، يوم تبدل الأرض غير الأرض الموجودة الآن، وتبدل السموات كذلك، وبرز الإنس والجن جميعا من قبورهم لحكم الله الواحد القهار لا يشاركه أحد فى تصرفه وترى أيها الناظر المجرمين من الكافرين يوم القيامة مغلولين فى القيود مع شياطينهم، مدلية جلودهم بقطران كالسرابيل لتسرع النار إلى جلودهم مع سواد اللون ونتن الرائحة، وقطران الآخرة كنار الآخرة ليس له فى الدنيا نظير، والعياذ بالله، وتغشى وجوه المجرمين النار.

يفعل الله بهم ذلك ليجزى كل نفس منهم جزاء ما كسبت فى الدنيا، إن الله سريع الحساب لا يشغله حساب عن حساب. هذا القرآن كاف للناس لنصحهم ولإنذارهم وتخويفهم من عذاب الله وليعلموا إذا خافوا وتأملوا أنه لا إله إلا إله واحد، وليتذكر أصحاب العقول، أى يتذكرون عظمة ربهم فيبتعدوا عما فيه هلاكهم.

سورة الحجر

﴿تلك﴾ أى ما فى السورة من الآيات هى آيات الكتاب المنزل من الله، الجامع بين كونه كتابا كاملا ومقروءا، يبين الرشد من الغى.

(١) بلاغ. (٢) واحد. (٣) الألباب. (٤) الف لام را. (٥) آيات. (٦) الكتاب. (٧) قرآن.

يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ (٤) مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١) كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤)

المفردات: ﴿ذرهم﴾: أى اتركهم فى شهواتهم. ﴿ألا ولها كتاب معلوم﴾: هذه الجملة صفة لقرية وقرنت بالواو لتأكيد ربطها بالموصوف.

﴿يأيها الذى نزل عليه الذكر﴾: قال الكافرون ذلك على سبيل الاستهزاء، قبحهم الله، انظر ماقيل من أمثالهم لمثله ﷺ فى الآية (٨٧) من سورة هود صفحة ٢٩٧.

﴿الذكر﴾: هو القرآن.

﴿لو ما﴾: كلمة تدل على الحث على فعل مابعدها.

﴿منظرين﴾: أى مؤخرين. ﴿شيع﴾: جمع شيعة وهى الجماعة المتفقة على مذهب واحد.

﴿نسلكه﴾: أى ندخله كما يدخل الخيط فى الإبرة. ﴿خلت﴾: أى مضت.

﴿سنة الأولين﴾: أى طريقتهم فى الكفر بأنبيائهم. وطريقة الله سبحانه معهم بحرمانهم من الخير أو سرعة إهلاكهم. ﴿فظلوا﴾: أى صاروا مستمرين. ﴿يعرجون﴾: أى يصعدون إلى السماء.

المعنى: يمر بالكافرين أوقات عصيبة يتمنون فيها كثيرا أن يكونوا أسلموا، وإنما أورده فى صورة القليل للإرشاد إلى أنه كان يكفى فى حصول المراد، فالعرب تقول: ربما تندم على

(١) يستأخرون.
(٢) بالملائكة.
(٣) الصادقين.
(٤) الملائكة.
(٥) لحافظون.

مافعلت، يريدون حتى لو كان الندم قليلا لوجب عليك أن لا تفعل مايوجبه، كيف وهو كثير، فاتركهم أيها النبى فى غرورهم ولاتطمع فى إيمانهم، يأكلون كما تأكل الأنعام ويتمتعون بدنياهم الفانية، ويشغلهم عن تدبر العواقب أملهم فى طول الحياة، فسوف يعلمون سوء عملهم عند معاينة العذاب. وبعد ذلك أراد سبحانه أن يبيِّن سبب تأخير العذاب فى الدنيا عنهم فقال: ﴿وما أهلكنا﴾ إلخ؛ أى وما أهلكنا قرية من قرى الأمم السابقة بخسفها وأهلها مثلا إلا ولها أجل مقدر مكتوب فى اللوح المحفوظ، لايجىء هلاكها قبله، ولايتأخر عنها إذا جاء الأجل. وبعد ما هدد سبحانه الكافرين شرع فى بيان بعض جرائمهم التى فعلوها معه ﷺ ثم سلاه بأنه قد حصل ماحصل منهم من أمم سابقة مع رسلهم وكانت العاقبة للمتقين فقال: وقالوا: أى كفار مكة تهكما واستهزاء: يأيها الذى يزعم أنه نزل عليه من الله القرآن، الواقع إنك مجنون، لأنك تدعى مايخالف آباءنا وفحول رجالنا، وإلا فلم لم تأتنا بالملائكة لتشهد لك إن كنت من الصادقين. فرد سبحانه عليهم بقوله: ماننزل الملائكة إلا تنزيلا مقترنا بالوجه الذى اقتضته الحكمة، فلو علمنا أنهم يؤمنون حقا إذا أنزلناهم لفعلنا ولكنهم كاذبون، وقد جرت سنتنا أننا إذا أنزلنا مايطلب الكافرون ولم يؤمنوا أهلكناهم فورا وماكانوا منظرين لحظة واحدة، انظر الآية (٥٩) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٢. ثم رد سبحانه على إنكارهم نزول القرآن على نبيه ﷺ فقال: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾ الذى ينكرونه ﴿وإنا له لحافظون﴾ من كل مايمسه بسوء كذهاب أو تحريف أو زيادة أو نقص. ثم شرع فى تسليته ﷺ فقال: ولقد أرسلنا من قبلك أيها النبى رسلا فى جماعات الأمم السابقة وكانوا مثل أمتك مايأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون كذلك ندخل القرآن فى قلوب متعودى الإجرام مستهزأ به غير مقبول لفقد نفوسهم الاستعداد للحق، انظر الآية (٢٦) من سورة البقرة صفحتى ٦، ٧ والآية (٥٣) من سورة الحج صفحة ٤٤١؛ فهم لايؤمنون به أبدا، شأنهم فى ذلك شأن الأمم السابقة تعاند وتحارب الرسل فيحرمهم الله من الهداية. ثم بيَّن سبحانه سبب عدم هدايتهم وهو شدة عنادهم وعدم استعدادهم لقبول الحق فقال: ولو فتحنا عليهم بابًا من السماء فصاروا يصعدون فيه وينظرون إلى عجائب الملأ الأعلى...

المفردات: ﴿سكرت أبصارنا﴾: السكر حالة تمنع الشخص من الإدراك بسبب خمر أو غضب مثلا، والمراد هنا منعت أبصارنا عن الرؤية بسبب السحر. ﴿فى السماء﴾: المراد السماء

لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا[1] بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا[2] لِلنَّٰظِرِينَ[3] ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا[4] مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ[5] رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا[6] وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ[7] وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ[8] وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ[9] ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ[10] لَوَٰقِحَ[11] فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ[12] وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ[13] ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ[14] ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ[15] ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ[16]

الدنيا. ﴿بروجا﴾: جمع برج وهو واحد من اثنى عشر برجا قسموا إليها الفلك وهى منازل الكواكب أو هى النجوم الكبيرة، انظر الآية (١) من سورة البروج صفحة ٨٠٠. ﴿استرق السمع﴾: استمع مستخفيا، مأخوذ من السرقة.وهى أخذ الشىء خفية. ﴿شهاب﴾: هو شعلة من نار.

﴿مبين﴾: أى ظاهر واضح لكل مبصر.

﴿رواسى﴾ أى جبالا ثابتة كما تقدم فى الآية (٣) من سورة الرعد صفحة ٣٢١.

﴿موزون﴾: أى مقدر بمقدار معين اقتضته الحكمة. ﴿معايش﴾: العيش الحياة، يقال عاش فلان عيشا، ومعاشا ومعيشة أى حيى وصار حيًا، ومنه قوله ﷺ اللهم لاعيش إلا عيش الآخرة، أى لا حياة دائمة إلا حياة الآخرة. انظر الآية (٦٤) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٩. وتجمع المعيشة على معايش كما هنا وكما فى الآية (١٠) من سورة الأعراف صفحة ١٩٣. والعيشة هى حالة الإنسان التى يكون عليها فى حياته من رخاء أو ضيق، وسعادة أو شقاء.

﴿ومَنْ لستم له برازقين﴾: أراد بهم العيال والخدم والدواب. ﴿خزائنه﴾ أصل الخزانة هى مايحفظ فيها الشىء النفيس، والمراد بها هنا كناية عن كل ماينتفع به. ﴿بقدر﴾: أى بمقدار. ﴿لواقح﴾: جمع لاقحة بمعنى حامل. ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾: قال ابن عباس: المستقدمون هم كل مَنْ هلك من لدن آدم إلى الآن. والمستأخرون هم الأحياء الآن، ومَنْ سيأتى إلى يوم القيامة، ورآه عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم واختاره ابن جرير. وقال الحسن: المستقدمون فى الطاعة والخيرات والمستأخرون المبطئون فيها.

(١) أبصارنا. (٢) وزيناها. (٣) للناظرين. (٤) وحفظناها. (٥) شيطان. (٦) مددناها.
(٧) رواسى. (٨) معايش. (٩) برازقين. (١٠) الرياح. (١١) لواقح. (١٢) فاسقيناكموه.
(١٣) بخازنين. (١٤) الوارثون. (١٥) المستأخرين. (١٦) الإنسان.

المعنى: لو أريناهم المعجزات الحسية رأى العين على أوضح صورة لقالوا لشدة عنادهم إنما منعت أبصارنا فقط عن نظر الواقع، ثم انتقلوا إلى التعميم فقالوا بل سحر محمّد أبصارنا وعقولنا فصرنا لا نرى ولانعقل حقائق بل خيالات، انظر مثله فى الآية (٧) من سورة الأنعام صفحة ١٦٣؛ أى فمثل هؤلاء لاينفع فيهم شىء وبعد أن بيّن سبحانه أنهم معاندون لا طلاب حق، أراد أن يبين أن أمامهم من الأدلة على وجود الصانع الحكيم وقدرته ووحدانيته ما كان يكفيهم لو أخلصوا فقال: ﴿ولقد جعلنا فى السماء بروجا﴾ أى وجعلنا السماء وكواكبها ونجومها زينة للناظرين المتأملين، انظر الآية (٦) ومابعدها من سورة الصافات صفحة ٥٨٧، والآية (٥) من سورة الملك صفحة ٧٥٤. وحفظنا السماء من كل شيطان مرجوم باللعنة فلا يقربها، لكن مَنْ أراد اختطاف شىء من عالم الغيب مما يلقيه الملائكة بعضهم لبعض تبعه كوكب مشتعل ظاهر للعيان، انظر الآية (١٠) من سورة الصافات صفحة ٥٨٧، والآية (٥) من سورة الملك صفحة ٧٥٤، والآية (٨) ومابعدها من سورة الجن صفحة ٧٧١. ومَنْ أراد تحقيق ذلك مع آية سورة الجن فليرجع إلى حديث رقم ٤٢٦ من كتابنا صفوة البخارى. وقد بسطنا الأرض ومددناها طولا وعرضا ليمكن الانتفاع بها كما تقدم فى الآية (٣) من سورة الرعد صفحة ٣٢١، وجعلنا فيها جبالا ثوابت تحفظها من أن تميل وتتشقق كما تقدم فى سورة الرعد أيضًا. وأنبتنا فيها من كل شىء وزنت عناصره وقدرت تقديرا دقيقا حسب حكمتنا، وجعلنا لكم فيها ماتعيشون به أنتم وأولادكم وخدمكم وحيواناتكم أى فرزقكم ورزقهم علينا لاعليكم؛ وذلك أن كل شىء ملكنا وتحت تصرفنا كما يملك صاحب الخزائن مافيها. وماننزل مما عندنا على خلقنا إلا بمقدار محدود معين قضائنا الأزلى. ومن قدرتنا ورحمتنا بكم أننا نرسل الرياح حاملة للمطر وكل ما فيه نفعكم، انظر الآية (٥٧) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠١، ٢٠٢؛ ولذا قال فأنزلنا من السماء أى من جهتها وهو السحاب فأسقيناكموه، ولستم بخازنى الماء العذب الذى رزقناكم به، بل حفظه فى باطن الأرض والأنهار بقدرتنا نحن، فهو منا إيجادا وحفظا. وإنا وحدنا لقادرون على إحياء من أردنا إحياءه، وإماتة من أردنا موته، ونرث الأرض ومَنْ عليها فى النهاية. ولقد علمنا كل المتقدمين منكم فى الأزمان الأولى وأحصينا ماكانوا يعملون، كما علمنا المتأخرين عنهم مَنْ كان حيا منهم أو سيوجد. وأن ربك أيها النبى هو الذى سيحشرهم يوم القيامة للحساب، إنه حكيم لايخلق الخلق عبثا كما فى الآية (١١٥) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦، عليم بعمل كل الخلق وسيجازى عليه...

مِن صَلْصَٰلٍ[1] مِّنْ حَمَإٍ[2] مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَٰهُ[3]
مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ[4]
إِنِّى خَٰلِقٌۢ[5] بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ[6] مِّنْ حَمَإٍ[7] مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا
سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ[8] ﴿٢٩﴾
فَسَجَدَ الْمَلَٰٓئِكَةُ[9] كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ
أَن يَكُونَ مَعَ السَّٰجِدِينَ[10] ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ[11] مَا لَكَ
أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّٰجِدِينَ[12] ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ
خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ[13] مِّنْ حَمَإٍ[14] مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا
فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾
قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ
رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ

المفردات: ﴿صلصال﴾: طين يابس يصلصل أى يظهر له صوت إذا نقر عليه، وإذا طبخ فى النار صار فخارًا، فهو قبل النار كالفخار، انظر الآية (١٤) من سورة الرحمن صفحة ٧٠٩.

﴿حمأ﴾: هو الطين الذى اسود من طول مجاورته للماء. ﴿مسنون﴾ : هو المتغير ريحه، انظر الآية (٢٥٩) من سورة البقرة صفحتى ٥٤، ٥٥.

﴿السموم﴾: هو لهب النار الخالص فإضافة النار إليه من إضافة العام إلى الخاص ويسمونها الإضافة التى تكون للتبيين، أى تفيد أن المضاف إليه وهو هنا ﴿السموم﴾ جاء يبين المراد مما قبله وهو ﴿نار﴾ كما فى قولهم شجر كافور، وماء مطر.

﴿خلقته من صلصال﴾: ذكر إبليس الصلصال، والحمأ ليشير إلى أنه خير من آدم وذريته، وقد جاء ذلك صريحا فى الآية (١٢) من سورة الأعراف صفحة ١٩٣.

﴿رجيم﴾: أى مرجوم باللعن من الله وجميع خلقه، فما بعده تفسير له.

﴿إلى يوم الدين﴾: إلى يوم القيامة، وفيه إشعار بتأخير عقابه الشديد غير اللعن إلى هذا اليوم وأن اللعنة مع شدتها ليست وحدها جزاء فعله، وأن الجزاء الأوفى يعلنه به يوم القيامة، ومنه الخلود فى جهنم، وليس معنى ذلك أن اللعنة تنقطع عنه إذا جاء يوم القيامة، بل المراد أنه

---

(١) صلصال. (٢) حمأ. (٣) خلقناه. (٤) للملائكة. (٥) خالق.
(٦) صلصال. (٧) حمأ. (٨) ساجدين. (٩) الملائكة. (١٠) الساجدين.
(١١) يإبليس. (١٢) الساجدين. (١٣) صلصال. (١٤) حمأ.

عند ذلك اليوم يرى من الهول ما تصير معه اللعنة كأنها لاشىء؛ وبهذا نعلم أن اللعنة باقية تتبعه فى جهنم، فيلعنه كل مَنْ فيها، ويلعنه المؤمنون، انظر آيات (٣٨، ٤٤) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٨، ١٩٩ و (٢٥) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤ و (٦٨) من سورة الأحزاب صفحة ٥٦١.

﴿أنظرنى﴾ : أى أمهلنى أى بدون موت.

﴿إلى يوم يبعثون﴾ : أى يبعث آدم وذريته للحساب والجزاء أراد بذلك أن يجد فسحة من الوقت تمكنه من إفساد أولاد آدم فَيَثْأر بذلك من آدم وذريته. وأراد أيضا أن ينجو من الموت الذى يعم كل حى عند النفخة الأولى فى الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥، لأنه إذا أخر ليوم البعث الذى يكون عند النفخة الثانية التى عندها يحيى الأموات جميعا وبذلك تتصل حياته بهذه الحياة، فلا يذوق الموت أبدًا.

ولكن الله سبحانه لم يجب طلبه كاملا، بل أخر موته ﴿إلى يوم الوقت المعلوم﴾ فقط وهو وقت النفخة الأولى التى بها فناء كل حىّ.

وإذا كان اليوم زمنا، والوقت زمنا، فما معنى إضافة الزمن للزمن؟ لمعرفة ذلك يجب أن تعلم أولاً أن المراد هنا من كل من ﴿اليوم، الوقت﴾ فالوقت هنا هو زمن وُقِّتَ وعُيِّن لوقوع حدث فيه، والحدث هنا هو النفخة الأولى.

وإنما قلنا ذلك لأن هذه المادة تدل على التوقيت والتحديد، انظر ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا﴾ الآية (١٠٣) من سورة النساء صفحة ١٢٠، و ﴿إن يوم الفصل كان ميقاتًا﴾ الآية (١٧) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧ إلى غير ذلك. واليوم المراد به الزمن الذى يبدأ بالنفخة الأولى وينتهى بالنفخة الثانية، فإضافة يوم إلى الوقت من إضافة الكل إلى الجزء من أجزائه كما تقول هذا بلد البيت العتيق، والبيت العتيق جزء من أجزاء البلد. فالمعنى إلى يوم فى اللحظة الأولى منه المعلومة عند الله وحده يحدث حدثًا عظيمًا وهو النفخة الأولى التى بها تفنى الخلائق.

المعنى : ـ ومن دلائل قدرتنا أيضا أنا خلقنا أول إنسان من تراب كما فى آيات (٥٩) من سورة آل عمران صفحة ٧٢، و٣٧ من سورة الكهف صفحة ٣٨٦، و (٧) من سورة السجدة صفحة ٥٤٥، فعجن بالماء فصار طينا كما فى آية سورة السجدة المتقدمة، فمكث كثيرًا حتى صار حمأ مسنونا، ثم يبس فصار صلصالاً فالمراد من صلصال مأخوذ من حمأ مسنون، وخلقنا أول الجان من قبل خلق آدم من نار لا دخان فيها.

واذكر أيها الرسول لقومك حين عظم ربكم أباكم آدم فقال للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون فإذا تممت خلقه وجعلت فيه الروح التى هى سر من أسرارى فقعوا على الأرض ساجدين له، وقد تقدم فى الآية (٣٤) من سورة البقرة صفحة ٨ معنى ذلك. ﴿فسجد الملائكة كلهم﴾ أى لم يتخلف منهم أحد.

﴿أجمعون﴾ أى فى وقت واحد، لأن مادة الجمع تفيد ذلك خصوصًا إذا فهم العموم من غيرها؛ لكن إبليس امتنع أن يكون معهم فى تعظيم آدم حسدًا وكبرًا كما فى آية سورة البقرة المتقدمة.

بعد ذلك أراد سبحانه أن يظهر ما انطوت عليه نفسه من الكبر فقال تعالى: يا إبليس أى غرض لك فى أن لا تكون مع الساجدين؟ قال إبليس: لا يصح لى أن أسجد لمن هو أقل منى منزلة كما فى الآية (١٢) من سورة الأعراف صفحة ١٩٣. وقد تقدم فى سورة البقرة شرح القصة على الوجه الخالى من المناقشة.

قال سبحانه: فاخرج من المنزلة الرفيعة التى كنت فيها، والجنة التى كان فيها آدم كما تقدم فى سورة البقرة، فإنك مرجوم باللعنة والبعد عن الرحمة، وإن ذلك الطرد دائم إلى يوم القيامة. قال : يارب حيث جعلتنى رجيما فأمهلنى ولا تمتنى إلى يوم البعث. قال سبحانه: فإنك من المنظرين إلى يوم البعث المحدد فى علمنا. قال : يارب بحق إغوائك لى لأزينن لأولاد آدم المعاصى فى دار الدنيا، ولأحملنهم جميعا على الغواية وهى الضلال والبعد عن الحق، انظر الآية (٨٢) من سورة ص صفحة ٦٠٥.

أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ[1] عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ[2] إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ[3] لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ[4] وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ[5] ءَامِنِينَ[6] ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا[7] عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَٰبِلِينَ[8] ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ * نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ[9] ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَٰمًا[10] قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ[11] عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ

المفردات : ﴿المخلصين﴾ : تقدم فى الآية (٢٤) من سورة يوسف صفحة ٣٠٦. ﴿صراط على﴾ : أى طريق حق على أن أراعيه. ﴿ليس لك عليهم سلطان﴾ : سلطان أى تسلط وقدرة على إغوائهم بجبرهم على الخضوع لك، وهذا لايمنع من أن يحاول إغراءهم، انظر آيتى (٢٠٠، ٢٠١) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٥ أما التسلط بمعنى القهر وجبر العبد على المعاصى والكفر فليس فى طاقة إبليس كما فى آيات (٢٢) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٣، و (٩٩، ١٠٠) من سورة النحل صفحة ٣٥٩، و (٣٠) من سورة الصافات صفحة ٥٨٩. ﴿فى جنات وعيون﴾ : المراد فى مكان تحيط به الجنات والعيون، لا أنهم فى العيون نفسها، انظر الآية (٥٤) من سورة القمر صفحة ٧٠٨ ﴿غل﴾ : حقد ﴿نصب﴾ : تعب انظر الآية (٣) من سورة الغاشية صفحة ٨٠٥. ﴿ضيف إبراهيم﴾ : الملائكة المرسلون لقوم لوط كما تقدم فى الآية (٦١) من سورة هود ومابعدها صفحة ٢٩٤. ﴿وجلون﴾ : خائفون. ﴿بغلام﴾ : وهو إسحاق كما تقدم فى سورة هود الآية (٧١) صفحة ٢٩٥.

(١) صراط.
(٢) سلطان.
(٣) أبواب.
(٤) جنات.
(٥) بسلام.
(٦) آمنين.
(٧) إخوانا.
(٨) متقابلين.
(٩) إبراهيم.
(١٠) سلاما.
(١١) بغلام.

المعنى: لأضلنهم أجمعين إلا عبادك المخلصين فإنى لا أستطيع إغواءهم. قال سبحانه: حفظ عبادى المخلصين من تضليلك حق علىّ، فاحفظهم من إغوائك، فليس لك سلطان على أحد منهم، لكن مَنْ اتبعك من القابلين للإغواء، فإنك تستطيع إغواءه انظر آيات من (٩١ إلى ٩٩) من سورة الشعراء صفحتى ٤٨٥، ٤٨٦ وأن جهنم لهى المكان الذى وعدت بجمع الغاوين فيه أجمعين. لها سبعة أبواب بعدد دركاتها لكل درك باب، فالمنافقون فى الأسفل كما فى الآية (١٤٥) من سورة النساء لكل باب جزء منهم مقسوم معين لا يتعداه. أما عباد الله الذين اتقوا معاصيه فهم فى جنات وعيون تجرى منها الأنهار، تقول لهم الملائكة ادخلوها مصاحبين للسلامة من كل عيب آمنين من كل خوف، ولم نبق فى قلوبهم حقدا ولا حسدا كحال أهل الدنيا فتكون حالهم كحال الإخوة المتقابلين وهم جلوس على سرر بحالة من النعيم الفائق لايعلمها إلا المتفضل بها. لايمسهم فى الجنة تعب فى تحصيل رزق ولا غيره، ولا يخرجون منها، فهم فى نعيمها خالدون. وبعدما بين سبحانه جزاء مَنْ عصاه ومَنْ أخلص وأطاع، ولما كان فى العصاة من هزه الخوف، أراد أن يفتح له باب الأمل فى الرجوع إلى الحق ليبعد عنه اليأس الذى يوقعه فى شراك الشيطان فقال تعالى: نبئ أيها الرسول عبادى إنى أنا الغفور لذنوب مَنْ يتوب منهم، الرحيم بهم، فلا أعجل بعقوبتهم، وأخبرهم أيضا أن عذابى لِمَنْ أصر على معاصيه ولم يتب هو العذاب المؤلم.

ثم شرع سبحانه فى تذكيرهم بقصص مَنْ قبلهم وماحل بهم لما خالفوا رسلهم ليحملهم على التوبة فقال: ونبئهم عن ضيف إبراهيم من الملائكة الذين جاءوا فى صورة شبان لإهلاك قوم لوط حين دخلوا على إبراهيم فى طريقهم إلى قرى قوم لوط، فقالوا نسلم عليك سلاما، فقال سلام وقدم إليهم طعاما فلم يأكلوا، فقال إنَّا منكم خائفون أنا وأهلى من أن تكونوا رسل هلاك يشمل المؤمنين مع الكافرين، انظر آيات من (٧٠ إلى ٧٦) من سورة هود صفحتى ٢٩٤، ٢٩٥. قالوا لا تخف إنَّا ملائكة ربك مررنا عليك لنبشرك بغلام سيكون عالما كبيرا. فاستغرب من أن يأتيه ولد بعد هذه السن الكبيرة كما تقدم تفصيل القصة كاملة من كل وجه فى الآية (٦٩) ومابعدها من سورة هود صفحتى ٢٩٤، ٢٩٥.

ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ(١) بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ(٢) ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ(٣) لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ(٤) ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ(٥) لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ(٦) بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ(٧) بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ(٨) ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ(٩) وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ(١٠) وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ

المفردات: . ﴿القانطين﴾: اليائسين.

﴿خطبكم﴾: أمركم الخطير الذى جاء بكم على هذه الحالة.

﴿قدَّرنا﴾: المراد قدَّر الله، والعرب تفهم إذا قال رجال الملك قولاً إنه بأمر الملك.

﴿من الغابرين﴾: أى الباقين مع الهالكين.

وقد ورد هذا اللفظ سبع مرات فى القرآن هنا وفى الآية (٨٣) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٥، ٢٠٦، والآية (١٧١) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٠، والآية (٥٧) من سورة النمل صفحة٥٠١، وآيتى (٣٢، ٣٣) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٥، والآية (١٣٥) من سورة الصافات صفحة ٥٩٤، وكلها فى هذه المرأة فقط.

﴿منكرون﴾: أى غير معروفين لنا.

﴿يمترون﴾: يشكون. ﴿بقطع من الليل﴾: بجزء من الليل.

﴿أدبارهم﴾: أى خلفهم. ﴿وقضينا إليه﴾: أى وأوحينا إليه أمرًا مقضيا فيه.

(١) بشرناك.
(٢) القانطين.
(٣) آل.
(٤) الغابرين.
(٥) آل.
(٦) جئناك.
(٧) وآتيناك.
(٨) لصادقون.
(٩) الليل.
(١٠) أدبارهم.

﴿أن دابر هؤلاء مقطوع﴾: هذا بيان للأمر الموحى به، والمعنى هالكون جميعا.

﴿مصبحين﴾: أى داخلين فى وقت الصبح.

المعنى: قال إبراهيم هل تبشرونى مع كبرى، فبأى أمر عجيب تبشرون؟ قالوا: بشرناك بالأمر المحقق فلا تكن من اليائسين. قال: أنا لا أعجب من ذلك قنوطا من رحمة ربى لأنه لا يقنط من رحمته إلا البعيدون عن معرفة قدرته تعالى، ولكن لأنه بعيد فى العادة التى أجراها سبحانه فى خلقه. وبعد ما أطمأن قال: وإذا كان الأمر ما ذكرتم فما هو الأمر الخطير الذى جاء بكم على هذه الصورة غير المعتادة فى هيئتكم وجمعكم؟ قالوا: إنّا أرسلنا إلى قوم مجرمين هم قوم لوط، لكن أهل لوط سننجيهم أجمعين ماعدا امرأته فإنا ننفذ فيها أمر الله بإهلاكها مع الهالكين.

فلما وصل الملائكة المرسلون من الله تعالى إلى جماعة لوط ورآهم لوط على الحالة التى رآهم بها إبراهيم قال أنتم قوم مجهولون لنا فماذا تريدون بنا؟ قالوا: ما جئناك بشر، بل بتحقيق ما كان قومك يكذبونك فيه وهو العذاب الذى توعدتهم به، وآتيناك بالأمر المحقق وإنا لصادقون فيما نخبرك. وإنما أكدوا له ذلك لأنه كان مضربا خائفا أن يعم الشر الجميع كما كان ذلك حال إبراهيم من الخوف عليهم، انظر الآية ٣٢ من سورة العنكبوت صفحة ﴿٥٢٥﴾.

ثم بدءوا يرتبون كيفية نجاته فقالوا: فأسر بأهلك فى جزء من الليل ولا تنتظر النهار، وسر وراء أهلك حاثا لهم على السرعة، ولا يلتفت منكم أحد إلى الخلف لئلا يصيبه أذى، واذهبوا إلى المكان الذى أمركم الله بالذهاب إليه وهو الشام. ثم قال سبحانه مخبرا نبينا ﷺ وأمته: وأوحينا إلى لوط ذلك الأمر، وهو أن هؤلاء مهلكون جميعا فى وقت الصبح. وبعد ما أطمأن لوط كان خبر هؤلاء الشبان الحسان الذين جاء الملائكة فى صورتهم، انتشر فى المدينة، وهى سدوم عاصمة الأردن فى ذلك الوقت، فجاء أهلها مستبشرين فرحين بأضياف لوط طعمة سائغة لهم، فقال لهم لوط أن هؤلاء الشبان ضيوفى..

ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ[1] ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ[2] ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا[3] سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ[4] لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً[5] لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ[6] ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ[7] ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ[8] ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ[9] ءَايَٰتِنَا[10] فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ[11] ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا

المفردات: ﴿لعمرك﴾: العمر بفتح العين أو ضمها هو الحياة، وإذا حلفوا به التزموا الفتح: فالمعنى وحياتك.

﴿يعمهون﴾: يتحيرون ويتخبطون: ﴿الصيحة﴾: تقدمت فى الآية (٦٧) من سورة هود صفحة ٢٩٤.

﴿مشرقين﴾: داخلين فى وقت شروق الشمس.

﴿عاليها سافلها﴾: تقدم بيانهما فى الآية (٨٢) من سورة هود صفحة ٢٩٦.

﴿سجيل﴾: تقدم بيانها كذلك فى الموضع المشار إليه سابقا.

﴿للمتوسمين﴾: المتفرسين الذين يعرفون الأشياء بسماتها أى علاماتها.

﴿لبسبيل مقيم﴾: أى طريق لهم ثابت يمرون عليه كل حين، انظر آيتى (١٣٧، ١٣٨) من سورة الصافات صفحة ٥٩٥ ﴿الأيكة﴾: أصلها الشجرة كثيرة الأغصان، والمراد هنا بقعة كثيرة الأشجار بين ساحل البحر الأحمر ومدين.

﴿وإنهما﴾: أى مَنْ أرسل إليهما شعيب وهما ﴿مدين وأصحاب الأيكة﴾. ﴿إمام مبين﴾: أصل الإمام ما يؤتم به، وقد سمى به الطريق لأنه يرشد المسافر، أى طريق واضح.

﴿أصحاب الحجر﴾: هم ثمود، والحجر مكانهم، وكان بين المدينة والشام. ﴿المرسلين﴾: المراد نبيهم صالح ومَنْ سبقه من الرسل لأن تكذيبهم لنبيهم تكذيب لكل مَنْ سبقه، انظر الآية (١٥٠) من سورة النساء صفحة ١٢٨، والآية (٥٩) من سورة هود صفحة ٢٩٣.

(١) العالمين. (٢) فاعلين. (٣) عاليها. (٤) لآيات.
(٥) لآية. (٦) أصحاب. (٧) لظالمين. (٨) أصحاب.
(٩) وآتيناهم. (١٠) آياتنا. (١١) آمنين.

المعنى: هؤلاء ضيوفى فلا تفضحونى بالإساءة إليهم، واتقوا الله ولاتذلونى بإذلالهم. قالوا أو لم يسبق أننا نهيناك عن الدفاع عن أحد من الناس كافة، انظر الآية (١٦٧) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٠. قال ﴿هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين﴾ تقدم شرحها فى صفحة ٢٩٥. فقالت الملائكة للوط تطمينا له: وحياتك إنهم لفى ضلالهم المتمكن منهم حتى جعلهم كالسكارى لايعقلون، فهم يتخبطون على غير هدى، أى فلا تنتظر منهم خيرا وسنريحك منهم، انظر الآية (٨١) من سورة هود صفحة ٢٩٦، فأخذتهم الصيحة فى وقت الشروق، فجعلنا عالى قريتهم التى كانت تعمل الخبائث سافلها، وأنزلنا عليهم حجارة محماة بالنار لسرعة القضاء عليهم وإن فى هلاك هؤلاء وتدمير قريتهم لآيات وعبرا لمن يتفكر ويتأمل. وإنها لفى طريق ثابت يسلكه أهل مكة كل حين إذا سافروا إلى الشام للتجارة. فكان يجب أن يفكروا أو يعتبروا، ولكنهم لاينتفعون؛ لأن الآيات والعبر لاتنفع إلا المؤمن والمستعد للإيمان. وكان نبى الله شعيب أرسل إلى مدين التى كان منها، وأرسل أيضًا إلى أصحاب الأيكة وكان أجنبيا عنهم ولذا وصف سبحانه هودا وصالحا ونوحا ولوطا كلا منهم بأنه أخو المرسل إليهم، انظر آيات (٦٥، ٧٣) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٣، ٢٠٤، و (٥٠، ٦١) من سورة هود صفحتى ٢٩١، ٢٩٣، و (١٠٦، ١٢٤، ١٦١) من سورة الشعراء صفحات ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٩، ووصف بذلك شعيبا فى إرساله لمدين، انظر آيات ٨٥ من سورة الأعراف صفحة ٢٠٦، و (٨٤) من سورة هود صفحتى ٢٩٦، ٢٩٧، و (٣٦) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٥، ولم يصفه بذلك فى إرساله لأصحاب الأيكة كالآية التى معنا وآيتى (١٧٦، ١٧٧) من سورة الشعراء ٤٩٠ صفحة فقال: ﴿وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين﴾ إلخ: أى وإنه كان أصحاب الأيكة الذين أرسل إليهم شعيب ظالمين بتكذيبهم نبيهم، فانتقمنا منهم بالظلة المبينة فى الآية (١٨٩) من سورة الشعراء صفحة ٤٩١.

وأما أهل مدين فأخذتهم الصيحة كما تقدم فى سورة هود، وإن مكان مدين وأصحاب الأيكة المرسل إليهم شعيب لفى طريق واضح يسلكه أهل مكة فى ذهابهم للشام. ﴿ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين﴾ وآتيناهم آياتنا الدالة على صدق نبيهم صالح كما تقدم فى سورة هود، فاستمروا فى الإعراض عنها وكانوا يتخذون بيوتهم فى جوف الجبال ليكونوا آمنين من هدمها ومن اللصوص وغير ذلك، فأخذتهم الصيحة وقت الصبح فما أغنى عنهم ماعملوه من تحصين البيوت واستكثار الأموال. انظر الآية (١٤١) ومابعدها من سورة الشعراء صفحة ٤٨٨.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ

المفردات: ﴿الساعة﴾: يوم القيامة.

﴿الصفح الجميل﴾: هو ما لاعتاب معه، قال ابن كثير: وكان هذا قبل أن يُؤْذن ﷺ بقتالهم لأن السورة مكية والقتال إنما شرع فى المدينة انظر الآية (١٠٩) من سورة البقرة صفحة ٢١.

﴿سبعا من المثانى﴾: هى سورة الفاتحة لأنها سبع آيات تثنى أى تكرر قراءتها فى كل صلاة، فالمثانى جمع مُثَنَّى بضم أوله وفتح ثانيه وتشديد النون مفتوحة، والمثنى هو المردد، المكرر، لتكرر قراءته دون سأم أو ملل بل بإقبال نفس وشوق، وأيضًا لتكرر براهينه ومواعظه وقصصه بصور مختلفة لقطع سبل العذر على مَنْ يحاول الاعتذار يوم القيامة انظر الآية (٢٣) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩.

﴿والقرآن العظيم﴾: عطفه على ماقبله من قبيل عطف الكل على الجزء كما يقال: (رأيت وجه فلان وجسده كله).

﴿لاتمدن عينيك﴾: أى لاتنظر إليه نظرة راغب فيه.

﴿أزواجا منهم﴾: أى أصنافا من الكفرة كاليهود والنصارى والمشركين. ﴿واخفض جناحك﴾: كناية عن التواضع لهم والرفق بهم.

﴿المقتسمين﴾: هم اليهود والنصارى الذين قسموا القرآن إلى حق وباطل، فما وافق أهواءهم فهو حق وإلا فباطل.

﴿عضين﴾: مفردها عضة بكسر ففتح من عضيت الشىء بالتشديد أى فرقته فكل فرقة تسمى عضة، وهو تفسير للتقسيم قبله.

(١) لآتية. (٢) الخلاق. (٣) آتيناك. (٤) القرآن. (٥) أزواجًا. (٦) القرآن.
(٧) لنسألنهم. (٨) كفيناك. (٩) المستهزئين. (١٠) إله.

﴿فاصدع﴾: أى اجهر.

﴿كفيناك﴾: أى كفيناك شرهم، وحفظناك منهم.

المعنى: . بعد ماذكر من قصص الأولين ما فيه عبرة للمعتبر، أراد أن ينبه إلى عبرة أخرى هى أن خلق السموات والأرض ومافيهما على هذا النظام لابد أن يكون لحكمة هى عبادة خالقها والإصلاح فيها والبعد عن الإفساد فقال سبحانه: وماخلقنا السموات والأرض ومابينهما إلا خلقا مقترنا بالحق لا باطلا ولا عبثًا، انظر الآية (١٦) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١، والآية (٢٧) من سورة ص صفحة ٦٠٠.

وإن الساعة لآتية قطعا فينتقم الله لك ممن كذبك، فلا تحرص على سرعة الانتقام منهم بل عاملهم معاملة الصفوح الحكيم حتى يأذنك بتأديبهم، إن ربك هو الذى خلقك وخلقهم، وهو العليم بحالك وحالهم، وسيعامل كلا منكما بما يستحق. ولقد أكرمناك بإعطائك فاتحة الكتاب والقرآن العظيم، ومَنْ يعطى هذه النعمة العظمى لايصح منه أن يرى أن هناك نعمة أعلى منها يرغب فيها.

وعلى هذا فلا يصح لمؤمن أن يمد عينيه وينظر إلى مامتع الله به أصناف الكافرين من زخارف الدنيا الزائلة، فلا تحزن أيها النبى أى لا تحزن عليهم إذا لم يؤمنوا، وتواضع لمَنْ معك من المؤمنين وعاملهم برفق فإنهم هم الذين ينصرك الله بهم.

وقل لهؤلاء المشركين إنى نذير لكم واضح الحجة بعذاب إذا لم تؤمنوا.

ولما كان إيتاء القرآن هو إنزاله قال سبحانه: ﴿كما أنزلنا﴾ إلخ، أى أنزلنا عليك الفاتحة والقرآن كما أنزلنا على مَنْ قبلك من اليهود والنصارى التوراة والإنجيل فاقتسموا القرآن وجعلوه أجزاء آمنوا ببعضها وكفروا بالآخر تبعا لأهوائهم لا للحق فى ذاته والمراد أن هذا سيحصل من اليهود والنصارى قطعا حتى كأنه حاصل الآن وإن كان لم يحصل فعلا إلا بعد هجرته إلى المدينة واختلاطه بهم، وإنما سارع سبحانه بإخبار رسوله بما سيكون لئلا يفاجأ بما يزعجه، انظر نظير ذلك فى الآية (١٤٨) من سورة الأنعام صفحة ١٨٨.

(سورة النحل) ٣٤٥

رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ[1] ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

(١٦) سُورَةُ النَّحْلِ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا ثَمَانٍ وَعِشْرُونَ وَمِائَة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ[2] وَتَعَٰلَىٰ[3] عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ[4] بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ[5] عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ[6] مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ[7] خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ

فوربك أيها النبى لنسألنهم جميعا عن هذا التقسيم الباطل ونجازيهم عليه. فاجهر بتبليغ ما أمرك ربك بتبليغه، ولا تلتفت لما يقول الكافرون، ولا تخف لأنا كفيناك شر هؤلاء الطغاة الذين يستهزئون بك وبمَنْ آمن معك وبما أنزل عليك، انظر الآية (١٤٠) من سورة النساء صفحتى ١٢٦، ١٢٧ وآيتى (٥٢، ٥٣) من سورة الأنعام صفحة ١٧٠.

هؤلاء المستهزئون هم الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون عاقبة إجرامهم وأنها وبال عليهم فى الدنيا والآخرة. ولقد نعلم إنك أيها النبى يضيق صدرك بما يقولون فى القرآن من أنه سحر، وفيك بأنك كاهن ومجنون، انظر الآية (٣٣) من سورة الأنعام صفحة ١٦٧، والآية (٤٢) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٤، فلا تحزن والجأ إلى ربك، واستعن بتسبيحه عليهم....

﴿اليقين﴾: هو الموت لأنه متغين حصوله لكل حى حتى صار كأنه هو اليقين نفسه.

سورة النحل

المفردات: . ﴿أتى أمر الله﴾: أى أن الأمر الذى وعدكم ربكم به آت ولابد حتى كأنه أتى فعلا.

﴿بالروح﴾: الروح هنا هو الوحى الذى يشمل القرآن وغيره من كتب الأنبياء وكل مايلقيه الله سبحانه لهم مما فيه منفعة للخلق، انظر تفصيل ذلك فى شرح الآية (٨٥) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦.

﴿أمره﴾: أى أن هذا القرآن من أمر الله وسر من أسراره.

(١) الساجدين. (٢) سبحانه. (٣) وتعالى. (٤) الملائكة. (٥) تعالى . (٦) الإنسان. (٧) والأنعام.

﴿نطفة﴾: انظر شرحها فى الآية (١٣) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦.

﴿خصيم﴾: شديد الخصومة والجدل.

﴿مبين﴾: ظاهر الخصومة.

﴿الأنعام﴾: هى الإبل والبقر والغنم.

﴿دفء﴾: مايستدفأ به لدفع البرد من وبرها وصوفها وشعرها كما فى الآية (٨٠) الآتية فى هذه السورة صفحة ٣٥٦.

المعنى: فاستعن بتسبيح ربك وكن من المحافظين على الصلاة، فإنها تعين على كل شدة كما فى الآية (٤٥) من سورة البقرة صفحة ١٠، واعبد ربك حتى يأتيك الموت.

ولما كان كفار مكة يستعجلون العذاب الذى وعدهم به القرآن،ويقولون باستهزاء متى هذا الوعد، انظر آيات (٤٨، ٥١، ٥٣) من سورة يونس صفحة ٢٧٤، رد سبحانه بقوله: ﴿أتى أمر الله﴾ أى قرب قربا شديدا حتى كأنه وقع فأريحوا أنفسكم من استعجاله. تنزه الله تنزيها عظيمًا وترفع عما يشركون به من أصنام لاتقدر على خلق أضعف شىء وهو الذباب كما فى الآية (٧٣) من سورة الحج صفحة ٤٤٤. ينزل الملائكة بالوحى من قرآن وغيره على مَنْ يشاء اتخاذه رسولا من عباده قائلا لهم أنذروا الخلق بأنه لا إله إلا أنا الواحد القادر فاتقوا مايغضبنى.

بعد ماذكر سبحانه أنه لا إله إلا هو أراد أن يبين بعض أدلة ذلك لعل الكفار يتنبهون لها فيرجعوا عن ضلالهم. وكل مافى السورة يدور حول هذا الموضوع، فقال خلق السموات والأرض مقترنة بالحق لا للهو واللعب كما تقدم فى صفحة ٣٤٤. تنزه وترفع سبحانه وتعالى عما يشركون به. وخلق الإنسان من نطفة سائلة لاتماسك فيها ولاتحفظ شكلا، فنسى هذا الإنسان أنه مخلوق من ماء مهين، وتبجح على خالقه، وأنكر قدرته بأسلوب مخاصمة ظاهرة، فقال منكرا البعث ﴿مَنْ يحيى العظام وهى رميم﴾ الآية (٧٨) من سورة يس.

﴿والأنعام خلقها لكم﴾ يابَنى آدم تأخذون منها ماتستدفئون به...

ومنافع ومنها تأكلون (٥) ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون (٦) وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم (٧) والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون (٨) وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين (٩) هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون (١٠) ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون (١١) وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون (١٢) وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم

المفردات: جمال: زينة وحسن منظر.

﴿تريحون﴾: أى تردونها فى المساء من المرعى إلى مراحها ممتلئة البطون والضروع ولذا قدمه.

﴿وحين تسرحون﴾: أى تخرجونها فى الصباح إلى مسارحها ومراعيها تقول العرب سرح فلان ماشيته بوزن نفع إذا أخرجها سباحا للمرعى ويقولون سرحت الماشية إذا خرجت للمرعى، فمفعل ﴿سرح﴾ متعد ولازم والمراد هنا تخرجونها.

﴿أثقالكم﴾: أحمالكم الثقيلة.

﴿رءوف رحيم﴾: رءوف يرفع كل بلاء ومشقة ﴿رحيم﴾ يضم إلى رفع البلاء الإحسان إلى عباده.

﴿قصد السبيل﴾: السبيل هو الطريق مطلقا، والقصد فى الأصل مصدر أريد به القاصد أى المستقيم أى على الله بيانه انظر الآية (١٠) من سورة البلد مع الآية (١٢) من سورة الليل صفحتى ٨٠٨، ٨١١ ﴿ومنها جائر﴾: أى مائل وبعيد عن الاستقامة انظر الآية (١٥٣) من سورة الأنعام صفحة ١٨٩. ﴿تسيمون﴾: أى تجعلون أنعامكم ترعى فيه.

﴿ذرأ لكم﴾: أصل معنى الذرء بث الأشياء وتكثيرها والمراد خلق بتقدير ونظام.

المعنى: وخلق لكم سبحانه فى الأنعام منافع كنسلها ولبنها وركوبها، ومن لحومها وشحومها تأكلون، ولكم فيها بهجة حين تردونها مساء وحين تسرحون بها صباحا، ومن فائدة بعضها وهى الإبل أنه تحمل أحمالكم الثقيل إلى بلد بعيد لم تكونوا واصلين إليه لولاها إلا بمشقة

(١) ومنافع. (٢) [illegible] (٣) [illegible] (٤) والأعناب. (٥) الثمرات. (٦) لآية.
(٧) الليل. (٨) مسخرات. (٩) لآيات. (١٠) ألوانه. (١١) لآية.

شديدة على أنفسكم، إن ربكم رءوف بكم فى كل مايشق عليكم رحيم بعموم إحسانه إليكم فى كل شىء من دفع مشقة وجلب أسباب النعيم والمسرة. وخلق لكم الخيل والبغال والحمير لتركبوها، وجعل لكم من منظرها زينة وبهجة لمن يركبها، وسيخلق لكم فى المستقبل غير هذه مالا تعلمونه الآن، وقد صدق وعده وخلق القطارات والسيارات والطائرات ومازالت قدرته تخلق للإنسان ما لا يعلم، ومما تقدم تعلم أن أهم مايقصد من الإبل هو حمل الأثقال المسافات البعيدة وأهم مايقصد من الخيل وزميلتيها ﴿البغال والحمير﴾ هو الركوب، وهذا لايمنع أنه قد يستعمل كل مما ذكر فى أغراض أخرى كالحمل على البغال مثلا والركوب على الإبل. ولما كانت حكمة خلق الإنسان هى عبادة الله وعمارة الأرض كما فى الآية (٣٠) من سورة البقرة صفحتى ٧، ٨ والآية (٥٦) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦ أراد سبحانه أن ينبه إلى أنه سبحانه أرسل رسله لبيان طريق الخير المحقق للحكمة فقال: وعلى الله بيان الطريق المستقيم كما فى الآية (١٥٣) من سورة الأنعام صفحة ١٨٩، ومن الطرق ماهو منحرف بعيد عن الخير، ولو شاء لجبر الناس على الهداية كالملائكة ولكن لاتكون الدنيا على هذا النظام، انظر بيان ذلك فى الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨ والآية (٩٩) من سورة يونس صفحة ٢٨١، وهو سبحانه الذى أنزل من جهة السماء ماء بعضه شراب لكم وبعضه ينبت منه الشجر، والمراد الزرع الذى ترعاه الأنعام التى منها اللبن واللحوم والكساء، وينبت به الزرع الذى يخرج لنا حبوبا، والزيتون والنخيل والأعناب وغير ذلك من كل الثمرات.

إن هذه الأعمال الجليلة لأدلة واضحة على وجود صانع حكيم ينتفع بها أرباب العقول المفكرة، انظر الآية (٢٤) ومابعدها من سورة عبس صفحة ٧٩٢، وسخر لكم الليل لتستريحوا فيه والنهار للسعى على الرزق، والشمس وعليها حياة الحيوان وبقاء النبات، والقمر لمعرفة عدد السنين والحساب، والنجوم مسخرات لكم بأمره لتهتدوا بها فى ظلمات الليل؛ إن فى كل ذلك لآيات وبراهين لقوم يعقلون، ومن دلائل قدرته تعالى ودقة صنعه ما أوجده بكثرة فى الأرض من عجائب خلقه مثل المعادن والجبال والحيوان والنبات بألوان مختلفة يستدل باختلافها على وجود صانع حكيم كل متذكر متعظ متنبه لما حوله، انظر آيتى (٢٧، ٢٨) من سورة فاطر صفحة ٥٧٥...

يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ[1] أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا[2] وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ[3] وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ[4] غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ[5] فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ[6] قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ

المفردات: ﴿لحما طريا﴾: هو السمك، وأغلب أكله طازجا لئلا يسرع إليه الفساد، انظر الآية (١٢) من سورة فاطر صفحة ٥٧٣.

﴿حلية﴾: هى اللؤلؤ والمرجان فى الآية (٢٢) من سورة الرحمن صفحة ٧٠٩.

﴿الفلك﴾: السفن والفلك لفظ يطلق على الجمع كما هنا وعلى المفرد كما فى الآية (٣٧) من سورة هود صفحة ٢٨٩ ولا مفرد له.

﴿مواخر﴾: جمع ماخرة وهى السفينة التى تشق البحر، يقال مخرت بوزن قطعت ودخلت إذا جرت تشق الماء مع صوت.

﴿ولتبتغوا من فضله﴾: أى تطلبوا فضل الله بالتجارة مثلاً.

﴿رواسى﴾: جمع راسية أى ثابتة.

﴿أن تميد بكم﴾: أى تميل وتختل.

﴿سبلاً﴾: طرقًا.

﴿وعلامات﴾: على الطرق من جبال مرتفعة أو منخفضة أو حمراء أو خضراء إلى غير ذلك.

﴿لاجرم﴾: أى حقا كما تقدم فى صفحة ٢٨٧.

(١) رواسى.
(٢) وأنهارا.
(٣) وعلامات.
(٤) أموات.
(٥) واحد.
(٦) بالآخرة

المعنى: ـ والله هو الذى سخر البحر بقسميه المالح والعذب كما فى الآية (١٢) من سورة فاطر صفحة ٥٧٣ لتأكلوا منه سمكا طازجا وتستخرجوا منهما لؤلؤا وكل مايتحلى به الإنسان خصوصا النساء، ومن فضله أنه سخر لكم البحر لتجرى السفن فيه لحمل أمتعتكم وأقواتكم، ولتطلبوا فضل الله بالتجارة فتنقل بضائعكم الثقال لعلكم تعرفون فضله فتشكروه بطاعته والبعد عن معصيته، وجعل فى الأرض جبالا ثابتة تحفظ الأرض أن تميل وتتفتت، وجعل فيها أنهارا للشرب والزرع وطرقا لعلكم تهتدون فى السير إلى مقاصدكم، وجعل فى الطرق علامات تدل السائر إلى اتجاهه، وجعل النجوم لفوائد، منها الاهتداء بمواقعها على السير فى البر والبحر.

وبعد ما عدد هذه النعم الدالة على عظيم قدرته سبحانه، أراد أن ينكر على المشركين غفلتهم فقال ﴿أفمن يخلق﴾ إلخ؛ أى هل يصح أن تجهلوا فتسووا مَنْ يخلق هذه العجائب بأصنامكم التى لاتخلق شيئًا؟ أفلا تتأملون فتعلموا فساد عملكم، وماذكر لكم بعض يسير من نعم الله تعالى عليكم التى إن حاولتم عدها استحال عليكم حصرها، ومع هذا جحدتموها وكفرتم به، فكان حقكم الهلاك، ولكنه سبحانه غفور لما فرط منكم من التقصير فى شكرها إذا رجعتم عن غيكم، رحيم لايعجل بعقوبتكم ليفسح المجال للتوبة.

ثم أراد سبحانه أن يبين خواص الإله الحق وهى علم السر والجهر والخلق لكل شىء، ليقارنوا فيعلموا أن ليس فى الأصنام شىء منها فقال: والله يعلم كل شىء ويستوى عنده السر والجهر، والذين يعبدهم المشركون لايخلقون شيئًا بل هم أنفسهم مخلوقون له تعالى، وهم أموات الآن وغير قابلين للحياة فى المستقبل أبدا، ولايعلمون متى يبعث عبادهم من القبور، والإله الذى يجهل وقت بعث عباده أعجز من ذبابه وأجهل من فراشة.

وإذا كان الأمر كذلك فيجب أن تعلموا أن إلهكم الحق هو إله واحد، أما الذين لايؤمنون بالبعث فقلوبهم متحجرة منكرة للوحدانية لأنهم غارقون فى الكبر وهو أساس كل مصيبة، انظر الآية (٣٤) من سورة البقرة صفحة ٨. ثم توعدهم بالعقاب فقال: لاشك أن الله يعلم سرهم وعلانيتهم، وسيجازيهم بأشد العقاب.

إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ(١) الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ(٢) وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم(٣) مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ(٤) الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ(٥) يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ(٦) الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ(٧) فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ(٨) ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ(٩) الْمَلَائِكَةُ(١٠) ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ(١١) جَهَنَّمَ خَالِدِينَ(١٢) فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

المفردات: ـ ﴿أساطير﴾: جمع أسطورة وهى الأكذوبة كما فى الآية (٢٥) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٥، ١٦٦.

﴿أوزارهم﴾: ذنوبهم ﴿ومن أوزار﴾: ﴿من﴾ هنا تبعيضية، فالمراد ومثل بعض أوزار الذين تبعوهم، وهذا البعض من الذنوب هو الذنوب التى ارتكبها هؤلاء المغرر بهم بسبب إغراء زعماء الكفر، أما ذنوب الأتباع التى ارتكبوها من غير إغراء فلا يتحمل المغررون مثلها.

﴿ألا﴾: حرف يدل على أن قصد المتكلم تنبيه السامع لما يذكر بعده لخطورته. ﴿يزرون﴾: يحملون من الوزر. ﴿مكر الذين من قبلهم﴾: وهم الأمم الكافرة بأنبياء الله، انظر الآية (٤٢) من سورة الرعد صفحة ٣٢٨. ﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد﴾: القواعد هى الأسس التى يقوم عليها البناء والكلام كناية عن إبطال مكرهم من أساسه وإهلاكهم. ﴿فخر عليهم السقف﴾: خر السقف أى سقط. ﴿تشاقون فيهم﴾: تخاصمون وتنازعون الأنبياء فى شأنهم وتدعون أنهم شركاء الله حقا. ﴿الذين أوتوا العلم﴾:

(١) أساطير.
(٢) القيامة.
(٣) بنيانهم.
(٤) وأتاهم.
(٥) القيامة.
(٦) شركائى.
(٧) تشاقون.
(٨) الكافرين.
(٩) تتوفاهم.
(١٠) الملائكة.
(١١) أبواب.
(١٢) خالدين.

من أهل الموقف يوم القيامة وهم الأنبياء انظر الآية (٤١) من سورة النساء صفحة ١٠٧ والآية (٨٩) من هذه السورة صفحتى ٣٥٧، ٣٥٨. ﴿الخزى﴾: الذل والهوان. ﴿السوء﴾: العذاب. ﴿فألقوا السلم﴾: السلم الاستسلام والخضوع. ﴿بلى﴾: حرف يدل على إبطال النفى قبله وإثبات نقيضه، انظر الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١. ﴿مثوى﴾ مكان إقامة.

المعنى: - إن الله لايحب مَنْ استكبر عن قبول الحق. ومَنْ كرهه الله هلك. وإذا قيل لهؤلاء المستكبرين للفت نظرهم إلى ما فى القرآن من البراهين: ما الذى أنزله ربكم على محمد؟ قالوا: هذا الذى تزعمون نزوله من الله ماهو إلا ترهات وأباطيل منقولة عن الأولين، انظر ما فى آيات (٤، ٥، ٦) من سورة الفرقان صفحتى ٤٧٠، ٤٧١. وإنما أوقعهم الشيطان فى هذا القول الباطل لتكون عاقبة أمرهم أنهم يجمعون يوم القيامة بين عقاب ذنوبهم كاملة وعقاب مثل ذنوب الذين غرروا بهم وأضلوهم وهم لايعلمون أنهم مضللون، أى فهم جهلاء فى هذا، وخطر الجهل فى العقائد مما لايخفى. وبين ذلك ﷺ بقوله: مَنْ سنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة. ألا قبح مايحملون من الأوزار المضاعفة، انظر الآية (١٣) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٢. ثم هددهم سبحانه بأنه سيحل بهم مثل ما حل بمَنْ فعل فعلهم مع أنبيائهم فقال: قد مكر. أى دبر الكيد فى خفاء الكافرون من قبلهم لأنبيائهم فأبطل الله تعالى كيدهم من أساسه وجعل وباله عليهم. وفى الكلام تمثيل حال مشركى مكة بحال مشركى الأمم السابقة فى إبطال مكرهم وتعذيبهم ونجاة الرسل. ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول توبيخا لهم: أين ماجعلتموهم شركاء لى وكنتم تدافعون عنهم وتنازعون رسلى بزعمكم أنهم شركاء حقا؟ وعندما يعجزون عن الجواب يقول الأنبياء الشهداء عليهم: إن الخزى والهوان اليوم والعذاب واقع على الكافرين الذين استمروا على كفرهم حتى توفتهم رسل الموت والحال أنهم ظالمون أنفسهم بالشرك. عند ذلك يستسلمون ويخضعون قائلين كذبا من شدة الدهشة: ماكنا فى الدنيا نعمل شيئًا من المعاصى. فيقول لهم الملائكة والأنبياء: كلا فقد كذبتم لأنكم عملتم أفظع المعاصى، والله سبحانه عليم بكل ماكنتم تعملون، فإذا كذبتم فهو سبحانه صادق، انظر آيتى (٢٣، ٢٤) من سورة الأنعام صفحة ١٦٤. مآل هؤلاء أنهم يدخلون أبواب جهنم، لكل باب منهم جزء مقسوم كما فى الآية (٤٤) من سورة الحجر صفحة ٢٤١، وقبحت جهنم مثوى المتكبرين.

* وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ

المفردات: - ﴿ينظرون﴾: ينتظرون.

﴿حاق بهم﴾: أى أحاط بهم حتى صاروا لاخلاص لهم منه.

المعنى: - وقيل للذين اتقوا ربهم فلم يشركوا به غيره: ما الذى أنزله ربكم على رسوله؟ قالوا: أنزل خيرا للعالمين. فكان جزاؤهم أن لهم فى الدنيا مثوبة حسنة من عز ونصر وطمأنينة قلب، ووالله لثواب دار الآخرة الذى أعد لهم خير مما أوتوا فى الدنيا كما فى الآية (١٤٨) من سورة آل عمران صفحتى ٨٦، ٨٧. ولنعم الدار للمتقين دار الآخرة هى جنات عدن يدخلونها تجرى من تحت قصورها الأنهار، لهم فيها مايشاءون من النعيم. كهذا الجزاء العظيم يجزى الله كل المتقين الذين تتوفاهم الملائكة حال كونهم طاهرين من دنس الشرك، تقول الملائكة لهم عند الموت تطمينا لهم: أمان من الله عليكم فلا يصيبكم مكروه بعد اليوم، ادخلوا الجنة التى أعدها الله لكم جزاء ثباتكم على أعمالكم الصالحة. هذا هو جزاء المتقين.

أما كفار مكة فلا ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم بالموت العادى، أو يأتى أمر ربك بإهلاك كفار الأمم السابقة كما فى الآية (٤٠) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٦.

ثم أراد سبحانه أن يبين أن عادته مع الأمم واحدة، فكل مجرم يلقى جزاءه، فقال كهذا الشرك والتكذيب لرسولهم الذى وقع منهم فعل الذين مضوا قبلهم كعاد وثمود وغيرهم، فعاقبهم الله سبحانه، وماظلمهم ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم، فأصابهم جزاء سيئات أعمالهم، وأحاط بهم العذاب الذى كانوا ينكرونه ويستهزئون به كما فى الآية (٤٨) من سورة يونس صفحة ٢٧٤ والآية (٣٢) من سورة هود صفحة ٢٨٩ ثم بيَّن سبحانه نوعا من عناد أهل مكة يلجأون إليه إذا قهرتهم الحجة وهو قولهم: لو شاء الله ماعبدنا من دونه شيئًا نحن ولا

(١) جنات. (٢) الأنهار. (٣) تتوفاهم. (٤) الملائكة. (٥) سلام. (٦) الملائكة

آباؤنا ولا حرمنا ماحرمنا مما هو مبين فى الآية (١٠٣) من سورة المائدة صفحة ١٥٧ وآيتى (١٣٨، ١٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٨٦، وقد تقدم فى شرح الآية (١٤٨) من سورة الأنعام صفحة ١٨٨ إبطال كلامهم.

فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٧) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا

ثم بيّن سبحانه أن هذا منهم تقليد موروث عمن سبقهم، ولم يمنعهم من عناد الله فقال تعالى: ﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾.

المفردات: ﴿الطاغوت﴾: كل ما يصرف عن الله عز وجل، انظر الآية (٢٥٦) من سورة البقرة صفحتى ٥٣، ٥٤.

﴿حقت﴾: وجبت وثبتت. ﴿الضلالة﴾: [illegible]

﴿جهد أيمانهم﴾: أى غاية اجتهادهم فى الحلف بها مؤكدين [illegible]

﴿بلى﴾: حرف يبطل النفى قبله ويثبت نقيضه.

﴿لنبوئنهم﴾: لنسكننهم.

المعنى: كهذا العناد الباطل فعل الكفار من قبلهم ممن سبقوهم فأشركوا وحرموا الحلال، وردوا على رسلهم بهذا الكذب ولما كان قولهم هذا يتضمن تكذيب الرسل فى أن الله تعالى هو الذى حرم الشرك وغيره ويشعرون أنهم يهدمون [illegible] كان الرسل صادقين

(١) البلاغ. (٢) الطاغوت. (٣) الضلالة. (٤) عاقبة. (٥) هداهم
(٦) ناصرين. (٧) أيمانهم. (٨) كاذبين. (٩) أردناه. (١٠) لنبوئنهم.

لطلبوا من الله منعنا من الشرك وغيره، رد سبحانه بقوله ليس على الرسل إلا التبليغ الواضح لكل ما أراد الله تبليغه للناس، وليس فى قدرتهم هداية أحد، ولايصح أن يطلبوا من الله مالم يأذن لهم بطلبه. ثم فصل بعض ما أجمل فقال: ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً يقول لهم اعبدوا الله وحده وابتعدوا عن كل طاغية يصرفكم عن طاعة ربكم من شيطان أو كاهن أو جبار، فمن الناس مَنْ أخلص نيته فهداه الله تعالى، ومنهم مَنْ عاند واستكبر فحقت عليه الضلالة، فسيروا فى الأرض يا كفار مكة فانظروا كيف كانت نهاية المكذبين لرسلهم من عاد وثمود وغيرهم وما هم منكم ببعيد.

ولما كان نبينا ﷺ رحيما يصعب عليه شقاء قومه كما فى الآية (١٢٨) من سورة التوبة صفحة ٢٦٤ قال سبحانه: إن تحرص أيها النبى على هداية قومك كفار مكة فلن ينفعك حرصك شيئًا لأنهم ممَّنْ حقت عليهم الضلالة، والله لايهدى مَنْ اختار الضلال، ومالهم يوم القيامة مَنْ ينصرهم بمنع العذاب عنهم ثم بيَّن أنهم كما أنكروا التوحيد أنكروا البعث أيضًا، فقال: ﴿وأقسموا بالله﴾ أى حلف كفار قريش غاية طاقتهم على أن الله لايبعث مَنْ يموت أى على إنكار البعث فرد عليهم سبحانه أبلغ رد بقوله: ﴿بلى﴾ أى سيبعثهم حتما لأنه كتب على نفسه بذلك وعدا حقا لايتخلف ولكن أكثر الناس يجهلون حكمته فى خلق هذا العالم، وأنه ماخلقه عبثا، فهم لايعلمون صدق هذا الوعد انظر الآية (١١٥) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٦. يبعثهم سبحانه ليبين لهم الذى اختلفوا فيه وهو الحق، فيعرفون فى أى جانب هو، فيعلم المؤمنون أنهم صادقون فيما قالوه عن الله تعالى وعن البعث وغيره من كل حق، ويعلم الذين كفروا أنهم كاذبين فى إنكار ذلك.

ثم بيَّن سبحانه أن إيجاد كل مايريده بغاية السهولة فكيف يصعب عليه البعث الذى هو فى قدرته فقال سبحانه: ﴿إنما قولنا لشيء إذا﴾ أى لايحتاج الشىء الذى نريد إيجاده إلا أن نقول له كن فهو يكون.

والذين هاجروا من ديارهم لوجه الله تعالى من بعد ماظلمهم الكفار فى مكة لنسكننهم فى الدنيا مساكن حسنة وهى المدينة، يحيون فيها حياة طيبة ووالله لأجر الآخرة وهو الجنة ونعيمها أكبر، لو كانوا يعلمون.

يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ[1]
أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ[2] وَٱلزُّبُرِ
وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن
يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم
بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ
لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ
يَتَفَيَّؤُاْ[3] ظِلَٰلُهُۥ[4] عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ
دَٰخِرُونَ[5] ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ
مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ[6] وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾

المفـردات: . ﴿أهل الذكـر﴾: أهل الكتب السابقة كالتوراة. ﴿بالبينات﴾: مرتبط بقوله ﴿أرسلنا﴾ والبينات هى المعجزات الدالة على صدق الرسل.

﴿والزبر﴾: جمع زبور والمراد به هنا الكتب التى جاء بها الرسل.

﴿الذكر﴾: المراد به هنا القرآن.

﴿لتبين للناس مانزل إليهم﴾: أى لتوضح للناس مـاجاء فى القرآن مجملا، تبينه لهم بالقول أو بالعمل باجتهاد منك أيها النبى نقرك عليه، أو بإلهام منا، أو بوحى، انظر الآية (٩) من سورة الصف صفحة ٧٣٩.

﴿مكروا﴾: سعوا فى الشر خفية.

﴿السيئات﴾: هى الأعمال السيئات.

﴿فى تقلبهم﴾: أى فى سفرهم للتجارة ونحوها، انظر الآية (١٩٦) من سورة آل عمران صفحة ٩٦.

﴿بمعجزين﴾: أى بغالبين الله ومفلتين من عقابه.

(١) فاسألوا.
(٢) بالبينات.
(٣) يتفيأ.
(٤) ظلاله.
(٥) داخرون.
(٦) والملائكة.

﴿على تخوف﴾: أى مع تخوف، وهو ظهور الخوف قبل وقوع المخوف منه وهو أشد ألما، انظر الآية (٥٥) من سورة البقرة صفحة ١١ والآية (٤٧) من سورة الأنعام صفحة ١٦٩.

﴿رءوف رحيم﴾: ﴿رءوف﴾ يرفع كل بلاء ومشقة، ﴿رحيم﴾ يضم إلى رفع البلاء الإحسان إلى عبده.

﴿يتفيأ ظلاله﴾: أى يرجع، مأخوذ من الفىء وأصل معناه الرجوع كما فى الآية (٩) من سورة الحجرات صفحتى ٦٨٥، ٦٨٦، والمراد به هنا ظل الشىء آخر النهار، لأنه يرجع من جهة إلى جهة، والظل المقابل للفىء هو ماكان أول النهار.

﴿عن اليمين والشمائل﴾: أصل اليمين والشمال للإنسان والمراد هنا جانبا الشىء. وأفرد اليمين وجمع الشمال لأن اليمين يشار بها للخير، والظلمة للشر، مثل الظلمات والنور فى الآية (١) من سورة الأنعام صفحة ١٦٢، والظل قريب من الظلمة.

﴿سجدا﴾: أى منقادات خاضعات لما أراد الله منها.

﴿داخرون﴾: تقول العرب: دخر الرجل يَدْخَر بفتح الخاء فى الفعلين أى خضع وفعل مايؤمر به رغم أنفه فى ذل وانكسار، فالداخر هو الذى لايمتنع عما أريد منه، وذلك المعنى هو المراد هنا وفى الآية (٨٧) من سورة النمل صفحتى ٥٠٤، ٥٠٥، وقد يراد به خاضع ذليل مهان كما فى الآية (١٨) من سورة الصافات صفحة ٥٨٨ والآية (٦٠) من سورة غافر صفحتى ٦٢٥، ٦٢٦.

المعنى: . نجزى المهاجرين فرارا بدينهم أحسن الأجر، وهم الذين صبروا على مفارقة وطنهم، وأذى المشركين، ولم يتركوا دينهم، ولايفوضون أمرهم إلا إلى ربهم.

ولما كانت قريش تقول إن الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا ولا يليق به أن يرسل إلا ملكا، انظر الآية (٩٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٧، رد سبحانه عليهم بقوله: وما أرسلنا من قبلك أيها النبى إلا رجالا نوحى إليهم بشرائعنا فاسألوا يأهل مكة أهل الكتب السماوية السابقة ليعلموكم بالحقيقة إن كنتم لاتعلمون أن رسلنا هؤلاء الرجال مؤيدين بالمعجزات حاملين شرعنا الذى فيه مصلحة أممهم.

وأنزلنا إليك أيها النبى القرآن لتبين للناس كيف يعملون بما نزل إليهم، وإرادة أن يتفكروا فيهتدوا للحق، فكيف بعد هذا يصح أن يتعامى المشركون؟ فهل أمن هؤلاء الذين دبروا الرسل التدابير السيئة أن يخسف الله بهم الأرض كما فعل بقارون؟ انظر الآية (٨١) من سورة القصص صفحتى ٥١٨، ٥١٩، أو يأتيهم العذاب بغتة من جهة السماء بالصاعقة كما فعل بثمود، أو يأخذهم فى أثناء سفرهم بعيدين عن أهليهم، وهذا أشد ألما لنفوسهم، وماهم بمعجزين الله إذا أراد ذلك، أو يأخذهم العذاب جهرة وهم ينظرون خائفين، فهل أمنتم كل هذا ونسيتم أن إمهاله تعالى ماهو إلا لأنه رءوف رحيم بكم، فلا يعجل العقوبة لعلكم ترجعون.

وقد تقدم فى الآية (٧) من هذى السورة صفحة ٣٤٦.

ثم نبههم إلى عبر أخرى فقال: ﴿أو لم يروا﴾ إلخ: أى أغفل هؤلاء ولم ينظروا إلى ماخلق الله من الأجسام القائمة تنتقل ظلالها من موضع إلى موضع هى وأصحابها وهم منقادون فى ذل وانكسار لأمر الله القاهر خاضعة لله، وماذلك إلا لإحكام تدبيرها ونظام سير الكواكب فيعلموا أن القادر على ذلك قادر على إهلاكهم.

ثم ذكر ماهو كالدليل لما سبق بحكم عام فقال: ﴿ولله يسجد مافى السموات وما فى الأرض﴾ من كل دابة تتحرك فيهما، أى أن كل مافيهما خاضع لما خلق له على النظام الذى وضعه سبحانه، وكذا الملائكة خاضعة له تعالى وهم لايستكبرون.

وخصهم مع دخولهم فيما سبق لأن خضوعهم ممتاز بنوع خاص، انظر الآية (١) من سورة التحريم صفحة ٧٥٢، ولأن فيه رد على قريش حيث زعموا أن الملائكة بنات الله وعبدوهم، انظر الآية (٥٧) ومابعدها فى هذه السورة صفحة ٣٥٢، والآية (٤٠) ومابعدها من سورة سبأ صفحة ٥٦٨، والآية (١٤٩) من سورة الصافات صفحة ٥٩٠، والآية (١٦) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٨، وأيضًا لتوبيخ الكفار على استكبارهم على السجود لله وحده مع أن الملائكة لايستكبرون عنه، انظر الآية (٢٨) من سورة فصلت صفحة ٦٢٥.

يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ۩ ۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ

المفردات: - ﴿يخافون ربهم﴾: أى يخافون عذابه.

﴿فارهبون﴾: الرهبة الخوف أى خافوا عذابى.

﴿الدين﴾: المراد به هنا الطاعة.

﴿واصبا﴾: أى دائمًا انظر الآية (٩) من سورة الصافات صفحة ٥٨٧.

﴿تجأرون﴾: تتضرعون رافعين أصواتكم بالاستغاثة به تعالى.

﴿لما لايعلمون﴾: أى لأصنام لايعلمون لها وجودا حقيقيا بدليل أنها لاتضر ولاتنفع، انظر الآية (٧١) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٣، ٢٠٤، والآية (٦٦) من سورة يونس صفحة ٢٧٦.

﴿تفترون﴾: أى تكذبوا عمدًا.

﴿ظل﴾: صار.

﴿كظيم﴾: ممتلئ غيظًا، انظر الآية (١٣٤) من سورة آل عمران صفحة ٨٤.

المعنى: - لاتستكبر الملائكة عن السجود لله لأنهم يخافون عذاب ربهم القادر القاهر الذى لايرد قضاؤه، ويفعلون مايؤمرون (هنا سجدة).

وبعد مابين سبحانه أن كل شىء خاضع لمشيئته، أتبع ذلك بالنهى عن أن يشرك به غيره، لأنه سبحانه مصدر النعم، ولا مرجع للإنسان عند الشدائد غيره، وقال الله تعالى لعباده لاتتخذوا إلهين اثنين.

(١) واحد. (٢) فإياى. (٣) السموات. (٤) تجأرون. (٥) آتيناهم.
(٦) رزقناهم. (٧) لتسألن. (٨) البنات. (٩) سبحانه. (١٠) يتوارى.

وإنما ذكر اثنين للإشعار بأن محل النهى هو الاثنينية، وأكد قوله ﴿إنما هو إله واحد﴾ لبيان أن المقصود هو الوحدانية، وإذا كان الأمر كذلك فلا تخافوا غيره لأن كل مافى السموات والأرض له ملكا وعبيدا، ويجب أن تكون الطاعة له وحده دائمة فى كل وقت إلى يوم القيامة، فهل يصح بعد هذا أن تتقوا غير الله وهو لايملك لكم شيئًا مع أنه لانعمة حصلت لكم إلا وهى من الله وإذا مسكم ضر من سقم أو مرض أو كرب فلاتستغيثون إلا به، ثم إذا كشف الضر عنكم إذا جماعة منكم يجعلون له تعالى شريكا يتقربون إليه بالنذور والذبائح، وجماعة اعتبروا واهتدوا كما فى الآية (٣٢) من سورة لقمان صفحتى ٥٤٣، ٥٤٤.

وإنما رجع البعض إلى الشرك لتكون عاقبتهم أن يجحدوا نعم الله عليهم.

ثم توعدهم بقوله فتمتعوا بزخرف الدنيا الزائل فسوف تعلمون عند لقاء ربكم وبال عملكم.

ثم عدد بعض جرائم المشركين فقال: ويجعلون لمعبودات لايعلمون لها وجودا حقيقيا لأنها عديمة النفع نصيبا مما أنعمنا عليهم به من الحرث والأنعام كما فى الآية (١٣٦) من سورة الأنعام صفحة ١٨٥.

ثم هددهم بقوله: ﴿تالله لتسألن﴾ إلخ؛ أى أقسم لأسألنكم عما افتريتموه من الباطل وأجازيكم عليه. ولقد بلغ من جهل هؤلاء المشركين أن جعلوا لله بنات وهم الملائكة وعبدوها لأنها بنات الله، وجعلوا هم لأنفسهم مايشتهون ويحبون وهم الذكور؛ أى أنه ليس لله تعالى إلا بنات، أما هم فلهم معها ذكور، انظر الآية (١٠٠) من سورة الأنعام صفحة ١٧٩، والآية (١٩) من سورة الزخرف صفحتى ٦٤٨، ٦٤٩، والآية (٢٧) من سورة النجم صفحة ٧٠٢؛ يجعلون لله البنات التى يكرهونها بدليل أن أحدهم إذا أخبر بأنه ولد له أنثى صار وجهه مسودًا كئيبا ممتلئًا غيظًا من الحزن، يتوارى من الناس خجلا من أن يروه حزينا، ويتردد فى نفسه أحد أمرين: إما أن يمسك مابشر به ويبقيه حيا مع الهوان والمذلة...

هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ

المفردات: ﴿يدسه فى التراب﴾: أى يخفيه تحت التراب حيا حتى يموت. ﴿ألا﴾: كلمة تنبه لما بعدها.

﴿ساء﴾: قبح ﴿مثل السوء﴾: المثل هنا الصفة، والسوء مايسوء والمراد لهم صفة السوء وهى احتياجهم للولد الذكر وكراهتهم للبنات خوف الفقر والعار.

﴿ولله المثل الأعلى﴾: أى الصفة العليا وهى أنه الغنى عن كل ماعداه.

﴿وتصف ألسنتهم الكذب﴾: أى تبرزه على أظهر وجه، كما تقول وصفت عينه السحر وخده الجمال. ﴿لاجرم﴾: أى حقا.

﴿مفرطون﴾: أى مقدمون إلى النار قبل غيرهم من أفرطته إلى كذا إذا قدمته إليه.

المعنى: هل يبقى المولود الأنثى مع الذل الذى يزعمه أم يقتله بدفنه فى التراب حيا.

ألا قبح حكمهم الذى جعل لله البنات التى لايرضونها لأنفسهم، واختاروا لأنفسهم الذكور. لهؤلاء الذين لايؤمنون بالبعث والجزاء صفات النقص وهى حاجتهم إلى الذكور لمعاونتهم وقتلهم البنات ظلما، ولله سبحانه صفات الكمال العليا وهى أنه إله واحد غنى عن الولد واسع القدرة إلخ، وهو العزيز الذى لايغلبه غالب، الحكيم الذى لايضع الشىء إلا فى موضعه.

(١) يستأخرون.
(٢) الشيطان.
(٣) أعمالهم.
(٤) الكتاب.
(٥) لآية.

وهؤلاء المشركون بقولهم هذا على الله ظلموا أنفسهم واستحقوا الهلاك، ولكن حلم الله تعالى واسع فيمهل ليفسح الفرصة للتوبة لأنه لو آخذ الناس بمعاصيهم بسرعة لما ترك على ظهر الأرض دابة مطلقا حتى من الحيوانات بسبب شؤم الإنسان، ولكن بفضله سبحانه يؤخر الظلمة إلى الوقت الذى حدده لفنائهم، فإذا جاء هذا الوقت لايتأخرون عنه لحظة، كما أنهم لايتقدمون عليه لحظة، وينسب هؤلاء المشركون إلى الله مايكرهونه لأنفسهم من البنات والشركاء فى الرياسة، وتنطق ألسنتهم بالكذب وهو قولهم إن لنا عند الله إن فرض ورجعنا إليه المنزلة الحسنى وهى الجنة، انظر الآية (٣٦) من سورة الكهف صفحة ٢٨٦ والآية (٥٠) من سورة فصلت صفحة ٦٣٧.

لاشك أن لهؤلاء النار فقط، وأنهم مسوقون إليها قبل سواهم.

ثم أراد سبحانه أن يسلى رسوله على تبجحهم بأن ماهم عليه من الجهل وقبح المعاملة معه ﷺ كان فى أمم سبقتهم مع رسلهم فقال سبحانه: تالله لقد أرسلنا رسلا من قبلك إلى أممهم بمثل ماأرسلناك به من أصول الدين، فحسّن لهم الشيطان الكفر والمعاصى، فكذبوا رسلهم، فهو متولى أمرهم فى الدنيا، ولهم فى الآخرة عذاب شديد الألم.

وما أنزلنا عليك أيها النبى القرآن إلا لتبين للناس الحق فيما اختلفوا فيه فيتركوا الباطل ويقتصروا على الحق، وليكون هاديا للقلوب الضالة، وسبب رحمة للمؤمنين به.

وبعد ماتوعد المشركين بالعذاب رجع إلى ذكر دلائل التوحيد لأنه المقصود من كل الشرائع فقال: والله وحده هو الذى أنزل من جهة السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، أى أنبت فيها أنواع النبات بعد يبسها.

إن فى هذا الفعل لأدلة على وجود صانع حكيم، ينتفع بها الذين يسمعون سماع فهم وتدبر.

يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَٰمِ(١) لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ(٢) ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَٰبِ(٣) تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً(٤) لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَٰتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ(٥) وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ

المفردات: . ﴿الأنعام﴾: هى الإبل والبقر والغنم. ﴿نسقيكم﴾: من أسقيته بمعنى سقيته. ﴿فى بطونه﴾: شاع فى القرآن تذكير اللفظ وتأنيثه باعتبارين كالأنعام، فإنه ذكر هنا باعتبار إرادة الجنس، وأنث فى الآية (٥) من هذه السورة صفحتى ٣٤٥، ٣٤٦ باعتبار أنه جمع؛ ونظيره عن الشمس وتأنيث صفتها وتذكير اسم الإشارة الراجع إليها فى الآية (٧٨) من سورة الأنعام صفحتى ١٧٤، ١٧٥، وآيتى (١١، ١٢) من سوة عبس صفحة ٧٩٢

﴿عبرة﴾: أى اعتبار وعظة.

﴿فرث﴾: فضلات طعام الحيوان مادام فى الكرش، فإذا خرج فهو سرجين.

﴿خالصا﴾: من لون الدم ورائحة الفرث.

﴿سائغا﴾: أى سهل المرور فى الحلق لذيذا. ﴿سكرا﴾: أى خمرا مسكرا.

﴿رزقا حسنا﴾: هو التمر والزبيب ونحوهما.

﴿أوحى ربك إلى النحل﴾: أى ألهمها ووضع فى فطرتها.

﴿ومما يعرشون﴾: أى مايجعلونه عريشة لسقف البيت أو تحت شجر الكرم.

﴿سبل ربك﴾ واحدها سبيل أى طريق.

﴿ذللا﴾: واحدها ذلول أى مذللة مسهلة.

---

(١) الأنعام. (٢) للشاربين. (٣) والأعناب. (٤) لآية. (٥) يتوفاكم.

﴿أرذل العمر﴾: أى أخسه وأرداه وهو الذى يضعف معه العقل ولا يكاد صاحبه يشعر بما يحصل منه.

المعنى: - إن فى كل ما تقدم أدلة لقوم يسمعون سماع فهم واعتبار، وإن فى خلق الله تعالى للأنعام لعبرة لكم، ثم بينّها فقال ﴿نسقيكم﴾ أى نخرج لكم من بعض مافى بطونها من بين مادتين هما الفرث والدم لبنا سائغا للشاربين، وإن لكم عبرة أيضًا تدل على قدرتنا وعجيب صنيعنا فى ثمرات النخيل والأعناب حيث جمعنا فيها بين سم قاتل وأطيب مايطعم، ولو تركتموه ولم تتدخلوا فى تحويله إلى خمر لبقى رزقا حسنا فقط. إن فى هذا الصنع البديع لأدلة لقوم يعقلون أن القادر على ذلك هو وحده الإله الحق.

ومن عجيب صنعنا أيضًا أننا ألهمنا النحل أن تعمل لها مساكن من كهوف الجبال، ومن فجوات جذوع الشجر وفروعه، ومن عرائش البيوت والكروم، ثم ألهمها أن تأكل من زهور كل ثمرات النبات وأن تسلك الطرق التى ألهمها ربها سلوكها حال كونها سهلة مذللة لا صعوبة فيها. ثم وجه الكلام للخلق لبيان محل الإنعام عليهم فقال سبحانه: يخرج من بطونها من جهة فمها شراب هو العسل مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، إن فى هذا الخلق لأدلة على وجود صانع حكيم ينتفع بها المتفكرون الذين لايغفلون عقولهم.

وبعد ما فرغ سبحانه من عجائب صنعه فى الحيوان شرع فى عجائب صنعه فى الإنسان فقال: والله خلقكم وقدر لكم آجالا مختلفة، منكم مَنْ يتوفاه مبكرا، ومنكم مَنْ يرجعه إلى حال الطفولة، لتكون عاقبته أنه يفقد كل ماعلمه، إن الله عليم بأسرار خلقه، قدير على عمل مايريد.

وهذا دليل على أن تفاوت أحوال الناس ليس إلا بتقدير قادر حكيم مختار وإلا لاستووا فى أعمارهم.

وبعدما فرغ من بيان اختلاف الإنسان فى العمر أتبعه ببيان اختلافه فى الرزق وغيره فقال ﴿والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق﴾ فجعل رزق السيد أفضل من رزق مملوكه، فما الذين فضلوا فى الرزق وهم الملاك برادى أى بمعطى رزقهم لعبيدهم.

عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ * ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ

المفردات: - ﴿حفدة﴾: هم أولاد البنين.

﴿بالباطل يؤمنون﴾: هذا الباطل هو أن الأصنام تنفع عابدها.

﴿شيئًا﴾: هو بدل من رزقا للدلالة على القلة.

﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾: الأمثال جمع مثل بكسر فسكون بمعنى ند أى مثيل. انظر الآية (٢٢) من سورة البقرة صفحة ٦.

﴿ضرب الله مثلا﴾: ضرب المثل هنا معناه تشبيه شىء بشىء.

﴿كل على مولاه﴾: عالة ثقيل على مَنْ يعوله.

﴿أينما يوجهه﴾: فى أى جهة مَّا يوجهه فيها.

المعنى: - فلا يرد المفضلون نصف رزقهم على عبيدهم فيشتركون فيه شركة متساوية، والمراد توبيخ الذين يشركون به تعالى بعض مخلوقاته؛ لأن المعنى أنكم لاترضون بشركة عبيدكم لكم فى شىء من الرزق الذى يعمكم ويعمهم وهم أمثالكم بشر، فما بالكم تشركون معه سبحانه بعض مخلوقاته فيما لايليق إلا به وهو الألوهية انظر الآية (٢٨) من سورة الروم صفحة ٥٣٤، فهل بعد هذا يشركون به تعالى فيجحدون كافرين بنعمته عليهم؛ لأن الإنعام يقتضى أن لايعبدوا غيره.

(١) أيمانهم. (٢) أزواجا. (٣) أزواجكم.
(٤) الطيبات. (٥) افبالباطل. (٦) وبنعمة.
(٧) السموات. (٨) رزقناه. (٩) مولاه.

ثم ذكر نعمة من نعمه على خلقه فقال: والله جعل لكم من جنس أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وتأنسوا بها، وجعل لكم من أزواجكم المنعم بها عليكم نعمة أخرى هى البنون وأولاد البنين ورزقكم رزقا أحله لكم تستلذه نفوسكم، هل بعد ذلك يشرك به بعض خلقه فيؤمنون بآلهة باطلة ويكفرون نعم الله عليهم فلا يشكرونه عليها بإخلاص العبادة له وحده.

ثم بيَّن كيفية هذا الباطل فقال: ويعبدون من دون الله أصناما لاتملك لهم الآن رزقا قليلا، لا من السموات كالمطر، ولا من الأرض كالنبات، ولايستطيعون فى المستقبل أن يملكوا شيئًا من ذلك.

ثم وجه الخطاب للكفار للاهتمام فقال: ﴿فلا تجعلوا﴾: أى إذا ثبت عدم نفع الأصنام فلا تجعلوا لله مثيلا؛ لأن الله يعلم حقيقة ماتعملون فيجازيكم، وأنتم لاتعلمون مايجب له فتجاسرتم عليه وجعلتم له مثيلا.

ثم أراد سبحانه أن يذكر لهم تشبيها يبرز لهم جهلهم فقال: ضرب الله مثلا.

ثم بين هذا المثل المضروب فقال: عبدا مملوكا للغير ورجلا آخر حرا رزقناه وملكناه رزقا حلالا طيبا؛ هل يستوى أفراد النوعين العبيد والأسياد؟ كلا.

وإذا كان لايستوى العبيد والأحرار فكيف تسوون بين رب العالمين وماهو أقل من العبيد وهم الأصنام؟ وإذا ثبت أن الله وحده هو صاحب الفضل فى كل شىء فقل أيها النبى أنت ومَنْ اتبعك: الحمد كله لله، لايستحقه غيره، ولا يفعل هؤلاء مايفعلون عن علم، بل أكثرهم لايعلمون، فيضعوا العبادة فى غير موضعها تقليدا لغيرهم، وقليل منهم يعلم ويعاند، انظر الآية (٨٣) الآتية صفحة ٣٥٧، أو المراد ولكن أكثر الخلق لايعلمون وأقلهم مؤمنون.

وضرب الله مثلا آخر يؤيد السابق على وجه واضح، وبينه بقوله: رجلين أحدهما ولد أخرس، ويلزم ذلك الصمم أى عدم السمع، فهو لايفهم غيره، وهو لذلك عالة على مَنْ يتولى أمره، فى أى جهة يرسله مولاه لقضاء مصلحة لايأتى بفائدة؛ هل يستوى هذا مع رجل فصيح قوى السمع ينفع الناس بالحث على العدل وغيره.

وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ

المفردات: ﴿أمر الساعة﴾: أى أمر قيامها فى السرعة والسهولة.

﴿أو هو أقرب﴾: ﴿أو﴾ هنا بمعنى بل.

﴿السمع والأبصار﴾: أفرد السمع لأن مدركاته نوع واحد وهو الصوت بخلاف البصر فإنه يدرك الألوان والأشكال.

﴿الافئدة﴾: هى القلوب.

﴿الطير﴾: يطلق على الواحد والجمع.

﴿مسخرات﴾: أى مهيئات للطيران بما خلق لها من الأجنحة وغيرها.

﴿جو السماء﴾: هو مابين السماء والأرض وأضيف للسماء لأن الطائر يكون فى جانبها فى نظر العين.

﴿يوم ظعنكم﴾: أى سفركم.

﴿أثاثا﴾: فرش البيوت.

﴿متاعا﴾: للبس والتجارة.

﴿إلى حين﴾: أى إلى مدة من الزمان تبلى بعدها.

﴿أكنانا﴾: جمع كن بكسر أوله وهو مايسكن فيه من كهف أو مكان منحوت فيها.

﴿سرابيل﴾: جمع سربال بكسر فسكون وهو كل مايلبس.

﴿تقيكم الحر﴾: خص الحر بالذكر لأنه هو مثار الشكوى فى بلاد العرب.

(١) صراط. (٢) السموات. (٣) أمهاتكم. (٤) والأبصار. (٥) مسخرات. (٦) لآيات.
(٧) الأنعام. (٨) أثاثا. (٩) ومتاعا. (١٠) ظلالا. (١١) أكنانا. (١٢، ١٣) سرابيل.

وقد تعرضت الآية (٥) المتقدمة أول السورة صفحتى ٣٤٥، ٣٤٦ للوقاية من البرد.

﴿بأسكم﴾: أى شدتكم وقت الحرب، وسرابيلها هى الدروع.

المعنى: - يأمر غيره بالعدل وهو فى نفسه على طريق مستقيم لايريد شيئًا إلا بلغه فى أقرب وقت، وهذا مثل ضربه سبحانه لنفسه وللأصنام لإبطال المماثلة بينهما، ولله علم ماغاب عن الخلق فى السموات والأرض، وما أمر قيام الساعة إلا كرد طرف العين من أعلى إلى أسفل بل هو أقرب من ذلك، وهذا صادق بقربها جدا، وبسرعة قيامها عند حلول أجلها.

ثم بيَّن نعمة من نعمه سبحانه دالة على قدرته فقال: والله أخرجكم من بطون أمهاتكم حال كونكم جهالا، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة أدوات تعلمون بها، رجاء أن تشكروا مَنْ أنعم بها عليكم.

ألم ير هؤلاء الذين يعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا، إلى الطيور مذللات للطيران فى الفراغ المتصاعد إلى السماء، مايمسكهن عن الوقوع لثقل أجسامها ورقة الهواء إلا الله، لما نظم لها من أجنحة أوسع من جسمها وأخف، إن فى ذلك لدلائل على قدرة صانعها ينتفع بها المهيئون للإيمان.

والله جعل لكم من بيوتكم ماتسكنون فيه وقت إقامتكم من الحجر وغيره، وجعل لكم أيضًا من جلود الأنعام نفسها ومما عليها من صوف ووبر وشعر بيوتا تجدونها خفيفة فى حملها ونقلها وقت ترحالكم ونزولكم فى أثناء السفر، وجعل لكم من أصواف الغنم وأوبار الإبل وأشعار المعز أثاثا ومتاعا تنتفعون به مدة من الزمن.

ولما كان من الناس مَنْ قد يكون مسافرا ولا قدرة له على بيوت الجلد وغيرها، قال: والله جعل لمَنْ كان هذا شأنه مايقوم مقام البيت من ظلال ماخلق من الشجر والجبل تتقون به حر الشمس المعروف شدتها عليهم، وجعل لهذا النوع من الخلق أيضًا كهوفا ومغارات فى الجبال تقوم مقام البيوت، وجعل لكم ثيابا تقيكم الحر والبرد؛ وجعل لكم ماتلبسونه فى الحرب من الحديد كالدروع تقيكم شرها.

كذلك الإتمام للنعمة عليكم فيما مضى.....

يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ[1] ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ[2] ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ[3] ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا[4] ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟[6] مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ[7] ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ[8] عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا

المفردات: - ﴿ثم ينكرونها﴾: حرف ﴿ثم﴾ يدل على استبعاد الإنكار بعد المعرفة، لأن الواجب على مَنْ يعرف النعمة أن يعترف بها، ويشكر عليها، لا أن ينكرها. ﴿وأكثرهم الكافرون﴾: هذا التركيب يفيد الحصر، أى أنهم لشدة كفرهم انحصر فيهم الكفر. ﴿ثم لايؤذن للذين كفروا﴾: أى لايؤذن لهم فى الاعتذار، انظر آيتى (٣٥، ٣٦) من سورة المرسلات صفحة ٧٨٥ وحرف ﴿ثم﴾ يدل على أن مصيبتهم بمنع الاعتذار الذى أوقعهم فى القنوط أشد من مصيبتهم بشهادة الأنبياء عليهم، لأنهم بعد الشهادة كانوا يأملون أن يعتذروا، ويقبل عذرهم. ﴿شهيدا﴾: هو نبيها. انظر الآية (٤١) من سورة النساء صفحة ١٠٧.

﴿يستعتبون﴾: أصله مأخوذ من العَتْب بفتح فسكون، وهو المحادثة فى أسباب الغضب، يقال استعتب الخادم سيده، أى طلب منه أن يزيل من نفسه سبب عتابه، وهو الغضب عليه. يقول العربى: استعتبت فلانا فأعتبنى، أى استرضيته فرضى. فمعنى ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أنه لايطلب منهم أحد من الشفعاء الرجوع عما أوجب العتب. ﴿ينظرون﴾: يمهلون. ﴿السلم﴾: الاستسلام والخضوع. ﴿ضل عنهم﴾: أى غاب وضاع. ﴿زدناهم عذابا﴾: على منعهم غيرهم من الإيمان ﴿فوق العذاب﴾ الذى استحقوه بكفرهم. ﴿ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا﴾: أعاد هذه العبارة ثانيا بعد ذكرها فى الآية (٨٤) من هذه السورة لتهديد كفار قريش بخاصة. لأن الشهادة ستكون عليهم لا لهم، وليوبخهم على محاربة رسول هو من أنفسهم، كان يجب عليهم أن يكونوا أسرع الناس إلى اتباعه.

المعنى: - كما أتمها عليكم فيما مضى يتمها عليكم فى المستقبل لعلكم تستسلمون وتنقادون لما شرعه لكم.

---

(١) البلاغ. (٢) نعمة. (٣) الكافرون. (٤، ٥) رأى. (٦) ندعو. (٧) لكاذبون. (٨) زدناهم.

قل لهم أيها النبى ذلك، فإن استمروا على إعراضهم فلا يضرك إعراضهم شيئًا، لأنه ليس عليك إلا البلاغ وقد بلغت.

ثم بيَّن سبحانه أن إعراض المشركين ليس لعدم معرفة نعم الله عليهم بل لاستيلاء الغفلة على قلوبهم، فلم يلتفتوا إلى مصدر النعم التى تغرقهم، ولا إلى أدلة ذلك المحيطة بهم، انظر الآية (١٠٥) من سورة يوسف صفحة ٣١٩، فقال يعرفون إلخ أى يعرفون أنه تعالى وحده هو المنعم عليهم بكل النعم، انظر آيات (٦١) ومابعدها من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٩، ولكنهم يعملون عمل مَنْ ينكرها حيث كفروا به ولم يشكروه عليها، وأكثرهم جمدوا على تقليد الآباء، والقادة، وتعصبوا لذلك حتى صاروا كأنهم لا كافر سواهم. وأنذرهم أيها النبى يوم نحشر من كل أمة نبيها يشهد لها أو عليها، فإذا ثبت إجرامهم وأراد الكافر منهم الاعتذار لايؤذن له، ولا يطلب منهم سبب رضا الله عنهم، لأن الكفر يحول دون ذلك. ثم زاد فى تخويفهم فقال: وإذا رأى الذين ظلموا أنفسهم بالكفر عذاب جهنم وطلبوا التخفيف لايخفف عنهم ولا يمهلون لحظة، انظر الآية (٤٩) من سورة غافر صفحة ٦٢٤. وإذا رأى الذين أشركوا مع الله غيره المعبودات التى أشركوها معه سبحانه محشورة معهم، أرادوا أن يعتذروا ويوزعوا من العذاب عليهم ليخف عنهم، فقالوا ياربنا هؤلاء هم الذين جعلناهم شركاء لك وكنا نعبدهم ونستعين بهم من دونك. فرد الشركاء القول على المشركين قائلين لهم إنكم لكاذبون فيما تضمنه كلامكم من أننا طلبنا منكم أن تعبدونا، انظر نظيره فى آيتى (٨١، ٨٢) من سورة مريم صفحة ٤٠٤ وآيتى (٥، ٦) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٦ والذى يحصل منه هذا التكذيب هو مايصح أن يقع منه من المعبودات كالملائكة وعيسى مثلا..والمقام هو الذى يدل على هذا كما دل فى الآية (٢٥) وما بعدها من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣ التى تفيد أن كل كافر يؤتى كتابه بشماله مع أنه ليس كل مَنْ يؤتى كتابه كذلك كان ذا سلطان أو مال، وقد سبق شىء من هذا فى الآية (٢٨) من سورة يونس صفحتى ٢٧٠، ٢٧١. ﴿والقوا إلى الله﴾ إلخ؛ أى استسلموا وخضعوا لقضاء الله وغاب عنهم ماكانوا يفترونه من أن آلهتهم تشفع لهم وتدفع العذاب عنهم. الذين كفروا فى أنفسهم ومنعوا غيرهم من الإيمان زدناهم عذابا بصدهم ومنعهم فوق العذاب الذى استحقوه بالكفر بسبب استمرارهم على إفساد عقولهم وعقول الناس. ثم أراد سبحانه تأكيد تهديد كفار قريش على الخصوص بعد أن هدد كل كافر على العموم فى الآية (٨٤) السابقة، زيادة فى تحذيرهم فى غفلتهم عن هذا الخطر؛ لما علم أن التخصيص والتفصيل يعمل فى النفوس ما لا

عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ(١) تِبْيَٰنًا(٢) لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ(٣) وَإِيتَآئِ(٤) ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ(٥) وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ(٦) بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا(٧) تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ(٨) دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ(٩) مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً(١٠) وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ(١١) عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

يعمله التعميم والإجمال؛ والنص على أن الرسول سيشهد عليهم لعلهم يزدجرون فقال ﴿ويوم نبعث﴾ إلخ؛ أى وذكرهم أيها النبى بما سيحصل يوم نبعث فى الأمة شهيدا عليهم من أنفسهم ليكون أقطع للعذر، ونجيئ بك أيها النبى شهيدا لهم أو عليهم...

المفردات: . ﴿على هؤلاء﴾: أى على أمتك وفى مقدمتهم كفار قريش.

﴿الكتاب﴾: القرآن. ﴿تبيانا﴾: بيانا تاما.

﴿وهدى﴾: هاديا أقوى هداية إلى الصواب.

﴿ورحمة﴾: وسبب رحمة لجميع الخلق.

﴿وبشرى﴾: أى مبشرا لمَنْ اتبعه بالجنة.

﴿والعدل﴾: هو المساواة فى كل شىء والاعتدال فيه من غير تفريط ولا إفراط ﴿والإحسان﴾ هو مقابلة الخير بأحسن منه، والشر بالعفو عنه.

﴿الفحشاء﴾: الذنوب المفرطة فى القبح كالزنا.

﴿والمنكر﴾: هو كل ماتنكره وتكرهه العقول السليمة.

﴿والبغى﴾: هو التعدى على الناس تجرؤا وظلما.

﴿كفيلا﴾: أى رقيبا وشهيدا.

﴿نقضت﴾: أى حلت ماغزلته. ﴿غزلها﴾: أصله مصدر وأريد به المغزول.

﴿أنكاثا﴾: جمع نكث بكسر فسكون وهو الشىء الذى نقض بعد غزله.

﴿دخلا بينكم﴾: الدخل فى الأصل مايدخل فى الشىء ولم يكن منه، ثم أرادوا به المكر والخديعة.

---

(١) الكتاب. (٢) تبيانا. (٣) والإحسان. (٤) وإيتاء. (٥) عاهدتم. (٦) الأيمان.
(٧) أنكاثا. (٨) أيمانكم. (٩) القيامة. (١٠) واحدة. (١١) ولتسالن.

﴿أربى﴾: أى أكثر وأزيد مالاً وعددًا. ﴿يبلوكم الله به﴾: أى يعاملكم معاملة المختبر ليظهر للناس ما فى نفوسكم.

﴿لجعلكم أمة واحدة﴾: انظر شرح الآية (١١٨) من سورة هود صفحة ٣٠١.

المعنى: . ويوم القيامة نجيىء بك شاهدا على أمتك بمالها وماعليها، بعد مانزلنا عليك الكتاب لتقرأه عليهم مبينا لأصول كل مايحتاجون إليه فى أمور دينهم ودنياهم، وهاديا وسبب رحمة، ومبشرا للمسلمين بالجنة، فتشهد أنت بما لاقاه الناس به هل آمنوا به أو كفروا؟ وبعدما ذكر أن القرآن تبيان لكل شىء، دلل على ذلك بآية جامعة لأصول التكاليف كلها وهى قوله: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى﴾ أى إعطاء القرابة مايحتاجون إليه، وهو تخصيص بعد تعميم لأهميته، لأنه صلة رحم ﴿وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، يعظكم﴾ أى ينهاكم برقيق القول لعلكم تتذكرون فضله عليكم بهذا النصح فتطيعونه ولاتعصونه فى شىء. قال ابن مسعود: هذه أجمع آية فى القرآن للخير والشر.

﴿وأوفوا بعهد الله﴾ وهو كل مايلتزمه الإنسان باختياره، ويدخل فيه الوعد، وأضيف لله لأنه فى الغالب يشهد الله عليه أو يحلف به على احترامه ومحل ذلك إذا كان ما التزم به لايعارض ما شرعه الله ولا تنقضوا الأيمان بالحنث فيها بعد تأكيدها، أى التشديد فيها بذكر الله وشىء من صفاته وغير ذلك من المؤكدات، والحال أنكم اعترفتم بأن الله رقيب عليكم، وهو سبحانه يعلم مايكون منكم من وفاء وحنث فيجازيكم عليه. ثم أكد سبحانه وجوب الوفاء وحرمة النقض بجعل مَنْ لم يحافظ على عهده ويمينه كالمرأة المجنونة التى تغزل الصوف أو القطن وتقوى غزله ثم تنقضه وتتركه محلولا كما كان، وكان غزل الصوف من عادة نساء العرب؛ لاتكونوا كهذه المجنونة حال كونكم متخذين أيمانكم التى حلفتموها على أنكم توفون العهد خديعة وتغريرا لغيركم ليطمئنوا إليكم وأنتم مضمرون لهم الغدر والانضمام لغيرهم لأنهم أكثر عددا وأوفر مالا، وإنما يأمركم ربكم بالوفاء ويوقعكم بين جماعتين إحداهما قليلة عاهدتموها والأخرى كبيرة أغنى منها ليظهر للناس هل تحافظون أم تجرون وراء المادة ولاتقيمون للعهود والأيمان وزنا، وليبين لكم يوم القيامة ماكنتم تختلفون فيه فى الدنيا من محافظة المؤمن وعصيان الكافر والعاصى، ويجازيكم حسب أعمالكم. ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة مؤمنة جبرا عنها كالملائكة لا اختيار لها، ولكن شاء أن يجعل لكم اختيارا، فيضل مَنْ يشاء من خلقه وهم الذين اختاروا متعة الدنيا وأهملوا النظر إلى الآخرة، انظر آيات (١٨، ١٩، ٢٠) من سورة

الإسراء صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧، وآيات من (٥ إلى ١٠) من سورة الليل صفحتى ٨١٠، ٨١١، ويهدى مَنْ يشاء كذلك، ووالله لتسألن جميعا يوم القيامة عما كنتم تعملون فى الدنيا. وتحقيق هذا المقام تقدم فى الآية (٤٨) من سورة المائدة صفحة ١٤٦، والآية (١١٨) من سورة هود صفحة ٣٠١.

وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟

المفردات: . ﴿ولا تتخذوا أيمانكم﴾ إلخ: تقدم فى الصفحة السابقة.

﴿فتزل قدم﴾: أصل زلة القدم تقلب الإنسان من حال خير إلى حال شر، والمراد هنا الوقوع فى الهلاك. ﴿تذوقوا السوء﴾: أى العذاب الذى يسوء صاحبه.

﴿تشتروا﴾: أى تستبدلوا. ﴿بعهد الله﴾: المراد به شرعه الذى عاهدتموه على المحافظة عليه ومنه العهود والأيمان ﴿ثمنا قليلا﴾: هو متاع الدنيا الزائل. ﴿ينفد﴾: أى يفنى.

﴿مَنْ عمل صالحا﴾: المراد الفريق من الناس الذى يعمل صالحًا، وهذا صح جمع الضمير فى قوله ﴿ولنجزينهم﴾ ﴿سلطان﴾: أى تسلط وتقهر.

﴿يتولونه﴾: أى يوالونه بطاعة وسوسته. ﴿آية مكان آية﴾: أى آية من القرآن مكان آية من التوراة كآية استقبال الكعبة بدل آية استقبال بيت المقدس، انظر الآية (١٤٢) ومابعدها من سورة البقرة صفحة ٢٧، وآية حل أكل لحم وشحم ماكان محرما على بنى إسرائيل فى الآية (١٤٦) من سورة الأنعام صفحة ١٨٨ وجاء القرآن بحله فى الآية (١٤٥) من نفس السورة صفحتى ١٨٧، ١٨٨.

---

(١) أيمانكم. (٢) صالحا. (٣) حياة. (٤) القرآن. (٥) الشيطان. (٦) سلطان. (٧) سلطانه.

المعنى: . لما كان النهى عن اتخاذ الأيمان دخلا إنما فهم ضمنا مما سبق فى سياق خاص،أراد سبحانه أن يصرح بالنهى عنه وعلى وجه العموم لشدة قبحه فقال ﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم﴾ فتزل قدمكم عن صراط الحق بعد ثبوتها عليه، والمرادتضلوا وتبعدوا عن الصواب ويكون من نتيجة ذلك أنكم تذوقون العذاب الذى يسوء فى الدنيا بالقتل والأسر وضياع المال بسبب صدودكم وإعراضكم عن شرع الله الذى من ضمنه الأمر بالمحافظة على العهود، ولكم فى الآخرة عذاب عظيم. ولا تستبدلوا بالوفاء بالعهد متاع الدنيا الفانى؛ لأن ماعند الله من الأجر العظيم الخالد خير لكم من متاع زائل، إن كنتم من أهل العلم والتمييز بين الصالح وغيره. ثم بيَّن وجه ذلك فقال: ماعندكم من نعيم الدنيا يفنى مهما طال زمنه، وماعند الله من نعيم الآخرة خالد لاينقضى. ولما كان الصبر نصف الإيمان وعليه المعول فى نجاح المؤمن، خص أصحابه بالذكر فقال: ووالله لنجزين الذين صبروا على مشاق التكاليف وأذى المشركين أجرهم على كل أعمالهم على حسب أحسنها، وهو الصبر الذى يجزى صاحبه أجره بغير حساب، انظر الآية (١٠) من سورة الزمر صفحة ٦٠٧. ثم بعد مابيَّن فضل الصبرمن بين الأعمال الصالحة أراد أن يبين فضل المثابرة على الأعمال الصالحة من كل مكلف ذكرًا أو أنثى فى المستقبل فقال: ﴿مَنْ عمل صالحا﴾ إلخ، أى عملاً صالحا من ذكر أو أنثى بشرط أن يكون مؤمنا لأن العمل بدون إيمان يكون هباء كما فى الآية (٢٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣، فلنحيينه فى الدنيا حياة طيبة لاتنغيص فيها لما رزق من القناعة والرضا والصبر على مصائب الدنيا لعلمه أنها دار ممر لا دار خلود، وانتظاره النعيم الدائم فى الآخرة، بخلاف الكافر بالله فإنه فى هم وشقاء لشدة خوفه على ما فى يده، انظر الآية (٥٥) من سورة التوبة صفحة ٢٥٠، ولنجزينهم فى الآخرة أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون كما فعلنا مع الصابرين.

ثم أراد سبحانه أن يشير إلى ما به يكون العمل الصالح مقبولا خالصا من وساوس الشيطان فقال: ﴿فإذا قرأت القرآن﴾ أى إذا أردت القراءة فاسأل الله أن يعيذك من نزغات الشيطان الرجيم باللعن فى كل حين. ثم بيَّن شروط إفادة الاستعاذه فقال إنه أى الشيطان ليس له سلطان وتأثير خطير بوسوسته على المؤمنين حقا الذين لايتوكلون إلا على الله، إنما

إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾

تأثيره على الذين يجعلونه وليا لهم فيطيعونه، والذين هم بسبب إغوائه مشركون بالله غيره. ثم انتقل سبحانه لبيان بعض مكابرة الكفار فقال: وإذا جئنا بآية فى القرآن فيها حكم يناسب زمنها بدل آية من التوراة أصبح حكمها لايناسب زمن نزول القرآن والله أعلم بما ينزل فلا ينزل إلا بحكمة..

المفردات: . ﴿مفتر﴾: أى مخترع الكذب على الله. ﴿روح القدس﴾: معناه روح الطهر، وأريد بهذا المركب جبريل، وهو من إضافة الموصوف لصفته، كقولهم هذا حاتم الجود. ﴿بشر﴾: يريدون به غلاما روميا نصرانيا كان يقرأ التوراة والإنجيل وكان بمكة يصنع السيوف ﴿لسان﴾: يطلق اللسان على اللغة التى يتكلم بها الشخص.

﴿يلحدون إليه﴾: الإلحاد الميل، يقال ألحد إذا مال عن الاعتدال، والمراد ينسبون التعليم إليه، فهم أمالوا مايفترونه إليه.

﴿أعجمى﴾: أى غير واضح خفى الدلالة نسبة إلى أعجم وهو الذى لايفهم العربى كلامه. انظر الآية (١٩٨) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٢.

﴿من كفر بالله﴾ أى تلفظ بكلمة الكفر أو عمل عملاً فيه كفر ﴿من﴾ موصول مبتدأ خبره مقدر مفهوم من خبر ﴿لكن﴾ الآتى، والأصل مَنْ كفر بالله فعليهم غضب إلى آخره. ﴿من بعد إيمانه﴾: أى بعد إظهار الإيمان، ولم يثبت أن مؤمنا حقا كفر، إنما كان يحصل ذلك من المنافقين، انظر الآية (٧٢) من سورة آل عمران صفحة ٧٤. ﴿إلا مَنْ أكره﴾: مستثنى من حكم الغضب والعذاب. ﴿وقلبه مطمئن بالإيمان﴾: الجملة حال من فاعل الكفر المفهوم ضمنا من

(٢،١) بآيات. (٣) الكاذبون. (٤) إيمانه. (٥) بالإيمان. (٦) الحياة. (٧) الكافرين.

الإكراه، لأن معناه أكره على الكفر فكفر، والحال أن قلبه مطمئن. ولما كان يحتمل أن يسبق الذهن إلى جعل الحال من نائب فاعل ﴿أكره﴾ والمعنى عليه لايستقيم، لأنه قد يطمئن قلبه حال الإكراه، ولكن يكفر بعده مختارا، ومع ذلك يدخل فى حكم النجاة من العذاب؛ لما كان كل ذلك أراد سبحانه قطع هذا الاحتمال فقال: ﴿ولكن مَنْ شرح بالكفر صدرا﴾ إلخ؛ لتكون نصًا فى أن الحال من فاعل الكفر.

﴿شرح بالكفر صدرا﴾ أصله شرح صدره بالكفر، أى اعتقده وطابت به نفسه. ﴿استحبوا الدنيا على الآخرة﴾: أى أحبوها حبا قويا مقدمين لها على حب ماينجى فى الآخرة، والمراد فعلوا فعل المستحب، وإلا فكفار مكة لايؤمنون بالآخرة، انظر الآية (٣٨) من هذه السورة صفحة ٣٥٠.

المعنى: . إن الذين يحاربون الرسول يحاولون تضليل الناس وصرفهم عنه، فإذا رأوه جاء بآية فى القرآن تصلح للخلود مخالفة لما سبق فى التوراة قال المشركون بإيعاز من اليهود إن محمدا يكذب على الله لأنه أحل ماحرم كالصيد يوم السبت ولحوم الإبل وغيرها مما جاء فى الآية (١٤٦) من سورة الأنعام صفحة ١٨٨، وكان كفار مكة يرجعون إلى أهل الكتاب عند إرادة محاربته ﷺ، انظر الآية (٥١) من سورة النساء صفحة ١٠٩، والآية (١٥٧) من سورة الأنعام صفحة ١٩٠. ولتمام الرد عليهم وتسفيههم جاءت بعد ذلك آيات (١١٤ إلى ١٢٤) من هذه السورة، وما أنت كما يقول المبطلون أيها النبى بل هم المبطلون لأن أكثرهم وهم الأتباع لايعلمون الحق، وزعماؤهم يعلمون أن محمدًا رسول ولكنهم يكابرون. ثم رد عليهم بقوله قل أيها النبى: الذى نزل القرآن هو الروح الطاهر نزل به من ربك مقترنا بالحق، ليثبت به قلوب المؤمنين وليكون هاديا للصواب، ومبشرا بالنعيم للمسلمين. ولقد نعلم أن كفار مكة يقولون إن الذى يعلم محمدا هذا القرآن هو بشر معروف وليس من عند الله، وقولهم هذا باطل لأن لغة الذى ينسبون إليه ذلك أعجمية لايفهمها العربى، والقرآن لسان عربى واضح الفصاحة حتى أعجزكم، فكيف يستطيعه أعجمى. وإذا رأيت هؤلاء المشركين فى ضلال فلا تعجب لأن الذين لايؤمنون بآيات الله المعجزة ويتعامون عنها لايهديهم الله ولهم فى الآخرة عذاب شديد الألم. ثم رد الافتراء عليهم فقال إنما يفترى الكذب على الله الذين لايؤمنون بآيات الله لا الرسول المؤمن بها، وأولئك هم وحدهم الكاذبون البالغون فى الكذب غايته. وكان كفار مكة يعذبون مَنْ يظهر الإسلام من المساكين الذين لا عصبية لهم، ولاينقذهم من ذلك إلا إذا أعلنوا الكفر بمحمد، وكان من هؤلاء الضعفاء عمار بن ياسر وأبوه وأمه سمية وغيرهم، فلما رفض ياسر

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ[1] وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ[2] ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ[3] ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا[4] وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ[5] عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً[6] مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا[7] اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ[8] ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا[9] طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ[10] اللَّهِ

وسمية الكفر فقتلوهما، ولما رأى عمار ذلك نطق بكلمة الكفر ثم جاء يبكى ﷺ، فنزل قوله تعالى ﴿مَنْ كفر﴾ أى أظهر الكفر بعد الإيمان فعليهم غضب إلا مَنْ أكره على النطق بذلك والحال أن قلبه مطمئن بالإيمان فإنه ناج، ولكن مَنْ لم يكن كذلك بل شرح صدره بالكفر فعليهم غضب من الله، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم؛ ذلك المذكور من الغضب والعذاب الشديد بسبب حبهم متاع الدنيا الزائل وتقديمه على نعيم الآخرة، وبسبب أن الله لايهدى الجامدين على الكفر عنادا وحسدا، انظر بيان ذلك فى صفحتى ٤، ٢٧٨.

المفردات: ﴿طبع الله على قلوبهم﴾ إلخ: الطبع هو الختم المبين فى صفحة ٤. ﴿لاجرم﴾: أى حقا ولا شك.

﴿ثم إن ربك للذين هاجروا﴾: ﴿ثم﴾ هنا لبيان تباعد مرتبة حالهم هذه عن مرتبة حالهم قبل الهجرة وهم مضطهدون وقوله ﴿للذين هاجروا﴾ خبر إن والمعنى إن ربك لهم لاعليهم، فهو ينصرهم ولا يخذلهم.

﴿فتنوا﴾: أى عذبوا عذابا شديدا، انظر الآية (١٠) وماقبلها من سورة البروج صفحة ٨٠١.

﴿تجادل عن نفسها﴾: المراد لايهمها إلا نفسها وينسى الوالد ولده. . إلخ ما فى الآيات (٣٤) إلى (٣٧) من سورة عبس صفحة ٧٩٣.

﴿ضرب الله مثلا قرية﴾: أى جعل القرية الموصوفة بما ذكر مثلا يعتبر به كما تقدم فى الآيه (٧٥) من هذه السورة صفحة ٣٥٥. ﴿رغدا﴾: أى واسعا كثيرا.

(١) وابصارهم. (٢) الغافلون. (٣) الخاسرون. (٤) جاهدو. (٥) تجادل.
(٦) آمنة. (٧) فاذاقها. (٨) ظالمون. (٩) حلالا. (١٠) نعمة.

﴿كفرت بأنعم الله﴾: أنعم جمع نعمة، أى بنعمة. ﴿فأذاقها الله لباس الجوع والخوف﴾ فى الكلام تشبيهان، المراد رماهم بمصائب أحاطت بهم كما يحيط اللباس بصاحبه، واشتد ألمهم منها حتى كأنهم يأكلون حنظلا بشع المرارة.

المعنى: . بيَّن سبحانه سبب عدم هدايتهم بأنه طبع على قلوبهم فصارت لاتقبل الحق، وسمعهم فلا يسمع القرآن سماع فهم وتدبر، وأبصارهم فلا ترى ما فى الكون من عبر. وسبب ذلك أنهم غارقون فى الغفلة الشديدة حتى كأنهم لا غافل غيرهم، وهؤلاء لاشك أنهم وحدهم هم الخاسرون كل خير فى الآخرة.

ثم أراد سبحانه أن يبين حكم عمار المتقدم ومن عمل مثله فقال: ثم إن ربك للذين هاجروا من مكة فرارا بدينهم بعد الإذن فى الهجرة إلى الحبشة وغيرها من بعد ماعذبوا ثم جاهدوا المشركين بألسنتهم ببيان ما هم عليه من الضلال إلى أن يحين وقت مجاهدتهم بالسيف فيعملوه. ونظير ذلك فى المجاهدة باللسان فى الآية (٧٣) من سورة التوبة صفحتى ٢٥٣، ٢٥٤.

أما إن كانت هذه الآية مدنية فالجهاد يكون بالسيف أيضًا. وصبروا على مشاق التكاليف، إن ربك من بعد الهجرة والجهاد والصبر لغفور لما حصل منهم تحت التهديد بالقتل، رحيم فلا يعاقبهم عليه.

تتحقق هذه المغفرة والرحمة يوم تأتى كل نفس تدافع عن ذاتها بالاعتذار تارة والإنكار أخرى، لايهمها شأن غيرها لهول موقف يوم القيامة، وفى هذا اليوم يوفى الله كل نفس جزاء عملها خيرا أو شرا، ولايظلم أحدا منهم بنقص أجره أو عقابه بلا موجب.

ثم بعد ما هدد سبحانه الكافرين بالعذاب فى الآخرة أراد تهديدهم أيضا بمصائب الدنيا من جوع وخوف من بعد أمن وسعة رزق فقال: وضرب الله مثلا قرية كان أهلها فى أمن من العدو مطمئنة يأتيها رزقها واسعا من كل جهة فجحدت نعم الله فلم تشكره عليها ونسيت فضله ولجأت لغيره، فعاقبها الله بالمصائب التى أحاطت بها، وعمها الجوع والخوف حتى ذاقت مرارتها؛ كل ذلك بسبب ما استمروا عليه من التمادى فى الكفر والعصيان.

ولقد جاء أهل هذه القرية رسول منهم يعرفونه بأصله ونسبه، فطلب منهم الإقلاع عن الكفر، وطلب منهم الاعتراف له بالفضل وحذرهم من التمادى فى العصيان، فكان يجب عليهم شكر الله على ذلك ولكنهم كذبوه عنادا وحسدا، فأخذهم العذاب يوم بدر بالقتل والأسر، وبعد

إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ(١) وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ(٢) قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ(٣) وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ(٤) ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ(٥) وَهَدَاهُ(٦) إِلَىٰ

ذلك بالجوع الشديد حتى أكلوا الجيف، والحال أنهم غارقون فى ظلم أنفسهم بالكفر. وإذا تبين لكم ماحل بمَنْ يحارب الله ورسوله فاستقيموا ولا تحرموا الحلال، وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا، واشكروا نعمة الله عليكم به فلا تخالفوا أمره.

المفردات: . ﴿وما أهل لغير الله به﴾: أهل الرجل . رَفَع صوته، فالمراد ماذكر اسم غير الله عليه، انظر بيان ذلك فى الآية (١٧٣) من سورة البقرة صفحة ٣٣. ﴿غير باغ ولا عاد﴾: تقدم بيانهما فى الآية المشار إليها من سورة البقرة. ﴿تصف ألسنتكم الكذب﴾: أى تبرزه على أظهر صوره، انظر الآية (٦٢) من هذه السورة صفحة ٣٥٣.

﴿الذين هادوا﴾: هم اليهود وأصله ﴿هاد﴾ أى رجع، لأنهم رجعوا وتابوا من عبادة العجل، انظر الآية (١٥٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٧ ﴿ماقصصنا عليك من قبل﴾: أى ماقصصناه عليك فى الآية (١٤٦) من سورة الأنعام صفحة ١٨٨. ﴿للذين عملوا السوء﴾: يصح أن يقدر إن ربك يقدم فضله للذين.. إلخ. ﴿بجهالة﴾: أى مع جهلهم لعاقبته لغلبة الشهوة عليهم حتى حملتهم على ارتكاب أفظع المعاصى، انظر الآية (١٧) من سورة النساء صفحة ١٠١، وتقييد المغفرة لمَنْ تاب بكون ذنبه كان عن جهل ملاحظ فيه أن ذلك هو الغالب، وإلا فالتوبة النصوح تمحو الذنب سواء أكان عن جهالة أو عن غيرها. ﴿أمة﴾: أى جماعة كثيرة، والمراد أنه جمع من الفضائل ما لو تفرق لكفى أمة بأجمعها. ﴿قانتا لله﴾: أى مطيعا لله قائما بأمره. ﴿حنيفا﴾: أى مائلا عن الباطل إلى الحق. ﴿ولم يك من المشركين﴾: أى لا كما يزعم

(١) حلال. (٢) متاع. (٣) ظلمناهم. (٤) بجهالة. (٥) اجتباه. (٦) وهداه.

كفار قريش أنهم حنفاء على ملة إبراهيم لأن الحنيفية تنافى الشرك الذى هم عليه، انظر الآية (٦٧) من سورة آل عمران صفحة ٧٣. ﴿اجتباه﴾: اصطفاه واختاره لرسالته وخلته، والجملة حال على تقدير ﴿قد﴾ أى حال كونه قد اجتباه.

المعنى: - اشكروا نعم الله إن كنتم لاتطيعون غيره ولا تقصدون إلا التقرب إليه. ومن نعمه عليكم أنه رفع عنكم كثيرا مما كان محرما فى التوراة، ولم يحرم إلا الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح لغير الله، ولايجوز شىء من ذلك إلا للمضطر غير الباغى على إمامه، وغير متجاوز حد الضرورة فإن الله لايؤاخذه بذلك لأنه سبحانه غفور رحيم، وقد تقدم شرح الآية فى سورة البقرة الآية (١٧٣) صفحة ٣٣. وإذا كان الله لم يحرم من الطعام إلا ماذكر فلا تجرءوا وتحللوا وتحرموا لمجرد وصف ألسنتكم لكذب، لأن عاقبة أمركم تكون هى افتراؤكم على الله الكذب، حيث نسبتم إليه أنه حلل كذا مع أنه حرام، أو حرم كذا مع أنه حلال، زاعمين أنكم بهذا تنالون حظوظا وخيرا كثيرا، مع أن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون أبدا؛ لأن الذى يكذبون لأجله متاع قليل زائل ينقطع عن قرب، وفى الآخرة لهم عذاب شديد الألم.

ولما فرغ من تجهيل المشركين أراد أن يبين ماحرمه على اليهود خاصة فى التوراة عقابا لهم ولكنه أحله لهم إذا أسلموا فقال: وعلى الذين هادوا دون غيرهم من الأولين والآخرين حرمنا ماقصصناه عليك من قبل فى سورة الأنعام، وماظلمناهم بالتحريم ولكن كانوا هم الذين ظلموا أنفسهم بتسببهم فيه كما هو مبين فى الآيات من (١٥٥ إلى ١٦١) من سورة النساء صفحتى ١٢٩، ١٣٠. ثم فتح سبحانه باب التوبة فقال: ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة وطيش ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا أعمالهم لتمحو سيئاتهم فيغفر الله ذنوبهم؛ لأنه سبحانه بعد هذه التوبة لغفور لهذا السوء، رحيم يمحو السيئات بالحسنات، انظر الآية (١١٤) من سورة هود صفحة ٣٠١. ثم أراد سبحانه أن يسفه كلام مشركى العرب واليهود فى زعمهم أنهم على ملة إبراهيم فقال: إن إبراهيم الذى تتمسحون به كان جامعا لكل الفضائل منزها عما أنتم عليه لأنه كان مطيعا لأوامر ربه، قائما على حدوده، بعيدا عن كل باطل، ولم يك مثلكم مشركا بربه، بل كان كثير الشكر لنعم ربه، ولكل هذا اصطفاه لرسالته ومخالته، ووفقه لسلوك طريق الحق الموصل للنعيم الدائم.

صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

المفردات: - ﴿فى الدنيا حسنة﴾: هى محبة جميع أهل الأديان له، وكثرة الأنبياء من أولاده، وذكره الحسن على كل لسان إلى قيام الساعة استجابة لدعوته حين قال ﴿واجعل لى لسان صدق فى الآخرين﴾ الآية (٨٤) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٥. ﴿جُعِلَ السبت﴾: تقدم بيان ذلك فى صفحة ٢١٩ والمراد فرض تعظيمه وترك العمل فيه للتفرغ للعبادة. ﴿بالحكمة﴾: الحكمة هى وضع الشىء فى محله، والمراد هنا الطريقة اللائقة بحال المدعو فإذا كان ممَّن يظن أنه يريد بيان الحق فقدم له الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة، وأكثر مايكون ذلك فى مخاطبة الخواص، انظر شيئًا من ذلك فى محاورة إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه فى الآيات من (٤٢ إلى ٤٨) من سورة مريم صفحتى ٤٠٠، ٤٠١، وإذا كان مكابرًا معاندًا ويخشى من تركه على حاله فى محاربة الدعوة أن يؤثر على غيره فلا بأس بكشف جهله وبيان سوء مستقبله ومقابلته بشىء من الشدة الممزوجة بالتحذير، انظر شيئًا من ذلك فى الآية (١٧٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢، والآية (٥٥) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٥، والآية ٧٣ من سورة التوبة صفحتى ٢٥٣، ٢٥٤، والآية (٤٦) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٧. ﴿الموعظة الحسنة﴾: الموعظة هى الكلام المرقق للقلوب، المرهف للشعور، الذى تخلط فيه الرغبة بالرهبة، والإنذار بالبشارة. ﴿جادلهم﴾: الجدل الحوار والمناظرة بالدليل، وحسنه أن يكون برفق من غير فظاظة. ﴿ضَيْق﴾: بالفتح لغة فى الضيق بالكسر.

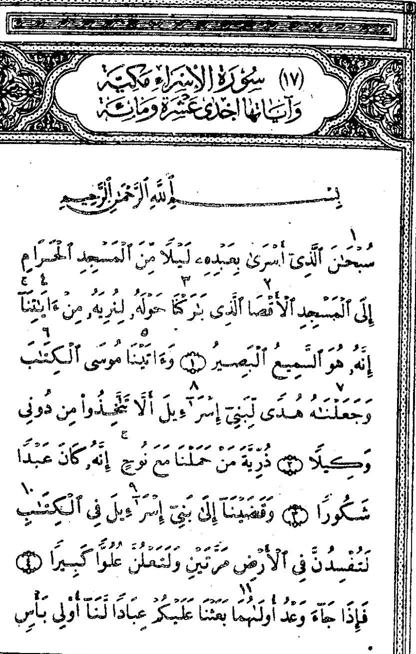
المعنى: - وآتينا إبراهيم فى الدنيا ذكرا حسنا، وسيكون فى الآخرة من زمرة الصالحين فى الدرجات العلا. ثم أوحينا إليك ﴿ثم﴾ هنا للدلالة على الانتقال من رتبة خليل الله إبراهيم إلى رتبة أعلى. قال الزمخشرى جاء بـ ﴿ثم﴾ إيذانًا بأن أشرف ما أوتى خليل الله إبراهيم من الكرامة اتباع خاتم الرسل ﷺ ملته. والمعنى ثم أوحينا إليك أيها الرسول وقلنا لك اتبع ملة

(١) صراط. (٢) واتيناه. (٣) الصالحين. (٤) إبراهيم. (٥) القيامة. (٦) وجادلهم. (٧) للصابرين.

إبراهيم العظيم المنزلة عند ربه حال كونه حنيفا مسلما، ولم يكن من المشركين أبدا كما يزعم قومك، ولشدة تبجحهم بحب إبراهيم كرر بعده عن الشرك ليتنبهوا فيرجعوا إلى الصواب. ولما كان يوم السبت معظما عند اليهود ظنوا أن فى تعظيم الإسلام للجمعة مخالفة لملة إبراهيم فدفع ذلك سبحانه بقوله: ﴿إنما جُعل السبت﴾ أى تعظيم يوم السبت وتحريم الصيد والعمل فيه على اليهود فقط، ومع ذلك اختلفوا فى احترامه؛ فمنهم مَنْ حافظ، ومنهم مَنْ تعدى كما هو مبين فى صفحة ٢١٩. وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما اختلفوا فيه فيجازى كلا بما يستحق. ولما أمره باتباع إبراهيم بيَّن له طريق إبراهيم فى دعوة قومه لتتحق المتابعة فى كل شىء، فقال: ادع أيها النبى قومك إلى طريق الصواب الموصل لرضا ربك، فادع خواص قومك بالقول الحكيم المشتمل على الدليل الواضح، وعوامهم بالمواعظ التى تهز مشاعرهم، وتستولى على قلوبهم فتربطهم بخالقهم، وجادل مَنْ يجادلك بالطريقة التى هى أحسن من غيرها، أى برفق وبُعد عن الخشونة وطول تحمل وعدم إساءة مهما بدر منهم؛ ذكر الغزالى فى كتاب تهافت الفلاسفة (تخريج الأستاذ سليمان دنيا - طبعة الحلبى سنة ١٩٤٧ صفحة ١٧) قال: الناس ثلاثة أصناف. ١ - عوام، وهم أهل السلامة البله، ٢ - خواص، وهم أهل الذكاء والبصيرة، ٣ - أهل الجدل. أما الخواص فادعوهم بالحكمة وأما العوام وهم الذين ليس لهم فطنة لفهم الحقائق فادعوهم إلى الله بالموعظة، ويناسب ذلك نَهْىُ مالك رضى الله عنه وعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه. أن يحدث الناس بما لا يفهمون من صفات الله تعالى.

وأما أهل الشغب والجدل فادعوهم بالمجادلة، وقد جمع سبحانه ذلك فى قوله ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾. ثم بيَّن أن الهداية بعد ذلك لله وحده، وإنما على الرسول البلاغ، فقال: إنه وحده هو الذى يعلم بمَنْ رسخ فى الضلال ومَنْ سلم طبعه فينتفع بدعوتك. ولما كانت الدعوة تستلزم غالبا محاربة أعدائها لها وتعديهم على القائمين بها، نبه المسلمين إلى ماهو الأحسن فى معاملة مَنْ يتعدى عليهم فقال: وإن عاقبتم أى أردتم عقاب المتعدى فلا تتجاوزوا المثل، ولئن صبرتم ولم تقابلوا بالمثل فصبركم والله خير لكم فى الدنيا والآخرة. واصبر أنت أيها النبى، عبارة الألوسى: إنه تعالى أمر نبيه صريحًا، بما ندب إليه غيره تعريضًا، بالصبر لأنه ﷺ أولى الناس بعزائم الأمور أى وليكون قدوة صالحة، انظر الآية (٣٥) من سورة الأحقاف صفحتى ٦٧١، ٦٧٢. واستشعر أنه لا صبر لك إلا بتوفيق الله عز وجل ومعونته فيسهل عليك مشقة الصبر. ويؤخذ من الكلام شدة الترغيب فى الصبر حيث عبر عن المجازاة بالعقاب المقيد (بإن) الدالة على استبعاد حصول الشرط المذكور بعدها، ثم حبب فيه بقوله: ولئن صبرتم لهو خير، ثم صرح بالأمر به فقال: ﴿واصبر﴾ إلخ، ولاتحزن أيها النبى على عدم إيمان قومك، ولا يضيق صدرك، لأن الله مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد، والذين هم محسنون لأعمالهم، أى يبتعدون عن المعاصى، وعملوا الصالحات. والله الموفق..

سورة الإسراء



(١٧) سورة الإسراء مكية وآياتها إحدى عشرة ومائة

بسم الله الرحمن الرحيم

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: . ﴿سبحان﴾: أى تنزيها لله تعالى عما لا يليق به من نقص وعجز.

﴿أسرى﴾: أى جعله ساريًا. والإسراء السير فى الليل خاصة.

﴿بعبده﴾: محمَّد ﷺ. مَنْ يقول إن الإسراء كان منامًا كما سيأتى فى شرح آية (٦٠) من هذه السورة صفحة ٣٧٢ يقول إن العبد كما يطلق على الجسم الكثيف يطلق أيضًا على الأرواح.

ومن ذلك إطلاقه على الملائكة، وهى ليست أجسامًا كثيفة كأجسام الحيوانات وذلك فى قوله تعالى عن جبريل عليه السلام ﴿نزل به الروح الأمين﴾ الآية (١٩٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٩١، وكذلك قوله عن الملائكة ﴿عباد مكرمون﴾ الآية (٢٦) من سورة الأنبياء.

﴿ليلاً﴾: صرح به للتأكيد ولدفع توهم المجاز. ﴿المسجد الحرام﴾: كان يطلق حينئذ على ما حول الكعبة من الفراغ، وكان بقدر المطاف الآن، ثم وسعه الخلفاء والملوك بعده.

(١) سبحان	(٢) الأقصى
(٣) باركنا	(٤) آياتنا
(٥) وآتينا	(٦) الكتاب
(٧) وجعلناه	(٨، ٩) إسرائيل
(١٠) الكتاب	(١١) أولاهما

﴿المسجد الأقصى﴾: هو بيت المقدس، ولم يكن بعده مساجد فى ذلك الوقت.

﴿آياتنا﴾: المراد ما فيه العبر من عجائب خلقه تعالى، وما فيه أدلة القدرة الباهرة.

﴿الكتاب﴾: التوراة.

﴿ذرية من حملنا﴾: رأى بعض العلماء أن ذرية... إلخ منادى، والمعنى لا تتخذوا من دونى وكيلاً ذرية... إلخ؛ ورأى آخرون أنه منصوب بفعل مقدر فى الكلام يفهم من سياق الكلام.

والأصل وجعلنا التوراة هدى لبنى إسرائيل، وأريد ببنى إسرائيل ذرية مَنْ حملنا... إلخ؛

والمعنى على كل أنهم ذرية بعض مَنْ حملهم الله فى السفينة مع نوح لأنهم آمنوا به فأنجاهم من الغرق، وليسوا أصولاً لبنى إسرائيل.

وقد جاء التعبير بهذا المعنى فى الآية (٥٨) من سورة مريم صفحتى ٤٠١، ٤٠٢، والمراد من ذكر هو حملهم على توحيد الله وطاعة أوامره بتذكيرهم بنعمه سبحانه عليهم فى ضمن إنجاء أصلهم من الغرق.

﴿وقضينا إلى بنى إسرائيل﴾: أى أوحينا إليهم وحيًا مقضيا مقطوعًا به.

﴿فى الأرض﴾: أى أرض فلسطين التى حول بيت المقدس.

﴿مرتين﴾: وكان بين كل منهما خمسمائة سنة.

﴿لتعلن﴾: أى تجرون فى الأرض وتفسدون انظر الآية (١٩) من سورة الدخان صفحة ٦٥٧.

﴿عبادًا﴾: وثنيين من بابل بالعراق ويقال إنه جيش بختنصر بضم فسكون فضم ففتحتين مع تشديد الصاد.

﴿بأس﴾ المراد به هنا القوة والبطش.

المعنى: . يعلمنا الله تعالى أن نقول: سبحان الذى.. إلخ أى تنزه اللّه تنزيها كاملاً عن صفات النقص، الذى أسرى بعبده محمَّد فى جزء من الليل، من المسجد الحرام إلى بيت المقدس الذى جعلنا البركة تحوطه فى معاش أهله وبنيهم حيث كان فيهم أنبياء كثيرون،

أسرينا بعبدنا لنريه من عجائب الملكوت ما يزيده إيمانًا، ويرشده إلى أسرار الكون، إنه سبحانه هو وحده السميع لأقوال رسوله، البصير بأفعاله، فيكرمه حسب ما يعلمه فيه. واعلم أن العلماء اختلفوا قديمًا وحديثًا فى الإسراء: هل كان بالروح والجسد أم بالروح فقط، يقظة أو منامًا.

وبهذا الاختلاف خرج كونه يقظة من باب العقائد الواجبة إلى باب العلم الذى يرى فيه كل واحد ما يطمئن إليه قلبه. ومَنْ أراد تفصيل الكلام فى هذا الموضوع بما لم يسبق له مثيل فى كتاب آخر فليرجع إلى شرح حديث رقم ٤٧٤ من كتابنا صفوة صحيح البخارى.

وبعدما بيَّن سبحانه إكرامه لعبده محمَّد ﷺ؛ ذكر ما أكرم به عبده ونبيه موسى قبله بالتوراة ليخرج بها بنى إسرائيل من الظلمات إلى النور.

ثم بيَّن أن قوم موسى لم يعملوا بها بل أفسدوا فسلط عليهم البابليين فقتلوهم وشردوهم، ولما تابوا رفع عنهم هذه المحنة وأعاد لهم الدولة، وجعلهم أكثر عددًا مما كانوا.

ثم عادوا إلى عصيانه وقتلوا زكريا ويحيى، فسلط عليهم الذين أهلكوهم أول مرة، وفى هذا تذكير لأهل مكة بأن يحصل لهم ما حصل لبنى إسرائيل إذا خالفوا نبيهم فقال: وآتينا موسى الكتاب الهادى لبنى إسرائيل، وقلنا لهم فيه لا تتخذوا من دون اللّه كفيلا تكلون إليه أموركم، يا ذرية بعض مَنْ حملناهم مع نوح فى السفينة فأنجيناهم من الغرق، لأن نوحًا كان عبدًا كثير الشكر لنعم ربه.

وفى هذا تنبيه لهم إلى نعمته عليهم وأنهم من سلالة نبى يجب أن يشكروا اللّه تعالى كثيرا كما كان هو يشكر كذلك.

وأوحينا إلى بنى إسرائيل فيما أوحيناه إلى موسى وأعلمهم به إنكم ستخالفون ربكم مرتين: أولاهما التلاعب بتغيير التوراة وقتل نبيهم شعيبا عليه السلام، والثانية قتل زكريا ويحيى، ولتستكبرن عن طاعة اللّة ولتظلمن ظلمًا كبيرًا. فأنذركم سبحانه أنه إذا جاء موعد المعصية الأولى فسنبعث عليكم عبادا لنا أصحاب بطش لينزجر منكم مَنْ فيه بقية خير عن مشاركة الكثرة فى المعصية.

شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ

المفردات: ﴿فجاسوا﴾: أى دخلوا وترددوا باحثين. ﴿خلال الديار﴾: أى وسطها. ﴿الكرة﴾: أى الغلبة والقوة. ﴿نفيرًا﴾: هو مَنْ ينفر مع الرجل من قومه لدفع العدو. ﴿وإن أسأتم فلها﴾: اللام فى ﴿فلها﴾ بمعنى على، انظر الآية (٤٦) من سورة فصلت صفحة ٦٣٦. ﴿يسوءوا وجوهكم﴾: أى يجعلوا آثار الإساءة ظاهرة فيها، والمراد يلحقوا بكم الأذى والشر. ﴿المسجد﴾: هو المسجد الأقصى. ﴿يتبروا﴾: أى يهلكوا. ﴿ماعلوا﴾: أى ما غلبوا الناس وقهروهم بالاستيلاء عليه. ﴿حصيرًا﴾: يقال حصره بوزن نصره إذا ضيق عليه وأحاط به، والحصير المكان الذى فيه التضييق والحبس، فالمعنى جعلناها محبسًا وسجنا، انظر الآية (٥) من سورة التوبة صفحة ٢٤٠، والآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥.

وقال الحسن الحصير هنا معناه الفراش أى وجعلناها مهادًا لهم كما فى الآية (١٨) من سورة الرعد صفحة ٣٢٤. ﴿ويدع الإنسان﴾: أصل يدع (يدعو) حذفت الواو تخفيفًا كما حذفت فى (يمح) فى الآية (٢٤) من سورة الشورى صفحة ٦٤٢.

المعنى: - أرسلنا للانتقام منكم عبادا أولى بطش شديد، فخاضوا وسط دياركم للإفساد والتدمير، فقتلوا ونهبوا، وأحرقوا التوراة، وخربوا بيت المقدس، وكان ذلك الوعد من الله نافذًا لابد من حصوله ثم لما تبتم رددنا لكم الغلبة على أعدائكم، فغزوتم البابليين، وخلصتم أسراكم، واسترجعتم أموالكم، ورزقناكم أموالا وبنين وصرتم أكثر مما كنتم عددًا، وقلنا لكم إن أحسنتم

(١) خلال (٢) وامددناكم (٣) بأموال (٤) وجعلناكم
(٥) ليسوءوا (٦) للكافرين (٧) الصالحات (٨، ٩) الإنسان
(١٠) الليل (١١) آيتين (١٢) آية.

فأطعتم ربكم، كان إحسانكم لمصلحتكم فى الدنيا والآخرة، وإن أسأتم بالعصيان فإلى أنفسكم تسيئون، ولا تضر الإساءة غيركم، فإذا جاء وقت المرة الآخرة من مرّتى إفسادكم فى الأرض سلطنا عليكم أعداءكم ليلحقوا بكم أشد أنواع الإساءة، وليدخلوا المسجد قاهرين لكم كما دخلوه أول مرة، وليهلكوا ما استولوا عليه من أموالكم وأولادكم إهلاكا شديدًا. عسى ربكم أن يرحمكم بعد المرة الآخرة إن تبتم عن المعاصى، ثم هددهم سبحانه بقوله، وإن عدتم لمعصية ربكم عدنا عليكم بالقتل والسبى، وقد عادوا وكذبوا خاتم الرسل ﷺ وهموا بقتله وأعانوا عليه المشركين فسلط الله المؤمنين عليهم، فقتلوا منهم بنى قريظة، وطردوا بنى النضير من ديارهم، وضربت الجزية على مَنْ بقى، ثم تتابعت النكبات عليهم من سائر الأمم إلى يومنا هذا، وفى الآخرة جعل جهنم سجنًا لهم. وبعدما بين ما حل ببنى إسرائيل لما خالفوا التوراة، أراد أن ينبه أمة محمَّد إلى عدم العمل مثلهم، فبين لهم ميزة القرآن، وحذرهم من مخالفة ما فيه، فقال: إن هذا القرآن يهدى للطريق التى هى أقوم الطرق وأسلمها، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا كبيرًا، ويُنذر الذين لا يؤمنون بالآخرة بأنا أعددنا لهم فى جهنم عذابًا شديد الألم. وبعدما بيَّن سبحانه أن هذا القرآن يدعو الإنسان إلى الخير العظيم ويحذره من الشر الكبير بيَّن سبحانه أن بعض أنواع الإنسان يدعو لنفسه بالشر كما يطلب الخير، ويستعجل العذاب كما لو كان يستعجل النعيم انظر الآية (٧٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٥، وكان الإنسان عجولاً متسرعًا لا يقدر العواقب. وقال بعض العلماء المراد بالإنسان مطلق الإنسان لا الكافر بخاصة، والمعنى عليه أن القرآن يدعو الإنسان إلى ما هو خير فى الواقع. وهو فى بعض أحواله يطيش تحت تأثير الغضب مثلاً فيدعو على نفسه أو أهله بما هو شر بقوة كما لو كان يدعو بما هو خير، واستدل هؤلاء بما رواه أبو داود والبزار عن جابر بن عبدالله عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لا تدعو على أنفسكم، ولا على أولادكم، لئلا توافقوا من الله سبحانه ساعة إجابة فيستجيب لكم) أى فتندموا وقت لا ينفع الندم. وبعدما ذكر سبحانه نعمته على عباده بهداية القرآن أراد أن يذكر نعمته بهداية حسية وفيها برهان على قدرته وحكمته فقال: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ أى دليلين على القدرة والحكمة بتعاقبهما على نظام واحد مع إمكان غيره، ﴿فمحونا آية الليل﴾ المراد آية هى الليل ومعنى محوناها أى خلقناها ممحوة أى مظلمة لا ضوء فيها كما تقول سود الله الفحم وبيض الجصّ أى خلقهما كذلك. وليس المراد أنها خلقت مضيئة ثم طمست.

الَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا

المفردات: . ﴿مبصرة﴾: أى مبصرا صاحبها، والمراد مضيئة.

﴿لتبتغوا﴾: أى لتطلبوا بالسعى فى الأرض.

﴿فضلاً﴾: رزقًا من فضل الله.

﴿طائره﴾: يطلق الطائر على الحظ وعلى النصيب المترتب على العمل وعلى العمل نفسه كأنه يطير إلى صاحبه من عش الغيب، انظر الآية (١٣١) من سورة الأعراف صفحة ٢١٢، والآية (١٩) من سورة يس صفحة ٥٨٠. ﴿لاتزر وازرة وزر أخرى﴾: تقدم بيانها فى صفحة ١٩١ .

﴿أمرنا﴾: بفتح الميم المخففة أى أمرناهم بالطاعة على لسان الرسول المبعوث إلى أهلها فخالفوا. وقال بعضهم إن ﴿أمرنا﴾ بتشديد الميم المفتوحة أى كثرنا من الكثرة. والمعنى كثرنا المترفين ففسقوا.

﴿مترفيها﴾: جمع مترف وهو الغنى المنعم الذى يطغيه الغنى، انظر صفحة ٨١٤ .

﴿فحق عليها القول﴾: أى وجب عليها وقوع الوعيد بالعذاب.

﴿وكم﴾ تدل على كثرة ما بعدها.

﴿القرون﴾: جمع قرن والمراد به الأمة.

﴿العاجلة﴾: أى متاع الحياة الدنيا السابقة على الآخرة، انظر الآية (٢٠) من سورة الشورى صفحة ٦٤١.

(١) الليل	(٢) آية	(٣) فصلناه	(٤) إنسان
(٥) الزمناه	(٦) طائره	(٧) القيامة	(٨) كتابا
(٩) يلقاه.	(١٠) كتابك	(١١) فدمرناها	(١٢) يصلاها

﴿يصلاها﴾: أى يدخلها ويقاسى حرها.

المعنى: . وجلعنا الآية التى هى النهار مضيئة يبصر الموجود فيها ما حوله، فعلنا ذلك لتطلبوا فيه رزقا من ربكم بالسعى، إذ ذلك يتعسر فى الظلمة غالبًا، وتعلموا باختلاف الليل والنهار عدد السنين، ولتعلموا حساب مواعيد عقود إيجاركم وبيعكم ومواسم الأعمال دنيا ودينا، وكل شىء لكم فيه مصلحة فصلناه لكم، أى بيناه بيانا واضحًا لتقوم عليكم الحجة بعد تمام النعمة. ثم ذكرهم بما سيكون لعلهم يعتبرون فقال: وكل إنسان ألزمناه عمله لزوم القلادة للعنق لا تفارقه، ونخرج له يوم القيامة كتابًا يشتمل على كل ما عمل من خير وشر، يلقاه مفتوحًا ليسرع فى قراءته، ويقال له اقرأ بقدرة الله حتى لو لم يكن فى الدنيا قارئًا، كفى بنفسك حاسبة ومحصية عليك عملك، انظر الآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٧، ٣٨٨. مَنْ اهتدى فإنما ينفع نفسه، ومَنْ ضل فإنما إثم ضلاله على نفسه، ولا تحمل نفس مذنبة فوق ذنبها ذنب نفس أخرى، وما كنا معذبين أحدا على ترك الأعمال أو الاعتقادات التى لا سبيل إلى معرفتها إلا بالشرع حتى نبعث رسولاً يبينها للناس ويحذرهم من مخالفتها، كأحوال الجنة والنار، والملائكة، والعبادات.

أما معرفة الله فلا عذر لأحد فى الجهل بها ولو لم يبعث الله رسلا، بل كفى فى وجوبها بث الأدلة فى الكون على وجود صانع حكيم، انظر تحقيق ذلك فى الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١ . وإذا قرب وقت تعلق إرادتنا بتعجيل إهلاك أهل القرية لتسرب الفساد إليهم كثرنا المترفين فأطغاهم الغنى وأنساهم ربهم، فوجب عليها تحقق الوعيد بالهلاك فأهلكناها إهلاكًا شديدًا، وكما ذكرنا للعلماء فى تفسير ﴿أمرنا﴾ من الآية رأيان:

الأول: أن أمرنا من الأمر ضد النهى، أى أمرناهم بالطاعة ففسقوا.. إلخ ونقل هذا الرأى عن ابن عباس وسعيد بن جبير وآخرين.

والثانى: أمرنا بمعنى كثرنا.. قال بكل من الرأيين رجال من السلف والخلف. ومعنى الآية على الرأى الأول هو: وإذا أردنا أن نهلك قرية بسبب ظهور المعاصى من أهلها لا نعاجلهم بالعقوبة فى أول ظهور المعاصى منهم بل نأمر مترفيها بالرجوع عن المعاصى والإقلاع عن الاستمرار فيها ليتبعهم الباقون فإن أصروا على الفسق عنادًا ولم ينههم أحد ممَّن يعيشون

معهم أهلكناهم، لما فى ترك إهلاكهم من استشراء الفساد فى المحيط الذى يعيشون فيه بل وفيمَنْ يأتى بعدهم ﴿والله لا يحب الفساد﴾ انظر ما قيل فى شرح الآية (١٦٥) من سورة الأعراف صفحة ٢١٩ . وحاصل هذا الرأى أن الله سبحانه أخبر عباده بأنه لا يعاجل بالعقوبة أمة ظالمة إلا بعد أن يعذر لهم غاية الإعذار الذى يتجلى بعده لكل أحد اليأس من إيمانهم، عند ذلك يهلكهم. ولعلك تلمح هذا المعنى من ذكر نوح بالخصوص عقب هذه الآية مباشرة ﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح﴾. لأنه هو الذى قال ﴿قال رب إنى دعوت قومى ليلاً ونهارًا فلم يزدهم دعائى إلا فرارا... الآيات (٥) وما بعدها من سورة نوح صفحة ٧٦٨، وبعد كل هذا الإعذار قال نوح عليه السلام ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا... آيتى (٢٦، ٢٧) من سورة نوح صفحة ٧٦٩، ولعلك لاحظت أيضًا قول الله سبحانه قبلها ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾، ويتجلى هذا المعنى المراد فيما قصه علينا من تاريخ الأمم الماضية فى قوم عاد فى صفحة ٢٠٣، وقوم صالح فى صفحة ٢٠٤، وقوم لوط فى صفحة ٢٠٥، وقوم شعيب فى صفحة ٢٠٦، فكل هذه الآيات توضح أن هؤلاء الناس كانوا مجرمين قبل أن تحذرهم رسلهم من الهلاك كما يلاحظ أيضًا أن رءوس الفتنة هم الكبراء المترفون ﴿الملأ﴾ ومن هذا يتبين أن الله سبحانه وتعالى لا يهلك قرية إلا إذا ظلم أهلها أنفسهم ظلمًا واضحًا تقوم به عليهم الحجة، وقد سجل سبحانه ذلك فى كثير من آيات القرآن انظر آيات (١٣١) من سورة الأنعام صفحة ١٨٤، و(١٠٢) من سورة هود صفحة ٢٩٩، و(١١٧) من سورة هود صفحة ٣٠١، و ٥٩ من سورة الكهف صفحة ٣٨٩، و٤٨ من سورة الحج صفحة ٤٤٠ . ويؤيدكل هذا ما جاء فى القرآن صريحا من أنه لا حاجة لله تعالى فى تعذيب خلقه متى كانوا صالحين فقال سبحانه ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرًا عليمًا﴾ الآية (١٤٧) من سورة النساء صفحة ١٢٨ .

والرأى الثانى: أن أمرنا بمعنى كثرنا، واستدلوا بقراءة ﴿آمرنا﴾ بمد الهمزة، وهى منقولة عن على رضى الله عنه وعيسى بن عمرو وابن عباس والحسن وقتادة وعاصم وابن كثير ونافع، فكل هؤلاء قرؤها بمد الهمزة، أى بمعنى كثرنا، واستدلوا أيضًا بالقراءة الثالثة ﴿أمّرنا﴾ بتشديد الميم المفتوحة وهى منقولة أيضًا عن على والحسن والباقر وأبى عثمان النّهدى والسُّدى وزين بن على. والمعنى عند هؤلاء أننا إذا أردنا أن نهلك قرية اختار أهلها طريق

الضلال وصمموا عليه نمدهم بما يحقق اختيارهم فنكثر فيهم المترفين المنعمين من الرؤساء والكبراء والحكام بإغداق النعم والخير عليهم، وتوسيع الدنيا عليهم، فتفسدهم النعم ويتبعهم غيرهم، فيخرج الجميع عن الطاعات عنادًا واستكبارًا، عند ذلك ننزل بهم عذاب الاستئصال الذى لا يبقى منهم أحدًا حتى لا يكونوا جرثومة عدوى لإفساد مَنْ بعدهم، انظر آيتى (٣٤، ٣٥) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٧، ٥٦٨، وانظر كذلك الآية (١١٢) من سورة النحل صفحة ٣٦١ .

وهذه سنة الله فى خلقه، يُسهل لكل منهم ما يريد لنفسه من خير أو شر، قال سبحانه بعد هذه الآية ﴿مَنْ كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمَنْ نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذمومًا مدحورا﴾، ﴿ومَنْ أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا﴾، ﴿كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورًا﴾ فانظر كيف سمى سبحانه ما يمد به الكافر ليزداد كفرا عطاء، يشير سبحانه بهذا إلى أن هذه هى رغبة العبد استعطاها من الله باختياره فأجاب سبحانه طِلْبَته، ولا يدرى هذا المسكين أنه عطاء فيه هلاكه، فهو من قبيل قوله تعالى فى آيات أخرى، انظر الآية (١٧٨) من سورة آل عمران صفحة ٩٢، والآية (٤٣) وما بعدها من سورة الأنعام صفحتى ١٦٨، ١٦٩، فنرى أن الله سبحانه قد لقننا حمده على إهلاك الظالمين، لا لشىء إلا لأنه فيه إنقاذ مَنْ يأتى بعدهم من الفساد؛ وانظر كذلك آيتى (٥٥، ٥٦) من سورة المؤمنون صفحتى ٤٥٠، ٤٥١، وآيات (٧٦ - ٨١) من سورة القصص صفحات ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩، والآية (١٥) من سورة هود صفحة ٢٨٦ والآية (٢٠) من سورة الشورى صفحة ٦٤١، وآيات (٥ - ١٠) من سورة الليل صفحتى ٨١٠، ٨١١ .

ثم يقول سبحانه بعد ذلك ليوضح كثرة الأمم التى أهلكت: وكثيرا من الأمم أهلكناها من بعد نوح كعاد وثمود وغيرهم حسب هذه القاعدة. وفيه إنذار لأهل مكة. ويكفيك أيها النبى ربك خبيرًا بذنوب عباده وإن أخفوها فى الصدور، بصيرًا بها وإن حاولوا إخفاءها بالستور، فلا يخفى عليه شىء من أفعال مشركى قومك ، وسيجازيهم بما يستحقون. ومَنْ كانت العاجلة ومتاعها كل همه ولمْ يرد غيرها عجلنا لمن نريد منهم ما نشاء من متاعها فى الدنيا، ثم جعلنا له فى الآخرة جهنم يدخلها ويقاسى شدائدها.

مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ[1] أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ[2] وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١) لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا (٢٢) * وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ[3] إِحْسَانًا[4] ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ[5] فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ[6] غَفُورًا (٢٥)

المفردات: . ﴿مذمومًا﴾: ممقوتًا من الله وملائكته والناس.

﴿مدحورًا﴾: مطرودًا من رحمة الله.

﴿نمد﴾: أى نساعد ونيسر.

﴿محظورًا﴾: ممنوعًا.

﴿فتقعد﴾: فتصير. ﴿مخزولاً﴾: مغلوبًا خائبًا.

﴿وقضى﴾: أى حكم وأمر.

﴿أما يبلغن﴾: أصلها ﴿إن﴾ الشرطية وزيدت عليها ﴿ما﴾ لتأكيد ربط الجزاء بالشرط.

﴿أف﴾: كلمة تدل على التضجر.

﴿تنهرهما﴾: تزجرهما بقسوة.

﴿واخفض لهما جناح الذل﴾ إلخ؛ أى جناحك الذليل كقولهم حاتم الجود والكلام كناية عن التواضع، انظر الآية (٨٨) من سورة الحجر صفحة ٣٤٤ .

يقول فى هذا علماء البلاغة شبَّه الذل بطائر (منخفض الجناح) لأن ذلك علامة التسليم بجامع لزوم التسليم التام فى كل. أو أن الكل مظهر للتسليم التام، وقيد من الرحمة احترازا من الذل الناشىء من الإذلال والإرهاق الصادر من القوى للضعيف.

﴿للأوابين﴾: جمع أواب وهو كثير الرجوع إلي الله بالتوبة.

---

(١) وللآخرة. (٢) درجات. (٣) وبالوالدين.
(٤) إحسانا. (٥) صالحين. (٦) للأوابين.

المعنى: . أعددنا النار لمن حصر همه فى متاع الدنيا يدخلها حال كونه ممقوتًا مطرودًا، ومَنْ أراد بعمله ثواب الآخرة وعمل لذلك العمل الذى شرعه الله موصلاً لها بشرط أن يكون مع ذلك مؤمنًا، لأن العمل بدون الإيمان هباء؛ انظر الآية (٢٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣؛ من يعملون العمل بهذه الشروط الثلاثة كان عملهم مقبولاً عند الله مثابا عليه. كلا: أى كل واحد من الفريقين فريق طلاب الدنيا وفريق طلاب الآخرة المعبر عنهم بـ ﴿هؤلاء وهؤلاء﴾ نيسر له من عطاء ربك أيها النبى أى من رزق وصحة وكثرة أولاد يستعين بها على ما اختار لنفسه، فهو من قبيل قوله ﷺ: (كل ميسر لما خلق له) أى ييسر الله له ما تميل إليه نفسه. وبهذا يكون الرزق نعمة لقوم نقمة لآخرين. انظر أيها السامع بعين الاعتبار تفضيلنا بعض عبادنا على بعض بأحوال مختلفة، فمنهم الفقير والغنى والصحيح والمريض إلى غير ذلك لحكمة نعلمها، انظر الآية (١٦٥) من سورة الأنعام صفحة ١٩٢ . والآية (٢٠) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢، والآية (٣٢) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠ . ووالله لتفاوتهم فى الدار الآخرة لأكبر درجات؛ لأن التفاوت فيها بالجنة والنار، وأكبر فضلا، لأن الفضل الصحيح ما كان بالدائم الباقى لا بالزائل فى أقل زمن. وبعدما أجمل سبحانه أعمال البر فى قوله ﴿وسعى له سعيها﴾ أراد أن يفصلها مبتدئًا بأشرفها فقال: لا تجعل أيها المكلف مع الله إلها آخر فتصير جامعًا على نفسك الندم والخذلان. وأمر ربك ألا تعبدوا إلا إياه، وبأن تحسنوا للوالدين إحسانًا تامًا ولو كانا كافرين، انظر الآية (١٥) من سورة لقمان صفحة ٥٤١ . وإذا وصل الوالدان عندك أو أحدهما حال الضعف والعجز كما كنت عندهما فى أول أمرك، وجب عليك أن تعاملهما معاملة الشاكر، وذلك بأنه إذا صدر منهما قول لا لا يرضيك لا تظهر لهما تأففا، أو صدر منهما عمل يفسد عليك شيئًا فلا تقس عليهما فى القول بل تصرفهما عنه بلطف، وقل لهما بدل التأفف والنهر قولاً كريمًا يشعر بالعطف والحنان والأدب. واخفض لهما جناح التذلل الناشئ من الرحمة لا من خوف العار مثلا، وادع الله أن يعاملهما برحمته كما رحماك بتربيتهما إياك فى صغرك تحقيقًا لوعده برحمة الراحمين.

وطلب الرحمة مطلوب للوالدين ولو كافرين بأن يهديهما للإيمان. ثم هدد سبحانه من يعمل ذلك نفاقًا مع إضمار كراهتهما فقال: ﴿ربكم أعلم بما فى نفوسكم﴾ من قصد البر إليهما، إن تكونوا قاصدين العمل الصالح يغفر لكم الله ما سبق منكم من تقصير، لأنه دائم المغفرة للأوابين.

وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾

المفردات: ﴿ذا القربى﴾: هو ما بينه وبين الشخص قرابة رحم.

﴿حقه﴾: من صلة رحم ومودة ونفقة إذا كان محتاجًا. ﴿ابن السبيل﴾: هو الغريب المنقطع عن بلده. ﴿تبذيرا﴾: هو إنفاق المال فى غير موضعه. ﴿إخوان الشياطين﴾: أى قرناءهم الذين يجمعهم وإياهم الشر والفساد. ﴿كفورًا﴾: كثير الكفران والجحود لنعمة ربه.

﴿وإما تعرضن﴾: أصلها ﴿إن﴾ ﴿ما﴾ كما تقدم فى ﴿إما يبلغن﴾.

﴿ابتغاء رحمة﴾: أى طلب رحمة وهو الرزق. ﴿ميسورا﴾: أى سهلاً لينا مع وعدهم بالخير يقال: يُسِر الأمر بضم فكسر أى سهل، وفى اللسان قيل إنه مصدر كمجلود بمعنى جلد.

﴿مغلولة إلى عنقك﴾: أى مقيدة بالغُل بضم الغين وهو القيد الذى يوضع فى اليدين والعنق، والمراد لا تكن بخيلاً.﴿تبسطها﴾: بسطها كناية عن التوسع فى الإنفاق إلى حد الإسراف.

﴿فتقعد﴾: فتصير. ﴿محسورًا﴾: أى نادمًا مغمومًا. ﴿يقدر﴾: أى يقتر ويضيق. ﴿إملاق﴾: أى فقر ﴿خطئا﴾: هو الخطأ التام وهو أن يفعل الرجل الجريمة عمدًا أما الخطأ بفتح الخاء

(١) وآت.
(٢) إخوان.
(٣) الشياطين
(٤) الشيطان
(٥) اولادكم
(٦) إملاق
(٧) فاحشة
(٨) سلطانا.

والطاء فهو أن يريد شيئًا فيقع خلافه كما فى قوله تعالى ﴿ومَنْ قتل مؤمنًا خطأً فتحرير رقبة مؤمنة﴾ الآية (٩٢) من سورة النساء صفحة ١١٧.

﴿فاحشة﴾: أى فعلة ظاهرة القبح. ﴿ساء سبيلاً﴾. أى قبح طريقًا موصلاً للشر.

﴿سلطانًا﴾: أى تسلطًا واستيلاء على القاتل.

المعنى: - أعط أيها المؤمن أقرباءك حقهم عليك، خصوصًا نفقتهم إذا كانوا فقراء، وأعط المسكين وابن السبيل حقهم من الزكاة أو الصدقة، ولا تبعثر مالك فى غير المصلحة، لأنه لا يفعل ذلك إلا من استولى عليهم الشياطين فسخروهم للفساد، ودأب الشيطان أنه دائمًا يكفر بنعمة ربه، فلا يشكره عليها، فصاحبه مثله. وإن أرغمتك الظروف للإعراض عن إعطائهم لعدم وجود رزق حال كونك ترجو أن يفتح الله عليك به فقل لهم قولاً حسنًا يبين عذرك ويؤملهم فيك.

وكن دائما فى جميع تصرفاتك المالية وسطا بين الإسراف والبخل، لأنك إن لم تفعل تصر ملوما عند الله والناس إن بخلت، محسورا على ضياع مالك ان أسرفت. ولمناسبة الأمر ببر المحتاجين أراد سبحانه أن يبين أنه جعل الناس متعاونين فى الفقر والغنى لحكمة تقدم بعضها فى الصفحة السابقة فقال:إن ربك أيها النبى يبسط أى يوسع الرزق لمَنْ يشاء من عباده ويضيقه على مَنْ يشاء لحكمة، لأنه خبير بطبائعهم بصير بحوائجهم، فيعطى كلا ما يتفق مع الحكمة. وإذا كان الأمر كذلك فلا يجوز أن تقتلوا أولادكم خوف فقر يقع، لأنا نحن ضامنون رزقهم كما ضمنا رزقكم وبذلك يكون قتلهم إثما عظيما. ولما كان قتل الأولاد يفضى إلى قطع التناسل أتبعه بما يماثله فقال: ﴿ولا تقربوا الزنا﴾ أى لا تفعلوا مايقرب منه كاللمس والقبلة: فهو نهى عن مقدماته، ولذا لم يقل ولاتزنوا لأن الزنا ثبت أنه معصية فاضحة القبح، وأنه بئس الطريق الموصل إلى النار ولا تقتلوا النفس التى حرم الله قتلها إلا قتلاً مقترنًا بالحق ولا يكون ذلك إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، وزنا بعد إحصان، وقتل عمد. ومَنْ قتل مظلومًا فقد جعلنا لولى أمره سلطانا على القاتل بمؤاخذته بأحد أمرين: إما القصاص، وإما الدية، فلا يسرف فى القتل بأن يقتل بدل الواحد اثنين، لأنه بعدما نصره الله وأوجب على الحاكم القصاص له لا يصح له أن يتجاوز الحد.

وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ[1] رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ[2] إِنَـٰثًا[3] ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ[4] لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ

المفردات: . ﴿ولاتقربوا مال اليتيم﴾: مبالغة فى النهى عن أكله. ﴿التى هى أحسن﴾: أى الطريقة الأحسن. ﴿أشده﴾: المراد به هنا تمام عقله وحسن تصرفه. ﴿بالعهد﴾: الذى ربطتم أنفسكم به مع الله بالعمل بكتابه، أو مع الناس فى الخير. ﴿مسئولاً﴾: عنه هل وفيت به أم لا. ﴿القسطاس﴾: الميزان. ﴿المستقيم﴾: المعتدل. ﴿تأويلاً﴾: هو ما يؤول الشىء إليه ويكون عاقبته. ﴿لا تقف﴾: أى لا تتبع. ﴿الفؤاد﴾: القلب. ﴿مسئولا﴾: عنه يوم القيامة.

﴿مرحًا﴾: المرح هو الاختيال والتفاخر والمراد به مختالاً متفاخرًا.

﴿كل ذلك﴾: المتقدم من الخصال الأربع والعشرين المبتدئة بقوله:

﴿لا تجعل مع الله﴾ وهى مشتملة على مأمورات ومحظورات.

﴿سيئه﴾: هو المنهى عنه منها.

﴿الحكمة﴾: هى معرفة الحق لذاته والخير للعمل به.

﴿مدحورًا﴾: مطرودًا عن رحمة الله.

﴿أفأصفاكم﴾: أى خصكم والهمزة للإنكار عليهم والأصل هل فضلكم سبحانه على نفسه فخصكم... إلخ.

﴿صرفنا فى هذا القرآن﴾: أصل التصريف كثرة صرف الشىء من حال إلى حال، ومفعوله مقدر مفهوم من المقام وهو ما نسبوه لله سبحانه بالباطل وما رد به عليهم.

(١) أفأصفاكم (٢) الملائكة (٣) إناثًا (٤) القرآن

المعنى: . ولا تتصرفوا فى مال اليتيم إلا على الوجه الأحسن له وهو حفظه وتنميته، واستمروا على ذلك حتى يبلغ رشده فسلموه له، وحافظوا على كل عهد لأن صاحب العهد سيسأل يوم القيامة عما عمل فيه. وأوفوا الكيل إذا كلتم للمشترى، وزنوا له بالميزان المعتدل. ذلك المأمور به خير لكم فى الدنيا لحصول البركة فى أموالكم، وأحسن فى الآخرة لحصول الثواب العظيم.

ولا تدخل أيها المؤمن فى شىء ليس لك به علم، فلا تقل سمعت وأنت لم تسمع، أو رأيت وأنت لم تر، أو علمت وأنت لم تعلم؛ لأنك ستسأل يوم القيامة هل سمعت حقًا أو نظرت صحيحًا أو علمت حقًا وتجازى على ذلك.

ولا تمش أيها المؤمن فى الأرض حال كونك مختالاً على الناس، لأنك مهما فعلت فلن تخرق الأرض بشدة وطأتك، ولن تبلغ مهما تطاولت أن تحاذى الجبال، أى فابتعد عن هذه الحماقة، وامش على الأرض هونا، وقل لمَنْ يسئ إليك سلامًا كما فى الآية (٦٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٧؛ كل ما تقدم كان القبيح منه مكروهًا ومبغوضًا عند الله، وكل مبغوض يعاقب صاحبه. ذلك المتقدم من الوصايا المبتدئة بقوله ﴿لا تجعل مع الله﴾ إلى قوله ﴿مكروهًا﴾ شىء عظيم، لأنه من الحكمة التى أوحاها ربك إليك.

ولما كان توحيد الله هو مبدأ الأمر ومنتهاه، إذ بدونه يبطل كل عمل، فهو رأس الحكمة، ختم الوصايا به كما بدأها به. وأيضًا رتب عليه أولاً نتيجته فى الدنيا ﴿فتقعد ملومًا﴾ إلخ؛ ورتب عليه آخرا نتيجته فى الآخرة وهى الرمى مع الاحتقار فى جهنم.

ثم أنكر سبحانه على مَنْ قالوا الملائكة بنات الله فقال: ﴿أفأصفاكم﴾ إلخ: أى هل فضلكم ربكم فخصكم بأفضل الأولاد وهم البنون واتخذ هو لنفسه من الملائكة بنات؟ إنكم فى قولكم هذا تقولون بهتانًا عظيمًا. ولقد قررنا هذا المعنى فى مواضع من القرآن بوجوه شتى لعلهم يتذكرون ويتعظون، ولكن لتحجر قلوبهم لايزيدهم هذا التصريف إلا نفورًا من الحق، انظر الآية (١٠٠) من سورة الأنعام صفحة ١٧٩ والآيات (٥٧ ـ ٥٩) من سورة النحل صفحتى ٣٥٢، ٣٥٣، والآيات (١٥ ـ ١٩) من سورة الزخرف صفحتى ٦٤٨، ٦٤٩، والآيتين (٢١، ٢٧) من سورة النجم صفحتى ٧٠١، ٧٠٢.

إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِى الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ[1] وَتَعَٰلَىٰ[2] عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَٰتُ[3] السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ[4] جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ[5] وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْءَانِ[6] وَحْدَهُۥ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ[7] نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ الظَّٰلِمُونَ[8] إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ

المفردات: . ﴿ابتغوا﴾: طلبوا. ﴿ذى العرش﴾: صاحب الملك الصحيح وهو الله سبحانه. ﴿سبيلا﴾: طريقًا للمغالبة كما هى العادة بين الملوك كما فى الآية (٢٢) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٢، والآية (٩١) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٤، أو طريقًا للقرب إليه، ويساعده الآية (٥٧) الآتية فى هذه السورة صفحة ٣٧٢ ﴿تسبح له السموات السبع﴾ إلخ: المراد تدل بحدوثها وإتقانها على وجوب وجود صانع قادر حكيم.

﴿وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾: ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ﴿ما﴾ و﴿من﴾ حرف يفيد النص على عموم ما بعده، أى وما من شىء من الأشياء حيوانا كان أو نباتا أو جمادًا إلا يسبح مثلنا بحمده، والمراد بالتسبيح الدلالة بلسان الحال، أى تدل بحدوثها وتغيرها دلالة واضحة على وجود صانع حكيم، ووحدته وقدرته وتنزهه عن كل نقص كما يدل الأثر على مؤثره وهذا أسلوب عربى فصيح يقول العربى نطقت حال فلان بكذا يريد تدل دلالة واضحة على معنى معين ومن هذا الأسلوب ما جاء فى القرآن فى قوله سبحانه عن جهنم ﴿تكاد تميز من الغيظ﴾ الآية (٨) من سورة تبارك صفحة ٧٥٥ . ﴿ولكن لا تفقهون إلخ﴾ الخطاب للمشركين والكفار لأنهم هم الذين نقل الكلام عنهم قبائحهم من نسبة ما لا يليق إليه سبحانه. ﴿حجابًا﴾: أى مانعا يمنعهم عن إدراك الحق. ﴿مستورًا﴾: عن الأعين لأنه معنوى لا حسى وهو الغشاوة فى الآية (٧) من سورة البقرة صفحة ٤.

﴿أكنة﴾: جمع كنان بكسر أوله وهو الغطاء. ﴿وقرا﴾: صمما. ﴿بما يستمعون به﴾: أى بالحال الذى يستمعون إليك وهم متلبسون به من الاستهزاء بك وبالقرآن. ﴿إذ هم نجوى﴾: إذ

(١) سبحانه (٢) وتعالى (٣) السموات (٤) القرآن
(٥) آذانهم (٦) القرآن (٧) أدبارهم (٨) الظالمون

ظرف زمان بدل مما قبلها، ونجوى جمع نجى أى متناج كقتيل وقتلى، والمراد فى وقت تخاطبهم سرا، انظر الآية (١١٤) من سورة النساء صفحة ١٢٢ . ﴿مسحورًا﴾: أى سحره غيره فأصيب بالجنون. ﴿ضربوا لك الأمثال﴾: أى جعلوا لك أمثالاً كثيرة مختلفة من شدة عنادهم؛ فتارة قالوا ساحرًا، وأخرى مسحورًا، وغيرها شاعر وكاهن، إلى غير ذلك.

المعنى: . قل أيها النبى فى إظهار بطلان زعمهم من جهة أخرى: لو كان مع الله سبحانه فى الوجود آلهة كما يقول المشركون إذا كان هذا لطلب هؤلاء الآلهة طريقا يصلون منه إلى صاحب الملك المطلق لينازعوه عليه، أو المعنى لطلبوا طريقا يقربهم إليه لعامهم بعلو منزلته وعظمته وعجزهم، أى ومَنْ كان كذلك لا يصح أن يكون إلها. سبحانه أى ننزهه سبحانه تنزيهًا لائقًا به، وتباعد سبحانه عما يزعمون من أن معه آلهة تباعدا بعيد المدى. ثم أراد سبحانه أن يبين أدلة جهلهم وعمى بصائرهم فقال: ﴿تسبح له﴾: إلخ: أى أن أجرام السموات والأرض ومَنْ فيهما من العقلاء من الملائكة والإنس والجن، بل كل ما فى الكون حتى الحيوانات والنباتات والجمادات تنادى بلسان حالها بإتقان صنعها على تنزيه سبحانه واستحقاقه لكل ثناء جميل، ولكن الكافرون لا يفقهون هذه الدلالة لاستيلاء الغفلة والغرور عليهم، انظر الآية (١٢٧) من سورة التوبة صفحة ٢٦٤، والآية (١٠٥) من سورة يوسف صفحة ٣١٩ . وكان جحودهم هذا يقتضى هلاكهم، ولكنه سبحانه حليم لا يعجل بالعقوبة ليفسح مجال المغفرة لمَنْ يتوب منهم. ثم بيَّن سبحانه بعض أسباب ضلالهم فقال: وإذا قرأت أيها النبى القرآن الناطق بالبراهين الدالة على الحق جعلنا بمقتضى حكمتنا فى الإضلال والهداية المبينة فى الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨ بينك وبين المشركين الذين ينكرون البعث - والكفر به سبب كل الشرور - حجابا يمنعهم عن الحق بوضع الغشاوة على عيونهم، وأغطية على قلوبهم كراهة أن يفقهوه على حقيقته، وفى آذانهم صمما فلا يسمعونه سماع انتفاع، وكل هذا تمثيل لشدة جحودهم وقسوة قلوبهم. ومن أدلة ذلك أنك إذا ذكرت أيها النبى ربك غير مقترن بذكر آلهتهم ولوا عن مجلسك نافرين، وسبب ذلك نحن نعلمه؛ لأنا نعلم أنهم حين يستمعون يكونون هازئين ساخرين بك وبكتابك، وفى الحين نفسه هم متناجون فيما بينهم سرا يقول بعضهم البعض: ما تتبعون إن اتبعتم إلا رجلاً مجنونًا. انظر أيها النبى وتعجب كيف نوعوا لك التهم فضلوا فى جميع ذلك عن الحق فلا يستطيعون طريقًا إلى طعن يمكن قبوله.

سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ

المفردات: . ﴿رفاتا﴾: كالفتات وزنا ومعنى وهو ما تكسر من كل شيء.

﴿يكبر فى صدوركم﴾: أى تستبعد عقولكم قبوله للحياة.

﴿فطركم﴾: خلقكم أول مرة. ﴿ينغضون﴾: أى يحركونها إلى جهتك تعجبا واستهزاء.

﴿فتستجيبون بحمده﴾: أى تجيبون الداعى قائمين بحمده سبحانه، والكلام كناية عن سرعة وسهولة الانبعاث، فكأنه يقول منقادين انقياد الحامدين. ﴿إن لبثتم﴾: ما مكثتم.

﴿التى هى أحسن﴾: العبارة التى هى أحسن من غيرها، انظر الآية (٤٦) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٧ والآية (٣٤) من سورة فصلت صفحة ٦٣٤ . ﴿ينزغ بينهم﴾: أى يفسد بتهييج الشر بين المؤمنين وغيرهم ليفنى بعضهم بعضا. ﴿وكيلا﴾: أى مفوضا عن ربك لتجبرهم على الإيمان. ﴿زبورا﴾: هو الكتاب الذى أنزل على نبى الله داود.

المعنى: . بعدما عجب النبى ﷺ من ضربهم له الأمثال. ذكر أمرا آخر يعجب منه أيضًا وهو إنكارهم البعث فقال: وقالوا أيضا هل يمكن إذا صرنا عظامًا نخرة وقطعا متفرقة أن نرجع ونبعث مخلوقين خلقا جديدًا فيه حياة؟ قل أيها الرسول فى الرد عليهم قاطعا عليهم طمعهم فى عدم البعث: كونوا حجارة أو أشد منها كالحديد، أو أشد منه مما تستبعد عقولكم قبوله للحياة كالسموات والكواكب، فإن الله تعالى لابد معيدكم للحساب والجزاء، فسيقولون لك مستبعدين: مَنْ يعيدنا؟ فقل لهم: يعيدكم القادر العظيم الذى أوجدكم أول مرة من العدم، وسيقابلون جوابك القاطع بهز الرءوس استهزاء كعادة السفهاء، وسيقولون إنكارًا لما تقول:

(١) أئذا (٢) عظاما (٣) ورفاتا (٤) أئنا (٥) الشيطان
(٦) للإنسان (٧) ارسلناك (٨) السموات (٩) النبيين. (١٠) وآتينا

متى هذا الذى تعدنا به من البعث؟ قل لهم أرجو أن يكون قريبًا جدًا؛ لأنه محقق، وكل محقق الوقوع قريب مهما طال زمنه، وسيكون يوم يدعوكم من القبور، انظر آيتى (٦، ٧) من سورة القمر صفحة ٥٠٧، فتسرعون للإجابة خاضعين لعظمته، والحال أنكم من شدة الهول تظنون أنكم ما لبثتم فى القبور إلا زمنًا قليلاً، انظر الآية (١١٣) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٦، والآية (٤٦) من سورة النازعات صفحة ٧٩١ .

وبعدما أقام سبحانه عليهم الحجة أراد أن يسد على الشيطان منافذ الفتنة فأمر بملاينة الكفار فى المجادلة، لأن الكلمة الطيبة قد تجذب من النفوس ما فيه بقية من خير فقال لنبيه: وقل لعبادى المؤمنين أن يقولوا عند محاورتهم للمشركين العبارات التى هى أحسن؛ لأن الشيطان يريد الإفساد بين المؤمنين والمشركين ليقتل بعضهم بعضا، وإنما كان هذا طبعه لأنه طول حياته عدو ظاهر العداوة للإنسان. ثم بيَّن بعض الجمل التى هى أحسن فقال قولوا لهم مثلا: ربكم أيها المشركون أعلم بكم، إن يشأ يرحمكم بالتوفيق للإيمان، وإن يشأ يعذبكم بعذابه، وعلقوا أمرهم على مشيئة الله، ولا تصرحوا لهم بأنهم من أهل النار، فإن ذلك فضلا عما فيه من تهييج الشر، فيه تدخل فى قضاء الله فى المستقبل؛ انظر الآية (٢٤) من سورة سبأ صفحة ٥٦٦، ولذا قال سبحانه لنبيه: وما أرسلناك أيها النبى مفوضًا عنا فى جبرهم على الإيمان، وإنما أرسلناك بشيرًا ونذيرا فقط، وربك وحده هو العليم. ولما كان من ضمن ما طعن به المشركون فيه ﷺ أنه رجل مسحور وغيره مما تقدم فى الآية (٤٧) من هذه السورة قال فى الرد عليهم بالحسنى: وربك أعلم بكل مَنْ فى السموات والأرض فيختار منهم لنبوته مَنْ يشاء حسب حكمته، وهؤلاء الأنبياء ليسوا سواء فى الفضل عنده تعالى، بل بعضهم أفضل من بعض: فإبراهيم باتخاذه خليلاً، وموسى كليما، ومحمَّد بالقرآن الذى أعجز البشر وكونه خاتم الرسل وغيره مما تقدم بعضه صفحة ٥٢، وفضلنا داود بالزبور أى لا بالملك العظيم، وكان فى هذا الزبور أن الأرض ترثها أمة محمَّد، انظر الآية (١٠٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١، وفيه إشارة إلى أن مرجع الفضل هو الكتاب، ولا أفضل من القرآن، ففيه فضل جميع الكتب.

ثم رجع إلى إبطال عقائد المشركين بأسلوب آخر فقال للذين كانوا يعبدون الجن والمسيح وعزيرا والملائكة وغيرهم من العقلاء: ﴿ادعوا الذين﴾ إلخ....

زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ

المفردات: . ﴿زعمتم﴾: أى توهمتم أنهم آلهة من الملائكة والجن وعيسى والعزير من كل ما يعقل. أما الأصنام فقد أبطلها فى آيات أخرى منها آيتى (١٩٧، ١٩٨) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٥، وآيات (٥٢ ـ ٦٧) من سورة الأنبياء صفحتى ٤٢٦، ٤٢٧، وآيات (٩١ ـ ٩٦) من سورة الصافات صفحة ٥٩٢ .

﴿الوسيلة﴾: أى ما يقربهم إليه تعالى من الطاعات.

﴿أيهم أقرب﴾: ﴿أى﴾ من ﴿أيهم﴾ اسم موصول بمعنى الذى بدل من ضمير ﴿يبتغون﴾ بدل بعض من كل.

﴿محذورا﴾: أى يحذره ويحترس منه كل عاقل. ﴿الكتاب﴾: اللوح المحفوظ.

﴿وإن من قرية﴾: ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ﴿ما﴾ و﴿من﴾ للنص على العموم فى قرية. وقرية المراد بها التى ظلم أهلها بالكفر والمعاصى، انظر الآية (١٢٣) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣، الآية (١٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦، والآية (١١) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١، والآية (٤٥) من سورة الحج صفحة ٤٤٠، والآية (٨) من سورة الطلاق صفحة ٧٥٠ . ﴿بالآيات﴾: هى المعجزات التى طلبتها قريش فى الآية (٩٠) الآتية وما بعدها من هذه السورة صفحتى ٣٧٦، ٣٧٧ .

﴿مبصرة﴾: تجعل مَنْ يتأملها ذا بصيرة .

﴿فظلموا بها﴾: أى ظلموا أنفسهم بسبب كفرهم بها.

---

(١) القيامة. (٢) الكتاب. (٣) بالآيات (٤) وآتينا (٥) الرؤيا.
(٦) أريناك (٧) القرآن (٨) طغيانا (٩) للملائكة (١٠) لآدم

﴿أحاط بالناس﴾: علما وقدرة.

﴿الرؤيا التى أريناك﴾: ليلة الإسراء وما شاهدت فيها من العجائب، جاء فى كتب اللغة أن إدراك الشىء بالعين يقال فيه رأى محمَّد عليًا أى أبصره بعينيه، وإن كان الإدراك بالعقل وهو المسمى علمًا، أو معرفة يقال فيه أيضًا رأى محمد عليًا عالمًا، رؤية أيضًا، أى علم أنه عالم، وإن كان الإدراك فى المنام وهو المعبر عنه بالحُلم يقال فيه رأى محمّد فى منامه كذا رؤيا. وقد جاء الثلاثة فى القرآن فمن البصرية ما فى الآيات (٢٧) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٥، ١٩٦، و(٢) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٠، ٣٢١، و٢ من سورة الحج صفحة ٤٣٣، و (١٩) من سورة الملك صفحة ٧٥٦ ومن العلمية ما فى الآية (٣٠) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٣، والآية (١) من سورة الفيل صفحة ٨٢٢؛ ومن المنامية ما هنا وما فى آيات (٤، ٥، ٤٣ ، ١٠٠) من سورة يوسف صفحات ٣٠٣، ٣٠٩، ٣١٨والآية (٢٧) من سورة الفتح صفحة ٦٨٣ . ومنها قوله ﷺ فى الحديث الصحيح: ﴿لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة﴾.

﴿فتنة للناس﴾: أى اختبارًا وامتحانًا ليتميز الطيب من الخبيث.

﴿الشجرة﴾: هى شجرة الزقوم فى الآية (٦٢) من سورة الصافات صفحة ٥٩٠ .

﴿الملعونة﴾: أى ملعون آكلها، والمراد المذمومة.

المعنى: . قل أيها النبى للمشركين اطلبوا الذى زعمتم أنهم آلهة غير اللَّه ليكشفوا عنكم ضرا أو يجلبوا لكم نفعًا، إنهم لا يستطيعون كشف ضر عنكم ولا تحويله لأعدائكم، وذلك لأن هؤلاء الذين يناديهم المشركون لكشف الضر عنهم هم أنفسهم يطلبون من هم أقرب منهم إلى اللَّه كالملائكة ما يقربهم منه تعالى فضلا عن الأبعد، فهم مفتقرون إلى ربهم، راجون رحمته، خائفون عذابه، فلا يصح أن يكونوا آلهة معه؛ لأن الإله لابد أن يكون غنيا عن كل مَنْ عداه، وإنما خافوا عذاب اللَّه لأن كل عاقل يحذره بالابتعاد عن سببه.

ثم أراد سبحانه أن يطمئن المؤمنين بالنصر على أعدائهم فقال:

﴿وإن من قرية﴾ إلخ: أى ما من قرية من القرى التى ارتكب أهلها الظلم بالكفر والمعاصى إلا نحن مهلكوا أهلها بالإفناء قبل يوم القيامة أو معذبوها بالذل والأسر وغير ذلك؛ كان ذلك القضاء مثبتًا فى كتابنا.

ولما كان كفار قريش يتعنتون فى طلب معجزات معينة، وكانت عادة الله سبحانه أنه إذا أجاب أمة لما تطلب ولم تؤمن أهلكها عن آخرها.

ولما كان سبحانه لايريد إهلاك أمة محمَّد آخر الأنبياء لم يجب طلبهم انتظارا لما سيخرج من ظهورهم من المؤمنين فى المستقبل؛ فى كل هذا قال سبحانه: وما منعنا أن نرسل الآيات التى اقترحوها إلا أن الأولين أمثالهم كعاد وثمود كذبوا بها لما جاءتهم فأهلكناهم، فلو جئناهم بها لكذبوا واستحقوا الفناء، ونحن لا نريد ذلك.

وقد سألت ثمود من قبل قومك آية فآتيناهم الناقة حجة واضحة فكفروا بها وعقروها فأهلكناهم. وما نرسل الآيات المقترحة إلا تخويفا من نزول العذاب، فإن لم يخافوا نزل فأهلكم.

واذكر أيها النبى حين قلنا لك إن ربك محيط بالناس علما وقدرة فلا تخف من شرهم فهو حافظك. وما جعلنا ما أريناك فى الإسراء من العجائب "لا لتخبرهم فيزداد إيمان المؤمن وكفر الكافر. وما جعلنا شجرة الزقوم إلا فتنة أيضًا.

فقد ورد أن أبا جهل لما سمع أنها تنبت فى أصل الجحيم قال إن محمدًا يزعم أن جهنم وقودها الحجارة.

ويزعم بعد ذلك أن فيها شجرا أخضر. وجهل أن القدرة جعلت النار فى كل شىء حتى فى الماء كما هو مبين فى أماكنه؛ انظر الآية (٨٠) من سورة يس صفحة ٥٨٦، والآيات (٧١ - ٧٣) من سورة الواقعة صفحتى ٧١٦، ٧١٧؛ ونخوفهم بأنواع التخويف لعلهم يرجعون فما يزيدهم ذلك إلا طغيانا وتجاوزا للحد كبيرا.

ثم أراد سبحانه أن يبين لنبيه أن عدم إيمان قومه لا سبب له إلا الحسد والكبر الذى أوقع إبليس فى الشقاء فهم مثله، فذكر له قصته المتقدمة فى البقرة والأعراف والحجر، انظر ما قيل فيه فى الآية (٣٤) من سورة البقرة صفحة ٨ .

قَالَ ءَأَسْجُدُ(١) لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ(٢) هَٰذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ(٣) لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى الْأَمْوَٰلِ(٤) وَالْأَوْلَٰدِ(٥) وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَٰنُ(٦) إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ(٧) وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ(٨) إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَٰنُ(٩) كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ

المفردات: . ﴿طينًا﴾: أصله من طين.

﴿أرأيتك﴾: أى أخبرنى، فى الكلام استفهام مقدر يفهم من السياق، والأصل هل هذا الذى... إلخ.

﴿احتنكن﴾: أصله من احتنك الدابة إذا جعل فى فكها الأسفل حبلا يقودها به، والمراد أتصرف فيهم كما أريد.

﴿موفورا﴾: أى مكملاً غير منقوص منه شىء.

﴿استفزز﴾: يقال استفز الرجل غيره إذا استخفه فخدعه حتى أوقعه فيما يريده منه.

والمراد من هذا الأمر ومن الأوامر التى بعده تهديد إبليس ومن يتبعه. لأن الله لا يأمر بالفحشاء كما فى الآية (٢٨) من سورة الأعراف صفحة ١٩٦ .

﴿بصوتك﴾: بوسوستك التى توقعهم فى المعصية.

﴿أجلب عليهم﴾: من الجلبة وهى الصياح بشدة.

---

(١) أسجد.
(٢) أرأيتك.
(٣) القيامة
(٤) الأموال
(٥) الأولاد.
(٦) الشيطان
(٧) سلطان
(٨) نجاكم
(٩) الإنسان

﴿بخيلك ورجلك﴾: أى بجندك الخيالة والراجلين.

﴿غرورا﴾: هو تزيين الباطل بما يوهم أنه حق.

﴿سلطان﴾: أى تسلط وقدرة.

﴿يزجى لكم الفلك﴾: أى يسوقها حينا بعد حين ويجريها بالرياح. ﴿ضل﴾: أى غاب وذهب.

المعنى: فسجد الملائكة إلا إبليس امتنع وقال منكرًا كيف أسجد لمَنْ خلقته من طين وأنا من نار فأنا خير منه. ثم قال إبليس أخبرنى يا رب هل هذا المخلوق من الطين هو الذى كرمته علىّ؟ ولم هذا؟ وعزتك لئن أخرتنى وتركتنى حيًا إلى يوم القيامة لأتحكمن فى ذريته وأحولهم إلى الشر إلا قليلاً جدا وهم الذين قويت عزائمهم فلا يؤثر فيهم إغوائى، انظر آيتى (٣٩، ٤٠) من سورة الحجر صفحتى ٣٤٠، ٣٤١ .

قال له سبحانه: امض فى طريقك الذى اخترته لنفسك فمَنْ تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جميعًا جزاء كاملاً. وأفرغ جهدك فى جميع أنواع الإغراء أنت وأعوانك، وشاركهم فى الأموال بجعل كسبها من حرام وصرفها فى حرام، والأولاد فى تكفيرهم وجعلهم عبيد للأصنام، وعدهم بالمواعيد الباطلة كشفاعة الآلهة والاتكال على صلاح الآباء وطول الأمل، وما يعد الشيطان أتباعه إلا باطلاً. إن عبادى المخلصين فى طاعتى ليس لك على إغوائهم قدرة لتوكلهم على ربهم، وكفى به وكيلاً يلجئون إليه لدفع كيد الشيطان.

ثم بيَّن فساد رجوعهم إلى غيره تعالى فقال: ربكم الإله الحق هو وحده يسيّر لكم السفن فى البحر لتطلبوا من فضله الربح فى التجارة ونقل أمتعتكم من بلد إلى بلد، إنه سبحانه دائم الرحمة بكم حيث سهل لكم ما يصعب عليكم. وربكم وحده هو الذى إذا مسكم ضر كخوف غرق غاب عن خواطركم كل ما تعبدونه إلا إياه سبحانه، فلا تجدون منقذًا غيره، فلما نجاكم من الغرق إلى بر السلامة أعرضتم عن توحيده، ونسيتم فضله.

وهذا شأن الإنسان يكثر من كفر النعمة. وكيف تفعلون هذا؟ هل أمنتم أن يخسف بكم ربكم القادر جانب البر الذى ظننتم أنكم فى أمان فيه فتبتلعكم الأرض كما فعل بقوم لوط، أو يرسل عليكم ما فيه هلاككم؟

عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ

المفردات: ﴿حاصبًا﴾: هى الريح التى ترمى بالحصباء وهى الحجارة، والمراد ريحا مهلكة، انظر الآية ٧٤ من سورة الحجر صفحة ٣٤٣ . ﴿قاصفا﴾: هى الريح التى تقصف أى تكسر السفن، فالريح المهلكة فى البر تسمى حاصبا، وفى البحر تسمى قاصفًا. ﴿تبيعا﴾: فعيلا بمعنى فاعل كعليم بمعنى عالم أى تابعا يطالبنا بثأرهم.

﴿على كثير﴾: المراد بهم ما عدا الملائكة؛ فإن الإنسان فى جملته ولو كان كافرا فضله اللّٰه تعالى بالعقل والإرادة واستواء الخلقة وغير ذلك على الحيوانات والجمادات. وهذا لا ينافى أن بعض أفراد الإنسان أفضل من الملائكة.

﴿إمامهم﴾: أى نبيهم فيقال يا أتباع موسى ويا أتباع عيسى مثلاً. ﴿فتيلا﴾: هو الخيط الرفيع فى شق النواة. ﴿فى هذه أعمى﴾: أى فى هذه الدنيا أعمى البصيرة. ﴿فهو فى الآخرة أعمى﴾: أى أعمى البصر، انظر الآية (٩٧) الآتية فى هذه السورة صفحتى ٣٧٧، ٣٧٨، وآيتى (١٢٤، ١٢٥) من سورة طه صفحة ٤١٨، وهذا يكون عند قيامهم من القبور وشدة الحيرة لزيادة إيلامهم ثم بعد ذلك يزال العمى عنهم ليروا أهوال القيامة ويقرءوا كتبهم ويشاهدوا النار. ﴿أضل سبيلا﴾: أى أشد ضلالا عن سبيل النجاة. ﴿كادوا﴾: أى قربوا. ﴿يفتنونك﴾: أى يوقعونك فى الفتنة وهى المحنة الشديدة. ﴿كدت﴾: قاربت. ﴿ضعف﴾: قدره مرتين.

المعنى: هل حسبتم أنكم بخروجكم إلى البر أمنتم من عذاب اللّٰه؟ كلا؛ فهو إن شاء غيبكم فى بطن الأرض، وإن شاء أمطر عليكم حجارة من السماء فلا تجدون مَنْ توكلونه فى دفعه

---

(١) وحملناهم (٢) ورزقناهم (٣) الطيبات (٤) وفضلناهم (٥) بإمامهم
(٦) كتابه (٧) كتابهم (٨) ثبتناك (٩) لأذقناك

عنكم. أم أمنتم أن يعيدكم ربكم فى البحر مرة أخرى فيرسل عليكم ريحا تكسر سفنكم فيغرقكم بسبب كفرانكم نعمته حين نجاكم أولاً، ثم لا تجدوا مَنْ يطالبنا ويسألنا عن إهلاككم. ومن فضل اللّه تعالى على الإنسان ومن نعمه التى كفرها الإنسان أنه سبحانه كرم بنى آدم بحسن القوام والنطق والتصرف على ما فى الأرض إلى غير ذلك، ومن فضله سبحانه أنه جملهم فى البر على الدواب وغيرها وفى البحر على السفن، ورزقهم من طيبات الحياة من مأكول ومشروب وملبوس، وفضلهم على أكثر مخلوقاته بالعقل والتفكير والاستعداد للنعيم الدائم. وذكر قومك أيها النبى بيوم القيامة حين ننادى كل بإمامها، ثم يعطون كتب أعمالهم فمَنْ تناول كتابه بيمينه فإنه يقرؤه مبتهجًا معلنا سروره على رءوس الأشهاد كما فى الآية (١٩) وما بعدها من سورة الحاقة صفحتى ٧٦٢، ٧٦٣، ولا ينقص من أجره شىء، وأما من تناول كتابه بشماله فيتحسر ويحصل منه ما فى الآية (٢٥) وما بعدها من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣، وهذا هو الذى أشار إليه هنا بقوله: ومن كان فى هذه الحياة الدنيا أعمى البصيرة لا يرى سبيل الخير ولا يتأمل أدلة وجود اللّه وحكيم صنعه تعالى فجزاؤه أن يكون فى الآخرة لا يرى طريق النجاة، بل سيكون أشد ضلالاً عن طريق النجاة من الأعمى فى الدنيا، لأن النجاة فى الآخرة مستحيلة. وكان من تعنت كفار قريش أن بعض صناديدهم أتوه ﷺ وطلبوا منه أن يطرد العبيد عن مجلسه والفقراء الذين آمنوا به وعند ذلك يؤمنون به. ولما كان ﷺ شديد الحزن على عدم إيمانهم ويحب هدايتهم دار فى خاطره: ماذا علىّ لو فعلت ذلك وقتا يسيرا حتى يهديهم اللّه تعالى ثم يكون الجميع إخوانا، فنهاه اللّه عز وجل فى الآية (٥٢) من سورة الأنعام صفحة ١٧٠، وبيَّن له هنا فضله سبحانه عليه فى تثبيته فقال: ﴿وإن كادوا ليفتنوك﴾ إلخ: أى وإن كفار قومك كادوا أى قاربوا أنْ يفتنوك ويصرفوك عن الدين الذى أوحيناه إليك، وفيه بر المؤمنين وموالاتهم والعطف عليهم، وبذلك تكون أحللت نفسك محل المفترى علينا حيث يفهم الناس أن عملك هذا بوحى من اللّه. وإذا كنت فعلت ماطلبوا لاعتبروك صديقًا ووليا لهم وخرجت عن ولايتى. ولولا تثبيتنا لك لقاربتَ أن تميل إلى اتباع مرادهم ميلا قليلا جدا. وتفهم منه أنه ﷺ لم يقترب من الركون فضلاً عن الركون نفسه، ولو حصلت هذه الهفوة التى لا تكاد تذكر لعذبناك عذابا لا يتصور العقل شدته.

ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى

المفردات: . ﴿وإن كادوا﴾: أى وإن كفار قومك قاربوا إلخ.

﴿ليستفزونك﴾: ليزعجونك ويقلقونك من البقاء فى أرض مكة بالتضييق عليك وإيذاء أصحابك.

﴿لا يلبثون خلافك﴾: لا يمكثون بعد خروجك.

﴿لسنتنا﴾: عادتنا لنصر رسلنا. ﴿لدلوك الشمس﴾: أى انتقالها من وسط السماء إلى جهة الغرب، واللام بمعنى عند، أى صل عند الزوال.

﴿غسق الليل﴾: ظلمته. ﴿قرآن الفجر﴾: المراد به صلاة الصبح، وعبر عنها بذلك لأنه ركن مهم فيها، وهو معطوف على ﴿الصلاة﴾ قبله. ﴿مشهودًا﴾: أى تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار. ﴿تهجد به﴾: أصل التهجد ترك الهجود وهو النوم فى الليل لأجل الصلاة فالمراد صل بعض الليل انظر الآية (١) وما بعدها من سورة المزّمل صفحة ٧٧٣، وبه أى بالقرآن المشار إليه فيما سبق.

﴿نافلة لك﴾: أى فريضة زائدة خاصة بك دون أمتك. ﴿يبعثك﴾: يقيمك. ﴿مقاما محمودًا﴾: كريما يحمده كل الناس. ﴿مدخل صدق﴾: أى إدخالا كريمًا، انظر الآية (٢) من سورة يونس صفحة ٢٦٥ . ﴿سلطانًا﴾: قوة بالحجة والتأييد.

﴿نصيرًا﴾: أى ناصرا لى على أعدائى. ﴿زهق﴾: ذهب وبطل.

---

(١) الحياة. - (٢) خلافك. (٣) الصلاة - (٤) الليل.
(٥) قرآن. (٦) قرآن (٧) الليل (٨) سلطانا
(٩، ١٠) الباطل (١١) القرآن (١٢) الظالمين

المعنى: ـ ولو فعلت ما طلبوا لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات، أى لجمعنا عليك جميع ما فى الدنيا من عذاب وضاعفناه، وجميع ما فى الآخرة من عذاب وضاعفناه، وهذا تهديد بعذاب لا يخطر على قلب بشر، فسبحان ذى العزة والجبروت الذى يحاسب عباده على قدر منازلهم عنده، وقريب من هذا ما فى الآية (٣٠) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٥٣، ٥٥٤، ثم لا تجد لك نصيرًا يمنع عنك العذاب.

وأؤكد لك أيها النبى أن كفار قومك قاربوا أن يشتد ازعاجهم لك ليخرجوك من أرض مكة مقهورًا مغلوبًا، وهذا لم يحصل بل خرج بأمر ربه عز وجل وعاد بفضل الله تعالى منتصرًا عزيزًا وهم الأذلاء. ويجب أن يعلم هؤلاء أنه إذا تحقق منهم ذلك فلن يبقوا بعد خروجك منها إلا زمنا قليلاً، وقد تحقق هذا الوعيد، فقد أهلكوا ببدر بعد خروجه ﷺ بقليل، ثم ذهبت دولتهم نهائيًا بعد فتح مكة. وقد سن الله تعالى سنة هى أن كل قوم أخرجوا رسولهم أو آذوه لابد مهلكهم أو معذبهم، ولن تتغير سنته أبدا.

ثم أمر سبحانه نبيه بالإقبال على عبادة ربه ولا يبالى بهم فقال: أقم الصلاة المفروضة من أول زوال الشمس إلى ظُلْمَة الليل وهو وقت العشاء، وقد بينت السنة أن هذا هو وقت الظهر والعصر والمغرب والعشاء، أما صلاة الصبح فدل عليها قوله تعالى: ﴿وقرآن الفجر﴾ أى وأقم صلاة الفجر التى تشهدها الملائكة. هذه الصلوات الخمس فرض عليك وعلى جميع أمتك، ونزيد عليك أيها النبى فرضا سادسا هو صلاة الليل لتنال منزلة عليا محمودة عند جميع الخلائق وهى كل منزلة فيها كرامة، وعلى رأسها جميعها منزلته يوم القيامة فى الشفاعة العظمى. وقل يا رب أدخلنى فى كل أمر من أمور دينى ودنياى إدخالا كريمًا، وأخرجنى منه كذلك، واجعل لى من فضلك قوة أتغلب بها على أعدائى.

وقل منذرا قومك المشركين: جاء الحق من توحيد المعبود والشرع الصحيح، وذهب الباطل من الشرك والعقائد الفاسدة؛ لأن الباطل يضمحل أمام صولة الحق، وكيف لا يقوى الحق ونحن ننزل عليك أيها النبى من القرآن ما هو شفاء لما فى الصدور من الكفر والجهل والنفاق، وسبب رحمة لِمَنْ آمن به، أما الظالمون لأنفسهم بالإعراض عنه فلا يزيدهم إلا خسرانا؛ لأن كل آية يكذبون بها تزيد فى عذابهم، انظر الآية (٥٧) من سورة يونس صفحة ٢٧٥ .

ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ

المفردات: ـ ﴿نأى بجانبه﴾: صرف عن المنعم وجهه استكبارا. ﴿يئوسا﴾: أى شديد اليأس والضجر فاقد نعمة الصبر. ﴿شاكلته﴾: أى طريقته التى تشاكل وتلائم حاله. ﴿الروح﴾: جاء إطلاق الروح فى القرآن على ستة معان: الأول: ـ نبى الله عيسى، انظر الآية (١٧١) من سورة النساء صفحة ١٣٢ . الثانى: ـ ما به الحياة انظر الآية (٢٩) من سورة الحجر صفحة ٣٤٠، قال الراغب: وأضافها فى هذه الآية لنفسه تشريفًا كقوله تعالى: ﴿وطهر بيتى﴾. الثالث: كبار الملائكة كجبريل انظر آيتى (١٠٢) من سورة النحل صفحة ٣٦٠، و(١٩٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٩١ . الرابع: ـ كل ما يوحى الله تعالى به إلى رسله جميعًا، انظر الآية (١٥) من سورة غافر صفحة ٦١٩ . الخامس: ـ القوة والثبات الموهوبة من الله عز وجل، انظر الآية (٢٢) من سورة المجادلة صفحتى ٧٢٨، ٧٢٩. السادس: ـ القرآن خاصة، انظر الآية (٥٢) من سورة الشورى صفحة ٦٤٦؛ وما معنا من هذا الأخير كما هو ظاهر من سياق الكلام سابقه ولاحقه. وقد جاء التصريح بأن الموحى من أمره فى آيتى (١٥) من سورة غافر صفحة ٦١٩ و٥٢ من سورة الشورى صفحة ٦٤٦، وكون الروح هنا هو القرآن لا يمنع أن الروح بالمعنى المشهور هى أيضًا من أمر الله عز وجل، وبما أنه من المقرر أن خير ما فسرته فهو بالوارد، وإنما الذى ورد فى القرآن فهو المبين فيما سبق فتفسر آية الإسراء بأليقها لمقام ورودها واعتبار سابقها ـ الآية (٨٢) ـ ولاحقها ـ آيات (٨٦، ٨٨، ٨٩، ١٠٥، ١٠٦) . ﴿من أمر ربى﴾: من أعمال ربى الخاصة به لا يستطيعها غيره.

---

(١) الإنسان. (٢) نأى. (٣) يئوسًا (٤) يسألونك (٥، ٦) القرآن. (٧) الأنهار

﴿ظهيرا﴾: مأخوذ من قولهم تظاهر القوم على شىء أى تعاونوا عليه، فالمراد معينا، انظر الآية (٤) من سورة التحريم صفحة ٧٥٢ . ﴿صرفنا للناس﴾: تقدمت فى الآية (٤١) من هذه السورة صفحتى ٣٦٩، ٣٧٠ .

المعنى: ذكر سبحانه بعض طبائع الإنسان التى كانت سببا فى شقاء كثير فقال: وإذا أنعمنا على الإنسان الفاسد الطبع بالصحة وسعة الرزق ومافيه سعادته كالقرآن فإنه بدل أن يقابل ذلك بشكر المنعم وبتواضع الخاشعين يعرض عن ذلك ويبالغ فى الإعراض بإعطاء المنعم جانبه وهو كناية عن التكبر، ونظير ذلك ما فى آيتى (٦، ٧) من سورة العلق. وإذا مسه شر من فقر أو مرض كان شديد اليأس عديم الصبر. ولما كان هذا هو حال كفار قريش أمر سبحانه نبيه أن يقول لهم: كل منا ومنكم يعمل ويسير على طريقته، وسيجازيه ربه على عمله، وهو سبحانه وحده العليم بمَنْ هو أهدى طريقًا ممَنْ ليس كذلك، والمراد ممَنْ ليس على هدى أصلا. ومثل هذا الآية (٩٣) من سورة هود صفحة ٢٩٨ . ولمناسبة ما تقدم من أمره ﷺ بالحرص على ما أوحاه إليه فى الآية (٧٣) السابقة صفحة ٣٧٤، ومدح القرآن بأنه شفاء، ناسب أن يذكر ما كان عليه المشركون من الحيرة فى أمر هذا القرآن وكيف يأتى به محمَّد، أمر سبحانه نبيه أن يقول تيئيسا لهم: هذا القرآن الذى تسألون عنه هو أمر خاص بربى لا يستطيعه مخلوق، وليس عندكم من علم بعض الأشياء إلا قليلا لا يساوى شيئًا فيما عند اللَّه، فكيف تطمعون أن تعرفوا كيف يتألف القرآن كما يطمع أحدكم فى كيفية تأليف القصائد. والدليل على أن هذا القرآن من شئون اللَّه وحده أنه لو شاء لأذهب ما أوحاه إلى نبيه من صدره ثم لا يجد مَنْ يوكله فى إرجاع شىء منه، والمراد يعجز عن ذلك، ولو كان من كلام البشر لما عجز عن تذكره أو الإتيان بمثله، لكن لم نذهبه رحمة من ربك لك جعلتك لا تنساه كما فى الآية (٦) من سورة الأعلى صفحة ٨٠٣؛ لأن فضله كان عليك كبيرًا، ومنه إرسالك، وإنزال القرآن عليك، وحفظه فى صدرك. ثم تحداهم التحدى المعجز فقال قل لهم قطعا لأطماعهم لئن اجتمعت جميع أفراد الإنس والجن وأرادوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن فى نظمه ومعانيه فإنهم لا يستطيعون ولو كانوا جميعًا متعاونين. ولقد نوعنا بوجوه مختلفة لزيادة البيان للناس فى هذا القرآن من معنى هو كالمثل النادر فى غرابته وروعته، فأبى أكثر الناس كل خير إلا الجحود، فإنهم تمسكوا به. ومن عجيب أمر هؤلاء المشركين أنهم بعد هذا التعجيز لم يستحوا بل لجوا فى طغيانهم وتضليلهم لعقول الضعفاء فقالوا للنبى: لن نؤمن لك أبدا حتى تأتينا بالمعجزات التى نطلبها منك، كأن تفجر لنا من أرض مكة عينا لا ينقطع ماؤها تجعلها بلدا ذا ذرع، أو يكون لك بمكة أيضًا بستان من نخيل وعنب فتفجر الأنهار لريه.

خِلَٰلَهَا[1] تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ[2] قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا[3] نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ[4] يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ[5] عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ[6] جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ[7]

المفردات: ﴿خلالها﴾: وسطها.

﴿كسفا﴾: جمع كسفة كقطعة وقطع وزنًا ومعنى، وهو حال من السماء.

﴿قبيلا﴾: القبيل الجماعة من صنف واحد وهو حال من الملائكة، انظر الآية (١١١) من سورة الأنعام صفحة ١٨١ .

﴿زخرف﴾: أصل الزخرف الزينة والمراد هنا الذهب وغيره من النفائس.

﴿وما منع الناس أن يؤمنوا﴾: المراد بالناس هنا كفار مكة غير قريش، لأن قريشًا كانت تؤمن برسالة إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، ويفخرون بأنهم حنفاء كإبراهيم.

﴿مطمئنين﴾: قارين فيها ساكنين.

﴿مأواهم جهنم﴾: مكانهم الذى يأوون إليه.

﴿خبت﴾: ضعف لهبها وانطفأ.

المعنى: فتجعل وسط هذه الجنة أنهارا، أو تسقط السماء فوق رءوسنا قطعا كما زعمت أن الله توعدنا بذلك فى الآية (٩) من سورة سبأ صفحة ٥٦٣، أو تأتى بالله نراه عيانا وبالملائكة قبيلا بعد قبيل نراهم كذلك، أو تطلب من الله أن يجعل لك بيتًا من ذهب حتى تطلب لنا مثلك، أو ترقى فى السماء ولن نصدقك فى هذه الحال إلا إذا جئتنا بكتاب من الله

(١) خلالها. (٢) والملائكة. (٣) كتابًا (٤) ملائكة
(٥) القيامة. (٦) ماواهم (٧) زدناهم.

نقرؤه فنجده يقرر فيه صدقك. قل لهم أيها النبى فى الرد عليهم: أنزه ربى عن أن يتحكم فيه أحد، أو أن يشاركه فى قدرته، وما كنت إلا بشرا كسائر الناس رسولا كسائر الرسل ولم يأتوا لقومهم إلا بما يعطيه الله تعالى لهم. ثم حكى عنهم سبحانه مغالطة أخرى وهى استبعادهم أن يرسل الله رسولاً من البشر بل لابد أن يكون من الملائكة، فقال: وما منع الناس كمشركى قريش أن يؤمنوا برسولهم إلا قولهم منكرين بعثة البشر: أبعث الله بشرا رسولاً؟ وهذه عادة الأمم السابقة، انظر الآية (١٠) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣١، والآية (٤٧) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٠، والآية (٦) من سورة التغابن صفحة ٧٤٦، والمراد أنه لم تبق شبهة تمنعهم من الإيمان بمحمَّد إلا زعمهم أن الله لا يرسل بشرا ولا يرسل إلا ملائكة، فقل أيها النبى ردًا عليهم نيابة عنا لو كان فى الأرض ملائكة يمشون فيها كما يمشى بنو آدم مستقرين فيها لنزلنا عليهم من السماء ملكا يقوم بوظيفة الرسالة إليهم ويبلغهم ما أمرهم به ربهم، لأن الرسول للجنس كله لا يكون إلا منه ليمكن الفهم منه بسهولة.

أما تكليم الملك للبشر فلا يكون إلا باستعداد خاص فى الشخص الذى يتلقى عن الملك من البشر، ولا يكون إلا بصعوبة أيضًا؛ فقد كان ﷺ حين ينزل عليه جبريل بحالته الملكية يتصبب عرقًا. وقل من عند نفسك: إن أنكرتم رسالتى فيكفينى الله شاهدا على أنى رسوله إليكم بإظهار المعجزة الدالة على تصديقه لى، إنه يعلم أحوال عباده الظاهرة والباطنة، وسيجازيهم عليها.

وقل لهم أيضًا لو علم الله فيكم خيرا لهداكم ولكنه علم فساد قلوبكم فأضلكم، ومَنْ يضله الله فلا نصير ينقذه غير الله فى الدنيا، وفى الآخرة يحشرهم الله تعالى مسحوبين على وجوههم حال كونهم عميا ولا ينطقون ولا يسمعون، ومكانهم الذى يأوون إليه جهنم، كلما ضعف لهبها زادهم الله سعيرا، انظر آيتى (٧١، ٧٢) من سورة غافر صفحة ٦٢٧، والآية (٤٨) من سورة القمر صفحة ٧٠٨: فى الألوسى: استظهر أبو حيان كون المراد مما ذكر حقيقته، ويكون ذلك فى مبدأ الأمر ثم يَرُدُّ الله تعالى إليهم أبصارهم، ونطقهم، وسمعهم، فيرون النار، ويسمعون تغيظها وزفيرها، وينطقون بما حكى الله تعالى عنهم فى غير موضوع مثل: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾، ﴿وتجادل عن نفسها﴾... إلخ، وروى عن ابن عباس أن ذلك مجاز على معنى أنهم لفرط الحيرة والذهول يشبهون أصحاب هذه الصفات.

سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِنَا[1] وَقَالُوٓا أَءِذَا[2] كُنَّا عِظَٰمًا[3] وَرُفَٰتًا[4] أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[5] وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ[6] إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا[7] مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ[8] بَيِّنَٰتٍ[9] فَسْـَٔلْ[10] بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ[11] إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ[12] مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[13] وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ[14] مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ[15] وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا

المفردات: ﴿سعيرًا﴾: هو اللهب شديد الاشتعال والتوقد والاستعار. ﴿بآياتنا﴾: أى بأدلتنا التى فى القرآن وفى الآفاق. ﴿رفاتا﴾: تقدم فى الآية (٤٩) من هذه السورة صفحة ٣٧١ . ﴿خزائن رحمة﴾: تقدم بيانها فى صفحة ١٦٩ .

﴿قتورا﴾: شديد البخل. ﴿تسع آيات﴾: إن لم نقل إن المراد الكثرة لا التحديد فأحسن ما قيل فى التسع إنها العصا واليد، والسنون ونقص الثمرات المذكورتان فى الآية (١٣٠) من سورة الأعراف صفحة ٢١٢، والطوفان والأربعة بعده فى الآية (١٣٣) من سورة الأعراف صفحة ٢١٢ أيضًا.

﴿إذ جاءهم﴾: ﴿إذ﴾ ظرف بمعنى حين متعلق بقوله تعالى ﴿آتينا موسى﴾ وجملة ﴿فاسأل بنى إسرائيل﴾ متوسطة بين الفعل ومتعلقه وهو الظرف؛ وهذا أسلوب كثير فى كلام العرب كقولهم: محمَّدٌ فاعلم جيدًا، رسول الله. فجملة ﴿فاعلم جيدًا﴾ متوسطة بين المبتدأ والخبر؛ وأمر الله سبحانه نبيه بسؤال الأولين لمساعدة الحجة على الحاضرين معهود أيضًا، انظر قوله تعالى ﴿اسأل من أرسلنا من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ الآية (٤٥) من سورة الزخرف صفحة ٦٥١ . ﴿مسحورا﴾: مخبول العقل. ﴿بصائر﴾: جمع بصيرة والمراد بينات تجعلك على بصيرة فى تصديقى، وهى حال من ﴿هؤلاء﴾. ﴿مثبورا﴾: هالكا. ﴿يستفزهم من الأرض﴾: أى يزعجهم ليخرجهم من الأرض بقتلهم.

---

(١) بآياتنا. (٢) أئذا. (٣) عظاما (٤) ورفاتا (٥) السموات.
(٦) الظالمون (٧) آتينا. (٨) آيات (٩) بينات (١٠) فاسأل
(١١) إسرائيل (١٢) يا موسى (١٣) السموات (١٤) يا فرعون (١٥) فاغرقناه.

المعنى: . كلما هبط لهب النار بعد أكل جلودهم بدلنا لهم جلودا غيرها تلهب فيها النار ثانيا، ذلك العذاب جزاؤهم بسبب كفرهم وجحودهم. وكذبوا بالأدلة التى أقمناها لهم واستمروا فى العناد قائلين مكذبين للبعث هل يعقل أننا بعد أن نصير عظامًا ورفاتًا نبعث من جديد؟

فرد سبحانه عليهم بما فيه دليل على قدرته على بعثهم، فقال ﴿أو لم يروا﴾ إلخ: أى هل غفلوا ولم يعلموا أن الذى خلق السموات والأرض ابتداء من العدم ونظمها بقدرته قادر على أن يخلق أمثالهم من الخلق هو أصغر من خلق السموات والأرض كما فى الآية (٥٧) من سورة غافر صفحة ٦٢٥، بل إعادتهم أهون كما فى الآية (٢٧) من سورة الروم صفحة ٥٣٤ . وجعل سبحانه لإعادتهم بعد الموت أجلا محددا لاشك فى حصوله وهو يوم القيامة. وبعد إقامة هذه الحجة أبى هؤلاء الكافرون الذين ظلموا أنفسهم إلا مبالغة فى الكفر والجحود ثم سفه سبحانه عقولهم فى طلبهم توسعة رزق الدنيا من جنات وعيون وبيوت من زخرف بأنهم لن يستفيدوا من هذا الغنى حتى لو أجبنا طلبهم، لا فى الدنيا بالتمتع به، ولا فى الآخرة بتصديق الرسول، فقال لهم: لو ملكتم أيها المشركون جميع ما عند ربى من الخيرات ومكنكم من التصرف فيها فإن ما ركب فى طبائعكم من البخل يجعلكم تمسكون عن الإنفاق خشية الفقر، فتعيشون فى الفقر كما كنتم لأن الإنسان مطبوع على الحرص وشدة البخل، فلا تنفعون أنفسكم ولا أحدا من الناس.

وبين أنهم لن يؤمنوا بالآيات حتى التى اقترحوها، لأنهم كقوم موسى وقد أعطيناه تسع آيات لا واحدة ولا اثنين بينات واضحات الدلالة على صدقه، فاسأل يا محمَّد بنى إسرائيل الذين فى زمنك فإنهم لا يستطيعون تكذيب هذا فتقوم الحجة على قومك بتصديق هؤلاء لك؛ آتينا موسى تلك الآيات حين جاء إلى فرعون وقومه يبلغهم رسالة ربه، فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مخبولا لأنك تقول برب غيرى.

قال موسى لقد علمت يا فرعون ما أنزل هذه الآيات إلا رب السموات والأرض، لأنه هو الذى يقدر عليها، وهى بصائر لمنْ استبصر بها، ولكنك تكابر وتعاند خوفا على ملكك؛ ولهذا فإنى أظنك تهلك حتما إذا لم ترجع عن عنادك للحق، فلج فرعون فى طغيانه، وأراد أن يمحو بنى إسرائيل من على وجه الأرض، فأغرقناه ومَنْ معه جميعًا، كما فى الآية (٩٠) من سورة يونس صفحة ٢٨٠ .

مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ[1] ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ[2] وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ[3] إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا[4] فَرَقْنَٰهُ[5] لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ[6] تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ[7] رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾

المفردات: ﴿الأرض﴾: المقدسة التى وعدناكم بها.

﴿لفيفا﴾: اللفيف الجماعات من قبائل مختلفة، فالمراد مختلطين ثم يميز كل فريق بعد ذلك انظر الآية (٥٩) من سورة يس صفحة ٥٨٤ .

﴿وبالحق أنزلناه﴾: المراد أن كونه من عندنا حق لاشك فيه.

﴿وبالحق نزل﴾: أى ونزل مقترنا بالتعاليم الحقة التى ليس فيها باطل، فالحق الأول صفة لنسبة الإنزال إليه تعالى، والثانى صفة لما فى القرآن من الأحكام.

﴿فرقناه﴾: أى أنزلناه متفرقا فى مدة ثلاث وعشرين سنة .

﴿على مكث﴾: أى على مهل وتؤدة.

﴿ونزلناه تنزيلا﴾: أى شيئًا بعد شىء على حسب المصالح والحكمة.

﴿أوتوا العلم من قبله﴾: وهم مَنْ آمن من أهل الكتاب، انظر صفة بعضهم فى آيتى (٨٢، ٨٣) من سورة المائدة صفحتى ١٥٣، ١٥٤ .

---

(١) إسرائيل.
(٢) انزلناه.
(٣) ارسلناك
(٤) قرآنا
(٥) فرقناه.
(٦) ونزلناه
(٧) سبحان.

﴿يخرون﴾: يسقطون على الأرض.

﴿للأذقان﴾: جمع ذقن بفتحتين وهى آخر الفك الأسفل من الوجه، واللام بمعنى على لإفادة المبالغة فى السجود وأنه عم الوجه كله حتى الأذقان ولم يقتصر على أول ما يصل الأرض وهو الجبهة. (هنا سجدة).

﴿أيًّاما﴾: أصلها أيا منونة بمعنى أى اسم، و ﴿ما﴾ لتأكيد العموم فى ﴿أيا﴾.

﴿تدعو﴾: أى تسموه به.

﴿فله﴾ : أى فللمسمى الذى هو الذات الأقدس.

﴿الحسنى﴾ : لدلالتها على صفات الجلال والإكرام.

﴿لا تخافت بها﴾ : أى لا تخفض صوتك بها حتى لا يسمعك أحد.

المعنى : ـ وقلنا من بعد غرق فرعون لبنى إسرائيل ادخلوا الأرض المقدسة التى كتبها الله لكم كما فى الآية (٢١) من سورة المائدة صفحة ١٤٠ . فإذا جاء وقت تحقيق وعد الحياة الآخرة وهو يوم القيامة جئنا بكم من قبوركم لموقف الحشر مختلطين الصالح بالطالح ثم نحكم بينكم بالعدل.

ولما كان السياق من أول الآية (٨٢) المتقدمة من هذه السورة (٢٧٥) فى القرآن الذى هو أساس الدين وعليه المعول فى تثبيت الدعوة وبقائها، رجع إلى الكلام عنه ثانيا لتأكيد إبطال زعمهم أنه ليس من عند الله، فقال:

﴿وبالحق أنزلناه﴾ إلخ: أى ما نزل إلا من عندنا نحن، وما نزل إلا بالعقائد والشرائع الحقة، وما أرسلناك أيها النبى إلا مبشرا مَنْ آمن به بالجنة، ونذيرا لمَنْ كفر به بالنار فلا دخل لك فى إيجاده.

وفرقنا هذا القرآن ووزعناه فى النزول على مدة طويلة لتقرأه على الناس على مهل ليستطيعوا فهمه وحفظه ويسهل عليهم القيام بتكاليفه. ونزلناه شيئا فشيئا على حسب الوقائع

والمصالح، انظر الآية (٣٢) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٤، فقل أيها النبى للمشركين من قومك مَنْ على شاكلتهم آمنوا به أو لا تؤمنوا، أى اختاروا لأنفسكم ما تحبون لها، فإن إيمانكم به لا يزيده كمالاً، وعدم إيمانكم لا يلحق به نقصا. فإن لم تؤمنوا به فقد آمن به مَنْ هو خير منكم، والعلماء الذين قرءوا الكتب السابقة وعرفوا الحق فهؤلاء عرفوا أنه حق فكانوا إذا تلى عليهم يسقطون على وجوههم تعظيما لله وشكرا على نعمته به.

ويقولون ننزه ربنا عن خلف الوعد الذى وعد به فى الكتب السابقة من إرسال رسول يكون خاتم الرسل، إنه كان وعده حاصلا لا محالة، ويخرون ثانيا بعد السجود للشكر على إنجاز الوعد سجدا لما أثر فيهم من مواعظه باكين من خوف الله تعالى ويزيدهم القرآن خشوعا له تعالى.

وكان من تعنت المشركين أنهم لما سمعوه ﷺ يقول فى دعائه يا الله، يا رحمن، يا رحيم، قالوا انظر إلى هذا الذى يطلب منا ألا ندعوا إلا إلها واحدا وهو يدعو آلهة كثيرة.

فرد عليهم سبحانه بقوله قل أيها النبى لهم هو إله واحد سموه الله، أو الرحمن، فأى اسم تسمونه به مما يليق به فهو حسن لأن كل أسمائه حسنى.

وكان المسلمون فى مكة قلة مضطهدة، وكان المشركون إذا سمعوا من أحدهم قرآنا سبوه وضربوه، فأرشدهم الله عز وجل إلى الطريق الذى يبعدهم عن ذلك فقال ﴿ولا تجهر﴾ إلخ: أى ولا تجهر بقراءة صلاتك حتى يسمع المشركون، ولا تسر جدا حتى لا يسمع مَنْ خلفك من المؤمنين، واطلب طريقا وسطا بين الجهر والسر.

وقل الحمد لله على ما أنعم على عباده بجزيل النعم الموصوف بهذه الصفات الثلاث العظيمة وهى أنه لم يتخذ ولدا لعدم حاجته إليه.

وهذا رد على النصارى، ولم يكن له شريك لأنه ليس عاجزا حتى يساعده الشريك، وهو رد على المشركين، ولم يكن له ولى ينصره ويمنع عنه ذلا يلحقه. سبحانه وتعالى علوا كبيرا. وعظم ربك أيها النبى تعظيما يليق به فى ذاته وصفاته.

سورة الكهف

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿عوجا﴾: ميلا عن الصواب فى معانيه.

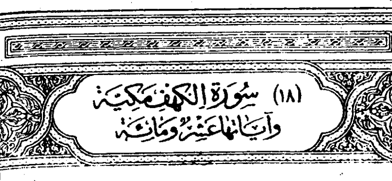
﴿قيما﴾: معتدلا لا إفراط فى تكاليفه حتى تكون شاقة ولا تفريط فيها حتى تهمل ما هو ضرورى. ﴿لينذر﴾: يحذر ويخوف.

﴿بأسًا﴾: المراد به العذاب.

﴿من لدنه﴾: من عنده. ﴿ماكثين﴾: مقيمين.

﴿كبرت كلمة﴾: ماأعظم شناعتها.

﴿تخرج من أفواههم﴾: صفة للكلمة تفيد استعظام جرأتهم على النطق بها.



(١٨) سُورَةُ الكَهْفِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا عَشْرٌ وَمِائَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ[1] وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ[2] أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ[3] فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ[4] كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ[5] إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ[6] نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ[7] إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا

﴿إن يقولون﴾: أى ما يقولون. ﴿باخع﴾: قاتل بالانتحار.

﴿على آثارهم﴾: أى من بعد توليهم عن الإيمان وبعدهم عنه.

المعنى: كل مدح وثناء جميل مستحق لله تعالى لتفضيله بنعمة إنزال القرآن الذى فيه سعادة البشر على عبده محمد ﷺ، ولم يجعل فى هذا الكتاب انحرافا ما عن الصواب. وكل تعاليمه معتدلة وسط بين التشديد والإهمال. أنزله لينذر الكافرين عذابا شديدا صادرا من عنده وهو القوى القاهر، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحات بأن لهم أجرا حسنا هو الجنة خالدين فيه أبدا، وينذر على وجه الخصوص بعض الكافرين لفظاعة كفرهم، وهم الذين قالوا اتخذ الله ولدا وليس عندهم علم بذلك، ولا لآبائهم الذين قلدوهم. فما أعظم شناعة هذه الكلمة التى تجرؤا على إخراجها من أفواههم، وما كان يصح أن تخرج منها أبدا؛ لأنهم لا يقولون إلا كذبا.. ولما كان ﷺ شديد الحرص على إيمان قومه وكان يحزنه كثيرا عدم إيمانهم، أراد سبحانه أن يقول له ما عليك إلا البلاغ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، فهل إذا لم يؤمنوا

(١) الكتاب. (٢) الصالحات. (٣) ماكثين. (٤) لآبائهم.
(٥) أفواههم. (٦) باخع. (٧) آثارهم.

لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ[1] مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ[2] ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا[3] عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا[4] مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ[5] فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ[6] لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟[7] بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ[8] هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[9] وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً[10] لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ[11] بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

﴿بل﴾ التى تفيد الانتقال من كلام إلى كلام.

﴿الكهف﴾: الفجوة الواسعة فى الجبل.

﴿الرقيم﴾: لوح من حجر رقمت عليه أسماؤهم بعد موتهم.

﴿آياتنا﴾: دلائل قدرتنا.

﴿أوى﴾: اتخذوه مكانا يأوون إليه.

﴿الفتية﴾: جمع فتى وهو الشاب. وكانوا من أبناء عظماء الروم.

(١) لجاعلون. (٢) أصحاب. (٣) آياتنا.
(٤) آتنا. (٥) آذانهم. (٦) بعثناهم.
(٧) آمنوا. (٨) وزدناهم. (٩) السموات.
(١٠) آلهة. (١١) بسلطان.

بهذا القرآن تقتل نفسك أنت أثر توليهم عن الإيمان أسفا عليهم. ثم بين سبحانه سبب أمره بعدم الحزن عليهم بأن الدنيا وزخارفها فتنتهم وصرفتهم عن التعقل ومعرفة الصواب فقال: إنا جعلنا ما على الأرض من حيوان ونبات ومعادن زينة لها ولأهلها.

المفردات: ﴿لنبلونهم﴾: نعاملهم معاملة المختبر ليظهر ما انطوت عليه نفوسهم.

﴿صعيدا﴾: ترابا.

﴿جرزا﴾: لا نبات فيها من الجرز وهو القطع انظر الآية (٢٧) من سورة السجدة صفحة ٥٤٨:

﴿أم﴾: حرف يقوم مقام همزة الاستفهام.

﴿فضربنا على آذانهم﴾: الأصل جعلنا على آذانهم حجابا يمنعهم من سماع الأصوات والمراد أنمناهم نوما لا تنبههم معه الأصوات.

﴿بعثناهم﴾: أيقظناهم.

﴿لنعلم﴾: علم ظهور وتحقق.

﴿الحزبين﴾: المختلفين فى مدة نومهم وهما منهم أنفسهم، كما سيأتى فى الآية (١٩) من هذه السورة صفحتى ٣٨٢، ٣٨٣.

﴿أحصى لما لبثوا أمدا﴾: أى أضبط لمدة مكثهم، والأمد مدة معينة.

﴿ربطنا على قلوبهم﴾: أصل الربط الشد والمراد قوينا عزيمتهم بالصبر على الشدائد انظر الآية (١٠) من سورة القصص صفحة ٥٠٧.

﴿إذ قاموا﴾: بين يدى الجبار الذى كان يريد إرغامهم على عبادة الأصنام، وفى لسان العرب مادة (قوم) أن من معناه العزم، يقال قام فلان على كذا أى عزم عليه. وفسر الألوسى ما معنا بذلك.

﴿شططا﴾: أصل الشطط البعد عن الصواب، وأطلق على القول مبالغة.

﴿لولا﴾: كلمة تدل على الحث على ما بعدها.

﴿سلطان﴾: أى حجة واضحة.

﴿فمن أظلم﴾: من اسم استفهام متضمن معنى النفى.

المعنى: جعلنا ما على الأرض زينة لأهلها لنظهر ما فى طبائعهم فيتميز من لا يغره ذلك، بل يصرفه فيما يسعده دنيا وأخرة فيكون أحسن عملا، ومن يغره ذلك فيشغله عن أسباب تلك السعادة، وبعد ذلك نجعل كل ما فى الأرض ترابا ونذرها قاعا صفصفا بعدما كانت ذات بهجة كما فى الآية (١٠٦) من سورة طه ٤١٦، أى فلا تحزن أيها النبى لتكذيب قومك اغترارا

بالدنيا فإنا سنفنيها ونحاسبهم على ما صنعوا. وكانت قصة أصحاب الكهف مما تتداول بين الناس قبل الرسالة فأوعز اليهود إلى مشركى العرب أن يسألوه ﷺ لعله يتعرض لتفاصيل القصة خصوصا عددهم فيفتحوا بذلك بابا للجدل يصعب إغلاقه. فأغلق سبحانه الباب فى وجه الفتنة بقوله: ﴿أم حسبت﴾ إلخ: أى هل حسبت أيها المخاطب أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا فى بقائهم أحياء مدة نومهم الطويل شيئا عجيبا من بين دلائل قدرتنا؛ فإن قصتهم وإن كانت خارقة للعادة ليست بعجيبة إذا قيست بسائر آياتنا الأخرى الدالة على القدرة على أعظم منها، ليسوا عجبا حين لجأوا إلى الكهف خوفا من ظلم ملوكهم المشركين، وقالوا يا ربنا آتنا من عندك رحمة تسهل لنا المغفرة والأمن من العدو، وهيىء لنا من الأمر الذى نحن عليه من مفارقة العدو هدى إلى الصواب، فاستجبنا دعاءهم فأنمناهم آمنين فى الكهف سنين عديدة، ثم أيقظناهم عند الأمن عليهم ليكون عاقبة ذلك اختلافهم فى مدة نومهم، فبعضهم يقول لبثنا يوما أو بعض يوم، وبعضهم الآخر يقول ربكم أعلم، فيتعلق علمنا تعلق وقوع بما هو أصوب منهما. وبعد ما أجمل قصتهم شرع سبحانه فى تفصيلها فقال: نحن نقص عليك أيها النبى خبرهم بالصدق الذى لاشك فيه.

وحاصل قصتهم أنهم فتية آمنوا بربهم وسط قوم مشركين، والتحقيق أنهم كانوا قبل المسيح، وزدناهم هدى بالتثبيت على الحق، وقويناهم بالصبر على شدائدإظهار الحق حين قاموا فى وجه قومهم وجهروا بقولهم: ربنا الحق هو رب السموات والأرض لا هذه الأصنام التى تعبدونها فلن ندعو من دونه سبحانه إلها، والله لقد قلنا إذا دعونا غيره قولا بعيدا عن الصواب، هؤلاء قومنا قد أخطأوا لأنهم اتخذوا من دونه سبحانه آلهة، هلا يأتون على ذلك بدليل واضح؟ كلا لن يستطيعوا فلا أحد أظلم من هؤلاء الذين افتروا على الله كذبا بنسبة الشريك إليه..

المفردات: ﴿اعتزلتموهم﴾: تجنبتموهم.

﴿فأووا إلى الكهف﴾: أى الجأوا إليه..

وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ

﴿ينشر لكم﴾: أى يبسط ويوسع.

﴿مرفقا﴾: ما يرفق به أى ينتفع به.

﴿تزاور عن كهفهم﴾: أى تميل.

﴿تقرضهم ذات الشمال﴾: أى تعطيهم شيئا من شعاعها من جهة الشمال.

﴿من آيات الله﴾: من دلائل قدرته تعالى.

﴿بالوصيد﴾: فناء الكهف من جهة الباب.

﴿رعبا﴾: خوفا يملأ الصدور.

﴿بعثناهم﴾: أى أيقظناهم.

﴿كم لبثتم﴾: أى ما مقدار مدة مكثكم على هذا الحال.

﴿بورقكم﴾: الورق بكسر الراء هى الفضة.

﴿المدينة﴾: التى كانوا فيها، قيل هى (طرسوس).

المعنى: وبعد ما تقدم خاطب بعضهم بعضا قائلا: وحيث إنكم خالفتموهم فى عبادتهم غير الله فالجأوا إلى الكهف اتقاء لشرهم فإن الله يبسط لكم الخير من رحمته فى الدارين ويسهل لكم ما ينفعكم.

ثم بين سبحانه حالتهم بعد ما دخلوا الكهف فقال: ﴿وترى الشمس﴾ إلخ. وكان الكهف فى مكان من الأرض وسط بين الشمال البارد وبين وسط الكرة الحار، وكانت فتحته جهة الشمال

(١) تزاور.
(٢) آيات.
(٣) باسط.
(٤) بعثناهم.

فتصيب الشمس جزءا من جهته الغربية عند الشروق، وجزءا من جهته الشرقية عند الغروب، فتنقى جوه، من غير أن تصيبهم بحرها، فترى أيها الناظر الشمس إذا طلعت تميل على كهفهم من جهة يمين الداخل لهذا الكهف، وإذا غربت تعطيهم شعاعها من جهة شمال الداخل أيضا، وهم نيام فى وسطه بعيدا عنها؛ ذلك الإيواء إلى هذا الكهف ووضعهم فيه هذا الوضع من دلائل قدرة الله على تنفيذ ما يريد، فكان يجب أن يلتفت إليها المعاندون ليؤمنوا، ولكن لا يهدى الله إلى الانتفاع بذلك إلا من صلح قلبه وابتعد عن الحسد والكبر، فهذا هو المهتدى حقا الذى لا يستطيع أحد إضلاله، ومن يضلله لأنه فاسق كافر فلن تجد له صديقا يرشده انظر الآية (٣٩) من سورة الأنعام ١٦٨.

وتحسبهم أيها الناظر أيقاظا لتفتح أعينهم كأنهم ينظرون وفى الحقيقة هم نيام. ونقلب هؤلاء الفتية فى رقدتهم مرة على الجنب الأيمن وأخرى على الأيسر لنحفظ أجسامهم من تأثير الأرض، ولتقصر المعجزة فى أضيق حدودها، وكلبهم الذى صاحبهم فى حال خروجهم من المدينة مادا ذراعيه على فناء الكهف وهو نائم أيضا فى شكل اليقظان، لو اطلعت وشاهدت حالتهم وأنهم جميعا مفتحة عيونهم فى مكان موحش، وكل منهم فى مكانه لا يتحرك مع أنه ليس من العادة ذلك لعلمت أن هذا أمر غير عادى، فوليت فارا منهم ممتلئا قلبك من الرعب، وقد يكون مع كل ما سبق رزقهم الله هيبة تلقى فى قلب من يدنو منهم الخوف ليبعد عنهم أشرار المشركين، وكما كانت إنامتنا لهم آية كان إيقاظنا لهم آية أخرى، لتكون عاقبة ذلك أن يسأل بعضهم بعضا عن مدة مكثهم نائمين فى الكهف فقال واحد منهم: كم لبثتم؟

قال بعضهم: مكثنا على هذا الحال يوما أو بعض يوم.

ولما شك الآخرون فى ذلك قالوا اتركوا الأمر لله فهو الأعلم به، وابحثوا عما ينفعنا الآن، فابعثوا واحدا منكم بهذه العملة الفضية إلى المدينة التى فيها حاجات الناس.

فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ[1] بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ٱبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا[2] رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ[3] رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا[4] وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ[5] إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ

المفردات: ﴿أزكى طعاما﴾: أجود وأطيب.

﴿وليتلطف﴾: أى يتكلف اللطف فى المعاملة حتى لا تحصل خصومة فيعرف..

﴿يظهروا عليكم﴾: يطلعوا عليكم ويعلموا مكانكم ويتفوقوا عليكم فى القوة انظر الآية (٨) من سورة التوبة صفحة ٢٤١.

﴿أعثرنا عليهم﴾: أى أطلعنا الناس عليهم.

﴿غلبوا على أمرهم﴾: أى الذين تولوا أمور أهل القرية وهم الرؤساء.

﴿مسجدا﴾: المراد مكان عبادة.

﴿رجما بالغيب﴾: هو القول بدون علم، والغيب كل ما غاب عن الإنسان، والمراد قالوا فى الغيب بدون علم.

﴿لا تمار فيهم﴾: أى لا تحاجج اليهود والمشركين فى عددهم.

﴿مراء ظاهرا﴾: المراء الظاهر هو أن تقص ما أخبرك الله به ولا تتعمق فيما وراءه، فلا تصدقهم فيه ولا تكذبهم.

﴿فاعل ذلك غدا﴾: المراد بالغد هنا مطلق الزمن المستقبل لا خصوص اليوم الذى بعد اليوم الذى أنت فيه..

---

(١) يتنازعون.
(٢) بنيانا.
(٣) ثلاثة.
(٤) ظاهرا.
(٥) لشىء.

المعنى: فليبحث عن أحسن أهل القرية طعاما فيشترى منه ما يقيتكم، وليكن لطيفا حتى لا يشعر بنا أحد؛ لأنهم إن شعروا وهم مشركون اعتبرونا خارجين على ملتهم وتمكنوا منكم يقتلوكم رجما أو يعيدوكم إلى الشرك، وإذا عدتم إلى الشرك فلن تفلحوا أبدا، وتكونوا خسرتم الدنيا والآخرة..

ولما ذهب أحدهم بالفضة دهش أهلها لأنها عملة قديمة جدا، وبعد التحرى ذهبوا معه إلى الكهف واطلعوا على ما فيه وعرفوا الحقيقة، فآمنوا بالبعث الذى كان بعضهم فى شك منه، وهذا هو المراد بقوله: ﴿وكذلك أعثرنا عليهم﴾ إلخ: أى وكما أنمناهم وبعثناهم لننجيهم من المشركين الذين كانوا فى زمنهم ولتزداد بصيرتهم يقينا، أطلعنا أهل القرية عليهم ليعلموا أن وعد الله بالبعث حق؛ لأن القادر على ما حصل لهم قادر على بعثهم بعد موتهم، وليعلموا أن القيامة لا شك فى قدرة الله تعالى عليها.

وأعثرنا عليهم فى الوقت الذى كان يتنازع أهل القرية أمر دينهم بينهم فى مسألة البعث وعدمه، وهل هو إذا حصل بالأرواح والأجساد أم بالأرواح فقط، فلما شاهدوا ما حصل للفتية آمنوا بأن البعث حق، وأنه بالجسم والروح، وبعد ذلك مباشرة مات الفتية جميعا، فتشاوروا فيما يفعلون بهم. فقال بعضهم: ابنوا على باب الكهف بنيانا يمنع الدخول إليهم ونتركهم وشأنهم فربهم أعلم بحالهم، وقال أصحاب الكلمة نبنى مكانا يتعبد فيه الناس و هذا كان جائزا فى شريعتهم ولكن الإسلام حرم بناء المساجد على القبور؛ قال الألوسى: (ومن استدل بالآية على جواز البناء على قبور الصلحاء واتخاذ مسجد عليها فقوله باطل عاطل فاسد كاسد، فقد صح فى الحديث أنه ﷺ قال: (لعن الله المتخذين على القبور المساجد والسرج). وفى رواية مسلم أنه ﷺ قال: (ألا وإن من كان قبلكم يتخذون قبور أنبيائهم مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك). وفى البخارى ومسلم أنه ﷺ قال: (إن من كان قبلكم كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا أولئك شرار الخلق).

وسيقول المتكلمون فى قصتهم من أهل الكتاب والعرب عددهم ثلاثة ورابعهم كلبهم، ويقول آخرون بل هم خمسة وسادسهم كلبهم، يرمون كلامهم هذا بدون علم، ويقول آخرون هم سبعة وثامنهم كلبهم. قل أيها النبى للمختلفين: ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل من الناس وهم الذين أطلعهم الله تعالى على عددهم.

وتعقيب القولين الأولين بالرجم بالغيب دون الثالث يشعر من بعيد بأن الثالث هو الصواب، خصوصا وقد جاء بالواو قبل الجملة الواقعة صفة للنكرة لتوكيد ربط الصفة بالموصوف، كما تقول جاءنى رجل ومعه آخر، فإن جادلوك فيهم أيها النبى فلا تجادلهم إلا جدالا ظاهرا لا تتعمق فيه معهم، بل تقتصر على ما أخبرك الله تعالى به ولا تزد عليه، ولا تستفت فى عددهم وأحوالهم أحدا من أهل الكتاب لأن ما عندك كافيك.

وكان ﷺ لما سألوه عن قصة أصحاب الكهف قال سأخبركم عنها غدا ولم يقل إن شاء الله فحبس الله تعالى عنه الوحى خمسة عشر يوما حتى أحزنه ذلك، ثم نزلت القصة، وجاء سبحانه فى سياق الكلام عن القصة بهذا التأديب تعليما له ﷺ ولأمته بأن لا يقطعوا بشىء فى المستقبل، بل يفوضوا الأمر فيه لمشيئة ربهم.

والمعنى ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك فى المستقبل إلا قولا مقترنا بمشيئة الله أى بقولك إن شاء الله، وقد حافظ ﷺ على ذلك طول حياته انظر الآية (٢٧) من سورة الفتح صفحة ٦٨٣.

المفردات: ﴿من هذا﴾: أى من الحديث عن أصحاب الكهف..

﴿رشدا﴾: قال الراغب: الرشد بفتح الراء والشين، والرشد بضم الراء وسكون الشين ضد الغى والضلال انظر الآية (٢٥٦) من سورة البقرة صفحتى ٥٣، ٥٤، ويستعمل الرشد استعمال الهداية، يقال رشد فلان إذا اهتدى للصواب والخير، ولذا قال الزجاج المراد بالرشد هنا هو إرشاد الخلق ودلالتهم على الخير، وقد يراد به الخير نفسه، انظر الآية (١٠) من سورة الجن

وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ[1] مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَٰوَٰتِ[2] وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِ[3] وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ[4] وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ[5] الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ[6] وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ[7] نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا

صفحة ٧٧١.

﴿لبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين﴾: أى مكثوا فيه ٣٠٠ سنة شمسية.

﴿ازدادوا تسعا﴾: أى تسع سنين إذا حسبناها بالسنين القمرية.

﴿أبصر به وأسمع﴾: تركيبان يدلان على التعجب والمبالغة فى المعنى المفهوم من مادتهما، أى ما أبصر الله سبحانه بكل موجود وما اسمعه بكل مسموع. فهو سبحانه لا يخفى عليه شىء وهذا التعجب صادر من النبى ﷺ ومن كل من يسمع هذا الخطاب فهما داخلان فى المأمور به بقوله سبحانه (قل الله أعلم) إلخ، أى وقل أبصر به إلخ فليس التعجب هنا صادرا من الله تعالى، ولا مانع من صدور تعجب الخلق من بعض صفاته سبحانه وتعالى وأفعاله على معنى أنها عظيمة جدا من شأنها أنها يتعجب منها. ومن ذلك فى الحديث قوله ﷺ: (ما أحلمك يارب على من عصاك، وما أقربك ممن دعاك، وما أعطفك على من سألك). ﴿كتاب ربك﴾: هو القرآن.

﴿لا مبدل لكلماته﴾: لا مغير لأحكامه التى جاءت فى كلماته.

﴿ملتحدا﴾: أى مكانا تميل إليه لتتحصن به أى ملجأ.

(١) ثلاث.
(٢) السموات.
(٣) لكلماته.
(٤) بالغداة.
(٥) الحياة.
(٦) هواه..
(٧) للظالمين.

﴿واصبر نفسك﴾: أى احبسها.

﴿لا تعد عيناك عنهم﴾: لا تصرف عيناك النظر عنهم لتنظر إلى أبناء الدنيا.

﴿فرطا﴾: متجاوزا فيه الحد.

﴿سرادقها﴾: السرادق لفظ فارسى معرب، أرادت به العرب الفسطاط أى (الخيمة).

المعنى: وإذا نسيت أن تقول إن شاء الله فقلها عند تذكرك أنك نسيتها مادمت فى مجلسك ولم تنتقل لحديث آخر، وقل لعل الله أن يوفقنى ويعطينى من الحجج على صدقى ما هو أقرب إلى العقول من قصص أصحاب الكهف وأقوى فى إرشاد الناس. ثم رجع سبحانه إلى إتمام القصة فقال: (ولبثوا) أى مكث الفتية نياما فى كهفهم ثلثمائة سنين شمسية، وإذا حسبت قمرية زادت تسعا، وهذا حساب دقيق لا يعرفه إلا علماء الفلك من أن كل ٣٣ سنة وثلث سنة شمسية تساوى ٣٤ سنة قمرية. فسبحان من علّم نبيه الأمى ما لم يعلم.

وهذا منه تعالى بيان لما أجمله فى قوله (فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا) وإذا كان الأمر كذلك فلا تتجاوز أيها النبى الحق الذى أخبر الله به، ولا تلتفت إلى اختلافات الناس، فإذا سمعت منهم خلاف ما أخبرناك به فقل لهم الله وحده هو الأعلم بمدة مكثهم نائمين، لأنه سبحانه هو المختص بعلم الغيب فى السموات والأرض فما أبصره سبحانه بكل موجود وما أسمعه لكل مسموع، وليس لأهل السموات والأرض من يتولى أمورهم غيره، ولا يشرك سبحانه فى قضائه فى شئون خلقه أحدا من أهل السموات والأرض. ولما فهم مما سبق أن فضل الله عليه ﷺ كان بسبب إنزال هذا القرآن الذى قامت به الحجة على المشركين، وكل أخباره صادقة، قال سبحانه لنبيه: واتل ما أوحى إليك من القرآن الذى أنزله ربك الصادق الحكم، ولا تشغل نفسك بلغوهم عندما قالوا لك إئت بقرآن غير هذا أو بدله انظر الآية (١٥) من سورة يونس صفحتى ٢٦٧، ٢٦٨، فإنه لا أحد يقدر على تبديل كلماته، وإياك أن تخالف أمر ربك، فإنك حينئذ لن تجد من دونه تعالى ملجأ يحفظك منه. ولما كان كفار قريش طلبوا منه ﷺ طرد الفقراء من حوله كما تقدم فى الآية (٥٢) من سورة الأنعام

والآية (٧٣) من سورة الإسراء صفحتى ١٧٠، ٣٧٤ وكما هى عادة المتكبرين من الكفار فى كل أمة، انظر آيات من (٢٧ إلى ٣١) من سورة هود صفحتى ٢٨٨، ٢٨٩ والآية (١١١) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦، لما كان كل هذا أمر سبحانه نبيه بعدم إطاعتهم وبالمحافظة على احترام المؤمنين مهما كانوا ضعفاء أو فقراء، فقال: ﴿واصبر نفسك﴾ أى أحبسها مع فقراء أصحابك الذين يدعون ربهم دائما، خصوصا طرفى النهار وقت غفلة الناس، لا يريدون إلا وجه ربهم، لا رياء ولا طلب نفع، ولا تصرف نظرك عن الفقراء لرثاثة ثيابهم طالبا مجالسة الأغنياء المنعمين بزينة الدنيا إرضاء لهم طمعا فى إيمانهم، ولا تطع فى طرد الفقراء عن مجلسك من جعلنا قلبه غافلا عن تأمل القرآن لتمكن الزيغ من قلبه حتى صار عبدا لهواه، وأصبح أمره فى جميع أعماله بعيدا عن الصواب، انظر الآية (٥) من سورة الصف صفحة ٧٣٨. وبعد ما قطع أطماعهم فى صرفه ﷺ عن فقراء المؤمنين أمره بأن يهددهم بأن يقول لهم هذا الذى جئت به هو الحق من ربكم، فمن شاء أن يؤمن به فليؤمن فهو خير له، ومن شاء الكفر به فليكفر فإنه لم يظلم إلا نفسه، والله قد أعد للظالمين نارا تحيط بهم من كل جانب كما يحيط السرادق بما فيه إحاطة محققة كأنها وقعت.

المفردات: ﴿المهل﴾: هو اسم معدن من معادن الأرض كالذهب والفضة والنحاس إذا أذيب، انظر الآية (٤٥) من سورة الدخان صفحة ٦٥٩، والآية (٨) من سورة المعارج ٧٦٥.

﴿مرتفقا﴾: أصله المتكأ الذى يتكئ عليه الإنسان ليستريح، فهو تهكم بهم لأنه لا راحة فيها.

﴿عدن﴾: تقدمت فى الآية (٢٣) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥.

﴿سندس﴾: هو رقيق ثياب الحرير.

﴿استبرق﴾: هو الغليظ منها.

وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ[1] وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ[2] إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ[3] عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ[4] يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ * وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ[5] وَحَفَفْنَٰهُمَا[6] بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ[7] أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا[8] نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ[9] وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ

﴿الأرائك﴾: جمع أريكة وهى السرير الذى عليه ستار.

﴿اضرب لهم مثلا رجلين﴾: أى اجعل حال رجلين غنى كافر وفقير مؤمن مثلا يعتبر به قومك.

﴿كلتا الجنتين﴾: أى كل منهما.

﴿أكلها﴾: هو ما يؤكل من ثمارها.

﴿تظلم﴾: أى تنقص..

﴿فجرنا خلالهما نهرا﴾: المراد أجرينا فيما بين كل من الجنتين نهرا على حدة كما قال أبو السعود.

﴿أعز نفرا﴾: أى أقوى منك من جهة ما عندى من كثرة الأولاد والخدم والأتباع.

﴿ودخل جنته﴾: المراد دخل جنة من الجنتين، قال ذلك أبو حيان لأن دخول الجنتين فى وقت واحد غير ممكن.

﴿ظالم لنفسه﴾: أى ضار لنفسه بكفره.

---

(١) آمنوا.
(٢) الصالحات.
(٣) جنات.
(٤) الأنهار..
(٥) أعناب.
(٦) وحففناهما.
(٧) آتت..
(٨) خلالهما.
(٩) لصاحبه..

المعنى: وإذا استغاث الظالمون من شدة العطش فى جهنم تأتيهم الملائكة بماء كالنحاس المذاب الشديد الحرارة يشوى الوجوه إذا قربوه منها للشرب منه. قبح هذا الشراب وساءت جهنم مكان راحة.

هذا حال الكافرين فى الأخرة، أما الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة فإنا لا نضيع أجر من أحسن عملا منهم، فنعطيهم جنات عدن تجرى من تحت غرفهم الأنهار، يحلون فيها حلية من أساور من ذهب، ويلبسون ثيابا خضرا من حرير رقيق وغليظ حسب ما تشتهيه أنفسهم، متكئين فى الجنة على السرر ذات الستائر كالملوك، نعم الثواب ثوابهم هذا، وحسنت الجنة مكان راحة. واضرب أيها النبى لهؤلاء الطغاة من كفار قومك الذين استنكفوا أن يجتمعوا مع فقراء المؤمنين عندك وطلبوا منك طردهم، اضرب لهم مثلا حال رجلين أحدهما غنى كافر جعلنا له جنتين ليتم تنعمه بالتنقل بينهما وليأمن التنعم بإحداهما إذا تلفت الأخرى، فى الجنتين فواكه منها الأعناب، وجعلنا النخل محيطا بكرومهما للحفظ والزينة والفائدة، وجعلنا بين أشجارها زرعا كالبر وغيره، لتكون الجنتان جامعتين للطعام والفاكهة وهذا تمام التنعيم، وأعطت كل جنة خير ما يؤكل منها ولم تنقص منه شيئا، وأجرينا وسط كل من الجنتين نهرا لدوام ريها وحفظ بهجتها بدون تعب، وكان لصاحب الجنتين ثمر، أى أنواع من المال سوى الجنتين من ذهب وفضة وغيرهما. وكان له أيضا أولاد لأن الأولاد ثمرة أبيهم، ولذا قال (وأعز نفرا).

ولما رأى زخرف الدنيا قال لصاحبه المؤمن الفقير فى أثناء محاورتهما فى الكلام: أنا أكثر منك مالا وأقوى نفرا. وبعد افتخاره على صاحبه دخل جنة من جنتيه فخورا مستعليا ناسيا نعمة ربه كافراً بها.

المفردات: ﴿منقلبا﴾: مرجعا وعاقبة.

﴿لكن هو الله ربى﴾: أصلها لكن أنا أقول هو الله ربى.

مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ۝ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ

﴿لولا﴾: كلمة تدل على الحث على فعل ما بعدها ويفسرونها بـ (هلاّ).

﴿حسبانا﴾: أصل الحسبان مصدر حسب كالغفران من غفر ومعناه الحساب أريد به المحسوب والمقدر أى صواعق مقدرة جزاء كفرك.

﴿صعيدًا﴾: ترابا صاعدًا على وجه الأرض. ﴿زلقا﴾: الزلق هو الأرض الزلقة بفتح فسكون والمراد هنا أن ترابها مشبعا بالملح والمـاء ولا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها. ولا تثبت عليها القدم والمراد أنها سبخة لا تصلح للزرع مطلقا.

﴿غورا﴾: أصله مصدر غار أى غاب فى الأرض وأريد به غائرا مبالغة.

﴿أحيط بثمره﴾: أى أحاطت الصواعق بالثمر فأهلكته.

﴿خاوية على عروشها﴾: تقدم معناها فى صفحة ٥٤ والمراد خربة.

﴿فئة﴾: هى الجماعة من الناس.

المعنى: قال مغرورا بطول الأمل ما أظن أن تفنى هذه الجنة أبدا، وما أظن القيامة حاصلة، ولئن فرض ورجعت إلى ربى بالبعث كما زعمت والله لأجدن خيرا من هذه الجنة عاقبة، لأنى أهل للنعيم فى كل حال. قال له صاحبه المؤمن وهو يناقشه: هل يصح أن تكفر بربك الذى خلقك من تراب باعتبار أصل مادتك، ثم من نطفة باعتبار مبدئك

---

(١) سواك.
(٢) لكن.
(٣) يا ليتنى.

القريب، ثم سواك أى عدلك رجلاً كاملاً. وإنما نسب إليه الكفر لأنه أنكر البعث وشك فيه، أى فأنت بهذا كافر؛ لكن أنا أقر بأن الله هو ربى ولا أشرك به أحدا؛ أما كان الأحق بك أنك حين دخول جنتك ونظرت إلى ما أنعم به عليك قلت هذا ما شاء الله لى ليكون حاملاً لى على شكره، وأقر بأنى لا قوة لى على تحصيل هذا المال إلا بمعونة الله، وبعد هذه النصيحة نبهه إلى أن الله قادر على أن يعطيه خيرا من جنته، بل ويرسل عليها صاعقة من السماء تهلك زرعها وأشجارها، أو يهلكها بإذهاب الماء عنها وجعله يغور فى باطن الأرض حتى يستحيل عليه طلبه، وقد حقق الله عز وجل ما أنذره به المؤمن، فأحاطت المصائب بثمار جنتيه بعدما ظن أنها لا تفنى أبدا. فأصبح يقلب كفيه ندما وأسفا على ضياع ما أنفقه فيها.

والحال أنها ساقطة على عروشها من الخراب، وتمنى أن لم يكن أشرك بربه أحدا، وتمنيه هذا صدر عنه اضطرارا وجزعا مما دهاه وليس عن ندم وتوبة، انظر مثله فى الآية (٦٥) من سورة العنكبوت صفحتى ٥٢٩، ٥٣٠، فهو خسر كل شىء، ولم تكن له عشيرة وعزوة ممن استعز بهم وافتخر على المؤمن، لا أحد من هؤلاء ينصره بدفع المصائب عنه من دون الله، فإنه وحده القادر على دفع السوء.

المفردات: ﴿هنالك﴾: أى فى ذلك المقام وهو مقام الشدائد والمحن.

﴿الولاية﴾: النصرة والمعاونة.

﴿عقبا﴾: أى عاقبة.

﴿واضرب لهم.. إلخ﴾: أى واجعل لهم إلخ ﴿مثل الحياة الدنيا كماء إلخ﴾ هذا التشبيه يسميه العلماء تشبيها مركبا، وهو تشبيه مجموعة أشياء بمجموعة أخرى فى معنى يجمعها، والمراد هنا تشبيه حال الحياة الدنيا وما فيها من زخارف ومغريات ثم تزول سريعا بحال

وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَٰيَةُ[1] لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ[2] الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ[3] مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ[4] وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ[5] الدُّنْيَا وَالْبَٰقِيَٰتُ[6] الصَّٰلِحَٰتُ[7] خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ[8] فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ[9] أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن[10] نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَٰبُ[11] فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا[12] مَالِ هَٰذَا الْكِتَٰبِ[13] لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا[14] وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا

نبات رواه ماء المطر وصار أخضر بهيجًا، ثم جف وصار هشيما فى أسرع وقت.

﴿هشيما﴾: يابسا متكسرا.

﴿تذروه الرياح﴾: أى تنسفه وتطيره.

﴿نسير الجبال﴾: انظر ما سيحصل للجبال فى شرح الآية (١٠٥) من سورة طه صفحة ٤١٦.

﴿بارزة﴾: أى ليس عليها شىء مما كان يسترها من جبال وأشجار وزروع ومياه.

﴿فلم نغادر﴾: لم نترك.

﴿بل زعمتم﴾: المراد زعم منكروا البعث منكم، لا كل الخلائق الواقفة فى المحشر، لأن منهم مؤمنين، ومثل هذا جاء فى القرآن ﴿قالوا يا موسى اجعل لنا إلها.. إلخ﴾ الآية (١٣٨) من سورة الأعراف صفحة ٢١٣.

---

(١) الولاية.
(٢) الحياة.
(٣) أنزلناه.
(٤) الرياح.
(٥) الحياة.
(٦) الباقيات.
(٧) الصالحات.
(٨) وحشرناهم.
(٩) خلقناكم.
(١٠) أن لن.
(١١) الكتاب.
(١٢) يا ويلتنا..
(١٣) الكتاب.
(١٤) أحصاها.

﴿ووضع﴾: أى فى اليمين للطائعين والشمال للعاصين كما فى آيتى (١٩، ٢٥) من سورة الحاقة صفحتى ٧٦٢، ٧٦٣.

﴿الكتاب﴾: هو كتاب الأعمال.

﴿مشفقين﴾: خائفين.

﴿ياويلتنا﴾: كلمة تحسر، انظر الآية (٣١) من سورة المائدة صفحة ١٤٢.

المعنى: ما كان له من يعاونه على النصر، وما كان منتصرا هو بنفسه لشدة ضعفه أمام قدرة الله فى هذا المقام الذى يعجز فيه كل مخلوق عن دفع البلاء. يتضح أن العون النافع لا يكون ثابتا إلا للإله الحق لا يقدر عليه غيره، فهو سبحانه خير لعبده المؤمن من جهة الجزاء الحسن والعاقبة الطيبة.

وبعد ما ضرب سبحانه المثل لحال الكافر الذى أبطرته النعمة، والمؤمن الواثق بربه، أراد أن يضرب مثلا آخر لسرعة زوال الحياة الدنيا وعدم دوام نعيمها فقال: ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا﴾ إلخ: أى أجعل أيها النبى لهؤلاء المغرورين بالدنيا صفتها مثلا عجيبا لعلهم يعتبرون، وقل لهم إن حال الدنيا فى بهجتها وسرعة زوالها كحال نبات رواه ماء المطر فاخضر والتف بعضه على بعض وأزهر، ثم لم يمكث طويلا حتى جف وصار هشيما تطير به الرياح فى كل ناصية حتى لا يبقى له أثر، وذلك بقدرة الله دائم القدرة على كل شىء من إيجاد وإفناء.. ثم بين سبحانه بعض زخارف الدنيا التى تفنى سريعا وما يقابلها مما يبقى خالدا فقال سبحانه: المال والبنون التى يفخر بها كفار أمتك هى زينة الحياة الدنيا فقط إذا لم يحولها صاحبها إلى زاد دائم للآخرة، أما أعمال الخير التى تبقى ثمرتها خالدة فى الآخرة فلاشك أنها خير عند الله من جهة الثواب ومن جهة ما يؤمله العاقل ليحيا سعيدا؛ وحذرهم أيها النبى من الأهوال يوم نسير الجبال الخ. والذى نفهمه من مجموع آيات القرآن أن الجبال تنفصل عن

الأرض ثم تسير فى الجو بسرعة ثم تتساقط فتصير كثيبا مهيلا ثم هباء منبثا كالعهن المنفوش، انظر الآيات (١٠٥) من سورة طه صفحة ٤١٦، و(٨٨) من سورة النمل صفحة ٥٠٥، و(١٠) من سورة الطور صفحة ٦٩٧، و(٥) من سورة الواقعة صفحة ٧١٣، و(١٤) من سورة المزمل صفحة ٧٧٤، و(١٠) من سورة المرسلات صفحة ٧٨٤، و(٢٠) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧، و(٥) من سورة القارعة صفحة ٨١٩، وكل هذا يحصل يوم القيامة فى زمن لا يعلم حقيقة مقداره إلا الله سبحانه. وترى الأرض الجديدة غير أرض الدنيا ليس عليها شيء مما كان فى الدنيا، انظر الآية (٤٨) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٧، وحشر الله تعالى الناس جميعا عليها ولم يترك منهم فردا، وعرضوا على ربك صفا أى مصفوفين كما يصف الجند فى العرض لا يحجب أحد غيره، يقول سبحانه لهم: لقد جئتمونا فرادى لاشيء معكم من ولد ولا مال ولا شفيع، عراة كما خلقناكم أول مرة، انظر الآية (٩٤) من سورة الأنعام صفحة ١٧٨، وكان الكفار فى الدنيا لم يكتفوا بتكذيب الرسل فى أنهم من عند الله، بل زعموا أن الله لن يجعل لكم موعدا يجمع الناس فيه للحساب، فقالوا وما نحن بمبعوثين، ووضع فى يد كل واحد كتابه، فيفرح المؤمنون ويخاف المجرمون مما فيه ويظهرون الحسرة والندم والدهشة من أنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة من أعمالهم إلا وسجلها.

المفردات: ﴿حاضرا﴾: مكتوبا فى الصحف.

﴿ففسق عن أمر ربه﴾: أى خرج من طاعة أمر ربه.

﴿وذريته﴾: أى أولاده، وقال جماعة المراد أتباعه من الجن والإنس.

﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض﴾: أى لم أحضر إبليس وذريته عندما خلقت السموات والأرض وعندما خلقتهم أى لم أشهد بعضهم خلق بعضهم الآخر.

﴿عضدا﴾: أعوانا.

(الجزء الخامس عشر) ٣٨٨

حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ[1] اسْجُدُوا لِآدَمَ[2] فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ[3] بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَٰتِ[4] وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآءِىَ[5] الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوٓا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا الْقُرْءَانِ[7] لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَٰنُ[8] أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ

﴿موبقا﴾: اسم مكان من وبق وبقا كفرح فرحا إذا هلك، أى مكان هلاك يشتركون فيه وهو جهنم، انظر الآية (٣٤) من سورة الشورى صفحة ٦٤٣.

﴿فظنوا﴾: الظن هنا بمعنى اليقين كما فى الآية (٤٦) من سورة البقرة صفحة ١٠، والآية (٢٠) من سورة الحاقة ٧٦٢.

﴿مواقعوها﴾: أى مخالطوها وواقعون فيها.

﴿مصرفا﴾: أى مكانا ينصرفون إليه بعيدا عنها.

﴿ولقد صرفنا فى هذا القرآن﴾: إلخ: تقدم بيانها فى الآية (١٠٥) من سورة الأنعام صفحة ١٨٠، وانظر ما فى صفحة ٣٦٩.

المعنى: ووجدوا ما عملوا مسجلاً فى صحف أعمالهم، ولم يظلم ربك أحدا منهم بزيادة ذنوب لم يعملها. ولما كانت كل هذه المصائب بسبب الخضوع للشهوات التى زينها لهم إبليس وجنوده، أراد سبحانه أن يذكرهم فى هذا المقام بما بين إبليس وبينهم من العداوة لعلهم

(١) للملائكة.
(٢) لآدم.
(٣) للظالمين.
(٤) السموات.
(٥) شركائى.
(٦) ورائى.
(٧) القرآن.
(٨) الإنسان.

يحذرونه فقال: ﴿وإذا قلنا﴾ إلخ: أى واذكر لهم أيها النبى وقت أمرنا للملائكة وغيرهم من باب أولى باحترام آدم فأطاع الجميع إلا إبليس، وذلك لأنه لم يكن من جنس الملائكة الذين لا يعصون الله تعالى بل كان من الجن المخلوق من النار؛ لهذا خرج عن طاعة ربه، فهل يصح بعد ذلك أن تتخذوا إبليس وذريته يا أولاد آدم أنصارا لكم بدلا منى وأنا خالقكم، والحال أنهم لكم أعداء.. قبح هذا البدل الذى فضلتموه على المنعم عليكم، انظر قصة سجود الملائكة إلا إبليس فى الآية (٣٤) من سورة البقرة صفحة ٨. وما قيمة إبليس وذريته مع أنى أنا وحدى الذى خلقت السموات والأرض ولم أحضر واحدا منهم ليساعدنى، ولا أحضرت واحدا منهم عند خلق زميله الآخر لأنى لا أحتاج إلى أعوان فى ذلك، فضلا عن المضلين المفسدين، والمراد أن إبليس لا فضل له عليكم فكيف تطيعونه. وذكرهم يوم يقول الله سبحانه للمشركين نادوا الذين ادعيتم فى الدنيا أنهم شركائى فى العبادة وزعمتم أنهم يشفعون لكم، واطلبوا منهم أن يمنعوا عنكم عذاب جهنم، فنادى المشركون ما كانوا يعبدونهم ليغيثوهم فلم يجبهم ولم يغثهم أحد، وجعلنا بين الكفار وآلهتهم مكانا يشتركون فى الهلاك فيه وهو جهنم.

ولما رأى المجرمون النار أيقنوا أنهم واقعون فيها ولا مفر لهم منها.. ولقد نوعنا العبر على صور مختلفة فى هذا القرآن قطعا لأوهامهم الباطلة، ولكن كفار مكة لم ينقطعوا عن الجدل الباطل؛ لأن هذا طبع مريض القلب المكابر. وما منع هؤلاء المشركين من أن يؤمنوا بما جاء به رسولنا حين جاءهم القرآن الهادى للحق، ومن أن يستغفروا ربهم بالتوبة عما سبق منهم، إلا تعنتهم وطلبهم من الرسول أن يأتيهم بأحد أمرين:

المفردات: ﴿سنة الأولين﴾: وهى إهلاكهم دفعة واحدة.

﴿قبلا﴾: جمع قبيل بمعنى نوع، انظر صفحة ١٨١، أى قبيلا بعد قبيل.

﴿ليدحضوا﴾: ليبطلوا ويزيلوا..

﴿أكنة﴾: جمع كنان بكسر أوله وهو الغطاء.

سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ[1] الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ[2] لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي[3] وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ[4] رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ[5] وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ[6] لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ[7] لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا

﴿وقرا﴾: صمما..

﴿موئلا﴾: هو اسم مكان من وأل إليه يئل إذا لجأ إليه أى ملجأ.

﴿لمهلكهم﴾: المهلك مصدر بمعنى الهلاك جاء على خلاف القياس كمرجع فى الآية (٥٥) من سورة آل عمران صفحتى ٧١، ٧٢.

﴿لفتاه﴾: أى خادمه يوشع بن نون من نسل يوسف عليه السلام.

﴿لا أبرح﴾: لا أزال، والمراد لا أزال أسير.

﴿مجمع البحرين﴾: هو المكان الذى يجتمع فيه بحران ويصيران بحرا واحدا.

﴿حقبا﴾: هو اسم مفرد بمعنى المدة الطويلة وجمعه أحقاب كعنق وأعناق.

﴿حوتهما﴾: الحوت هو نوع من السمك.

المعنى: ولم يمنع المشركين من الإيمان إلا اشتغال قلوبهم بالتعنت الذى حملهم على طلب أحد أمرين: إما صاعقة تفنيهم جميعا كما فى الآية (٣٢) من سورة الأنفال صفحة ٢٢١، وإما أنواع من العذاب والبلاء يتلو بعضها بعضا وهم موجودون فى الدنيا، انظر الآية (٩٢) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٧، والآية (٣٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٤، والآية (٧١) من سورة النمل صفحة ٥٠٣، والآية (٢٨) من سورة السجدة صفحة ٥٤٨، والآية (٢٩) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٦، ٥٦٧. ولما كان مجىء ذلك أمره مفوض إلى الله تعالى لا إلى رسول ولا غيره قال: وما نرسل المرسلين إلا لبشارة المؤمنين بالجنة وتخويف الكافرين بالعذاب، ولم نرسلهم ليقترح عليهم المعاندون آيات معينة، ويطلبوا منهم ما لا قدرة لهم عليه. هذا هو الواقع، ولكن

(١) ويجادل. (٢) بالباطل. (٣) آياتى. (٤) بآيات. (٥) آذانهم. (٦) أهلكناهم. (٧) لفتاه.

الذين كفروا يعرضون عن الجنة ويجادلون بالباطل، كاقتراح معجزات معينة، وقولهم للرسل ما أنتم إلا بشر مثلنا، والله لا يرسل إلا ملائكة وغير ذلك، ليبطلوا بهذا الجدل الحق، واتخذوا آياتى القرآنية وما أنذرهم به من العذاب سخرية، فيقولون ما هذا القرآن إلا أكاذيب الأولين، ولو نشأ لقلنا مثله، وبهذا ظلموا أنفسهم حيث حرموها من السعادة لأنه لا أحد أظلم ممن وعظ بآيات الله فأعرض عنها ونسى ما عمل من المعاصى ولم يتفكر فى عواقبه. وسبب ذلك أنهم لما أفسدوا فطرهم بالشهوات عاقبناهم بالطمس على قلوبهم فلا تعقل، وعلى آذانهم فلا تسمع سماع فهم، انظر الآية (٧) من سورة البقرة صفحة ٤، والآية (١٤) من سورة المطففين صفحة ٧٩٧، وكان أثر كل هذا أنك إن تدعهم أيها النبى إلى الهدى فلن يهتدوا إذا كان هذا حالهم أبدا. ولا يغتر أحد بتأخير عذاب كفار مكة لأن الله سبحانه قدر أن هذه آخر الأمم، فأفسح المجال لمن يتوب فيغفر له، ووسع الباقى برحمته التى وسعت كل شىء حتى الكافر كما فى الآية (١٥٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٧، ولو آخذهم بذنوبهم لعجل لهم عذاب الإفناء كغيرهم، ولكنه تركهم لموعد يذوقون فيه أشد العذاب وهو يوم القيامة، ولا يجدون ملجأ يحفظهم منه، وإمهالهم رحمة منه سبحانه بأمة محمد كلها، أما أهل تلك القرى الماضية من عاد وثمود وغيرها فإنا أهلكناهم جميعا لما ظلموا بتكذيب رسلهم، وجعلنا لهلاكهم موعدا لا يختلف، فكذلك سيكون عذاب هؤلاء. واذكر أيها النبى وقت قول موسى نبى الله لفتاه يوشع لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين، قيل عند بوغاز باب المندب جنوب اليمن وقيل عند جبل طارق. والصحيح أنه لم يرد عن النبى ﷺ ما يبينه ولو كان لبيانه دخل فى الاعتبار بالقصة لذكره، أو أسير زمنا طويلا حتى لا أعد مقصرا فى طلبه. فلما بلغا المجمع الذى هو بين البحرين نسيا حوتهما إلخ. وسبب ذكر هذه القصة هنا أنه سبحانه بعد ما ذكر أن من أسباب كفر قريش تكبرهم على الفقراء المؤمنين واستعظامهم أن يجمعهم مجلس واحد كما فى الآية (٢٨) من هذه السورة صفحة ٣٨٤، أرشدهم أولاً بصاحب الجنتين الغنى الكافر وصاحبه الفقير المؤمن وعاقبة كل منهما. ثم بين لهم أن زينة الدنيا لا قيمة لها بجانب الأعمال الصالحات.

ثم ذكرهم أيضا بما جره الكبر على إبليس حين منعه من تعظيم آدم ظنا منه أنه خير منه، ثم أيد ذلك أيضا بقصة موسى وصاحبه ليبيّن لكفار قريش أن موسى مع كونه نبيا ورسول الله لبنى

فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ[١] ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا[٢] ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ[٣] إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ[٤] إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ[٥] أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا[٦] قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ[٧] رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ[٨] مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى[٩] عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

إسرائيل لم يأنف أن يتعلم ممن هو أقل منه ما خفى عليه، وهذا أكبر دليل على أن التواضع من أقوى أسباب الفلاح، وأن الكبر من أقوى أسباب الهلاك. أما سبب ما حدث لموسى فنوضحه فيما يأتى.

المفردات: ﴿سربا﴾: السرب هو المكان الذى فيه انحدار.

﴿نصبا﴾: تعبا.

﴿أرأيت﴾: تقدم فى الآية (٤٠) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨ ومعناها أخبرنى، وفى الكلام استفهام مقدر، والأصل أخبرنى ما الذى شغلنى حين أوينا إلى الصخرة حتى نسيت الحوت.

﴿إذ أوينا﴾: أى التجأنا إليها لنستريح.

﴿وما أنسانيه إلا الشيطان﴾: تقدم فى الآية (٦٨) من سورة الأنعام صفحتى ١٧٢، ١٧٣ حكمة نسبه مثل ذلك للشيطان.

﴿أن أذكره﴾: مصدر مئول بدل الضمير العائد على الحوت، والأصل ما أنسانى تذكره إلا الشيطان.

﴿عجبا﴾: هذا مبدأ كلام أى أنى أعجب. من ذلك عجبا. ﴿نبغ﴾: أى نطلب.

﴿قصصا﴾: يقصان قصصا أى يتبعانه اتباعا. ﴿عبدا من عبادنا﴾: التحقيق أنه نبى بدليل قوله ﴿وعلمناه﴾ وقول موسى ﴿تعلمنى مما علمت﴾ وقوله ﴿ما فعلته عن أمرى﴾ أى بل بوحى.

﴿رحمة﴾: هى النبوة انظر الآية (٣٢) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠.

(١) لفتاه. (٢) آتنا. (٣) أرايت.
(٤) أنسانيه.. (٥) الشيطان. (٦) آثارهما.
(٧) آتيناه. (٨) وعلمناه. (٩) تسالنى.

﴿من لدنا﴾: من عندنا. ﴿رشدًا﴾: أصله مصدر كالبخل وجعل وصفا مبالغة أى علمًا ذا رشد، والرشد إصابة الخير. ﴿تحط به خبرا﴾: الخبر: المعرفة، والأصل ما لم يحط به خبرك.

﴿أحدث لك منه ذكرا﴾: أى ابتدئك أنا بذكره أى ببيانه.

المعنى: قال ابن جرير: إن موسى عليه السلام جرى بخاطره يوما أنه ليس على وجه الأرض فى زمنه من هو أعلم منه، فأراد سبحانه أن يرشده إلى أن التواضع خير، فأوحى إليه أن فى زمنك من يعلم ما لاتعلم يا موسى، فطلب موسى منه تعالى أن يجمعه به ليزداد علما وزيادة العلم مطلوبة من كل نُبى انظر ما قيل لنبينا ﷺ فى الآية (١١٤) من سورة طه صفحة ٤١٧، فأخبره سبحانه أنه موجود على ساحل البحر، ولم يعين له مكانه بالتحديد حتى يرى أن العلم مما ينبغى استسهال الصعب فى الحصول عليه، وقال له خذ معك حوتا ففى المكان الذى تفقد فيه هذا الحوت تجد هذا العالم، فأمر موسى فتاه بحمل الحوت، وقال سنستمر سائرين حتى نبلغ آخر هذا الساحل عند التقاء هذا البحر ببحر آخر، فإن لم أجد هذا الرجل فسأسير دهرا طويلا حتى أجده، فـ سارا. فلما بلغا مجمع البحرين ناما فى ظل صخرة ثم بعد استيقاظهما تابعا السير ونسيا الحوت مكانهما، فسقط فى البحر، واتخذ فيه طريقا منحدرا إلى أسفل الماء، فلما جاوزا ذلك المكان بمدة أحسا فيها بالجوع والتعب قال موسى لفتاه: آتنا ما نتغذى به، وهذا يدل على أن هذا الطلب كان وسط النهار، لقد لقينا من سفرنا هذا تعبا. فلما تفقد الفتى المتاع اكتشف فقد الحوت فقال متأسفا: أخبرنى يا سيدى عما دهانى وشغلنى حتى جعلنى أنسى الحوت، وما أنسانى تذكره فى حينه إلا الشيطان ولابد أن يكون الحوت سقط فى البحر عندما كنا نياما، وإنى لأعجب من غفلتى هذه عجبا شديدا. قال موسى ذلك الذى ذكرت من مكان ضياع الحوت هو ما نطلبه، فرجعا فى الطريق الذى جاءا منه يتبعان أثرهما اتباعا حتى وصلا الصخرة فوجدا عبدا من عبادنا الصالحين أعطيناه وحيا ونبوة من فضلنا وعلمناه من عندنا أيضا علما غزيرا من بعض الأسرار الخفية التى لا يلزم أن يتعلمها الرسول؛ فالرسول يجب أن يعلم العقائد والشرائع التى يبلغها للناس، ولذا قال رسولنا ﷺ: (أنتم أعلم بأمور دنياكم) قال له موسى هل ترضى أن أسير معك على أن تعلمنى مما علمك الله من العلم الذى يوصل للرشد؟ قال إنك لن تستطيع معى صبرا. وبين السبب

فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا[1] فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى[2] قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ[3] عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

بقوله: وكيف تصبر وأنت رسول على أمور ظاهرها لا يتفق وما جئت به إلى الناس أحيانا، والرجل الصالح لا يسكت على ما يراه مخالفا؟ قال موسى: ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا تأمرنى به. قال فإن اتبعتنى فلا تفاتحنى بالسؤال عن شىء خفى عليك، بل اسكت حتى ابتدئ بذكره لك مبينا وجه الصواب فيه.

المفردات: ﴿إمرا﴾: عظيما فى بشاعته من قولهم أمر الأمر بوزن تعب إذا عظم.

﴿لا ترهقنى﴾: أى تحملنى ما لا أطيق.

﴿من أمرى﴾: وهو اتباعى لك.

﴿عسرًا﴾: صعوبة.

﴿زكية﴾: طاهرة من الذنوب لأنه صغير لا ذنب عليه فى شىء مما يفعل. ﴿نكرا﴾: منكرا.

﴿استطعما أهلها﴾: طلبا منهم طعاما.

وكان الأصل أن يقول حتى إذا أتيا أهل قرية استطعماهم ولكنه أظهر فى مقام الإضمار للتحقير والتبشيع، وقال بعض العلماء أنهما لما وصلا القرية وجدا فى طريقهما بعض أهلها ولما طلبا منهم طعاما وامتنعوا مروا على جميع أهل القرية ممن يرجى منهم إطعام الغريب فامتنعوا أيضا. فالأهل الأول غير الثانى.. والغرض من حكاية ذلك أن صاحب موسى رغم ما قوبل به هو وموسى من الجفاء وعدم المروءة فإنه لم يمنعه ذلك من إصلاح الفاسد وقتابلة

(١) غلاما.
(٢) تصاحبنى.
(٣) لاتخذت.

الإساءة بالإحسان. وجواب إذا فى قوله ﴿حتى إذا أتيا إلخ﴾ هو قوله الآتى ﴿قال لو شئت لاتخذت﴾.. إلخ والكلام من أول قوله ﴿استطعما﴾ إلى آخر قوله ﴿فأقامه﴾ كله صفة لقرية.

﴿يضيفوهما﴾: ينزلهما عندهم ضيوفا.

﴿يريد أن ينقض﴾: المراد يقرب من السقوط. والعرب تستعمل الإرادة من غير العاقل بمعنى القرب.

المعنى: فسارا حتى وجدا سفينة فركباها، وفى أثناء سيرها أحدث فيها الرجل الصالح خرقا يجعلها معيبة، وإن كان لا يغرقها فعلا، لكنه قد يعرضها للغرق. عند ذلك قال موسى: هل خرقتها قاصدا إغراق أهلها؟ إذن أنت فعلت أمرا خطيرًا.. قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا؟ قال موسى: لا تؤاخذنى بما نسيت من وصيتك ولا تكلفنى مشقة فى اتباعى لك، بل سهلها علىَّ بالسماح ثم سارا بعد نزولهما من السفينة حتى وجدا غلاما فقتله صاحبه، قال موسى منكرا: كيف تقتل نفسا طاهرة من غير أن تكون قد قتلت نفسا محرمة؟ لقد فعلت شيئا منكرا. فكرر عليه اللوم السابق مع زيادة ﴿لك﴾ للفت نظره لأنه قارب على مقاطعته.. فأدرك موسى ذلك وقال: إن سألتك عن شىء بعد هذه المرة فلا تجعلنى لك صاحبا، لأنك قد بلغت الغاية التى تعذر بها فى فراقى.

ثم سارا حتى أتيا أهل قرية طلبا من أهلها طعاما فكانوا بخلاء حتى بلغت شناعة بخلهم أنهم رفضوا حتى نزولهما عندهم ولو بدون طعام، وهذا منتهى الدناءة، لأن الكريم قد يعجز عن طعام ولكن لا يمكن أن يعجز عن إيواء. وسارا فى القرية فوجد الرجل الصالح حائطا مائلا للسقوط فأصلحه حتى أقامه كما كان، وكان قبيح صنع هؤلاء الناس سببا فى قول موسى منكرا عمل معروف فى هؤلاء اللئام: لو شئت أخذ أجر على إصلاح هذا الحائط لأخذته. قال: هذا الاعتراض الأخير هو سبب الفراق بينى وبينك حسب العهد الذى قطعته أنت على نفسك، وسأخبرك بوجه هذا التصرف الذى خفى عليك ولم تستطع صبرا على السكوت عليه.

المفردات: ﴿مساكين﴾: وصفهم بالمسكنة مع ملكهم سفينة لأنه ليس لهم مورد رزق غيرها.

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ[1] يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ
أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾
وَأَمَّا الْغُلَٰمُ[2] فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا
طُغْيَٰنًا[3] وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ
زَكَوٰةً[4] وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ[5]
يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا
صَٰلِحًا[6] فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا
رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ
تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ[7] عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ
قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ
وَءَاتَيْنَٰهُ[8] مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ
إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ

﴿يعملون فى البحر﴾: المراد يؤجرونها للعمل.

﴿وراءهم ملك﴾: تطلق (وراء) على خلف وهو كثير فى القرآن، وعلى أمام كما فى آيتى (١٦، ١٧) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٢ وهو المراد هنا.

﴿يرهقهما﴾: يحملهما بمشقة.

﴿طغيانا﴾: تجاوزا حد الشرع.

﴿زكاة﴾: طهارة نفس وصلاح.

﴿رحما﴾: عطفا ورحمة.

﴿يبلغا أشدهما﴾: يبلغا سن الرشد.

﴿ذى القرنين﴾: يرى بعضهم أنه الإسكندر المقدونى، ويرى آخرون أنه من حمير باليمن لأن لقب (ذى كذا) غير معروف عند غيرهم كذى نواس وذى يزن، وسمى ذا القرنين لأنه بلغ مطلع قرنى الشمس من المشرق والمغرب، وسنعرض لما حققه العالم الكبير المرحوم (أبو الكلام أزاد) وزير معارف الهند سابقا وذلك عند شرح معنى قوله تعالى ﴿ويسألونك عن ذى القرنين﴾ فقد حقق رحمه الله بما لا يدع مجالا للشك أن (ذا القرنين) هو الملك الفارسى الصالح (قورش)، ورد بقوة القول بأنه الإسكندر المقدونى.

﴿أتلو عليكم منه ذكرا﴾: أتلو عليكم من بعض أخباره قرآنا تعلمون منه حاله.

﴿مكنا له فى الأرض﴾: أى مكنا له التصرف فى الأرض.

---

(١) لمساكين. (٢) الغلام. (٣) طغيانا.
(٤) زكاة. (٥) لغلامين. (٦) صالحا.
(٧) ويسألونك. (٨) وآتيناه.

﴿من كل شىء سببا﴾: أى أعطيناه من كل شىء أراده لتحقيق أغراضه طريقا.

﴿فأتبع سببا﴾: أى سلك طريقا يوصله من علم أو صنعة أو غير ذلك.

﴿مغرب الشمس﴾: المراد منتهى الأرض من جهة المغرب على شاطئ المحيط الأطلسى لأنه لم يكن معروفا أن وراءها شيئا.

﴿عين حمئة﴾: أى ذات حمئة وهى الطين الأسود.

المعنى: أما السفينة فكانت لمحاويج يؤجرونها للناس للحمل عليها فى البحر، فأردت أن أحدث فيها عيبا لا يرغب الظالم فيها، لأنى أعلم أن أمامهم ملكا يأخذ كل سفينة تعجبه غصبا، وهم ضعاف لا يستطيعون دفع ظلمه. وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين وهو مطبوع على الكفر، فخفنا لو تركناه وقوى أن يحملهما على الطغيان وتجاوز الحدود وعلى الكفر بالله بعد الإيمان، لأن شدة محبتهما له مع شدة رغبته فى الكفر قد توقعهما فيه، فأردنا أن ندفع شره عنهما، ورجونا أن يبدلهما ربهما ولدا غيره يكون خيرا منه صلاحًا وطهارة نفس، وأقرب عطفا ورحمة بأبويه. وأما الجدار فكان لصغيرين يتيمين فى المدينة، وكان تحته كنز لهما تركه أبوهما وكان رجلا صالحا، فأراد ربك حفظه لهما رعاية لحقهما وإكراما لصلاح أبيهما الذى أورثهما الصلاح والتقوى، فأمرنى بإقامة الجدار حتى يبلغا رشدهما ويستخرجا كنزهما، ورحمهم سبحانه بذلك رحمة واسعة عظيمة منه.. وما فعلت كل شىء مما رأيت عن أمرى ومن تلقاء نفسى، بل عن أمر ربى وبوحى منه مبنى على أساس ارتكاب أخف الضررين والمعاملة بالأحسن... ذلك الذى قلته لك هو تأويل الأفعال التى لم تطق الصبر عليها. وكان اليهود يحاولون إحراجه ﷺ، فيوعزون إلى مشركى مكة أن يسألوه ﷺ عن الأشياء الغريبة المجهولة عند الناس إلا قليلا منهم لعله يخطئ فيجدون منفذا للطعن فيه. من ذلك أنهم قالوا سلوه عن ذى القرنين وماذا حصل منه، فقال:﴿ويسألونك عن ذى القرنين﴾ إلخ، وهل كان ذو القرنين رجلا صالحا فقط أو نبيا كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿قلنا ياذا القرنين﴾ الآتى فى الآية (٨٦)، قل لهم أيها النبى سأتلو عليكم من أخباره قرآنا، ثم بين ذلك بقوله: ﴿إنا مكنا له فى الأرض﴾ أى مكناه من التصرف فى الأرض، وآتيناه من كل شىء يحتاجه فى أغراضه ومقاصده ما يوصله إليها من علم وقدرة ومعدات فعمل به، وسار غربا حتى إذا بلغ منتهى

الأرض من جهة المغرب، ووقف على ساحل البحر، وجد الشمس أى رآها فى رأى العين لا فى الحقيقة كأنها تغرب فى طين أسود؛ لأن لون ماء البحر أزرق يظهر من بعيد كأنه أسود، أما عن (ذى القرنين) فاعلم وفقنى الله وإياك أن كلا من المفسرين والمؤرخين لم تضطرب آراؤهم وتتشعب أقوالهم مثل اضطرابها وتشعبها فى تعيين من هو ذو القرنين الذى جاء ذكره فى القرآن، حتى جاء المرحوم (أبو الكلام آزاد) وزير معارف الهند المتوفى سنة ١٩٥٨ ميلادية، ووجد أمامه هذا البحر الخضم من الآراء، ولمح من خلالها أنه ليس لرأى منها سند قوى تطمئن إليه النفوس، فأجهد نفسه باحثا عن الصواب، فهداه الله سبحانه إلى الخطة المثلى، فبدأ بجمع خيوط المسألة من هنا، ومن هناك، وأخذ يتأملها حتى وصل للحق الذى لا ريب فيه، فكان أول ما فكر فيه هو الوصول إلى من هم هؤلاء السائلون عن ذى القرنين؟ ليتخذ من حالهم الخيط الأول الموصل للحل، فوجد أنهم هم اليهود أو مشركو مكة، بإيعاز من اليهود، فأخذ طريقه فى البحث عن تاريخ اليهود فى هذه الفترة من الزمن ليصل إلى سبب سؤالهم هذا، فقرأ كل كتبهم المقدسة فسرعان ما وضع يده على هذا الخيط الأول، ففى سفر (دانيال النبى) إصحاح ٨ آية (١)، وفى سفر (النبى يشعياه) إصحاح ٤٤ آية (٣٥)، وفى سفر (عزرا) الإصحاح الأول من أول آية فيه إلى آخره، جاء فى هذه الأسفار الحديث عن ملك فارسى عادل اسمه (كورش) أو (قورش) وأنه أنقذ اليهود فى بابل من الأسر الذى أوقعهم فيه (بختنصر)، ودام سبعين عاما، ورد إليهم كثيرا مما سلب منهم، وأرجعهم إلى بيت المقدس، فهذا يدل على عناية اليهود بهذه الشخصية. ثم اتجه بحث أبو الكلام بعد ذلك إلى تاريخ فارس وما كتبه المؤرخون قديما خصوصا اليونان عن هذا الملك العادل، فوجد فيها ما يؤيد كتب اليهود المقدسة. وفى كتابه (إغاثة اللهفان) يقول ابن القيم: ومن ملوك اليونان اسكندر المقدونى. وهو (ابن فيلبس) وليس هو ذا القرنين الذى قص الله تعالى نبأه فى القرآن. بل بينهما قرون كثيرة، وبينهما فى الدين أعظم تباين: ولذا قال أبو الكلام إن سيرة (قورش) و(اسكندر المقدونى) على طرفى نقيض، فبينما تنادى صفات ذى القرنين بالصلاح والتقوى، نجد سيرة إسكندر تثبت أنه كان جبارا قاسيا فى معاملة المغلوبين، وأنه طالما أتلف جميع مقدساتهم، وأنه كان ماجنا حتى أنه مات عقب حفلة شراب. ومن هنا فقد أكد أبو الكلام بما لا يدع مجالا للشك أن ذا القرنين المذكور فى هذه الآية هو الملك الفارسى الصالح (قورش).

وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ[1] إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ[2] وَعَمِلَ صَٰلِحًا[3] فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا[4] ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ

المفردات: ﴿عندها﴾ المراد قريبا من تلك العين على الشاطئ.

﴿قوما﴾: قيل كانوا كفارا يعيشون على الصيد وما يلفظه البحر.

﴿تتخذ فيهم حسنا﴾: المراد تتخذ فى معاملتهم طريقة حسنى.

﴿نكرا﴾: المراد منكرا غير معروف عند الناس. فالمعنى أنه شديد لم يعهد مثله.

﴿من أمرنا يسرا﴾: مما نأمره به تكليفا سهلا ذا يسر لا مشقة فيه.

﴿ثم أتبع سببا﴾: أى أتبع طريقا عكس الأول يوصله إلى المشرق.

﴿مطلع الشمس﴾: أى المكان الذى تطلع عليه أولاً من الأرض المسكونة.

﴿كذلك﴾ أى أمر ذى القرنين كما ذكرنا لك أيها النبى.

﴿بين السدين﴾: يطلق السد على الجبل، وعلى كل ما يحجز بين شيئين، والمراد هنا الأول؛ لأن الجبل يسد فجاجا من الأرض، كان فى مكان يفصل بين المغول والتتر فى الشمال وبين أهل الجنوب فى آسيا..

﴿من دونهما﴾: أى من جهة الجنوب. ﴿يأجوج﴾: اسم لقبيلة همجية هى التتر.

﴿مأجوج﴾: اسم لقبيلة أخرى همجية أيضا هى المغول، وكانتا من أصل واحد يسكنون الجزء الشمالى من آسيا ويلحق بهما كل من كان مثلهما.

---

(١) ياذا. (٢) آمن.
(٣) صالحا. (٤) ياذا.

﴿خرجا﴾: أى جعلا من أموالنا نتبرع به لك.

المعنى: ووجد قريبا من مغرب الشمس قوما كفارا فقال الله تعالى له: ياذا القرنين نبههم لضرر الشرك بربهم، ثم أنت بعد ذلك مخير بين أن تعذب من صمم على شركه بالقتل وبين أن تحلم عليهم وتكرر وعظهم المرة بعد المرة.

قال ذو القرنين لبعض خاصته: أما من ظلم نفسه ولم يقبل دعوتى وأصر على ما كان عليه من الشرك الذى هو الظلم العظيم فسوف نعذبه بالقتل ثم يرجع فى الآخرة إلى ربه فيعذبه عذابا شديدا جدا فى جهنم، وأما من آمن وعمل صالحا فله التوبة الحسنى وسنعلمه ما يسهل عليه الطاعة.

ثم سلك ذو القرنين طريقا يوصله إلى المشرق حتى إذا بلغ الموضع الذى تشرق عليه الشمس أولاً من الأرض وجدها تطلع على قوم عرايا كما هو الحال الآن فى بعض بلاد السودان وليس لهم بيوت مبنية. وأمر ذى القرنين وهؤلاء القوم هو كما أخبرناك أيها النبى، أى فلا تعجب. وقد أحطنا بما لدى ذى القرنين من الجنود والعدة علما تعلق بظاهر أمره وخافيه. والمراد أن ما عنده من الاستعداد بلغ كثرة لا يعلمها غيره تعالى.

ثم سلك ذو القرنين طريقا ثالثا مقاطعا لطريقى المغرب والمشرق متجها نحو الشمال فسار فيه، حتى إذا بلغ بين الجبلين المعهودين وجد من دونهما أمة من الناس قليلى الفطنة يصعب التفاهم معهم قالوا بواسطة تراجمة ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج القاطنين وراء الجبلين مفسدون فى أرضنا عندما يغيرون علينا بالقتل والسلب والتخريب، فهل ترضى أن نجعل لك جعلا من أموالنا نظير أن تجعل بيننا وبينهم سدا يمنعهم من الوصول إلينا.

قال ذو القرنين: ما جعلنى ربى فيه مكينا من سعة الملك والسلطان ووفرة العدد والمال خير مما تعرضون على من الخراج، وسأعمل ما ينقذكم من شرهم لوجه الله تعالى

فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) ءَاتُونِي[1] زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي[2] أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَٰعُوا[3] أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَٰعُوا[4] لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ[5] جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ[6] عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ[7] نُزُلًا (١٠٢) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا[8] (١٠٣)

المفردات: ﴿ردما﴾: الردم السد بالحجر وغيره، والمراد هنا: المبنى بالحجر.

﴿زبر الحديد﴾: جمع زبرة بضم أوله وهى القطعة من الحديد.

﴿الصدفين﴾: تثنية صدف بفتحتين وهوجانب الجبل.

﴿قطرا﴾: هو النحاس المذاب.

﴿يظهروه﴾: أى يعلو فوق ظهره بالصعود عليه.

﴿دكاء﴾: أرضا مدكوكة مستوية مع غيرها.

﴿نزلا﴾: أصل النزل المكان الذى ينزل فيه الضيف لاكرامة كما سيأتى فى الآية (١٠٧) الآتية صفحة ٣٩٥، والتعبير به هنا للتهكم بهم.

﴿الأخسرين﴾: جمع أخسر وهو ما اشتدت خسارته.

المعنى: فأعينونى بما تستطيعون من عمال وصناع وأحجار وحديد أجعل بينكم وبينهم سدا قويا، ثم ذكر بعض تلك القوة التى طلبها بقوله: آتونى قطع الحديد، فوضعها بين حجارة بها ثقوب، ووضع معها بعض الخشب حتى إذا ساوى بين طرفى الجبلين وسد الفجوة التى بينهما

(١، ٢) آتونى.
(٣) اسطاعوا.
(٤) استطاعوا.
(٥) فجمعناهم.
(٦، ٧) للكافرين.
(٨) أعمالا..

التى كانوامعرضين منها للخطر وضع النار والمنافيخ وقال انفخوا فى الأكوار بكثرة، فنفخوا حتى أصبح الحديد كالنار، قال آتونى نحاسا مذابا أفرغه عليه ليدخل بين فجواته ويغطى ظاهره فلا يتآكل من عوامل الجو، فلما تم ذلك عجز يأجوج ومأجوج عن استعلاء ظهره أو نقبه.

وبعد ذلك قال هذا السد والقدرة على إنشائه رحمة من ربى بعباده الضعفاء، وسيستمر هكذا حتى يأتى الوقت الذى وعد الله فيه بهدمه، فإذا جاء سبحانه بأسباب يهلمها هو خرَّ مدكوكا مستويا بالأرض، ووعده حق لابد من تحققه. وقد روى البخارى عن السيدة زينب بنت جحش زوج النبى ﷺ أنه دخل عليها يوما فزعا يقول: (لاإله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب! فتح اليوم من سد يأجوج ومأجوج جزء صغير!) فقلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ فقال: (نعم إذا كثر الفساد). وقد اتسع شيئا فشيئا حتى فتح عن أخره فى القرن السابع الهجرى، وخرج جنكيز خان وخرَّبَ كثيرا من البلاد، وتبعه هولاكو الذى خرَّب بغداد وبلاد الفرس والشام حتى تفرق مُلك المسلمين شَذَرَ مَذَرَ. ثم قال سبحانه: (وتركنا بعض الخلق يموج فى بعض من الاضطراب والخوف، وننفخ فى الصور لقيام الساعة فنجمع الجميع للحساب والجزاء جمعا لا شك فيه، وأبرزنا جهنم يومئذ للكافرين إبرازا ظاهرا، انظر الآية (٩١) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٥، الذى كانت أعينهم فى غطاء أبعدهم عن النظر فى آياتى التى تذكرهم بوجودى وتوحيدى، وكانوا لشدة إعراضهم كأنهم صم لا يستطيعون سماع كتابى.. ثم أنكر عليهم موبخا بقوله: (أفحسب) إلخ أى ظن هؤلاء الكفار أن اتخاذهم عبادى كالملائكة والمسيح وعزير أولياء لهم من دونى ينفعهم؟ كلا فلن ينقذوهم من عذابى لأنى أعددت لهم جهنم مكانا ينزلون فيه. ولما كان منشأ الخطر على هؤلاء هو ظنهم الباطل أنهم على صواب فى توسلهم لله تعالى ببعض خلقه كما فى الآية (٣) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٥، ٦٠٦، وأن ذلك ينفعهم مهما حصل منهم من عصيان، نبه على ذلك بقوله: قل أيها النبى هل أنبئكم أيها الناس بأشد الناس خسرا فى أعمالهم.

ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴿١٠٩﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾

المفردات: ﴿ضل سعيهم﴾: أى ضاع عبثا، انظر الآية (٢٤) من سورة الأنعام صفحة ١٦٥، الآية (٣٠) من سورة يونس صفحة ٢٧١.

﴿ولقائه﴾: المراد كفروا بالآخرة على الوجه الصحيح كما تقدم فى الآية (٢٩) من سورة التوبة صفحتى ٢٤٤، ٢٤٥.

﴿حبطت﴾: بطلت وذهب نفعها.

﴿فلا نقيم لهم﴾: الخ: كناية عن احتقارهم وعدم اعتبارهم، فلا ينافى ما فى الآيات (٩) من سورة الأعراف صفحة ١٩٣، و(٤٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥، و(٨) من سورة القارعة صفحة ٨١٩.

﴿هزوا﴾: أى مهزوءا بها، من ذلك ما فى (١٣) من سورة المطففين صفحة ٧٩٧.

---

(١) الحياة.
(٢) بآيات.
(٣) أعمالهم.
(٤) القيامة.
(٥) آياتى.
(٦) الصالحات.
(٧) جنات.
(٨) خالدين.
(٩) لكلمات.
(١٠) كلمات.
(١١) واحد.
(١٢) يرجو.
(١٣) صالحا.

﴿الفردوس﴾: اسم لجزء من الجنة ممتاز.

﴿حولا﴾: تحولا.

﴿لكلمات ربى﴾: المراد بها هنا أدلة وجوده تعالى وكماله وحكمته.

﴿مددا﴾: أى زيادة ومعونة.

المعنى: الأخسرون أعمالا هم الذين ضاع عليهم عملهم فى الدنيا فى حال أنهم يظنون أنهم يعملون حسنا، انظر الآية (٣٠) من سورة الأعراف صفحة ١٩٦، والآية (٣٧) من سورة الزخرف د صفحة ٦٥١. وهذه الآية تجر بذيلها إلى شقاء كل من يفعل ما لم يأذن به الله من العبادات غافلا عن نهيه تعالى عن ذلك، انظر الآية (١٥٣) من سورة الأنعام صفحة ١٨٩. هؤلاء الأخسرون هم الذين كفروا بآيات الله المنزلة وبراهينه المنبثة فى الكون الدالة على وحدانيته، وكفروا باليوم الآخر؛ وهذا الكفر هو السبب فى إبطال أعمالهم التى كانوا يظنونها تنفعهم كصلة الرحم وبر النقير، فلا نعتبرهم يوم القيامة ولا ننظر إليهم.

ثم بيَّن مآلهم بسبب هذا الكفر فقال: ذلك الموقف القبيح جزاؤهم به جهنم بسبب أنه كفر شنيع، وأنه استهزاء بآيات الله تعالى ورسله.

ثم بيَّن سبحانه المؤمنين وما سيجازون به بقوله: إن الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحات كانت لهم فى الآخرة جنات الفردوس نزلا يكرمون فى نعيمها خالدين لا يطلبون عنها تحولا.

ثم أراد سبحانه أن يبين أن أدلة وجوده ووحدانيته بلغت كثرة عظيمة تقطع العذر على كل مقصر فقال: قل أيها النبى للناس لو كان ماء البحر جميعه مدادًا يكتب به كلمات ربى التى أقامها لكم لنفد البحر وفرغ ماؤه دون أن تنفد تلك الكلمات ولو جىء بمثل البحر مددا له أى مساعدا له، والمراد المبالغة فى الزيادة لا التحديد، بدليل ما فى الآية (٢٧) من سورة لقمان صفحة ٥٤٣ والله تعالى أعلم.

سورة مريم

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: . ﴿كهيعص﴾ : تقدم المراد من هذه الحروف فى أول البقرة.

﴿رحمة ربك عبده زكريا﴾ : أضاف الرحمة لفاعلها، وعبده مفعولها، وزكريا بدل منه.

﴿نادى﴾ : أى دعا. ﴿خفيا﴾ : سرا لأنه أقرب للإجابة وأبعد من الرياء.

﴿وهن العظم﴾ : أى ضعف العظم الذى هو قوام البدن فغيره أولى.

﴿اشتعل الرأس شيبا﴾ : أصل الاشتعال فى النار ارتفاع لهبها، والشيب بياض الشعر عند الكبر، فكأنه جعل الشيب لهب نار، وانتشاره فى رأسه اشتعالا، والأصل اشتعل شيب رأسى.

﴿الموالى﴾ : هم عصبته كبنى عمومته.

﴿من ورائى﴾ : أى من بعد موتى. ﴿عاقرا﴾ : هى التى لا تلد من أصل الخلقة.

(١) كافْ ها يا عين صادْ
(٢) رحمة
(٣) الموالى
(٤) ورائى
(٥) آل
(٦) يا زكريا
(٧) بغلام
(٨) غلام.

(١٩) سورة مريم مكية وآياتها ثمان وتسعون

بسم الله الرحمن الرحيم

كهيعص (١) ذكر رحمت[1] ربك عبده زكريا[2] (٢) إذ نادى ربه نداء خفيا (٣) قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا (٤) وإنى خفت الموالى[3] من ورائى[4] وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا (٥) يرثنى ويرث من آل[5] يعقوب واجعله رب رضيا (٦) يا زكريا[6] إنا نبشرك بغلام[7] اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا (٧) قال رب أنى يكون لى غلام[8] وكانت امرأتى عاقرا

﴿وليا﴾ : ولدا صالحا كما تقدمت الإشارة إليه فى الآية (٣٨) من سورة آل عمران صفحة ٦٩. ﴿يرثنى﴾ : فى العلم.

﴿ويرث من آل يعقوب﴾ : النبوة والملك، أى يكون أهلا لهما. ويعقوب هو ابن اسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

﴿رضيا﴾ : مرضيا عليه منك.

﴿سميا﴾ : شبيها فى الصلاح والورع، انظر الآية (٦٥) من هذه السورة الآتية صفحتى ٤٠٢، ٤٠٣. وقيل إنه لم يسم أحد يحيى قبله.

﴿أنى﴾ : أى كيف.

المعنى : . مما نقص عليك أيها النبى فى هذا القرآن ذكر الرحمة التى حصلت من ربك لعبده زكريا نبى الله من نسل سليمان بن داود؛ رحمة ربك له حين طلب من ربه فى خفية من الناس، وتجد فى صفحة ٦٩ بيان المكان والزمان الذى دعا فيهما زكريا، قال فى دعائه: يارب إنى ضعف عظمى الذى هو أقوى شىء فى جسمى، وانتشر الشيب فى رأسى كانتشار النار فى الحطب، ولم أكن فى يوم من الأيام شقيا بدعائى لك يارب، بل كنت مستجاب الدعوة عندك، فعاملنى بسابق كرمك. ثم بين الحامل له على الدعاء فقال:

وإنى خفت جور الموالى وتضييعهم للدين من بعد موتى، وكانوا من شرار بنى إسرائيل، وكانت امرأتى عاقرا لم تلد طول حياتها، فهب لى من فضلك ولدا يصلح لأن يرثنى فى العلم، ويرث من آل يعقوب أجداده النبوة والملك، بأن تختاره لذلك بأن تجعله يارب مرضيا عليه منك. فقال الله تعالى له على لسان كبير الملائكة الذين أمرهم الله ببشارته كما فى الآية (٣٩) من سورة آل عمران صفحة ٦٩ : يا زكريا إنا نبشرك بغلام سميناه قبل أن يولد يحيى تشريفا له لم نجعل له من قبل سميا. فأراد زكريا أن يطمئن على وجود هذا الغلام كما تقدم شرح ذلك فى صفحة ٦٩ فقال يارب كيف يكون لى هذا الغلام؟ هل أرجع أنا وامرأتى إلى الشباب ويرتفع العقم عنها؟

وقد بلغت من الكبر عتيا ﴿٨﴾ قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا ﴿٩﴾ قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا ﴿١٠﴾ فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ﴿١١﴾ يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا ﴿١٢﴾ وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا ﴿١٣﴾ وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا ﴿١٤﴾ وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا ﴿١٥﴾ واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ﴿١٦﴾ فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ﴿١٧﴾ قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ﴿١٨﴾

المفردات : . ﴿عتيا﴾ : أصله مصدر عتا يعتو عتوا وعتيا، ومعناه هنا وصل إلى حالة من الشيخوخة يصعب علاجها.

﴿آية﴾ : أى علامة.

﴿سويا﴾ : أى سليم الجوارح ليس بك بكم وهو حال من فاعل.

﴿تكلم﴾ : أريد به أن عدم الكلام كان معجزة.

﴿المحراب﴾ : هو أشرف مكان فى المنزل وقد تقدم توضيحه فى الآية (٣٩) من سورة آل عمران صفحة ٦٩.

﴿أوحى اليهم﴾ : أى أشار إليهم.

﴿بكرة﴾ : أول النهار.

﴿وعشيا﴾ : آخر النهار. ﴿الكتاب﴾ : التوراة.

﴿بقوة﴾ : بعزم واجتهاد.

﴿الحكم﴾ : المراد به هنا فهم أسرار التوراة.

﴿وحنانا﴾ : شفقة ورحمة لأبويه وللضعفاء.

﴿وزكاة﴾ : طهارة فى النفس وصلاحا فلم يرتكب ذنبا.

(١) آية (٢) آيتك (٣) ثلاث (٤) يا يحيى
(٥) الكتاب (٦) وآتيناه (٧) وزكاة
(٨) بوالديه (٩) وسلام (١٠) الكتاب.

﴿برا بوالديه﴾ : بارا بهما محسنا مطيعا.

﴿فى الكتاب﴾ : المراد به هنا القرآن. ﴿انتبذت﴾ : اعتزلت وابتعدت. ﴿شرقيا﴾ : أى شرقى بيت المقدس.

﴿حجابا﴾ : ساترا توارت به منهم حتى لا يشغلها شاغل.

﴿روحنا﴾ : هو جبريل عليه السلام.

المعنى : . وقد بلغت من الكبر حدا أعجز فيه عن أن يكون لى ولد. قال له الملك : الأمر كذلك، أى كما أمر ربك، فقد قال ربك يا زكريا الأمر فى ذلك على هين لا يحتاج إلا إلى أن أقول كن فيكون، ويقول لك ربك كيف تستصعب هذا وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا أى موجودا كما سيأتى فى الآية (٦٧) صفحة ٤٠٣، أو خلقت أباك آدم من العدم وأنت تبع له. قال يارب اجعل لى علامة أعرف بها وجود الحمل لأقابله بالشكر.

قال آيتك أن لسانك يحتبس عن تكلم الناس ثلاث ليال حال كونك سليم الحواس.

فخرج على قومه من مكان خلوته وأشار إليهم بأن يسبحوا ربهم فى طرفى النهار شكرا لله تعالى على فضله. ولما جاء موعد ولادته وولد يحيى وكبر قال الله له يا يحيى اعمل بما فى التوراة بجد واجتهاد، وأعطاه فهم أسرارها وهو لايزال صغيرا وملأ قلبه حنانا ورحمة منه تعالى لأبويه وللمساكين، ورزقه طهارة نفس، وكان بعيدا عن كل معصية وبارا بوالديه، ولم يكن متكبرا ولا عاصيا لهما أمرًا.

وأمانٌ عليه من الله يوم ولد من نزغ الشيطان، ويوم يموت من عذاب القبر، ويوم يبعث حيا من عذاب جهنم. واذكر أيها النبى لقومك فى القرآن قصة مريم حين ابتعدت عن أهلها فى مكان شرقى لتخلو للعبادة، وجعلت بينها وبينهم حجابا حتى لا يشغلها أحد، فأرسلنا إليها رسولنا جبريل الروح المقدس فتصور لها فى صورة إنسان مستوى الخلقة لتأنس به لأنها لا تطيق رؤية الملك على حقيقته، فلما رأته يفاجئها فى خلوتها قالت إنى أتحصن بالله من شرك، إن كنت رجلا تخاف الله فابتعد عنى.

قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾ * فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾

المفردات : . ﴿أنى﴾ : كيف. ﴿بغيا﴾ : يصح أن يكون من قولهم بغى الرجل المرأة، أى طلبها للفاحشة، فيكون بغىّ على وزن فعيل بمعنى مفعول كقتيل بمعنى مقتول.

والمعنى هنا لم أكن من النساء اللاتى يطلبهن الرجال للزنا وعلى هذا لا تلحقه تاء التأنيث مطلقا، كما يقال رجل قتيل وامرأة قتيل، وقال بعضهم إن عدم لحوق التاء له بسبب أنه وصف مختص بالنساء كلفظ ﴿حائض﴾ فلا يقال رجل بغىّ، وإنما يقال رجل باغ. وأيًا ما كان فقد شاع استعماله فى الزانية حتى صار حقيقة صريحة فيها.

﴿آية للناس﴾ : برهانا على تمام قدرتنا.

﴿فحملته﴾ : أى حملته فى بطنها.

﴿انتبذت﴾ : ابتعدت.

﴿قصيا﴾ : بعيدا عن أهلها. ﴿فأجاءها﴾ : أى فألجأها وجاء بها.

﴿المخاض﴾ : هو الوجع الذى يسبق الولادة مباشرة. ﴿نسيا منسيا﴾ : النسى هو الشىء التافه الذى من شأنه أن ينسى وقد لا ينسى؛ لذلك قالت منسيا للقطع بالمراد.

﴿سريا﴾ : أى نهرا صغيرا.

﴿بجذع النخلة﴾ : الباء لتأكيد ربط الفعل بمفعوله، والأصل هزى جذع النخلة بإمالته إليك، انظر آيتى (١٥) من سورة الحج صفحة ٤٢٥، و (١٤) من سورة العلق صفحة ٨١٤

﴿تساقط﴾ : قال فى لسان العرب: ساقط فلان الثمر أى أسقطه، وتابع إسقاطه، فالمراد تتابع إسقاط الرطب عليك. ﴿جنيا﴾ : ناضجا صالحا للجنى.

(١) غلاما (٢) غلام (٣) آية (٤) ياليتنى
(٥) فناداها (٦) تساقط (٧) يا مريم.

﴿فإما ترين﴾ : أصلها ﴿إن﴾ الشرطية و ﴿ما﴾ للتأكيد كما تقدم بيان ذلك فى الآية (٢٠٠) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٥.

﴿صوما﴾ : المراد به هنا الإمساك عن الكلام.

﴿لقد جئت﴾ إلخ : لقد فعلت فعلا شنيعا. ﴿فريا﴾ : غريبا منكرا.

المعنى : . قال جبريل فى الرد عليها لست إلا رسول ربك إليك لأتسبب فى أن يهب الله لك غلاما طاهرا بنفخى فى درعك كما أمر ربى. قالت كيف يوجد لى ولد ولم يتزوجنى بشر ولم أك فاجرة، ولا يكون الولد إلا بأحد هذين؟ قال جبريل: الأمر كما قلت لك، وقد قال ربك إيجاد الولد بغير الطرق المعروفة هين علىّ، وقد قررنا ذلك لنجعله آية للناس على قدرتنا وسبب رحمة لِمَنْ آمن به. وكان خلق عيسى بدون أب أمرًا محكوما بوقوعه أولا. فحملت ما وهبها الله تعالى، وكان ذلك سببا فى اعتزالها به وهو جنين فى بطنها فى مكان بعيد عن أهلها مخافة مسارعتهم فى لومها، فلما قرب الوضع ألجأها المخاض إلى جذع نخلة لتستتر به وتعتمد أى تتكئ عليه عند الألم، فلما وضعت قالت من خوف لوم الناس: ياليتنى مت قبل هذا وكنت شيئا حقيرا منسيا لا يخطر على بال أحد. ﴿فناداها من تحتها﴾ الظاهر أنه عيسى نفسه هو الذى ناداها ليزيل خوفها من أول لحظة ويعلمها أنه ليس طفلا عاديا، وليرشدها إلى إيكال الجواب عنها إليه إذا رجعت إلى أهلها وسألوها. وما دام الأمر من أوله إلى آخره أمر معجزات متعددة فليكن كلامه لها من تحتها من ضمن هذه المعجزات، ولا حاجة للقول أن القائل شخصا آخر، ولا حاجة للقول بأن القائل مَلَكًا. ناداها من مكان منخفض عن الربوة التى كانت فيها قائلا: لا تحزنى قد جعل ربك فى مكان منخفض قريب منك نهرا صغيرا، وهزى جذع النخلة فإنها تتابع إسقاط رطب ناضج عليك، ونَخْل الرمال فى الغالب رفيع صغير يسهل تحريكه، فكلى من الرطب واشربى من النهر، واطمئنى نفسا، فإن رأيت أحدا من الناس يسألك عما حصل فأشيرى إليه بما يفهمه أنك نذرت للرحمن صمتا فلن تكلمى اليوم أحدا. وبعد ذلك سلمت أمرها لله وحملته بين يديها وجاءت به قومها، فلما رأوها دهشوا وقالوا يا مريم لقد فعلت شيئا عجبا منكرا.

يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا

المفردات : . ﴿يا أخت هارون﴾ : من أساليب العرب المعهودة أن يقولوا للرجل الصالح فلان أخو الأتقياء، وللطالح أخو الشياطين، يريدون مشابها لهما. انظر الآية (٢٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٨. ولما كان هارون أخو موسى مشهورا بالصلاح شبهوها به. ﴿امرأ سوء﴾ : أى رجل فاحشة. ﴿أمك﴾ : هى المبينة قصتها فى الآية (٣٥) من سورة آل عمران وما بعدها صفحة ٦٨.

﴿بغيا﴾ : تقدم فى الآية (٢٠) السابقة صفحة ٣٩٨.

﴿آتانى الكتاب﴾ : المراد حكم بإعطائى الإنجيل عطاء لابد من تحققه، وكذا يقال فى جعلنى نبيا وما بعده.

﴿وبرا بوالدتى﴾ : أى بارا بها محسنا إليها. ﴿قول الحق﴾ : المراد أقول فيه قول الحق ﴿يمترون﴾ : يشكون. ﴿كن فيكون﴾ : المراد يحصل سريعا لا يعوقه شىء.

﴿وإن الله ربى﴾ إلخ : هذا من كلام عيسى عليه السلام كما فى الآية (٥١) من سورة آل عمران صفحة ٧١. ﴿هذا صراط﴾ : هذا الذى طلبته منكم طريق مستقيم يوصل إلى الله تعالى. ﴿الأحزاب﴾ : هم اليهود وطوائف النصارى. ﴿فويل﴾ : هلاك. ﴿أسمع بهم وأبصر﴾ : صيغتان تدلان على التعجب من قوة مادلت عليه مادتهما، أى أن سمعهما وبصرهما فى يوم القيامة يكونان تامين على خلاف ما كانوا فى الدنيا، والمراد أنه سبحانه يعجب نبيه عليه السلام من حال هؤلاء الكفار ومن حدة أسماعهم وأبصارهم يوم يأتون للحساب.

(١) يا أخت (٢) هارون (٣) آتانى (٤) الكتاب (٥) أوصانى (٦) بالصلاة
(٧) الزكاة (٨) بوالدتى (٩) والسلام (١٠) سبحانه (١١) صراط.

المعنى : . قالوا لها لما رأوا الطفل معها موبخين يا مَنْ كنت على صفة الرجل الصالح الورع هارون نبى الله من أين جئت بهذا وما كان أبوك زانيا وما كانت أمك حنة بغيا؟ ولما كانت مريم تعلم أن ابنها جاء بطريق معجزة أشارت إليه ليرد عليهم فيقطع عنها التهمة، قالوا متهمين: كيف نكلم من وجد فى المهد حال كونه صغيرا لا يتكلم؟ عند ذلك ظهرت المعجزة فقال: إنى عبد الله الخلاق العليم قضى فى علمه قضاء مبرما بإعطائى الإنجيل، وبجعلى نبيا إلى بنى إسرائيل، وبجعلى مباركا نافعا معلما للخير فى كل مكان أوجد فيه، وأوصانى بالمحافظة على الصلاة التى فرضها علىَّ، والزكاة إن وجد لى مال مادمت حيا وفى هذا رد للقول بأن الأنبياء يصلون فى قبورهم، وجعلنى بارا محسنا لوالدتى هذه التى تتهمونها باطلا، ولم يجعلنى متكبرا شقيا بعقوق والدتى وإيذاء غيرها. والأمان من كل مكروه الذى منحه سبحانه لنبيه يحيى فى الآية (١٥) السابقة صفحة ٣٩٧ تفضل به علىَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا كما تقدم بيانها فى الآية السابقة. ذلك المتقدم ذكره هو عيسى بن مريم، أقول فيه لكم قول الحق الذى فيه تشكون وتختلفون.

ما كان لله وهو الخالق لكل شىء أن يتخذ من ولد، تنزيها له عن هذا النقص؛ لأن الولد لا يحتاج إليه إلا العاجز، لكن الله سبحانه إذا قضى بحدوث أمر فلا يحتاج فى إيجاده إلا إلى أن يقول له كن فيكون. ثم رجع إلى تتميم كلام عيسى لقومه فقال : ﴿وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ تقدم بيانها فى الآية (٥١) من سورة آل عمران صفحة ٧١. هذا هو الحق فى أمر عيسى ولكن فرق اليهود والنصارى اختلفوا فيه، فقالت اليهود ساحر وابن زنا، وقال بعض النصارى هو ابن الله، وقال بعضهم هو الله، وقال بعضهم الآخر هو ثالث ثلاثة. فهلاك لهؤلاء الكافرين بوحدانية الله تعالى وتعظيم رسله من العذاب عند شهودهم وحضورهم فى يوم عظيم الحوادث، وهو يوم القيامة.

وإذا كان هؤلاء الكافرون فى الدنيا عميا وصما فإنهم سيكونون يوم القيامة فى أعلى قوة السمع والبصر، انظر الآية (٢٢) من سورة ق صفحة ٦٩٠. وهذا فى بعض المواقف يوم القيامة التى يقرأ فيها صحيفته، فلا ينافى أن الكافر فى موقف آخر يحشر أعمى كما فى الآية (١٢٥) من سورة طه صفحة ٤١٨.

لَكِنِ الظَّالِمُونَ[1] الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ[2] مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ
يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا
وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ[3] إِبْرَاهِيمَ[4]
إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ[5] لِمَ تَعْبُدُ
مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ[6]
إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا[7]
سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ[8] لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ[9] إِنَّ الشَّيْطَانَ[10]
كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ
عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ[11] وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ
أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي[12] يَا إِبْرَاهِيمُ[13] لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ
وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ[14] عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي

المفردات : . ﴿صديقا﴾ : أى مبالغا فى المحافظة على الصدق فلم يكذب قط.

﴿لأبيه﴾ : هو آزر المتقدم فى الآية (٧٤) من سورة الأنعام صفحة ١٧٤.

﴿صراطا﴾ : طريقا. ﴿سويا﴾ : مستقيما.

﴿لا تعبد الشيطان﴾: المراد لا تطع وسوسته بعبادة غيره تعالى، انظر الآية (٦٠) من سورة يس صفحة ٥٨٤ وما قيل فى شرح الآية (٢٨) من سورة يونس صفحتى ٢٧٠، ٢٧١.

﴿عصيا﴾ : شديد العصيان. ﴿وليا﴾ : قرينا له فى اللعن والعذاب نما بينكما من الموالاة.

﴿مليا﴾ : زمنا طويلا مأخوذ من الملاوة بفتح الميم وهى المدة الطويلة.

المعنى : . هؤلاء الكفار يقوى سمعهم وأبصارهم لهول يوم القيامة، لكنهم اليوم فى الدنيا لشدة ظلمهم أنفسهم بالإعراض عن الحق فى ضلال ظاهر حيث اعتقدوا أن غير الله تعالى يستحق ما يستحقه سبحانه.

(١) الظالمون
(٢) ضلال
(٣) الكتاب
(٤) إبراهيم
(٥، ٦) يا أبت
(٧) صراطا
(٨) يا أبت
(٩، ١٠) الشيطان
(١١) للشيطان
(١٢) آلهتى
(١٣) يا إبراهيم
(١٤) سلام.

وخَوِّفهم أيها النبى من هول يوم القيامة الذى يتحسرون فيه مع أنه وقت قضى فيه الأمر على أهل الجنة بالجنة وأهل النار بالنار، فأنذرهم بذلك والحال أنهم فى غفلة عنه ولا يصدقون به، انظر الآيات (١٦٧) من سورة البقرة صفحة ٣٢، و (٣١) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦، و (٥٦) من سورة الزمر صفحة ٦١٤، و (٥٠) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٤.

ولا يحزنك أيها النبى تكذيبهم لك فإنا سننفرد بالملك كله، وليس هناك لهم مرجع إلا إلينا، وسنجازيهم على كفرهم، انظر الآية (١٦) من سورة غافر صفحة ٦١٩.

واتل أيها النبى على قومك فيما تذكره لهم فى القرآن قصة أبيهم إبراهيم؛ انظر (٦٩) وما بعدها من سورة الشعراء صفحة ٤٨٤، إنه كان صديقا نبيا، أى كان جامعا لخصائص الصديقين والأنبياء حين قال لأبيه آزر يا أبت لم تعبد صنما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا فى جلب نفع أو دفع ضر؛ يا أبت إن الله قد أعطانى من العلم ما لم يعطك، انظر الآية (٨٣) من سورة الأنعام صفحة ١٧٥، والآية (٥١) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٦، فاتبعنى أدلك على طريق مستقيم يوصل للنجاة.

يا أبت لا تطع وسوسة الشيطان لأنه دائم العصيان للرحمن، ومن دام عصيانه لا يدل على خير ولا يرشد إليه.

يا أبت إنى أخاف أن يصيبك عذاب من ربك الذى كان يجب أن تستجلب رحمته بدل غضبه فتكون قرينا للشيطان فى اللعن والشقاء ليس لك ولى غيره.

قال آزر بعد هذا الوعظ البليغ الحكيم: هل أنت معرض عن آلهتى يا إبراهيم؟ لئن لم تنته عن الصد عنها لأرجمنك بالحجارة، فاحذر ذلك واهجرنى مليا. ومع هذا الرد الغليظ ترفق إبراهيم فى الرد وقال : سلام عليك فلا أصيبك بمكروه أبدا، وسأطلب لك من ربى المغفرة بأن يوفقك للهداية، وقد بر بوعده فاستغفر له كما فى الآية (٨٦) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٥، ثم نهاه الله تعالى عنه كما فى الآية (١١٤) من سورة التوبة صفحتى ٢٦١، ٢٦٢.

إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨)
فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ
وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا
وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيًّا (٥٠) وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ[1]
مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥١) وَنَٰدَيۡنَٰهُ[2]
مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ[3] نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن
رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ[4] نَبِيًّا (٥٣) وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ[5] إِسۡمَٰعِيلَ[6]
إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأۡمُرُ
أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ[7] وَٱلزَّكَوٰةِ[8] وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيًّا (٥٥)
وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ[9] إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦)
وَرَفَعۡنَٰهُ[10] مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ

المفردات : ﴿حفيا﴾ : أى كثير البر واللطف بى. ﴿أعتزلكم﴾ : أى أفارقكم بالهجرة إلى خير منكم، انظر الآية (٧١) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٧، والآية (٢٦) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤، والآية (٩٩) من سورة الصافات صفحة ٥٩٢.

﴿لسان صدق﴾ : المراد ثناء حسنا، والعرب تطلق الجارحة على ما يصدر منها، فتطلق اليد على العطاء، واللسان على الثناء.

﴿عليا﴾ : رفيعا رائعا. ﴿مخلصا﴾ : أى أخلصه الله من النقائص واصطفاه لرسالته.

﴿الأيمن﴾ : صفة للجانب، انظر الآية (٨٠). من سورة طه صفحة ٤١٣.

﴿رسولا نبيا﴾ : انظر الفرق بينهما فى شرح الآية (٥٢) من سورة الحج صفحة ٤٤١.

﴿نجيا﴾ : أى مناجيا لله بلا واسطة.

﴿صديقا﴾ : تقدمت فى الآية (٤١) السابقة.

(١) الكتاب
(٢) وناديناه
(٣) وقربناه
(٤) هارون
(٥) الكتاب
(٦) إسماعيل
(٧) بالصلاة
(٨) الزكاة
(٩) الكتاب
(١٠) ورفعناه.

المعنى : سأستغفر الله ربى لأنه عودنى اللطف بى، وقد يكون منه أن لا يخزينى فى أبى يوم القيامة، وسأبتعد عنكم وعن معبوداتكم غير الله، فأهجر بابل وأسافر إلى الشام، وأعبد ربى وحده راجيا أن أكون موفقا فى عبادتى لا شقيا مثلكم بضياع مجهودى.

فلما اعتزلهم وآلهتهم بالهجرة إلى الشام قاصدا وجه ربه عوضناه خيرا منهم، ورزقناه بإسحاق ومنْ ورائه ابنه يعقوب وكلا منهما جعلناه نبيا. ووهبنا لهم أى إبراهيم وذريته فيضا من رحمتنا بالنبوة والأولاد الصالحين والأموال الحلال، وجعلنا لهم ذكرا حسنا إلى قيام الساعة، ومنه أن كل مسلم يقول كل يوم عدة مرات اللهم صلى على إبراهيم وعلى آل إبراهيم. واتل عليهم أيضا فى القرآن موسى إنه كان مصطفى لله ورسوله لخلقه وكان رفيع المنزلة على مَنْ أرسل إليهم، انظر الفرق بين النبى والرسول فى الآية (٥٢) من سورة الحج صفحة ٤٤١. وخاطبنا موسى مباشرة عند رجوعه من مدين إلى مصر مع زوجه، فسمع كلاما من ناحية جبل الطور الذى كان على يمين موسى فى اتجاهه لمصر، وكان ذلك أول رسالته، وقربناه فى المنزلة بأن جعلناه مناجيا لنا بلا واسطة، ووهبنا له من رحمتنا به إجابة لطلبه أخاه هارون حال كونه نبيا. ومحل الإحسان هو جعل هارون نبيا؛ لأنه كان أكبر من موسى سنا. واذكر فى الكتاب أيضا إسماعيل ابن إبراهيم، وإنما أخره فى الذكر عن أخوته لكمال الاعتناء به وليذكر له صفاته الخاصة، ومنها أنه كان صادق الوعد فى كل شئونه، وأهمها وعده لأبيه بالصبر عند الذبح ووفَّى، انظر الآية (١٠٢) من سورة الصافات صفحتى ٥٩٢، ٥٩٣، وكان يأمر أهله بالمحافظة على الصلاة والزكاة المشروعة فى عصره، وكان مرضيا عنه من ربه لمطابقة أفعاله لأقواله.

واذكر فى الكتاب إدريس وقد كان قبل نوح عليه السلام وكان شديد المحافظة على الصدق، وجعله ربه نبيا يرشد الخلق بعمله، ورفعناه منزلة علية فى الدنيا والآخرة كما قال فى نبينا ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ فى سورة الشرح أولئك المذكورون من أول زكريا إلى إدريس هم الذين أنعم الله عليهم إلخ، وخبر المبتدأ سيأتى فى قوله ﴿وإذا تتلى عليهم﴾ إلخ.

عليهم من النبيين من ذرية ءادم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبرٰهيم وإسرٰءيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم ءايٰت الرحمٰن خروا سجدا وبكيا ۝٥٨ ۩ * فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلوٰة واتبعوا الشهوٰت فسوف يلقون غيا ۝٥٩ إلا من تاب وءامن وعمل صٰلحا فأولٰئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا ۝٦٠ جنٰت عدن التى وعد الرحمٰن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا ۝٦١ لا يسمعون فيها لغوا إلا سلٰما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ۝٦٢ تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا ۝٦٣ وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذٰلك وما كان ربك نسيا ۝٦٤ رب السمٰوٰت والأرض

المفردات : ﴿إسرائيل﴾ : هو نبى الله يعقوب عليه السلام.

﴿اجتبينا﴾ : أى اصطفينا واخترنا.

﴿خروا سجدا﴾ : أى سقطوا بوجوههم على الأرض ساجدين لله تعالى.

﴿فخلف﴾ : أى فجاء من بعدهم خلفا عنهم ﴿خلف﴾ : الخلف بسكون اللام أولاد السوء وبفتحها عقب الخير.

﴿غيا﴾ : الغى الشر والضلال، والمراد جزاء غى وهو العذاب والهلاك انظر الآية (٣٤) من سورة هود صفحة ٢٨٩.

﴿بكرة وعشيا﴾ : البكرة أول النهار والعشى آخره، والمراد هنا دائما.

﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك﴾ : يرى بعضهم أن هذا أمر من كلام جبريل عليه السلام، وأن سببه أن مشركى مكة كانوا يتلمسون ما يشككون به البسطاء فى نبوته ﷺ، فكانوا إذا تأخر نزول الوحى تارة يقولون استهزاء : هات شيئا من عندك يا محمَّد وقل ربك أنزله عليك، انظر الآية (٢٠٣) من سورة الأعراف صفحتى ٢٢٥، ٢٢٦، وتارة يقولون إن ربه تركه وأبعضه. تجد ما قيل فى ذلك فى سورة الضحى. فسأل ﷺ جبريل مرة: لم تغيب عنى فى بعض الأحيان؟ فأمره الله سبحانه بأن يجيبه بما هنا كما سيأتى.

---

(١) النبيين	(٢) آدم	(٣) إبراهيم
(٤) إسرائيل	(٥) آيات	(٦) الصلاة
(٧) الشهوات	(٨) وآمن	(٩) صالحا
(١٠) جنات	(١١) سلاما	(١٢) السموات.

المعنى : هؤلاء المنعم عليهم من النبيين الذين هم بعض ذرية آدم وبعض ذرية من حملنا مع نوح عليه السلام فى السفينة، وبعض ذرية إبراهيم، ومن ذرية إسرائيل، وكان منهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وغيرهم، وآخرون من جملة مَنْ هديناهم إلى الحق واخترناهم لما فيه الكرامة؛ هؤلاء جميعا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن فى كتبه المنزلة وقعوا ساجدين باكين من خشية الله تعالى مع علو منزلتهم.

وإنما خص هؤلاء جميعا مع دخولهم فى ذرية آدم للتنويه بشأن آبائهم. فجاء من بعد هؤلاء المفضلين خلف سوء أضاعوا الصلاة بتركها أو بتأخيرها عن وقتها بلا عذر، وساروا وراء شهوات أنفسهم، فجزاؤهم أنهم سيلقون جزاء ضلالهم فى جهنم، إلا مَنْ رجع منهم عن معصيته، بأن يؤمن إن كان كافرا، ويعمل صالحا مع الإيمان، فأولئك يدخلون الجنة ولا ينقصون من جزاء عملهم شيئا. ثم بيَّن الجنة بأنها جنات عدن التى وعد بها الرحمن عباده المؤمنين العاملين الصالحات وهى غائبة عنهم لكنهم آمنوا بها؛ إن الرحمن كان وعده منجزا لا يتخلف.

لا يسمعون فى الجنة لغوا من لغو الدنيا الذى لا فائدة منه، لكن يسمعون سلاما من الله وملائكته ومن بعضهم لبعض، بل ومن أصحاب الأعراف كما فى الآية (٤٦) من سورة الأعراف صفحة ١٩٩، ولهم رزقهم فيها فى كل وقت. تلك الجنة الموصوفة بتلك الصفات هى التى نجعلها ملكا ثابتا كالميراث لعبادنا المتقين، انظر الآية (١٠) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦ ولما فرغ سبحانه من الحديث عن الأنبياء الذى ذكره تثبيتا له ﷺ، وفرغ عليه ما حدث من خلف السوء، وذكر جزاء الشرير والخيِّر، عقب على ذلك بحكاية نزول جبريل وما رماه المشركون به ﷺ زيادة فى التسلية، وليبين أن الأمر ليس كما زعموا، وأن الملائكة أحرص الخلق على تقوى الله التى هى سبب النعيم، لذلك تراهم منقادين لربهم لا يخالفون لحظة؛ ولذلك صرح بعد ذلك بقوله لمحمَّد ﴿فاعبده واصطبر لعبادته﴾ أى لا تكترث بقول الجاحدين. وعطف عليه ما يقول الكافرون بالبعث للمقارنة بين قول المَلَك الطائع والإنسان الجاحد. فقول جبريل وما نتنزل على مهل فى زمان دون زمان إلا بأمر ربك يا محمَّد ومشيئته، لأنه مالك التصرف فى كل أحوالنا، وما كان ربك ناسيا لشىء من أعمالنا، فلا نملك أن ننتقل إلا بأمره، وكيف ينسى وهو خالق السموات والأرض ومدبر أمرهما وحافظهما.

وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ[1] هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ الْإِنسَانُ[2] أَإِذَا[3] مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ[4] مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ[5] ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ[6] فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا[7] بَيِّنَاتٍ[8] قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا[9] وَرِئْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ[10] فَلْيَمْدُدْ

المفردات : . ﴿اصطبر لعبادته﴾ : أى تحمل مشاق الصبر متفرغا لعبادته.

﴿سميا﴾ : أى مثيلا ونظيرا، انظر الآية (١١) من سورة الشورى صفحة ٦٣٩، والآية (٤) من سورة الإخلاص صفحة ٨٢٦.

﴿جثيا﴾ : أى باركين على ركبهم جمع جاث.

﴿شيعة﴾ : المراد هنا جماعة تشايعت على الباطل أى تعاونت عليه. ﴿عتيا﴾ : تجاوزا للحد فى الجرائم انظر الآية (٧٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٥. ﴿صليا﴾ : مصدر صلى بالنار إذا قاسى حرها والمراد دخولا. ﴿نديا﴾ : أى مجلسا كالنادى والمنتدى. ﴿وكم﴾ : كلمة تدل على التكثير. ﴿قرن﴾ : أهل العصر المتقاربة أعمارهم، انظر شرح الآية (٦) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٢، ١٦٣. ﴿أثاثا﴾ : الأثاث متاع البيت من فرش وثياب. ﴿رئيا﴾ : هو المنظر المرئى، أى نضارة وحسنا، وهو مأخوذ من الرؤية كالطِّحن بكسر الطاء وسكون الحاء لما طحن.

المعنى : . يستحيل عليه سبحانه النسيان، لأنه رب السموات والأرض وما بينهما، فحافظ على عبادته وحده، واحبس نفسك على مشاقها. ثم دلل على وجوب إفراده سبحانه بالعبادة بقوله: هل تعلم له مثيلا فيما ذكر من الانفراد بالتصرف فى جميع الخلق وأنه سبحانه خالق ومالك ومدبر كل ما فى السموات والأرض؟ المراد يستحيل أن يكون له مثيل. ويقول الكافر

(١) لعبادته (٢) الإنسان (٣) أئذا (٤) خلقناه
(٥) والشياطين (٦) الظالمين (٧) آياتنا
(٨) بينات (٩) أثاثا (١٠) الضلالة.

الذى لا يصدق بالبعث متعجبا منكرا: هل إذا مت أخرج حيا مرة أخرى؟ روى أن أُبىّ بن خلف أمسك بعظم بال وفتته وذراه فى الريح ثم قال زعم محمَّد أنا نبعث بعد ما صرنا هكذا، هذا مستحيل. فرد سبحانه على منكر البعث بقوله ﴿أولا يذكر﴾ إلخ: أى يقول ذلك ولا يتذكر هذا الإنسان أنا خلقناه من قبل الحالة التى هو عليها ولم يكن حينئذ شيئا موجودًا فالقادر على خلقه من عدم غير مسبوق بوجود قادر على إعادته بعد عدم مسبوق بوجود، بل هذا عليه أهون، انظر الآية (٢٧) من سورة الروم صفحة ٥٣٤، والآية (٧٩) من سورة يس صفحة ٥٨٦، فوحق ربك أيها النبى لنحشرنهم هم وشياطينهم الذين كانوا يغرونهم بالشرك والمعاصى، انظر الآية (١٢٨) من سورة الأنعام صفحة ١٨٤، والآية (٢٨) من سورة يونس صفحتى ٢٧٠، ٢٧١، والآية (١٧) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢، ثم لنحضرنهم بعد طول الوقوف فى جسر المحشر خارج جهنم حولها جاثين على ركبهم إهانة لهم، ثم لنأخذن من كل جماعة منهم مَنْ هو أشد على الرحمن الذى غمرهم بإحسانه فى الدنيا تكبرا وتجاوزا للحد، أى نقدم للعذاب الأشد الضال الذى أضل غيره ثم الأتباع لأن الذى أضل غيره يكون أشد عذابا من غيره، انظر آيتى (٦٧، ٦٨) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٦٠، ٥٦١، ثم لنحن العاملين بسيئاتهم ومقدارها فنبدأ أولاً بمَنْ هو أولى بدخول جهنم من كل فريق ثم الذى يليه. ثم وجه سبحانه الخطاب للناس جميعا فقال: وما منكم أحد أيها الناس إلا يدنو من جهنم ويمر على الصراط المنصوب فوقها، كان هذا المرور قضاء منه تعالى محتما. ثم ننجى الذين اتقوا ربهم ونترك الظالمين فيها باركين على ركبهم ذلاً. وكيفية هذا الورود تفصيلا لا يعلمها إلا هو سبحانه. ثم ذكر سبحانه شبهة أخرى مما كان يضلل به المشركون وغيرهم، ذلك أنهم كانوا يقولون للناس : لو كان محمَّد على حق لكان هو ومَنْ معه أغنى منا وأحسن حالا لكن الأمر بالعكس. فالمعنى : وإذا تتلى على المشركين أدلة صدق نبينا واضحات قالوا للمؤمنين استهزاء أخبرونا أى الفريقين نحن وأنتم خير مكانة ومنزلة وأعظم مجلسا وأكثر عددا.

ويوضح هذا الآيات (٥٢) من سورة الأنعام صفحة ١٧٠، و ٤٨، ٤٩ من سورة الأعراف صفحة ٢٠٠. ثم رد سبحانه عليهم بقوله: ﴿وكم أهلكنا﴾ أى وكثيرا من الأمم السابقة أهلكناهم بكفرهم مثل هؤلاء مع أنهم كانوا أحسن من هؤلاء أثاثا ورئيا كعاد وثمود وقارون ومَنْ معه. ثم أمر سبحانه نبيه أن يقول لهم إن الله تعالى يمد الضالين بالمال والمتاع ليزدادوا ضلالاً فيزدادوا إثمًا كما فى الآية (١٧٨) من سورة آل عمران صفحة ٩٢، أى لا لفضلهم عنده سبحانه.

لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ[1] ٱلصَّٰلِحَٰتُ[2] خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ[3] ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا[4] وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً[5] لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ[6] عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ[7] تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ

المفردات : . ﴿شر مكانا﴾ : أى منزلتهم شر وسوء، وهذا رد على قولهم ﴿خير مقاما﴾.

﴿أضعف جندا﴾ : أضعف أعوانا، وهذا رد على قولهم ﴿وأحسن نديا﴾.

﴿مردا﴾ : أى مرجعًا وعاقبة.

﴿أطّلع الغيب﴾ : أصله من قولهم أطلع الجبل إذا صعد فوقه، والمراد تمكن من علم الغيب، والأصل هل اطلع.

﴿عهدا﴾ : أى موثقا بأن يؤتيه ذلك.

﴿كلا﴾ : كلمة تدل على ردع المدعى باطلا.

وتنبيه على خطئه. ﴿ونرثه ما يقول﴾ : ﴿ما﴾ اسم موصول بدل من الضمير المنصوب فى ﴿نرثه﴾ بدل اشتمال كأنه سبحانه يقول نرث ما يقول والمراد مما يقول المقول عنه وهو المال والولد، والمعنى المراد وينسلب منه المال والولد بموته كما يأخذ الوارث ما ترك مورثه.

﴿لهم عزا﴾ : المراد سبب عز ونجاة.

﴿ويكونون عليهم ضدا﴾ : المراد أن الآلهة ستكون يوم القيامة شزا عليهم وسبب ذل لا عز. و ﴿ضدا﴾ لفظ يطلق على الواحد والأكثر مثل لفظ ﴿الطفل﴾ فى الآية (٣١) من سورة النور صفحتى ٤٦١، ٤٦٢، وهو حال مؤكدة للمعنى المفهوم من ﴿عليهم﴾. ﴿تؤزهم أزا﴾ : أصل الأز الهز الشديد والإزعاج، والمراد الإغراء على المعاصى.

---

(١) الباقيات (٢) الصالحات (٣) أفرايت (٤) بآياتنا
(٥) آلهة (٦) الشياطين (٧) الكافرين.

﴿نعد لهم عدا﴾ : أى نعد لهم أعمالهم عدا دقيقا لنجازيهم عليها، فبقاؤهم زيادة فى ذنوبهم.

المعنى : . قل أيها النبى لهؤلاء المفتخرين بالغنى والكثرة إن سنة الله جرت على أن من انهمك فى الضلال ولم يلتفت للعبر يمهلهم ربهم ويبسط لهم فى الرزق استدراجا لهم، حتى إذا رأوا ما وعدهم الله به إما عذاب القتل والأسر والذل وإما قيام ساعتهم فيشاهدون العذاب الأكبر، عند ذلك يعلمون مَنْ من الفريقين أضعف جندا، وسيكون الأمر بعكس ما كان فى الدنيا، انظر الآية (٤٤) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٨، ١٦٩، والآية (٣٢) من سورة الرعد صفحة ٣٢٦، والآية (٤٨) من سورة الحج صفحة ٤٤٠. يفعل سبحانه ذلك بالضالين، ويزيد الذين اهتدوا إلى الإيمان والعمل الصالح هدى بما ينزل عليهم من الآيات عوضا مما حرموا من زينة الدنيا إكراما لهم بما هو أنفع وأبقى؛ ولذا قال : والباقيات أى الطاعات التى تبقى فائدتها خالدة خير فى حكم الله فى الثواب وأحسن عاقبة. وكان لرجل مسلم دين على العاص ابن وائل من كبار المشركين بمكة، فلما طالبه به قال له مادام محمَّد يقول إنا سنبعث بعد الموت فانتظر حتى تأتينى هناك وسيكون لى مال وولد وأعطيك ما تريد. فأنزل الله تسفيها له بعد تسفيه من قبله هذه الآيات؛ والمعنى : فبعد ما تقدم هل علمت أيها النبى حال هذا الكافر وعجبت من قوله الشنيع وجرأته على الله؛ لأن ما ادعى أنه سيكون لا يعلم إلا بأحد أمرين : إما علم الغيب وإما بعهد قطعه الله له وليس عنده واحد منهما. ثم أكد خطأه فقال: كلا، أى ليس الأمر كما ادعى، وسنظهر له أننا كتبنا قوله، ونزيده من العذاب فى جهنم فوق عذاب كفره عذابا على كذبه وجرأته على الباطل، وسنسلبه ما بيده من المال والولد ويأتينا يوم القيامة وحده لا يملك شيئا. وما غر هؤلاء المشركين إلا أنهم اتخذوا لأنفسهم من دون الله آلهة يتقربون بها إليه تعالى ليعتزوا بشفاعتهم فلا يصيبهم مكروه، وليس الأمر كما زعموا، بل ستجحد تلك الآلهة عبادتهم، ويكونون خصوما لهم بعد أن ينطق الله مَنْ لم يكن ناطقا منهم، انظر الآية (١٦٦) من سورة البقرة صفحة ٣٢. ثم أمر سبحانه رسوله بالتعجب مما يحل بالكافرين فقال: ألم تر أيها النبى أنا مكنا الشياطين من الكافرين لما أعرضوا عن البرهان حتى صاروا يغرونهم بالمعاصى إغراء شديدا، انظر الآية (٢٥) من سورة فصلت صفحة ٦٣٣، فلا تعجل بطلب هلاكهم لأنا نعد عليهم جرائمهم عدا دقيقا لزيادة شقائهم، فدعهم واذكر يوم نحشر المتقين أى نجمعهم إلى ربهم الذى غمرهم برحمته حال كونهم وافدين عليه تعالى وفود الضيف العزيز على الملك الكريم.

وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ(١) إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ(٢) يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ(٣) وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي(٤) الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ(٥) وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ(٦) يَوْمَ الْقِيَامَةِ(٧) فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا(٨) وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ(٩) سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ(١٠) بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

المفردات :. ﴿وفدا﴾ : اسم جنس واحده وافد، وهم القوم الذين يفدون على الملوك لأخذ العطايا. ﴿وردا﴾ : أصل الورد السير إلى الماء بسرعة من شدة العطش وأزيد به هنا الواردون العطاش. ﴿عهدا﴾ : هو كلمة التوحيد والعمل الصالح الذى يسوغ الإذن لهم بالشفاعة. ﴿إدا﴾ : أى عجيبا منكرا شديدا. ﴿يتفطرون منه﴾: أى يتشققن. ﴿وتخر الجبال﴾ : أى تسقط وتتهدم. ﴿هدا﴾ : مصدر مؤكد لمعنى ما قبله وهو ﴿تخر﴾ أى: تهد هدا شديدا. ﴿أن دعوا للرحمن ولدا﴾ : أى بسبب أنهم نسبوا له سبحانه ولدا.

﴿إن كل مَنْ فى السموات﴾ :﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ما. ﴿إلا آتى﴾ : إتيان معنوى بمعنى الخضوع لقضائه.

﴿ودا﴾ : أى محبة منشؤها الإيمان الذى يربط بين قلوبهم، انظر الآية (٧١) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣، والآية (٢٩) من سورة الفتح صفحتى ٦٨٣، ٦٨٤ والآية (١٠) من سورة الحشر

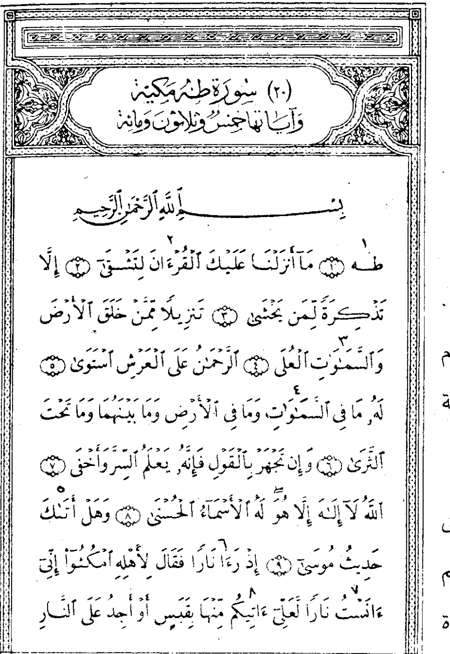
---

(١) الشفاعة
(٢، ٣) السموات
(٤) آتى
(٥) أحصاهم
(٦) آتيه
(٧) القيامة
(٨) آمنوا
(٩) الصالحات
(١٠) يسرناه.

صفحة ٧٣١. ﴿لدا﴾: جمع ألد بفتح اللام وتشديد الدال وهو شديد الخصومة بالباطل. ﴿قرن﴾ : أى جماعة من الناس والمراد أمة. ﴿هل تحس منهم من أحد﴾ : الاستفهام هنا بمعنى النفى أى لا تحس و﴿من﴾ فى ﴿من أحد﴾ مؤكدة لعموم النفى. ﴿ركزا﴾ : الركز الخفاء ومنه ركز الرمح إذا غيب بعضه فى الأرض، والمراد هنا الصوت الخفى الذى لا تكاد تسمع معه حروفا.

المعنى :. نكرم المتقين ونسوق المجرمين إلى جهنم عطاشا كما تساق الدواب العطاش إلى الماء، ولكن الماء هنا حميم يقطع أمعاءهم. يومئذ لا يملك أحد من العباد جميعا الشفاعة فى غيره إلا مَنْ أذن له ربه وفيمَنْ رضى عنه، انظر الآية (٢٥٥) من سورة البقرة صفحة ٥٣، والآية (٢٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٣. وقال الكافرون من مشركين ويهود ونصارى: اتخذ الله ولدا؛ فالعرب قالوا الملائكة، واليهود قالوا العزير، والنصارى قالوا المسيح. لقد جئتم أيها الكافرون بقولكم هذا شيئا منكرا. ثم وصفه بما يبين شناعته فقال: تكاد السموات تتشقق من فظاعته، وتنشق الأرض حتى تبتلع مَنْ فوقها، وتتهد الجبال هدا شديدا؛ وذلك من أجل أنهم نسبوا لله ولدا، والحال أنه سبحانه لا يليق به اتخاذ الولد لأنه لا يكون إلا لحاجة والده له، والله سبحانه غنى عن العالمين. ثم دلل على بطلان ذلك: ﴿إن كل مَنْ فى السموات﴾ إلخ: أى ما من أحد من الملائكة والجن والإنس إلا خاضع للرحمن فى قضائه مملوك له، لقد أحصاهم بعلمه، فهم تحت تصرفه، وعد أشخاصهم وأعمالهم عدا دقيقا، وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة وحيدا مفردا عن الأهل والأصحاب والمال. ثم أراد سبحانه أن يسلى رسوله على مخالفة قومه له فقال : إن الذين آمنوا بالله وبرسالتك وعملوا الصالحات سيربط الله قلوبهم بالمحبة التى يبعثها الإيمان. وبعد إيحاء هذه السورة عليك بلغ أيها النبى ما أنزل إليك وبشر به وأنذر، فإنما جعلناه عربيا بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما اشتدوا فى خصومتهم بعذاب أليم، انظر توضيح المقام فى الآية (١٦٤) من سورة آل عمران صفحة ٩٠، والآية (٤) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٩. ثم وعده ﷺ بالنصر فى ضمن وعيده للكفار بالهلاك فقال ﴿وكم أهلكنا﴾ إلخ: أى وكثيرا من الأمم قبلهم أهلكناهم لما كفروا كهؤلاء، حتى إنك لا تشعر الآن بحياة أحد منهم، ولا تسمع له همسا.

سورة طـــه



(٢٠) سورة طه مكية وآياتها خمس وثلاثون ومائة

بسم الله الرحمن الرحيم

طه ﴿١﴾ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴿٢﴾ إلا تذكرة لمن يخشى ﴿٣﴾ تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى ﴿٤﴾ الرحمن على العرش استوى ﴿٥﴾ له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ﴿٦﴾ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴿٧﴾ الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴿٨﴾ وهل أتاك حديث موسى ﴿٩﴾ إذ رءا نارا فقال لأهله امكثوا إني ءانست نارا لعلي ءاتيكم منها بقبس أو أجد على النار

بسم الله الرحمن الرحيم

المـفـردات: . ﴿طـه﴾ : تنطق : طا، ها. مختصرا من اسمى ﴿طاء، وهاء﴾، وتقدم الكلام على المراد من هذه الأحرف المقطعة كلها أول سورة البقرة.

﴿لتشقى﴾ : يطلق الشقاء عند العرب على التعب؛ يقال سيد القوم أشقاهم، أى أشدهم تعبا فى مصالحهم، انظر الآية (٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠، والآية (٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٧٩.

﴿العُلَى﴾ : جمع العليا، مؤنث الأعلى.

﴿على العرش استوى﴾ : تقدم بيانه فى الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١.

﴿الثرى﴾ : أصل الثرى التراب النَّدِيّ، والمراد مطلق التراب.

﴿هل أتاك﴾ : من أساليب العرب إذا أرادوا تثبيت الخبر يستفتحون بالاستفهام فيقول أحدهم لصاحبه هل بلغك كذا؟

ليستلفت نظره. ﴿آنست﴾ : الإيناس : الشعور بما يستأنس به، كما أن التوجس : الشعور بما يخاف منه، والمراد أبصرت نارا أستأنس بها.

(١) طا.ها (٢) القرآن (٣، ٤) السموات (٥) أتاك (٦) رأى (٧) آنست (٨) آتيكم.

﴿بقبس﴾ : أى بجزء مقتبس منها على رءوس عيدان، وهو المراد بالشهاب فى الآية (٧) من سورة النمل صفحتى ٤٩٤، وبالجذوة فى الآية (٢٩) من سورة القصص صفحتى ٥١٠، ٥١١.

المعنى : . لما كان ﷺ شديد الحزن على عدم إيمان قومه، أراد سبحانه أن يسليه ويدفع عنه الضجر فقال: ما أنزلنا عليك أيها النبى هذا القرآن لتتعب نفسك أسفا على كفر قومك به، فليس عليك إلا البلاغ، انظر الآية (٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠، ولكن أنزلناه تذكيرا لمن فى قلبه خشية، لأنه ينتفع به. ثم بيَّن سبحانه مكانة هذا القرآن بتفخيم شأن منزله فقال ﴿تنزيلا﴾ أى أنزل عليك تنزيلا ممن له هذه الأفعال والصفات العظيمة، هو الرحمن على العرش العظيم استوى استواء يليق به سبحانه، له كل ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما فى الجو وما تحت الثرى من معادن وغيرها، كل ما ذكر له خلقا وملكا وعبيدا. وبيَّن شمول ملكه وقدرته، وبيَّن إحاطة علمه بجميع الأشياء، فقال: وإن تجهر بالقول أيها المخاطب فاعلم أنه سبحانه فى علمه بأحوالك غنى عن جهرك لأنه يعلم ما تسر به لغيرك ولم ترفع به صوتك، ويعلم ما هو أخفى من السر وهو خواطر القلب التى لا يتحرك بها اللسان، انظر الآية (١٦) من سورة ق صفحة ٦٨٩. وهذا إرشاد منه تعالى ليتحرى العبد ويحتاط فلا ينطق بسوء. وإنما خص الجهر بالذكر لأنه الأكثر بين الناس. ثم أراد سبحانه أن يبين أن ما تقدم من صفات الكمال ليس أهلا لها إلا المعبود الحق الذى لا رب غيره ولا معبود سواه، فقال ﴿الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى﴾ لأنها دالة على التقديس والحكمة. والحسنى مؤنث الأحسن. ثم أراد سبحانه أن يرشد نبيه لتحمل المشاق والتغلب على ما حصل لإخوانه الأنبياء، فذكره بقصة موسى وما لاقاه من فرعون وقومه، ليعلم منها أن العاقبة للمتقين، فقال: ﴿وهل أتاك حديث موسى﴾ إلخ: والمعنى : هل بلغك أيها النبى قصة موسى ورسالته وما لاقاه من فرعون، المبتدأة من وقت أن رأى نارا من بعيد، وكان الليل مظلما والجو باردا حتى خفى عليه الطريق، وكان موسى بعدما قضى الأجل مع والد زوجته أراد الرجوع إلى مصر ليرى والدته وأخاه، فأخذ معه بعضا من الغنم ليقتات من لبنها، وبعض ما يركب ويحمل متاعه، فلما وصل وادى طوى، وفيه جبل الطور وصادف ما سلف من الظلمة والبرد، رأى فى هذا الوقت شيئا ظنه نارا فقال لزوجه ومَنْ معه من الرعاة : امكثوا مكانكم لأنى أبصرت نارا وسأذهب إليها راجيا أن آتيكم منها بقبس أو أجد عندها هاديا يرشدنا إلى الطريق.

هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ

المفردات : . ﴿هدى﴾ : أصله مصدر وأريد به هاد. ومرشد للطريق. ﴿اخلع نعليك﴾ : لأن الحفاء كان أمارة التواضع والأدب فى ذلك الوقت، وقال سعيد بن جبير: ذلك كما يؤمر الرجل بخلع نعليه إذا أراد دخول الكعبة أى ليطأ الأرض المقدسة بقدميه عاريتين فتصيبه بركة ذلك المكان، وهو واقف يسمع أشرف ما يُسْمَع من أعلى مقام فى الوجود مباشرة من غير واسطة. ﴿إنك بالوادى المقدس﴾ إلخ: بيان لسبب الأمر بالخلع من شرف البقعة التى اختارها سبحانه لمناجاة كليمه موسى. ﴿المقدس﴾ قال الراغب: التقديس التطهير الإلهى المذكور فى قوله تعالى ﴿يطهركم﴾ الآية (٣٣) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٤ فهو تطهير من الأرجاس المعنوية كالشرك والحسد والحقد من كل ما فيه نقص معنوى ولذا يكون الشىء المقدس كثير البركة ولذا سمى المكان مباركا فى الآية (٣٠) من سورة القصص صفحة ٥١١. ﴿طوى﴾ : هو اسم هذا الوادى الموجود بجانب الطور كما فى الآية (٢٩) من سورة القصص صفحتى ٥١٠، ٥١١.

﴿الساعة﴾ : أى القيامة.

﴿أكاد أخفيها﴾ : أى أقرب من إخفائها ﴿أخفيها﴾ قال الراغب (الخفاء) يطلقه العرب على ما يستر به الشىء كالغطاء، ويقولون فلان أخفى الشىء أى أزال خفاءه وأظهره كما يقولون

(١) أتاها (٢) يا موسى (٣) الصلاة
(٤) آتية (٥) هواه (٦) يا موسى
(٧) أتوكا (٨) مآرب (٩) يا موسى
(١٠) فالقاها (١١) آية.

يقولون أقذيت العين أى أزلت عنها القَذَى، وأشكلت الكتاب أى أزلت إشكاله والتباسه بوضع علامات إعرابه. فالعرب تستعمل ﴿أخفى﴾ فى ستر الشىء، وفى إظهاره، وهما ضدان. فمن الأول ﴿إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها.. إلخ﴾ الآية (٢٧١) من سورة البقرة صفحتى ٥٧، ٥٨ ومن الثانى ما هنا، فالعرب تزيد فى الفعل الثلاثى همزة، أو تكرر حرفا من حروفه لإفادة معنى الإزالة. فالتكرير كما فى ﴿حَرِّض المؤمنين على القتال.. إلخ﴾ الآية (٦٥) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٧، وزيادة الهمزة كما فى ﴿مصرخكم﴾ الآية (٢٢) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٣ فإنه مأخوذ من أصرخ، وكما هنا فى ﴿أخفيها﴾، وكما فى قولهم أقسط الرجل عدل وقسط: فالمعنى أزيل خفاءها بإظهارها، وإنها الحياة الدنيا ﴿فتردى﴾ : فتهلك. ﴿وما تلك بيمينك﴾ : استفهام يراد به تنبيه المخاطب لما سيأتى فليس المراد ظاهر ذلك السؤال من أنه لطلب العلم، لأن ذلك محال عليه تعالى وهو العليم بكل شىء، بل السؤال هنا مقصود به تعليم موسى عليه السلام ما يجهله عن هذه العصا، وذلك ما فهمه نبى الله موسى حيث ذكر كل ما يعلم ليتلقى من الله ما لا يعلم، فالمقام مقام تعليم من الله لموسى، لا أن يتعلم الله من موسى شيئا، حاشاه سبحانه. وهذا أسلوب معهود من كل مَنْ أراد أن يظهر من الشىء الصغير شيئا عظيما، فإنه يعرضه أولاً على الحاضرين، ويقول لهم ما هذا وما فائدته؟ فإذا قالوا كل ما يعرفونه عنه مما هو بعيد عما يريد السائل إظهاره، يظهر لهم ما يبهرهم ولا يخطر لهم على بال. فكذلك هنا بعدما عدد موسى كل ما يعلمه أظهر له سبحانه من أسرارها كل تلك المعجزات : كانقلابها حية، وضرب البحر بها حتى انفلق، وضرب الحجر حتى تفجر منه الماء. فكان جواب موسى جواب مَنْ يتطلع لعلم ما لا يعلمه. فأجابه الله سبحانه إليه. ﴿أهش بها﴾ : أى أضرب بها ورق الشجر ليسقط على غنمى فتأكله. ﴿مآرب أخرى﴾ : جمع مأربة بفتح الراء وضمها وكسرها، بمعنى حاجة. ﴿حية﴾ : اسم للصغير والكبير والذكر والأنثى من هذا النوع، والثعبان هو الكبير منها، انظر الآية (١٠٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٩، وكانت فى قوة الحركة والمقاومة كالجان. انظر الآية (١٠) من سورة النمل صفحة ٤٩٥، والآية (٣١) من سورة القصص صفحة ٥١١.

﴿سيرتها الأولى﴾ : هيئتها وحالتها الأولى.

﴿جناحك﴾ : أصل الجناح للطائر، ويطلق على جانب الشيء، وعلى العضد، انظر الآية (٣٢) من سورة القصص صفحة ٥١١.

﴿من غير سوء﴾ : أى من غير مرض كالبرص.

المعنى : . أو أجد على النار مَنْ يرشدنى للطريق. فلما أتى ما ظنه نارا، وجد نورا يخرج من شجرة خضراء كما فى الآية (٣٠) من سورة القصص صفحة ٥١١، وسمع صوتا يقول : يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك لأنك بالوادى المقدس الذى هو طوى، وأنا اصطفيتك من قومك للنبوة فاسمع بكل عناية لما يوحى إليك. ثم بيَّن بعض هذا الموحى به فقال إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وحدى، وأقم الصلاة لتذكرنى بقلبك ولسانك، واعلم يا موسى أنت ومَنْ تبلغه رسالتى أن الساعة آتية لا ريب فيها، أى قرب وقت وقوعها وإنهاء هذه الحياة الدنيا وجمع الخلائق للحساب، فهى لابد واقعة لتجزى كل نفس بما عملت، فلا يصرفنك عن الإيمان بها من لا يؤمن بها فتهلك مع الهالكين. ثم أراد سبحانه أن يبين لموسى المعجزات التى أعطاها له ليقيم بها الحجة على فرعون وقومه، فقال: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾المراد تأمل جيدا فى حال ما فى يدك لتعلم ما سيكون، فقال: هى عصاى أعتمد عليها فى المشى، وإذا وقفت وراء الغنم، وأسقط بها ورق الشجر لتأكل غنمى، ولى فيها منافع أخرى غير ذلك كحمل الزاد، وطرد السباع، ووضع الرداء عليها، والاستظلال من الشمس، إلى غير ذلك. قال سبحانه: اطرحها على الأرض يا موسى. فألقاها فإذا هى صارت حية تجرى، فخاف منها موسى فقال له: خذها ولا تخف سنعيدها إلى حالتها الأولى، أى كما كانت عصا عادية. ثم أرشده إلى المعجزة الثانية، فقال: وأدخل يدك من فتحة ثوبك حتى تضعها تحت عضدك، انظر الآية (١٢) من سورة النمل صفحة ٤٩٥، والآية (٣٢) من سورة القصص صفحة ٥١١، ثم أخرجها فإنها ستخرج بيضاء مخالفة للون باقى جسمك، وليس بياضها بياض مرض حال كونها معجزة ثانية. فعلنا معك ذلك لنريك بعض معجزاتنا.

ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ﴿٢٣﴾ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي[2] ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ[3] ﴿٣٦﴾ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ[4] إِلَىٰٓ أُمِّكَ

المفردات : . ﴿احلل عقدة من لسانى﴾ : كان فى لسانه عليه السلام رُتَّه بضم الراء وتشديد التاء أى حبسة تجعل فى الفهم منه صعوبة فكان من أدبه أنه لم يطلب حلها جميعا، بدليل اعترافه بأن هارون أفصح منه كما فى الآية (٣٤) من سورة القصص صفحة ٥١١، وتصريح فرعون بأنه لا يوضح مراده كما فى الآية (٥٢) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٢. ﴿وزيرا﴾ : أى مؤازرًا ومساعدًا. ﴿أزرى﴾ : يطلق الأزر على الظهر وعلى القوة. ﴿سؤلك﴾ : السؤل بمعنى المسئول كالخبز بمعنى المخبوز، والمراد إنا مكناك من أن تُفهِم غيرك بلا صعوبة. ﴿مرة﴾ : المراد بالمرة هنا الفترة من الزمن السابق التى حصل له فيها نعم كثيرة كما سيأتى. ﴿أوصينا إلى أمك﴾ : فى المنام أو على لسان ملك تمثل لها بشرا كما فى الآية (١٧) من سورة مريم صفحة ٣٩٧، انظر بيان ذلك فى الآية (٧) من سورة القصص صفحتى ٥٠٦، ٥٠٧.

﴿اقذفيه﴾ : أى اطرحيه، انظر الآية (٢) من سورة الحشر صفحتى ٧٢٩، ٧٣٠.

﴿التابوت﴾ : صندوق محكم من خشب. ﴿اليم﴾ : هو اسم للماء الكثير سواء أكان عذبا كما هنا، أم ملحا كما فى الآية (٧٨) من هذه السورة صفحة ٤١٣. ﴿عدو لى وعدو له﴾ : هو فرعون. ﴿ولتصنع على عينى﴾ : أصله من صنع الرجل فرسه إذا أحسن تربيتها، فالمراد تربى تحت رعايتى ومراقبتى فلا تمس بسوء، ونظير ذلك ما فى الآية ٣٧ من سورة هود صفحة

(١) آياتنا (٢) هارون
(٣) يا موسى (٤) فرجعناك.

٢٨٩. ﴿يكفله﴾: أى يحفظه ويقوم بشئونه. ﴿فرجعناك إلى أمك﴾ : أى رددناك إليها، انظر شرح الآية (٨٣) من سورة التوبة صفحة ٢٥٥.

المعنى : . لنريك بهاتين الآيتين بعض آياتنا العظمى، اذهب بهما إلى فرعون لأنه جاوز حد العبودية إلى دعوى الربوبية وتجبر على خلقى، فادعه إلى عبادتى وحذره نقمتى. فلما سمع موسى ما كلف به وأنه أمر خطير طلب من ربه ستة أشياء ليقوم بما كلف به خير قيام فقال: يارب حقق لى شرحا وتيسيرا؛ أما الشرح فلصدرى بأن تفسحه لتحمل أعباء الرسالة والصبر على مشاقها، وأما التيسير فبتسهيل الأمر بإيجاد الأسباب ودفع الموانع، واحلل من لسانى عقدة من عقده التى يصعب التفاهم معها ليفهم الناس ما أبلغه عنك، واجعل لى مساعدا من أهل بيتى هو هارون أخى لأنه أفصح منى فيحمل معى أعباء الرسالة فاقوى به ظهرى عند الشدة، واجعله شريكى فى أمر الرسالة، انظر آيتى (٣٣، ٣٤) من القصص صفحة ٥١١. وإنما طلبت منك يارب ذلك لكى نتعاون على أن ننزهك عما لا يليق بك، وأن نذكرك وحدك كثيرا، والتعاون على البر يقوى العزائم، إنك يارب كنت بأحوالنا عليما فتساعدنا على ما يسهل لنا النجاح. قال سبحانه: قد أعطيتك ما سألتنى، ولقد تفضلنا عليك من قبل بنعم كثيرة لم تطلبها، فلا نبخل عليك بما تطلب منها حين أوصينا إلى أمك وقت أن خافت عليك من القتل، كما كان فرعون يفعل مع أبناء بنى إسرائيل، أوحينا إليها ما ينبغى به أن يكون وحيا لا يخل به لعظم شأنه فقلنا لها بهذا الوحى: ضعى موسى إذا خفت عليه فى التابوت، وألقيه فى النيل، فسيلقيه النيل بساحل قصر فرعون فيبصره الخدم فيأخذونه فيراه فرعون فيأخذه، مع أنه عدو لله حيث عبد غيره، وعدو لموسى حيث كان يقتل جنسه، وألقيت عليك محبة تحصل فى قلب كل مَنْ يراك صادرة من فضلى، لتحب من الجميع، ولتصنع تحت رعايتى، ومنها حين مشت أختك تقص أثرك فى اليم كما فى الآية (٧) وما بعدها من سورة القصص صفحتى ٥٠٦، ٥٠٧. فلما أنعمنا عليك بمنعك من الرضاع من جميع النساء اللاتى أحضروها لك انتهزت أختك ذلك فقالت لبيت فرعون: هل أدلكم على مَنْ يحفظه ويقوم بشانه؟ فقبلوا فلما عرضوك على أمك التقمت ثديها فتركوك فى كفالتها، وبذلك رددناك إلى أمك...

كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ

المفردات : . ﴿تقر عينها﴾ : قر من باب ضرب وعلم قرة بضم أوله، وقرورًا كناية عن السرور، وأصله من القرار وهو الثبات المعنوى أو الحسى؛ أما المعنوى لأن مَنْ ينال أمنيته لا يتطلع إلى غيرها، وأما الحسى؛ لأن الألم والفزع يجعل العين حائرة مضطربة، فإذا اطمأن صاحبها سكنت، انظر الآية (٩) من سورة القصص صفحة ٥٠٧، والآية (١٩) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٥١، ٥٥٢.

﴿ولا تحزن﴾ : المراد لا يعتريها بعد ذلك حزن أبدا. ﴿قتلت نفسا﴾ : هى نفس القبطى كما فى الآية (١٥) من سورة القصص صفحة ٥٠٨.

﴿من الغم﴾ : الذى اعتراك من خوف القتل، انظر الآية (١٤) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٠، والآية (٢٠) من سورة القصص صفحة ٥٠٩ .

﴿وفتناك﴾ : أى اختبرناك وامتحناك بالشر والخير كما فى الآية (٣٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٤. ﴿فتونا﴾ : أنواعا من الفتن جمع فَتْن بفتح فسكون كالظنون جمع ظن.

﴿فلبثت﴾ : أى مكثت.

﴿مدين﴾ : فى الجنوب الشرقى للطور عند خليج العقبة.

﴿على قدر﴾: المراد بالقدر هنا الوقت الذى قدر الله عز وجل فى الأزل أن يكلم فيه موسى ويبلغه رسالته.

---

(١) فنجيناك (٢) وفتناك (٣) يا موسى
(٤) بآياتى (٥) إسرائيل (٦) جئناك
(٧) بآية (٨) والسلام (٩) يا موسى.

﴿واصطنعتك﴾ : أصله من الصنع بمعنى الصنيعة وهى الإحسان.

ومعنى اصطنعه جعله محل إحسانه.

﴿لنفسى﴾ : أى لوحى رسالتى، والمراد جعلتك من خواصى.

﴿بآياتى﴾ : المراد بها المعجزات كالعصا واليد وما يتبع ذلك. انظر الآية (١٠١) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٨.

﴿ولا تنيا فى ذكرى﴾ : أى لا تقصرا فى ذكرى وعبادتى وطاعتى التى من أهمها تبليغ الرسالة.

﴿اذهبا إلى فرعون﴾ : لما أمرهما أولاً بالذهاب مطلقا بيَّن لهما هنا أن الذهاب إلى فرعون.

﴿طغى﴾ : تجاوز الحد فى الظلم.

﴿قولا لينا﴾ : أى لا عنف فيه ولا غلظة بينت بعضه آيتى (١٨، ١٩) من سورة النازعات صفحة ٧٩٠.

﴿قالا ربنا إننا نخاف﴾ إلخ: إذا رجعت إلى آيتى (٣٣، ٣٤) من سورة القصص صفحة ٥١١ تعلم أن موسى عليه السلام عندما ناداه ربه أول مرة وأمره بالذهاب إلى فرعون أظهر عليه السلام خوفه من جبروت فرعون، وطمأنه سبحانه فسكنت نفسه ولما رجع وبَلَّغ أخاه هارون بأن الله عز وجل أرسله معه إلى فرعون وكان هارون يعلم من طغيان فرعون وشدة غيظه من موسى مالم يعلمه موسى لغيبته مدة عشر سنين وهى الفترة التى قضاها بمدين، حملهما هذا على أن يظهرا حذرهما لربهما لعله يزيدهما طمأنينة يتحصنان بها عندما يفاجئهما فرعون وجنوده بالجبروت والبغى فقالا ربنا إننا ... إلخ.

﴿يفرط علينا﴾ : أى يعجل علينا بالقتل، وأصله من قولهم فرس فارط إذا سبق غيره، انظر الآية (٦٢) من سورة النحل صفحة ٣٥٣. ﴿يطغى﴾ : المراد يزداد تجاوزا للحد فى الإساءة إلينا.

المعنى : . رددناك إلى أمك تحقيقا لوعدنا لها فى الآية (٧) من سورة القصص صفحتى ٥٠٦، ٥٠٧ لتسر ولا تحزن بعد ذلك أبدا. ومما مننا به عليك أننا نجيناك من الغم حين قتلت الرجل القبطى، وعاملناك معاملة المختبر لتتجلى حقيقتك التى أهلتك لتكون رسولا؛ فعلنا معك ذلك بأنواع الفتن كما حصل لك عند هربك من مصر مفارقا لأهلك سائرا على رجليك المسافات الطويلة مع عدم الزاد، وتأجير نفسك لرعى الغنم، إلى غير ذلك، وبعد تلك الفتنة مكثت مدة عشر سنين فى أهل مدين كما فى الآية (٢٧ إلى ٢٩) من سورة القصص صفحتى ٥١٠، ٥١١، ثم جئت على وفق الوقت الذى قدرته لأحملك رسالتى دون تقدم عليه أو تأخر عنه، ولولا توفيقى لما تم ذلك، وجعلتك من خواصى لتحمل رسالتى. اذهب أنت وأخوك هارون مستدلاً على صدقكما بآياتى ولا تفرطا فى عبادتى وطاعتى. اذهبا بذلك إلى فرعون لأنه تجاوز الحد فبلغاه رسالة ربكما بأسلوب لين أول الأمر حتى لا يفاجأ بما ينفره، فإذا تجبر وتكبر قوبل عمله بما يليق به كما فى الآية (١٠٢) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٨، والآية (٢٢) من سورة الشعراء صفحة ٤٨١، راجين أن يتذكر عظمة ربه أو يخاف عذابه. قال موسى وهارون بعد أن بلغه موسى تكليف ربه: ياربنا إننا نخاف أن يسبق فرعون بقتلنا، أو يزداد ظلمه لبنى إسرائيل عموما. قال : لا تخافا لأننى معكما بالحفظ والنصر أسمع وأرى، فأدفع شره عنكما، فأتياه فقولا إنا رسولا ربك إليك فأرسل معنا بنى إسرائيل، أى أطلقهم من الاستعباد، ولا تعذبهم بالقتل والتسخير فى الأعمال الشاقة، وإنما بدأ بهذا الطلب دون دعوة فرعون وقومه إلى الإيمان لأنه أسهل فى أول الأمر، فإذا أطاع انتقلا لغيره. وقد جئناك بالبرهان القاطع بصدقنا وهى المعجزة. ثم رغبه فى النجاة فقال: والسلامة والأمان من العذاب فى الدنيا والآخرة على مَنْ اتبع هدى الله وآمن برسله. ثم انتقلا إلى تخويفه وجاء بالتخويف على أنه وحى من الله لتخف حدته عليهما فقالا: إن الله قد أوحى إلينا أن العذاب فى الدارين على مَنْ كذب رسله وأعرض عما جاءوا به. ثم لما بلّغاه ما أمرهما الله تعالى به كان من تجبره أن أغفل قولهما: ﴿إنا رسولا ربك﴾ و ﴿قد جئناك بآية من ربك﴾ وقال: إذا كنتما رسولى ربكما فمَنْ ربكما هذا يا موسى الذى تزعمان أنه أرسلكما؟ وإنما وجه الخطاب لموسى لأنه الأصل فى الرسالة. قال موسى: ربنا جميعا نحن وأنت هو الإله الحق الذى أعطى كل شىء إلخ.

خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾

المفردات : ﴿خلقه﴾ : أصل الخلق مصدر بمعنى الإيجاد، وأريد به هنا اسم المفعول أي مخلوقاته تعالى، وهو مفعول أول لأعطى، قدم عليه المفعول الثاني.

﴿كل شيء﴾ لأنه المقصود بالامتنان.

﴿بال﴾ : أصل البال الأمر المهم، والمراد به هنا الحال.

﴿في كتاب﴾ : هو اللوح المحفوظ.

﴿لا يضل ربي﴾ : أي لا يخطئ في شيء مما فيه. ﴿مهدا﴾ : أصل المهد مكان راحة الصبي، والمراد كالمهد في الراحة فيها.

﴿وسلك لكم﴾ : أصل السلوك الدخول في الطريق، يقال سلكت الطريق وسلكت فلانا فيه؛ فمن الأول آيتي (٦٩) من سورة النحل صفحة ٣٥٤، و (٢٠) من سورة نوح صفحة ٧٦٩؛ ومن الثاني آيتي (١٢) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨، و (٤٢) من سورة المدثر صفحة ٧٧٧، والمعنى المراد هنا: هيأ لكم فيها طرقا.

﴿سبلا﴾ : جمع سبيل أي طريق.

﴿فأخرجنا به﴾ : أصل كلام موسى فأخرج، ولما حكاه سبحانه عنه نسب الإخراج إلى نفسه تعالى تنبيها لما فيه من كمال القدرة، انظر الآية (٦٠) من سورة النمل صفحة ٥٠١، والآية (٢٧) من سورة فاطر صفحة ٥٧٥.

﴿أزواجا﴾ : أي أصنافا.

(١) كتاب (٢) أزواجا (٣) أنعامكم
(٤) لآيات (٥) خلقناكم (٦) أريناه
(٧) آياتنا (٨) يا موسى.

﴿شتى﴾ : جمع شتيت كمريض ومرض أي مختلفة.

﴿آيات﴾ : أي أدلة على وجود صانع قادر حكيم.

﴿لألي﴾ : أي أصحاب.

﴿النهى﴾ : أي العقول الناهية عن القبيح، ومفرده نُهية بضم فسكون.

﴿لتخرجنا من أرضنا﴾ : أي لتتغلب على مصر حتى تخرجنا منها.

﴿موعدا﴾ : الموعد مصدر معناه الوعد، ويراد به الاتفاق على شيء وهو هنا زمان الاجتماع بدليل قوله بعد ذلك موعدكم يوم الزينة.

﴿مكان سوى﴾ : أي في مكان من الأرض مستو لا ارتفاع فيه ولا انخفاض حتى يتمكن جميع الحاضرين من المشاهدة.

﴿الزينة﴾ : أي زينة الناس فيه لأنه يوم من أعيادهم المشهودة.

وروى بعضهم أنه يوم وفاء النيل ومازال معروفا في مصر إلى الآن.

﴿أن يحشر الناس﴾ : مئول بمصدر معطوف على الزينة، أي ويوم حشر الناس وجمعهم ضحى.

﴿كيده﴾ : أصل الكيد التدبير الخفي، والمراد هنا ما يكيد به لخصومه من السحرة وغيرهم كما سيأتي في آيتي (٦٤، ٦٩) صفحة ٤١١.

المعنى . أعطى سبحانه مخلوقاته كل ما يحتاجون إليه في حياتهم، ثم هداهم إلى طريق الانتفاع به، انظر الآية (٣٤) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٥.

ولما أدرك فرعون قوة الدليل على بطلان دعواه الربوبية، وخاف أن يفهم الناس ذلك، نقل الكلام إلى أمور يمكن الجدل فيها فقال: إذا كنت رسولا فأخبرني عن حال الأمم الماضية وما حصل لهم. فأغلق موسى عليه هذا الباب بقوله: علمها عند ربي لأنه من الغيب الذي لا يعلمه سواه، وإنما أنا عبد مثلك لا أعلم إلا ما يعلمني ربي، وعلم هذه الأمم مثبت في كتاب محفوظ

لا يخطئ ربى فى شىء مما فيه ولا ينساه؛ ربى هذا هو الذى جعل لكم الأرض مهادا وجعل لكم فيها طرقا، وأنزل من جهة السماء ماء، فأخرج به أنواعا مختلفة من النبات، قائلا كلوا من حبوبها وثمارها، وارعوا أنعامكم فى حشائشها، إن فى هذا الصنع البديع لأدلة على وجود صانع حكيم ينتفع بها أصحاب العقول السليمة، وقائلاً سبحانه أيضا: من هذه الأرض خلقناكم، وفيها نعيدكم بالموت، ومنها نخرجكم مرة أخرى للبعث والحساب.

ثم قال سبحانه تتميما لما جرى بين موسى عليه السلام وفرعون: ولقد أرينا فرعون أدلة وجودنا وصدق موسى كلها حين طلبها كما فى الآية (١٠٦) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٩، وآيتى (١٠٧، ١٠٨) وما بعدهما من نفس السورة تدل على أنه لم يُره قبل جمع السحرة غير آيتين العصا واليد، وإنما جمعهما هنا لأنهما فى قوة آيات كثيرة لما اشتملتا عليه من عبر تكفى الواحدة منها لإيمان أقسى الناس قلبا.

والتعبير بالجمع عن الواحد والاثنين لما فيه من المزايا معهود عن العرب؛ فمنه قولهم: فليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد، وقوله سبحانه ﴿إن إبراهيم كان أمة﴾ فالعصا كان يكفى فى إعجازها أن تتحرك وهى على حالها، أو تنقلب ثعبانا صغيرا بجسمها بدون حركة، أو ثعبانا يتحرك ببطء، إلى غير ذلك، لكنها انقلبت إلى ثعبان ضخم سريع الحركة كأنه جان، انظر ما سبق فى الآية (٢٠) من هذه السورة صفحة ٤٠٧، وهذا غير ما حصل فيما بعد من ابتلاعها تلالا من الحبال والعصى مع بقاء حجمها كما هو.

وبعد ما رأى فرعون هذه الآيات كذب موسى من شدة عناده وأبى الإيمان لقوة عتوه، وقال: هل جئتنا لتخرجنا من أرض مصر بسحرك وتتحكم فيها؟ فوعزتى لنأتينك بسحر مثل سحرك يغلبه، فاضرب بيننا وبينك وعدًا لا نخلفه نحن ولا أنت ونجتمع فى مكان مستو. قال موسى: زمن وعدكم يوم الزينة وحشر الناس فيه ضحى. فأعرض فرعون عن موسى فجمع ما يكيد به من السحرة وآلاتهم ثم أتى به فى الموعد.

قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا[١] أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ[٢] لَسَاحِرَانِ[٣] يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ[٤] إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ[٥] ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا[٦]

المفردات: ﴿ويلكم﴾ : الويل: الهلاك. والمراد أهلككم الله. ﴿لا تفتروا﴾ : لا تجرءوا فى الكذب على الله. ﴿فيسحتكم بعذاب﴾ : يهلككم بعذاب الإفناء.

﴿أسروا النجوى﴾ : أخفوا تناجيهم عند النظر فى الأمر. ﴿إن هذان لساحران﴾ : إن حرف نفى بمعنى (ما) ولام ﴿لساحران﴾ بمعنى (إلا) أى ما هذان إلا ساحران. ﴿ويذهبا بطريقتكم﴾ : أى يذهباها، انظر الآية (١٧) من سورة البقرة صفحة ٥، وأرادوا بالطريقة ما كان عليه فرعون من اعتقادات وأعمال جعلته يفتخر بأن له ملك مصر، انظر آيتى (٢٦، ٢٩) من سورة غافر صفحة ٦٢١. والآية (٥١) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٢. ﴿المثلى﴾ : مؤنث الأمثل بمعنى الأفضل أى الأفضل من غيرها. ﴿اجمعوا كيدكم﴾ : أى اعزموا وأنتم متفقون على ما تكيدونهما به، انظر الآية ٧١ من سورة يونس صفحة ٢٧١، والآية (١٥) من سورة يوسف صفحة ٣٠٤. ﴿ثم ائتوا صفا﴾ : أى مصطفين لأنه أهيب فى نفس الجمهور. ﴿استعلى﴾ : طلب العلو بالغلبة على خصمه. ﴿يخيل إليه من سحرهم﴾ : يقال إن فرعون وملأه لما رأوا فى مجلسهم الخاص أن عصا موسى صارت ثعبانا كما فى الآية (١٠٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٩ ضحكوا منه كما فى الآية (٤٧) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٢ ظانين أن ما حصل نتيجة سحر تعلمه موسى ليوهم الناس أنه رسول، فأمر فرعون بجمع علمائه الذين يتقنون صنعة الشعوذة كما فى الآية (١١٢) من سورة الأعراف صفحة ٢١٠، فلما حضرا وعلموا بما حصل ظنوا كما ظن فرعون، وطلبوا أجرا إن غلبوا موسى كما فى الآية (٤١) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٢، فلما أجابهم لطلبهم صنعوا حبالا وعصيا مجوفة على شكل حيات وحشوها زئبقا لتتحرك إذا مست أقل حرارة.

(١) فتنازعوا (٢) هذان (٣) لساحران (٤) يا موسى (٥) ساحر (٦) آمنا.

﴿فأوجس فى نفسه﴾: أى أضمر الخوف فى نفسه.﴿تلقف﴾ : أى تبتلع بقوة وسرعة. ﴿ما صنعوا﴾ : هذا يدل على أن سحرهم كان تخييلا تعلموه كما تتعلم الصنعة، وأنه لا حقيقة له، انظر الآية (٦٦) المتقدمة هنا، والآية (١١٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٠. ﴿فألقى السحرة سجدا﴾: أى فألقت سطوة المعجزة السحرة على وجوههم سجدا خاضعين لله، والمراد أن معرفتهم أن هذا هو الحق أخضعتهم له بقوة وقد أيقنوا بأن موسى نبى لا ساحر.

المعنى : . فلما جاء السحرة فى الموعد المحدد قال لهم موسى: أهلككم الله إهلاكا فلا تجرءوا على نسبة الكذب إليه تعالى بدعواكم أن معجزاته سحر فإنى أخشى أن يفنيكم بعذاب، وقد خاب كل من افترى على الله كذبا. وعندما سمعوا من موسى هذا التهديد الشديد تنازعوا فى الأمر الذى أريد منهم، وبالغوا فى إخفاء كلامهم عن الجميع، وكان تنازعهم أن بعضهم قال ما هذا بقول ساحر، فإن غلبنا اتبعناه، وبعضهم يعارض، وأخيرا قال بعضهم لبعض ما هذان الرجلان أى موسى وهارون إلا ساحران يريدان أن يخرجاكم من أرض مصر بالاستيلاء عليها بسبب سحرهما الذى أظهروه لكم أولا، ويذهبا طريقتكم الفضلى، وإذا كان الأمر كذلك فاحزموا أمركم الذى تكيدونهما به، وادخلوا إلى الميدان صفا واحدًا حتى تدخلوا المهابة فى نفوس الجميع، وقد فاز اليوم مَنْ غلب خصمه. ثم قالوا ملاحظين أدب المجاملة: يا موسى إما أن تلقى ما معك أو نكون نحن أول مَنْ ألقى. فجامل موسى أيضا فقال بل ألقوا أنتم، فألقوا جميع ما أحضروه من حبال وعصى، ففوجئ موسى بتخيله أن حبالهم وعصيهم تسعى كالحيات بسبب إتقان سحرهم. ولما لم يكن موسى يعلم حقيقة السحر ورأى حبالهم وعصيهم تتحرك كما تتحرك عصاه، أخفى فى نفسه الخوف من أن يخفى الحق على الناس ويظنوه قد غلب لأنهم رأوا عصى السحرة وحبالهم تتحرك كما تحركت عصاه أول الأمر أمام فرعون، ولم يكن يعلم إلى تلك اللحظة أن عصاه ستلقف ما صنعوا. عند ذلك جاء الوحى قائلاً له ﴿لا تخف إنك أنت الأعلى﴾ بحقك على باطلهم، وألق عصاك التى فى يمينك تبتلع كل ما صنعوه من أكوام الحبال والعصى مع بقاء جسمها كما هو؛ لأن ما صنعوه مكيدة ساحر، ولا يفلح الساحر فى أى مكان حل فيه، فلما ألقى موسى عصاه وابتلعت كل ما صنعوا، أيقن السحرة أنه نبى صادق وما هو بساحر، فحملهم يقينهم هذا على السجود لله توبة قائلين آمنا... قال الزمخشرى: ما أعجب أمرهم! ألقوا حبالهم وعصيهم أولاً للكفر والجحود، ثم ألقوا رءوسهم بعد لحظة للشكر والسجود فما أعظم الفرق بين الإلقاءين.

٤١٢

رَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

المفردات : . ﴿برب هارون وموسى﴾ : فى آيتى (١٢٢) من سورة الأعراف، و (٤٨) من سورة الشعراء صفحتى ٢١١، ٤٨٣ تقديم موسى، ويظهر أن بعضهم قدم موسى لأن الرسالة له أولا، وآخرون قدموا هارون لأنه أكبر سنا، فحكى سبحانه كلا من القولين فى موضعين.

﴿من خلاف﴾ : أى مختلفات : يد من جهة ورجْل من أخرى، انظر الآية (١٢٤) من سورة الأعراف صفحة٢١١.

﴿نؤثرك﴾ : نفضلك ونقدمك.

﴿والذى فطرنا﴾ : معطوف على ﴿ما﴾.

فى ﴿ما جاءنا﴾ أى وعلى الذى فطرنا أى خلقنا.

(١) هارون
(٢) آمنتم
(٣) آذن
(٤) خلاف
(٥) البينات
(٦) الحياة
(٧) آمنا
(٨) خطايانا
(٩) الصالحات
(١٠) الدرجات.
(١١) جنات
(١٢) الأنهار
(١٣) خالدين.

﴿فاقض﴾ : أى أصنع، انظر الآية (١٢) من سورة فصلت صفحة ٦٣١.

﴿وما أكرهتنا عليه﴾ : يظهر أن فرعون كان فيما يعتمد عليه فى تضليل الناس السحر، وكان يكره بعض العلماء على إتقانه، وأنهم كانوا يعلمون أنه تضليل ممقوت، وكانوا يعملونه خوفا من بطش فرعون.

﴿تزكى﴾ : أى تطهر من أنجاس الكفر والمعاصى.

المعنى : . أسرع السحرة بالسجود لله تعالى قائلين آمنا برب هارون وموسى.

قال بعضهم : إن السحرة بعدما ألقوا حبالهم للكفر والجحود سرعان ما ألقوا رءوسهم للشكر والسجود.

قال فرعون هل يصح أن تؤمنوا لموسى أى تصدقوه قبل أن آذن لكم، وما فعلتم ذلك إلا لأنه معلمكم الذى علمكم السحر، وعزتى لأقطعن أيديكم وأرجلكم من جهتين مختلفتين، ولأربطنكم بعد ذلك على جذوع النخل لتمام النكاية بكم، ولتعلمن أينا نحن وإله موسى أشد عذابا وأدوم.

قال السحرة لن نفضلك ونختارك على ما صح لنا من البراهين القاطعة على صدق موسى وعلى ربنا الحق الذى خلقنا، فاصنع ما أنت صانع مما تهددنا به فلن نبالى بك، لأنك لا تستطيع أن تصنع ما تريد إلا فى هذه الحياة الفانية التى لا تساوى عندنا شيئًا؛ لأنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا، ومنها عمل السحر الذى أكرهتنا عليه، والله خير منك ومن كل ما فى هذه الحياة وأبقى، أما غيره فزائل. ولم يثبت من طريق صحيح ما يدل على أن فرعون فعل بهم ما هددهم به، والظاهر أنه جبن خوفا كما جبن عن قتل موسى عليه السلام مع جرأته السابقة على تقتيل بنى إسرائيل.

ثم أيد سبحانه كلامهم بقوله: ﴿إنه مَنْ يأت ربه مجرما﴾.. إلخ :

أى إن الأمر الثابت أن مَنْ يأت ربه يوم القيامة مجرما بأن يموت على الكفر والمعاصى فإن له جهنم لا يموت فيها فيستريح ولا يحيا حياة هنيئة. ومَنْ يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلا، أى المنازل الرفيعة. وبيَّنها بأنها جنات عدن تجرى من تحت قصورها الأنهار خالدين فيها، وذلك جزاء مَنْ طهّر نفسه من أوساخ الكفر والمعاصى.

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ(١) دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ(٢) إِسْرَٰٓءِيلَ(٣) قَدْ أَنجَيْنَٰكُم(٤) مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ(٥) جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ(٦) مَا رَزَقْنَٰكُمْ(٧) وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ(٨) وَعَمِلَ صَٰلِحًا(٩) ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ(١٠) ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ

المفردات : . ﴿فاضرب لهم﴾ : أى اجعل لهم، من قولهم ضرب له فى ماله قسما، انظر كيف حصل فى الآية (٦٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٤. ﴿يبسا﴾ : أصله مصدر وأريد اسم الفاعل أى يابسا. ﴿دركا﴾ : اسم من الإدراك بمعنى اللحوق. ﴿فغشيهم﴾ : أى غطاهم ﴿اليم﴾ : الماء الكثير عذبا كما فى الآية (٣٩) من هذه السورة صفحة ٤٠٨ أو ملحًا كما هنا. ﴿ما غشيهم﴾ : أى ماء لا يعلم مقداره إلا الله.

﴿وواعدناكم جانب الطور الأيمن﴾ : أى واعدنا رسولكم موسى لتلقى التوراة و ﴿الأيمن﴾ صفة للجانب.

﴿المن والسلوى﴾ : العسل والطير، انظر الآية (٥٧) من سورة البقرة صفحة ١١.

﴿أعجلك عن قومك﴾ : أى، أى شىء جعلك تسبق قومك الذين اخترتهم للحضور معك لتلقى التوراة.

﴿على أثرى﴾ : أى سائرون على أثرى، أى فى طريقى، والمراد لاحقون بى بلا إبطاء، انظر الآية (٤٦) من سورة المائدة صفحة ١٤٦. ﴿فتنا قومك﴾ : معنى الفتنة الامتحان، انظر الآية (٤٠) من هذه السورة صفحتى ٤٠٨، ٤٠٩، والمراد امتحناهم بالسامرىّ ليظهر راسخ الإيمان والمزعزع الذى يحتاج إلى رعاية فتحوطه يا موسى بملاحظتك ولا تبتعد عنه كثيرا. ولو قال

(١) تخاف (٢) يابنى (٣) إسرائيل (٤) انجيناكم
(٥) وواعدناكم (٦) طيبات (٧) ما رزقناكم
(٨) وآمن (٩) صالحا (١٠) يا موسى.

سبحانه: فإنا قد فتنا قومك إلخ بدون ذكر الفاء لكان الكلام سائرا فى طريقه. فما الحكمة فى زيادة الفاء فى قوله ﴿فإنا قد فتنا﴾.. إلخ قال الألوسى ما معناه: جاءت هذه الفاء لتفيد بيان السبب فى السؤال السابق كأنه سبحانه يقول لموسى احترس بعد الآن من البعد عن قومك، وإهمال أمرهم، لأى سبب من الأسباب، فإنهم لحداثة عهدهم باتباعك، ومزيد بلاهتهم وحماقتهم يتمكن الشيطان من المكر بهم فيضلهم، فإن القوم الذين تركتهم مع أخيك هارون قد فتنوا وأضلهم السامرىّ بمجرد خروجك من بينهم. فكيف أمنت على هؤلاء الذين جاءوا معك وتركتهم خلفك؟

﴿السامرىّ﴾ : قال بعض أدعياء المسيحية إن (سامرىّ) نسبة إلى (السامرة) وهى بلد بفلسطين لم توجد إلا بعد موت موسى بعدة سنين، فكيف ينسب إليها رجل كان مع موسى؟ وهذا تضليل مكشوف لأن فى العهد القديم عندهم رجل اسمه (شِمرون) بن ياسر بن يعقوب، وله أولاد كثيرون يطلق عليهم (الشمرونيون) فالسامريون الذين منهم السامرىّ هم أولئك الشمرونيون.

والذين يعلمون تقريب الألفاظ العبرية يجدون المعربين يبدلون الشين العبرية بالسين المهملة، حتى أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى أنفسهم الذين ينطقون العربية يعربون شين العربية سينًا، فموشى عربوه (موسى)، ويشوع عربوه (يسوع) أو عيسى كما سماه القرآن. فالسامرى هذا إسرائيلى من أولاد (شمرون) حفيد (يعقوب)، وكان منافقا يظهر الإيمان بموسى ويبطن الكفر، وليس هذا غريبًا على بنى إسرائيل، فقد كان (قارون) من قوم موسى، انظر الآية (٧٦) من سورة القصص صفحتى ٥١٧، ٥١٨، ومع ذلك أعلن الكفر بموسى مع فرعون، انظر آيتى (٢٣، ٢٤) من سورة غافر صفحة ٦٢٠؛ ووجود (ال) فى السامرىّ هنا ومجيئه بدون (ال) فى الآية (٩٥) الآتية صفحة ٤١٥ يفيد أن له اسمًا علمًا غير ذلك فقيل إن اسمه (موسى) وقيل (هارون) والله أعلم.

المعنى : . لما تآمر فرعون بقومه على قتل موسى ومَنْ معه كما قصه الله تعالى فى آيات (٥٢ إلى ٦٣) من سورة الشعراء صفحتى ٤٨٣، ٤٨٤، أوحى سبحانه إليه أن يخرج بنى إسرائيل ليلا، فإذا وصل البحر الأحمر يضربه بعصاه فيجعل لهم فيه طريقا يابسا يسهل السير فيه

حال كونه لا يخاف أدراك فرعون لهم ولا يخشى غرقا، وسهل على موسى تنبيه قومه أنهم كانوا متجاورين، انظر الآية (٨٧) من سورة يونس صفحة ٢٧٩، فلما علم فرعون بخروجهم أول الليل أتبعهم ومعه جنوده قريبا من الصبح كما فى الآية (٦٠) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٣، فلما وصلوا البحر وجدوا به طريقا يابسا فدخلوا فيه، فانطبق عليهم الماء بكثرة هائلة فهلكوا جميعا، وبذلك تبين أن فرعون كاذب فى قوله وما أهديكم إلا سبيل الرشاد، انظر الآية (٢٩) من سورة غافر صفحة ٦٢١؛ فقد أضلهم وما هداهم إلى خير.

وكان بين دخول يعقوب وأولاده مصر ليجتمعوا بيوسف وبين خروج ذريتهم مع موسى نحو أربعمائة سنة، وبلغ عددهم عند خروجهم ستمائة ألف. وقال سبحانه حملا لهم على شكره: يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم فرعون، ووعدناكم جانب الطور الأيمن بإنزال التوراة، ونزلنا عليكم وأنتم فى صحارى قاحلة المن والسلوى، وقلنا لكم كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيما رزقناكم بالتفريط فى شكره فيحل ويستحق عليكم غضبى، ومَنْ يحلل عليه غضبى فقد سقط فى هاوية ما لها من قرار، وهلك هلاكا أبديا.

ثم فتح باب التوبة فقال: وإنى لكثير المغفرة لمَنْ تاب توبة نصوحا عن الشرك، وآمن بكل ما يجب الإيمان به، وعمل الصالحات المطلوبة منه، ثم استقام على الهدى بقية حياته. وكان موسى عليه السلام قد أسرع إلى مكان المناجاة وسبق رفاقه فلامه سبحانه بقوله:

﴿وما أعجلك عن قومك﴾ المراد أن من أدب الرفقة ألا يفارق الرئيس أتباعه لما فى ذلك من انشغال البال أو ظن الإهمال، فضلاً عن تعريضهم للعب الشيطان بعقول ضعاف الإيمان منهم، فسارع موسى إلى الاعتذار بأنهم حاضرون حالاً لأنهم قريبون منه، وبين سبب عجلته بأنه ظن أن المسارعة إلى الوفاء بالعهد والحرص على الوعد ترضى ربه.

قال سبحانه: يا موسى إنا قد امتحنا قومك الذين تركتهم مع أخيك هارون من بعد فراقك لهم، فظهر أن فيهم ضعاف الإيمان، فأضلهم السامرىّ المنافق حتى عبدوا العجل الذى صنعه لهم من الذهب. ولما تلقى موسى ألواح التوراة رجع إلى قومه...

غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ

المفردات : . ﴿أسفا﴾ : شديد الأسف والحزن. ﴿وعدا حسانا﴾ : بإعطائكم التوراة التى فيها هدى ونور. ﴿العهد﴾ : أى زمن بعدى عنكم. ﴿موعدى﴾ : المراد وعدكم لى بالثبات على دينى إلى أن أرجع من الميقات. ﴿بملكنا﴾ : أى بتملكنا أمرنا، والمراد باختيارنا. ﴿حملنا﴾ : المراد أمرنا بأن نحمل. ﴿أوزارا﴾ : جمع وزر وهو الحمل الثقيل.

﴿من زينة القوم﴾ : أى حلى القبط، وكانت نساء بنى إسرائيل استعارت كل واحدة منهن حلى جارتها القبطية وهربوا به ليلاً، جاء فى التوراة فى سفر الخروج الإصحاح الثالث رقم ٢١ ما يدل على أن الله سبحانه أمر بنى إسرائيل بأن تستعير نساؤهم من نساء المصريين حليهن ثم يسلبنه منهن، ولعل ذلك عقابًا من الله للمصريين على ما فعلوا ببنى إسرائيل من الاستعباد وأخذ الأموال وقتل الأولاد... إلخ. ﴿فقذفناها﴾ : أى طرحناها فى النار حسب أمر السامرىّ. ﴿فكذلك ألقى السامرىّ﴾ : أى ألقى ما معه أيضا فى النار.

﴿جسدا﴾ : أى مجرد جسد لا روح فيه أو أحمر بلون الزعفران. قال المختار: الجسد جسم العاقل من إنس أو جن أو ملك والزعفران، وعجلا جسدا أى أحمر. وقال مجاهد الجسد هو ما لا يأكل ولا يشرب، انظر الآية (٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١. ﴿خوار﴾ : هو صوت العجل؛ يقال إن السامرىّ كان صانعا ماهرا، فحفر حفرة فى الأرض وجعل فيها

(١) غضبان (٢) يا قوم (٣) فقذفناها
(٤) هارون (٥) يا قوم (٦) عاكفين
(٧) يا هارون (٨) يا بن أم.

تجاويف إذا ساح الذهب فيها تشكل بصورة عجل بداخله تجاويف إذا مر فيها الهواء خرج من فمه صوت شبيه بصوت العجل.

﴿فقالوا﴾ : أى السامرىّ ومَنْ اتبعه من قوم موسى، انظر الآية (٥٤) من سورة البقرة صفحة ١١، وآيتى (١٤٨، ١٥٢) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٥، ٢١٦.

المعنى : . فرجع موسى من غيبته إلى قومه غضبان شديد الحزن على ما حصل، وقال منكرا عليهم: يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدًا فيه مصلحتكم وهو إعطاء التوراة، فهل وعدكم فطال عليكم زمن إنجاز الوعد؟ وإذا كان هذا غير صحيح فتكونون فعلتم ماهو سبب فى حصول غضب الرب عليكم بإخلافكم وعدكم لى بالثبات على الحق حتى أرجع. قالوا معتذرين: ما أخلفنا موعدك باختيارنا ولكن تغلب علينا مكر السامرى، ولولاه لما أخلفنا. ثم بيَّنوا ذلك بقولهم: ولكنا حملنا أحمالا ثقيلة من حلى المصريين عند خروجنا فقذفناها فى النار حسب طلب السامرىّ، وكذلك ألقى هو ما معه فيها، ثم بيَّن سبحانه نتيجة فتنة السامرىّ بقوله فأخرج ... إلخ، والمراد فأخرج السامرىّ لهم من هذا الذهب صورة عجل يخرج منه صوت كصوت البقر، وقال لهم السامرىّ ومَنْ فتن به: هذا العجل هو إلهكم وإله موسى، غفل عنه موسى فنسيه هنا وذهب يبحث عنه فى جبل الطور، فأظهر سبحانه جهلهم بقوله: ﴿أفلا يرون﴾: أى هل غفلوا فأصبحوا لا يعلمون أن هذا العجل لا يرد عليهم سؤالا، انظر الآية (١٤٨) من سورة الأعراف صفحة ٢١٥، ولا يملك لهم ضرًا إذا احتقروه، ولا يجلب لهم نفعا إذا عبدوه. ثم بيَّن سبحانه ما جرى من هارون فى غيبة موسى، وما جرى من موسى معه، فقال: ولقد قال لهم هارون من قبل رجوع موسى: يا قوم إنما فتنكم السامرى عن دينكم بهذا العجل، وإن ربكم الحق هو الرحمن لا غير، فاتبعونى وأطيعوا أمرى فى الثبات على الحق.

قالوا سنستمر محافظين على عبادة العجل إلى أن يرجع إلينا موسى . وبعد ذلك التفت موسى لأخيه هارون وقال: يا هارون ما حملك على عدم اتباعى فى الصلابة فى الحق والغضب لله عندما رأيتهم ضلوا عن الصواب، انظر الآية (١٢) من سورة الأعراف، هل نسيت يا هارون ما قلته لك فعصيت أمرى لك بالمحافظة على الدين ودفع الشر عنه؟ قال موسى ذلك وهو آخذ بشعر لحية أخيه ورأسه غضبا، انظر الآية (١٥٠) من سورة الأعراف صفحة ٢١٦.

بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ

المفردات : . ﴿ولم ترقب قولى﴾ : أى لم تراعه وتحافظ عليه.

﴿ما خطبك﴾ : أصل الخطب الأمر الخطير، والمراد ما هذا الأمر الخطير الذى صدر منك.

﴿بصرت﴾ : أى فطنت وعلمت.

﴿قبضة﴾ : أصلها المرة من القبض وأريد بها الشىء المقبوض.

﴿من أثر الرسول﴾ : المراد به هنا موسى عليه السلام، وأثره سنته، وإنما خاطب موسى خطاب الغائب رهبة منه كقول مخاطب الملك: ما قول الملك فى كذا؟

﴿فنبذتها﴾ : طرحتها.

﴿سولت لى نفسى﴾ : أى زينت وحسنت ﴿تقول لا مساس﴾ : المراد لا مخالطة، والكلام كناية عن الدعاء عليه بأن يعيش طريدا مكروها من الجميع.

﴿وإن لك موعدا﴾ : تحاسب فيه فى الآخرة.

﴿إلهك﴾ : المراد به العجل.

﴿ظلت﴾ : أى مكثت.

﴿نحرقنه﴾ : أى نبردنه بالمبرد حتى يكون كالتراب.

﴿ننسفه﴾ : نذريه فى البحر.

(١) إسرائيل (٢) يا سامرى (٣) الحياة (٤) آتيناك
(٥) القيامة (٦) خالدين (٧) القيامة.

﴿ذكرا﴾ : هو القرآن.

﴿وزرا﴾ : أصله الحمل الثقيل، ويطلق على الذنب، والمراد هنا عقوبة الذنب.

﴿وساء﴾ : قبح.

المعنى : . قال هارون لموسى: يا بن أمى لا تجذب شعر لحيتى وشعر رأسى، لأن عذرى أنى خشيت لو قاتلت بعضهم ببعض لتفرقوا فتلومنى على ذلك وتتهمنى بأنى لم أحافظ على قولك لى ﴿اخلفنى فى قومى وأصلح.. الآية﴾ الآية (١٤٢) من سورة الأعراف صفحة ٢١٤.

ثم أقبل موسى على السامرى منكرا عليه فعله فقال: ما هذا الأمر الشنيع الذى عملته يا سامرى؟ قال: إنى علمت من صنع التماثيل مالم يعلموه، فبعد ما أظهرت أنى أخذت شيئا من تعاليمك جاهرت بطرحها وتركها بعد غيابك عنا وكما زينت لى نفسى إظهار اتباعك زينت لى الآن ترك ذلك. هذا ما نقله الألوسى عن أبى مسلم الأصفهانى وأيده بعض العلماء، والله أعلم. عند ذلك دعا عليه بأن يكون طريدا شريدا مكروها من جميع الخلق. وهذا جزاؤك فى الدنيا، أما فى الآخرة فإن لك موعدا يوم القيامة تجازى فيه على جرمك لن يتخلف؛ أما هذا العجل الذى جعلته إلها لك وصرت مداوما على عبادته فانظر الآن ما سأصنع به، فسنبرده بالمبارد حتى يكون كالتراب، ثم نذريه فى البحر حتى لا يكون له أثر، ليظهر لمن اغتر به أنه باطل؛ إنما إلهكم الحق هو الله الذى لا إله إلا هو وسع علمه كل ما يصح أن يعلم، لا العجل الذى لا يعلم ولا يدفع عن نفسه الهلاك. ثم خاطب سبحانه نبينا ﷺ بقوله:

﴿كذلك نقص﴾ إلخ:

أى مثل هذا القصص الذى قصصناه عن موسى وقومه نقص عليك من أخبار السابقين للعبرة كما فى الآية (١١١) من سورة يوسف صفحتى ٣١٩، ٣٢٠ وقد آتيناك من فضلنا كتابا فيه تذكير بكل خير، مَنْ أعرض عنه أى مَنْ أعرض عن هذا الكتاب وهو القرآن فإنه يحمل يوم القيامة عقوبة فادحة خالدًا فيها، وقبحت العقوبة الشديدة حملا. ثم بين يوم القيامة بأنه يوم ينفخ إسرافيل فى الصور، وهو بوق ينفخ فيه، علامة قيام الساعة.

وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ(١) بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ(٢) عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ(٣) إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ(٤) وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾

المـفـردات : . ﴿زرقـا﴾ : فى أبدانهم من الهول وفى عيونهم، فهم عمى كما سيأتى فى الآية (١٢٤) من هذه السورة صفحة ٤١٨.

﴿يتخافتون﴾ : أى يخفون أصواتهم عند التخاطب من شدة الخوف. ﴿إن﴾ : هى حرف نفى بمعنى ﴿ما﴾. ﴿لبثتم إلا عشرا﴾ : أى لم تمكثوا فى الدنيا إلا عشر ليال ﴿أمثلهم﴾ : أى أعدلهم رأيا وأقربهم إلى الواقع. ﴿ينسفها ربى نسفـا﴾ : ورد فى القرآن فى مصير الجبال يوم القيامة نحو (١٢) آية، وبالاطلاع عليها بعد جمعها فى صعيد واحد يعلم أن أول ما يحدث لها عند النفخة الأولى أنها تتفتت، ثم تتحرك من أماكنها على هيئة ذرات متجاورة كأنها صوف منفوش، ثم تتبعثر وتصير هباء لا وجود لها انظر الآيات (٤٧) من سورة الكهف صفحة ٣٨٧، و (٨٨) من سورة النمل صفحة ٥٠٥، و ١٠ من سورة الطور صفحة ٦٩٧، و (٥) من سورة الواقعة صفحة ٧١٣، و (١٤) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢، و (٩) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥، و (١٤) من سورة المزمل صفحة ٧٧٤، و (١٠) من سورة المرسلات صفحة ٧٨٤، و (٢٠) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧، و (٣) من سورة التكوير صفحة ٧٩٣، و (٥) من سورة القارعة صفحة ٨١٩.

﴿فيذرها﴾ : الضمير يعود على الأرض المفهومة من المقام، انظر الآية (٤٥) من سورة فاطر صفحة ٥٧٨، أى يترك مكان الجبال. ﴿قاعا﴾ : خاليا ﴿صفصفًا﴾ : مستويا. ﴿عوجا﴾ : المراد انخفاضا. ﴿أمتا﴾ : ارتفاعا يسيرا. ﴿الداعى﴾ : هو داعى الله إلى المحشر وهو إسرافيل. ﴿لا عوج له﴾ : أى لا يعوج فى السير إليه مدعو بل يسرعون إليه من غير انحراف. ﴿إلا همسًا﴾ : أصله من همس الإبل وهو صوت أخفافها إذا مشت على مكان جاف. ﴿ما بين

(١) يتخافتون (٢) ويسألونك (٣) الشفاعة (٤) الصالحات.

أيديهم وما خلفهم﴾ : مثل ما قدمت وأخرت، انظر الآية (٥) من سورة الانفطار صفحة ٧٩٥. ﴿عنت الوجوه﴾ : أى خضعت وخشعت. ﴿القيوم﴾ : أى دائم القيام بشئون ملكه، انظر الآية (٢٥٥) من سورة البقرة صفحة ٥٣. ﴿هضما﴾ : نقصا فيما يستحقه من الثواب.

المعنى : . يوم القيامة نحشر المجرمين زرق الأبدان من شدة الفزع، عميا يتهامسون فى الحديث، يقول بعضهم لبعض: ما مكثتم فى الدنيا إلا عشر ليال؛ لأنهم لما شاهدوا الفزع الأكبر استقلوا مدة تنعمهم وظنوها لحظة؛ ولذا قال سبحانه: نحن أعلم بما يقولون من خطأ وصواب حين يقول أصدقهم قولا ما مكثتم فى الدنيا إلا يوما واحدا. ثم أراد سبحانه زيادة إزعاجهم فقال: ﴿ويسألونك عن الجبال﴾ أى إن سألوك عن مصير الجبال الثقال يوم القيامة وفنائها الذى تقول به يا مُحمَّد فقل لهم إن قدرة الله تنسفها نسفا شديدا حتى تجعلها كالصوف المنفوش فيترك مكانها من الأرض خاليا مستويا لا انخفاض فيه ولا ارتفاع. يوم القيامة يتبع الخلق داعى الله إلى المحشر مسرعين مِن غير انحراف يمنة أو يسرة، وسكنت الأصوات للرحمن هيبة وإجلالا فلا تسمع إلا حفيف الأقدام على الأرض، فى هذا اليوم لا تنفع الشفاعة أحدًا إلا مَنْ يأذن فى الشفاعة له الرحمن، ويرضى للشافع قوله، بأن يكون من أهل الشفاعة فى غيره لرفعة منزلته عند الله. ومَنْ يطلع على آيات الشفاعة فى القرآن يعلم أن لها شرطين:

الأول : . استحقاق المشفوع له بأن يكون محل رضى الله سبحانه وتعالى، انظر الآية (٢٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٣.

والثانى : أهلية الشافع لأن يأذن الله له، انظر الآيات (٢٥٥) من سورة البقرة صفحة ٥٣، و٣ من سورة يونس صفحة ٢٦٥، و (٢٣) من سورة سبأ صفحة ٥٦٦، و (٨٦) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٥. فإذا فقدت الشفاعة شرط من الشرطين لا تنفع، انظر الآيات (٨٧) من سورة مريم صفحة ٤٠٥، و (٢٣) من سورة يس صفحة ٥٨١، و (١٨) من سورة غافر صفحتى ٦١٩، ٦٢٠. يعلم سبحانه ما بين أيديهم مما قدموه فى الدنيا، وما خلفهم مما أعد لهم فى الآخرة، فيجازى كلا بما يستحق ولا يحيطون هم بشىء من ذلك علما. وخشعت وجوه الخلق لله الحى الدائم القيام على شئون خلقه، وقد خاب من حمل ظلما فى الدنيا والآخرة لأنه يحرم من رحمة الرحمن فيهما، انظر الآية (٢١) من سورة الأنعام صفحة ١٦٥، أما مَنْ يعمل عملاً من الصالحات وهو مؤمن بما جاء به الرسول فهو لا يخاف ظلما يقع عليه كطرح سيئات غيره عليه أو عقابه بدون ذنب، ولا يخاف نقص شىء من حسناته.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ[1] قُرْءَانًا[2] عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى[3] ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ[4] مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ[5] ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ[6] فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ[7] إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟[8] فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ[9] قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ[10] هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا[11] وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا

المفردات: ﴿وصرفنا﴾ : نوَّعنا.

﴿الوعيد﴾ : التخويف من المعاصى.

﴿ذكرا﴾ : عظة وعبرة.

﴿فتعالى الله﴾ : أى ارتفع وابتعد عما لا يليق بجلاله.

﴿يقضى إليك وحيه﴾ : أى يفرغ جبريل من إلقائه إليك.

﴿عهدنا إلى آدم﴾ : تقول العرب عهد الملك إلى وزيره بكذا إذا أمره به، أى أمرناه بعدم الأكل من الشجرة.

﴿فنسى﴾ : أى ترك الامتثال، ولا يصح تفسيرها بالنسيان المعروف لأن إبليس ذكره بالنهى فى وقت الوسوسة؛ ويؤيد ذلك ما سيأتى فى الآية (١٢١) من قوله تعالى ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ وهل يقال فى الذنب أكثر من ذلك؟ وما ألطف قول بعض العلماء ردًا على متنطع يحاول تبرئة آدم من المعصية بصرف كلام الله عن ظاهره.

فقال له يا هذا هل تطمع فى أن يصدقك أحد ويكذب ربه.

(١) أنزلناه
(٢) قرآنا
(٣) فتعالى
(٤) آدم
(٥) للملائكة
(٦) لآدم
(٧) يا آدم
(٨) لا تظمأ
(٩) الشيطان
(١٠) يا آدم
(١١) سوءاتهما.

الله سبحانه يقول ﴿وعصى آدم ربه﴾ ولم يكتف بذلك حتى أردفها بقوله ﴿فغوى﴾ وقال ﴿ولم نجد له عزما﴾، واعترف آدم أنه بمخالفته هذه ظلم نفسه، وأنه إذا لم يغفر الله له ذنبه كان من الخاسرين؛ انظر الآية (٢٣) من سورة الأعراف صفحة ١٩٥.

وأنت تقول: كلا. لم يعص آدم، ولم يغو، فإذا كان لا يكفيك فى إثبات وقوع المعصية من آدم إلا أن يقول الله سبحانه: (وعزتى وجلالى إن آدم عصى وغوى)، فقد ركبت شططا، وعرضت نفسك للشك فى جل أخبار القرآن!! يا هذا ليست العبرة فى الأمور بالابتداء، إنما العبرة بالخاتمة والانتهاء. وخاتمة آدم كانت بخير والحمد لله، حيث وفقه ربه للمسارعة بالتوبة، فاجتباه، وتاب عليه، وهداه. وكيف لا يتوب عليه التواب الرحيم وهو لم يفعل إلا ذنبا من الذنوب المعرض لها كل بشر، وقد تاب على عمر بن الخطاب رضى الله عنه وجعله خليفة خاتم الرسل ﷺ بعد أن كان مشركا يعبد الأصنام، وهل تريد أن تكون أحرص على آدم من ربه الذى خلقه واختاره لأن يكون أبا البشر.

﴿عزما﴾ : تصميما وثباتا على الأمر.

﴿ولا تضحى﴾ : أى لا يصيبك حر الضحى اللافح. ﴿فبدت لهما سوءاتهما﴾ : ظهرت لهما عوراتهما. ﴿طفقا﴾ : أى شرعا. ﴿يخصفان﴾ : أى يلزقان، ويلصقان.

المعنى : - ومثل إنزال هذه الآيات فى الدقة والإحكام أنزلنا عليك الكتاب حال كونه مقروءا بلسان العرب ليسهل على مَنْ يتحمل شريعته أولاً فهمه ليبلغوه لغيرهم، انظر الآية (٣٧) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٧، ٣٢٨؛ ونوَّعنا فيه من الوعيد على وجوه مختلفة، كما فى الآية (٤١) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٩، ٣٧٠، لعلهم يتقون الكفر والمعاصى فيتركونها، أو يحدث لهم هذا التنويع على الأقل تذكرًا واعتبارًا يقودهم إلى الهداية.

ولما كان الشرك بالله ظاهر البطلان نبههم إلى اللائق بمقامه تعالى فقال: ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾ أى ارتفع سبحانه عن مماثلة المخلوق؛ لأنه الملك الحق ومن عداه إلى فناء.

ولما سبق ذكر إنزال القرآن وكان ﷺ حرصا منه على حفظه وخوفا من نسيان شيء منه يلاحق جبريل بالقراءة وهو ينزله عليه، وفى ذلك مع المشقة تشتيت الذهن، قال سبحانه: ولا تعجل أيها النبى بقراءة القرآن من قبل أن يقضى جبريل وحيه إليك، أى يفرغ من تلاوة ما يوحى إليك؛ لأن الله ضمن عدم نسيانك له كما فى الآية (٦) من سورة الأعلى صفحة ٨٠٣، وسل الله زيادة العلم بأسراره ومعانيه لا الاستعجال.

ثم أراد سبحانه أن يبين نوعا من تصريف الوعيد ليتقوا أو يتذكروا ولا ينسوا ويهملوا كما حصل من أبيهم آدم بعد تهديده بما فى الآية (٣٥) من سورة البقرة صفحة ٨، فعاقبه الله تعالى بإخراجه من الجنة، ولكنه لما تاب قَبِل توبته واجتباه، فكذلك أنتم إن تبتم تاب الله عليكم، فقال فى ذلك: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم﴾ إلخ: أى لقد أمرنا آدم بعدم الأكل من الشجرة فترك الامتثال اغترارا بوسوسة الشيطان، ولم نجد له ثباتا. ثم فصل ذلك مع بيان ما كرم به آدم مما حقه أن يقابله بتمام الطاعة فقال :

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا﴾ إلخ: تقدم بيانه فى الآية (٣٤) من سورة البقرة صفحة ٨، فقلنا يا آدم إن إبليس عدو لك ولزوجك بل ولذريتك كما فى الآية (٥٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨، فاحذر أن يتسبب فى إخراجكما من الجنة فتشقى أنت وتشقى زوجك بشقائك فاحترس، وقد ضمنت لك فى هذه الجنة ألا تجوع فيها ولا تعرى، أى لا يخلو باطنك ولا ظاهرك مما يحفظه، ولا يتعرض باطنك لحرارة العطش ولا ظاهرك لحرارة الشمس؛ أى نعطيك ما به حياتك، وندفع عنك ما يضرك..

وقال بعض العلماء إن المعهود فى الأماكن القريبة من الجبال أن تكون شديدة الحر والبرد، ففى الآية (١١٨) جمع له ما يقيه قسوة البرد، وفى الآية (١١٩) جمع له ما يحفظه من قسوة الحر. فوسوس له الشيطان بقوله هل أدلك على شجرة لو أكلت منها صرت خالدا لا تموت وصاحب ملك لا يفنى؟ فأكل آدم وحواء منها فظهرت لهما عوراتهما وشرعا يغطيانها من ورق الجنة:

مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ

المفردات : ﴿وعصى آدم ربه﴾ : أى خالف نهى ربه، انظر الآية (٢٢) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٤، ١٩٥. ﴿فغوى﴾ : أى بعد عن الصواب انظر معنى الغى فى شرح الآية (٢٥٦) من سورة البقرة صفحتى ٥٣، ٥٤، والآية (٢) من سورة النجم صفحة ٧٠٠ حيث ظن أنه لا يجرؤ مخلوق على أن يحلف بالله كذبا، انظر الآية (٢١) من سورة الأعراف صفحة ١٩٤، فصدق إبليسَ فى أن أكله من الشجرة يكسبه الخلود.

﴿اجتباه﴾ : أى قربه إليه بالتوفيق للتوبة.

﴿اهبطا منها﴾ : المراد من ضمير المثنى هنا الفريقان، الأول آدم وحواء ومَنْ سيكون من ذريتهما، والثانى إبليس وذريته، انظر شرح الآية (٣٦) من سورة البقرة صفحتى ٨، ٩ والآية (٥٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨. ﴿فإما يأتينكم﴾ : أى فإن يأتكم، انظر آيتى ٥٧، ٥٨ من سورة الأنفال صفحتى ٢٣٥، ٢٣٦ ﴿عن ذكرى﴾ : المراد كل ما يذكر بالله من قرآن أو غيره. ﴿معيشة ضنكا﴾ : المراد بها هنا الحياة القلقة، وأصل الضنك الضيق فهو مصدر وصف به مبالغة، أى شديدة القلق؛ لأنه لما كان كل همه الدنيا وهى مليئة بالمنغصات كان فى ضيق نفسى دائما، انظر الآية (١٢٥) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣ و (١٥) من سورة الحج صفحة ٤٣٥، بخلاف المؤمن فإنه مطمئن دائما، انظر الآية (٢٨) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٥، ٣٢٦. روى عن جماعة من الصحابة أن المعيشة هذه ستكون فى القبر. ﴿فنسيتها﴾ : أى تركتها وأهملتها. ﴿أسرف﴾ : أى انهمك فى الشهوات. ﴿أفلم يهد لهم﴾ : المراد أفلم يتبين لكفار مكة، انظر الآية (١٠٠) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٨، ٢٠٩. ﴿كم أهلكنا﴾ : كم كلمة تدل على الكثرة، مفعول مقدم لأهلكنا. ﴿القرون﴾ : أى الأمم. ﴿يمشون فى مساكنهم﴾ : أى

(١) آدم (٢) اجتباه (٣) القيامة (٤) آياتنا
(٥) بآيات (٦) الآخرة (٧) مساكنهم (٨) لآيات.

حال كون مشركى مكة يشاهدون مساكن تلك الأمم المهلكة، كعاد وثمود وقوم لوط. ﴿النُّهى﴾: أى العقول، انظر الآية (٥٤) المتقدمة صفحة ٤١٠. ﴿كلمة﴾ : هى وعده سبحانه بتأخير عذاب الإفناء عنهم، انظر الآية (٣٣) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١. ﴿لزاما﴾ : أصل اللزام مصدر لازم كخصام مصدر خاصم، وصف به للمبالغة، أى لازما وواجبا حصوله لا يتأخر. ﴿وأجل﴾ : معطوف على كلمة، والمراد الأجل المقدر لأعمارهم، فصله عما عطف عليه للإشعار بأن كلا منهما سبب فى نفى لزوم العذاب السريع فى الدنيا.

المعنى : . وعصى آدم ربه بسبب طاعته لإبليس، وابتعد عن الصواب ثم بعدما أسرع آدم إلى الندم والتوبة قربه ربه إلى رضاه وتاب عليه قبل توبته فهداه إلى الصواب. بعد ذلك قال سبحانه للفريقين: اهبطا من جنة الراحة إلى أرض الشقاء حال كون كل منكما عدوا للآخر فإن جاءكم منى سبب هداية من كتاب أو رسول فمَنْ اتبع هداى فلا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة، ومن أعرض عن هذا الهدى الذى يذكر الناس بربهم فإنه يعيش فى قلق نفسى خوفًا أن يفوت الدنيا أو تفوته، لأنه لا يؤمن بالآخرة فلا ينتظر سعادة دائمة حتى يعمل لها ويتحمل فى سبيلها كل مشقة؛ ونحشره يوم القيامة أعمى لا يبصر، لزيادة إيلامه، وهذا عند القيام من القبور وشدة الحيرة، وبعد ذلك يكشف عنه الغطاء فيرى ما يزعجه من الأهوال، انظر الآية (٢٢) من سورة ق صفحة ٦٩٠، فيقول: يارب لم حشرتنى أعمى وقد كنت فى الدنيا بصيرا؟ قال سبحانه ردا عليه: كذلك فعلت أنت بنفسك. ثم فسر هذا التشبيه بقوله: أتتك آياتنا فى الدنيا فتركتها وأعرضت عنها، ومثل تركك لها نتركك اليوم فى الألم، ومثل ذلك الجزاء الموافق للجناية نجزى كل مَنْ أسرف فى الشهوات وأعرض عن آيات ربه. وعزتى لعذاب الآخرة بالنار أشد مما سواه وأدوم.

ثم أراد سبحانه أن يقرر قوله: ﴿وكذلك اليوم تنسى﴾ فقال منكرا غفلتهم: ﴿أفلم يهد لهم﴾ إلخ: أى هل تركهم الله سدى فلم يبين لهم كثرة مَنْ أهلكنا قبلهم من الأمم التى عملت مثل عملهم والحال أنهم يمشون فى أماكنهم التى كانوا فيها فى أسفارهم إلى الشام وغيره؟ انظر الآية (٨٩) من سورة هود صفحة ٢٩٧، والآية (١٠٩) من سورة يوسف صفحة ٣١٩، والآية (٧٦) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣، والآية (١٣٧) من سورة الصافات صفحة ٥٩٥؛ إن فى هذا البيان من الله لآيات ترشد إلى الصواب أصحاب العقول السليمة. ثم بيَّن سبحانه حكمة عدم إصابتهم بمثل ما حل بمَنْ قبلهم فقال: ولولا كلمة سبقت من ربك أيها النبى بعدم إفنائهم فى الدنيا، ولولا أنه حدد لهم أجلا لا يتغير لكان عذاب إفنائهم لازم الحصول عقب جنايتهم.

مُسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

المفردات : . ﴿مسمى﴾ : معين. ﴿وسبح بحمد ربك﴾ إلى قوله: ﴿وأطراف النهار﴾ كل هذا كناية عن دوام التسبيح والتحميد فى كل الأوقات، ﴿وسبح﴾ أى نزه ﴿بحمد ربك﴾ المعنى قارنًا تسبيحك بحمد ربك.

﴿آناء الليل﴾ : أى أجزاء الليل، انظر الآية (١١٣) من سورة آل عمران صفحة ٨١.

﴿لا تمدن عينيك﴾ : أى لا تشغل نفسك به، انظر الآية (٢٨) من سورة الكهف صفحة ٣٨٤.

﴿أزواجا منهم﴾ : أصنافا وطوائف من الكفار.

﴿زهرة الحياة﴾ : أى بهجة، وهو حال من ﴿ما﴾ أى حال كونه بهجة زائلة.

﴿لنفتنهم فيه﴾ : أى نختبرهم انظر الآية (٣٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٤، و (١٦، ١٧) من سورة الجن صفحتى ٧٧١، ٧٧٢.

﴿اصطبر عليها﴾ : أى اصبر بقوة وداوم على أدائها فى أوقاتها.

﴿لولا﴾ : كلمة تدل على الحث على ما بعدها، انظر الآية (٣٩) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦.

﴿بآية من ربه﴾ : أى بمعجزة.

﴿أو لم تأتهم﴾ : الهمزة للاستفهام التوبيخى المفيد للنفى.

---

(١) آناء (٢) الليل (٣) أزواجا (٤) الحياة (٥) بالصلاة (٦) لا نسألك
(٧) والعاقبة (٨) بآية (٩) أهلكناهم (١٠) آياتك (١١) أصحاب (١٢) الصراط.

﴿الصحف الأولى﴾ : هى صحف إبراهيم وموسى المذكورة فى الآية (١٩) من سورة الأعلى صفحة ٨٠٤، وإنجيل عيسى.

﴿نَذِلَّ﴾ : أى نهان.

﴿ونخزى﴾ : نفتضح.

﴿متربص﴾: أى منتظر.

﴿الصراط﴾: الطريق.

﴿السوى﴾ : المستقيم.

- المعنى : - وإذا كان الأمر كما ذكر فاصبر أيها النبى على ما يقول كفار قريش فيك وفى كتابك واشغل كل أوقاتك بتنزيه ربك عما لا يليق به، مع حمده على جلائل نعمه، حال كونك راجيا منه تعالى أن يعطيك ما يرضيك فى الدنيا والآخرة، كما فى سورة الضحى.

ولا تنظر إلى ما جعلناه متعة وقتية لأنواع من هؤلاء الكفار حال كون هذا الذى متعناهم به مجرد بهجة دنيوية زائلة، وإنما متعناهم به لنعاملهم معاملة المختبر هل يشكرونه أم يكفرونه، ليظهر ما جبلوا عليه من المعاصى التى استحقوا عليها العقاب، وعندك أنت أيها النبى ومَنْ آمن معك رزق ربك الحلال خير وأبقى نفعا فى الدنيا والآخرة.

ولا تشغل نفسك بهم والتفت إلى أهلك فأمرهم بالمحافظة على الصلاة. وبالغ فى الصبر عليها، ولا تجعل الدنيا تشغلك عنها، فإنا لا نكلفك رزق نفسك ولا رزق أهلك، بل رزقك ورزقهم علينا بسعى منك جميل لا تكالب فيه، والعاقبة فى النهاية لأصحاب التقى.

ثم رجع سبحانه لبيان شىء من تعنتات الكفار التى أمره بالصبر عليها فقال : ﴿وقالوا لولا يأتينا﴾ إلخ :

- أى لماذا لم يأتنا بمعجزة حسية كموسى وعيسى، أو مما اقترحناه من تفجير الأنهار وغيره، انظر الآية (٣٢) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١.

فرد سبحانه عليهم بقوله: ﴿أو لم تأتهم﴾ إلخ: أى هل تركهم الله فى غفلة ولم تأتهم بينة هى ما جاء فى الكتب السماوية الأولى مما يدل على صدقه ﷺ كالتبشير به، انظر الآية (٦) من سورة الصف صفحتى ٧٣٨، ٧٣٩، وبيان صفاته، انظر شرح الآية (٤٢) من سورة البقرة صفحة ٩، والآية (٤٦) من سورة النساء صفحة ١٠٨، والآية (١٥٧) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٧، ٢١٨.

ويصح أن يراد بالبينة القرآن الكريم؛ والمعنى : أو لم تأتهم البينة المتضمنة لما جاء فى الصحف الأولى من العقائد الحقة، وأصول الأحكام ومكارم الأخلاق التى أجمع عليها كل الرسل مع أن المنزل عليه هذا القرآن أمى لم ير هذه الكتب، كما فى الآية (٥٢) من سورة الشورى صفحة ٦٤٦، وانظر الآية (١٦) من سورة يونس صفحة ٢٦٨، والآيات من (٤٨ إلى ٥١) من سورة العنكبوت صفحتى ٥٢٧، ٥٢٨.

ولو أنا أهلكنا كفار قريش بعذاب من قبل إرسال محمد وإنزال القرآن لاعتذروا يوم القيامة عن مخالفتهم لفروع الشريعة، أما أصولها فلا عذر لهم فيها لأنها معلومة لهم أو مركوزة فى طبائعهم؛ وقالوا:

يا ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا يتلو علينا آياتك فنتبعها ونعمل بما تقتضيه من قبل أن نذل بالقتل والسبى، ونخزى بدخول النار فى الآخرة، انظر الآية (١٩٢) من سورة آل عمران صفحة ٩٥، والآية (١٥٧) من سورة الأنعام صفحة ١٩٠.

وبعد كل هذا التحذير قل لهم أيها النبى: كل واحد منا ومنكم منتظر لما يصير إليه أمره فانتظروا فستعلمون عما قريب من منا هم أصحاب الطريق المستقيم، ومن منا اهتدى وابتعد عن الضلال، وهذا أسلوب يدل على قطع المتكلم بأنه هو الناجى، انظر الآية (١٠٢) من سورة يونس صفحة ٢٨٢.

﴿الصحف الأولى﴾ : هى صحف إبراهيم وموسى المذكورة فى الآية (١٩) من سورة الأعلى صفحة ٨٠٤، وإنجيل عيسى.

﴿نَذِلَّ﴾ : أى نهان.

﴿ونخزى﴾ : نفتضح.

﴿متربص﴾ : أى منتظر.

﴿الصراط﴾: الطريق.

﴿السوى﴾ : المستقيم.

المعنى : . وإذا كان الأمر كما ذكر فاصبر أيها النبى على ما يقول كفار قريش فيك وفى كتابك واشغل كل أوقاتك بتنزيه ربك عما لا يليق به، مع حمده على جلائل نعمه، حال كونك راجيا منه تعالى أن يعطيك ما يرضيك فى الدنيا والآخرة، كما فى سورة الضحى.

ولا تنظر إلى ما جعلناه متعة وقتية لأنواع من هؤلاء الكفار حال كون هذا الذى متعناهم به مجرد بهجة دنيوية زائلة، وإنما متعناهم به لنعاملهم معاملة المختبر هل يشكرونه أم يكفرونه، ليظهر ما جبلوا عليه من المعاصى التى استحقوا عليها العقاب، وعندك أنت أيها النبى ومَنْ آمن معك رزق ربك الحلال خير وأبقى نفعا فى الدنيا والآخرة.

ولا تشغل نفسك بهم والتفت إلى أهلك فأمرهم بالمحافظة على الصلاة. وبالغ فى الصبر عليها، ولا تجعل الدنيا تشغلك عنها، فإنا لا نكلفك رزق نفسك ولا رزق أهلك، بل رزقك ورزقهم علينا بسعى منك جميل لا تكالب فيه، والعاقبة فى النهاية لأصحاب التقى.

ثم رجع سبحانه لبيان شىء من تعنتات الكفار التى أمره بالصبر عليها فقال : ﴿وقالوا لولا يأتينا﴾ إلخ :

أى لماذا لم يأتنا بمعجزة حسية كموسى وعيسى، أو مما اقترحناه من تفجير الأنهار وغيره، انظر الآية (٣٢) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١.

فرد سبحانه عليهم بقوله: ﴿أو لم تأتهم﴾ إلخ: أى هل تركهم الله فى غفلة ولم تأتهم بينة هى ما جاء فى الكتب السماوية الأولى مما يدل على صدقه ﷺ كالتبشير به، انظر الآية (٦)

من سورة الصف صفحتى ٧٣٨، ٧٣٩، وبيان صفاته، انظر شرح الآية (٤٢) من سورة البقرة صفحة ٩، والآية (٤٦) من سورة النساء صفحة ١٠٨، والآية (١٥٧) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٧، ٢١٨.

ويصح أن يراد بالبينة القرآن الكريم؛ والمعنى : أو لم تأتهم البينة المتضمنة لما جاء فى الصحف الأولى من العقائد الحقة، وأصول الأحكام ومكارم الأخلاق التى أجمع عليها كل الرسل مع أن المنزل عليه هذا القرآن أمى لم ير هذه الكتب، كما فى الآية (٥٢) من سورة الشورى صفحة ٦٤٦، وانظر الآية (١٦) من سورة يونس صفحة ٢٦٨، والآيات من (٤٨ إلى ٥١) من سورة العنكبوت صفحتى ٥٢٧، ٥٢٨ .

ولو أنا أهلكنا كفار قريش بعذاب من قبل إرسال محمد وإنزال القرآن لاعتذروا يوم القيامة عن مخالفتهم لفروع الشريعة، أما أصولها فلا عذر لهم فيها لأنها معلومة لهم أو مركوزة فى طبائعهم؛ وقالوا :

يا ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا يتلو علينا آياتك فنتبعها ونعمل بما تقتضيه من قبل أن نذل بالقتل والسبى، ونخزى بدخول النار فى الآخرة. انظر الآية (١٩٢) من سورة آل عمران صفحة ٩٥، والآية (١٥٧) من سورة الأنعام صفحة ١٩٠.

وبعد كل هذا التحذير قل لهم أيها النبى: كل واحد منا ومنكم منتظر لما يصير إليه أمره فانتظروا فستعلمون عما قريب من منا هم أصحاب الطريق المستقيم، ومن منا اهتدى وابتعد عن الضلال، وهذا أسلوب يدل على قطع المتكلم بأنه هو الناجى، انظر الآية (١٠٢) من سورة يونس صفحة ٢٨٢.

سورة الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقترب﴾: أى قرب جدا.

﴿للناس﴾: المراد بهم الكفار بدليل ما بعدها.

﴿حسابهم﴾: أى زمانه وهو الساعة

﴿من ذكر﴾: الذكر القرآن انظر آيتى (٩) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨، و(٨) من سورة ص صفحة ٥٩٨ و(من) للنص على العموم فى أجزاء الذكر.

﴿محدث﴾: أى جديد إنزاله.

﴿النجوى﴾: هى التناجى سرا.

﴿الذين ظلموا﴾: بدل من ضمير أسروا، جاء به للإشعار بظلمهم الفاحش فيما أسروه.

﴿هل﴾: حرف استفهام مراد به النفى، أى ما هذا.

﴿هذا﴾: يريدون به الرسول ﷺ.

﴿أفتأتون السحر﴾: الهمزة للإنكار، أى لا تأتوا، وأرادوا بالسحر القرآن.

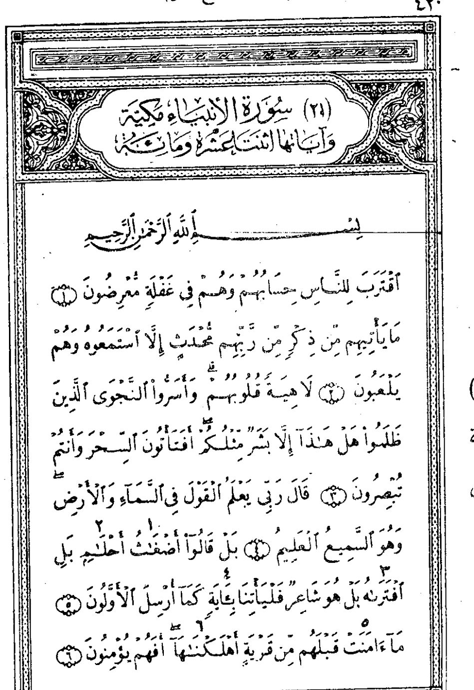
﴿أضغاث أحلام﴾: أى أخلاط أحلام رآها فى النوم.

﴿افتراه﴾: أى جاء به من عند نفسه ونسبه لله.

﴿شاعر﴾: أى يأتى بكلام مزخرف باطل يخيل للسامع أنه حقيقة.

﴿من قرية﴾: (من) للنص على عموم قرية.

(١) أضغاث. (٢) أحلام.
(٣) افتراه. (٤) بآية
(٥) آمنت. (٦) اهلكناها.


(٢١) سُورَةُ الأَنبِيَاءِ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا اثْنَتَا عَشْرَةَ وَمِائَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

المعنى: قرب للناس أو إلى الكفار زمن حسابهم، والحال أنهم فى غفلة عما سينزل بهم، معرضون عن الاستعداد لهذا اليوم. ما يأتيهم شىء نازل من القرآن يذكرهم أتم تذكير إلا استمعوه وهم يستهزئون به كالأطفال، لاهية قلوبهم عن الانتفاع به. ثم بيَّن سبحانه جناية أخرى من جناياتهم الشنيعة حيث رتبوا مبادئ الشر والمكر لهدم الدين فقال: ﴿وأسروا النجوى﴾ أى بالغ هؤلاء الكفار فى إخفاء تناجيهم قائلين فى تناجيهم ما محمد إلا بشر من جنسكم، وما أتى به هو سحر هل يصح أن تتركوا ما كان عليه آباؤكم فتحضروا مجلس السحر وأنتم تبصرون تأثيره فى الناس حتى حملهم على ترك دين آبائهم وأجدادهم. ثم حكى سبحانه ما قاله ﷺ بعد ما أعلمه الله بما قالوه سرا فقال أى النبى: ربى يعلم كل قول صادر ممن فى السماء أو الأرض جهرًا أو سرًا. ثم هددهم بقوله وهو السميع لأقوالهم، العليم بسرائرهم. ثم انتقل سبحانه إلى حكاية أقوال أخرى لهم باطلة تدل على حيرتهم فى المحاربة فقال: بل قالوا هذا القرآن تخاريف أحلام، ثم تركوا هذا القول وانتقلوا إلى قولهم بل هو كلام افتراه من عند نفسه، ثم تركوه أيضا وقالوا لا بل هو شاعر وما أتى به شعر يخيل إلى السامع ما ليس له حقيقة. وهذا شأن كل مبطل يتحول من باطل إلى أبطل منه، ثم قالوا وإن لم يكن محمد كما قلنا فليأت بمعجزة مثل المعجزات التى أرسل بها الرسل الأولون كعصا موسى وإحياء الموتى لعيسى. ثم كذبهم سبحانه فيما تضمنه كلامهم من الوعد بالإيمان لو أجيبوا إلى المعجزة المقترحة مع بيان أن فى إجابة طلبهم هلاكهم لأنهم حتى لو أجيبوا لما آمنوا فيقطع دابرهم، لأن هذه سنته تعالى، انظر الآية (٤٨) من سورة القصص صفحة ٥١٤ والآية (٢) من سورة القمر صفحة ٧٠٤. وانظر كذلك الآية (٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٣، والآية (٥٩) من سورة الإسراء صفحة ٢٧٢، فقال: (ما آمنت قبلهم) إلخ: أى لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إجابة طلبهم. وإذا كان الأولون لم يؤمنوا فهل هؤلاء يؤمنون لو أجيبوا؟ كلا؛ لأننا نقطع بعدم ذلك، انظر آيتى (٧، ١١) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٣، ١٨١، وآيتى (١٤، ١٥) من سورة الحجر صفحتى ٣٣٨، ٣٣٩.

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ
الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا
لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ
الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾
لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾
وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا
قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا
يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَارْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ
وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا
ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ
حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالْأَرْضَ
وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ

المفردات: ﴿أهل الذكر﴾: هم أهل الكتاب. ﴿كتابا﴾: هو القرآن.

﴿فيه ذكركم﴾: قال ابن عباس: هو الصيت والشرف؛ انظر الآية (٤٤) من سورة الزخرف صفحة ٦٥١.

﴿وكم﴾: تدل على كثرة ما بعدها.

﴿قصمنا﴾: القصم كسر لا يمكن إصلاحه.

﴿من قرية﴾: من لتأكيد العموم فى قرية.

﴿بأسنا﴾: عذابنا.

﴿يركضون﴾: المراد يهربون مسرعين. وأصل الركض ضرب الدابة بالرجل للإسراع.

﴿أترفتم فيه﴾: غرقتم فى نعيمه.

(١) فاسألوا.
(٢) جعلناهم.
(٣) خالدين.
(٤) صدقناهم.
(٥) فانجيناهم.
(٦) كتابا.
(٧) ومساكنكم.
(٨) تسالون.
(٩) يا ويلنا.
(١٠) ظالمين.
(١١) دعواهم.
(١٢) جعلناهم.
(١٣) خامدين.
(١٤) لاعبين.
(١٥) لاتخذناه.

﴿ياويلنا﴾: تركيب يقال عند الندم والتحسر.

﴿دعواهم﴾: دعاؤهم، انظر الآية (١٠) من سورة يونس صفحتى ٢٦٦، ٢٦٧.

﴿حصيدا﴾: هو الزرع المحصود.

﴿خامدين﴾: أصل الخمود للنار إذا ذهبت حرارتها، والمراد هالكين.

المعنى: رد سبحانه على زعمهم أن الرسول لا يكون إلا ملكا المشار إليه بقولهم: ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم﴾ بقوله: ﴿وما أرسلنا﴾ إلخ: أى وما أرسلنا إلى الأمم قبل إرسالك لأمتك إلا رجالا مثلك لا ملائكة. ثم بين كيفية الإرسال بقوله: ﴿نوحى إليهم﴾ بواسطة الملك ما نشاء كما أوحينا إليك. ثم وجه الخطاب للكفار تبكيتا لهم فقال: فأسلوا أهل التوراة والإنجيل إن كنتم لا تعلمون ما ذكر، وقد كان المشركون يعرفون أن العلم عند أهل الكتاب، انظر الآية (٥١) من سورة النساء صفحة ١٠٩. وما جعلنا أحدا من رسل الأمم قبلكم جسدا مستغنيا عن الطعام كالملك، وما كانوا طوال الحياة كالملائكة فضلا عن الخلود بلا موت. ولما كان ما أوحى به للرسل متضمنا وعدهم بالنصر على أعدائهم قال سبحانه: ﴿ثم صدقناهم الوعد﴾ بالنصر والفلاح فى الدنيا والآخرة، فأنجيناهم من كل مكروه، وأنجينا من نشاء من أتباعهم المؤمنين، وأهلكنا المسرفين فى معصية ربهم بالكفر. ثم وبخ سبحانه مشركى العرب بأنهم فى أقصى مراتب الجهل ونكران الفضل فقال: ولقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ما يوجب شرفكم وبقاء ذكركم ما بقى، لأنه بلسانكم، ومنزل على نبى منكم تشرفون بشرفه، هل بلغتم غاية الجهل فلا تعقلون ما فيه شرفكم، ثم هددهم بقوله: ﴿وكم قصمنا﴾ إلخ: أى وكثيرا من أهل القرى أهلكناهم لأنهم ظلموا أنفسهم بالكفر بآيات الله مثلكم، وأنشأنا بعد هلاكها قوما آخرين أحسن منهم، انظر الآية (٣٨) من سورة محمد صفحتى ٦٧٧، ٦٧٨. ثم فصّل شيئا من كيفية إهلاكهم فقال: ﴿فلما أحسوا﴾ إلخ: أى أدرك أهل القرية الظالمة مقدمات العذاب إذا

هم يجرون مسرعين فرارا، فقيل لهم بلسان الحال أو من الملائكة استهزاء: لا تركضوا وارجعوا إلى ما كنتم فيه من الترف والنعيم وإلى مساكنكم التى كنتم تفتخرون بها لعل أتباعكم وخدمكم يسألونكم الرأى فى تصريف الأمور كما كانت عادتكم. وهذا زيادة فى التوبيخ. ولما يئسوا من الخلاص قالوا: يا ويلنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا ولآيات الله بالإعراض عنها، وهذا ندم لا ينفعهم، انظر الآية (١٥٨) من سورة الأنعام صفحتى ١٩٠، ١٩١، والآية (٥١) وما بعدها من سورة سبأ صفحة ٥٧٠، والآية (٨٥) من سورة غافر صفحة ٦٢٩ فمازالوا يرددون تلك الكلمة حتى جعلناهم كالزرع المحصود والنار التى خمدت أى هالكين، انظر آيتى ٦٤، ٦٥ من سورة المؤمنون صفحة ٤٥١.

ثم نبه سبحانه الكفار إلى الاعتبار بقوله: ﴿وما خلقنا﴾ أى ما خلقنا هذا العالم المحكم الصنع والنظام البديع لمجرد اللعب به كما يفعل الأطفال، بل خلقناه لحكم عالية على رأسها معرفتنا، والخضوع للنظام الذى وضعناه لسعادة الخلق، وسنحاسبهم إذا أهملوا، انظر الآية (١١٥) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٦؛ ثم أكد سبحانه المعنى السابق ببيان استحالة اللهو عليه سبحانه وتعالى بقوله تعالى: ﴿لو أردنا﴾ الخ: أى لو أردنا اتخاذ لهو لكان لهوا حاصلا من إله حكيم، والحكيم لا يعمل اللهو لأنه مستحيل عليه لما له من صفة الحكمة، فعدم وجود اللهو ليس لعجز بل لاستحالته. وقدرة الله تعالى لا تتعلق بالمستحيل، كما يقال يستحيل على الله أن يخرج عبدا من ملكه، لأن وجود ملك لغيره تعالى مستحيل.

المفردات: ﴿من لدنا﴾: أى من عندنا.

﴿إن كنا﴾: إن حرف نفى بمعنى (ما). انظر الآية (١١١) الآتية فى هذه السورة صفحة ٤٣٢، والآية (٩٣) من سورة مريم صفحة ٤٠٥.

﴿نقذف﴾: أى نرمى بقوة.

مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ [١] ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ [٢] فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ [٣] وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ [٤] وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً [٥] مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ [٦] ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ [٧] عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ [٨] ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً [٩] قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ [١٠] هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟

﴿يدمغه﴾: أصل معناه يكسر دماغه، والمراد يمحقه.

﴿زاهق﴾: هالك ذاهب.

﴿الويل﴾: الهلاك.

﴿مما تصفون﴾: (من) بمعنى باء السببية أى بسبب وصفكم ومثلها فى قوله تعالى ﴿مما خطيئاتهم أغرقوا﴾ انظر الآية (٢٥) من سورة نوح صفحة ٧٦٩.

﴿تصفون﴾: أى تبالغون فى الكذب انظر الآية (٦٢) من سورة النحل صفحة ٣٥٣.

﴿ومن عنده﴾: هم الملائكة.

﴿يستحسرون﴾: يقال حسر البصر أو البعير بوزن ضرب إذا كلّ وتعب، انظر الآية ٤ من سورة الملك صفحة ٧٥٤. ويقال استحسر البعير إذا اشتد تعبه، وبما أن الملائكة لا يعتريهم أدنى تعب من العبادة فيكون التعبير فى جانبهم بيستحسرون ملاحظ فيه ما يشعر به البشر عادة من التعب عند القيام بالتكاليف الشاقة.

(١) فاعلين.
(٢) الباطل.
(٣) السموات.
(٤) الليل.
(٥) آلهة.
(٦) فسبحان.
(٧) يسأل.
(٨) يسألون.
(٩) آلهة.
(١٠) برهانكم.

﴿أم اتخذوا﴾: أم بمعنى بل تفيد هنا الانتقال من كلام إلى آخر مع الإنكار والتهكم، انظر الآية (٩) من سورة الشورى صفحة ٦٣٩، والآية (٨٠) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٥.

﴿من الأرض﴾: فيه تحقير لعقولهم حيث اتخذوا معبودات من معدن الأرض.

﴿ينشرون﴾: من أنشره أى أحياه كما فى الآية (٢٢) من سورة عبس صفحة ٧٩٢.

﴿هذا ذكر من معى﴾: (هذا) اسم إشارة مبتدأ والمشار إليه القرآن.

(وذكر من معى): المراد به القرآن، انظر الآية (٩) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨.

﴿وذكر من قبلى﴾: المراد به الكتب السماوية السابقة وهى من صحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى.

﴿بل﴾ .. إلخ: هذا كلام من جهته تعالى يفيد الانتقال من الأمر بتبكيتهم بالمطالبة بالبرهان الذى لا يستطيعونه إلى بيان أن المحاجة معهم لا تنفع لشدة إعراضهم عنادا.

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول﴾ .. إلخ: هذا كلام مقرر لما قبله من أدلة التوحيد ببيان أن جميع الرسل غير أصحاب الكتب السابقة تقر التوحيد وتنكر الشرك.

المعنى: لكان لهوا من عندنا وهو محال؛ ولهذا ما كنا فاعلين المستحيل، بل اللائق بالإله الحق.

ولكم أيها المشركون الهلاك بسبب افترائكم على الله بأن له ولدا وشريكا، وعلى رسوله بأنه ساحر إلخ ما تقدم. وكيف يحتاج لولد وكل ما فى السموات والأرض ملكه ومخلوقون له وعبيد لقدرته جل وعلا، ومن عنده عندية منزلة وهم الملائكة لا يتعاظمون عن عبادته ولا يكلون، أى لا يشعرون بأدنى تعب ينزهون ربهم عما تقولون عنه فى كل أوقات الليل والنهار، لا يتخلل تسبيحهم هذا فترة، فهم لا يتوانون لحظة، بل بلغ من جهل هؤلاء الكفار أنهم اتخذوا لهم آلهة من الأرض.

ثم بالغ فى توبيخهم فقال: ﴿هم ينشرون﴾ المراد أن من شأن الإله القدرة على إحياء الموتى فهل آلهتهم كذلك؟ ثم أراد سبحانه أن يبرز باطلهم من وجه آخر ويبطل زعمهم أن أصنامهم آلهة كما يبطل زعم كل من يقول إن فى الكون آلهة تتصرف فيه مع الله، وهذا الوجه مبنى على أن اسم (إله) لا يصدق إلا على واجب الوجود تام القدرة على كل ما عداه، فقال ﴿لو كان فيهما﴾ إلخ: أى لو كان فى السموات والأرض آلهة تدبر أمرهما غير الواحد الذى خلقهما لاختل نظامهما، لتنازع المشرفين عليهما؛ لأن كل واحد يريد أن يكون هو المتصرف وحده، ولكنهما لم يفسدا ذلك أنه ليس فيهما إلا الله وحده، انظر شرح هذا الدليل فى الآية (٩٩) من هذه السورة صفحة ٤٣١، وانظر الآية (٩١) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٤؛ فتنزيها لله رب العرش العظيم عما يفتريه عليه الكافرون.

ثم بيَّن صفة من صفات الإله الحق هى أنه لا يسأل عما يفعل لأنه عليم، حكيم، عادل، فلا يخطئ ولا يضع شيئا فى غير محله، ولا يظلم. أما ما عداه من الخلق بما فيه معبوداتهم العاقلة فهم يسألون، لأنهم عرضة للخطأ والظلم.

ثم كرر توبيخهم على جهلهم من جهة النقل بعدما وبخهم من جهة العقل فقال أم اتخذوا من دون الله آلهة! قل لهم أيها النبى: هاتوا برهانكم من الكتب السماوية السابقة إن كان عندكم منها شىء، انظر الآية (٤) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٦ وقل لهم هذا الدليل الذى احتج به عليكم هو شيئان: القرآن الذى هو كتاب أمتى الذى جاء يذكرها بربها، وكتب الأنبياء التى جاءت لتذكير من سبقنى من الأمم، فهل تجدون فيها ما يؤيد اتخاذ أصنامكم آلهة؟ كلا بل أكثر هؤلاء المشركين لا يميزون بين الحق والباطل، والقليل منهم يعلم ويعاند، فهم لهذا الجهل والعناد مستمرون على الإعراض عن الحق.

ثم بيَّن ما جاء على لسان كل الرسل قبله بقوله وما أرسلنا قبلك أيها النبى من رسول إلا وقد أوحينا إليه أنه لا إله إلا أنا الواحد الحق فاعبدونى وحدى.

اتخذ الرحمن ولدا سبحنه[1] بل عباد مكرمون (٢٦) لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون (٢٧) يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون (٢٨) * ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظلمين[2] (٢٩) أولم ير الذين كفروا أن السموات[3] والأرض كانتا رتقا ففتقنهما[4] وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون (٣٠) وجعلنا فى الأرض روسى[5] أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون (٣١) وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن ءايتها[6] معرضون (٣٢) وهو الذى خلق الليل[7] والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون (٣٣) وما جعلنا لبشر من

المفردات: ﴿ولدا﴾: يريدون الملائكة، انظر شرح الآية (١١٦) من سورة البقرة صفحة ٢٣، والآية (٤٠) من سورة سبأ صفحة ٦٨.

﴿بل عباد﴾: بل للاضراب عما قبلها أى إبطاله.

﴿خشيته﴾: الخشية خوف مشوب بتعظيم ومهابة، انظر الآية (٢٨) من سورة فاطر صفحة ٥٧٥.

﴿مشفقون﴾: الإشفاق شدة الحذر.

﴿أو لم ير الذين كفروا﴾: الرؤية هنا علمية. أى ألم يعلموا. ومثلها فى قوله تعالى:

﴿ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ انظر الآية (١٤٩) من سورة الأعراف صفحة ٢١٥، وقوله سبحانه ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا﴾ انظر الآية (٨) من سورة فاطر صفحة ٥٧٢، وقوله تعالى ﴿ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض﴾ انظر الآية (٧) من سورة المجادلة صفحتى ٧٢٥، ٧٢٦.

﴿كانتا﴾: بالتثنية لأن مجموع السموات طرف والأرض طرف آخر.

﴿رتقا﴾: أصل الرتق مصدر من قولهم رتق الرجل الشىء يرتقه بضم التاء وكسرها، إذا لاءم بين أجزائه وجعلها ملتحمة بعضها ببعض. وأريد بهذا المصدر هنا اسم المفعول أى مرتوقتين: أى ملتصقتين كما تقول فى الطعام: هذا أكل تريد مأكول.

---

(١) سبحانه. (٢) الظالمين. (٣) السموات. (٤) ففتقناهما.
(٥) رواسى. (٦) آياتها. (٧) الليل.

﴿ففتقناهما﴾: يقال فَتَقَ الشىء يفتُقه بضم التاء أى فصل بعض أجزائه عن بعض. والمعنى هنا فتقنا السماء بالمطر والأرض بالنبات. انظر الآية (٤٣) من سورة النور صفحة ٤٦٥، وأنظر الآية (٢٧) من سورة السجدة صفحة ٥٤٨، وأنظر آيتى (١١، ١٢) من سورة الطارق صفحة ٨٠٣. فالمراد من السماء هنا السحاب.

﴿من الماء كل شىء﴾ إلخ: الماء هنا هو الماء المذكور فى الآية (٧) من سورة هود صفحة ٢٨٤ الذى هو أصل جميع المخلوقات كما تقدم فى الأحاديث هناك، وإنما خص سبحانه الأحياء هنا بالذكر لأن وجه العبرة فيها أدق، لأن جميع المخلوقات غير الأحياء تشترك مع هذا الماء فى أن الجميع لا حياة فيها، فهم متقاربون تقاربا واضحا، ويكون الإبداع والإعجاز أظهر إذا خلق سبحانه حيا من شىء لا حياة فيه، وإذا أخذت الحياة على عمومها فإن لفظ (الحىّ) يشمل الأرض القاحلة عندما يخالطها الماء كما فى الآية (٢٤) من سورة الروم صفحة ٥٣٣.

﴿رواسى﴾: المراد جبالاً ثابتات لحفظ توازنها، انظر الآية (١٥) من سورة النحل صفحة ٣٤٧.

﴿تميد﴾: تضطرب ويختل توازنها.

﴿فجاجا﴾: جمع فج بالفتح وهو الطريق الواسع كما فى الآية (٢٧) من سورة الحج صفحة ٤٣٧. وأصله صفة (لسبلا) بعده، فلما قدم عليه صار حالاً منه، انظر الآية (٢٠) من سورة نوح صفحة ٧٦٩.

﴿آياتها﴾: المراد الأدلة المثبوتة فى السماء الدالة على وجود صانع حكيم قادر.

﴿فلك﴾: هو كل شىء دائر، والمراد طريقها الذى لا تتجاوزه فى سيرها.

﴿يسبحون﴾: يتحركون فى هدوء وسهولة كما يسبح السمك فى الماء.

المعنى: وقال كفار قريش اتخذ الرحمن الملائكة بنات له، سبحانه بل هم عباد مشرفون مقربون إلى الله لا يقولون شيئا حتى يأذن فيه كما هى عادة العبيد المؤدبين، ولا يعملون إلا ما يأمر به سبحانه لأنهم يعرفون أنه تعالى يعلم ما بين أيديهم إلخ، أى كل أحوالهم ما قدموه

وما أخروه منها، فهم دائمو المراقبة له سبحانه، ولا يشفعون فى أحد إلا لمن رضى الله عن أعماله. وهذا قطع لأطماع المشركين. وهؤلاء الملائكة من عظمته تعالى مرتعدون. ثم هدد المشركين أقوى تهديد فقال: لو قال واحد من هؤلاء الملائكة المقربين إنى إله غير الله فهذا القائل نجزيه جهنم مهما كانت منزلته؛ وكهذا الجزاء نجزى كل ظالم لنفسه بادعاء الربوبية أو الشرك به تعالى. ثم شرع سبحانه فى منهج آخر من مناهج التوحيد والأدلة عليه فى الكون فذكر ستة أشياء، فقال: ﴿أو لم ير الذين كفروا﴾.. لما لم يرد عن النبى ﷺ حديث صريح لتفسير هذه الآية تفرقت فيها كلمة العلماء، فأبدى كل رأيا يخالف الآخر، ولما لم يكن كثير من هذه الآراء معتمدا على دليل يصح الاعتماد عليه، رأينا أن نقتصر على إيراد ثلاثة آراء منها، ذكر لكل منها دليل. وللقارئ بعد ذلك أن يختار منها ما تطمئن إليه نفسه.

الرأى الأول: لابن عباس رضي الله عنه. روى عن الحسن البصرى وقتادة وسعيد بن جبير وحاصل هذا الرأى.. أن السموات والأرض كانتا فى مبدأ خلقهما شيئا واحدا، ثم فصل الله سبحانه بينهما، ويكون المراد توبيخ الكفار على تقصيرهم فى العلم بذلك، مع تمكنهم منه باستفسارهم من علماء أهل الكتاب الذين كانوا يخالطونهم، ويقبلون أقوالهم، انظر الآية (٧) من هذه السورة صفحة ٤٢١، وشرح الآية (٥١) من سورة النساء صفحة ١٠٩، والآية (٤٣) من سورة الرعد صفحة ٣٢٨.

وأهل الكتاب يعلمون ذلك من أنبيائهم، وهذا الرأى استمده القائلون به من ظاهر الأحاديث الصحيحة التى رواها المحدثون عند تفسير قوله تعالى ﴿وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء﴾ الآية (٧) من سورة هود صفحة ٢٨٤. فقد جاء فيها أنه ﷺ قال (أول ما خلق الله الماء، وخلق من الماء كل شىء).

أما الرأى الثانى: رأى لابن عباس أيضا. رواه عنه عكرمة وعطية والعوفى وعطاء، ووافقه عليه عبدالله بن عمر واختاره أكثر المفسرين وحاصل هذا الرأى.. أن السماء كانت رتقا لا تمطر، والأرض كانت رتقا لا تنبت، ففتق سبحانه السماء بالمطر، والأرض بالنبات. والرؤية على هذا الرأى بصرية تحصل بالمشاهدة الحسية. وهذا الرأى مبنى على أن المراد بالسموات كل ما

علانا من السحب التى تنزل المطر. وهذه السحب مسخرة بين السماء المعروفة وبين الأرض انظر الآية (١٦٤) من سورة البقرة صفحة ٣١، وشرح الآية (٣) من سورة فاطر صفحة ٥٧١، وهكذا كل الآيات المفيدة أن رزق السماء هو المطر الذى ينبت به الشجر والزرع مثل آيات (١٤، ١٥، ١٦) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧، والآيات من (٢٤ إلى ٣٢) من سورة عبس صفحتى ٧٩٢، ٧٩٣. قال تعالى ﴿ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله﴾ انظر الآية (٤٣) من سورة النور صفحة ٤٦٥، ويؤيد هذا قوله تعالى ما جاء فى آيتى (١١، ١٢) من سورة الطارق صفحة ٨٠٣. ومعنى هذا أن الفتق حصل لكل من السماء والأرض على حدة أى أن كلا منهما حصل بين أجزائها فتق. ومبنى أيضا على أن معنى (كان) فى (كانتا) أن هذا هو شأنهما دائما، سحاب ملتئم، ثم يتساقط المطر من بين ثناياه، وأرض ملتحمة الأجزاء يفتقها النبات، وهذا المعنى لفعل (كان) شائع فى لغة العرب، ومنه فى القرآن كثير، قال تعالى (وكان الإنسان عجولا) الآية (١١) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٥ أى أن هذا هو شأن الإنسان دائما، لا أنه كان عجولا فيما مضى ثم صار غير عجول الآن، وقال ﴿فسجدوا إلا إبليس كان من الجن﴾ الآية (٥٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨، وقال ﴿وكان الإنسان أكثر شىء جدلاً﴾ الآية (٥٤) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨.

أما الرأى الثالث: لأبى مسلم الأصفهانى. الذى رأى أن الظاهر إبقاء السموات على ظاهرها المعهود، وأن الدليل لا يقوم على الكفار إلا إذا كانوا معترفين بكل مقدماته، وأن هؤلاء الكفار ما كانوا يعلمون حال السموات والأرض عند خلقهما بنص القرآن نفسه قال تعالى فى الحديث عن الكفار ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾ الآية (٥١) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨.. نقول لما رأى أبو مسلم كل ذلك قال: المعنى أن السموات والأرض كانتا قبل وجودهما يجمعهما العدم. وكون الأمور المعنوية تجمع المحسوسات معروف فى لغة العرب، يقول أحدهم هؤلاء قوم جمعتهم المصائب أو المصالح مثلا، ويقول طواهم الفناء فى غياهبه، ومنه فى القرآن قوله تعالى فى سياق ما سيحصل يوم القيامة ﴿وجمع الشمس والقمر﴾ الآية (٩) من سورة القيامة صفحة ٧٧٩ ومعنى فتقهما على

هذا إيجادهما مفتوقتين أى منفصلة كل منهما عن الأخرى، كما يقول العربى سبحان من كبر الفيل وصغر البعوضة، يريد أوجد كلا منهما على هذه الحال، هذا كبير الجسم وذاك صغيرة، والمعنى هل يستمر هؤلاء الكفار على الغفلة ولا يلتفتوا للواقع فيعلموا أن السموات والأرض كانتا معدومتين، ونحن أوجدناهما، فهو من قبيل قوله تعالى ﴿أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض﴾ الآية (١٨٥) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٣ وقوله ﴿أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون﴾ آيتى (٣٥، ٣٦) من سورة الطور صفحة ٦٩٩ والمراد أنهم متمكنون من العلم بذلك بأدنى تأمل، لأن السموات والأرض بل وكل المخلوقات حادثة بعد اليوم، ومن المقطوع به عقلا أن كل حادث لابد له من محدث، ولا محدث لهما إلا الله، وهم معترفون بذلك كما قال تعالى ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله﴾ الآية (٦١) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٩ فصح بعد كل هذا أن يوبخوا على غفلتهم عن هذه الأدلة وإعراضهم عن الالتفات إليها. والرؤية على هذا الرأى علمية كالرأى الأول.

ثم يقول تعالى بعد ذلك: وهل جهلوا أيضا أنا جعلنا من الماء الذى لا حياة فيه كل شىء حى، فهل بعد كل هذا يعرضون فلا يؤمنون. ومن دلائل قدرتنا وحكمتنا أنا جعلنا فى الأرض جبالا ثوابت كراهة أن يختل توازنها عند الزلازل، وجعلنا فى الأرض طرقا واسعة لعلهم يهتدون بها فى سيرهم لمقاصدهم، وجعلنا السماء فوقهم كالسقف وحفظناها بقدرتنا أن تسقط فوق رءوسهم. انظر الآية (٦٥) من سورة الحج صفحتى ٤٤٢، ٤٤٣، والآية (٤١) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٧، ٥٧٨، ومع ذلك فهؤلاء الكفار معرضون عما فيها من العبر. وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل من هذه الأربع يسير فى فلكه بنظام محكم، انظر الآية (٤٠) من سورة يس صفحة ٥٨٢. ثم رد على تمنيات باطلهم بما كان المشركون يبثونها فى أوساط العوام وذلك أنهم كانوا يقولون لا تهتموا لما يقوله محمد فسيموت وتموت معه دعوته ويبقى ديننا سليما، انظر الآية ٣٠ من سورة الطور صفحة (٦٩٨)، فقال: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ إلخ.

قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ

المفردات: ﴿نبلوكم﴾: البلاء الاختبار. والمراد نعاملكم معاملة المختبر، انظر آيتى (١٥، ١٦) من سورة الفجر صفحتى ٨٠٦، ٨٠٧.

﴿فتنة﴾: أى ابتلاء فهو تأكيد لما قبله من غير لفظه.

﴿إن يتخذونك﴾: (إن) حرف نفى بمعنى (لا).

﴿هزوا﴾: أصله مصدر وأريد به اسم المفعول مبالغة أى مهزوءا به.

﴿هم كافرون﴾: كرر (هم) للمبالغة فى حصر الكفر فيهم.

﴿خلق الإنسان من عجل﴾: العجل والعجلة طلب الشىء قبل أوانه والمراد أنه لفرط استعجاله كأنه مخلوق منه أى شديد العجلة كما قال: ﴿خلقكم من ضعف﴾ أى ضعفاء.

﴿آياتى﴾: المراد بها هنا دلائل صدق وعده تعالى وهى النقم التى ستحل بهم.

﴿هذا الوعد﴾: أى الوعد بالعذاب أو القيامة. ﴿تأتيهم بغتة﴾: أى تأتيهم القيامة فجأة.

﴿تبهتهم﴾: تدهشهم وتحيرهم. ﴿ينظرون﴾: يمهلون. ﴿حاق﴾: حل ونزل بهم.

﴿يكلؤكم﴾: يحفظكم.

المعنى: لم نخلد أحدًا مِمَّنْ قبلك بل ماتوا جميعا حتى أنت أحب الناس إلينا ستموت حتما وإذًا فلابد من موت هؤلاء المستهزئين بك والمستهزئين بوعدنا على لسانك ببعثهم من القبور وسيحاسبون على جرمهم. ثم أكد المعنى السابق بما يدل على عموم الموت لكل ذى نفس ولو

---

(١) أفإن. (٢) الخالدون. (٣) رآك. (٤) آلهتكم. (٥) كافرون.
(٦) الإنسان. (٧) ساريكم. (٨) آياتى. (٩) صادقين. (١٠) بالليل.

لم يكن من البشر كالملائكة والجن والحيوانات فقال: كل نفس لابد أن تذوق مرارة فراق جسدها، ونعاملكم فى الدنيا أيها المكلفون معاملة المختبر بالبلايا والنعم اختبارا لكم هل تصبرون عند البلاء وتشكرون على النعم أم لا؟ ونظيره فى الآية (٢٠) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢. وترجعون فى النهاية إلى ربكم فيجازيكم حسب ما صدر منكم، انظر آيتى (٤٣، ٤٤) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٨، ١٦٩. ثم بيَّن سبحانه بعض أنواع الفتنة التى مرت على ضعفاء المؤمنين ووقع فيها المشركون فقال: وإذا رآك أيها النبى الكافرون من صناديد قريش ورأوا قلة مَنْ آمن معك مع كثرتهم وضعفكم وقوتهم، ما يتخذونك ودينك إلا مهزوءا به، قائلين أهذا الرجل الضعيف هو الذى يذكر آلهتكم بسوء، انظر آيتى (٥٧، ٥٨) من سورة المائدة صفحة ١٤٨، يقولون ذلك والحال أنهم بالقرآن الذى جاء رحمة لهم هم كافرون لا يصدقون ما فيه. ولما كان من ضمن استهزائهم أنهم إذا سمعوا آية تدل على توعدهم بالعذاب وبقيام الساعة يقولون منكرين: متى هذا؟ أى أنه لن يحصل، قال سبحانه: إن هؤلاء المشركين من جنس الإنسان شديدو التعجل حتى للشر، انظر آيات (١١، ٥٠، ٥١) سورة يونس صفحتى ٢٦٧، ٢٧٤ والآية (١٨) من سورة الشورى صفحة ٦٤١. ثم قال سبحانه: سأريكم نقماتى حتما فابتعدوا من الاستهزاء باستعجالها لأن هذا يضاعف لكم العذاب. ثم فصَّل بعضا من استهزائهم فقال: ويقولون متى يتحقق وعدك يا محمد أنت ومن معك لنا بالعذاب إن كنتم صادقين فيما تقرءونه فى كتابكم فأتونا به بسرعة. لو يعلم هؤلاء الكفار هول الوقت الذى يستعجلونه وهو حين تحيط بهم النار من كل جانب ولا يقدرون على دفعها ولا يجدون مَنْ ينصرهم بدفعها عنهم لما استعجلوا، بل ستأتيهم أهوال القيامة فجأة فتحيرهم فلا يستطيعون ردها، ولا يمهلون لحظة عن إهلاكهم.

ثم هددهم بما حصل لمَنْ قبلهم لما عملوا مثل عملهم، وطمأن نبيَّه بقوله: ولقد استهزأ أمم قبل أمتك برسلهم كما استهزأ هؤلاء بك فحل بالذين سخروا من رسلهم العذاب الذى كانوا به يستهزئون، انظر الآية (٢٤) من سورة الأحقاف صفحتى ٦٦٩، ٦٧٠. ثم أرشدهم إلى دليل آخر لو تنبهوا له لرجعوا عن شركهم فقال قل لهم أيها النبى: من هو الذى يحفظكم بالليل والنهار من عذاب الإله الحق الذى وسعكم برحمته إن أراد أن ينزله بكم؟ أى لا أحد يستطيع ذلك، انظر الآية (١٧) من سورة المائدة صفحة ١٣٩، والآية (١١) من سورة الرعد صفحة ٣٢٢، والآية (٢٣) من سورة يس صفحة ٥٨١، والآية (٣٨) من سورة الزمر صفحة ٦١١.

بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ
تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا
يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ
عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ
أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ الْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ
وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ
نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾
وَنَضَعُ الْمَوَٰزِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ
شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ
بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ الْفُرْقَانَ
وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ
وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ

المفردات: ﴿يصحبون﴾: تقول العرب أنا صاحب لك من فلان، أى مجير لك من تعديه عليك. فالمراد لا يستطيع أحد نصرهم.

﴿هؤلاء﴾: المراد بهم مشركو العرب.

﴿أفلا يرون أنا نأتى الأرض﴾: إلخ: تقدم بيانها فى الآية (٤١) من سورة الرعد صفحة ٣٢٨.

﴿أنذركم﴾: أى أحذركم من عذاب الله.

﴿نفحة﴾: أصل النفخ هبوب ريح لينة، والنفخة المرة منه. والمراد قدر ضئيل من العذاب.

﴿يا ويلنا﴾: تركيب يقال عند الندم والتحسر.

﴿القسط﴾: أصله العدل أريد به الوصف أى العادلة. ﴿مثقال﴾: أى مقدار.

﴿خردل﴾: هو حب أسود صغير جدًا يضرب به العرب المثل فى الصغر.

﴿الفرقان﴾: المراد هنا التوراة التى فيها فرق بين الحق والباطل.

﴿وضياء﴾: عند ظلمات الحيرة والجهل، وعطفه على ما قبله من قبيل عطف الصفة على الموصوف، وكذا يقال فيما بعده، كقولهم جاء الملك العظيم وابن الهمام، انظر الآية (٥٣) من سورة البقرة صفحتى ١٠، ١١، والآية (١٢) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٠.

﴿وذكرا﴾: تذكرة وعبرة. ﴿مشفقون﴾: خائفون.

﴿وهذا﴾: يعنى القرآن.

---

(١) آلهة.	(٢) آباءهم.	(٣) الغالبون.
(٤) يا ويلنا.	(٥) ظالمين.	(٦) الموازين.
(٧) القيامة.	(٨) حاسبين.	(٩) آتينا.
(١٠) هارون.	(١١) أنزلناه.	

المعنى: لا أحد يحفظهم غير الله، فهل تنبهوا؟ كلا بل هم عن تذكر ربهم معرضون. ثم انتقل سبحانه من وصفهم بالإعراض إلى توبيخهم بالاعتماد على آلهتهم فقال: ﴿أم لهم﴾ إلخ: أى أم لهم آلهة غيرنا تمنعهم من عذابنا؟ كلا لأن هذه الآلهة لا تستطيع نصر نفسها إذا تعدى عليها الغير ولا يستطيع أحد حفظهم مما نريد به من هلاك، أى فهى فى غاية العجز، فكيف ترجون منها النفع. ثم انتقل سبحانه إلى وعيدهم بالهلاك مع بيان أنهم استدرجوا بالنعم حتى تعرضوا للهلاك فكأنه يقول: إنما تورطوا فى توهم نفع آلهتهم بسبب تمتعهم بما يشتهون وطالت مدة حياتهم فى هذا التمتع فاغتروا وأهملوا النظر والبحث عن الحق، انظر ما قيل فى الآية (٣٥) من هذه السورة صفحة ٤٢٤. فهل طمس على قلوبهم فأصبحوا لا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من جهاتها بإهلاك الظالمين مثلهم، وما ديار المهلكين منهم ببعيد، إلى آخر ما سبق فى الرعد. وهل إذا أهلكنا من هم أشد منهم قوة فهم الذين يظنون أنهم يغلبون رسولنا والمؤمنين به؟ كلا! وبعد هذا التهديد أمر سبحانه نبيه أن يقول لهم لا أحذركم من العذاب الذى تسخرون منه إلا بالوحى الصادق الذى لا يختلف ما وعد به، ثم بين سبحانه أن طول إعراضهم عن الحق طمس على آذانهم فصاروا لا يسمعون نافعا ولا تخويفا مهما أنذرتهم، انظر آيتى (٦، ٧) من سورة البقرة صفحة ٤، والآية (٢٢) من سورة الأنفال صفحتى ٢٢٩، ٢٣٠. ثم بيَّن سبحانه ضعف هؤلاء المتعجرفين إذا رأوا أقل شىء من العذاب فقال: وعزتى لئن مسهم أقل شىء من عذاب ربك لارتفع صراخهم بقولهم يا هلاكنا إنا كنا ظالمين، أى لسارعوا بالاعتراف على أنفسهم بالظلم. ثم هددهم وطمأن نبيه بقوله: ﴿ونضع الموازين القسط﴾ أى وسنضع الموازين العادلة فى يوم القيامة، والله تعالى أعلم بكيفيتها وكيفية الوزن، وإنما الواجب هو اعتقاد العدل التام، فلا تظلم نفس شيئا من جزاء عملها، وإن كان العمل ضئيلا جدا لابد من إحضاره ووزنه. ويكفى جميع الخلق أن الله خير الحاسبين لا يخفى عليه شىء. ثم بين سبحانه أن سنته أن يرسل الرسل بالوحى الذى فيه سعادتهم فقال: ولقد آتينا موسى وهارون التوراة الجامعة بين تلك الصفات الثلاث العظيمة آخرها أنها تذكره تنفع المتقين الذين يخافون ربهم فى خلواتهم وبعدهم عن الناس، أى لا رياء، والحال أنهم شديدو الخوف من هول القيامة. وهذا القرآن ذكر كثير الخير أنزلناه عليك لنفعهم كما أنزلنا التوراة على موسى لنفع بنى إسرائيل.

أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ[1] إِبْرَٰهِيمَ[2] رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ[3] ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ[4] ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا[5] لَهَا عَٰبِدِينَ[6] ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ[7] فِى ضَلَٰلٍ[8] مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ[9] ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[10] وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ[11] ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم[12] بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ[13] إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ[14] ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ[15] ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ[16]

المفردات: ﴿رشده﴾: الرشد الاهتداء إلى وجوه الصلاح فى الدين والدنيا.

﴿التماثيل﴾: جمع تمثال، وهو كل ما عبد من دون الله يقال له (صنم) و(وثن) وإذا كان جسما على هيئة إنسان أو حيوان يسمى تمثال كما هنا وقد أطلق إبراهيم عليه السلام على معبودات قومه أصناما كما فى الآية (٥٧) الآتية، وأوثانا كما فى الآية (١٧) مكن سورة العنكبوت صفحتى ٥٢٢، ٥٢٣.

﴿لها عاكفون﴾: مداومون على عبادتها، فاللام بمعنى على كما فى الآية (٧) من سورة الإسراء.

﴿فطرهن﴾: أنشأهن.

﴿من الشاهدين﴾: الشاهد هو مَنْ عاين الشىء وتحقق منه وبرهن عليه.

﴿تولوا مدبرين﴾: أى تنصرفوا عنها، انظر الآية (٢٥) من سورة التوبة صفحة ٢٤٤.

﴿جذاذا﴾: مأخوذ من الجذ وهو القطع كالحطام من الحطم وهو الكسر، والمراد هنا أجزاء صغيرة.

﴿يذكرهم﴾: بأنه سيوقع الشر بهم. ﴿على أعين الناس﴾: أى على الملأ يشاهده الجميع.

المعنى: هل بعد أن تبين لكم جليل مقام هذا النبى والقرآن فأنتم منكرون له بعد ذلك، متمادون فى قولكم هو شاعر وكتابه أضغاث أحلام إلى آخر ما تقدم فى الآية (٥) من هذه

---

(١) آتينا. (٢) إبراهيم. (٣) عالمين. (٤) عاكفون.
(٥) آباءنا. (٦) عابدين. (٧) آباؤكم. (٨) ضلال.
(٩) اللاعبين. (١٠) السموات. (١١) الشاهدين. (١٢) أصنامكم.
(١٣) بآلهتنا. (١٤) الظالمين. (١٥) إبراهيم. (١٦) أأنت.

السورة صفحة ٤٢٠. ثم أراد سبحانه أن يذكرهم بما حصل من قوم إبراهيم عليه السلام وإنجاء الله تعالى له وإهلاكهم لعلهم يرتدعون فقال: ولقد آتينا رسولنا إبراهيم الرشد الكامل اللائق به من قبل موسى وهارون، وكنا بما فيه من الفضائل التى تؤهله للرسالة عالمين، انظر الاية (١٢٤) من سورة الأنعام صفحة ١٢٤، والآية (٨٤) وما بعدها من سورة الصافات صفحة ٥٩٢. ألهمناه رشده حين قال لأبيه وقومه مسفها لهم: ما هذه الأصنام التى ما هى إلا مجرد تماثيل نحتموها بأيديكم ثم تداومون على عبادتها. قالوا إنا وجدنا آباءنا لها وحدها عابدين فسرنا على طريقتهم، فمن أنت حتى تحولنا عن عادة أشياخنا. فجابههم إبراهيم عليه السلام بالحق ولم يبال حيث قال: وعزة ربى لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال وبعد عن الصواب واضح، فظنوا من جهلهم أنه يداعبهم فقالوا: هل أنت جاد فيما تقول أم أنت من اللاعبين الذين يمزحون؟ قال لست لاعبا بل أقرر لكم وأبلغكم أن ربكم الحق المستحق للعبادة وحده هو رب السموات والأرض الذى خلقهن، وأنا على ما أقول من المتحققين عليه البراهين. وقد كان لهم فى كل عام عيد يجتمعون فيه خارج المدينة، وكانوا يضعون الطعام فى قاعة أصنامهم، فإذا رجعوا من العيد أكلوه تبركا، فلما أرادوا الخروج للعيد قال آزر لابنه إبراهيم: اخرج معنا، فادعى أنه سقيم، فتولوا عنه، فقال بصوت منخفض: والله لأكيدن أصنامكم أى أحطمها بعد انصرافكم عنها، أراد بذلك تنبيههم من غفلتهم بشىء عملى بعدما تيقن أنه لم ينفع فيهم الحجاج العقلى فقرر تحطيم آلهتهم ليعلمهم أنها إذا كانت لا تدفع عن نفسها فكيف يخافونها فسمعه بعض الضعفاء المتأخرون منهم، فلما رجع إلى قاعة الأصنام وكان الصنم الأكبر فى صدرها قال مستهزئا: ألا تأكلون؟ ما لكم لا تنطقون؟ انظر الآيات من (٩١ إلى ٩٨) من سورة الصافات صفحة ٥٩٢. ثم أخذ فأسا وكسرها جميعا إلا أكبرها، فتركه ووضع الفأس فى عنقه لعلهم يرجعون إليه فيسألونه فلا يجيب، فيدركون خطأهم فلما رجعوا قالوا: مَنْ فعل هذا بآلهتنا؟ إنه لمَنْ الظالمين لنفسه بتعريضها للهلاك. قال بعضهم: سمعنا فتى يذكرها بالشر يقال له إبراهيم. قال كبارهم: فأحضروه على مشهد من الناس لعلهم يشاهدون ما يحل به من الحساب والعقاب فلا يجرؤ أحد على الإقدام على جريمته. فلما جاءوا به قالوا: هل أنت فعلت هذا؟..

فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا[1] يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ[2] ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ[3] إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ[4] ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ[5] إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ[6] ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ[7] كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا[8] عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ[9] ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ[10] ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ[11] وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا[12] فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ[13] ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ[14] وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ[15] ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ[16] أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ

المفردات: ﴿بل﴾: حرف يدل على إبطال ما قبله وإثبات ما بعده.

﴿فعله كبيرهم﴾: أى الصنم الكبير منهم، وقال ذلك توبيخا لهم، أو أعرض بأن الحامل له على كسرها هو غيظه من كبيرهم لأنهم كانوا يعظمونه أكثر من غيره.

﴿رجعوا إلى أنفسهم﴾: أى باللوم حيث عبدوا مَنْ لا يدفع عن نفسه الضر.

﴿نكسوا على رءوسهم﴾: أصل نكس الشىء قلبه وجعل أعلاه أسفله، والمراد أنهم بعد إقرارهم بالخطأ فى عبادتهم انقلبوا من تلك الحال إلى المكابرة والجدل الباطل.

﴿أف﴾: أصل أف صوت المتضجر من قبح شىء، ثم صارت بمعنى أتضجر، واللام لبيان المتضجر لأجله.

﴿حرقوه﴾: أى أحرقوه بشدة وقسوة.

﴿الأرض التى باركنا فيها﴾: هى الشام، بعد أن كان ببابل بالعراق.

﴿نافلة﴾: عطية زائدة منه تعالى على ما طلب لأنه كان طلب ولدا من سارة فأعطاه معه ولد ولد وهو يعقوب.

---

(١) بآلهتنا. (٢) يا إبراهيم.
(٣) فاسألوهم. (٤) الظالمون.
(٥) آلهتكم. (٦) فاعلين.
(٧) يا نار. (٨) وسلاما.
(٩) إبراهيم. (١٠) فجعلناهم.
(١١) ونجيناه. (١٢) باركنا.
(١٣) للعالمين. (١٤) إسحاق.
(١٥) صالحين. (١٦) وجعلناهم.

المعنى: قال كفار بابل لإبراهيم عليه السلام: هل أنت الذى فعلت هذا التكسير الذى حل بآلهتنا؟ قال: لا يقصد لم أفعله عبثا بل تسبب فيه جهلكم فى تعظيمكم لها خصوصا الصنم الكبير منها، فأسألوهم عن كسرها إن كانوا ينطقون، وفى هذا أقوى تنبيه لهم من غفلتهم. عند ذلك رجع عقلاء منهم إلى الصواب وقالوا: إنكم أنتم الظالمون بعبادة مَنْ لا ينطق ولا يضر ولا ينفع. لكن قوة الزعماء وخدام الأصنام الذين ينتفعون ببقائها نكستهم وأرجعتهم إلى الباطل بالمكابرة والجدل فقالوا لإبراهيم: لقد علمت أنهم لا ينطقون فكيف تأمرنا بسؤالهم؟ قال هل وصل بكم الجهل هذا الحد فصرتم تعبدون ما لا ينفعكم أقل نفع إن عبدتموهم ولا يضركم إن تركتموه! إنى أتضجر لأجلكم أنتم وما تعبدونهم، أفلا تعقلون عند ذلك عمدوا إلى ما يعمد إليه القوى الجبار القاسى إذا عجز عن الحجة فإنه يلجأ إلى التنكيل؛ لذا قالوا ابنوا له غرفة مرتفعة الحيطان حتى لا يتمكن من الفرار منها، واملؤها بالأخشاب وأشعلوا فيها النار ثم أقذفوه فيها من الأعلى، انظر الآية (٩٧) من سورة الصافات صفحة ٥٩٧، وبهذا تنصرون آلهتكم على من أهانها إن كنتم فاعلين لها نصرا.

فلما طرحوه فى النار قال سبحانه للنار: كونى بردا وسلاما على خليلى إبراهيم. وهذا كناية عن حفظه من كل سوء. قالوا: ولو لم يقل سبحانه: ﴿وسلاما﴾ لقتله بردها. وأرادوا بإبراهيم كيدا وإضرارا فصيرهم الله هم الأخسرين بظهور حقه ومحق باطلهم، وأمرناه بالهجرة من العراق هو وابن أخيه لوط إلى الأرض المباركة وهى الشام وبهذا تم إنجاؤهم من كل كيد. وبركة الشام أن أغلب الأنبياء بعث فيها. ووهبنا له إسحاق ولد من زوجه سارة، وزدنا عطية زائدة هى يعقوب ولدا إسحاق. وكل واحد من إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب جعلناه صالحا كاملا. وجعلناهم أئمة يقتدى بهم يهدون الناس إلى الخير بإذننا. وأوحينا إليهم أن يفعلوا الخيرات ويحثوا الناس عليها.

المفردات: ﴿حكما﴾: المراد به هنا الحكمة وهى معرفة أسرار الأشياء، انظر الآية (٨٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧٦.

ٱلْخَيْرَٰتِ[1] وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ[2] وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ[3] وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ[4] ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ[5] حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ[6] مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ[7] إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ[8] ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ[9] فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ[10] ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ[11] وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ[12] مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ[13] إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ[14] أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ[15] إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ[16] ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا[17] سُلَيْمَٰنَ[18] وَكُلًّا ءَاتَيْنَا[19] حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ[20] ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ[21] صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم

﴿القـرية﴾: هى سـذوم بالذال كمـا فى القاموس وهى أكبر قرى قوم لوط وكانت بشرق الأردن.

﴿سـوء﴾: أى شـر يسيئـون إلى كل مَنْ يخالطهم.

﴿ونصـرناه من القـوم﴾: (من) هنا بمعنى (على) أى نصرناه عليهم.

﴿الحرث﴾: المراد به الزرع.

﴿نفشت فيه﴾: انتشرت فيه ليلا ولم يكن معها راع فأكلته وأفسدته.

﴿شاهدين﴾: حاضرين بعلمنا.

﴿ففهمناها سليمان﴾: الضمير المؤنث يعود على الحكومة بمعنى الحكم الصحيح المفهوم من (إذ يحكمان).

﴿وسخرنا مع داود الجبال﴾: المتأمل لاستعمال القرآن لمادة التسخير يدرك منها معنى جعل الشىء المسخر مهيأ لانتفاع الإنسان به، انظر آيات (٣٢، ٣٣) من سورة إبراهيم، و(١٤) من سورة النحل صفحة ٣٤٧، و(٣٦، ٦٥) من سورة الحج صفحات ٤٣٨، ٤٤٢، ٤٤٣، و(١٢،

(١) الخيرات.	(٢) الصلاة.	(٣) الزكاة.
(٤) عابدين.	(٥) آتيناه.	(٦) ونجيناه.
(٧) الخبائث.	(٨) فاسقين.	(٩) وأدخلناه.
(١٠) الصالحين.	(١١) فنجيناه.	(١٢) ونصرناه.
(١٣) بآياتنا.	(١٤) فأغرقناهم.	(١٥) وسليمان.
(١٦) شاهدين.	(١٧) ففهمناها.	(١٨) سليمان.
(١٩) آتينا.	(٢٠) فاعلين.	(٢١) وعلمناه.

١٣) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٨. وكذا مَنْ يتأمل استعمال القرآن للتسبيح والسجود يجده كثيرا ما يراد به أن الشىء المسبح أو الساجد ينادى بأن الإله الحق واحد، وأنه سبحانه وحده صاحب الخلق والأمر فى كل الوجود، انظر آيتى (١٣، ١٥) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٢، ٣٢٣، والآية (٤٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٠، والآية (١٨) من سورة الحج صفحتى ٤٣٥، ٤٣٦ وقد ورد تسبيح الجبال وتأويبها مع داود فى موضعين غير ما هذا، فى الآية (١٠) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٣، ٥٦٤، والآية (١٨) من سورة ص صفحة ٥٩٨.

وقال البيضاوى: يسبحن أى يقدسن الله معه بلسان الحال، بمعنى أن تتمثل له مسبحة، فيكون ذلك أبهج لنفسه، وأجمع لمشاعره، فيستغرق فى التسبيح حتى يرى العالم كله مسبحا معه بلسان حاله الذى لا يعرف النفاق ولا غفلة القلب المعهودة فى لسان المقال، ولذا قالوا لسان الحال أصدق من لسان المقال وإذا أردت المزيد فى هذا الموضوع لتكون فكرتك سليمة واضحة فاجمع الآيات المشار إليها سابقا فى صعيد واحد أمام ناظريك وضم إليها ما فى الاية ١ من سورة الحديد صفحة ٧١٨، والآية (١) من سورة الحشر صفحة ٧٢٩، والآية (١) من سورة الصف صفحة ٧٣٨، والآية (١) من سورة الجمعة صفحتى ٧٤٠، ٧٤١، والآية (١) من سورة التغابن صفحة ٧٤٥ فإن المعنى يتجلى لك فى أبهج صورة. والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿لبوس﴾: أصل اللبوس اللباس، والمراد به هنا دروع الحرب.

﴿لتحصنكم﴾: لتحفظكم.

المعنى: وأوحينا إليهم فعل الخيرات خصوصا منها إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا مخلصين لنا فى عبادتهم. وآتينا نبينا لوطا حكمة وعلما نافعا، ونجيناه من القرية التى كان أهلها يعملون كثيرا من الخبائث، أفظعها ما فى الآية (٨١) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٥. إنهم كانوا قوم سوء وشر خارجين عن طاعة ربهم، فخسف الله تعالى بهم القرية ونجاه وأهله إلا امرأته، وأدخله فى أهل رحمته لأنه من عباده الصالحين. و أكرمنا نوحا حين نادى أنى مغلوب فانتصر

لى يارب، انظر الآية (٣٠) من سورة القمر صفحة ٧٠٥، وكان نداء نوح من قبل هؤلاء الأنبياء المذكورين فاستجبنا له، وبيَّن سبحانه كيف استجاب بقوله: فأنجيناه وأهله من الكرب العظيم وهو الطوفان ونصرناه على الكافرين المكذبين بآياتنا الدالة على وجودنا وصدق نوح فى رسالته حال كوننا حافظين له من أذاهم، لأنهم كانوا قوم شر فأهلكناهم بالغرق أجمعين.

وآتينا داود وسليمان فضلا حين حكما فى قضية الزرع الذى اتلفته الغنم ليلا، وكنا لذلك الحكم المتعلق بهما وبالمتحاكمين من أصحاب الزرع والغنم عالمين، فألهمنا سليمان الحكم الأقرب للصواب؛ وذلك أن داود حكم بالغنم لأهل الزرع، وكانت القيمة متساوية، وكان سليمان حاضرا، فقال: غير هذا أرفق بالطرفين، وأرى أن تسلم الغنم لأهل الزرع يأخذون من نتاجها وألبانها وأصوافها، وتسلم أرض الزرع لأصحاب الغنم فيزرعونها حتى تصير كما كانت. عند ذلك يعود كل منهما إلى ملكه. فأقره داود وكان كل منهما مجتهدا، والمجتهد مثاب على كل حال؛ ولذا قال سبحانه: وكلا منهما آتيناه حكما وعلما نافعا يمنعه من أن يجرى وراء هواه.

ثم بيَّن ما مَنّ به سبحانه على كل منهما فقال: وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير كذلك تسبح، وكنا فاعلين أى هذا لا يعجزنا ولا ما هو أعظم منه. وعلمنا داود صنعة عمل دروع الحرب من الحديد ولم تكن معلومة من قبل لتحفظهم من أذى العدو.

المفردات: ﴿بأسكم﴾: أى حروب عدوكم.

﴿فهل أنتم.. الخ﴾: هل حرف استفهام أريد به هنا طلب ما بعده.

﴿عاصفة﴾: المراد: قوية سريعة السير وإن كانت فى نفسها مريحة لينة لا اضطراب فيها، انظر الآية ٣٦ من سورة ص صفحة (٦٠١).

﴿الأرض التى باركنا فيها﴾: هى الشام بكثرة الأنبياء منها ووفرة خيراتها.

﴿يغوصون﴾: ينزلون فى أعماق البحر لاستخراج اللؤلؤ وغيره.

مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ
عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا
وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن
يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ
حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ * وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ
ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا
مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ
عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ
وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى
رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ
مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن
لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾

﴿عملا دون ذلك﴾: كبناء المدن والقصور وكلمة ﴿دون﴾ هنا معناها (غير) كما فى الآية (١١٨) من سورة آل عمران صفحة ٨٢، والآية (١١٦) من سورة المائدة صفحتى ١٦٠، ١٦١.

﴿الضر﴾: بالضم هو كل ما يمس الشخص فى نفسه كالمرض والهزال، وبالفتح هو الضرر فى كل شىء.

﴿وذا الكفل﴾: قيل هو من أنبياء بنى إسرائيل. وقيل هو صالح، انظر كلاما كثيرا فى تفسير ابن كثير.

﴿ذا النون﴾: النون اسم للحوت وجمعه نينان كدود وديدان، وذا النون أى صاحب. الحوت، وهو نبى الله يونس بن متى؛ وكان رسول الله لأهل (نينَوى) بكسر أوله، وسكون ثانيه، وفتح ثالثه ورابعه. وهى من قرى الموصل بالعراق،

﴿مغاضبا﴾: أى غاضبا من قومه لعدم إيمانهم.

﴿لن نقدر عليه﴾: أى لن نضيق عليه الأمر بل نبيح له تركهم، انظر قوله تعالى:

﴿فقدر عليه﴾.. إلخ الآية (١٦) من سورة الفجر صفحة ٨٠٧.

المعنى: لتحفظكم من ضرر حرب عدوكم، ثم قلنا لهم فهل أنتم شاكرون؟ والمراد أمرناهم بالشكر وسخرنا لسليمان الريح حال كونها قوية فى ذاتها فجعلناها تجرى حسب رغبته هينة

(١) شاكرون. (٢) ولسليمان. (٣) باركنا.
(٤) عالمين. (٥) الشياطين. (٦) حافظين.
(٧) الراحمين. (٨) وآتيناه. (٩) للعابدين.
(١٠) وإسماعيل . (١١) الصابرين. (١٢) وادخلناهم.
(١٣) الصالحين. (١٤) مغاضبا. (١٥) الظلمات.
(١٦) سبحانك. (١٧) الظالمين.

لينة إلى الأرض التى اخترنا له الإقامة فيها لكثرة خيراتها، انظر الآية (٣٦) من سورة ص صفحة ٦٠١، وكنا بكل شىء عالمين، فلا تجرى الأشياء إلا على ما تقتضيه حكمتنا، وسخرنا لسليمان أيضا بعض الشياطين يستخرجون له من خيرات البحار ونفائسها، ويعملون له عملا غير ذلك كبناء الحصون والقصور، وكنا حافظين ومراقبين لأعمال هؤلاء الشياطين فلا ينال أحدا منهم سوء، ولا يتمردون على سليمان، وسيأتى بقية الموضوع فى الآية (٣٦) من سورة ص صفحة ٦٠١.

وأنقذنا أيوب حين نادى ربه وقد نهكه المرض ومات جميع أولاده، وقال فى ندائه مستشفعا برحمته تعالى التى وسعت كل شىء كما فى الآية (١٥٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٧: يارب إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين، واستحى من أن يذكر مطلوبه صراحة؛ لذا مدحه سبحانه وتعالى فى الاية (٤٤) من سورة ص صفحة ٦٠٢ بأنه نعم العبد الصابر. فأجاب الله تعالى ضراعته بأن كشف عنه غمة مرضه، ورزقه أولادا بعدد من مات منهم، وزاد عليهم مثلهم رحمة منه سبحانه بعبده الصابر وعبرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر، ويتأدبوا كما تأدب فينالوا ما نال، وأكرمنا إسماعيل نبى الله بن إبراهيم، ونبى الله إدريس حفيد نوح، وذا الكفل، كل هؤلاء من الصابرين على شدائد التكاليف، وأدخلناهم نعيم رحمتنا وهى الجنة، انظر الآية (١٠٧) من سورة آل عمران صفحة ٨٠ لأنهم من عداد الصالحين الكاملين. ونجينا ذا النون حين هجر قومه الذين أرسل إليهم، وكانوا نحو مائة ألف فى بلد من بلاد الموصل بالعراق غضبا من عنادهم وتصميمهم على الكفر ظانا أن الله تعالى يبيح له هذا الفرار، وكان ظنه خطأ، فعاقبه الله تعالى بأن طرحه فى البحر، فالتقمه الحوت، انظر الآيات من (١٣٩ إلى ١٤٨) من سورة الصافات صفحة ٥٩٥. فنادى فى ظلمات بطن الحوت والماء والليل قائلا: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين﴾ أى لنفسى بعمل ما لا يرضيك يارب.

المفردات: ﴿لا تذرنى﴾: لا تتركنى.

﴿فردا﴾: أى بلا ولد يرثنى، انظر الآيات من (٣٨ إلى ٤١) من سورة آل عمران صفحة ٦٩.

فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾

﴿وأصلحنا له زوجه﴾: جعلناها صالحة للولادة بعد أن كانت عاقرا كما فى الآية (٥) من سورة مريم صفحة ٣٩٦.

﴿رغبا ورهبا﴾: أى رغبة فى رحمتنا وخوفا من عذابنا، انظر الآية (٩) من سورة الزمر صفحة ٦٠٧.

﴿والتى أحصنت فرجها﴾: هى السيدة مريم ابنة عمران، والمراد حفظته فصارت عفيفة، انظر معانى الإحصان فى الآية (٢٤) من سورة النساء صفحة ١٠٣.

﴿ونفخنا فيها من روحنا﴾: النفخ فيها كناية عن وضع سر من أسراره تعالى فى بطنها،انظر الآية (٢٩) من سورة الحجر صفحة ٣٤٠، والآية (٨٥) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦.

---

(١) ونجيناه.
(٢) ننجى.
(٣) الوارثين.
(٤) يسارعون.
(٥) الخيرات.
(٦) خاشعين.
(٧) وجعلناها.
(٨) آية.
(٩) للعالمين.
(١٠) واحدة .
(١١) راجعون.
(١٢) الصالحات.
(١٣) كاتبون.
(١٤) وحرام.
(١٥) أهلكناها.

﴿وابنها﴾: هو عيسى عليه السلام.

﴿آية للعالمين﴾: أى جعلنا حالتهما دليلا للعالمين على كمال قدرتنا.

﴿هذه أمتكم﴾: أصل الأمة الجماعة المتفقون على دين، ثم أطلق على الدين نفسه وهو المراد هنا، انظر الآية (٢٣) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٩ والخطاب هنا لجميع المكلفين. والمراد: هذه الشريعة هى شريعتكم.

﴿أمة واحدة﴾: أى حال كونها دينا واحدا عند جميع رسل الله والمراد بالدين هنا هو أصول الإسلام، انظر الآية (١٣) من سورة الشورى صفحتى ٦٣٩، ٦٤٠.

﴿وتقطعوا أمرهم بينهم﴾: أى تفرقوا جاعلين أمر دينهم فيما بينهم قطعا متباينة حسب شهوات كل منهم بما سولت له نفسه مع أن دين الله عند جميع الرسل واحد فى أصوله، انظر الآية (٥٣) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٠، والآية (٣٢) من سورة الروم صفحتى ٥٣٤، ٥٣٥؛ ثم أنظر الآية (١٣) من سورة الشورى صفحتى ٦٣٩، ٦٤٠.

﴿فلا كفران لسعيه﴾: أى لا نكران لثواب سعيه.

﴿وحرام على قرية﴾.. إلخ: أى ممتنع عدم بعثها يوم القيامة، وهذا رد على أمنيتهم عدم البعث.

﴿يأجوج ومأجوج﴾: تقدم الكلام على أصلهما فى الآية (٩٤) من سورة الكهف صفحة ٣٩٣ وقوله تعالى ﴿فتحت يأجوج ومأجوج﴾: نسبة الفتح ليأجوج على تقدير مضاف مفهوم من السياق، والأصل فتحت طريق يأجوج إلخ، تقول العرب: بنى الأمير المدينة،. يريدون بنى عمال الأمير، ومنه فى القرآن: ﴿وأسأل "القرية﴾.. إلخ الآية (٨٢) من سورة يوسف صفحة ٣١٥ أى اسأل أهل القرية.

﴿حدب﴾: أصل الحدب هو ارتفاع الظهر. ثم أطلقه العرب على كل مرتفع من الأرض.

﴿ينسلون﴾: تقول العرب نَسَل الذئب بفتح النون والسين نسلانا إذا قارب الخطو وأسرع فى مشيته.

والمراد يسرعون النزول من الآكام والمرتفعات. قال ابن عباس: هذه صفتهم حال خروجهم.

المعنى: فأجبنا دعاء ذى النون أى يونس، ونجيناه من الغم الذى كان فيه. وكما أنجيناه لما عرف ذنبه ورجع إلينا ننجى كل مؤمن يقر بذنبه ويلجأ إلينا.

وأكرمنا زكريا حين نادى ربه وهو فى محراب مريم كما فى آيتى (٣٨، ٣٩) من سورة آل عمران صفحة ٦٩ بالنداء المبيَّن فى أول سورة مريم، و منه قوله يا رب لا تتركنى بدون وارث وأنت يا رب خير من يبقى بعد كل من يموتون، يشير إلى الثناء عليه سبحانه بدوام البقاء وإلى فناء كل ما سواه. ووهبنا له يحيى وصيَّرنا امرأته التى كانت عاقرا لا تلد صالحة للولادة. وأكرمنا كل هؤلاء الأنبياء المذكورين لأنهم كانوا مداومين على المبادرة إلى كل خير، ويدعوننا رغبة فى رحمتنا وخوفا من عذابنا، وكانوا لا يخشعون إلا لنا. وقد تقدم معنى الخشية فى الآية (٢٨) من هذه السورة صفحة ٤٢٣. ومن عبادنا الذين اصطفيناهم مريم التى حافظت على عفافها فوضعنا فى جوفها سرا من أسرارنا كان به عيسى بدون أب. وجعلنا ذلك برهانا للعالمين على تمام قدرتنا عل كل ما نريده. ثم أراد سبحانه أن يحث الناس على ملة الإسلام التى هى دين جميع الرسل كما فى الآية (١٩) من سورة آل عمران صفحة ٦٥ فقال مخاطبا جميع الناس: وإن هذه الملة التى هى الإسلام هى ملتكم الصحيحة التى يجب أن تحافظوا عليها حال كونها ملة واحدة عند جميع الرسل، وأنا ربكم واحد فلا تعبدوا غيرى، ومع هذا لم ينتفع بهذا الإرشاد إلا قليل، والأكثر جعلوا أمر دينهم بينهم قطعا، أى فتفرقوا فى الدين الداعى إلى الوحدة كل حزب بما لديهم فرحون، انظر الآية (٥٣) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٠. وكل فرقة سترجع فى الآخرة إلينا ونوفيها جزاءها. ثم فصل ذلك فقال: فمن يعمل بعض الأعمال الصالحات وهو مؤمن فلا نمنع عنه ثواب سعيه وإنا لعمله كاتبون وحافظون فلا نضيع عليه منه شيئا. وممتنع على أهل كل قرية أهلكناها بسبب ظلمها أنها لا ترجع إلينا يوم القيامة، أى فلابد من البعث والجزاء، ولا نكتفى بعذابها فى الدنيا، وسيبقى أهل الدنيا على

حالهم حتى يفتح باب الشر بانطلاق عوامل الفوضى ويعم الفساد، والقائمون بهذه الفوضى يسرعون من كل مرتفع من جبال أو طرق، حيث انحدرت جيوش التتار بقيادة (چنكيز خان) من الشمال الشرقى لآسيا وليس من سد (ذى القرنين) (الحديدى) ولا من سد (باب الأبواب) المتقدم الكلام عليهما عند الآية (٩٣) من سورة الكهف صفحة ٣٩٣ لأن هذين السدين باقيان إلى اليوم. وسيبقى سد (ذى القرنين) إلى أن يدك مع الأرض والجبال يوم القيامة كما تقدم.

ولما عبر (چنكيز خان) بجيوشه التى تفوق الحصر نهر (سيحون) كان أول هجومه على (بخارى) فى ٤ ذى الحجة سنة ٦١٦ هجرية ثم اتجهوا إلى (سمرقند) فدخولها فى محرم سنة ٦١٧ هجرية وأفنوا كل ما يلاقيهم من جيوش، ونهبوا كل ما يريدون فدب الرعب منهم فى قلوب جميع الخلائق فى تلك المناطق واستولى عليهم الفزع فلم يقو على الوقوف فى طريقهم أحد لشدة توحشهم، وما علم عنهم من التنكيل الشديد بكل من يقف فى طريقهم، ثم عبروا نهر (جيحون) ودخلوا مدينة (نيسابور)، ثم اتجهوا نحو (الرِّى) ونهبوها، ثم دخلوا (همذان) ثم (قزوين) وقتلوا من أهلها نحو ٤٠ ألفا، ثم توجهوا نحو (أذربيجان)، ثم (تبريز) وفى سنة ٦١٨ هجرية دخلوا مدينة مراغة، فقتلوا أكثر أهلها، ونهبوا كل ما يصلح للنهب، وهكذا صاروا يستولون على تلك البلاد شيئا فشيئا بدون مشقة حتى حكموا كل البلاد الفارسية، ولما توفى (چنكيز خان) سنة ٦٢٤ هجرية كانت بغداد لا زالت مقر الخلافة العباسية بعيدة عن الخطر، ولما تولى الخلافة (المستعصم بالله) سنة ٦٤٠ هجرية دخل (هولاكو) حفيد (چنكيز خان) بغداد بجيش جرار فقتل (المستعصم)، وبموته مات آخر خليفة عباسى، وأتلف هولاكو كل ما فى بغداد من دور الكتب والقصور، وقذف بأنفس الكتب الإسلامية فى نهر دجلة، وكانت تلك أفظع خسارة علمية، وبعد مدة وجه (هولاكو) جيوشه إلى الشام ليقفز منها إلى مصر وغيرها، فأرسل حاكم مصر فى ذلك الحين السلطان (قطز) جيشا تحت قيادة (الظاهر بيبرس) الذى تولى سلطنة مصر بعد (قطز) فهزم جيوش التتار هزيمة منكرة فى المكان المسمى (عين جالوت)، ووقى الله أهل مصر والشام شر هؤلاء الغزاة.

وبعد هذه الموقعة ذهبت هيبة جيوش التتار، وانكسرت شركتهم، وهذا الجيش المخرب هو يأجوج ومأجوج المذكور هنا فى الآية وقد تبين بطلان الرأى القائل إن ذلك سيحصل عند قيام الساعة، ويؤيد ما قلنا الحديث الصحيح الذى رواه الإمام أحمد بن حنبل وأخرجه البخارى وقال ﷺ (ليُحَجَّن هذا البيت وليُعْتَمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج) اللام فيهما للقسم والمعنى: والله ليحج الناس ويعتمرون بعد خروج يأجوج ومأجوج، وهذا هو الحاصل الآن، وقد جاء فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى ما يفيد أن النبى ﷺ أطلق (يأجوج ومأجوج) على كل مَنْ لم يؤمن بالله ورسله وأنهم يبلغون من الكثرة حدا يجعل نسبة المؤمن إليهم كنسبة واحد إلى ألف، وقال ابن كثير فى تعليقه على هذا الحديث أنه يدل على كثرة يأجوج ومأجوج، بعدما أورد ابن كثير فى كتابه النهاية فى التاريخ الجزء الثانى صفحة ١٠٩ طبع المنار حديث زينب زوج النبى ﷺ الذى رواه البخارى ومسلم من أنه ﷺ استيقظ من النوم جزعا فلما سئل قال: ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلَّق بأصابعه حلقة صغيرة. قال ابن كثير إن هذه إشارة منه ﷺ إلى فتح أبواب الشر والفتن، فهو استعارة وضرب من المثل.

وقد فتحت الفتن على المسلمين بمقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولم يغلق بابها إلى اليوم، وفتح بابها الأكبر بغارة التتار هذه ومعنى هذا أنه ﷺ لا يريد بما فتح سد ذى القرنين الذى لن يدك إلا يوم القيامة مع الجبال والأرض، انظر الآية (٩٨) من سورة الكهف صفحة ٣٩٤ والله أعلم.

المفردات: ﴿واقترب﴾: أى قرب جـداً. انظر ﴿اقتربت الساعة﴾ الآية (١) من سورة القمر صفحة ٧٠٤.

﴿الوعد﴾: المراد بالوعد هنا الشىء الموعود به وهو هنا يوم القيامة.

﴿فإذا هى﴾: (إذا) كلمة تدل على حصول ما بعدها عقب حصول الموعود به المفهوم مما قبلها بسرعة. والفاء تؤكد هذا الربط. (هى) كلمة تدل على حالة مبهمة تفسرها الجملة

وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾

المذكورة بعدها. وحكمة هذا الاستعمال أن الضمير (هى) لا يفهم منه أول الأمر إلا شىء مبهم له خطره.

فلذا يترقب السامع بيانه. فإذا ما جاء هذا البيان بعد ذلك يتمكن فى ذهنه أقوى تمكن.

﴿شاخصة﴾: خبر مقدم و﴿أبصارهم﴾: مبتدأ مؤخر. فكأنه قيل: هذا الشىء الخطير هو أن أبصار الكافرين تكون شاخصة عند هذا الهول. ومعنى شاخصة مرتفعة الأجفان. لا تغمض أبدًا من شدة الكرب. انظر الآية (٤٢) من سورة إبراهيم صفحة (٣٣٦).

﴿ياويلنا﴾: تركيب يقوله المتحسر النادم. والويل هو الهلاك.

﴿بل كنا ظالمين﴾: بل حرف يدل على الإعراض عما قبله. والاعتراف بما يذكر بعده، والمراد أن الأدلة كانت قائمة أمامنا دائما، وكنا نتغافل عنها، فلم نكن فى غفلة أبدًا بل داومنا على ظلم أنفسنا بهذا التغافل.

---

(١) شاخصة.
(٢) أبصار.
(٣) يا ويلنا.
(٤) ظالمين.
(٥) واردون.
(٦) آلهة.
(٧) خالدون.
(٨) وتتلقاهم.
(٩) الملائكة.
(١٠) فاعلين.
(١١) الصالحون.

﴿وما تعبدون من دون الله﴾: أى من الأصنام وجنود الكفر، كالأحبار فى الآية (٣١) من سورة التوبة صفحة ٢٤٥؛ وفرعون فى الآية (٣٨) من سورة القصص صفحة ٥١٢؛ والشيطان فى الآية (٤٤) من سورة مريم صفحة ٤٠٠ والآية (٦٠) من سورة يس صفحة ٥٨٤.

﴿حَصَب﴾: كلمة مأخوذة من الحَصْب بفتح فسكون، وهو الرّمى. والمراد به هنا ما يرمى به فى النار كالحطب.

﴿لها واردون﴾: اللام فى (لها) بمعنى (على) أى عليها.

﴿لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها﴾: لما كانت هذه القضية جاءت على الأسلوب الذى يقول عنه علماء المنطق: إنه دليل شرطىّ، أو استثنائى فله عندهم اسمان. وهو المؤلف من قضيتين يلزم عقلا من إبطال ثانيتهما إبطال الأولى.. كما تقول فى الرد على مَنْ يدعى أن الشمس طالعة: لو كانت الشمس طالعة لما كان الجو مظلما، ولما ظهرت النجوم لامعة، ولكن الثابت المشاهد الآن هو أن الجو مظلم، والنجوم ظاهرة، فثبت أن الشمس ليست طالعة، ولما كانت القضية الثانية فى الآية وهى قوله تعالى ﴿ماوردوها﴾ قد يخفى دليل إبطالها على الكثير، وأغفل الكلام عن ذلك جل المفسرين، ومن تنبه لذلك كالفخر الرازى لم يوضحها بما يقضى على الشبهات، نقول لما كان كل هذا رأينا أن نتبسط فى بيان هذا الدليل حتى يتيسر فهمه لمن لم يمارسوه فنقول جرت سنة القرآن أنه يستغنى عن ذكر بعض أجزاء الكلام كجواب (لو) مثلا لأنه مذكور فى موضع آخر من القرآن نفسه، انظر نظير ذلك فى شرح الآية (٣١) من سورة الرعد صفحة ٣٢٦؛ كما جرت سنته أيضا أنه بعدما يشدد فى لفت الأنظار إلى التأمل فى الأدلة بصحة الأصول التى يجب اعتقادها، ويكرر هذه الأدلة مرارا على وجوه مختلفة حتى لا يدع لأحد عذرا فى الغفلة عنها، نقول بعد كل ذلك يرتب على هذه الأدلة آثارها، على اعتبار أن ما أثبته حاصل محقق لا يقبل جدلا، ولا ادعاء غفلة من متغافل، ونظير هذا الدليل الاستثنائى فى القرآن قوله تعالى فى الآية (٢٢) من هذه السورة (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) والمعنى.. ولكنهما لم يفسدا فيتعين أنه ليس فيهما إلا إله واحد؛ وسنعرض لبعض من نظير ذلك فيما يلى:

منها: أنه أقام سبحانه الأدلة القاطعة بصور متعددة كما سبق على وجوب إفراده سبحانه بالعبادة، وإبطال عبادة غيره، بإثبات أنها مخلوقة له سبحانه مثل عابديها، وأنها عاجزة لا تنفع ولا تضر، وأن عابديها ينسونها عند الشدة، ولا يذكرون إلا الله وحده؛ انظر آيتى (٤٠، ٤١) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨، والآيات من (١٩٠ إلى ١٩٨) من سورة الأعراف صفحتى٢٢٤، ٢٢٥، والآية (٢٢) من سورة يونس صفحة ٢٦٩، والآيات (١٤، ١٥، ١٦) من سورة الرعد صفحة ٣٢٣، والآيات (١٧، ٢٠، ٢١) من سورة النحل صفحة ٣٤٧، والآيات من (٧٣ إلى ٧٦) من سورة النحل صفحتى ٣٥٥، ٣٥٦، وآيتى (٦٦، ٦٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٣، والآية (٧٣) من سورة الحج صفحة ٤٤٤، والآيات من (٧٠ إلى ٧٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٤، والآيات من (٧٧ إلى ٨٢) من سورة الشعراء أيضا صفحة ٤٨٥، والآية (٤١) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٦، والآية (٦٥) من سورة العنكبوت أيضا صفحتى ٥٢٩، ٥٣٠، وآيتى (٤، ٥) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٦.

ومنها: أنه سبحانه نبه عقول المشركين للتأمل فى هذا الكون العظيم ليصلوا من ذلك إلى أن هذا العالم المتقن الصنع وما حواه من أسرار لا يقدر على إيجاده إلا إله واحد لا يعجزه شىء يريده، انظر الآية (١٨٥) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٣، والآيات من (٣٠ إلى ٣٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٣.

ومنها: أنه سبحانه ألجأهم إلى الاعتراف بأنه وحده هو الذى أغدق عليهم ما هم فيه من النعم، ولا دخل لمعبوداتهم فى ذلك، انظر الآيات (٣١، ٣٤، ٣٥) من سورة يونس صفحتى ٢٧١، ٢٧٢، والآيات من (٣٢إلى ٣٤) من سورة إبراهيم صفحتى ٣٣٤، ٣٣٥، والآيات من (٥ إلى ١٨) من سورة النحل صفحات ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، والآيات من (٨٠ إلى ٨٣) من سورة النحل صفحتى ٣٥٦، ٣٥٧، والآيات من (٦٠ إلى ٦٤) من سورة النمل صفحتى ٥٠١، ٥٠٢، والايات من (٦١ إلى ٦٣) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٩، والآية (٢٧) من سورة السجدة صفحة ٥٤٨.

ومنها: أنه سبحانه أمرهم بالسير فى الأرض، والتأمل فى عاقبة من كذبوا رسلهم ليقلعوا عن تكذيب رسولهم، حتى لا يحل بهم ما حل بمن قبلهم من العذاب، انظر الآية (٦) من سورة

الأنعام صفحة ١٦٢، ١٦٣، والآية (١٨٥) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٣، والآية (٧٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣، والآية (١٣) من سورة يونس صفحة ٢٦٧، وآيتى (٨٢، ٨٣) من سورة هود صفحة ٢٩٦، والآيات من (١٠٠ إلى ١٠٣) من سورة هود صفحة ٢٩٩، والآية (٤٥) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٦، والآيات من (٦٦ إلى ٧٧) من سورة الحجر صفحتى ٣٤٢، ٣٤٣، والآية (٣٦) من سورة النحل صفحة ٣٥٠، والآية (٤٠) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٥، والآيات من (٦٧ إلى ٦٩) من سورة النمل صفحتى ٥٠٢، ٥٠٣، والآية (٣٨) من سورة العنكبوت صفحتى ٥٢٥، ٥٢٦، والآية (٢٦) من سورة السجدة صفحتى ٥٤٧، ٥٤٨.

ومنها: أنه سبحانه طوقهم بأدلة لَوَتْ أعناقهم إلى الالتفات إلى التأمل فى حال الرسول ﷺ، وفيما يقوله عن ربه حينما يتحدث عما سيقع فى أسلوب أنه واقع فعلا ليملأ قلوبهم خشية، وخوفا، من أمر واقع لا محالة. فمن ذلك: ﴿قالوا لا علم لنا﴾، والأصل ﴿يقولون﴾ انظر الآية (١٠٩) من سورة المائدة صفحة ١٥٩، و(أتى أمر الله) أى أن يوم القيامة الذى قلت أنه سيحصل لابد من حصوله حتى كأنه حاصل من الآن، انظر الآية (١) من سورة النحل صفحة ٣٤٥، ويعرض سبحانه ما سيلاقيه المجرمون فى جهنم بصيغة الفعل الماضى حتى كأنه وقع وصح التحدث عنه، انظر الآيات من (٥٠ إلى ٦٥) من سورة الصافات صفحتى ٥٩٠، ٥٩١، والآية (١٩) من سورة الزمر صفحة ٦٠٨؛ ويقارن سبحانه بين ما سيلاقيه الكافرون والمؤمنون فى أسلوب الأمر الواقع فعلا، انظر آيتى (٧١، ٧٣) من سورة الزمر صفحة ٩١٦.

ومنها أنه سبحانه يثبت لهؤلاء الكفار صدق رسله فى كل ما أخبروا به، ولو كان غيبا لا يعلمه إلا الله، لأن الأيام أظهرت صدقهم، فيجب أن يصدق هؤلاء رسولهم إذا قال لهم إن الله يأمركم أن لا تعبدوا إلا إياه، انظر الآية (٩٤) من سورة التوبة صفحة ٢٥٧، والآيات من (٤٤ إلى ٤٦) من سورة القصص صفحة ٥١٣، والآيات من (٣ إلى ٥) من سورة الروم صفحتى ٥٣٠، ٥٣١، والآيات (١١، ١٥، ٢٧) من سورة الفتح صفحات ٦٧٩، ٦٨٠، ٦٨٣.

ومنها أنه سبحانه نبههم إلى أنه إذا وعد بشىء فهو صادق الوعد، لا يعجزه شىء عن تنفيذ ما يريد، فيجب أن يحذر هؤلاء الكفار ما هددهم به إذا لم يقلعوا عن الشرك، انظر بعض ذلك فى الآية ٥ من سورة الأنعام صفحة ١٦٢، والآيات من (٦٤ إلى ٦٧) من سورة هود صفحة

٢٩٤، وآيتى (٨١، ٨٢) من سورة هود أيضا صفحة ٢٩٦، والاية (٤٧) من سورة إبراهيم صفحتى ٣٣٦، ٣٣٧ وآيتى (٤٥، ٤٦) من سورة طه صفحة ٤٠٩ مع الآية (٤٠) من سورة القصص صفحة ٥١٢، وآيتى (١٤، ١٥) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٠، والآية (٧) من سورة القصص صفحتى ٥٠٦، ٥٠٧، وآيتى (٣٣، ٣٥) من سورة القصص صفحتى ٥١١، ٥١٢، والآية (٣٣) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٥، والآيات من (٣ إلى ٦) من سورة الروم صفحتى ٥٣٠، ٥٣١، وما أخبر به ووقع كما فى الآية (١٢) من سورة آل عمران صفحة ٦٤، والآيات من (٤٣ إلى ٤٥) من سورة القمر ٧٠٧.

ثم بعد كل هذا تحداهم بما أعجزهم بأن طلب منهم إن كانوا على حق أن يأتوا بسورة مثل سور القرآن، وأخبرهم بأسلوب قاطع باستحالة أن يأتوا بمثله، وهذا لو كان مستطاعا لهم أهون من امتشاق الحسام والدخول فى قتال توالت معه هزائمهم حتى دك آخر حصن من حصونهم، وانتصر الرسول والمؤمنون، انظر آيتى (٢٣، ٢٤) من سورة البقرة صفحة ٦.

ثم فضحهم وكشف عن دخيلة نفوسهم. فقرر أنهم موقنون كأمثالهم من الكفار السابقين بأن جميع رسل الله على حق، وأنهم صادقون فيما يقولونه عن ربهم، ولكنهم مع كل هذا يكذبون ظاهرا فقط، انظر الآية (٤٢) من سورة البقرة صفحة ٩، والآية (٨٩) من سورة البقرة صفحة ١٧، والآية (١٤٦) من سورة البقرة أيضا صفحة ٢٨، والآية (٣٣) من سورة الأنعام صفحة ١٦٧، والآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥.

ثم أخيرا سجل عليهم أنهم يعرضون عن قصد عنادا واستكبارا، انظر الآية (٧) من سورة الأنعام صفحة ١٦٣، والآية (٢٥) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٥، ١٦٦، والآية (١١١) من سورة الأنعام أيضًا صفحة ١٨١، وآيتى (١٤، ١٥) من سورة الحجر صفحتى ٣٣٨، ٣٣٩.

هذا وإنما أطلنا فى هذا الموضوع لما تقدم، ولأنا رأيناها فرصة لعرض صورة واضحة يتجلى بها معنى قوله تعالى: ﴿ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا﴾ الآية (٨٩) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦. وقوله: ﴿ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شىء جدلا﴾ الآية (٥٤) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨

وقوله: ﴿وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا﴾ الآية (١١٣) من سورة طه صفحة ٤١٧؛ ومعنى تصريف الآيات تنويعها على وجوه شتى، وصور مختلفة، ليغلق سبيل الأعذار الكاذبة فى وجوه المكابرين.

﴿زفير﴾: هو النفس الخارج من الجوف بقوة من شدة الكرب، تقدم فى الآية (١٠٦) من سورة هود صفحة ٣٠٠.

﴿لا يسمعون﴾: أى ما يسرهم، فلا ينافى أنهم يسمعون ما لا يسر، أنظر الآية (٤٤) من سورة الأعراف صفحة ١٩٩ والآية (٥٠) من سورة الأعراف أيضا صفحة ٢٠٠، والآيات من (٢٧ إلى ٣٣) من سورة الصافات صفحتى ٥٨٨، ٥٨٩، وآيتى (٧١، ٧٢) من سورة الزمر صفحة ٦١٦، والآيات من (٤٧ إلى ٥٠) من سورة غافر صفحة ٦٢٤.

﴿الحسنى﴾: مؤنث الأحسن. والمراد المثوبة الأكثر حسنا على ماقدموا من الصالحات.

﴿حسيسها﴾: أصل الحسيس هو الصوت الخفيف. والمراد هنا صوت فوران جهنم المذكور فى الآية (٧) من سورة الملك صفحة ٧٥٥. وقال ابن كثير (حسيسها) هو صوت لهبها عند اضطرابه.

﴿الفزع الأكبر﴾: هو الهلع والذعر الذى يعترى الخلائق بعد النفخة الثانية التى يبعثون بعدها أحياء من القبور، انظر آيتى (٥١، ٥٢) من سورة يس صفحتى ٥٨٣، ٥٨٤، والآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥، وهو يحصل لجميع الخلائق من عهد آدم إلى قيام الساعة.

﴿السجل﴾: هو ما يكتب فيه كالقرطاس.

﴿للكتب﴾: جمع كتاب، والمراد بها هنا المكتوب فى السجل، انظر معانى (الكتاب) التى جاءت فى القرآن فى شرح الآية (٢) من سورة الجمعة صفحة ٧٤١، والآية (٧) من سورة المطففين صفحة ٧٩٧؛ واللام فى (للكتب) بمعنى على كما فى قوله تعالى (لها عاكفون) الآية (٥٢) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٦ وقوله (وتله للجبين) الآية (١٠٣) من سورة الصافات صفحة ٥٩٣.

﴿الزبور﴾: هو كتاب نبى الله داود.

﴿الذكر﴾: المراد به هنا التوراة، انظر الآية (٤٨) من هذه السورة صفحة ٤٢٥.

﴿أن الأرض﴾: إن كان المراد بالأرض هنا أرض الدنيا يكون المراد بالصالحين بعدها هم الصالحون لعمارتها، لأن البقاء للأصلح، والله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملا. وإن كان المراد أرض الجنة فالأمر ظاهر، انظر الآية (٧٤) من سورة الزمر صفحتى ٦١٦، ٦١٧.

المعنى: وقرب جدا عند ذلك يوم القيامة الذى وعد الله سبحانه به، ووعده حق لا يتخلف. وإذا حصل هذا الوعد يفاجأ الذين كفروا بشخوص أبصارهم من شدة الفزع حال كونهم قائلين تحسرا: يا هلاكنا، قد كنا فى غفلة من هذا اليوم، لا بل الحق أنا كنا ظالمين لأنفسنا بعدم الإصغاء لقول الرسول، وإهمال النظر فى الأدلة التى عرضها علينا ثم وجه سبحانه الخطاب لهؤلاء المشركين وأمثالهم مهددا لهم بالمصير المحتوم فقال: إنكم أنتم وكل ما تعبدونهم من دون الله من الأصنام وإبليس وجنوده، وقود جهنم، انظر الآية (٢٤) من سورة البقرة صفحة ٦. وجميعكم واردون عليها قطعا، وإدخال الأصنام معهم فى جهنم مع إنها حجارة لا تتألم، يراد به النكاية بهم، وتوبيخهم على عبادتها، ولدوام حسرتهم كلما شاهدوها معهم فى مكان الإهانة،وقد كانوا يرجون منها الإنقاذ، ثم أراد سبحانه أن يقرع أسماعهم بما يبطل عبادتهم لغيره، فقال: لو كان هؤلاء إلخ.. أى لو كان هؤلاء آلهة كما زعمتم لما دخلوا جهنم، وحيث قد تبين لكم على أتم وجه أى من الأدلة التى جاءت على صور مختلفة وهى المتقدم الإشارة إليها هنا، أنهم سيدخلونها قطعا، حتى بلغ من ثبوت ذلك وظهوره أنه صح أن يخبر عنه الصادق أنهم دخلوها فعلا من الآن. حيث تبين ذلك امتنع بالضرورة كونهم آلهة، لأن الإله الحق لا يقبل مختارا أن يحبس فى دار أعدت للإهانة، وحينئذ فكل من العابدين والمعبودين سيكونون فى جهنم خالدين.

ثم بيّن سبحانه بعض أحوالهم وهم فى جهنم فقال: لهم فيها زفير.. إلخ، أى لمن يعقل ويحس ممن دخلوا النار زفير من شدة العذاب، وهم فيها لا يسمعون شيئا يسرهم. ثم بعد ذلك أراد سبحانه أن يبين حال المؤمنين جميعا مع دفع شبهة العذاب عمن عبده الكافرون منهم وهم أبرياء من ذلك، كالمسيح، انظر الآية (١١٦) من سورة المائدة صفحتى ١٦٠، ١٦١ والعزير، انظر الآية (٣٠) من سورة التوبة صفحة ٢٤٥، والملائكة، انظر الآية (٢٦) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٣، وآيتى (١٧، ١٨) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢، والآية (٤٠) من سورة سبأ صفحة ٥٦٨. ولذلك

قال: إن الذين سبقت لهم منا.. إلخ. أى إن الذين سبق أننا قدرنا لهم فى الأزل المثوبة الأكثر حسنا لأنها أجر مضاعف على حسناتهم التى عملوها فى الدنيا، انظر الآية (٤٠) من سورة النساء صفحة ١٠٧، والآية (١٦٠) من سورة الأنعام صفحة ٩١. هؤلاء يبعدهم ربهم عن جهنم لا يزعجهم سماع غليانها، وهم فى نعيم الجنة الذى تشتهيه أنفسهم خالدون لا ينقطع عنهم لحظة، انظر الآية (٣٣) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤.

ومما منَّ الله به عليهم أنهم قبل موقف القيامة لا يزعجهم هول الهلع الذى يعترى غيرهم، وهذا لا يتفق مع القول بأن هول الفزع الأكبر يعم جميع الخلائق حتى الأنبياء، وقد أجاب عن ذلك الألوسى بقوله:

(إذ يعترى الأنبياء حتى ينسوا عصمتهم وسرعان ما ينجلى بعد الشفاعة العظمى وإعطاء كل كتابه، يعلم الذين سبقت لهم الحسنى أنهم فى أمان، ونظرا لقلة هذا الزمن المشحون بالهول اعتبر بالنسبة إليهم كأنه لم يكن.

وعند دخولهم الجنة تستقبلهم ملائكة الرحمة بالبشرى قائلين: هذا يوم ثوابكم الذى وعدكم به ربكم فى الدنيا، واذكر أيها النبى الهول العظيم لقومك محذرا، يوم نطوى السماء طيا قويا سريعا سهلا، كقوة وسرعة وسهولة طى الكاتب للقرطاس على ما كتب فيه، ثم بعد ذلك تمور السماء كما فى الآية (٩) من سورة الطور صفحة ٦٩٧، ثم تتبدل السماء بغيرها كما فى الآية (٤٨) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٧؛ ونعيد الخلائق للحساب كما بدأنا خلقهم أولاً، بل إعادتهم علينا أسهل، الآية (٢٧) من سورة الروم صفحة ٥٣٤، إنا وعدنا بذلك وعدا أوجبناه على أنفسنا، إن شأننا دائمًا أننا ننجز كل ما نعد به، ولا يعجزنا عن ذلك شىء والمراد تنبيههم ليستعدوا لهذا اليوم لصالح الأعمال، ثم أراد سبحانه أن يوقظ العقول لما حكم به فى الأزل من أسباب تؤدى إلى مسبباتها.

بيَّن سبحانه كثيرا منها فى كتب الأنبياء السابقين فقال: ولقد كتبنا.. إلخ، ولقد قضينا قضاء مبرما بيناه فى الكتب السابقة أن الأرض يستحق الاستيلاء عليها الصالحون من عبادنا على ما تقدم بيانه.

إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا⁽¹⁾ لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ⁽²⁾ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ⁽³⁾ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ⁽⁴⁾ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ⁽⁵⁾ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ⁽⁶⁾ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ⁽⁷⁾ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ⁽⁸⁾ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

(٢٢) سورة الحج مدنية
وآياتها ثمان وسبعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ

المفردات :: ﴿فى هذا﴾: أى ما ذكر فى السورة من القصص والمواعظ.

﴿لبلاغا﴾: أى كفاية فى الاعتبار.

﴿أنما إلهكم﴾: انظر ما قيل فى ﴿أنما﴾ بفتح الهمزة فى الآية (٢٤) من سورة ص صفحة ٦٠٠، وهو الاستسلام والخضوع لله تعالى.

﴿فهل أنتم﴾ : استفهام أريد به الحث على ما بعده.

﴿آذنتكم﴾ :: أى أعلمتكم ما أمرت بتبليغه لكم.

﴿على سواء﴾: أى مستوون كلكم فى الإعلام فلم أخص أحدا بشىء دون غيره ﴿وإن أدرى﴾: إنْ حرف نفى بمعنى لا.

المعنى:. إن فيما ذكر لكافية فى التذكر والاعتبار لقوم همهم عبادة الله ومعرفته لا الفتنة بزخارف الدنيا. وما أرسلناك أيها النبى إلا لتكون سبب رحمة لجميع العالم حتى الحيوانات، ومَنْ يعلم ما كان عليه العالم قبل بعثه ﷺ وما صار إليه بعدها يعلم كيف كان رحمة للعالمين، وأولها عدم الخسف والإفناء الكلى عند ارتكاب المعاصى كما كان فى الأمم السابقة، فقل لهم

(١) لبلاغا.
(٢) عابدين.
(٣) أرسلناك.
(٤) للعالمين.
(٥) واحد.
(٦) آذنتكم.
(٧) ومتاع.
(٨) قال.

أيها النبى إن أهم ما يوحيه إلىَّ ربى هو وحدانية إلهكم الذى يجب أن لا تعبدوا غيره، فاخضعوا له وأسلموا، فإن تولوا وأعرضوا عن الإسلام فقل لهم لإقامة الحجة قد أعلمتكم جميعا بما أمرنى ربى بتبليغه لكم، ولا أدرى هل ما توعدون به من العذاب والبعث للجزاء قريب أم بعيد؛ لأن الله تعالى لم يطلعنى عليه لكنه آت لا ريب فيه.

إنه سبحانه يعلم كل قول يصدر منكم مما تجهرون به من الطعن فى الرسول ودينه وما تكتمونه من الحقد على المسلمين والكيد لهم وسيجازيكم عليه.

ولا أدرى لعل تأخير العذاب عنكم مدة من الزمن فتنة لكم واستدراج لتزدادوا إثما كما فى الآية (١٧٨) من سورة آل عمران صفحة ٩٢، ولعله تمتيع لكم بزخارف الدنيا إلى أجل مقدر حسب حكمته تعالى ليزيدكم الترف طغيانا، ولتظهر حجة الله تعالى عليكم لأنه أحياكم مدة كافية فى تذكركم، انظر الآية (٣٧) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٦، ٥٧٧.

ثم حكى سبحانه ما تكلم به نبيه بعد أن بلغهم ما أوصى إليه فقال: قال رسولنا محمّد يارب احكم بينى وبين قومى أى افصل بينى وبينهم بالحق، أى بعدلك الذى لا يسوى بين المؤمن والكافر، والعادل والظالم، وربنا وربكم هو الرحمن بعباده المتقين المطلوب منه المعونة على كل ما تفترونه من الكذب عليه وعلى رسوله، انظر الآية (٦٢) من سورة النحل صفحة ٣٥٣.

﴿زلزلة الساعة﴾: الحركة الشديدة التى تزيل الأشياء من أماكنها؛ والمراد الزلزلة التى تحصل عند النفخة الثانية لأنها هى التى ينزعج عندها جميع الخلائق أما النفخة الأولى فلا يتأثر بها إلا الذين يكونون على وجه الأرض فقط، انظر الآية (١) من سورة الزلزلة صفحة ٨١٧.

﴿سورة الحج﴾

** انظر سبب هذه التسمية فى الآية (٢٧) الآتية صفحة ٤٣٧ يأيها الناس جميعا احذروا عقاب ربكم بأن تطيعوه، ولا تفعلوا ما نهاكم عنه، لأن الزلزلة التى ستحصل يوم القيامة خطر عظيم.

عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَٰرَىٰ[1] وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ[2] وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ[3] فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ[4] مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم[5] مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ

المفردات: ﴿تذهل﴾: الذهول الغفلة الناشئة عن شدة الكرب. ﴿مريد﴾: مأخوذ من المرود وهو العتو وبلوغ الغاية فى الفساد؛ تقول العرب: مرد بوزن نصر وكرم مرودا فهو مارد ومريد ومتمرد. ﴿كتب عليه﴾: أى قضى الله تعالى عليه.

﴿تولاه﴾: أى اتبعه والمراد يرشده ويوصله.

﴿ويهديه﴾: أى يدله ويسوقه إلى طريق العذاب.

﴿السعير﴾: هى النار المتوهجة.

﴿ريب﴾: شك. ﴿نطفة﴾: المراد بها الحيوان المنوى، انظر ما سيأتى فى صفحة ٤٤٦. ﴿علقة﴾: القطعة الجامدة من الدم.

﴿مضغة﴾: القطعة من اللحم بقدر ما يمضغ فى الفم.

﴿مخلقة﴾: تامة الخلقة.

﴿طفلا﴾: المراد حال كون كل واحد منكم طفلا والطفل هو الولد من حين ولادته حتى يبلغ الحلم.

﴿أشدكم﴾: كمال العقل والقوة. ﴿أرذل العمر﴾: أى أخسه وهو الهرم والخوف.

﴿لكيلا يعلم﴾: لئلا يعلم والمراد ليرد إلى الجهل.

﴿هامدة﴾: ساكنة يابسة. ﴿اهتزت﴾: أى اضطربت بتحرك عناصر النبات فى جوفها.

﴿وربت﴾: أى انتفخت وزادت.

المعنى: يوم ترون أيها الناس آثار تلك الزلزلة ترون هولاً شديدا بلغ من شدته أنه لو وجد فى ذلك الوقت امرأة ترضع طفلها لغفلت عما يحل به من الهلاك مع أنه لاصق بصدرها

(١) سكارى. (٢) بسكارى. (٣) يجادل. (٤) شيطان. (٥) خلقناكم.

وعزيز عليها، ولو كانت هناك حامل لسقط جنينها من شدة الفزع. وتظن أيها الناظر للناس فى ذلك اليوم أنهم سكارى بنحو خمر، والحقيقة أن ما هم فيه من الاختلال ليس نتيجة مسكر، ولكنه نتيجة شدة عذاب الله الذى أخافهم حتى طيّر عقولهم.

ثم بيّن سبحانه أن بعض الناس بعد هذا التحذير الشديد مقلد جاهل يدفعه العناد إلى المجادلة فيما يليق به تعالى وما لا يليق مع جهله بهما، فينكر قدرته على البعث، ويزعم أن الأصنام تشفع له عند الله، انظر الآية (١٢) ومابعدها، ويزعم أنه تعالى لم يرسل محمدًا إليهم، انظر الآية (٤٢) من هذه السورة صفحة ٤٣٩، وينكر أن الله تعالى يعذبهم كما يقول محمد ﷺ، انظر الآية (٤٧) من هذه السورة صفحة ٤٤٠؛ هذا الفريق من الناس يتبع فى سلوكه هذا كل شيطان من الجن والإنس شديد الفساد، قضى الله على هذا الشيطان أنه مَنْ يتبعه يضله ويقوده إلى النار المستعرة، وإضلاله له وقيادته إلى ما يوصله للعذاب محتم، وإنما كان عليه لأن عذابه يزيد بمقدار مَنْ يضلهم، انظر الآية (٢٥) من سورة النحل صفحة ٣٤٨، والآية (١٣) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٢.

وبعد ما بيَّن سبحانه أنهم يجادلون بجهل أراد أن يقيم الدليل على قدرته على البعث بدليلين: الأول فى أنفسهم، والثانى فى الأرض والنبات، فقال: يأيها الناس إن كنتم فى شك من قدرتنا على البعث فيزيل شككم أن تنظروا كيف بدأنا خلقكم من تراب، ثم جعلنا منه نطفة، ثم جعلناه علقة، ثم مضغة، ثم جعلنا بإرادتنا بعض هذه المضغة طفلا كامل الخلقة، وبعضها ناقص لنبين لكم بهذا التدرج البديع الذى عرفه العلماء جليل حكمتنا وعظيم قدرتنا؛ ثم بعد ذلك نقر فى الأرحام من الأجنة مانشاء إقراره إلى وقت ولادته، ثم نخرج كل واحد منكم من الرحم حال كونه طفلا لاحول له ولا قوة، ثم نربيكم لتبلغوا أشدكم، ثم بعد ذلك منكم مَنْ يتوفى قبل الهرم، ومنكم مَنْ يرد فى شيخوخته إلى مثل حال الطفولة ليصير جاهلا بكل شىء كان يعلمه، وهذا هو أرذل العمر الذى يجعل صاحبه عديم النفع.

ثم أشار سبحانه إلى الدليل الثانى بقوله: وترى أيها المتأمل الأرض ميتة هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء تحرك جوفها بنمو النبات فيه، وعلت بتخلل الماء والهواء وعناصر النبات كما يعلو بطن المرأة الحبلى.

مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ(١) لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ(٢) فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ(٣) مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ(٤) عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ(٥) لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ(٦) ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ(٧) ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ

المفردات: ﴿زوج﴾: صنف من النبات. ﴿بهيج﴾ أى شديد الحسن. ﴿بغير علم﴾: بدهى واضح لكل أحد.

﴿ولا هدى﴾: علم نظرى استدلالى موصل للمعرفة.

﴿ولا كتاب منير﴾: كتاب سماوى موضح الحق.

﴿ثانى عطفه﴾: عطف الشىء جانبه وجمعه أعطاف، وثنيه كناية عن التكبر والإعراض كَلَىِّ الرأس فى الآية (٥) سورة المنافقون صفحة ٧٤٣، والنَّأى بالجانب فى الآية (٨٣) من سورة الإسراء صفحتى ٣٧٥، ٣٧٦.

﴿الحريق﴾: أصل الحريق اسم مصدر وأريد به الشىء المحرق. ﴿على حرف﴾: حرف الشىء طرفه. ﴿فتنة﴾: شدة وبلاء. ﴿انقلب على وجهه﴾: كناية عن الرجوع عما كان فيه من خير إلى نقيضه.

المعنى: وأنبتت الأرض من كل صنف من النبات يسر الناظرين. ذلك المتقدم من خلق الإنسان، وإنبات الزرع ما وجد إلا بسبب أن الله هو الإله الحق لا رب غيره، وأنه قادر على

(١) آتيه.
(٢) يجادل.
(٣) كتاب.
(٤) القيامة.
(٥) بظلام.
(٦) الآخرة.
(٧) الضلال.

إحياء النطفة التى أصلها تراب، وأحيا الأرض الميتة بالنبات، وأنه قدير على كل شىء غير ما تقدم مهما عظم فى نظركم، وأنه حكيم فلابد من بعثكم ليوفى كلا على عمله، ولن يخلف وعده ببعث مَنْ فى القبور.

وبعد هذا فمن الناس قوم آخرون غير ما تقدم فى الآية (٣) من هذه السورة، وهم القادة والمضللون يجادلون فى صفات الله ومايليق به وما لا يليق بدون علم مطلقا، لا ضرورى كعلم الإنسان بحياته وأن الواحد نصف الاثنين، ولا استدلالى كالعلم بأن الأثر يدل على مؤثر، وليس معهم كتاب مقدس يدل على ما يزعمون، وبما أنه ليس للعلم طريق غير ذلك فلا يكون عندهم سوى الجهل.

يجادل هذا الفريق الجاهل حال كونه لاويًا عنقه عن الخضوع للحق كبرا ليضل الناس ويصرفهم عن دين الله الحق، وهذا له فى الدنيا خزى، إما بالقتل على الكفر، أو بالأسر، أو بغلبة المؤمنين عليه، ويوم القيامة يذيقه الله عذاب اللهب المحرق، ويقال لهم: ذلك الذى حصل لكم بسبب ما قدمته أيديكم من الأعمال المنكرة، وبسبب أن الله ليس بصاحب ظلم، فلا يسوى بين المؤمن والكافر، والصالح والفاجر ومن الناس فريق مذبذب فى إيمانه فهو يعبد الله على طرف فى دينه ليس متمكنا فيه كالجندى الذى يكون فى آخر الجيش، فإن رأى انتصارًا فرح بالغنيمة وإلا بادر إلى الفرار؛ فهذا إن أصابه خير من رخاء وسعة عيش فرح، وإن أصابته شدة فى نفسه أو ماله ارتد إلى الكفر فخسر فى الدنيا عزته وكرامته، وفى الآخرة نعيمها الدائم وذلك هو الخسران الواضح.

يدعو هذا الخاسر هو وأمثاله لكشف الضر عنه غير الله صنما لايضره إذا أهمله ولاينفعه إذا عظمه، وذلك هو الضلال البعيد عن الصواب.

فيكون مآل هذا الضال يوم القيامة أنه يدعو أى يصرخ نادمًا قائلاً: والله إن المعبود الذى ضرره الناتج عن عبادته ظهر أنه أقرب من نفعه المتوهم بالشفاعة إلخ.

مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ

المفردات: ﴿لبئس﴾ قبح. ﴿المولى﴾: الناصر والمعين. ﴿العشير﴾: المعاشر، انظر الآية (٢٤) من سورة التوبة صفحتى ٢٤٣، ٢٤٤.

﴿ينصره﴾: الضمير يعود على النبى محمَّد صلوات ربى وسلامه عليه المفهوم من سياق الكلام لأنه هو الذى جاء بهذا الدين ونظير ذلك فى الآية (٦١) من سورة النحل صفحة ٣٥٣ والآية (١) من سورة القدر صفحة ٨١٥.

﴿بسبب﴾: المراد هنا الحبل، والأصل فليمدد سببا أى حبلاً، والباء جاءت لتأكيد ربط الفعل بمفعوله، انظر الآية (١٤) من سورة العلق صفحة ٨١٤.

﴿إلى السماء﴾ السماء اسم لكل ما ارتفع فوق رأس الإنسان، والمراد هنا سماء البيت وهو السقف.

﴿ليقطع﴾: أى ليقطع عنقه بالشنق، والأمر للتهديد كقوله تعالى ﴿ومن شاء فليكفر﴾ الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥ والآية (٦٦) من سورة العنكبوت صفحة ٥٣٠.

﴿كيده﴾: المراد فعله الذى اجتهد فيه، وسماه سبحانه كيدًا استهزاء به، وأصل معنى الكيد هو التدبير الخفى فى إيصال الضرر للغير. ﴿الذين هادوا﴾: هم اليهود. ﴿الصابئين﴾: عبّاد الكواكب، انظر شرح الآية (٦٢) من سورة البقرة صفحتى ١٢، ١٣.

﴿المجوس﴾: عبّاد النار. ﴿الذين أشركوا﴾: المراد بهم كل مَنْ عبد مع الله غيره ولم يشتهر باسم خاص كما اشتهر المجوس والصابئون. ﴿يسجد له﴾: أى يخضع لإرادته، انظر شرح الآية (٧٩) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٨. ﴿وكثير من الناس﴾.. إلخ: ﴿كثير﴾ فاعل فعل مضمر أى ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة، وكثير حق عليه العذاب بكفره وإبائه عن الطاعة.

(١) آمنوا. (٢) الصالحات. (٣) جنات. (٤) الأنهار. (٥) أنزلناه. (٦) آيات.
(٧) بينات. (٨) الصابئين. (٩) النصارى. (١٠) القيامة. (١١) السموات.

(هنا سجدة بعد الفراغ من قراءة الآية (١٨٦))

المعنى: يصرخ الكافر عند مشاهدة العذاب قائلا والله إن من ضرره بكونه معبودًا أقرب من نفعه المتوهم بكونه شفيعا، والله لهو بئس المولى وبئس المعاشر، فنفى الضرر والنفع أولاً باعتبار ذات الصنم نفسه، وأثبت الضرر ثانيا باعتبار أنه سبب فيه من حيث عبادته.

وبعد بيان حال الكافرين أراد بيان حال المؤمنين المخلصين، فقال إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحت قصورها الأنهار. إن الله يفعل مايريد من عقاب المفسد وإثابة الصالح، لايعجزه شىء. ومما أراده ولا راد لما يريد أنه ناصر رسوله فى الدنيا كما نبأ بإعلاء كلمته وإظهار دينه، وفى الآخرة بإعلاء درجته وإسعاد مَنْ آمن بالله والانتقام ممن كذبه، فمَنْ كان كل أمله فى السعادة أن الله لن ينصر محمدًا لأن نصره سيكون سببًا فى هلاكه فليعجل بالانتحار ليتخلص من الغيظ الذى يأكل صدره؛ لأن عدم نصر الله تعالى لرسوله مستحيل بعد وعده به فى الآية (٥١) من سورة غافر صفحة ٦٢٤ وهذا هو المراد من قوله، ﴿من كان يظن﴾ إلخ؛ أى فليضع حبلاً فى سقف بيته ثم يخنق نفسه، فلينظر قبل أن يقدم على ذلك هل يذهبن فعله هذا مايغيظه من نصر رسولنا وإذا كان لا يذهبه فنهاية أمره خيبة مسعاه ودوام غيظه فالكلام كناية عن قطع أمل عدوه ﷺ ونظير ذلك قوله تعالى لهم ﴿قل موتوا بغيظكم﴾ الآية (١١٩) من سورة آل عمران صفحة ٨٢ وكما أنزلنا تلك الحجج فى هذه السورة أنزلنا القرآن كله حال كونه آيات واضحات لإقامة الحجة على كل عاص، ولهداية مَنْ أردنا هدايته لسلامة فطرته. ثم أراد سبحانه بيان حال الطوائف المتقدمة يوم القيامة مع بعض تفصيل فقال: إن الذين آمنوا بالله ورسله. واليهود والنصارى والمجوس والمشركين إن الله يفصل بينهم يوم القيامة بإظهار المحق والمبطل لأنه شهيد على كل شىء ومنه أعمالهم فيكون فصله الحق. وبعدما حذر سبحانه بأنه سيقضى بينهم بما شاهده، نبههم إلى دليل لو تنبهوا له لاهتدوا فقال: ﴿ألم تر﴾ أى تعلم أيها العاقل أن كل شىء فى الوجود خاضع لإرادة الله تعالى، مسخر لقدرته عز وجل؟ ومن كان كذلك لايجوز أن يعبد غيره ولايعصى. وإنما ذكر الشمس ومابعدها مع دخولها فى ﴿مَنْ فى السموات والأرض﴾ لشهرتها ودفع توهم استبعاد ذلك منها بحسب النظر القاصر ولأن بعضها عُبد من دون الله عز وجل، وكثير من الناس انتفع بذلك فحق له الثواب، وكثير منهم أهمل النظر والاعتبار فحق عليه العذاب. ومَنْ حق عليه العذاب فقد أهانه الله، ومَنْ يهنه الله فلا مكرم له.

ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (١٨) ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ (٢٤) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ

المفردات: ﴿هذان﴾: هما فريق المؤمنين فى آيتى (٢٣، ٢٤) وفريق الكافرين من الآية (١٩ إلى الآية ٢٢). ﴿خصمان﴾: الخصم معناه المخاصم، وهو يطلق على الواحد والكثير، والمراد هنا الثانى.

﴿اختصموا فى ربهم﴾: أى فيما يليق به وما لايليق.

﴿الحميم﴾: هو الماء شديد الحرارة.

﴿يصهر به﴾: يذاب به ﴿مقامع﴾: جمع مقمعه بكسر فسكون ففتح بوزن ملعقة، وهى أداة القمع أى المنع، لأنها تمنعهم من الخروج من جهنم. ﴿الحريق﴾: اللهب المحرق ﴿إلى صراط﴾: طريق.

﴿الحميد﴾: أى السلوك المحمود دائمًا؛ وفى الألوسى أن الإضافة بيانية كما فى حبل الوريد﴿سواء﴾: أى مستو.

﴿العاكف﴾: المقيم. ﴿الباد﴾: الزائر القادم من البادية.

﴿بإلحاد﴾: أى ميل وبعد عن الحق والباء لتقوية ربط الفعل بمفعوله.

(١) مقامع.
(٢) آمنوا.
(٣) الصالحات.
(٤) جنات.
(٥) الأنهار.
(٦) صراط.
(٧) جعلناه.
(٨) العاكف.

المعنى: . الذى يهينه الله تعالى يستحيل أن يجد مَنْ يكرمه، لأن الله وحده هو الذى يفعل مايشاء من الإهانة والإكرام وغيرهما. وبعد ما ذكر سبحانه أقسام الفرق السابقة وذكر أنه سيفصل بينهم يوم القيامة أراد أن يبين طرق الخصومة وكيفية الحكم بينهما فقال: هذان، أى فريق المؤمنين وفريق يجمع كل مَنْ عداهم، ثم بيَّن مكان الخصومة فقال: اختصموا فيما يليق بربهم وما لا يليق، فقال المؤمنون: هو واحد قادر على البعث وعلى كل شىء، وقال الآخرون: معه آلهة غيره، وقال بعضهم: لايبعث مَنْ يموت ثم بيَّن مآل الفريق الثانى فقال: فكل الذين كفروا تحوطهم النار فى جهنم كما يحيط الثوب بلابسه؛ ويزاد عذابهم بأن تصب الملائكة الماء شديد الحرارة من فوق رءوسهم، فتصل حرارته أمعاءهم فتذيبها كما تذيب جلودهم، وأعد لهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا من النار من شدة الغم والكرب ضربتهم الملائكة بالمقامع فيعودون فى وسطها، ويقولون لهم ذوقوا عذاب النار المحرقة.

أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فالله تعالى يدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها حليا مبينا بأنه أساور مأخوذة من ذهب، ويحلون لؤلؤًا؛ أما لباسهم الذى لابد منه فهو من حرير. وهداهم الله تعالى فى الجنة إلى القول الطيب الذى فيه تقديس الله واعتراف بفضله سبحانه. انظر الآيات من (٣٣ إلى ٣٥) من سورة فاطر صفحة ٥٧٦، والآية (٧٤) من سورة الزمر صفحتى ٦١٦، ٦١٧.

وكما هداهم إلى طيب الأقوال هداهم أيضا إلى الحميد من الأفعال فى معاشرة بعضهم بعضا. فلا غل ولا كيد ولا حسد كما يحصل بين أهل الدنيا، بل أخوة صافية، انظر الآية (٤٣) من سورة الأعراف صفحة ١٩٩، والآية (٤٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤١.

وبعد ما ذكر سبحانه مآل الفريقين أتبع ذلك جرائم الكفار فقال: إن الذين كفروا بربهم وتعودوا أن يمنعوا الناس عن دين الله وعن الدخول إلى المسجد الحرام بمكة الذى جعله الله تعالى حرما آمنا للناس كافة يستوى فيه المقيم والطارئ ومَنْ يرد فيه أمرًا مقترنا بالبعد عن الحق، وبينه بقوله: بظلم.. إلخ.. نعذبهم عذابا شديد الإيلام.

بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ[1] مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ[2] لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ[3] عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ[4] فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ[5] ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ[6] ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ[7] وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ

المفردات: . ﴿بوأنا﴾: جعلنا له مباءة أى مرجعا يأوى إليه، انظر الآية (٩٣) من سورة يونس صفحتى ٢٨٠، ٢٨١.

﴿القائمين﴾: فى الصلاة.

﴿الركع﴾: جمع راكع. ﴿السجود﴾: جمع ساجد كقاعد وقعود. وهذه الثلاثة القيام والركوع والسجود هى أهم أركان الصلاة، فعبر بها كناية عنها.

﴿أذن فى الناس﴾: المراد اجهر بما أمرك الله به وأعلمهم بأن الله تعالى طلب منهم زيارة بيته.

﴿رجالا﴾: جمع راجل وهو الماشى بدون ركوب. ﴿ضامر﴾: خفيف اللحم من كثرة الحركة، والمراد به هنا الذكر والأنثى من الإبل.

﴿يأتين﴾: أى هذه الضوامر. ﴿فج عميق﴾: الفج الطريق الواسع، والعميق البعيد.

﴿ليشهدوا﴾: أى ليحضروا ويباشروا.

﴿فى أيام﴾: هى أيام النحر الثلاث، أولها يوم العيد.

﴿ليقضوا﴾: أصل القضاء القطع، والمراد هنا الإزالة. ﴿تفثهم﴾: هو فى الأصل الوسخ، وأريد به هنا حلق الشعر وتقليم الظفر وغسل العرق وغير ذلك مما يعلق بالجسم أثناء الإحرام.

﴿العتيق﴾: القديم.

﴿ذلك﴾: خبر لمبتدأ محذوف، والأصل الأمر هو ذلك، وهو تركيب يؤتى به للفصل بين كلامين أو وجهين من كلام واحد، انظر نظيره فى الآية (٥٥) من سورة ص صفحة ٦٠٣.

(١) لإبراهيم. (٢) منافع. (٣) معلومات. (٤) الأنعام. (٥) البائس. (٦) حرمات. (٧) الأوثان.

﴿الرجس من الأوثان﴾: الرجس هو النجس نجاسة معنوية أو حسية، وبيَّنه بأنه الأوثان أى الأصنام. ﴿حنفاء﴾: أى بعيدين عن الباطل. ﴿خر من السماء﴾: أى سقط.

المعنى: - ومَنْ يمل عن الحق ويظلم فى الحرام يذقه الله تعالى عذابا أليما كذلك. ولما كان مشركو مكة يفخرون بأنهم من ذرية إبراهيم أراد سبحانه أن ينبههم إلى خطئهم فى حق إبراهيم بانى البيت ويوبخهم على صدهم الناس عنه وارتكابهم الظلم فى حرمه، فقال: ﴿وإذا بوأنا لإبراهيم﴾ أى واذكر لهؤلاء الكفرة وقت أن جعلنا مكان البيت الحرام منزلا لجدهم إبراهيم، وقلنا له لا تشرك مع الله شيئًا من كل ما يُعبد مع الله، وطهر بيتى الذى أمرناك ببنائه، أى حافظ على بقائه طاهرا من تلويث الأصنام والأقذار ليكون معدًا للطائفين به والمصلين إليه قائمين راكعين ساجدين، وأعلم الناس أن الله تعالى فرض عليهم الحج إلى هذا البيت؛ فإن الله تعالى سيحببه إليهم فيأتون تلبية لندائك مشاة وركبانا على جياد من الإبل التى تأتى من كل طريق بعيد شوقا إليه، ليشهدوا منافع لهم دينية ودنيوية، انظر الآية (١٩٨) من سورة البقرة صفحة ٣٩، ويذكروا اسم الله عند الذبح فى أيام العيد الثلاثة على بهيمة الأنعام، والمراد الإبل والبقر والغنم التى رزقهم الله تعالى بها، فهى منه وإليه، فكلوا منها إن شئتم، وأطعموا مَنْ أصابه بؤس وشدة بسبب فقره. ثم بعد ذلك يطلبْ منهم أن يزيلوا ما علق بأجسامهم أثناء الإحرام وليوفوا نذورهم إن كانوا نذروا شيئًا فى الحرم، لأن الوفاء بالنذر يتأكد فى حرم الله، وليطوفوا بالبيت العتيق لأنه أول بيت بنى للعبادة، انظر الآية (٩٦) من سورة آل عمران صفحة ٧٨، وليطوفوا طواف الفرض المتمم لأعمال الحج وبه يحصل التحلل الأكبر الذى يحل به حتى النساء. هذا هو الأمر الحق، فمَنْ يعظم كل ماحرم الله انتهاكه من أعمال الحج وبقية التكاليف وتعظيمها بالمحافظة عليها، فتعظيمه ذلك خير له عند ربه فى الدنيا والآخرة. ولما كان المشركون يحلون الميتة ويحرمون انحلال، انظر آيات (٢، ٣، ١٠٣) من سورة المائدة صفحات ١٣٤، ١٣٥، ١٥٧، قال سبحانه: ﴿وأحلت لكم الأنعام﴾: الإبل والبقر والغنم إلا ما يتلى عليكم كل لحظة فى الآية (٣) من سورة المائدة صفحة ١٣٥ وفى غيرها، فاجتنبوا الأوثان التى هى أبشع رجس، واجتنبوا قول الزور مطلقا خصوصا فى الشهادة حال كونكم مخلصين دينكم لله، لا كما يزعم المشركون من أنهم حنفاء مع شركهم بالله، ومَنْ يشرك بالله فقد هلك قطعا كما يهلك قطعا من يسقط من السماء فيصير قطعا تخطفها الطير بسرعة فلا تبقى له أثرًا.

أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ[1] اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ[2] إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَٰمِ[3] فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّٰبِرِينَ[4] عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَوٰةِ[5] وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ[6] يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا[7] لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ[8] اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا[9] لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ

المفردات: - ﴿تهوى به﴾: المراد تسقطه. ﴿سحيق﴾: أى بعيد الغور. ﴿ذلك﴾: تقدم المراد منها فى الصفحة السابقة.

﴿شعائر الله﴾: مفردها شعيرة، وهى كل ما شرعه الله وجعله علامة رضاه، انظر الآية (١٥٨) من سورة البقرة صفحة ٣٠ والآية (٢) من سورة المائدة صفحتى ١٣٤، ١٣٥.

﴿محلها﴾: المراد مكان حل نحرها.

﴿إلى البيت العتيق﴾ ﴿إلى﴾ بمعنى عند كما تقول هذا الشىء أحسن إلىَّ من العسل أى أحسن عندى. ﴿منسكا﴾: هو النسك، وهو فى الأصل العبادة مطلقا. والمراد به هنا تقديم القرابين من الذبائح تقربا لله تعالى. ﴿بهيمة الأنعام﴾: تقدم فى الآية (١) من سورة المائدة صفحة ١٣٤. ﴿المخبتين﴾: المتواضعون المذعنون بالعبودية.

﴿وجلت﴾: أى خافت. ﴿والبدن﴾: واحدها بَدَنة بالفتح وهى من الإبل مايهدى إلى الكعبة، تطلق على الذكر والأنثى.

﴿صواف﴾: مفردها صافة، أى قائمات قد صفت أيديهن وأرجلهن ليس فيهن عيب. ﴿وجبت﴾: يقال وجب الحائط مثلا وجبة إذا سقط سقطة قوية، ويكون فيه هنا إشعار باختيارها سمينة كثيرة اللحم.

﴿القانع﴾: هو الفقير الراضى بما هو فيه ولا يسأل، انظر الآية (٢٧٣) من سورة البقرة صفحة ٥٨. ﴿المعتر﴾: هو الفقير الذى يتعرض لسؤال الناس.

---

(١) شعائر. (٢) منافع. (٣) الأنعام. (٤) الصابرين. (٥) الصلاة.
(٦) رزقناهم. (٧) جعلناها. (٨) شعائر. (٩) سخرناها.

المعنى: ومَنْ يشرك مع الله غيره فهو هالك لا نجاة له كهلاك من عصفت به الريح العاتية في المهاوى العميقة فلا يستطيع الرجوع منها. ذلك الأمر كما ذكرت، ومَنْ يعظم البدن التى تهدى لفقراء البيت، والتى جعل الله تعالى إهداءها من أعلام دينه، وتعظيمها يكون باختيارها عظيمة الجسم سمينة غالية الثمن، فقد اتقى الله حقا؛ لأن تعظيمها أثر من آثار تقوى قلوب المؤمنين.

لكم فى هذه البدن المهداة للحرم منافع كركوبها عند الحاجة، وشرب لبنها عند الضرورة، إلى أجل مسمى هو زمان نحرها إذا وصلت محلها، أى مكان حل نحرها، وهو منطقة الحرم المحيطة بالبيت العتيق.

وبعد ما بيَّن سبحانه حكمة تعظيم الشعائر ومكان ذبحها أراد أن يبين أن الذبح على وجه التقرب إليه تعالى ليس خاصا بهذه الأمة، بل لكل أمة من أمم الأنبياء السابقين مناسك وذبائح تذكر بالله حين ذبحها ليشكر على توفيقه لإقامة هذه الشعائر، فالإله لكم ولهم واحد.

وإذا كان الأمر كذلك فله وحده انقادوا ولا تشركوا معه غيره. وبشر أيها النبى مَنْ سمع كلام ربه فخضع وأخلص له. ثم وصف هؤلاء الصالحين بأربع صفات جمعت أصول الفضائل فقال: الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم من هيبته، والصابرين على ما أصابهم من الشدائد ثقة بما عند الله من الفضل، والمقيمى الصلاة فى وقتها وعلى أتم وجوهها، والمنفقى بعض مارزقهم الله فى وجوه البر التى بيَّنها الله تعالى فى أماكن من كتابه.

وبعد ما رغب سبحانه فى وجوه البر ومنها تقديم الهدى إلى الكعبة، خص من بين الهدايا لأنها أعظمها قيمة فقال ممتنا: والبدن جعلناها لكم من شعائر دينه لكم فيها خير فى الدنيا والآخرة، فاذكروا اسم الله عليها عند نحرها حال كونها قائمة مصفوفة الأرجل ليس فيها نقص فإذا سقطت جنوبها على الأرض والمراد تمت ذكاتها فيجوز لكم أن تأكلوا منها، ويجب أن تطعموا الفقراء على اختلاف أحوالهم. وكما سخرنا كل شىء لما نريده منه سخرنا لكم هذه الإبل وذللناها لكم مع قوتها وعظم أجسامها لكى تشكروا نعم الله عليكم.

ثم حذر من الرياء فقال: لن ينال رضا الله اللحوم المتصدق بها، ولا الدماء التى تريقونها بكثرة ما تنحرون، ولكن الذى ينال رضاه هو تقواكم له بإخلاصكم فى تقديمها للفقراء لوجهه الكريم.

كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ(١) وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ(٢) عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا(٣) إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ(٤) بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم(٥) بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ(٦) وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ(٧) وَمَسَاجِدُ(٨) يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ(٩) فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ(١٠) وَآتَوُا(١١) الزَّكَاةَ(١٢) وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ(١٣) الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ(١٤) وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾

المفردات: ﴿كذلك﴾: أعادها ثانيا ليرتب عليها شيئًا غير ما رتبه أولاً ﴿خوان﴾: كثير الخيانة. ﴿كفور﴾: شديد الكفر. ﴿ولولا دفع الله الناس﴾: تقدم بيانها فى صفحة ٥٢.

﴿صوامع﴾: مفردها صومعة وهى معبد الرهبان فى الصحراء المسمى الآن بالدير وإن كان الإسلام جاء بإبطال الرهبنة انظر الآية ٢٧ من سورة الحديد صفحة ٧٢٣.

﴿بيع﴾: مفردها بيعة بكسر أوله وهى معبد النصارى غير الرهبان المسماة الآن بالكنيسة ﴿وصلوات﴾: مفردها صلاة وأصلها بالعبرية صلوتا وهى معبد اليهود.

﴿مساجد﴾: المراد بها هنا معابد المسلمين.

﴿عزيز﴾: أى غالب لايقدر عليه أحد.

المعنى:

كذلك سخر لكم هذه الإبل لتعظموه سبحانه على هدايته لكم لشعائر دينه. وبشر أيها النبى المؤمنين الذين أحسنوا طاعتهم بجنة ونعيم دائم. وبعد ما بين سبحانه أن المشركين يصدون عن دينه وعن بيته أراد أن يبين ما به يتقى شرهم ويتمكن من إقامة دينه فقال: ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾ أى أن الله تعالى يدفع شر المفسدين عن المؤمنين المخلصين

(١) هداكم.	(٢) يدافع.	(٣) آمنوا.	(٤) يقاتلون.
(٥) ديارهم.	(٦) صوامع.	(٧) صلوات.	(٨) مساجد.
(٩) مكناهم.	(١٠) الصلاة.	(١١) وآتوا.	(١٢) الزكاة.
(١٣) عاقبة.	(١٤) إبراهيم.		

البعيدين عن الخيانة والكفر؛ لأنه سبحانه يكره الخوان الكفور بنعمة ربه الجحود لها، فينصر مَنْ أحبهم عليهم، ويشترط فيهم ما سيأتى فى الآية (٤١) الآتية. ولما كان المسلمون فى مكة قد لاقوا من إيذاء المشركين أشد وأقسى مالاقاه بشر، وكانوا كلما اشتكوا له ﷺ أمرهم بالصبر، ولما هاجروا وأنسوا بالقوة أذن لهم بدفع العدوان بقوله ﴿أذن للذين يقاتلون﴾ إلخ: أى أن الله تعالى أباح للمؤمنين الذين يقاتلهم الكفار برد عدوانهم، وذلك الإذن بسبب أن المشركين ظلموهم.

قال ابن عباس: وهذه أول آية نزلت فى الإذن بالقتال، وإن الله على نصر المظلومين لقدير. وقد حصل فأهلك الكافرين، وجعل العزة للمؤمنين، انظر نظير ماهنا فى آيتى (٧، ٨) من سورة محمد صفحة ٦٧٣.

ثم وصف سبحانه هؤلاء المظلومين فقال: ﴿الذين أخرجوا﴾ أى هم الذين أخرجهم المشركون من مكة، وما كان لهم ذنب إلا قولهم. ربنا الله واحد لا نعبد غيره، انظر أول الممتحنة صفحة ٧٣٤ والآية (٨) من سورة البروج صفحة ٨٠١.

ثم بيّن سبحانه أن دفع عدوان الظالم ضرورة اقتضتها حكمته فقال ﴿ولولا دفع الله﴾ إلخ: أى ولولا أن الله سبحانه سخر أهل الحق والأقوياء لدفع ظلم أهل الشر لتغلب الباطل والشر على أهل الأرض فيهدمون بيوت العبادة التى يذكر فيها اسم الله، ولا يبقى فيها سوى ذكر الشيطان، وعند ذلك تكون الحياة كلها شقاء، ووالله لينصرن الله مَنْ ينصر شريعته لأنه قوى عزيز لا يغلب.

ثم وصف هؤلاء المؤمنين المأذونين بالقتال بصفات لابد منها فى دوام نصر الله لهم فقال: الذين إن مكناهم فى الأرض بجعل السلطان فى يدهم أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله وحده مرجع كل أمر، فيعز مَنْ يشاء ويذل مَنْ يشاء، وينعم مَنْ يشاء ويعذب مَنْ يشاء.

ثم شرع فى تسلية نبيه ﷺ على ماحصل وما سيحصل منهم فقال: وإن يكذبوك فلا تحزن فلست أول مَنْ فعل معه قومه ذلك، فقد كذب نوحا قومه، وهودا عاد، وصالحا ثمود، وإبراهيم قومه، ولوطا قومه، فاصبر كما صبروا.

وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ

المفردات: ﴿فأمليت﴾: أى أمهلت وأرخيت الحبل لهم. ﴿نكير﴾: أى إنكارى عليهم بتغيير النعمة إلى نقمة.

﴿فكأين﴾: كلمة تدل على كثرة ما بعدها انظر الآية (١٤٦) من سورة آل عمران صفحة ٨٦ والآية (١٠٥) من سورة يوسف صفحة ٣١٩.

﴿خاوية على عروشها﴾: خربة ساقطة حيطانها على سقوفها، انظر الآية (٢٥٩) من سورة البقرة صفحتى ٥٤، ٥٥.

﴿معطلة﴾: أى ليس هناك مَنْ ينتفع بها.

﴿مشيد﴾: مرفوع البنيان.

﴿يستعجلونك بالعذاب﴾: الضمير لكفار قريش فقد كان ﷺ يحذرهم عذاب الله سبحانه وتعالى، ويتوعدهم بمجيئه، وكانوا ينكرون ذلك ويطلبون مجيئه استهزاء.

﴿لن يخلف الله وعده﴾: جملة حالية جاءت لبيان سفههم فى استعجال ما لابد منه لأن الله وعد به.

﴿وإن يوما عند ربك﴾: جملة أريد بها بيان خطئهم فى إنكار العذاب. فاليوم عند الله فى الدنيا كألف سنة فى حساب أهلها، وأما يوم الآخرة فهو مقدر بخمسين ألف سنة كما فى الآية (٤) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥

(١) أصحاب.	(٢) للكافرين.	(٣) أهلكناها.
(٤) آذان.	(٥) الأبصار.	(٦) آمنوا.
(٧) الصالحات.	(٨) آياتنا.	(٩) معجزين.

﴿نذير﴾: أى منذر ومخوف من جزاء فعل المعصية. ﴿سعوا فى آياتنا﴾: المراد من الآيات القرآن، والسعى فيه الاجتهاد لإبطاله يقال سعى فلان فى أمر فلان إذا أفسده بسعيه.

﴿معاجزين﴾: أى مسابقينه لإعجازه، يقال عاجز الرجل زميله إذا اجتهد كل منهما لإعجاز صاحبه وغلبته.

المعنى: وكذب أصحاب مدين نبيهم شعيبا، وكذب فرعون وقومه موسى. فأمهلت كل هؤلاء الذين كفروا بأنبيائهم ليزدادوا إثما لزيادة عقابهم، انظر الآية (١٧٨) من سورة آل عمران صفحة ٩٢. ثم أخذتهم بأشد أنواع العذاب، فانظر كيف كان أثر إنكارى وغضبى عليهم ترى هولاً عظيما، فكثيرا من القرى أهلكناها والحال أنها ظالمة فأمست خربة ليس بها أحد. وكثيرا من الآبار عطلناها بإعدام الذين كانوا يشربون منها، وكثيرا من القصور المشيدة أخليناها من سكانها؛ هل ركن هؤلاء المشركون إلى الكسل فلم يسيروا فى أنحاء الأرض ليروا آثار مَنْ أهلكهم الله بسبب ظلمهم من أقوام الأنبياء السابقين، فتكون لهم قلوب يعقلون بها ما يجب من توحيد الله ونحوه، وآذان يسمعون بها أخبارهم من الأمم المجاورة لهم فيعتبروا. ولكن هؤلاء حتى لو رأوا مكان العبرة فإنهم لاينتفعون، لأن الانتفاع بوعى القلوب لا للعيون المفتحة بدون عقل وراءها، فالعمى الذى يضر ليس هو عمى الأبصار ولكنه عمى القلوب. انظر الآية (١٠٥) من سورة يوسف صفحة ٣١٩. ولما توعدهم ﷺ بالعذاب كانوا يسخرون منه، ومن ذلك أنهم كانوا يستعجلونه ويقولون متى هذا العذاب. فقال سبحانه قل لهم أيها النبى: كيف تنكرون مجىء العذاب والحال أنه سبحانه لايخلف وعده وقد وعد به وجعل لعذابكم موعدا ولن يخلف ما وعد به، وإن مدته مقدرة حسب علمه هو، وماترونه بعيدا هو عنده قريب، انظر الآية (٥١) من سورة الإسراء صفحة ٣٧١، وآيتى (٦، ٧) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥، وكثيرا من القرى أمهلت أهلها كما أمهلتهم والحال أنهم ظالمون ثم أخذتهم بالعذاب وسأفعل بهؤلاء ما فعلت بمَنْ قبلهم وإن طال الزمن، وإلىّ مرجع الجميع فى الآخرة فأجازيهم بما يستحقون قل أيها النبى: يأيها الناس من كفار قريش وغيرهم ليس لى معكم إلا أن أخوفكم من عذاب الله وأبلغكم رسالته بأسلوب واضح، ثم بعد ذلك يعاملكم الله حسب أعمالكم: فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة من الله لذنوبهم ورزق كريم فى الجنة، والذين أجهدوا أنفسهم فى محاربة القرآن بتسميته سحرا وأساطير الأولين زاعمين أنهم يعجزونه ويبطلون آثاره..

أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ[1] الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ[2] فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ[3] ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ[4] وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ[5] فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ[6] لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا[7] إِلَىٰ صِرَاطٍ[8] مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا[9] وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ[10] فِي جَنَّاتِ[11] النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا[12] فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

المفردات: ﴿من رسول ولا نبى﴾: لكل من النبى والرسول معنيان؛ فللنبى معنى لغوى وهو رفيع المنزلة، مأخوذ من نبا ينبو أى ارتفع، ومعنى اصطلاحى وهو مَنْ أرسله الله تعالى مبشرا بشرع جاء به رسول قبله وداعيا إليه كأنبياء بنى اسرائيل.

وللرسول معنيان: رسول أوحى إليه بشرع جديد، أى فى الفروع كما فى الآية (٤٨) من سورة المائدة صفحة ١٤٦، ورسول أوحى إليه بالدعوة لشرع سبقه، وهذا هو النبى بالمعنى الثانى؛ فكل رسول نبى بالمعنى اللغوى للنبوة؛ لأن كلا منهما رفيع المقام، وكل نبى بالمعنى الاصطلاحى رسول ولا عكس، انظر آيتى (١٥٧، ١٥٨) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٧، ٢١٨، وآيتى (٥١، ٥٤) من سورة مريم صفحة ٤٠١، والآية (٤٥) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٦، والآية (٦) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٧.. هذا كله فى الرسل والأنبياء من البشر، أما الملائكة فهم رسل بمعنى آخر كما سيأتى فى الآية (٧٥) من هذه السورة صفحة ٤٤٤.

﴿تمنى﴾: أى أحب واجتهد لنجاح دعوته ﴿ألقى الشيطان﴾: أى وضع الشيطان العراقيل فى طريقها.

﴿ينسخ الله﴾.. إلخ: أى يزيله ويبطل مفعوله، انظر الآية (١٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٢ ﴿مرض﴾: المراد نفاق.

---

(١) أصحاب. (٢، ٣) الشيطان. (٤) آياته. (٥) الشياطين. (٦) الظالمين. (٧) آمنوا.
(٨) صراط. (٩) آمنوا. (١٠) الصالحات. (١١) جنات. (١٢) بآياتنا.

﴿شقاق بعيد﴾: أي خلاف مع الحق وأهله بعيد مسافة مابينهما.

﴿فتخبت﴾ : أي تخضع.

﴿مرية﴾: شك.

﴿عقيم﴾: أي لاضير فيه من راحة أو فرج انظر الآية (٤١) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٥.

المعنى: . إن الذين يحاربون آياتنا القرآنية أولئك سيلازمون جهنم. ثم أراد سبحانه أن يسلى نبيه ﷺ بأن محاربة الدين الحق معهودة فى الأمم السابقة فقال: وما أرسلنا قبلك رسولا ولا نبيًا إلا وحاله أنه إذا تمنى واجتهد فى تثبيت شريعته ونجاح دعوته ألقى الشيطان العراقيل والشبه على أتباعه لتكون صخورًا فى طريق أمنيته، انظر شرح آيات (٢٥، ١١٢، ١٢٥) من سورة الأنعام صفحات ١٦٥، ١٦٦، ١٨١، ١٨٣، وماقاله أبو جهل لتضليل الناس عندما سمع الآية (٦٣) من سورة الصافات صفحة ٥٩٠، فيزيل الله تعالى ما يلقيه شياطين الإنس والجن، ثم يحكم الله آياته، أى يثبت شريعته التى جاءت فى آياته ويحفظها، والله عليم بأحوال الناس، حكيم فيما يفعله، فلا يترك الباطل يعلو على الحق، وإنما مكن سبحانه الشياطين من إلقاء الشبه فى طريق الدعوة ليجعل ذلك فتنة أى محنة وابتلاء يظهر معادن الناس، فالمنافقون وقساة القلوب من المشركين يزدادون ضلالاً، وهذان النوعان من الظالمين والله إنهم لفى عداوة للحق وبعد عن الصواب، وليقوى علم المؤمنين الذين آتاهم الله العلم الصحيح بأن ما جاء به رسوله هو الحق المنزل من ربك فيقوى إيمانهم به فتزيد طمأنينة قلوبهم، وأن الله يهدى المؤمنين فيما أشكل عليهم إلى طريق الحق المستقيم، انظر آيتى (٥، ٦) من سورة محمد صفحة ٦٧٣ ثم بين مآل الفريقين فقال: ولا يزال الذين كفروا فى شك من دينك حتى تأتيهم القيامة بغتة أو يأتيهم فى الدنيا عذاب القتل فى الحرب فى يوم لا خير لهم فيه كما حصل يوم بدر وغيره.

الملك والتصرف المطلق يوم ينتهى شكهم هو لله يحكم بين الخلق جميعا، ثم بين كيفية الحكم والفصل فقال: فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فهؤلاء لهم عذاب يذلهم.

مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ * ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي

المفردات: . ﴿وإن الله لهو خير الرازقين﴾: يطلق العرب الرازق على خالق الرزق، وعلى معطيه، والمراد هنا الثانى. أما الرازق بمعنى خالق الرزق فهو الله وحده، انظر آيات (٣١) من سورة يونس صفحة ٢٧١، و (٥٩) من نفس السورة صفحة ٢٧٥، و (٦) من سورة هود صفحة ٢٨٤، و (٥٨) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦.

ووجه خيريته سبحانه هنا على غيره أنه فضلا عن أن عطاءه غير محدود، ولا ممنون، فإنه يعطى رزقا هو خالقه، لعبد هو خالقه أيضا، فهو خالق النعمة ومانحها، أما غيره فإنه إذا أعطى فإنه إذا أعطى فإنه يعطى من رزق خلقه غيره وهو الله سبحانه وتعالى، فهو واسطة إعطاء فقط وشتان بين المقامين، فلذا كان سبحانه خير الرازقين بلا ريب ولذا يُكْرَه إطلاق لفظ ﴿رازق﴾ على غيره تعالى مطلقا لما فيه من الوقوع فى فهم خاطئ. ﴿مدخلا﴾: أريد به هنا مكانا يدخلونه وهو الجنة. ﴿ذلك﴾: تقدم المراد منها فى مثل هذا فى الآية (٣٠) السابقة فى هذه السورة صفحة ٤٣٧.

﴿ماعوقب به﴾: تسمية مايقع من المعتدى أولاً عقابا لمجرد المشاكلة اللفظية، لأن العقاب فى الأصل اسم لجزاء التعدى، وحسن المشاكلة هنا أن الابتداء بالتعدى هو السبب فى العقاب، فأطلق على السبب اسم مسببه، كما يقول العربى: أمطرت السماء نباتا يريد أمطرت ماء تسبب عنه نبات. ﴿يولج الليل فى النهار﴾: تقدم فى الآية (٢٧) من سورة آل عمران صفحة ٦٧.

المعنى: . الكافرون لهم عذاب شديد الإهانة، أما المؤمنون الذين تركوا أوطانهم فى طلب رضا الله بجهاد أعدائه ثم قتلوا فى الجهاد أو ماتوا موتا طبيعيا وهم فى طريقهم للجهاد أو راجعون منه، ليرزقنهم الله رزقا حسنا لايعلم حقيقته غيره تعالى؛ لأنه سبحانه هو خير

(١) الرازقين. (٢، ٣) الليل. (٤) الباطل. (٥) السموات.



الرازقين؛ لأنه يعطى بلا حساب ولا منة ثم بيَّن بعض هذا الرزق فقال ﴿ليدخلنهم﴾ إلخ: أى وعزته تعالى ليدخلن المقتولين فى سبيله والموتى المهاجرين فى طاعته جنات يرضون ما فيها من نعيم مقيم، وإن الله لعليم بنيات عباده فيجازى حسبها. حليم فلا يعجل بعقوبة العاصى ليفسح له مجال التوبة ذلك أى الأمر كما ذكر.

ثم انتقل إلى معنى آخر فقال ﴿ومن عاقب﴾ إلخ: أى والمؤمن الذى يجازى مَنْ جنى عليه بمثل ماجنى ولم يتعد فوق المطلوب، فإذا قطع أصبعه يقتصر على قطع أصبع فقط، أو قاتل المعتدى عليه كما قاتله، أو أخذ من ماله مثل ما أخذ من ماله، ثم بغى عليه الجانى بالعود إلى ظلمه ثانيا، فإن الله سبحانه ينصر المعتدى عليه لأنه مظلوم والله مع المظلوم. وإن الله لكثير العفو عمَّنْ عاقب بمثل ما أوذى به فلا يؤاخذه به. كثير المغفرة له فيستر هفواته عن جميع خلقه ولا يفضحه يوم القيامة. وفى هذه الجملة إشارة لطيفة إلى حب الله للصفح وكبح شهوات النفوس ومقابلة السيئة بالحسنة إلا عند الضرورة، انظر الآيات من (٤٠ إلى ٤٣) من سورة الشورى صفحة ٦٤٤.

ذلك النصر الذى ضمنه سبحانه للمظلوم محقق، لأنه قادر على كل شىء يريده، انظر إلى قدرته تعالى فى المداولة بين الليل والنهار، فيزيد فى أحدهما بمقدار ما ينقصه من الآخر، فيضع ظلمة الليل مكان ضوء النهار وبالعكس، ولأنه سميع لقول كل من الطرفين، بصير بأعمالهما، فيجازى حسب مايصدر منهما. ذلك الوصف له تعالى بكمال القدرة والعلم لأنه هو الإله الحق وأن كل ما يدعونهم من دونه زاعمين أنهم آلهة باطلة ألوهيتهم لاحقيقة لها، وأن الله وحده هو العلى على ماعداه شأنا وأكبر سلطانا وأعلى من أن يكون له شريك. ثم ذكر سبحانه دلائل أخرى على كمال قدرته فقال ﴿ألم تر﴾ إلخ: أى ألم تبصر أيها الرائى أن الله ينزل من السماء مطرًا فتصير به الأرض مخضرة بالنبات بعد أن كانت بدونه قاحلة، إن الله لطيف بعباده حيث أوصل إليهم نفعهم ومنه إنزال المطر بدون إضرار بهم، عليم بدقائق الأمور ومنها مقادير مصالح العباد له وحده كل مافى السموات ومافى الأرض خلقا وملكا وعبيدًا، وأنه سبحانه هو الغنى عن كل ما سواه، المستحق لكثرة الحمد لكثرة نعمه. ألم تر وتعلم أيها العاقل أن الله سخر لكم جميعا أيها الناس ما فى الأرض ظاهرها وباطنها، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر تحملكم وتحمل أمتعتكم، انظر معنى التسخير فى صفحة ٤٢٨، وانظر ما قيل فى الآية (٣٢) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٤.

فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ[1] لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ[2] فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ[3] فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ[4] فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ[5] إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا[6] وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ[7] مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا[8] بَيِّنَٰتٍ[9] تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

المفردات: ـ ﴿السماء﴾: المراد بها هنا كل ماعلا من الكواكب والنجوم والأجرام.

﴿لرءوف رحيم﴾: المراد هنا: إن الله بالناس لرءوف رحيم على ظلمهم، ونظير هذا قوله تعالى ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ الآية (٦) من سورة الرعد صفحتى ٣٢١، ٣٢٢، وانظر الفرق بينهما فى صفحتى ٢٨، ٣٤٦.

﴿منسكا﴾: تقدم أصل معناها فى صفحة ٤٣٨، والمراد بها هنا شريعة فى المعاملات وكيفية العبادات لا فى العقائد. فإنها واحدة كما فى صفحة ٦٣٩، انظر الآية (٤٨) من سورة المائدة صفحة ١٤٦.

﴿ناسكوه﴾: أى عاملون به.

﴿فى كتاب﴾: هو اللوح المحفوظ الذى كتب فيه كل شىء حتى القرآن، انظر الآية (٢٢) من سورة الحديد صفحة ٧٢٢، والآية (٢٢) من سورة البروج صفحة ٨٠٢. ﴿ينزل به سلطانا﴾: السلطان الحجة والبرهان، وتنزيله إيجاده، انظر الآية (٢٥) من سورة الحديد صفحة ٧٢٣.

المعنى: ـ ألم تر أن الله سخر لكم السفن تجرى فى البحر بإرادته ويمسك السماء من أن تقع على الأرض إلا بمشيئته؛ إن الله بالناس لرءوف رحيم، حيث سخر لهم مافى السموات والأرض، ومنع السماء من السقوط عليهم، وهيأ لهم أسباب الاستدلال ليصلوا إلى مافيه

(١) الإنسان. (٢) ينازعنك. (٣) جادلوك.
(٤) القيامة. (٥) كتاب. (٦) سلطانا.
(٧) للظالمين. (٨) آياتنا. (٩) بينات.

نجاتهم فى الآخرة، والله وحده هو الذى أحياكم بعد أن كنتم ترابا ونطفا، ثم يميتكم إذا جاء أجلكم، ثم يحييكم فى الآخرة للحساب والجزاء، وإن الإنسان لجحود لنعم الله مع ظهورها.

ولما كان اليهود والنصارى يساعدون المشركين فى منازعته ﷺ والتشكيك فيما جاء به بدعوى أنه بدَّل دين موسى الذى جاء فى التوراة حيث أحل ما كان محرما كالإبل، وبدل دين عيسى حيث أجاز مقابلة الإساءة بمثلها، والإنجيل ليس فيه إلا العفو، وغير ذلك؛ لما كان كل هذا أراد سبحانه إبطال زعمهم فقال: لكل أمة من الأمم السابقة أصحاب الشرائع جعلنا شريعة خاصة بهم لائقة بعصرهم، وعلى هذا الأساس جعلنا لأمة محمد شريعة يعملون بها إلى قيام الساعة وإذا كان هذا هو صنع الله الحكيم فلا يصح أن ينازعك أهل الأديان السابقة فى أمر دينك أيها النبى لأنه ترتيب إلهى، واستمر فى الدعوة إلى توحيد ربك وعبادته على الوجه المبين فى مناسك القرآن إنك على طريق يهدى للحق مستقيم، وهو ماشرعه لك ولأمتك، وإن جادلوك فى أمر الدين بعد ظهور الحق فقل لهم محذرًا برفق: الله أعلم بما تعملون وسيجازيكم على عملكم، واطمئن أيها النبى، لأن الله سيحكم بينك وبينهم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون، فيثيب المصيب ويعاقب الضال.

ثم أراد حملهم على الإقرار بمضمون ما سبق فقال: ألم تعلم أيها العاقل إن الله يعلم ما فى السماء والأرض، أى فلا يخفى عليه شىء من أعمال الكفار وأقوالهم، وكل ذلك فى كتاب محفوظ، إن ذلك المذكور من الحكم بينهم يوم القيامة والعلم بكل شىء سهل عليه تعالى.

ثم دلل على سخافة عقول المشركين حيث بنوا أهم أعمالهم على غير أساس من دليل سمعى أو عقلى فقال: ويعبدون من دون الله مالم ينزل بعبادته حجة فى كتاب سماوى، وما ليس لهم به علم عن دليل عقلى، وما لهؤلاء الظالمين لأنفسهم باحتقار عقولهم نصير ينصرهم فى الدنيا بدفع القتل والأسر عنهم، وفى الآخرة بمنع العذاب.

ثم بيَّن بعض جرائمهم الأخرى فقال: وإذا تتلى عليهم آياتنا القرآنية حال كونها واضحات

ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا[1] قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ[2] رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[3] ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟[4] فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ[5] وَمَا جَعَلَ

فى الدلالة على الحق ترى فى وجوه هؤلاء الكفار المنكر واضح.

المفردات: . ﴿المنكر﴾: الشىء المستقبح الكريه. ﴿ضرب مثل﴾: أصل المثل عند العرب الكلام المشتمل على تشبيه شىء بشىء فيه دقه وبداعة جعلته مشهورا يتناقله الناس، ثم أطلق بعد ذلك على الكلام البديع ولو لم يكن فيه تشبيه كما هنا وضربه تبيينه وإبرازه.

﴿ماقدروا الله حق قدره﴾: تقدم بيانها فى صفحة ١٧٧.

﴿اركعوا واسجدوا﴾: المراد صلوا، وعبّر عنها بأهم أركانها.

﴿حق جهاده﴾: أصل التركيب جهادًا حقا فعكست العرب التركيب للمبالغة كقولهم فى العالم الكبير: فلان جد عالم، أى عالم جدًا. ﴿هنا سجدة﴾. ﴿اجتباكم﴾: أى اختاركم لنصرة دينه.

المعنى: . تدرك فى وجوه الكفار علامات العزم على ارتكاب المنكر مع المؤمنين من تجهم وعبوس، حتى أنهم يكادون يبطشون بالنبى والمؤمنين من شدة غيظهم وتعصبهم لباطلهم. قل لهم أيها النبى مقرعا ومتوعدا: هل تسمعون فأخبركم بشىء أشد شرًا عليكم من غيظكم؛ ذلك الشىء هو النار التى وعدها الله بأن تحرق لحوم الذين كفروا، وبئست النار مرجعا ونهاية، انظر الآية (١١٩) من سورة هود صفحة ٣٠١، والآية (٤٤) من سورة الحجر صفحة ٣٤١، والآية (١٣) من سورة السجدة صفحة ٥٤٦، والآية (٨٥) من سورة ص صفحة ٦٠٥، والآية (٣٠) من سورة ق صفحة ٦٩٠. ثم لما قدم أنهم يعبدون من دون الله ما لم يدل دليل على جواز عبادته أراد أن يوضح سفههم فقال: يأيها الناس بيَّن الله تعالى لكم حالاً مستغربة جديرة بأن

(١) آياتنا. (٢) الملائكة. (٣) آمنوا. (٤) جاهدوا. (٥) اجتباكم.

تسمى مثلا يشيع فى الأمصار والأعصار فاسمعوه سماع تدبر وعناية، ثم بين هذا المثل فقال: ﴿إن الذين تدعون﴾ إلخ: أى أن الأصنام التى تدعونها من دون الله لايقدرون على خلق أحقر المخلوقات وأضعفها وهو الذباب، ولو اجتمعوا وعاون بعضهم بعضا فى خلقه لما استطاعوا، ثم بالغ فى عجز آلهتهم بأنها لاتقدر حتى على منع هذا المخلوق الضعيف من أن يسلب منها شيئًا قليلا مما يوضع عندها من طعام للتبرك، كما سيأتى فى شرح الآية (٩١) من سورة الصافات صفحة ٥٩٢، أو دهان فوق رءوسها قال ابن عباس: كانوا يطلونها بالزعفران، فما أضعف هذا العابد الطالب من الصنم أن ينفعه، وما أضعف هذا الصنم المطلوب منه النفع.

ثم أكد جهلهم بمقام خالقهم فقال: ﴿ماقدروا الله حق قدره﴾ أى ماعرفوا الله حق المعرفة اللائقة به سبحانه حيث أشركوا به أعجز الأشياء مع أنه وحده القوى على خلق العالم بأسره، العزيز الذى لايغلبه شىء مهما عظم. وبعد ما هدم سبحانه قواعد الشرك وأيد دعائم التوحيد، شرع فى إثبات الرسالة إبطالاً لما ضللوا به على الضعفاء من التشكيك فى رسالته ﷺ، انظر قولهم فيه صلوات الله عليه فى الآية (٣١) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠، والآية (٨) من سورة ص صفحة ٥٩٨، يحاكون بذلك قول أمثالهم فى أنبيائهم فى الآية (٢٥) من سورة القمر صفحة ٧٠٦ فقال سبحانه: ﴿الله يصطفى﴾ إلخ: أى أن حكمته سبحانه قضت أنه يختار من الملائكة رسلا يحملون الوحى إلى أنبيائه، ومن الناس رسلا يبلغون شرعه تعالى إلى خلقه، وهو وحده السميع لأقوال عباده، البصير بأعمالهم، فيعلم مَنْ يصلح منهم للرسالة، انظر الآية (١٢٤) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣، وهو سبحانه الذى يعلم ماعليه عباده فى حاضرهم، وماتركوه خلفهم، وإليه مرجع كل الأمور، فلا يصح لأحد أن يعترض عليه فى اختيار مَنْ يختار، فيأيها الذين آمنوا لايهمكم تضليل هؤلاء الكفار، وأقبلوا على طاعة ربكم من صلاة وعبادة وغيرها من فعل الخير مترجين من الله الفلاح أى الفوز بالنعيم الدائم. وجاهدوا فى سبيل مرضاة الله أعداء دينه وشهوات أنفسكم الجهاد الحق، وهو الذى لايخاف صاحبه لومة لائم، لأنه سبحانه هو الذى اختاركم لنصرة دينه ليجزل لكم الثواب فى الآخرة وهو الذى خفف عنكم ماكلفكم به.

عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

(٢٣) سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا ثَمَانِي عَشْرَةَ وَمِائَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ

المفردات: . ﴿حرج﴾: ضيق ومشقة. ﴿أبيكم إبراهيم﴾: سماه أبا أمة محمد ﷺ مع أن فيها مَنْ ليس من نسله، لأن أبا رسول الأمة يعتبر أباهم جميعا، لأن رسولها كالأب فى الرحمة بهم. ﴿ليكون الرسول شهيدا عليكم﴾ إلخ: تقدم فى صفحة ٢٧.

المعنى: . ما جعل سبحانه عليكم فيما شرعه لكم مشقة، انظر آخر سورة البقرة. الزموا ملة أبيكم إبراهيم التى امتن الله عليكم بأن هداكم لها كما فى الآية (١٦١) من سورة الأنعام صفحة ١٩١، ثم بيَّن سبحانه ما يؤيد اجتباءه للمؤمنين بقوله: هو سبحانه سماكم المسلمين من قبل نزول القرآن فى الكتب السابقة من صحف إبراهيم وموسى، وسماكم المسلمين أيضا فى هذا القرآن لتكون عاقبتكم يوم القيامة أن الشاهد عليكم بأن رسالة ربكم التى بلغتكم هى تلك التى بلغكم بها رسول الله ﷺ، وتكونوا أنتم شهداء على جميع الأمم السابقة بأن أنبياءهم بلغوهم شرع ربهم، بانين شهادتكم هذه على تصديقكم كتاب الله الذى جاء به رسولكم، وفيه القطع بأن الرسل بلغوا أممهم وآمن منهم البعض وكفر الباقى، وبما أن الله سبحانه خصكم بهذا الشرف فيجب

(١) إبراهيم
(٢) سماكم
(٣) الصلاة
(٤) وآتوا
(٥) الزكاة
(٦) مولاكم
(٧) خاشعون
(٨) للزكاة
(٩) فاعلون.

عليكم أن تشكروه بأداء الصلاة على أتم وجوهها وتؤتوا الزكاة مستحقيها، واعتصموا بالله أى تمسكوا بكل أوامره، ولا تثقوا إلا به فى جميع أموركم، ولا تطلبوا الإعانة إلا منه لأنه سبحانه هو وحده ناصركم ومتولى أموركم، فنعم المولى ونعم النصير سبحانه، لأنه لا مثيل له فى الموالاة والنصر، بل فى الحقيقة لا نصير سواه.

﴿أفلح المؤمنون﴾ : أى نجحوا وفازوا بالنعيم الدائم. ﴿اللغو﴾ : أصل اللغو الكلام الذى لا فائدة فيه، وقد يطلق عل كل مالا يعتد به من كلام أو عمل.

﴿للزكاة فاعلون﴾ : أصل معنى الزكاة النمو، والزيادة الحاصلة ببركة الله عز وجل. يقال زكا الزرع يزكو إذا حصل له نمو وبركة، ويقال زكَّى فلان نفسه أى نمىّ فيها حب الخير والطاعات، قال تعالى: ﴿قد أفلح مَنْ زكاها﴾ الآية (٩) من سورة الشمس صفحة ٨٠٩، واللام فى قوله ﴿للزكاة﴾ تسمى لام الباعث على العمل، أى والذين هم لأجل تنمية حب الخير فى أنفسهم فاعلون ما يحقق ذلك، وهو ما أمرهم الله سبحانه به من إخراج الزكاة، ويسمى الجزء من المال الذى يخرج للفقراء زكاة لأن إخراجه سببٌ للبركة وتنمية حب الخير، انظر الآية (١٠٣) من سورة التوبه صفحة ٢٥٩، ولا يصح أن يراد بالزكاة هنا المال لأنه لا يقال فعل فلان المال مثلاً لأن مادة فعل لا تتعلق إلا بالمعانى، ولا تتعلق بالأجسام المادية، فيقال فعل فلان الإحسان، وفعل الشر مثلاً، ولا يقال فعل القمح أو الفول مثلاً.

﴿فروجهم﴾ : يطلق الفرج على كل من سوءتى الرجل والمرأة.

سورة المؤمنون

قد فاز بالمرغوب المؤمنون بالله حقا، الذين إذا وقفوا بين يدى ربهم فى الصلاة ملأ الخوف من جلاله قلوبهم، وسكنت جوارحهم، وعلموا أنه سبحانه مطلع عليهم يراقب أقوالهم وأفعالهم، والذين هم معرضون عن كل ما لا فائدة فيه وعن غيره من باب أولى. والذين هم لأجل تطهير نفوسهم من دنس الشح فاعلون ما يقربهم إلى الله من إخراج الزكاة لمستحقيها، والذين يحافظون على فروجهم إلخ.

حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ

المفردات : ﴿ابتغى﴾ : أى طلب.

﴿وراء ذلك﴾ : المراد غير ذلك.

﴿العادون﴾ : البالغون النهاية فى العدوان ومجاوزة حدود الشرع.

﴿أماناتهم﴾ : مفردها أمانة، وهى ما يؤتمن عليه الشخص من جهة الله سبحانه كالتكاليف الشرعية، أو من جهة الناس كالأموال المودعة عنده. وعهدهم ما عاهدوا عليه ربهم بقبول شرعة وتصديق رسله والوفاء بعهودهم وما عاهدوا عليه ربهم كالنذر مثلا، أو عاهدوا عليه الخلق من كل ما فيه مصلحة وليس ضارا بأحد. ﴿راعون﴾ : أى مراعون وحافظون. ﴿يحافظون﴾ : أى يؤدونها فى أوقاتها. ﴿الوارثون﴾ : أصل الإرث أخذ الشىء عن الغير من غير عقد بيع ولا هبة ولا غير ذلك، ثم استعمل فى مطلق استحقاق شىء، ومنه ما هنا وهو استحقاق الجنة، انظر الآية (٤٣) من سورة الأعراف صفحة ١٩٩، والآية (٦٣) من سورة مريم صفحة ٤٠٢. ﴿سلالة من طين﴾: السلالة هى الخلاصة التى سلت من غيرها، والغير هنا هو الطين الذى هو من التراب، انظر الآية (٣٧) من سورة الكهف، والآية (١١) من سورة فاطر صفحة ٥٧٣، والآية (١٧) من سورة نوح صفحة ٧٦٩. ﴿نطفة﴾ : هى الحيوان المنوى الموجود فى المنى وهو الماء الدافق، انظر الآية (٣٧) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠. ﴿قرار مكين﴾ : أى مستقر حصين وهو الرحم

(١) حافظون (٢) أزواجهم (٣) ايمانهم
(٤) لأماناتهم (٥) راعون (٦) صلواتهم
(٧) الوارثون (٨) خالدون (٩) الإنسان
(١٠) سلالة (١١) جعلناه (١٢) عظاما
(١٣) العظام (١٤) أنشأناه (١٥) آخر
(١٦) الخالقين (١٧) القيامة.

المحاط بصندوق من عظام الظهر والجانبين وفوق العانة إلى آخر مالا يعرفه إلا الأخصائيون.

﴿علقة﴾، ﴿مضغة﴾ : تقدما فى صفحة ٤٣٣. ﴿الخالقين﴾ : يطلق الخلق بمعنى الإيجاد وهذا خاص بالله تعالى وبمعنى التقدير، والمراد هنا الثانى، وهذا يطلق على غيره تعالى، انظر الآية (٤٩) من سورة آل عمران صفحتى ٧٠، ٧١.

﴿طرائق﴾ : مفردها طريقة بمعنى مطروقة كذميمة بمعنى مذمومة، مأخوذة من قولهم طارق الرجل بين ثوبين إذا لبس أحدهما فوق الآخر، فهى بمعنى ﴿الطباق﴾ فى الآية (٣) من سورة الملك صفحة ٧٥٤.

المعنى : . والذين هم لفروجهم حافظون بإمساكها عن كل أجنبى وأجنبية، إلا على أزواجهم من رجل أو امرأة، أو ما ملكت أيمانهم، وهذا خاص بالرجال فقط، فهم الذين يجوز لهم التمتع بالمملوكات، أما المرأة فلا يحل لها التمتع بمملوكها؛ فهم غير مؤاخذين فى التمتع بما أحل لهم، فمَنْ طلب غير ما أحل له فأولئك هم المتوغلون فى العدوان على حدود الله، والذين هم لأماناتهم وعهودهم حافظون والذين يحافظون على صلواتهم بأدائها فى أول أوقاتها؛ هؤلاء الجامعون لهذه الخصال السبع وهم وحدهم المستحقون لأن يرثوا الفردوس، وهو أعلى الجنة، خالدين فيها. وبعد أن ذكر سبحانه صفات السعداء أتبع ذلك بذكر مبدأ خلقهم ومآل أمرهم ومآل غيرهم من بنى الإنسان، لبيان كمال قدرته وتمام نعمته، وليذكرهم بالخوف من عصيانه، فقال: ولقد خلقنا الإنسان من سلالة مستخلصة من الطين الذى أصله من التراب والماء، ثم جعلنا هذه السلالة نطفة، وحفظناها فى مكان حصين، ثم حولنا النطفة إلى علقة، فحولنا العلقة مضغة، فحولنا أكثر المضغة عظاما، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر بنفخ الروح فيه فصار حيا بعد أن كان جمادا ميتا، فتعالى شأنه سبحانه، وهو أحسن المقدرين المنظمين، لا اختلال فى تقديره. ويؤخذ من العطف بـ (ثم) تارة وبـ (الفاء) أخرى، إن المدة بين كل حال وأخرى تختلف بما لا يعلم مقداره بالضبط سواه سبحانه. ثم إنكم يا بنى آدم بعد هذا الخلق والحياة المقدرة لكل منكم لميتون، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون للجزاء والحساب. ولقد خلقنا فوقكم سبع سموات مطروق بعضها فوق بعض وما كنا عن جميع الخلق بما فيه هذه السموات بغافلين لحظة.

غَٰفِلِينَ[1] ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ[2] فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ[3] ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ[4] مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ[5] لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ[6] كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ[7] ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ[8] لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ[9] كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ[10] ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟[11] ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً[12] مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا[13] ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا

المفردات : . ﴿بقدر﴾ : أى بمقدار معين.

﴿شجرة﴾ : هى شجرة الزيتون.

﴿طور سيناء﴾ : هو المكان الذى ناجى موسى ربه عنده، ويسمى طور سينين كما فى الآية (٢) من سورة التين صفحة ٨١٣.

﴿بالدهن﴾ : هو الزيت.

﴿وصبغ﴾ : هو الزيت باعتبار أنه مؤتدم به، والكلام من عطف الصفة على الموصوف، انظر الآية (٤٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥.

وسمى الزيت صبغا لأن الخبز يصبغ به عندما يغمس فيه.

﴿الأنعام﴾ : الإبل والبقر والغنم.

﴿الملأ﴾ : هم الزعماء وأصحاب الرأى.

﴿إن هو﴾ : إن حرف نفى بمعنى ما.

المعنى : . وما كنا عن هذه المخلوقات غافلين، بل حفظناها من الزوال والاختلال. وأنزلنا من جهة السماء ماء هو المطر مقترنا بمقدار كفاية الخلق فى مصالحهم بدون إضرار بهم، وإنا قادرون على إذهابه بتغويره وامتصاص الأرض له، أو تبخيره فى الهواء، أو استحالة

---

(١) غافلين (٢) فاسكناه (٣) لقادرون
(٤) جنات (٥) وأعناب (٦) فواكه
(٧) للآكلين (٨) الأنعام (٩) منافع
(١٠) يا قوم (١١) الملأ (١٢) ملائكة
(١٣) آبائنا.

استخراجه من باطن الأرض لسبب ما؛ فأنشأنا لكم بهذا الماء جنات من نخيل وأعناب وغيرهما، وخصهما بالذكر لكثرة الانتفاع بهما خصوصا فى بلاد العرب. لكم فى هذه الجنات فواكه غير النخيل والعنب كثيرة، ومما فى هذه الجنات من زروع وثمار تأكلون، والمراد تنتفعون أكلا أو بيعا؛ تقول العرب فلان يأكل من حرفته أى يرتزق منها. وأنشأنا لكم بالماء أيضا شجرا مباركا هو شجر الزيتون الذى ينبت فى وادى الطور، وخصها بالذكر بعدما تقدم لكثرة منافعها، ولمكثها فى الأرض أكثر من كل الشجر، حتى قال بعضهم أنها تعيش نحو ألف عام، تنبت مصاحبة للدهن، كقولهم جاء فلان بثياب السفر، والمراد تخرج من ثمرها الزيت الجامع بين كونه يدهن به وتسرج به المصابيح، وبين كونه إداما يصبغ فيه الخبز أى يغمس وبعدما بين نعمته تعالى من جهة الزرع أراد بيان نعمه من جهة الحيوان فقال : وإن لكم فى الأنعام لعبرة تستدلون بها على قدرتنا وعلى فضلنا عليكم، نسقيكم مما فى بطونها من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين كما فى الآية (٦٦) من سورة النحل صفحة ٣٥٤. ولكم فيها منافع كثيرة من أصوافها وأوبارها وأشعارها انظر الآية (٨٠) من سورة النحل صفحة ٣٥٦، وتأكلون من لحومها، وعلى أعظمها عندكم وهو الإبل تحملون فى البر كما تحملون فى السفن فى البحر، انظر الآية (٧) من سورة النحل صفحة ٣٤٦.

ثم أراد سبحانه أن يذكر كفار قريش بمآل مَنْ أهمل الاعتبار وجحد نعمة الله وكذب رسله فأهلكهم الله، فقال: ولقد أرسلنا نوحا فقال يا قوم اعبدوا الله وحده فما لكم من إله غيره، فهل يصح أن تلجوا فى عمايتكم فلا تخافوا عذاب ربكم؟ فقال الزعماء الذين كفروا من قومه لعوامهم: ما هذا الرجل الذى يدعى أنه رسول إلا بشر مثلكم، أى وليس ملكا، يريد أن يتفضل عليكم ويكون سيدا لكم، ولو شاء الله أن يرسل رسولا لأرسل ملائكة رسلا، ما سمعنا بأن لله رسولا من البشر فيما نقل عن آبائنا الأولين، وهذا إما لفرط عناد هؤلاء الزعماء لتضليل العوام أو لأنهم كانوا بعد فترة طويلة انقطعت عنهم فيها أخبار مَنْ أرسل قبلهم؛ وإذا كان هذا غير مسموع فما نوح إلا رجل مجنون.

رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ

المفردات : ﴿جنَّة﴾: جنون.

﴿فتربصوا﴾ : انتظروا.

﴿حتى حين﴾ : إلى أن يفيق من جنونه.

﴿بأعيننا﴾ : تحت رعايتنا وحفظنا.

﴿أمرنا﴾ : بنزول العذاب بهم.

﴿وفار التنور﴾: نبع الماء بكثرة من تنور الخبز، انظر الآية (٤٠) من سورة هود صفحة ٢٩٠.

﴿فاسلك فيها﴾ : فأدخل فى السفينة.

﴿زوجين﴾ : ذكرًا وأنثى من كل نوع من الحيوانات.

﴿من سبق عليه القول﴾ : سبق القضاء بهلاكه.

﴿لآيات﴾ : لعبرا وعظات.

﴿مبتلين﴾ : أصل الابتلاء الاختبار.

﴿قرنا آخرين﴾ : هم عاد قوم هود، انظر ما يدل على أن هودًا بعد نوح فى صفحات ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٩١، ٤٨٧.

﴿رسولاً منهم﴾ : هو هود عليه السلام.

(١) تخاطبنى
(٢) نجانا
(٣) الظالمين
(٤) لآيات
(٥) آخرين
(٦) الآخرة
(٧) اترفناهم.

﴿أترفناهم﴾: أى نعمناهم بسعة الرزق وغيره، يقول العربى: تَرِف فلان بفتح التاء وكسر الراء يترف بوزن فرح يفرح أى تنعم، وأترفه غيره نَعَّمَهُ.

المعنى: . قالوا ما نوح إلا رجل أصابه جنون فانتظروا حتى يفيق من جنونه، قال نوح بعد ما يئس من إيمانهم: يارب انصرنى عليهم بسبب استمرارهم على تكذيبى، فأجبنا دعاءه، وأوحينا إليه بأن يصنع السفينة تحت رعايتنا ووحينا إليه بكيفية عملها، فإذا جاء أمرنا بنزول العذاب بهم وفار التنور بالماء كما بيَّن فى الآية (٤٠) من سورة هود صفحة ٢٩٠، فاحمل فيها من كل حيوان زوجين، أى ذكرا وأنثى، وأكد ذلك بقوله اثنين، أى لا أكثر، حتى تتسع لكل الأنواع، واحمل فيها أيضا أهلك من نساء وذرية ومَنْ آمن معك، انظر صفحة ٢٩٠، إلا مَنْ سبق قضاء الله بهلاكه منهم لكفره، وأنت تعرف الكافر منهم والمؤمن، فلا تصحب منهم كافرًا. وقال (عليه) لأن الحاصل له ضار، والنافع يعدى له باللام، انظر الآية (١٠١) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١، والآية (٤٦) من سورة فصلت صفحة ٦٣٦، ولا تخاطبنى يا نوح فى نجاة الظالمين منهم بأن تطلب ذلك لأنى حكمت بإغراقهم، ومن كان هذا مآله لا تصح الشفاعة فيه، انظر الآية (١٠٩) من سورة طه صفحة ٤١٦.

فإذا علوت أنت ومَنْ معك على الفلك وتمكنتم من ظهرها فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين، وقل أيضا يارب أنزلنى من السفينة بعد ذهاب الماء مكانا مباركا يساعدنا على العمل لخيرى الدنيا والآخرة، وأنت خير المنزلين، إن فيما حصل لنوح وقومه لعبرا وعظات، وإنا كنا فيما فعلناه بهم معاملين عبادنا معاملة المختبر ليظهر مَنْ يعتبر ومَنْ يهمل، انظر الآية (١٥) من سورة القمر صفحة ٧٠٥، ثم أنشأنا من بعد نوح وقومه أمة أخرى هى عاد، فأرسلنا فيهم رسولا منهم هو أخوهم هود قائلا لهم اعبدوا الله ليس لكم إله غيره، هل يصح بعد هذا أن تهملوا فلا تتقوا عذابه، وقال كبار قوم هود الذين كفروا بالله وكذبوا بلقاء ما فى الآخرة من حساب وجزاء، والذى جراهم على ما قالوه مما سيأتى هو ما كانوا فيه من الترف والنعيم، انظر ما قيل فى صفحة ٣٦٦.

فِي الْحَيَوٰةِ[1] الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا
تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم
بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ[2] ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ
إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا[3] أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾
* هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا
الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا
رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾
قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ
نَٰدِمِينَ[4] ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ[5] غُثَاءً
فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ[6] ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا
ءَاخَرِينَ[7] ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ[8] ﴿٤٣﴾
ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ

المفردات: . ﴿هيهات﴾ : اسم فعل بمعنى بعُد بضم العين، وفاعله ضمير يرجع إلى شىء مفهوم من السياق وهو هنا البعث بعد الموت، وكررت للتوكيد.

﴿لما توعدون﴾ : اللام تسمى لام البيان، تبين مرجع الضمير بأنه هو البعث من القبور الذى وعدهم به هود، ونظير هذه اللام يأتى فى الآية (٤١) الآتية.

﴿إن هى إلا﴾ : إن حرف نفي بمعنى ما.

﴿عما قليل﴾ : أصلها عن ما، ثم أدغمت (عن) بمعنى بعد و (ما) المراد بها هنا زمن أى بعد زمن قليل.

﴿الصيحة﴾: أصل الصيحة هى المرة من الصياح. وهو الصوت الشديد المزعج، والمراد بها هنا مطلق العذاب الشديد لأنهم أهلكوا بريح عاتية كما الآية (٦) من سورة الحاقة صفحة ٧٦١، وسميت صيحة لأنه كان مع الريح صوت جبريل.

﴿غثاء﴾ : ما يحمله السيل من العيدان والورق والأشياء البالية المغبرة.

﴿فبعدا﴾ : أى هلاكا. ﴿تترا﴾ : أصلها (وترا) من الوتر، وهو الفرد. والعرب تبدل الواو فى مثل ذلك ﴿تاء﴾ والألف للتأنيث. لأنها حال من جماعة الرسل، والجمع يؤنث لفظه فيقال جاءت الرسل، وهى فى الأصل مصدر كالمواترة، وأريد بها الصفة أى متتابعين.

(١) الحياة	(٢) لخاسرون	(٣) عظاما
(٤) نادمين	(٥) فجعلناهم	(٦) الظالمين
(٧) آخرين	(٨) يستأخرون.	

المعنى : . وقال الزعماء الذين نعمناهم فى الدنيا بكثرة المال والأولاد ما هذا النبى إلا بشر مثلكم، ثم بينوا وجه المماثلة بقولهم : يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربونه، أى والرسول لابد أن يكون من الملائكة أى أشرف منكم، ووالله إن أطعتم بشرا مثلكم فيما يأمركم به إنكم إذا أطعتموه لخاسرون كرامتكم لأنكم أذللتم أنفسكم لشخص لا مزية له عليه.

ومن فساد عقولهم أنهم لم يقبلوا الخضوع لبشر وعبدوا الحجر، ثم بينوا وجه اعتراضهم على قوله فقالوا: هل يصح أن يعدكم بالخروج من القبور بعد أن تموتوا وتصيروا ترابا وعظاما؟ كلا، بل بعُد جدًا ما يعدكم به، فما الحياة التى يمكن أن نحياها إلا هذه الحياة التى يسميها هو الدنيا زاعما أن بعدها أخرى، نموت ونحيا، أى يموت بعضنا ويحيا بالميلاد غيره، أو ينقرض قرن ويأتى قرن، وما نحن بمبعوثين بعد الموت أبدًا، ما هذا النبى إلا رجل افترى على الله كذبا فيما يدعيه من أنه أرسله، وما نحن له بمصدقين. وهذا يدل على أن كثيرا ممَّنْ ينكرون البعث يؤمنون بوجود الله كما سيأتى فى الآيات من (٨٢ إلى ٨٩) من هذه السورة صفحتى ٤٥٣، ٤٥٤.

عند ذلك قال الرسول يارب انصرنى عليهم بالانتقام منهم بسبب تكذيبهم لى. فأجاب الله عز وجل دعاءه وقال انتظر فبعد شىء قليل من الزمن ليصيرن نادمين على تكذيبك عندما يشاهدون العذاب، فأهلكتهم صيحة جبريل مع الريح العاتية بالحق، أى لم يظلموا، بل هم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر وترك النظر فى الدليل، فجعلناهم بهذا العذاب مفتتين كورق الشجر الجاف فأهلكناهم هلاكا مبينا بأنه للقوم الظالمين.

ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين هم قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم، ولما فعلوا مثل فعلهم أهلكناهم أيضا فى الوقت المحدد لكل منهم، فما سبقت أمة منهم أجلها المحدد لهلاكها ولم تتأخر عنه، ثم بعد ذلك أرسلنا رسلنا متتابعين إلى أممهم فكانوا كلما جاء أمة رسولها كذبوه كأنهم تواصوا بذلك كما فى الآية (٥٣) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٥، والآية (١١) من سورة الصافات إلى آخر السورة.

فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ[1] فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ[2] بِـَٔايَـٰتِنَا[3] وَسُلْطَـٰنٍ[4] مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ[5] فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ[6] ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا[7] مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ[8] لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً[9] وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ[10] إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ[11] وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا[12] إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً[13] وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا[14] نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ

المفرادت : . ﴿أحاديث﴾ : جمع أحدوثة، كأعاجيب وأعجوبة، والأحدوثة ما يتحدث به الناس لغرابته. ﴿بآياتنا﴾ : هى التسع المبينة فى صفحة ٣٧٨. ﴿وسلطان مبين﴾ : أى حجة قوية، وهى العصا، انظر بيان ذلك فى الآية (٩٦) من سورة هود صفحة ٢٩٨. ﴿وملئه﴾ : هم كبار قومه. ﴿فاستكبروا﴾ : أى على الإيمان بموسى وهارون واحتقروهما، انظر الآية (٤٧) الآتية هنا، والآية (١٨) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٠، والآية (٢٧) من نفس السورة صفحة ٤٨١، والآيات (٤٧، ٥٢، ٥٣) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٢. ﴿عالين﴾: متطاولين بغيا وظلما. ﴿عابدون﴾ : خادمون خاضعون كالعابدين. ﴿الكتاب﴾ : التوراة. ﴿آية﴾ : أى دليلا على تمام القدرة حيث ولدته من غير مسيس رجل. ﴿آويناهما﴾ : أى سقناهما إلى ربوة جعلناها مأوى لهما. ﴿ربوة﴾ : هى ما ارتفع من الأرض أقل من الجبل وهو بيت المقدس. ﴿قرار﴾ : أى استقرار للناس لما فيه من الزرع والثمار. ﴿معين﴾ : ماء جار يرى بالعين. ﴿أمتكم﴾.... إلخ: ملتكم وشريعتكم، انظر الآية (٢٢) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٩. ﴿فتقطعوا أمرهم بينهم﴾ : قطعهم الشيطان فتقطعوا وتفرقوا فى أمر دينهم، انظر الآية (٩٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣٠. ﴿زبرا﴾ : جمع زُبْرَة بضم فسكون، بمعنى قطعة، كما تقدم فى الآية (٩٦) من سورة الكهف صفحة ٣٩٤، لكن الجمع هناك على (فُعَل) بضمتين جمع سماعى، انظر القاموس، فإنه قال : إن (فُعْلَة) بضم فسكون تجمع بهذين الجمعين، وبما أن علماء العربية عولوا فى إثبات الجموع السماعية على سماعها من عربى أيا كان ولو كان جاهلا، فكيف لا نعول على السماع من أفصح كلام أعجز فحول العرب، فافهم هذا ولا تشغل نفسك بما تكلفوه هنا لجعل الجمع قياسيا مع أن الجموع السماعية لا تحصر؛ والمراد هنا من

(١) جعلناهم (٢) هارون (٣) بآياتنا (٤) سلطان (٥) وملئه (٦) عابدون (٧) آتينا
(٨) الكتاب (٩) آية (١٠) وآويناهما (١١) الطيبات (١٢) صالحا (١٣) واحدة (١٤) أن ما.

﴿زبرًا﴾ فرقا. ﴿ذرهم﴾ : أى اتركهم. ﴿غمرتهم﴾ : أصل الغمرة الماء الذى يغمر قامة الشخص، والمراد ما يغمرهم من جهل وغفلة. ﴿حتى حين﴾ : إلى الزمن المقدر لهلاكهم. ﴿نمدهم به﴾ : أى نعطيه لهم ونجعله مددا لتمتعهم.

المعنى : . ولما جاء إلى كل أمة رسولها وكذبوه أتبعنا بعضهم بعضا فى الهلاك، وجعلناهم أحاديث سمر لمَنْ بعدهم؛ فهلاكا لكل مَنْ لا يؤمن بربه. ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا الدالة على صدقهما، وهى حجج واضحة فى الدلالة على الحق إلى فرعون وكبار قومه، لأنهم هم القادة يتبعهم العوام، فاستكبروا عن الإيمان بهما لأنهم كانوا متوغلين فى الاستعلاء على الخلق، فلجوا فى العناد خوفا على مراكزهم الفانية. يدل على ذلك قولهم كيف نؤمن أى نصدق بشرين مثلنا وليسوا ملائكة حتى يكونوا ممتازين علينا، وأيضا قومهما الإسرائيليون خدام خاضعون لنا فكيف نخضع كخدامنا؟ وبهذا كذبوا موسى وهارون، فأهلكهم الله تعالى بالإغراق فى البحر كما أهلك مَنْ قبلهم لما كذبوا رسلهم. وبعد بيان فضله على بنى إسرائيل بإهلاك عدوهم أراد أن يبين فضله عليهم بإعطائهم التوراة فقال:

ولقد آتينا موسى الكتاب رجاء أن يهتدى به قومه، وجعلنا عيسى وأمه آية لبنى إسرائيل، وجعلناهما ينزلان بمرتفع من الأرض ذى ثمار وماء جار يرى بالعين، وقلنا لجميع الرسل كل فى زمنه ومنهم موسى وعيسى: كلوا من طيبات ما رزقناكم، واشكروا ربكم بعمل الصالحات، إنى عليم بعملكم وأجازيكم عليه، وقلنا لهم إن هذه الملة التى هى الإسلام كما فى الآية (١٩) من سورة آل عمران صفحة ٦٥ هى ملتكم ودينكم الذى اخترناه لكم حال كونها واحدة فى الأصول التى لا تتبدل بتبدل البلاد والعصور، وأنا ربكم الواحد فخافوا عاقبة عصيانى؛ فماذا كان من أمم هؤلاء الرسل بعد هذا الإرشاد والتحذير؟ كان منهم أن قطعوا هذا الدين الذى يجب أن يكون واحدًا، وجعلوا كل قطعة دينا يتحزب له أتباعه ويحاربون غيره، وكل حزب منهم مسرور بما رضيه لنفسه حسب هواه، انظر الآية (٣٢) من سورة الروم صفحتى ٥٣٤، ٥٣٥، والآية (٦٥) من سورة الزخرف صفحتى ٦٥٣، ٦٥٤. ولما كان من هؤلاء المتحزبين لما اختاروه الكفار المعاصرون لنبينا ﷺ، خاطبه سبحانه بما ينبغى أن يفعله معهم بعد اليأس منهم، فقال تعالى: فذرهم غارقين فى جهلهم وسكرتهم إلى حين وقت الانتقام منهم، انظر الآية (٦) من سورة البقرة صفحة ٤. ثم بين سبحانه بعض أسباب غرورهم فقال: ﴿أيحسبون﴾ ... إلخ.

وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى الْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا

المفردات : . ﴿بل﴾ : كلمة تدل على الإضراب عما قبلها والانتقال لما بعدها.

﴿مشفقون﴾ : شديدو الحذر.

﴿لا يشركون﴾ : نص عليه بعد إثبات إيمانهم بالله لأن الإيمان بالله قد يجتمع مع الشرك، انظر آيتى (٨١، ٨٢) من سورة الأنعام صفحة ١٧٥، والآية (١٠٦) من سورة يوسف صفحة ٣١٩.

﴿وجلة﴾ : خائفة أن لا يقبل منهم ما أعطوه.

﴿وهم لها سابقون﴾ : أى لأجلها سابقون الناس.

﴿كتاب﴾ : المراد به صحيفة الأعمال، انظر الآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٧، ٣٨٨، والآية (٢٩) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٤.

(١) الخيرات
(٢) بآيات
(٣) آتوا
(٤) راجعون
(٥) يسارعون
(٦) الخيرات
(٧) كتاب
(٨) أعمال
(٩) عاملون
(١٠) يجأرون
(١١) تجأروا
(١٢) آياتى
(١٣) أعقابكم
(١٤) سامرا.

﴿غمرة﴾ : أى غفلة، انظر أصلها فى الآية (٥٤) السابقة من هذه السورة.

﴿من هذا﴾ : أى الكتاب أو مما جاء فى القرآن.

﴿مترفيهم﴾ : أى متنعميهم انظر الآية (١١٦) من سورة هود صفحة ٣٠١.

﴿يجأرون﴾ : أى يصرخون مستغيثين.

﴿أعقابكم﴾ : جمع عَقِب بفتح فكسر وهو مؤخر قدم رجل الإنسان.

﴿تنكصون﴾ : النكوص الرجوع إلى جهة الظهر وهو أقبح السير، لأن صاحبه لا يرى ما هو قادم عليه، والكلام كناية عن الإعراض الشنيع.

﴿مستكبرين به﴾ : الضمير يعود على البيت الحرام، واستغنى عن ذكره لشهرة افتخار قريش بأنهم خدامه والقوامون عليه وعلى السقاية فيه، انظر الآية (١٩) من سورة التوبة صفحتى ٢٤٢، ٢٤٣.

﴿سامرا﴾ : اسم جمع بمعنى سامرين بوزن حاج اسم جمع بمعنى حجاج، وهو حال من ضمير الكفار، والسامرون هم الذين يتسلون بالأحاديث فى الليل.

المعنى : . هل يظن هؤلاء الكفار أن الذى نعطيه لهم من المال والبنين نسارع لهم به فيما فيه خيرهم؟ لا، لأن الواقع أنهم كالأنعام لا يشعرون أنه استدراج ليزدادوا إثما فيزداد عذابهم جزاء شدة عنادهم وإعراضهم، انظر الآية (١٧٨) من سورة آل عمران صفحة ٩٢، والآية (٤٤) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٨، ١٦٩، والآية (٥٥) من سورة التوبة صفحة ٢٥٠، والآيات من (٣٤ إلى ٣٩) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٧، ٥٦٨، ولذا جاء فى المأثور:

إذا رأيت الله تعالى يعطى عبدا مع استمراره على معاصيه فاعلم أنه تعالى مكر به.

نسأل الله السلامة. وبعد ما بيَّن سبحانه مَنْ فرقوا دينهم حسب أهوائهم وغفلوا عما يراد بهم، شرع فى بيان الناجين فقال: إن الذين هم من خوف عذاب ربهم حذرون فلا يفعلون إلا ما يرضيه، والذين هم بآيات ربهم المنزلة والمنصوبة فى الآفاق يصدقون بما تدل عليه، والذين لا يخالط إيمانهم شرك، انظر الآية (٨٢) من سورة الأنعام صفحة ١٧٥، والذين يعطون الفقراء ما يعطونه والحال أن قلوبهم خائفة أن لا تكون على الوجه الذى يرضاه ربهم لعلمهم أنهم إلى ربهم راجعون فيحاسبهم على ما انطوت عليه نفوسهم، أولئك الموصوفون بما ذكر يسارعون فى فعل الخيرات وهم لأجلها سابقون الناس إلى الجنة، انظر الآية (١٠) من سورة الواقعة صفحتى ٧١٣، ٧١٤، ثم رغب سبحانه فى فعل الخيرات ببيان أنها سهلة على كل موفق لها فقال:

﴿ولا نكلف نفسا إلا وسعها﴾ أى قدر طاقتها، وعندنا كتاب أعمالهم يظهر أعمالهم على الوجه الحق ولا يظلمون شيئا من جزاء أعمالهم.

ثم انتقل سبحانه عن الكلام فى المتقين ورجع إلى الكلام فى حال المشركين فقال: بل قلوبهم أى قلوب الكفرة فى غفلة عن هذا الذى بينه القرآن من وجود كتاب يسجل عليهم أعمالهم، ولهم أعمال سيئة كثيرة غير غفلتهم هذه من معاص متعددة هم مستمرون على فعلها، حتى إذا أخذنا المتنعمين منهم بعذاب القتل والأسر والجوع الذى سلط عليهم حتى أكلوا الجيفة إذا هم يصرخون مستغيثين، فيقال لهم :

لا تجأروا اليوم فإنه لا ينفعكم، لأنكم لا تجدون منا نصرًا، لأن آياتى القرآنية كانت تتلى عليكم فكنتم تعرضون عنها إعراضا مستقبحا، لأنه ناتج عن اللجاج وعدم التعقل؛ تفعلون ذلك حال كونكم مستكبرين علي غيركم مفتخرين بسبب البيت الحرام حال كونكم تستمرون بالطعن فى القرآن وفى الدين.

تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ[1] الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ[2] ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ[3] وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم[4] بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ[5] خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ[6] ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ[7] مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ[8] عَنِ الصِّرَاطِ[9] لَنَاكِبُونَ[10] ﴿٧٤﴾ * وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ[11] وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ[12] يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم[13] بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ

المفـرادت : . ﴿تهجـرون﴾ : من الهجر بضم فسكون وهو فحش القول. ﴿أم﴾ : بمعنى بل التى تفيد الانتقال من توبيخ إلى توبيخ آخر. ﴿أم جاءهم ما لم يأت﴾ إلخ: انظر الآية (٢٤) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٤، ٥٧٥. ﴿جنة﴾ : أى جنون. ﴿بل﴾ : حرف يدل على إبطال ما قبله وإثبات ما بعده. ﴿بذكرهم﴾ : هو القرآن الذى به فخرهم وشرفهم، انظر الآية (١٠) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١. ﴿خرجا﴾ : الخرج والخراج مقابل الدخل، فهو كل ما تعطيه لغيرك، والغالب فى الخراج أن يكون أكثر من الخرج.

﴿خير الرازقين﴾ : تقدم بيانها فى الآية (٥٨) من سورة الحج صفحة ٤٤٢. ﴿ناكبون﴾ : أى منحرفون مبتعدون. ﴿يعمهون﴾ : عَمِهَ بفتح فكسر بوزن رضى، وفتحتين بوزن منع أى تحير وتخبط. ﴿استكانوا﴾ : خضعوا.

المعنى : . هم مفتخرون بالبيت الحرام متسامرين عنده بفحش القول وهو الطعن فى القرآن. ثم استنكر سبحانه عملهم بقوله ﴿أفلم يدبروا القول﴾ إلخ: أى هل يصح أن يلجوا فى طغيانهم فلم يتدبروا القرآن الذى هو قول ربهم، ولو تدبروه لعلموا أنه الحق فآمنوا. ثم انتقل سبحانه من توبيخ إلى توبيخ بشىء آخر فقال ﴿أم جاءهم﴾ إلخ: أى بل هل جاءهم رسول وكتاب لم يأت آباءهم الأولين مثلهما فلذا استبعدوا رسالة محمد ووقعوا فيما وقعوا فيه؟

(١) آباءهم (٢) كارهون (٣) السموات
(٤) آتيناهم (٥) تسالهم (٦) الرازقين
(٧) صراط (٨) بالآخرة (٩) الصراط
(١٠) لناكبون (١١) رحمناهم (١٢) طغيانهم
(١٣) أخذناهم.

الحق أن مجىء الرسل سنة الله التى لا تنكر، وأن العرب يعرفون أن إبراهيم رسول الله، وأنه أتى بالصحف التى فيها شرع الله، انظر الآية (١٩) من سورة الأعلى صفحة ٨٠٤. ثم انتقل إلى توبيخ آخر فقال ﴿أم لم يعرفوا﴾ إلخ : أى بل هل لم يعرفوا رسولهم محمد ﷺ بالأمانه والصدق وحسن الخلق. إلى غير ذلك من الكمالات اللائقة بالرسل حتى يترتب على عدم علمهم صحة إنكارهم لرسالته؟ الحق أنهم عرفوه بكل كمال لائق بالأنبياء فكيف ينكرونه؟ ثم انتقل إلى توبيخ بوجه آخر فقال ﴿أم يقولون﴾ إلخ : أى بل هل يقولون بمحمد ﷺ جنون؟ لا يمكن أن يصح هذا لأنه عليه السلام كان أرجح الناس عقلا، ولذا أبطل ما يظن أن يقال عنه فقال: بل جاءهم بالحق من توحيد الله ودين الإسلام الذى رضيه سبحانه دينا لكل الأنبياء، وأكثر قريش كارهون للحق لتحجر قلوبهم. أما أقلهم فعدم إيمانهم إنما هو للخوف من الكثرة لا لكراهية الحق؛ ولذا لما اطمأنوا دخلوا فى الإسلام أفواجا. ولو اتبع سبحانه فيما يعمل ويشرع ما يوافق شهواتهم لاختل نظام العالم لتناقص أهوائهم وفسادها. ثم انتقل سبحانه من التوبيخ على كراهة الحق إلى التوبيخ بالإعراض عن النافع عند جميع العقلاء فقال ﴿بل أتيناهم﴾ إلخ: أى جئناهم بالقرآن الذى فيه شرفهم لأنه بلغتهم. فهم لجهلهم بما فيه فخرهم معرضون. ثم انتقل إلى توبيخ آخر مع تحويل الكلام من الغيبة إلى الخطاب ليناسب ما بعده فقال ﴿أم تسألهم﴾ إلخ : أى بل هل يظنون أنك تطلب منهم على أداء الرسالة جعلا؟ كلا، فإنك لم تطلب لعلمك بأن ما يعطيك ربك من رزق حسن فى الدنيا وثواب فى الآخرة خير، وهو سبحانه خير المعطين للخيرات. وإنك أيها النبى والله لتدعوهم إلى سلوك طريق مستقيم هو الإسلام ولكن هؤلاء لأنهم لا يؤمنون بالآخرة حتى يخافوا عقاب الله مبتعدون عن طريق الحق. وقد بلغوا من التمرد والعناد أنهم لو مسهم ضر شديد فرحمنا ضعفهم وكشفناه عنهم لتمادوا فى اللجاج فى طغيانهم أى إفراطهم فى الكفر حال كونهم يتخبطون. ولقد أخذناهم فعلا بالعذاب من جوع وقتل وأسر فما خضعوا لربهم ولا تضرعوا له كبرا منهم، حتى إذا فتحنا عليهم باب عذاب شديد يوم القيامة انقطعت آمالهم فى النجاة. انظر الآية (١٢) من سورة الروم صفحة ٥٣٢. والآية (٧٥) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٤.

مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ[1] وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ[2] اللَّيْلِ[3] وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا[4] مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا[5] أَإِنَّا[6] لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا[7] هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ[8] الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ[9] السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ

المفردات : . ﴿مبلسون﴾ : أى متحيرون بائسون من كل خير.

﴿ذرأكم﴾ : خلقكم، انظر صفحتى ١٨٥، ٢٢٢. ﴿أساطير﴾ : أكاذيب انظر صفحة ١٦٦. ﴿العرش﴾ : تقدم فى صفحة ٢٠١.

﴿سيقولون لله﴾ : قال فى جواب السؤالين الثانى والثالث ﴿لله﴾ ولم يقل ﴿الله﴾ ليطابق السؤال؛ لأن العرب تسوى بينهما، فإذا قال رجل من صاحب هذا؟ صح فى الجواب أن تقول ﴿فلان﴾ مجاراة للفظ وأن تقول.

﴿لفلان﴾ : مراعاة للمعنى.

﴿ملكوت﴾ : الملك الواسع، انظر شرحها فى صفحة ١٧٤.

﴿يجير﴾ : يغيث مَنْ يستجير به، يقال أجرت فلانا على فلان إذا أنقذته منه.

﴿ولا يجار عليه﴾ : أى لا يغاث مَنْ يريد تعذيبه بنصره عليه تعالى بمنع العذاب عنه.

﴿أنى﴾ : أى كيف.

---

(١) الأبصار
(٢) اختلاف
(٣) الليل
(٤) أئذا
(٥) عظاما
(٦) أئنا
(٧) آباؤنا
(٨) أساطير
(٩) السموات.

المعنى : . سيستمر هؤلاء الكفار فى عنادهم حتى إذا رأوا العذاب فاجأهم اليأس واستولى عليهم فحيرهم. وهو سبحانه الذى خلق لكم السمع والأبصار لتدركوا بهما مع مصالحكم ما نصبه سبحانه من الآيات، والأفئدة لتعقلوا بها فتصلوا إلى الحق والنافع، انظر الآية (٤٦) من سورة الحج صفحة ٤٤٠، وكان الواجب أن تشكروه على ذلك كثيرا بأن لا تهملوه وأن تستعملوها فيما خلقت له، ولكنكم لم تشكروا إلا قليلا جدا باستعمالها فى بعض مصالح الدنيا وأهملتم الأهم. وهو سبحانه وحده الذى خلقكم وكثركم فى الأرض، وإليه يوم القيامة تحشرون للحساب، فلا يجوز أن تعبدوا غيره. وهو سبحانه وحده الذى يحيى كل حى ويميته، ويختص به تخالف الليل والنهار من ظلمة ونور وطول وقصر لا يقدر على ذلك غيره: هل يصح أن تغفلوا كل هذا فلا تعقلوا بالتأمل فيه أن القادر عليها قادر على كل شىء بما فيه البعث والجزاء.

ثم بيَّن حال كفار مكة بعد ذلك فقال ﴿بل قالوا﴾ إلخ: أى لم ينتفعوا بل قالوا مثلما قال الأولون من آبائهم ومَنْ على شاكلتهم، فماذا قالوا؟ قالوا مستبعدين البعث : هل إذا متنا وكنا ترابا وعظاما هل يصح أن نبعث ثانيا إلى الحياة؟ كلا والله لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا البعث من قبل مجيئك يا محمّد على لسان قوم زعموا أنهم رسل مثلك ثم لم يتحقق ذلك مع طول العهد، فما هذا القول إلا أكاذيب الأولين قد نقلتها منهم ولا حقيقة لها. ثم بعد ذكر شبهاتهم ذكر سبحانه ما يلفت نظرهم إلى قدرته سبحانه على كل شىء فقال: قل أيها النبى لهم: لمن ملك السموات والأرض ومَنْ فيها إن كنتم من أهل العلم؟ وهذا توبيخ لهم بالجهل: ولذا قال مجيبا عنهم بالجواب الذى لا جواب غيره: سيقولون ملكها لله وحده. قل لهم : هل يصح بعد هذا أن تغفلوا فلا تتذكروا فتعلموا أن مَنْ قدر على ذلك يقدر على إحياء الموتى. قل لهم أيضا مَنْ صاحب هذه السموات السبع والعرش العظيم؟ سيقولون : ملكها لله. قل لهم: أفلا تتقون عذابه فلا تشركوا به بعض مخلوقاته ممَنْ لا قدرة له على البعث.

قل لهم مَنْ بيده ملك كل شىء وهو يغيث المستجير به ولا يغيث أحد منه أحدًا وينصره عليه إن كنتم تعلمون، فقولوا الحق. سيقولون : ملك كل شىء لله. قل لهم حينئذ : فكيف تسحرون؟

تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُم[1] بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ[2] (٩٠)
مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ
كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ[3]
اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ[4] الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ[5] فَتَعَالَىٰ[6]
عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (٩٣)
رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[7] (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰ أَن
نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ[8] (٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ
هَمَزَاتِ[9] الشَّيَاطِينِ[10] (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨)
حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩)
لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا[11] فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا[12]
وَمِن وَرَائِهِم[13] بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذَا نُفِخَ

المفردات : . ﴿تسحرون﴾ : أى تخدعون عن الحق كأنكم مسحورون. ﴿من ولد﴾ : ﴿من﴾ حرف يدل على النص على عموم نفى ما بعده وهو ﴿ولد﴾. ﴿لذهب كل إله﴾ : لتفرد كل واحد بما خلقه.

﴿لعلا بعضهم على بعض﴾ : أى تغلب بعضهم على بعض.

﴿يصفون﴾ : أى يكذبون عليه. انظر الآية (٦٢) من سورة النحل صفحة ٣٥٣.

﴿الغيب والشهادة﴾ تقدما فى الآية (٧٣) من سورة الأنعام صفحة ١٧٤.

﴿إما ترينى﴾ : أصل التركيب إن ما ترينى الآية (٦٨) من سورة الأنعام صفحتى ١٧٢، ١٧٣. والآية (٥٧) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٥.

﴿همزات﴾ : مفردها همزة وهى المرة من الهمز وهو النخس بالمهماز التى تنخس به الدواب لتسرع فى السير. والمراد هنا الوساوس التى تدفع الشخص للمعاصى.

﴿ارجعون﴾ : جمع الضمير مع أن المخاطب واحد وهو الله تعالى للإشارة إلى أنهم كرروا هذا اللفظ لشدة الفزع فاستغنى عن حكاية التكرار بجمع الضمير وهذا أسلوب عربى شائع.
﴿كلا﴾ : كلمة تدل على الزجر. ﴿كلمة﴾ : المراد بالكلمة هنا الكلام التام المتقدم. انظر الآية (٥) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠. ﴿من ورائهم﴾ : أى أمامهم. انظر الآية (٧٩) من سورة الكهف صفحة ٣٩٢. ﴿برزخ﴾ : أى حاجز انظر الآية (٥٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٦. والآية (٢٠) من سورة الرحمن صفحة ٧٠٩.

(١) اتيناهم	(٢) لكاذبون	(٣) سبحان
(٤) عالم	(٥) والشهادة	(٦) فتعالى
(٧) الظالمين	(٨) لقادرون	(٩) همزات
(١٠) الشياطين	(١١) صالحا	(١٢) قائلها
(١٣) ورائهم.		

المعنى : . فكيف يخدعكم الشيطان عن الرشاد مع ظهور الأدلة على الصواب، انظر الآية (١٥) من سورة الحجر صفحة ٣٣٩. ثم بين سبحانه كذبهم فقال ﴿بل اتيناهم﴾ إلخ: أى ليس الأمر كما يزعمون من قولهم إن هذا القرآن أساطير، وأن لله ولدا، بل ما جئنا لهم فى هذا القرآن إلا بالحق، وما اتخذ الله ولدا ما، وما كان معه إله يشاركه فى الألوهية، إذ لو كان معه آلهة لانفرد كل واحد منهم بالذى يخلقه، ولغالب بعضهم بعضا ليوسع ملكه كما هو المشاهد فى ملوك الدنيا، ولو حصل هذا لاختل نظام العالم كما تقدم فى صفحة ٤٢٢، تنزهه سبحانه تنزيها عما يكذب عليه المشركون، يستوى فى علمه سبحانه الغائب عنا والمشاهد، وليس فى علمه أن له ولدا أو شريكا، فقولهم بهذا ناتج عن جهل، انظر الآية (١٨) من سورة يونس صفحة ٢٦٨، فتعالى سبحانه عما يشركون. وبعد ما بين سبحانه جرائمهم التى تدعو إلى إهلاكهم أمر نبيه أن يطلب منه تعالى أن لا يجعله قرينا لهم فيما ينزل بهم؛ لأن العذاب قد لا يقتصر على العاصى فقط كما فى الآية (٢٥) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٠. فقال ﴿قل رب﴾ إلخ : أى ياربى إن كان لابد من أن ترينى ما تعدهم به من العذاب يا ربى فلا تجعلنى قرينا لهم فيه، وفى هذا إظهار لكمال العبودية. ولما كانوا يهزءون من تهديدهم بالعذاب قال تسفيها لهم: وإنا على أن نريك أيها النبى ما نعدهم به من العذاب لقادرون على إنجازه، ولكنا نؤخره لحكمة أنه سيظهر من أعقابهم مَنْ يؤمن، ولأن الله تعالى حكم أنه لا يعذبهم عذاب إفناء ما دام نبيه فيهم كما فى الآية (٣٣) من سورة الانفال صفحة ٢٣١. ثم أرشده ﷺ إلى المعاملة التى تنقذه من شرهم حتى يتمكن فيما بعد فقال: ﴿ادفع بالتى هى أحسن﴾ إلخ : أى ادفع السيئة بالحسنى، واصفح عن إساءتهم ولا تخف لأنا نحن أعلم بما يفترونه وسنجازيهم عليه، وقل يارب أعوذ بك من وساوس الشيطان من الإنس والجن، وأعوذ بك ربى من أن يحوموا حولى خصوصا فى الصلاة وقراءة القرآن وعند النزع.

ولا يزال هؤلاء المشركون يقولون الكذب إلى أن يعاينوا الموت، يقول أحدهم : يارب أرجعنى أرجعنى أرجعنى لعلى أعمل صالحا فى الدنيا التى فارقتها لأنها دار العمل فيزجروا عن هذا القول لأنه مجرد كلام لا يعبر عن حقيقة ما انطوت عليه طبائعهم، انظر آيتى (٢٧، ٢٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦، والآية (١٢) من سورة السجدة صفحة ٥٤٦، والآية (٣٧) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٦، ٥٧٧.

وأمامهم حاجز يمنعهم من الرجوع إلى الدنيا إلى يوم البعث. ثم بين سبحانه أحوالهم فى هذا اليوم فقال ﴿فإذا نفخ﴾ إلخ : أى إذا نفخ إسرافيل فى الصور النفخة الثانية إلخ...

فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ[1] فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ[2] فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ[3] ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ[4] ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي[5] تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ[6] ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا[7] فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ[8] كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾

المفردات : ﴿فى الصور﴾ : أى البوق. انظر الآية (٧٣) من سورة الأنعام صفحة ١٧٤. ﴿ثقلت موازينه﴾ : وزن الأعمال تقدم فى صفحة ١٩٣.

﴿تلفح﴾ : أصله مس لهب النار. والمراد هنا تحرق. ﴿كالحون﴾ : من كلح بوزن خضع أى كشر فى عبوس حتى تقلصت شفتاه. انظر الآية (٢٤) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠. ﴿شقوتنا﴾ : الشقوة الشقاوة أى سوء العاقبة.

﴿اخسئوا﴾ : ابتعدوا عن مقام الكرامة أذلاء مهانين. فهو زجر شديد.

﴿سخريا﴾ : أى هزوا، والمراد مهذوءا بهم. انظر الآية (٢٩) وما بعدها من سورة المطففين صفحة ٧٩٨. ﴿لبثتم﴾ :أى مكثتم.

المعنى : - فإذا نفخ فى الصور تقطعت الأنساب بينهم فلا يهتم كل إلا بنفسه. انظر الآية (٣٣) وما بعدها من سورة عبس صفحة ٧٩٣، ولا يسأل صديق صديقه سؤال تواصل لأن كل واحد مشغول بنفسه، انظر الآية (١٠) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥، وكل هذا عند النفخة الثانية؛ أما بعد استقرار أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار فيقع التساؤل بين أهل النار كما فى الآية (٢٧) من سورة الصافات صفحة ٥٨٨، وبين أهل الجنة كما فى الآية (٥٠) من نفس السورة صفحة ٥٩٠، ثم يعرضون للحساب بوزن أعمالهم بطريقة لا يعلمها غير الله

(١، ٢) موازينه (٣) خالدون (٤) كالحون
(٥) أياتى (٦) ظالمون (٧) آمنا
(٨) قال.

سبحانه. فمن ثقلت موازينه لكثرة أعماله الصالحة فهم الفائزون بالنعيم، ومَنْ خفت موازينه لخلوها من الخير فهؤلاء هم الذين خسروا أنفسهم بتضييع زمان حياتهم فى اللهو حتى فقدوا استعدادهم للكمال. فجزاؤهم الخلود فى جهنم تحرقهم حتى أشرف عضو فيهم وهو الوجه فتجعله قبيح المنظر. ويقول لهم ربهم تأنيبا وإشعارا لهم بعدله: ألم تكن آياتى القرآنية تتلى عليكم فى الدنيا فكنتم بها تكذبون.

والمراد اعترفوا على أنفسكم اليوم حتى لا تظنوا أنكم ظلمتم. قالوا يا ربنا تغلب علينا شقاؤنا وكنا بعيدين عن الحق. يا ربنا أخرجنا من النار فإن عدنا إلى التكذيب كنا ظالمين لأنفسنا. ولما كان سبحانه يعلم أنهم أفسدوا فطرتهم إلى درجة لا يمكن إصلاحها كما فى الآية (٢٧، ٢٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦. والآية (٣٧) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٦، ٥٧٧. ولما كان هذا قال لهم سبحانه ابتعدوا عن مجال رحمتى حال كونكم مخلدين فى النار ولا تكلمونى فى شىء فإنى لن أسمع لكم. ثم ذكرهم بما كان منهم فى الدنيا مما يدل على انطماس بصائرهم وتحجر قلوبهم فقال:

﴿إنه كان فريق﴾ إلخ: أى أن حقيقة الأمر أنه كان فى الدنيا فريق من عبادى الصالحين يقولون يا ربنا آمنا بك وبرسولك فاغفر لنا ذنوبنا وارحمنا بإحسانك إلينا وأنت خير الراحمين. فاتخذتموهم مادة تتسلون بها مستهزئين بهم. وتشاغلتم بهذا اللهو حتى أنسوكم بتشاغلكم بهم تذكر مقامى فلم تخافونى فى أوليائى. وكنتم تضحكون منهم خصوصا الفقراء. انظر الآية (٧٥) من سورة غافر صفحتى ٦٢٧، ٦٢٨. والآية (٢٩) وما بعدها من سورة المطففين صفحة ٧٩٨.

ثم ذكر سبحانه ما جازى به المؤمنين فقال: ﴿إنى جزيتهم﴾ إلخ: أى جزيت هؤلاء الذين كنتم تسخرون منهم بسبب صبرهم على إيذائكم وسخريتكم بالفوز والنعيم المقيم. ثم أمر سبحانه ملكا يسألهم سؤال تقريع فقال هذا الملك: كم سنة مكثتموها في الأرض أحياء أو فى القبور؟

قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

(٢٤) سُورَةُ النُّورِ مَدَنِيَّة
وَآيَاتُهَا أَرْبَعٌ وَسِتُّونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ

المفردات: . ﴿إن لبثتم إلا﴾: إن حرف نفى بمعنى ما.

﴿العرش﴾: تقدم فى الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٥٤ . ﴿فرضناها﴾: فرضنا ما فيها من الأحكام.

المعنى: . ولما كان ما شاهدوه من الهول وشدة العذاب جعل ما تنعموا به فى الدنيا كالعدم، وأن زمنه كأنه لحظة، قالوا فى جوابهم: مكثنا فى الدنيا يوما أو بعض يوم، فاسأل الذين يستطيعون عدها إن أردت الحقيقة، لأن ما نحن فيه من العذاب أنسانا عددها. قال الملك: ما مكثتم فى الدنيا إلا زمنا قليلاً لا يساوى لحظة لو قيس بالزمن الذى ستخلدون معذبين فيه لو كنتم تعلمون، أى لو كنتم من أهل العلم الصحيح لعلمتم قصر أيام الدنيا كما علمتم اليوم، ولعلمتم ما ينجيكم مما أنتم فيه الآن.

ثم وبخهم على غفلتهم عن هذا الهول فقال: ﴿أفحسبتم﴾ إلخ: أى هل جهلتم فظننتم أننا لم نخلقكم إلا تلهيا بكم لا للعبادة ولا لعمارة الأرض، وظننتم أنكم لا ترجعون إلينا فى الآخرة للحساب، فتعالى اللّه أى تنزه اللّه الجدير بأن يكون ملكا حقا عن أن يخلق شيئًا عبثًا، لا إله إلا هو رب العرش الكريم. ومَنْ يدع مع اللّه إلها آخر لا دليل عنده على صحة ألوهيته ـ وكل ما عدا اللّه كذلك ـ فلا يحاسبه على حرمة هذا سوى ربه، وسيجازيه أشد الجزاء، لأن الواقع أن الكافر لا يفلح ولا يفوز بالنجاة.

وبعد ذلك أمر سبحانه رسوله وكل مؤمن بالالتجاء إليه وحده، فقال ﴿وقل رب اغفر وارحم، وأنت خير الراحمين﴾.

---

(١) فاسأل (٢) قال (٣) خلقناكم (٤) فتعالى
(٥) آخر (٦) لابرهان (٧) الكافرون (٨) أنزلناها
(٩) فرضناها (١٠) آيات (١١) بينات.

لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ

سورة النور

وهذه سورة أنزلناها عليك أيها النبى، وفرضنا أحكامها، وأنزلنا فيها أدلة على توحيدنا وقدرتنا ظاهرة واضحة. انظر آيات (٣٥، ٤١) إلى (٤٥) الآتية فى هذه السورة وما عقب عليها فى الآية (٤٦) صفحات ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥ .

المفردات: . ﴿اجلدوا﴾: الجلد ضرب الجلد، والمراد الضرب بما يؤلم الجلد دون كسر عظم أو قطع لحم.

﴿المحصنات﴾: تقدم معناها فى الآية (٢٤) من سورة النساء صفحة ١٠٣، والمراد منها هنا العفيفات.

المعنى: . جمعنا لكم فى هذه السورة بين آيات الأحكام المتعلقة بنظام الأسرة ومحاسن الأخلاق، وبين دلائل وحدانيتنا وقدرتنا لتتذكروا فتتقوا المحارم وتؤمنوا بقدرتنا. ثم شرع فى بيان تلك الأحكام التى فرضها فقال ﴿الزانية والزانى﴾ إلخ: أى فالذى يزنى ذكرًا كان أو أنثى فعقابه فى الدنيا جلده مائة جلدة، ولا تأخذكم بهما رحمة فى تنفيذ أوامر اللّه. والمراد لا تعطلوها ولا تنقصوها. ثم حرض المؤمنين على المحافظة على تنفيذ أوامره فقال: ﴿إن كنتم تؤمنون باللّه واليوم الآخر﴾. أى فحافظوا على شريعته، وليشهد إقامة الحد على الزانى والزانية جماعة من المؤمنين أقلها ثلاثة، لزيادة التنكيل بالمعاقب، وللاتعاظ بالنسبة لغيره. وهذ الأمر للندب لا للوجوب.

---

(١) واحد (٢) الآخر (٣) المحصنات (٤) ثمانين
(٥) شهادة (٦) الفاسقون (٧) أزواجهم (٨) فشهادة
(٩) شهادات (١٠) الصادقين (١١) الخامسة (١٢) لعنة.

ثم شرع سبحانه وتعالى فى تقبيح أمر الزنا أشد تقبيح فقال ﴿الزانى لا ينكح إلا زانية﴾ إلخ: أى أن الزانى بعد أن رضى بالزنا واشتهر به لا يليق أن تقبله عفيفة بل لا تقبله زوجا لها إلا امرأة خسيسة ملوثة بعار الزنا أو بأسوأ منه وهو الشرك بالله، وكذا المرأة المعروفة بالزنا لا يقبلها له زوجة رجل عفيف بل لايليق بها إلا رجل زان مثلها أو أسوأ من الزانى وهو المشرك. وإذا علمت أن المراد هو تبشيع أمر الزنا وإبرازه فى أقبح صورة تعلم أنه ليس المراد صحة نكاح المشركة أو المشرك، وأن المراد التنفير منه بجعله قرينا للمشرك. وحرم نكاح الزانى والزانية على المؤمنين، والحرمة لا تمنع صحة العقد على الزانية المؤمنة والزانى المؤمن. أما فساد نكاح المشرك للمؤمنة فله أدلة كثيرة أورثت الإجماع عليه ومنها ما فى الآية (١٠) من سورة الممتحنة صفحتى ٧٣٦، ٧٣٧ .

ثم بعد أن بيَّن سبحانه حكم من فعل الزنا ونفَّر منه بيَّن حكم من نسب الزنا لغيره فقال ﴿والذين يرمون المحصنات﴾ إلخ: المراد يتهمون العفيفات بالزنا: لأن الاتهام بغيره كالسرقة أو الكذب يكفى فيه شاهدان. وجزاء صاحبه التعزير لا الجلد ثمانين جلدة. ثم إذا لم يأت هؤلاء القاذفون بالزنا بأربعة شهود على أنهم رأوها تزنى فعاقبهم ثلاثة أشياء: الأول جلدهم ثمانين جلدة. والثانى عدم قبول شهادتهم أبدا فى كل شىء مهما كان صغيرًا. والثالث الحكم عليهم باستحقاق وصف الفسق. إلا الذين تابوا ورجعوا عن القذف وأعلنوا خطأهم وأصلحوا أعمالهم بالخضوع لأحكام الله ومنها تسليم أنفسهم للحد واستسماح المقذوف. فالاستثناء راجع للحكمين الأخيرين. أما الحد فلا يرفع بالتوبة. فإن الله تعالى غفور لذنب التائب رحيم له بقبول توبته. ولما كانت الحكمة فى حد القاذف هى رفع العار عن المقذوف. وهذا المعنى مشترك بين المرأة والرجل. كان حكم مَنْ قذف رجلاً بالزنا كذلك. وإنما خص المرأة بالذكر هنا لخصوص الواقعة وهى رمى السيدة عائشة رضى الله عنها كما سيأتى.

ولما كان الحكم السابق يشمل كل قاذف حتى الرجل لو قذف امرأته. وكان فى الواقع له حكم خاص استثناه سبحانه فقال: والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء أربعة بما رموهن به فشهادة أحدهم المطلوبة منه لإنقاذه من حد القذف هى خمس شهادات بالله إلخ: أربع يقول فى كل مرة منها: أشهد بالله أنى لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنا. ويقول فى الخامسة: لعنة الله على الأبعد (أى يأتى بضمير المتكلم أى علىّ بتشديد الياء) إن كنت من الكاذبين.

مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ

المفردات: - ﴿يدرأ﴾: يدفع. ﴿العذاب﴾: المراد به المعروف لهم منه ﷺ وهو رجم الزانى المتزوج. ﴿الإفك﴾: هو أبلغ ما يكون من الكذب وأبعده عن الصدق. ﴿عصبة﴾: هى الجماعة المترابطة لغرض يجمعها وأقلها أربعة. ﴿الذى تولى﴾: هو عبد الله بن أبى سلول رأس المنافقين، انظر ما حصل منه فى شرح صفحات ٨٣، ٩٠، ٢٤٧ وما بعدها وسورة المنافقين صفحة ٧٤٢ وما بعدها. ﴿كبره﴾: أى معظم الإفك. ﴿لولا إذ سمعتموه﴾: حرف يفيد الحث على ما بعده، انظر الآية (٣٩) من سورة الكهف صفحة ٢٨٦ . ﴿لولا جاءوا﴾: هى كالسابقة.

﴿لولا فضل الله﴾: لولا هذه شرطية تربط بين جملتين والمعنى: لولا فضل الله موجود لفضحكم إلخ. ﴿فضل الله﴾: هو الزيادة فى الجود والكرم. ﴿رحمته﴾: المراد منها الرأفة، انظر شرح الآية (٧) من سورة النحل صفحة ٣٤٦ . ﴿فى ما أفضتم﴾: من الإفاضة والمراد خضتم بكثرة، فى تدل على أن (ما) بعدها سبب فيما قبلها كما فى الآية (٦٨) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٧ وما سيأتى فى الآية (٩) من سورة الممتحنة صفحة ٧٣٦ .

المعنى: - ويدفع الحد عن المرأة المتهمة أن تشهد خمس شهادات تقول فى الأربع الأول منها: أشهد بالله إنه لَمِنَ الكاذبين فيما رمانى به من الزنا، وتقول فى الخامسة: أن غضب الله عليها - وتذكر ضمير نفسها وهو ياء المتكلم - إن كان من الصادقين. وسمى الجملتين الأخيرتين من شهادة كل من الرجل والمرأة شهادة لأنه قصد بهما كل ما يقصد بالشهادة من

---

(١) الكاذبين (٢) يدرأ (٣) شهادات (٤) الكاذبين
(٥) الخامسة (٦) الصادقين (٧) جاءوا (٨) المؤمنات
(٩) جاءوا (١٠) الكاذبون

تحقيق الخبر وإظهار الصدق. وبعد هذا التلاعن يحرم كل منهما على صاحبه حرمة أبدية كحرمة الرضاع، وإنما جعل الغضب فى جانبها بدل اللعن لأن عادة النساء الإكثار من التلفظ باللعن، فربما يجترئن عليه لكثرة جريه على ألسنتهن فجعل مكانه الغضب ليكون رادعًا لهن. ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكم بهذه الأحكام وأنه كثير التوبة على مَنْ يتوب حكيم فيما شرع لعباده وما يعمله معهم لفضحكم وعجل عقوبتكم. هذا إذا قذف الرجل زوجته. إلا إذا اتهمته هى بالزنا فحكمها مأخوذ من الآية السابقة وهى الجلد ثمانين ما لم تأت بأربعة شهداء؛ لأن الاستثناء من حكمها خاص بالرجل. ولما كان حديث الإفك الذى رميت به السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها له علاقة بما تقدم، ذكره سبحانه فى هذه الآيات من (١١ إلى ٢٦)، وقد كانت حادثة الإفك فى غزوته ﷺ لبنى المصطلق فى شعبان سنة ست هجرية، وكان الذى أشاعها هو عبدالله بن أُبىّ كبير المنافقين. ومن أراد تفصيل ما حصل فيها على أتم وجه فليرجع إلى شرح حديث رقم (٣٧٦) من كتابنا صفوة البخارى، قال سبحانه ﴿إن الذين جاءوا بالإفك﴾ أى أن تلك الجماعة التى اختلقت ذلك البهتان لم تخرج عن كونها منسوبة إليكم ومعدودة منكم، فلا تجزعوا كل الجزع لأن أغلبهم منساق بدون تعقل، فالغرض بدء تسلية لمَنْ أصيبوا به كعائشة رضى الله عنها وأبى بكر الصديق رضى الله عنه والنبى ﷺ. ثم طمأنهم فقال: ﴿لاتحسبوه﴾ أى لا تظنوا أن ما أشاعوه شر لكم بل هو خير لكم، وأى خير أحسن من شهادة الله عز وجل لعائشة ببراءة يعتبر تصديقها من الإيمان لأنه نزل بها قرآن مَنْ أنكر شيئًا منه كفر، إلى غير ذلك مما ترتب عليه من الأحكام التى وضعت حدًا لفوضى الاتهام إلى غير ذلك. ولكل واحد من الذين أشاعوا هذا الباطل عذاب على قدر نصيبه فى الإشاعة. أما الذى تولى القسم الأعظم منه فله عذاب عظيم هو جهنم خالدا فيها. ثم حثهم على التيقظ لما كان ينبغى أن يكون ليعملوا به فى المستقبل فقال سبحانه: لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون بإخوانهم الذين هم منهم خيرًا، وقطعوا بأن هذا كذب عظيم، خصوصًا وهو متعلق بمقام سام، ثم يقولون أيضًا هلا جاء هؤلاء المفترون بأربعة شهداء؟ المراد أنه مستحيل عليهم هذا؛ ولذا قال: فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك فى حكم الله وشرعه هم الكاذبون، فيستحقون إقامة الحد عليهم، وقد أقامه ﷺ وجلد كل من خاض فيه ثمانين جلدة. ولولا فضل الله عليكم فى الدنيا بالإمهال لتتوبوا، ورحمته فى الآخرة بالمغفرة، لأصابكم بسبب الإفك الذى خضتم فيه عذاب من الله تعالى.

عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ

المفردات: ﴿تلقونه بألسنتكم﴾: أى تستنطقونهم به وتتلقفونه من غيركم لينتشر وعبارة البيضاوى أى يأخذه بعضكم عن بعض بالسؤال عنه فينشره وتقولونه بأفواهكم أى كلاما صادرًا من الأفواه فقط ليس له علم قلوبكم.

والمعنى يحذركم الله من أن تعودوا لمثله.

﴿بأفواهكم﴾: أى تقولون قولاً ليس له أصل من علم إنما هو مجرد ألفاظ انظر الآية (٥) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠.

﴿ولولا إذ سمعتموه﴾: لولا هنا للحث على ما بعدها المقترن باللوم على التفريط فيه.

﴿سبحانك﴾: من عادة العرب أنهم إذا رأوا شيئًا غريبًا عن الطباع أن يقولوا سبحان الله أو لا إله إلا الله ويقصدون به التعجب من القول البعيد عن مدارك العقول. فالمراد هنا التعجب من صنع هؤلاء الكاذبين. ويصح أن يراد تنزيهه تعالى عن أن يختار لنبيه زوجة زانية.

﴿بهتان﴾: أى زور يبهت مَنْ يسمعه أى يدهشه.

﴿يعظكم﴾: أى يرشدكم فى أسلوب مؤثر ﴿الفاحشة﴾: هى الزنا وأمثاله، ولا تطلق على القتل وأمثاله.

﴿ولولا فضل الله﴾: لولا هنا شرطية تربط بين جملتين كما تقدم.

﴿رءوف رحيم﴾: تقدم بيانهما فى صفحة ٣٤٦.

﴿خطوات الشيطان﴾: هى وساوسه التى يزين بها لأتباعه.

---

(١) سبحانك (٢) بهتان (٣) الآيات (٤) الفاحشة
(٥) آمنوا (٦) الآخرة (٧) آمنوا (٨) خطوات
(٩) الشيطان (١٠) خطوات (١١) الشيطان

المعنى: . ولولا فضل اللّه تعالى ورحمته عليكم لعجل سبحانه لكم العذاب فى الدنيا حين كنتم تتلقفون هذا الكذب بألسنتكم ويأخذ بعضكم عن بعض، وتقولون كلاما صادرًا عن الأفواه فقط ليس له سند من علم فى القلوب كما فى قوله تعالى ﴿يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم﴾ الآية (١٦٧) من سورة آل عمران صفحتى ٩٠، ٩١، بل إنكم تعلمون طهارة مَنْ افتريتم عليهم، وتظنون أنكم تتسلون بكلام سهل لا خطورة له، وهو عند الله عظيم فى الوزر واستحقاق العذاب ﴿ولولا إذ سمعتموه﴾ إلخ: أى أما كان اللائق بكم أنكم حينما سمعتم هذا الكذب قلتم لا يصح لنا أن نتكلم بهذا الفحش، تنزيهًا لك يا ربنا، هذا كذب عظيم لعظمة المكذوب عليه.

يحذركم اللّه تعالى من أن تعودوا لمثل هذا القذف أو استماعه إن كنتم مؤمنين سمعتم إرشاد ربكم. ويوضح اللّه تعالى لكم الآيات الدالة على محاسن الآداب، وعلى مايدفع شر الشيطان، والله عليم بأحوال خلقه، حكيم فيما شرعه لهم مما فيه مصلحتهم. ثم هدد سبحانه كبير المنافقين ومَنْ على شاكلته فقال:

إن الذين يحبون إشاعة أخبار الفاحشة ونشرها فى أوساط المؤمنين لإنقاص قدرهم وإظهار أنفسهم أشرف من غيرهم لهم عذاب شديد الألم فى الدنيا وهو حد القذف المتقدم، وقد أقامه ﷺ على عبدالله بن أبى وحسان ابن ثابت وغيرهما، وفى الآخرة بالنار إن لم يتوبوا، واللّه يعلم بواطن الأمور وأنتم لا تعلمون إلا الظاهر، فعاقبوا فى الدنيا على ما دل عليه الظاهر، واللّه يعاقب على ما فى السرائر كل بحسب ما عنده.

ثم كرر فضله تعالى عليهم ليشكروه فقال ولولا فضل اللّه عليكم ورحمته بكم لعجل لكم العذاب ولم يقبل توبتكم. ولولا أنه سبحانه رءوف بالمقذوف البرىء، رحيم به وبكم لما أظهر براءته، ولما شرع هذه الأحكام.

ثم أرشد سبحانه إرشادًا عاما مبيِّنًا منبع الخطر فقال: يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان، ومن يتبع خطوات الشيطان هلك، لأنه يأمر بكل فعل متناه فى الفحش وبكل منكر من الشرع.

ثم كرر سبحانه مِنّته عليهم فقال: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ إلخ.

مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ[1] وَٱلْمُهَٰجِرِينَ[2] فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ[3] ٱلْغَٰفِلَٰتِ[4] ٱلْمُؤْمِنَٰتِ[5] لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ[6] وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ[7] لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ[8] وَٱلطَّيِّبَٰتُ[9] لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ[10] أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

المفردات: ﴿ما زكى﴾: ما طهر من الدنس. ﴿من أحد﴾: من حرف يفيد إرادة النص على عموم النفى فى ﴿أحد﴾. ﴿يأتل﴾: تقول فلان ﴿ائتلى﴾ بوزن ﴿اعتلى﴾ يأتلى إذا حلف. كتألى وآلى كلها بمعنى أقسم. انظر الآية (٢٢٦) من سورة البقرة صفحة ٤٥ . ﴿أولو الفضل﴾: أصحاب الفضل. ﴿السعة﴾: كثرة الرزق.

﴿ليعفوا﴾: أصل العفو محو الشىء ومنه عفت الريح آثار الديار. والمراد محو آثار الذنب بستره.

﴿ليصفحوا﴾: الصفح الإعراض وعدم المؤاخذة على الذنب.

﴿المحصنات﴾: العفائف المصونات. ﴿الغافلات﴾: السليمات الصدور المنصرفات عن التفكير فيما يغضب الله. ﴿دينهم﴾: المراد بالدين هنا الجزاء.

المعنى: . لولا فضل الله ما طهر أحد منكم أبدا ولم تقبل توبته، ولكن الله بفضله يزكى مَنْ يشاء بتوفيقه للتوبة لعلمه بحسن استعداده. انظر ما سبق فى صفحة ١٦٨. والله سميع لما تقولون، عليم بما تضمرون، فيرتب أحكامه على حسب علمه. ولما نزلت الآيات الأحد عشر السابقة فى براءة عائشة وتهديد الخائضين وكان فيهم (مِسْطَح) بكسر فسكون ففتح. ابن خالة أبى بكر الصديق رضى الله عنه، وكان مهاجرًا فقيرًا ممن شهد بدرًا وكان أبو بكر ينفق

(١) المساكين. (٢) المهاجرين.
(٣) المحصنات. (٤) الغافلات.
(٥) المؤمنات. (٦) الآخرة.
(٧) الخبيثات (٨) للخبيثات
(٩) الطيبات (١٠) للطيبات.

عليه وضاق صدر أبى بكر بسخافته، لأنه جمع بين الخوض فى الباطل وبين إيذاء أقرب الناس إليه لمَّا كان هذا حلف أبو بكر ألاَّ ينفق عليه ولمَّا كان سبحانه يعلم أن الخائضين متفاوتون فى الجرم وأن ﴿مِسطَح﴾ من أخفهم حملا، وأنه من أهل بدر فله بهذا منزلة خاصة تسهل قبول توبته، قال سبحانه: ﴿ولا يأتل﴾: أى لا يحلف أهل الفضل فى الدين والسعة فى الرزق على أن لا يؤتوا أصحاب القرابة منهم الموصوفين بأنهم مساكين ومهاجرون فى سبيل الله، وليعفوا بستر ذنوبهم وعدم ذكرها، وليصفحوا فلا يؤاخذونهم عليها.

ثم رغب سبحانه أبا بكر فقال: ألا تحبون أن يغفر الله لكم إذا أخطأتم؟ وإذا كنتم تحبون ذلك فأحبوه لغيركم بالصفح عنه. والله مع كمال قدرته غفور رحيم. فتخلقوا بأخلاقه. فلما نزلت هذه الآية علم أبو بكر أن الله سبحانه يعلم المؤمنين الصبر على احتمال الأذى، وتقديم رضاه سبحانه وتعالى على رضا النفس. وهذا هو الجهاد الأكبر. لمَّا علم أبو بكر ذلك قال: إنى لأحب أن يغفر الله لى. وأعطى (مِسْطَح) أكثر مما كان يعطيه من قبل. ولما قدم سبحانه هذا الترغيب فى العفو عن المخطئ الذى شهد بدرًا وكان ذلك ربما يوهم التهوين من شأن هذه الجريمة خصوصًا بالنسبة لِمَنْ أشاعها عن قصد. دفع كل هذا بقوله: ﴿إن الذين يرمون المحصنات﴾ إلخ.

والذى يدل عليه سياق الكلام هنا هو أن هذا الجزاء لا يكون إلا للكافر. فيكون المراد أن مَنْ يرمى أمهات المؤمنين بهذا الباطل بعد نزول هذه الآيات فهو كافر. وأما مَنْ رماهن قبل ذلك ثم تاب (كَمِسْطَح) فليس كذلك. ويكفى إقامة الحد عليه. أما عبدالله ابن أبى ابن سلول، ومَنْ كان مثله فى النفاق ولم يتب فهو كافر مخلد. وأما رمى غير أمهات المؤمنين فهو كبيرة وليس بكفر. ولعن الشخص المعين بمعنى طلب طرده عن الرحمة إلى الأبد لا يجوز إلا لِمَنْ قطعنا بموته على الكفر.

أما اللعن بمعنى تشديد العقوبة فقط فإنه قد وقع لأشخاص معينين مؤمنين كلعنة ﷺ مَن كوى دابته على وجهها. رواه مسلم فى صحيحه: ولعن المرأة التى تخالف زوجها إذا طلبها. والأحسن الدعاء بالتوفيق. ومن هذا يعلم أنه لا يجوز لعن كافر معين لأنا لا نعلم مصيره فقد يتوب. كل هؤلاء المجرمون يعذبون يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بكل ما كانوا

يعملونه لا بالقذف فقط، وهذه الشهادة تكون بعد دفاعهم والختم على أفواههم، انظر آيتى (٢٧. ٢٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦، و٢٨ من سورة النحل صفحة ٣٤٨، والآية (٦٥) من سورة يس صفحة ٥٨٥، والآية (٢١) من سورة فصلت صفحة ٦٣٢ .

وينطق الله اللسان واليد والرجل بكيفية يعلمها سبحانه، فبعد أن كان اللسان آلة نطق للشخص أصبح هو نفسه الناطق، انظر معنى ذلك فى آيتى (٢٠ و ٢١) من سورة فصلت صفحة ٦٣٢ .

وفى هذا اليوم يوفيهم الله جزاءهم الثابت لهم بمقتضى العدل، وفى هذا اليوم يعلمون عند مشاهدتهم الأهوال أن الله وحده هو الحق لا يقدر على الجزاء غيره، المبين لكل شىء على حقيقته فى الدنيا، ولم يكن يخفى عنهم شيئًا مما كان ينفعهم ولكنهم تعاموا عنه. ﴿الخبيثات للخبيثين﴾ إلخ: قيل معناها نظير ما تقدم فى ﴿الزانى لا ينكح إلا زانية﴾ إلخ، أى الخبيثات من النساء لا يليق لهن إلا الخبيثون من الرجال وبالعكس، ويكون المراد التنفير من الخبيثات والخبثاء.

وقال ابن عباس وجماعة: المراد أن الكلمات الخبيثات لا توجه إلا للخبيثين من الرجال والنساء، وتغليب جمع المذكر على الرجال والنساء كثير فى القرآن، والخبيثون من الرجال والنساء أهل للكلمات الخبيثات.

ويكون الكلام توبيخا للمجرمين على رمى عائشة بما لا يرمى به إلا الخبيثات من النساء، وهى عصمها الله أطهر من فى عصرها وما بعده إلى يوم القيامة، والكلمات الطيبات الدالة على الشرف والنزاهة اللائقة بالطيبين رجالا ونساء، والطيبون منهما أهل للكلمات الطيبات لا يليق بهم غيرها، انظر بعض معانى الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة آيتى (٢٥، ٢٦) من سورة إبراهيم صفحتى ٣٣٣، ٣٣٤ .

ثم ذكر سبحانه النتيجة لما سبق فقال: أولئك أى الطيبون الذين ظلمتوهم بالقذف مبرءون مما يقول الكاذبون، لهم عند ربهم مغفرة عما يكون منهم من هفوات، ورزق كريم هو الجنة، انظر آيتى (٢٨، ٣١) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٥٤،٥٥٣ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ[1] لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ[2] وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ[3] يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ[4] وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ[5] أَوْ آبَاءِ[6] بُعُولَتِهِنَّ

المفردات: . ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾:

﴿الذين آمنوا﴾: أريد بها هنا الرجال والنساء، لأن أهل البيت قد يكونوا على حال لا يجوز اطلاع النساء عليها، كما لا يجوز اطلاع الرجال.

﴿غير بيوتكم﴾: أى التى خصصتموها لسكناكم ولو كانت بكراء

﴿بإيجاز﴾ غير مملوكة لكم.

﴿تستأنسوا﴾: تستأذنوا ممَّن يملك الإذن من أصحابها بما يحصل به أنس أهل البيت ولا ينزعجون له.

والاستئذان يختلف باختلاف العرف، فقد يكون بقرع الباب، أو التسبيح، إلى غير ذلك.

﴿خيرلكم﴾ يسمى علماء العربية هذا الوزن

﴿أفعل تفضيل﴾ فالمعنى أن فى الاستئذان خير ليس فى تركه، أى أن تشريع الحكم العام على هذا الوجه خير لكم من عزة كاذبة تتمسكون بها، فأنتم كما مُنعتم من الدخول على غيركم بدون إذن، فكذلك مُنع غيركم من الدخول عليكم إلا بإذن. وفى ذلك استبقاء المودة وعدم التأذى من زيارتكم، بخلاف ما إذا كانت هجومًا.

﴿فإن لم تجدوا فيها أحدًا﴾: المراد فإن لم تعلموا أن فيها أحدًا فلا تدخلوا أى وإن كان فيها أحد فى الواقع ولكنه لا يريد إظهار نفسه لكم ولهذا لم يقل سبحانه ﴿فإن لم يكن فيها﴾.

---

(١) متاع (٢) أبصارهم
(٣) للمؤمنات (٤) أبصارهن
(٥) آبائهن (٦) آباء

﴿أزكى لكم﴾: أى أظهر للبعد عن الريبة والإهانة.

﴿جناح﴾: إثم.

﴿بيوتاً﴾: المراد بالبيوت هنا مطلق الأماكن لا بيوت السكن.

﴿غير مسكونة﴾: أى غير معدة للسكن بل ليتمتع بها مَنْ يحتاج إليها، كالفنادق والحوانيت والحمامات.

﴿متاع﴾: أى استمتاع وانتفاع.

﴿يبدين﴾: يظهرن.

﴿زينتهن﴾: الزينة كل ما تتزين به المرأة كالخاتم والكحل والخضاب والسوار والخلخال والقلادة والإكليل الذى يوضع على شعر الرأس.

﴿ما ظهر منها﴾: هو ما فى إخفائه مشقة وجرت العادة بظهوره كالثلاثة الأول فيما تقدم.

﴿ليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾: أى يضعنها عليها: تقول ضربت بيدى على الحائط إذا وضعتها عليها.

﴿خمرهن﴾: حمع خمار وهو ما تغطى به المرأة رأسها كالمسمى فى مصر بالطرحة.

﴿جيوبهن﴾: مفرده جيب وهو الفتحة فى أعلى الثوب يظهر منها بعض الصدر.

﴿بعولتهن﴾: مفرده بعل وهو الزوج.

المعنى: بعدما حذر سبحانه من جريمة الزنا والقذف به أراد أن يبين ما به الاحتياط لصيانه الشرف والعرض. فذكر الأحكام التى تساعد على ذلك وعلى أدب المعاشرة فقال: يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم إلا بعد الاستئذان والتسليم على أهلها. ذلك المذكور من الاستئذان والسلام خير لكم من الدخول بغتة فتروا عورات الناس فيتأذوا فيكرهوكم. ولقد أرشدكم الله لذلك لكى تتعظوا وتعملوا ما أمرتم به.

وظاهر الآية يدل على أن الاستئذان قبل التسليم. وقدم بعضهم السلام، والأحسن التفصيل فإن وقعت عين الزائر وهو خارج البيت على صاحب البيت قدم السلام، وإلا قدم الاستئذان.

والحكم عام حتى فى الزائر الأعمى، إذ ربما يفاجئ مَنْ فى البيت فيسمع ما لا يحبون أن يسمعه. فإن لم تجدوا أحدا ممَّن يملك الإذن، وهو غير العبد والصبى، فلا تدخلوها حتى يأذن لكم مَنْ يملك الإذن، وإن قال لكم أهل البيت ارجعوا بصريح اللفظ أو بعدم الإذن، ويكفى فى منع الدخول سكوت مَنْ فى البيت عن الرد، والرجوع عند عدم الإذن أطهر لكم من دنس الدناءة فى الدين والدنيا؛ لأن الوقوف على الباب بعد منع الدخول قد يورث شبهة فى بعض أهل البيت. والله عليم بكل ما تعملون، فيعلم مقاصدكم من الاستئذان والدخول، ويجازيكم عليها، فاحذروا أن تضمروا تحت الاستئذان خيانة.

ويجب أن يعلم أن المراد بالإذن فى قوله تعالى ﴿حتى يؤذن لكم﴾ ما يعم إذن صاحب وإذن الشرع بالدخول فى حالة وجود منكر فى البيت الخالى، أو الشروع فى جريمة يتوقف منعها على سرعة الدخول، أو إطفاء حريق أو نحو ذلك فإنه يجب المبادرة إلى الدخول بغير إذن لمنع ذلك. ليس عليكم أيها المؤمنون إثم فى أن تدخلوا أماكن غير معدة لسكنى قوم معينين، بل معدة ليتمتع أى ينتفع بها مَنْ يحتاج إليها كالفنادق ونحوها مما ليس فيها عورات يخاف الاطلاع عليها، والله تعالى يعلم ما تظهرون من قصد الانتفاع المشروع وما قد تخفون من قصد السرقة مثلا. فالكلام تحذير لِمَنْ يدخل للإفساد.

ومن الآداب المستفادة من هذه الآيات الثلاث أن النبى ﷺ كان إذا أتى باب قوم لا يستقبل الباب بوجهه، ولكنه كان ينزوى إلى ركنه الأيمن أو الأيسر، رواه أبو داود، وجاء فى البخارى ومسلم أنه ﷺ قال: لو أن رجلاً اطلع عليك فى بيتك بغير إذن فرميته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من حَرَج.

ثم أراد سبحانه أن يسد أبواب الفساد من ناحية أخرى فقال: قل يا أيها النبى للمؤمنين بربهم المقرين بشرعه يغضوا بعض أبصارهم، وهى التى تتجه للمحرم كالنظرة الثانية، ويحفظوا فروجهم من الحرام؛ ذلك أنفع لهم وأطهر لما فيه من البعد عن مصايد الشيطان؛ إن الله خبير بما يصنعون، لا يخفى عليه من حركات الجوارح وخيانة الأعين شىء، انظر الآية (١٩) من سورة غافر صفحة ٦٢٠، وقل للمؤمنات يغضضن بعض أبصارهن كذلك، ويحفظن فروجهن، ولا يظهرن زينتهن، وبالأولى مكانها لأحد إلا لأزواجهن أو آبائهن أو آباء أزواجهن....

أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ
أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ
ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ
لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ
لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ
ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ
وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ
يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ
ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ
وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ
إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ
ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ

المفردات: ﴿أو بنى إخوانهن﴾: قال فى جانب نسل الإخوة والأخوات

﴿بنى﴾ ولم يقل ﴿أبناء﴾ كما تقدم لأن أبناء جمع قلة، وأبناؤهن وأبناء أزواجهن أقل عادة من بنى إخوانهن وأخواتهن، ولذا يقال فى الغالب بنى آدم وبنى تميم.

﴿نسائهن﴾: المراد النساء المختصات بهن للخدمة والصحبة من حرائر المؤمنات؛ أما الكافرات ففيهن خلاف، قيل كالأجانب من الرجال

﴿ماملكت أيمانهن﴾: من الجوارى، أما العبيد الذكور ففيهم خلاف، والجمهور على المنع.

﴿التابعين﴾: هم الذين يتبعون القوم لينالوا من فضل طعامهم لشدة فقرهم وضعفهم أو بلههم

﴿الإربة﴾: هى الحاجة إلى النساء.

﴿الطفل﴾: يطلق على الواحد والمتعدد، والمراد هنا الثانى أى الأطفال.

﴿لم يظهروا﴾ إلخ: أى لم يطلعوا على عورات النساء لصغرهم.

﴿انكحوا﴾: أى زوجوا والخطاب للأولياء.

(١) ابنائهن (٢، ٣) إخوانهن (٤) أخواتهن
(٥) نسائهن (٦) أيمانهن (٧) التابعين
(٨) عورات (٩) أيها (١٠) الأيامى
(١١) الصالحين (١٢) إمائكم (١٣) واسع
(١٤) الكتاب (١٥) إيمانكن (١٦) آتوهم
(١٧) آتاكم (١٨) فتياتكم

﴿الأيامى﴾: جمع أيم وهو العزب ذكر أو أنثى بكرا أو ثيبا.

﴿عبادكم﴾: المراد بهم المملكون الذكور.

﴿إمائكم﴾: المملوكات الإناث.

﴿لا يجدون نكاحًا﴾: المراد بالنكاح هنا تكاليفه من صداق ونفقه.

﴿يبتغون﴾: يطلبون.

﴿الكتاب﴾: الكتاب والمكاتبة مصدران كالعتاب والمعاتبة، والمراد العقد الذى يكتبه السيد لعبده بأن يكون حرًا إذا أدى قدرًا معينا من المال.

﴿خيرًا﴾: أى إعانة وقدرة على الكسب.

﴿فتياتكم﴾: هن الإماء المملوكات.

المعنى: - يجوز للنساء إظهار زينتهن لأبنائهن أو أبناء أزواجهن لأنهم صاروا محارم لهن، أو إخوانهن الذكور، أو بنيهم، أو أبناء أخواتهن النساء، أو النساء المؤمنات المخالطات لهن، أو الجوارى المملوكات، أو الفقراء المرضى، أو الذين طحنهم الهرم حتى فقدوا الرغبة فى النساء، أو الأطفال الذين لا يعرفون عورات النساء.

وقل أيها النبى للمؤمنات لا يضربن بأرجلهن ليظهر صوت الخلخال فيعلم أنها من أرباب الزينة المترفات، فإن ذلك يورث ميلا من الرجال، ويمكن الشيطان من وسوسته، ولهذا تسمى العرب صوت الحلى ﴿وسواسا﴾ ويدخل فى النهى كل ما يلفت النظر إليها.

ولما كان لا يخلو مؤمن من تفريط قال سبحانه ﴿وتوبوا إلى اللّٰه جميعًا أيها المؤمنون﴾ خصوصًا مما كنتم تفعلونه، لأنه مما يجب الندم على حصوله لمخالفته المروءة ليرجى لكم الفلاح فى الدنيا والآخرة.

وبعدما نهى سبحانه عن السفاح المفسد للمجتمع، أمر بالنكاح المشروع المفضى للمودة والألفة.

فقال سبحانه مخاطبا أولياء الأمر: ﴿وأنكحوا﴾ أى زوجوا من لا زوج له منكم، والصالحين مما ملكت أيمانكم ذكورًا وإناثًا. وإنما خص الصالحين بامتثال أوامر اللّٰه تعالى لأنهم هم الذين يستحقون المساعدة على الزواج ولا يمنع فقرهم من تزويجهم ما داموا قادرين على الصداق ونفقة مدة يستطيعون بعدها الكسب، إن يكونوا فقراء ليس معهم أكثر من الصداق وما ذكر معه، يغنهم اللّٰه تعالى بالأسباب العادية كتوفيقهم للاهتمام بالكسب ليسدوا نفقة مَنْ لزمتهم نفقته، ومساعدة المرأة له فى معاشه كما هى عادة العرب وأهل القرى فى ذلك الحين، وحصول أولاد يساعدونهما إلى غير ذلك. واللّٰه تعالى واسع الفضل، عليم بمَنْ قصد بزواجه العفاف فيساعده حسب حكمته. هذا فيمَنْ وجد الصداق،

أما الذين لا يجدون نفقات النكاح من الصداق وما يتبعه فيجب عليهم أن يجتهدوا فى العفة وقمع الشهوة ولو بالصوم كما فى الحديث الصحيح حتى يغنيهم اللّٰه من فضله فيجدوا ما يتزوجون به.

ولما كان زواج المملوك قد يحرك فيه الرغبة فى الحرية أراد سبحانه أن ينبه السادة إلى تسهيل ذلك عليه فقال سبحانه:

﴿والذين يبتغون﴾ إلخ: أى والعبيد الذين يرغبون المكاتبة فكاتبوهم إن علمتم فيهم الرشد والقدرة على الكسب الحلال والاستقلال بتكاليف الحياة، وآتوهم أيها المؤمنون من المال الذى آتاكم لتساعدوهم على الحرية. ولا تكرهوا الفتيات المملوكات لكم على الزنا إن أردن تعففا..

رأى كثير من العلماء أن هذا نهى لعبدالله ابن أبى ابن سلول ومَنْ يعمل عمله حيث كان يكره إماءه على الزنا ليجمع من وراء ذلك مالا، وحاولوا توجيه المغفرة لهن مع أنهن مكرهات والمكره لا ذنب عليه، لزيادة توبيخ عبداللّٰه المذكور.

تحصنا لتبتغوا عرض الحيوة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم ﴿٣٣﴾ ولقد أنزلنا إليكم ءايت مبينت ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين ﴿٣٤﴾ * الله نور السموت والأرض مثل نوره كمشكوة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مبركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثل للناس والله بكل شيء عليم ﴿٣٥﴾ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ﴿٣٦﴾ رجال لا تلهيهم تجرة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلوة وإيتاء الزكوة

المفردات: . ﴿تحصنًا﴾: تعففا عن الزنا.

﴿عرض﴾: هو المتاع الزائل.

﴿مثلاً﴾: المراد بالمثل هنا العجيبة التى تماثل غيرها. والمراد به قصة السيدة عائشة التى تماثل قصة يوسف ومريم.

﴿خلوا﴾: أى مضوا وانقرضوا.

﴿نور السموات﴾: أى منورهما كما يقال فلان عدل أى عادل، وفلان نور المجلس أى منوره.

﴿مشكاة﴾: هى الكوة فى الجدار غير النافذة يسميها المصريون طاقة وهى تجمع النور فلا يتفرق فيضعف.

﴿مصباح﴾: هو الفتيلة المشتعلة.

﴿درى﴾: منسوب إلى الدر فى صفائه.

﴿زيتونه﴾: بيان للشجرة.

﴿فى بيوت﴾: قيل هى المساجد، وقال عكرمة بيوت المؤمنين التى يعمرونها بالعبادة: والمتأمل لاستعمال البيوت فى القرآن يرى أنها لم تستعمل إلا فى الكعبة كما فى آيتى (١٢٧)

---

(١) الحياة (٢) إكراههن
(٣) آيات (٤) مبينات
(٥) السموات (٦) كمشكاة
(٧) مباركة (٨) الأمثال
(٩) الآصال (١٠) تجارة
(١١) الصلاة (١٢) الزكاة

من سورة البقرة صفحة ٢٥، و (٩٧) من سورة المائدة صفحتى١٥٦،١٥٧؛ وفى بيوت السكن. وهو كثير فى القرآن ومنه ما تقدم فى آيتى (٢٧، ٢٩) من هذه السورة، وبيت المؤمن لا يخلو من ذكر الله، ومراقبته تعالى.

وقال ﷺ (لا تجعلوا بيوتكم قبورًا) أى صلوا فيها.

﴿أذن الله﴾: أى أمر. ﴿ترفع﴾: تعظم. .

المعنى: . قلنا إن كثيرًا من العلماء قال إن الآية تنهى أن يرغم السيد أمته على الزنا ليجمع مالا من ذلك، وقال الشيخ أبو الوفا الشرقاوى من أتقياء علماء الصعيد بمصر غفر الله له وشمله برحمته: إن المراد لا تكرهوا أيها الأسياد فتياتكم على المكاتبة التى قد تعرضهن للبغاء إن أردن أن يبقين محفوظات الشرف والعفة تحت رعايتكم لخوفهن من العجز عن جمع المال من طريق شريف. فعبّر بالإكراه على البغاء وهو يريد الإكراه على مكاتبة مَنْ لا تريدها تنفيرًا منها.

فالكلام من قبيل ذكر المسبب وإرادة سببه. كما تقول لِمَنْ طرد ابنه وقطع عنه النفقة: لا تكره ولدك على السرقه، تريد لا تكرهه على الخروج من بيتك فإن ذلك يجره إلى السرقة عادة.

ورجح هذا الرأى بوجوه: الأول أن السياق فى المكاتبة والحث عليها. والثانى قوله تعالى: ﴿فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم﴾ لا يمكن أن تكون المغفرة والرحمة فيه لعبدالله بن أبى بن سلول على دياثته وإرغامه فتياته على الفاحشة. كما لا يعقل أن تكون المغفرة للفتيات المكرهات لأنهن لا اختيار لهن. فلا ذنب عليهن يحتاج إلى مغفرة. والثالث قوله فيما سبق: ﴿إن علمتم فيهم خيرًا﴾ فإنه يرجح ذلك.

فالحق أن المعنى أنه يجب على السيد أن يترك أمته فى كنفه إذا رغبت هى فى ذلك حفظًا لعرضها من الضياع. فإذا أكرهها على المكاتبة وأجهدت نفسها ووفقت ولم تلوث بفاحشة فإن الله تعالى يغفر للسيد مجازفته بمكاتبتها، وبهذا تنسجم أجزاء الآية على وجه تطمئن إليه النفس. والله تعالى أعلم.

ولقد أنزلنا إليكم آيات موضحًا للأحكام ولما فيه مصلحتكم، وأنزلنا إليكم قصة عجيبة تشابه قصة يوسف عندما اتهمته امرأة العزيز بإرادة الفاحشة، وقصة مريم عندما رماها قومها بأنها بغى وهما أبرياء وأنزلنا عظات ينتفع بها المؤمنون منها قوله تعالى: ﴿لولا إذ سمعتموه ظن﴾... إلخ وقوله ﴿ولولا إذ سمعتموه قلتم﴾... إلخ وقوله ﴿يعظكم اللَّه﴾ إلخ.

ثم ذكر سبحانه ما يحقق به أن ما أنزله آيات بينات فقال: ﴿اللَّه نور السموات والأرض﴾ أى منورهما بما أودعه فى كتابه من أحكام وإرشادات وعظات، وما بثه فى الكون من أدلة على وجوده وحكمته وصدق رسله الذين أرسلهم للهداية.

ثم ضرب سبحانه مثلاً يوضح نوره هذا بشىء محس تدركه الأبصار، فشبهه بهيئة مركبة من طاقة ومصباح فيها ليقوى ضوءه ولا يتبعثر، وهذا المصباح فى زجاجة صافية كالكوكب الصافى الضوء، وإذا علمت أن العالم كله وقت نزول القرآن ما كان يعرف حصر المصباح فى زجاجة تحيط به ليصفو ضوءه ويخلو من الدخان، وإذا علمت أن اختراع الزجاج المحيط بالفتيلة قريب العهد جدًا، آمنت بأن هذا كلام العليم بأسرار خلقه، واتجهت إليه بقلبك قائلاً: اللهم زدنا إيمانًا وتوفيقًا.

هذا المصباح يوقد من زيت شجرة مباركة هى شجرة الزيتون النابتة فى مكان بارز للشمس ومرور الهواء، فلا هى شرق جبل أو حائط يحجب عنها الشمس آخر النهار، ولا غربى شىء كذلك يحجب عنها الشمس أول النهار، وذلك أكمل لنموها وأطيب لثمارها، بلغ من صفاء زيتها أنه يكاد يضىء ولو لم تمسه نار.

وهذا النور الذى شبه به ما جعله اللَّه هداية للناس متساند بما يقويه؛ فنور المصباح زاد فيه نقاء الزيت وضبط المشكاة وصفاء الزجاجة. يهدى اللَّه لهذا النور القوى مَنْ يشاء من عباده، وهم الذين لم يفسد الشيطان فطرتهم. ويضرب اللَّه الأمثال للناس تقريبًا إلى أفهامهم ليعتبروا، واللَّه بكل شىء عليم، فيضع الأمثال المناسبة للعقول، فيثيب مَنْ انتفع ويعاقب مَنْ أهمل.

ثم ذكر سبحانه بعض أحوال مَنْ حصلت لهم الهداية لهذا النور بذكر بعض أعمالهم القلبية والبدنية فقال: ﴿فى بيوت﴾ إلخ. والمراد يتجلى هذا النور فى بيوت أمر اللَّه تعالى برفعها وذكر اسمه فيها.

وقال كثير من العلماء: هى المساجد. ولكن المتأمل لاستعمال القرآن لكلمة ﴿بيت﴾ يجده على كثرة ذكره لم يأت إلا للكعبة فقط. أو لبيت السكنى: ففى الكعبة جاء فى ثمان سور وهى ﴿البقرة وآل عمران والمائدة والأنفال وإبراهيم والحج والطور وقريش﴾. وبمعنى بيت السكن فى (٢٥) موضعا فى صفحات ٣٧ و ٧١ و ٨٨ و ١٠١ و ١١٩ و ٢٠٤ و ٢٢٧ و ٢٧٩و ٢٩٥ و ٣٠٥ و ٣٥٤ و ٢٧٧ و ٤٦١ و ٤٨٩ و ٥٠٧ و ٥٢٦ و ٦٥٠ و ٧٣٠ و ٧٤٨ ويطلق البيت فى القرآن على الأسرة كما فى الآية (٣٦) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٤ .

وقد ورد فى تفسير ابن جرير لآية (٧٨) من سورة يونس (واجعلوا بيوتكم قبلة) أن البيوت فى القرآن هى بيوت السكن، وأما المساجد فلها اسم خاص بها. ويكون المعنى: يتجلى هذا النور فى بيوت المؤمنين الصالحين التى أمرهم الله تعالى برفع منزلتها باستحضاره فى كل تصرفاتهم فيها، وبتعليم أهلهم كما فى الآية (٦) من سورة التحريم صفحة ٧٥٢. ومن مدارسة القرآن وكل ما يذكرهم بربهم، انظر آيتى (٣٣ و ٣٤) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٤ وبالصلاة فيها.

فقد ورد أنه ﷺ قال: (لاتجعلوا بيوتكم قبورا) أى صلوا فيها. والمستحب أن تكون صلاة النوافل كلها فيها خصوصًا صلاة الليل.

ويؤيد هذا ما رواه البخارى عن زيد بن ثابت قال ﷺ: صلوا أيها الناس فى بيوتكم، فإن أفضل صلاة المرء فى بيته إلا المكتوبة، ويؤيده أيضًا ما رواه مسلم قال ﷺ:

«مثل البيت الذى يذكر اللَّه فيه والبيت الذى لا يذكر اللَّه فيه كمثل الحى والميت». ولذا قال يسبح له فيها بالغدو أى أول النهار، والآصال آخره، والمراد دائمًا: رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر اللَّه وإقام الصلاة.

يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ[1] ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا[2] وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ[3] مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ[4] حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ[5] فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ[6] مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ[7] بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا[8] ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ[9] وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ[10] ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ[11] وَالْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

المفردات: . ﴿كسراب﴾: ما يرى فى المكان المتسع الخالى وقت الظهر كأنه ماء.

﴿قيعة﴾: جمع قاع كجيرة جمع جار، والقاع المكان الخالى، انظر الآية (١٠٦) من سورة طه صفحة ٤١٦ . ﴿يحسبه﴾: يظنه.

﴿الظمآن﴾: شديد العطش. ﴿جاءه﴾: أى جاء مكان ما ظنه ماء. ﴿وجد الله عنده﴾: أى وجد جزاء الله.

﴿لجى﴾: منسوب للُجة وهى الماء الكثير بعيد الغور.

﴿يغشاه﴾: أى يغطى البحر. ﴿ألم تر أن الله﴾: الاستفهام هنا للتقرير كقوله فى سورة الضحى: ﴿ألم يجدك يتيمًا فآوى﴾. والرؤية هنا علمية ﴿يسبح له﴾: ينادى بتنزيهه عن كل نقص. انظر ما تقدم فى صفحة ٤٢٨ . ﴿والطير﴾: خصها بالذكر مع دخولها فيما قبلها لما فى أحوالها من عجيب الصنع. فهى جرم من شأنه أن يسقط على الأرض لولا ما أودعه الله فيه. انظر الآية (١٩) من سورة تبارك صفحة ٧٥٦ .

﴿صافات﴾: باسطات لأجنحتها.

﴿صلاته﴾: المراد بها الدعاء بطلب المعونة منه تعالى بلسان المقال أو لسان الحال.

المعنى: . يعمل هؤلاء الرجال الخيرات لأنهم يخافون هول يوم تتقلب فيه القلوب بين الخوف والرجاء، والأبصار بين الشمال واليمين لما يعتريها من الحيرة لجهل المصير. انظر

(١) الأبصار. (٢) أعمالهم. (٣) الظمآن. (٤) فوفاه.
(٥) كظلمات (٦) يغشاه (٧) ظلمات. (٨) يراها
(٩) السموات. (١٠) صافات (١١) السماوات

الآية (١٩) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٥٢،٥٥١، ولأنها لا تدرى من أين تأخذ كتابها. انظر صفحتى ٧٦٢، ٧٦٣ يسبحون ويخافون ليجزيهم الله أحسن جزاء لأعمالهم وهو مضاعفته للعشر كما فى صفحة ١٩١، ويزيدهم عن ذلك بفضله، انظر صفحة ٥٥. والله يرزق من يشاء بغير حساب لأنه أكرم الأكرمين. وبعد ما بيَّن سبحانه حال المؤمنين وجزاءهم شرع فى بيان حال من أعرضوا عن نور ربهم الذى جاء به لهم لهدايتهم، وضرب لهم مثلين فقال: والذين كفروا بربهم أعمالهم الحسنة فى ذاتها التى يظنونها تنفعهم بدون إيمان صحيح كإغاثة الملهوف وصلة الرحم والبر بالمساكين وعمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج إلى غير ذلك، انظر آيتى (١٨، ١٩) من سورة التوبة صفحتى ٢٤٢، ٢٤٣ مثل هذه الأعمال فى عدم نفعها فى وقت الحاجة إليها كالسراب الذى يلجأ إليه الظمآن، فإذا جاءه لم يجد شيئًا يغيثه، فكذا هؤلاء إذا لجأوا إليه يوم القيامة لم يجدوا شيئًا بل وجدوا الحساب أمامهم بالمرصاد وعلى هذا فلا منافاة بين ما هنا وبين ما فى شرح آيتى (٨،٧) من سورة الزلزلة صفحة ٨١٨ فوفاهم الله تعالى العقاب اللائق بهم، وهو سبحانه سريع الحساب لا يشغله حساب عن حساب، ولا يطول زمن جزائه.

ثم مثل أعمالهم السيئة الخالية من نور الحق، حيث يسيرون فى ضلال ناشئ من ظلمة الكفر وظلمات المعاصى المتعددة، بالظلام الناشئ عن الليل ولجج البحر والأمواج والسحاب الذى يغطى النجوم ليشتد الظلام، حتى إذا أخرج الواقع فيها يده وهى أقرب الأشياء إليه من مكانها بجوار جنبه وقربها لعينيه لم يقرب من رؤيتها فضلا عنها، ومن لم نجعل له نورا من أنوار الهداية لحرمانه من أسبابها فليس له نور أبدا، بخلاف المؤمن فإن له نورا على نور، كما تقدم، انظر الآية (٢٥٧) من سورة البقرة صفحة ٥٤، والآية (١٢٢) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣، والآيات من (٥ إلى ٧) من سورة الليل صفحة ٨١٠ .

ثم أراد سبحانه أن يسفه الكفار على غفلتهم فقال: ﴿ألم تر﴾ إلخ: أى ألم تعلم أيها المخاطب أن مَنْ فى السموات والأرض يشهد بلسان مقاله ولسان حاله بتنزيهه تعالى عن كل نقص بما أودع فيها من الإبداع الدال على كمال قدرته. وتتجلى قدرته فى خلق الطير الذى يقف صافا أجنحته فى الهواء لا يمسكه سوى قدرته تعالى، كل فريق مما فى السموات والأرض علم سبحانه توجهه إليه واعتماده عليه، لأنه عليم بكل ما يفعلون، وكيف لا يستمد الكل من فضله وهو المالك لكل ما فى السموات والأرض، وإليه فى النهاية مرجعهم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ

المفردات: . ﴿يزجى﴾: يسوق على مهل. ﴿ركاما﴾: متراكما بعضه فوق بعض، انظر الآية (٤٤) من سورة الطور صفحة ٦٩٩. ﴿الودق﴾: هو المطر.

﴿خلاله﴾: جمع خلل بوزن جبل، والخلال هى الشقوق التى تكون بين أجزائه. ﴿من جبال فيها﴾ بدل من قوله ﴿من السماء﴾، والمراد قطع السحاب الكبيرة. ﴿من برد﴾: من بمعنى بعض، والبرد قطع صغيرة من الماء المتجمد لشدة البرودة.

﴿سنا برقه﴾: أى ضوءه ﴿يذهب بالأبصار﴾: أى يذهبها، انظر صفحة ٥ . ﴿يقلب الله الليل والنهار﴾: يجعل أحدهما مكان الآخر، وبالنقص والزيادة والحر والبرد. ﴿لأولى الأبصار﴾: لأصحاب الأبصار التى وراءها عقل يفكر لا أبصار البله والمجانين، انظر الآية (١٧٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢ . ﴿دابة﴾: المراد بها هنا كل ما دب ودرج من إنسان وأنعام ووحوش وزواحف وطيور وأسماك وغيرها وانظر بقية ما يطلق عليه دابة فى شرح الآية (٢٩) من سورة الشورى صفحة ٦٤٣ .

﴿من ماء﴾: أى أن الماء عنصر مهم فيها وسترى فى شرح الآية (٢٩) المشار إليها هنا رأيا آخر فى معنى الماء هنا. والذى حملهم على القول بأن الماء هو الغالب أنهم علموا أن القرآن قال فى مكان آخر ﴿والله خلقكم من تراب﴾ الآية (١١) من سورة فاطر صفحة ٥٧٣، والواقع الذى نشاهده أنه مخلوق من الماء والتراب، بل ومن عناصر أخرى تأتينا من الشمس والهواء يعلمها العلماء المتخصصون. وقال العلماء إن القرآن كثيرًا ما يتحدث عن الغالب ولا يريد

(١) خلاله (٢) بالأبصار (٣) الليل (٤) الأبصار
(٥) آيات (٦) مبينات (٧) صراط (٨) آمنا

الجميع كما قال تعالى عن الإنسان ﴿ألم نجعل له عينين، ولسانا وشفتين﴾ آيتى (٨، ٩) من سورة البلد صفحة ٨٠٨. وظاهر هذا يفيد أن كل إنسان كذلك، مع أنه قد يخلق إنسان بعين واحدة مثلاً أو بلا عيون مطلقا، اقرأ قوله تعالى ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ الآية (٧٨) من سورة النحل صفحة ٣٥٦ مع أن بعض بنى آدم لا يسمع ولا يبصر، ومنهم مَنْ هو أبله لا عقل له. ﴿فمنهم﴾: ضمير (هم) أصله للعقلاء. ولما كانت ﴿دابة﴾ تعمهم وغيرهم غلب العقلاء على غيرهم. ولما دخل الجميع فى ضمير (هم) حسن استعمال (مَنْ) التى لا تكون إلا للعاقل فى الجميع. وزاد حسنها المشاكلة. وهى التعبير عن الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته.

﴿يمشى﴾: قال الراغب: المشى الانتقال من مكان إلى مكان بإرادة. وقد يكنى به عن النميمة. ومنه هماز مشاء بنميم الآية (١١) من سورة القلم صفحة ٧٥٨ . ﴿يتولى﴾: أى يعرض.

المعنى: ألم تبصر أيها العاقل أن الله تعالى يسوق قطعا من السحاب متفرقة إلى حيث يريد. ثم يضم بعضها إلى بعض. فترى المطر يخرج من بين أجزائه. وينزل من السماء أى ينزل من قطع كبيرة فى جهتها تشبه الجبال فى الضخامة بعض البرد. ثم يوزع سبحانه هذا البرد حسب ما تقتضيه حكمته فيصيب به مَنْ يشاء من خلقه ولا قدرة لهم على دفعه. ويصرف ضرره عمَّنْ يشاء ثم وجه سبحانه العقول إلى عبرة باهرة حيث خلق من الماء نورًا ونارًا محرقة فقال ﴿يكاد﴾ إلخ: أى يقرب ضوء البرق الناتج من السحاب يذهب أبصار الناظر إليه من قوته وسرعته.

ثم ذكر سبحانه أثرًا عظيمًا من آثار قدرته فقال ﴿يقلب الله الليل والنهار﴾ بتغايرهما فيما علمته مما تقدم. إن فى ذلك لعبرة لأصحاب الأبصار المزودة بعقول تفكر. ثم بين أثرًا آخر من آثار العظمة الإلهية يدل على كمال القدرة ودقيق الصنع حيث خلق من العنصر الواحد

أشياء مختلفة فى التكوين والطباع ونظام الحياة إلخ، وذلك نظير ما فى الآية (٤) من سورة الرعد صفحة ٣٢١ فقال: ﴿والله خلق كل دابة﴾ وقدم ما هو أعجب منها وهى الزواحف التى تمشى على بطنها بدون استعانة بأرجل، ثم بما يمشى على رجلين، ثم على أربع، وبما أنه توجد حيوانات أخرى تمشى على أكثر من أربع كالعناكب وبعض الحشرات لكنها لما كانت لا تقع تحت الأنظار كثيرًا أشار إليها مجملة فى قوله ﴿يخلق الله ما يشاء﴾ أى مما تعلمون وما لا تعلمون مما يدب على الأرض ومما يطير فى الهواء ومما يسبح فى البحار والأنهار أو فى جوف الصخور وغير ذلك ولا يعوقه سبحانه شىء لأنه قدير على كل شىء.

ثم شرع سبحانه فى بيان حال قوم أعمتهم فتنة الدنيا عن الاعتبار فغلب عليهم الشقاء فقال: ﴿ولقد أنزلنا﴾ أى فى هذا القرآن آيات موضحات لطرق الحق على أتم وجه فاهتدى بها مَنْ زكى نفسه، وغفل عنها مَنْ أفسدها، انظر آيتى (٩، ١٠) من سورة الشمس صفحة ٨٠٩ والله يهدى مَنْ يشاء هدايته إلى طريق الصواب المستقيم، لأنه استجلبها بتحصيل أسبابها انظر صفحة ١٦٨ .

ثم شرع سبحانه فى بيان ما وقع من بعض المنافقين ووافقه بقيتهم فكانوا على شاكلتهم فى استحقاق العقاب، وذلك أن رجلاً منافقا تخاصم مع يهودى فطلب اليهودى التحاكم إلى رسول الله ﷺ لعلمه بأنه صاحب حق والنبى ﷺ لا يحكم إلا بالحق، وطلب المنافق التحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودى لأنه يستطيع التأثير عليه بأنه هو الذى اختاره دون خصمه الذى اختار محمدًا.

وأخيرًا انتهيا إلى التحاكم إليه ﷺ فحكم لليهودى، ونزل قوله تعالى ﴿ويقولون آمنا﴾ إلخ: أى يقول هؤلاء الذين أظهروا الإسلام نحن آمنا بالله وبرسوله محمد ﷺ وأطعنا كل ما أمرنا به، ثم يعرض فريق منهم عن أوامر الله عز وجل ويوافقه الباقى، فليس أحد من هؤلاء جميعًا مؤمنا.

ثم ذكر حادثة من حوادث إعراض بعضهم عن حكم الله ورسوله فقال: وإذا دعوا إلى شرع الله وحكم رسوله ليحكم بينهم إلخ.

بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ[1] ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ[2] ﴿٥٢﴾ * وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ[3] لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ[4] الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا[5] مِنكُمْ

المفردات: ﴿إذا فريق﴾: إذا كلمة تدل على حصول ما بعدها فجأة. ﴿مذعنين﴾: أى خاضعين مستسلمين. ﴿أفى قلوبهم مرض﴾: الاستفهام هنا إنكارى يفيد نفى ما دخل عليه من جهة أنه العامل على الإعراض. والمراد هنا بالمرض هو عمى البصيرة. ﴿ارتابوا﴾: أى شكوا فى قدرته ﷺ على الوصول إلى الصواب. ﴿يحيف﴾: أى يظلم. ﴿بل﴾: حرف يفيد إبطال ما قبله وإثبات ما بعده. ﴿جهد أيمانهم﴾: أى بالغين غاية جهدهم فى توكيد أيمانهم، انظر الآية (٥٣) من سورة المائدة صفحتى ١٤٧، ١٤٨ .

﴿ليخرجن﴾: أى عن أموالهم إلى الغزو لإنفاقها فى سبيل الله. انظر صفحتى ٢٤٧، ٢٤٨ . ﴿طاعة معروفة﴾: أى طاعتكم طاعة معروفة بأنها قولية لا فعلية. انظر الآية ﴿٨١﴾ من سورة النساء صفحة ١١٤، والآية (٨) من سورة التوبة صفحة ٢٤١ . ﴿ما حُمِّلَ﴾: من أدا الرسالة وقد أداها. ﴿ما حُمِّلتم﴾: من التكاليف.

المعنى: وإذا دعى أحد هؤلاء المنافقين إلى التحاكم إلى الله ورسوله فاجأ هذا الداعى تصميم فريق منهم على الإعراض، وهو الفريق الذى يعتقد أنه على باطل، أما إذا كان المدعو منهم على حق فله فى ذلك مصلحة فإنه يسرع للخضوع لحكمه ﷺ. وفى ذكر الله مع الرسول زيادة تشنيع عليهم، فإعراضهم عن حكم الرسول الذى هو حكم الله تعالى لأنه ﷺ لا يحكم إلا

(١) الظالمون (٢) الفائزون (٣) أيمانهم
(٤) البلاغ (٥) آمنوا

بما أراه الله كما فى الآية (١٠٥) من سورة النساء صفحة ١٢٠ . ثم فصَّل سبحانه الأسباب التى يمكن أن تكون حاملة لهم على رفض التحاكم إليه صلوات الله عليه، ثم أبطلها وأثبت السبب الحقيقى فقال ﴿فى قلوبهم مرض﴾ إلخ، والمراد هل الحامل لهم على عدم التحاكم إليه ﷺ هو ما أصيبت به قلوبهم من عمى البصيرة فلم يدركوا الحق مع وضوح الدليل؟ أو شكوا فى قدرته ﷺ على البحث والوصول إلى الحق؟ أو خوفهم من أن يظلمهم لشعورهم بكراهته لهم؟ لا لا، ليس الباعث لهم على موقفهم واحدا من هذه، بدليل أنه عندما يكون لهم الحق يخضعون لحكمه ﷺ، وإذًا فالسبب الصحيح لرفضهم هو شدة ظلمهم لأنفسهم وللحق حتى صاروا كأن الظلم لا يوجد فى غيرهم. ثم بيَّن سبحانه أن ما حصل منهم من الإعراض والكذب فى دعوى الطاعة ليس قول مؤمن حقا، فقال ﴿إنما كان قول المؤمنين﴾ إلخ: أى إنما كان قول سمعنا كلام الله ورسوله وأطعنا ما أمر به سواء وافق ما نحب أو نكره هو قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، وهؤلاء هم وحدهم المفلحون.

ثم بيَّن سبحانه حالا من أحوال المنافقين لزيادة فضيحتهم حتى ينفر منهم فقال: وأقسموا بالله بالغين غاية جهدهم فى توكيد قسمهم قائلين لئن أمرنا بالخروج للجهاد وغيره لنخرجن، أى فنحن طائعون لكل ما تأمر به. قل لهم أيها النبى أريحوا أنفسكم من الحلف كذبا، فطاعتكم المزيفة معروفة لكل مَنْ خبر أحوالكم فضلا عن علم علام الغيوب الذى أطلع رسوله على حقيقتكم. وبعدما وبخهم وفضحهم أراد سبحانه إرشادهم إلى طريق النجاة فقال: قل لهم أيها النبى: أطيعوا الله فيما أمر به فى كتابه، والرسول فيما بيَّن من طاعة خالصة لا التواء فيها، فإن أعرضوا عن نصحك فلا ضرر عليك إنما الضرر عليهم. وقل لهم إن الله يقول لكم: إن الرسول ليس عليه إلا ما حمله الله تعالى من أداء الرسالة وقد أداها، وعليكم ما حملكم من التكاليف وسيحاسبكم عليها، وإن تطيعوه تهتدوا للصواب، وليس على الرسول إلا التبليغ الموضح لما كلفتم به وقد فعل، وإنما بقى ما حملكم، فإن أديتم فلكم، وإن توليتم فعليكم. ولمَّا كان فيما سبق فضيحة لبعض مَنْ أظهر الإيمان، وكان هذا ربما يضعف من نفوس بعض حديثى العهد بالإسلام، خصوصًا وهم محاطون بأعداء كثيرين، أراد سبحانه أن يطمئنهم ما داموا قائمين بما كلفهم به فقال: ﴿وعد الله الذين آمنوا﴾ إلخ....

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ

المفردات: ﴿ليستخلفنهم فى الأرض﴾: أى ليجعلنهم خلفا صالحين بعد قوم فاسقين أهلكهم بذنوبهم، انظر الآية (١٤) من سورة يونس صفحة ٢٦٧ .

﴿ليمكنن لهم دينهم﴾: أى يثبت قواعده فيستقر ولا يتزعزع. ﴿معجزين فى الأرض﴾: أى يعجزون الله تعالى بالهرب من عقابه.

﴿مأواهم النار﴾: أى مكانهم الذى يأوون إليه آخر الأمر. ﴿يأيها الذين آمنوا﴾: المراد بالذين آمنوا هنا الذكور والإناث، كما تقدم فى الآية (٢٧) من هذه السورة صفحة ٤٦١﴾.

﴿ليستأذنكم﴾: الأمر وإن كان فى الظاهر للمملوكين والصبيان فهو فى الحقيقة للمخاطبين، قال ابن كثير: أمر الله المؤمنين أن يستأذنهم فى الدخول عليهم خدمهم وأطفالهم فى ثلاث أوقات.

قال الألوسى: المؤمنين أمروا أن يأمروا المذكورين بالاستئذان، كما أمروا أن يأمروهم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، ويضربوهم لتركها وهم أبناء عشر.

---

(١) الصالحات
(٢) الفاسقون
(٣) الصلاة
(٤) آتوا
(٥) الزكاة
(٦) ماواهم
(٧) آمنوا
(٨) ليستاذنكم
(٩) أيمانكم
(١٠) ثلاث
(١١) مرات
(١٢، ١٣) صلاة
(١٤) ثلاث
(١٥) عورات
(١٦) طوافون

﴿الذين ملكت أيمانهم﴾: أى الذكور والإناث كما تقدم فى ﴿الذين﴾ قبلها. ﴿لم يبلغوا الحلم﴾ قال فى لسان العرب: الحُلم بضم فسكون، والاحتلام، هو أن يرى الصبى فى المنام ما يراه الرجل مع زوجته، فعله ﴿حَلَمَ﴾ بفتح اللام، والاسم منه الحُلُم بضمتين، وهو البلوغ مبلغ الرجال.

﴿منكم﴾: أى من الأحرار، ذكورًا وإناثًا، قال يحيى بن كثير: إذا كان الغلام واعيًا فإنه يستأذن فى الأوقات الثلاثة حتى على أبويه، فإذا بلغ فإنه يستأذن فى جميع الأوقات، أما الطفل غير الواعى الذى لا يعرف عورات النساء فإنه لا يطلب منه الاستئذان، انظر الآية (٢١) من هذه السورة صفحتى ٤٦١، ٤٦٢ .

﴿ثلاث مرات﴾: قال أبو حيان: المراد ثلاث استئذانات، يقول العربى: ضربت ثلاث مرات يريد ثلاث ضربات، ويؤيد ذلك قوله ﷺ: الاستئذان ثلاث، وعلى ذلك يكون ﴿ثلاث مرات﴾ مفعولاً مطلقًا.

﴿من قبل صلاة الفجر﴾: أى أحد هذه المرات يكون قبل صلاة الفجر، وثانيها يكون حين تضعون... إلخ. ﴿تضعون﴾: أى تخلعون ثيابكم.

﴿من الظهيرة﴾: أصل معنى الظهيرة وقت انتصاف النهار، والمراد شدة الحر، والمعنى... وحين تخلعون ثيابكم من أجل شدة الحر. ﴿ثلاث عورات لكم﴾: أى هذه الأوقات ثلاث عورات لكم، وأصل معنى العورة الخلل.

يقال: أعْوَرَ المكان، أى حصل فيه خلل. ومنه ﴿إن بيوتنا عورة﴾ انظر الآية (١٣) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٥٠، ٥٥١، وأطلقت العورة على الأوقات المظنون كشف العورة فيها مبالغة كأنك جعلتها نفس العورة، كما تقول مبالغًا فى إثبات العدل لرجل: فلان عدل، أى عادل جدا، والمراد أن هذه الأوقات الثلاثة يختل فيها التستر عادة.

﴿ليس عليكم ولا عليهم﴾: أى ولا على الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم. ﴿جناح﴾: أصل معنى الجناح الإثم، ولكنه أريد به هنا المعنى الذى يعم ذلك وكذا ما تأباه المروءة، والأدب، وبذلك صح أن ينفى الجناح عن الصغار الذين لم يبلغوا الحلم، فإنهم وإن

كانوا غير محل للعقاب فإنهم ما داموا يميزون يطلب منهم أن يتجنبوا ما تأباه المروءة والآداب. ويكون المعنى ليس عليكم يا أهل البيت ذنب فى عدم نهى الخدم عن الدخول بلا إذن فى غير هذه الأوقات، ولا على الكبار من الخدم كذلك ذنب فى الدخول فى غير هذه الأوقات أيضًا، ولا على الصغار منهم مؤاخذة أدبية إذا دخلوا كذلك.

﴿بعدهن﴾: أى بعد هذه العورات الثلاث. ﴿طوافون عليكم﴾: هذا بيان للعذر الذى يجيز ترك الاستئذان. أى هم كثيرو الطواف عليكم لقضاء مصالحكم.

﴿بعضكم على بعض﴾: أى بعضكم طائف على بعض، فهذه الجملة مؤكدة لحكمة نفى الحرج. أى أن كلا منكم ومنهم لا يستغنى عن مخالطة صاحبه، فهم يطوفون عليكم للخدمة، وأنتم تطوفون عليهم للاستخدام. لأن من شأن الخدم أن يكونوا فى مكان منعزل، ولم يكن هناك طريق لتكليفهم بشىء إلا بالانتقال إليهم. ولا تغفل عما فى هذا التعبير من جبر قلوب الخدم حيث جعلهم بعضًا من المخاطبين وجعلهم متعاونين فى الحياة بقدر مشترك بينهم جميعًا. ولو تحتم الأمر بالاستئذان فى كل وقت لأدى ذلك إلى الحرج. والمشقة.

المعنى: وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات بخير جزيل. أكده باليمين. فقال: ﴿ليستخلفنهم﴾ أى والله ليجعلنهم خلفاء فى الأرض يعمرونها بالعدل كما استخلف عباده الصالحين قبلهم. الذين أقاموا العدل. ونشروا الأمن. وأعدوا لخصومهم كل قوة. وليثبتن قواعد دينهم الذى ارتضاه لهم بتقويتهم وقدرتهم على الدفاع عنه. وليبدلنهم من بعد خوفهم بسبب قلتهم وكثرة عدوهم أمنًا بنصرهم على أعدائهم: وذلك بسبب أنهم يداومون على عبادته سبحانه وحده. ومن اختار البقاء على الكفر بعد ذلك فأولئك هم الخارجون عن دائرة الهداية. التائهون فى الضلال.

وإذا كان هذا هو مصير الكافرين فاحذروا أيها المؤمنون السير فى طريقهم. واستعينوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. وأطيعوا الرسول فى كل ما يأمر به. راجين من ربكم واسع رحمته.

ولما كانت شوكة المشركين فى هذا الوقت ظاهرة القوة، وكان ربما يخالج بعض النفوس خوف من بطء تحقق هذا الوعد السابق، أراد سبحانه أن يزيل ذلك فقال ﴿لا تحسبن﴾ إلخ: أى لا تظن أيها المخاطب أن الكافرين معجزين الله فلا يهلكهم مهما كانوا فى أى قطر من أقطار الأرض، بل سيهلكهم ويجعل مكانهم فى الآخرة النار، وقبحت النار مرجعا.

ثم أراد سبحانه أن يبين آداب المعاشرة فى الأسرة الواحدة قال المرحوم الشيخ إبراهيم الجبالى فى رسالته (تفسير سورة النور): يكون مع المرء فى داره عادة جماعة ممن تربطهم به رابطة المعيشة، كأعضاء أسرته، وخدمه.

وهؤلاء تقتضى شئون الحياة أن يختلط بعضهم ببعض اختلاطًا متكررًا، وربما لا يتحاشى بعضهم أن يدخل على غيره فى خلوته، ولا يلتفت إلى استئذان فى كل مرة يريد أن يتصل فيها برفيقه فى المعيشة، وما من واحد من الأسرة إلا وله شئون خاصة يكره أن يطلع عليها غيره، فاحتاج الأمر إلى نظام واضح يحدد ما يضمن الراحة، ويزيل الحرج والمضايقة، فأنزل سبحانه هاتين الآيتين: ﴿يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم﴾... إلخ...

والمعنى: يأيها الذين آمنوا من الذكور والإناث يجب أن يستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والصبيان المميزون الذين دون البلوغ فى ثلاث أوقات يترك فيها الاحتشام عادة، هى الوقت الذى قبل الفجر حين يقوم الإنسان من نومه ويخلع ثيابه ويلبس غيرها، وفى الوقت الذى تخلعون فيه ثيابكم من شدة الحر وقد لا يستر أحدكم إلا ساتر خفيف، وإنما علق الحكم على خلع الثياب لا على الوقت لأن راحة الظهيرة تختلف باختلاف عوائد الناس، فمنهم مَنْ يبادر بها، ومنهم مَنْ يؤخرها قليلا أو كثيرا؛ والوقت الذى بعد صلاة العشاء حين يأوى أحدكم إلى فراشه فيخلع ويلبس كما سبق، وقد يكون له عورة أخرى يؤذيه أن يطلع عليها أحد مطلقًا.

هذه ثلاثة أوقات يهمل فيها التستر عادة، ليس عليكم إثم فى تركهم يدخلون بدون استئذان، ولا عليهم مؤاخذة فى دخولهم كذلك، أى فى غير هذه الأوقات لشدة حاجتكم إلى كثرة طواف بعضكم على بعض. كهذا البيان البديع لأدق الأحكام يُنزل الله تعالى آياته التى تتلى عليكم واضحة الدلالة على ما فيه مصلحتكم.

الآيات والله عليم حكيم (٥٨) وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم (٥٩) والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم (٦٠) ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا فإذا دخلتم

المفردات: ﴿كما استأذن الذين من قبلهم﴾: قال الزمخشرى يريد سبحانه الذين ذكروا من قبل فى قوله تعالى ﴿لا تدخلوا بيوتًا غير بيوتكم﴾... إلخ الآية (٢٧) وما بعدها من هذه السورة، فيكون المعنى أن الصغار إذا بلغوا يكون لهم حكم الكبار المتقدم ذكرهم من عدم الدخول إلا بإذن فى جميع الأوقات.

وإن كان ما سبق فى حكم دخول بيوت الغير من أبوابها، وما هنا فى دخول الحجر الخاصة فى البيت الواحد التى يكره مَنْ يكون بداخلها أن يراه أحد إلا وهو على حالة لائقة.

﴿القواعد﴾: جمع قاعد، وهو من الصفات الخاصة بالنساء كالحائض والطالق، والمراد بها العجائز اللواتى يغلب عليهن القعود فى البيت.

﴿لا يرجون نكاحًا﴾: أى لا يطمعن فى الزواج لعدم الرغبة فيهن.

﴿غير متبرجات﴾: التبرج تكلف إظهار ما يجب إخفاؤه، وأصله الخروج من البرج وهو

(١) الآيات
(٢) الأطفال
(٣) فليستأذنوا
(٤) استأذن
(٥) آياته
(٦) القواعد
(٧) اللاتى
(٨) متبرجات
(٩) آبائكم
(١٠) أمهاتكم
(١١) إخوانكم
(١٢) أخواتكم
(١٣) أعمامكم
(١٤) عماتكم
(١٥) أخوالكم
(١٦) خالاتكم

القصر كما فى الآية (٧٨) من سورة النساء صفحة ١١٤ ثم استعمل فى خروج المرأة من الحشمة.

﴿أنفسكم﴾: المراد أبنائكم الذين هم كأنفسكم، ونظيره ﴿أنفسكم﴾ فى: ﴿فسلموا على أنفسكم﴾ الآتية فى هذه الآية أيضًا.

﴿مفاتحه﴾: جمع مفتح كمبرد وهو ما يفتح به، انظر صفحة ١٧١ .

﴿صديقكم﴾: الصديق يطلق على الواحد والأكثر كالعدو فى قوله ﴿وهم لكم عدو﴾ صفحة ٣٨٨، والصديق مَنْ يصدقك فى مودته وتصدقه فيها.

﴿أشتاتًا﴾: مفرده شتيت بوزن كريم، أى متفرق والمراد متفرقين.

المعنى: جرت عادة اللّٰه سبحانه أن ينزل الآيات الدالة على ما فيه خيرلكم، واللّٰه عليم بمصالح عباده، حكيم فيما يشرعه لهم.

ولما كان ما تقدم يفيد أن الأطفال يجوز لهم الدخول بغير إذن فى غير هذه الأوقات الثلاثة، وكان ذلك ربما يوهم أنهم لو بلغوا يغتفر لهم الدخول فى غيرها لسابق تعودهم ذلك، دفع ذلك بقوله ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم﴾ فى الآية (٢٧) وما بعدها من هذه السورة. ثم أكد عنايته بتوضيح الأحكام ليقطع العذر فقال: ﴿كذلك يبين اللّٰه لكم آياته واللّٰه عليم حكيم﴾.

وظاهر الآية الأولى (٥٨) أنه لا حرج فى الدخول بغير استئذان فيما بين صلاة العشاء وصلاة الفجر، وهذا الظاهر غير مراد، بل لا يجوز الدخول فى هذا الوقت أيضًا إلا بإذن وإنما لم تتعرض له الآية مفهوم من باب أولى، ولأن العادة جرت على المنع منه مطلقا، لأن الدخول فى وسط الليل من غير علم المدخول عليه فيه من التهمة ما لا يخفى خطره، لذلك لم يكن مظنه دخول الغير فيه. وقد أخذ العلماء من الآيتين أحكامًا وآدابا لها قيمتها، قال عطاء بن رباح لابن عباس: هل استأذن على أخوات لى أيتام يعشن معى تحت رعايتى فى بيت واحد؟ قال ابن عباس: نعم تستأذن عليهن. قال عطاء فرددت عليه طالبا أن يرخص لى فى

عدم الاستئذان. فأبى وقال: هل تحب أن تراها عريانة؟ قلت: لا. قال: إذًا فاستأذن. وأخرج مالك فى الموطأ عن ابن يسار أن رجلا قال للنبى ﷺ: هل استأذن على أمى؟ قال ﷺ: نعم. قال: ليس لها خادم غيرى فهل استأذن عليها كلما دخلت. قال ﷺ: هل تحب أن تراها عريانة؟ قال: لا. قال ﷺ: فاستأذن عليها.

وسئل رباح: هل يستأذن الرجل على امرأته؟ قال: لا. قال ابن كثير: وهذا محمول على أنه غير واجب، وإلا فالأولى أن يعلمها بأن سيدخل عليها، ولا يفاجئها لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها. ولهذا كان عبدالله بن مسعود إذا دنا من باب بيته تنحنح كراهة أن يصادف أهله على حالة مكروهة، وهذا مفهوم من أنه ﷺ لما وصل المدينة نهارا، قادما من إحدى غزواته، عسكر بجيشه خارج المدينة، وقال: انتظروا حتى ندخل آخر النهار، بعد أن يعلم نساؤكم قدومكم حتى لا يفاجأن بكم، وهن على حالة لا تحبونها.

وفى هذا قال ابن عباس: إن اللّٰه ستير يحب الستر لعباده. وروى عن ابن عباس أيضًا أنه قال: تهاون الناس بهذه الآية.. وإنى لآمر زوجتى أن تستأذن علىّ. وقال ابن مسعود: عليكم أن تستأذنوا على آبائكم، وأمهاتكم، وإخوانكم، وأخواتكم... ويؤخذ من الآيتين أيضًا أن العادة التى كانت غالبة عند القوم هى المسارعة إلى الفراش عقب صلاة العشاء، وعدم السهر إلا لحاجة، أما إذا جرت العادة بالسهر بعد صلاة العشاء. فإنه يجب أن تلاحظ عادة القوم، وعلى ذلك يمتنع الدخول بغير إذن فى الوقت الذى تعودوا الشروع فى النوم فيه، وأخذ العلماء أيضًا من قوله تعالى ﴿من قبل صلاة الفجر ومن بعد صلاة العشاء﴾ أنه يوحى بأن الأفضل تعجيل النوم بعد صلاة العشاء ليكون المرء وهو مقبل على الموتة الصغرى بعيدًا عن اللغو وما قد يجر إليه السهر مما هو أقبح من اللغو، كما يوحى أيضًا بفضل التبكير فى اليقظة قبل صلاة الفجر، لأن فى ذلك مساعدة على التعجيل بالنوم بعد صلاة العشاء، كما أن القيام المبكر فيه نشاط للجسم وبركة فى اليوم الذى يستقبله.

والعجائز من النساء اللاتى لا يطمعن فى الزواج لا إثم عليهن فى أن يخلعن ثيابهن الظاهرة التى لايفضى خلعها إلى كشف عورة من عوراتهن حال كونهن غير قاصدات إظهار زينة خفية كالشعر والصدر والساق، أى لا يقصد بخلع الثياب التبرج بل التخفيف، وأن يطلبن العفة بعدم خلع الثياب خير لهن لما فيه من الاحترام والبعد عن كل شبهة إذ ما من ساقطة إلا ولها لاقطة، والله سميع لأقوالهن، عليم بقصدهن من كل قول وفعل.

ثم بيَّن سبحانه أحكام بعض أنواع المعاشرة مما كانت تختلف فيه الأنظار من تحرج وعدمه، فمن ذلك الأكل مع ذوى العاهات كالأعمى والأعرج، فقد كان هؤلاء يتحرجون من الأكل مع الأصحاء لأن الأعمى يخشى أن يظهر منه ما يتقزز منه البصير، والأعرج قد يضطر إلى جلسة قد تضايق غيره، والمريض شديد الإحساس يخشى أن يتأذى منه غيره، وكان من الأصحاء مَنْ يتحاشى أن يأكل مع واحد من هؤلاء الثلاثة ليبتعد عن إحراجه ويتركه يأكل وحده ليكون مطمئنًا، ومن ذلك ما كان من عادة مَنْ يخرج للجهاد من أثرياء المؤمنين ويتركون فى المدينة أصحاب الأعذار الفقراء الذين كانوا كثيرًا ما يأكلون من بيوتهم أى بيوت الأثرياء فى حال وجودهم، وكانوا يسمحون لهم بالأكل منها فى حال غيبتهم فكان هؤلاء الضعفاء يتحرجون من ذلك، وكان من عادة بعض القبائل أن الرجل لا يأكل وحده فكان أحدهم ينتظر مَنْ يشاركه من ضيف أو ابن سبيل، وربما مكث ينتظر يومًا كاملا.

وكل هذا تضييق لا معنى له، فرفع سبحانه كل هذا الحرج ووسع الأمر فى مخالطة المؤمنين بعضهم لبعض متى حسنت النيات فقال تعالى: ليس على الأعمى ومَنْ فى حكمه تضييق فى أن يأكل مع السليم، فليس من شأن النفوس المهذبة أن تعنى بهذه الأمور التافهة فضلا عن أن المؤمنين أخوة، وكذلك ليس عليهم ولا على الأصحاء جناح أن يأكلوا من بيوت أبنائهم الذين هم كأنفسهم، لأن كسب الولد ملك أبيه، إلى قوله: أو بيوت إخوانكم الذكور أو بيوت أخواتكم الإناث، إلى قوله: أو بيوت مَنْ ملككم مفاتيحها وأذن لكم فى ذلك، أو من بيوت أصدقائكم الذين تطيب أنفسهم بذلك، ليس عليكم حرج فى أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين.

ثم بيَّن سبحانه الأدب الذى يراعى عند دخول تلك البيوت التى أذن بالأكل منها فقال: ﴿فإذا دخلتم بيوتًا﴾ إلخ.

بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً[1] طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ[2] لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ[3] إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ[4] أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ[5] لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

المفردات: ﴿سلموا على أنفسكم﴾: أى على أهلها الذين هم إخوانكم كأنهم أنفسكم.

﴿تحية﴾: مصدر لسلموا من معناه كقعد جلوسا.

﴿مباركة﴾: محتوية على زيادة الخير والثواب. ﴿طيبة﴾: تطيب بها نفس المستمع.

﴿أمر جامع﴾: أى مهم يجمع الناس للتشاور فيه.

﴿لا تجعلوا دعاء الرسول﴾ ... إلخ: أى لا تجعلوا دعاءكم للرسول كدعاء بعضكم بعضا فهو مصدر مضاف لمفعوله كقولك حد الزانى. قال قتادة والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد: أى لا تنادونه كما ينادى بعضكم بعضا باسمه مع رفع الصوت بحالة تدل على عدم الاعتناء بالمخاطب، فقد كانوا يقولون بصوت مرتفع بخشونة يا محمَّد أو يا أبا القاسم، فأرشدهم سبحانه بأن ينادوه بما فيه احترام لفظا وصوتا بأن يقولوا يا رسول اللَّه أو يا نبى اللَّه مع صوت خفيض مشعر بالأدب.

وكان من نتيجة هذا التأديب الإلهى أن أغلبهم كان إذا أراد أن يخاطب النبى ﷺ يقول يا رسول الله بأبى أنت وأمى (أى أفديك بأبى وأمى). ﴿يتسللون﴾: ينسلون ويخرجون من الجماعة تدريجا فى خفية. ﴿لواذًا﴾: أى ملاوذة وهى مصدر من ملاوذ بمعنى استتر وهو فعل واوى وأما (لاذ) بمعنى لجأ فمصدر يائى (لياذًا) وهنا ﴿لواذًا﴾ أى ملاوذة بأن يستتر بعضهم

(١) مباركة (٢) الآيات (٣) يستأذنوه
(٤) يستأذنوك (٥) استأذنوك.

ببعض حتى يخرج. قال أبو داود كان لا يخرج أحد من الصحابة من مجلسه ﷺ إلا لعذر كرعاف أو حدث فكان يشير بيده له ﷺ مستأذنًا فيشير له ﷺ إذنا بيده، وكان بعض ضعاف الإيمان والمنافقين يقوم منصرفًا إلى جنب من استأذن يستتر به، أو يوهم أنه من أتباعه أو يريد منه شيئًا مهمًا. ﴿يخالفون عن أمره﴾: ضمَّن يخالفون معنى الإعراض فعداه بحرف ﴿عن﴾ وأصله يتعدى بنفسه فيقال يخالفون أمره، والمعنى يخالفون تعاليم ربهم حال كونهم معرضين عن أمر رسوله لهم باتباع ما شرع الله. ﴿ألا﴾: كلمة تدل على تنبيه المخاطب للعناية بما بعدها. ﴿قد يعلم الله﴾: إلخ: ﴿قد﴾ حرف يفيد تحقيق العلم بعده، ففيه زيادة تهديد لهم وتخويفهم منه سبحانه ومثلها ﴿قد يعلم ما أنتم عليه﴾ الآتية فى الآية (٦٤) من نفس السورة.

المعنى: . بعدما أذن سبحانه فى الأكل من تلك البيوت بين أنه ليس معنى هذا أن يقتحمها الإنسان بدون إذن فقال: فإذا دخلتم بيوتًا من البيوت التى أذن لكم بالأكل منها فابدءوا دخولكم بالسلام على أهلها الذين هم منكم وأنتم منهم كأنهم أنفسكم تسليمًا مأمورًا به من عند الله، فهو مؤكد ومبارك بزيادة الثواب وتقوية الروابط الطيبة بتلك التحية نفس من تحيونه ويستريح لها. كهذا البيان الوافى يبين لكم الآيات لتعقلوا ما احتوت عليه من منافع طيبة وهداية.

وبعدما بين سبحانه آداب مخالطة الناس بعضهم بعضا شرع فى بيان آدابهم بالنسبة لرسوله ﷺ وما يجب أن يكونوا عليه بالنسبة له من تمام الانقياد، وكان المنافقون لا يطيقون طول الاجتماع به ﷺ لشدة كراهتهم له، وللخوف من أن تنزل سورة تفضحهم فى مجابهتهم، انظر الآية (٦٤) من سورة التوبة صفحة ٢٥١، فكانوا يحتالون فى الانصراف من مجلسه ﷺ بحيل شتى، منها أنه إذا استأذن أحد لعذر صحيح يتستر به أحدهم، أو يزعم أنه يريد منه شيئًا، إلى غير ذلك. فقال سبحانه لمحاربة هذا الخداع: ﴿إنما المؤمنون﴾ إلخ: إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، إن الذين يستأذنوك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم. والمعنى: أى ليس هناك مؤمنون حقا إلا مَنْ جمعوا ثلاث صفات: الإيمان بالله، والإيمان برسوله، والمحافظة على البقاء مع رسوله فى كل اجتماع يدعوهم إليه لأمر مهم، وهو لا يدعو إلا لذلك، ولا ينصرفون من مجلسه إلا بعد استئذان

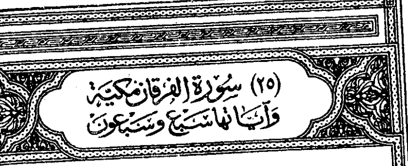
منهم وإذن منه ﷺ. ثم أعاد سبحانه هذا الحكم بأسلوب آخر جعل فيه الاستئذان من علامات صدق الإيمان فقال إن الذين يستأذنوك أولئك هم الذين يستحقون أن يكونوا وحدهم هم المؤمنين بالله واليوم الآخر. ثم أرشد سبحانه المؤمنين الصادقين إلى أن الاستئذان لا ينبغى أن يكون لكل طارئ ولو كان تافها، بل قصره على المهم، وإلى أن الإذن وعدمه متروك لمشيئته ﷺ وتقديره للأمور فيقدم الأهم على المهم، وإلى أن الأولى بالمؤمنين أن يتحاشوا الانصراف عن مجلسه ﷺ ولو بعد الإذن إلا للضرورة القصوى لأن المصلحة العامة فوق كل مصلحة شخصية. يرشد إلى هذا قوله سبحانه: ﴿واستغفر لهم﴾ أى ما قد يخطئون فى تقدير أهميته فى كل هذا قال سبحانه: فإذا استأذنوك لأمهم من شئونهم فأذن لمَنْ شئت منهم وهو مَنْ علمت صحة تقديره للأمور، واستغفر لهم لما عساه أن يكونوا أخطأوا فيه، إن الله غفور لهفوات المؤمنين، رحيم بتيسير الإذن لهم. ثم نبه سبحانه لخطر التساهل فى معاملته ﷺ وقياسها على معاملة غيره، ويجرى هذا الحكم الآن فى كل أمر مهم يدعو إليه رئيس الدولة العادل، فقال ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول﴾ إلخ: أى لا تجعلوا دعاءكم للرسول كدعاء بعضكم بعضًا، أى لا تنادونه كما ينادى بعضكم بعضا، انظر مفردات هذه الصفحة تجد تفصيلاً لذلك. ثم هدد سبحانه مَنْ تحدثه نفسه بالانصراف عن مجلسه ﷺ فقال محذرًا لهم بأنه عليم بأعمالهم: قد يعلم الله الذين يتسللون منكم ملاوذة.

وإذا كان سبحانه يعلم قطعًا كل حركاتهم ونياتهم فليحذر الذين يخالفون تعاليم ربهم معرضين عن أمر رسوله أن تصيبهم فتنة أى بلاء عظيم بالمصائب، أو عذاب شديد بالقتل وهم على المعصية.

ثم بيَّن سبحانه أنه قادر على إيقاع ما هدد به فقال: ﴿ألا﴾ أى تنبهوا لما حذرتكم منه، فإن كل ما فى الكون مملوك له تعالى، فلا يخرج أحد عن قبضة ملكه.

ثم هدد من جهة أخرى وهى جهة علمه بكل تصرفاتهم فقال مؤكدًا علمه: قد يعلم سبحانه ما أنتم عليه من النفاق. ثم أعرض عن خطابهم احتقارا لهم فقال ﴿ويوم يرجعون إليه﴾. أى يوم يرجع المنافقون إليه وهو يوم القيامة سيخبرهم بما عملوا توبيخًا لهم على رءوس الأشهاد. والله بكل شىء عليم فهو سبحانه لا يخفى عليه صغيرة ولا كبيرة من أعمالهم وغيرها. والله تعالى أعلم.

سورة الفرقان


(الجــزء الثامن عشر) ٤٧٠

(٢٥) سورة الفرقان مكية وآياتها سبع وسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: . ﴿تبارك﴾ : هذا الفعل لم يرد من مادته غيره. فلا مضارع له ولا أمر ومادته تدل على معنى الزيادة فى الخير. والمراد منه هنا تعالى قدره وتزايد تنزيهه عن كل نقص. ﴿الفرقان﴾ : أصله شديد الفرق بين شيئين، والمراد هنا القرآن الفارق بين الحق والباطل. ﴿نذيرا﴾ : أى محذرا من عقاب الله عز وجل.

﴿نشورًا﴾ : أصل النشور هو الحياة بعد الموت. يقال نَشَر الميت بوزن دخل إذا دبت فيه الحياة. وأنشره الله أى أحياه انظر الآية (٢٢) من سورة عبس صفحة ٧٩٢. ويطلق النشور على اليقظة بعد النوم. لأن النوم هو الموتة الصغرى. كما فى الآية (٤٧) الآتية فى هذه السورة صفحة ٤٧٥ والمراد هنا القيام من القبور المراد فى صفحة ٧٩٢. ﴿إن هذا﴾ : ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى (ما). ﴿إفك﴾ : أى كذب. انظر الآية (١١) من سورة النور صفحة ٤٥٨. ﴿افتراه﴾ : أى اخترعه محمد ﷺ ونسبه لله تعالى. ﴿قوم آخرون﴾ : يريدون بعض مَنْ أسلم من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام. ﴿أساطير﴾ : جمع أسطورة وهى الأكذوبة.

المعنى : . ارتفع شأنه سبحانه وتعالى عما يقوله المبطلون من أن له ولدًا أو شريكا. ومن الطعن فى رسوله الذى نزل عليه القرآن الفارق بين الحق والباطل ليكون للعالمين نذيرا

(١) للعالمين (٢) ألهة (٣) حياة (٤) افتراه
(٥) آخرون (٦) جاءوا (٧) أساطير.

وبشيرا أيضا. وإنما اقتصر على التخويف لأن أغلب السورة فى إبطال ما زعمه الكافرون مما ستعلمه، ولا يناسب الكافر إلا الإنذار، انظر شرح الآية (٤٦) من سورة القصص صفحة ٥١٣، الله وحده الذى له ملك السموات والأرض، فكل مَنْ فيها عبيده، فلا يصح أن يكون منهم ولد ولا شريك، وهو الخالق لكل شىء، وقدره أى هيأه لما أراده منه من الأفعال اللائقة به تقديرا بديعا لا اختلال فيه، ومن العجيب أن يتخذ المشركون المشار إليهم بقوله ﴿ولم يكن له شريك﴾ من دونه سبحانه آلهة عاجزين لأنهم لا يخلقون شيئا بل هم أنفسهم مخلوقون له سبحانه، ولا يستطيعون لأنفسهم دفع ضر ولا جلب نفع فضلا عن أن تملك شيئا من ذلك لغيرها. ولا يملكون موت أحدكما يميته الله سبحانه ولا إحياء ميت فى الدنيا ولا بعثا له فى الآخرة. وقال الكافرون من مشركى العرب:

ما هذا القرآن إلا كذب، اخترعه ولم ينزله ربه وأعانه على افترائه قوم من اليهود الذين عندهم أخبار الأمم الماضية فيلقونها عليه وهو يزعم أن ربه أنزلها عليه. فقد أتى الكافرون بهذا القول ظلما للحق ولأنفسهم وكذبا باطلا، انظر تفصيل ذلك فى شرح صفحة ٥١٣؛ ومن المكابرة المفضوحة أن يموّه صناديد الكفر بمكة على البسطاء بهذا البهتان الواضح بعد أن سجل عليهم القرآن العجز عن الإتيان بمثله فى الآية (٨٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦. وإلا فكيف تقبل العقول أن يستعين الرسول بقلة من اليهود الذين أسلموا فى وقت هو فيه أعزل من كل سلاح مادى بل يتابعه الاضطهاد هو ومَنْ آمن معه.

وهؤلاء الكفار يملكون كل أسباب القوة من العدد الكثير والمال الوفير مما يسخرون به الكثرة من اليهود الحانقين على الرسول ﷺ. الذين حاربوه بكل ما يستطيعون إلا هذا السلاح. فلو كانوا يستطيعونه لما سكتوا عن إمداد الكفار به طرفة عين. ثم بين سبحانه كيفية ما زعموه من الاستعانة باليهود فقال:

وقالوا أى المشركين : هذا القرآن هو أساطير الأولين... إلخ.

اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا (٥) قل أنزله الذي يعلم السر[1] في السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما (٦) وقالوا مال هذا[2] الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا (٧) أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون[3] إن تتبعون إلا رجلا مسحورا (٨) انظر كيف ضربوا لك الأمثال[4] فضلوا فلا يستطيعون سبيلا (٩) تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات[5] تجري من تحتها الأنهار[6] ويجعل لك قصورا (١٠) بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا (١١) إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا (١٢) وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا (١٣)

المفردات : ﴿اكتتبها﴾ : أي طلب أن تكتب له. ﴿تملى عليه﴾ : أي تلقى عليه بعد كتابتها لحفظها. ﴿بكرة وأصيلا﴾ : البكرة أول النهار، والأصيل آخره، والمراد دائما.

﴿مسحورا﴾ : تقدم في صفحة ٣٧٠ .

﴿تبارك﴾ : تقدم في الصفحة السابقة.

﴿إذا رأتهم﴾ : المراد إذا كانت بمرأى منهم. والعرب تقول تراءت نار القبيلتين إذا رأت كل قبيلة الأخرى؛ ومنه قوله ﷺ في التنفير من مجاورة الكفار إذا كان فيها خطر على الدين ﴿إن المؤمن والكافر لا تتراءى نارهما﴾.

﴿تغيظا وزفيرا﴾ : أصل التغيظ إظهار الغيظ من شدته بصوت يقارنه وذلك لأن الغيظ هو انفعال مؤلم في داخل القلب لا يظهر إلا أثره، والزفير النفس الخارج بشدة، والمراد المبالغة في أن جهنم يخرج منها صوت كأنه صوت المغيظ المكروب، انظر آيتي (٧، ٨) من سورة الملك صفحة ٧٥٥، والعرب تقول في القدر شديد الغليان، قدر مغتاظ، وتقول تغيظت الظهيرة إذا اشتد حرها. ﴿مقرنين﴾ : أي مقيدا كل واحد مع شيطانه في الأغلال، انظر الآية (٤٩) من سورة الحجر صفحة ٣٣٧. ﴿دعوا﴾ : أي نادوا. ﴿هنالك﴾ : أي في هذا المكان الضيق. ﴿ثبورا﴾ : أي هلاكا. فيقولون يا هلاك أدركنا لنستريح، انظر الآية (٤٠) من سورة النبأ صفحة ٧٨٨.

المعنى : ومن افتراء كفار مكة قولهم عن القرآن إنه مجرد أحاديث أغلبها مكذوب طلب أن تكتب له، فهي تتلى عليه مرارًا ليحفظها. قل أيها النبي ردا عليهم : ليس الأمر كما تزعمون، بل هذا القرآن أنزله الله تعالى الذي يعلم كل سر في السموات والأرض ولذا تجدون

(١) السموات (٢) ما لهذا (٣) الظالمون
(٤) الأمثال (٥) جنات (٦) الأنهار.

ما فيه من أخبار الغيب والأسلوب المعجز الذي لا يصل إليه غيره تعالى، انظر الآية (٤٦) من سورة القصص صفحة ٥١٣، فإنكاركم له يوجب عذابكم، لكنه سبحانه أمهلكم ليمكنكم من التوبة لأنه غفور رحيم دائما. وقال هؤلاء الكفار على سبيل التهكم به ﷺ: ما لهذا الذي يزعم أنه رسول يأكل الطعام كما نأكل، أي ماهو الشيء الذي يميزه عنا وجعله يدعي النبوة مع أنه يأكل ويشرب كما نفعل؟ ويمشي في الأسواق لطلب الرزق كما نفعل؟ وظنوا لقصر عقولهم أن التمييز لا يكون إلا بالحسيات لا بالفضائل النفسية، فقالوا ﴿لولا﴾ أي فهلا أنزل إليه ملك من عند الله فيكون مساعدا له على إنذار الخلق ليصدقوه، أو ينزل الله عليه كنزا من السماء ينفق منه حتى لا يحتاج إلى المشي في الأسواق، أو تكون له جنة أي بستانًا يأكل من ثمره كالأغنياء. ثم بعد كل هذا الضلال قال هؤلاء الكافرون الظالمون لأنفسهم: ما تتبعون إن اتبعتم إلا رجلا سحر فاختل عقله. ثم أعرض عنهم سبحانه والتفت لرسوله مخاطبا مسليا فقال: انظر أيها النبي واعجب كيف قالوا في حقك الأقاويل العجيبة الخارجة عن العقول البالغة لغرابتها مبلغ الأمثال السائرة فبقوا بذلك متحيرين في الضلال لا يجدون طريقا يوصلهم للحق. تبارك الذي إن شاء جعل لك في الدنيا خيرا لك مما اقترحوه وهو أن يجعل لك فيها مثل ما وعدك به في الآخرة من جنات تجري من تحت أشجار كل واحدة منها الأنهار، ويجعل لك فيها قصورا. ولم يرد على طلبهم أن يكون ملكا لا يأكل الطعام لأنه رد عليه في مواضع أخرى منها آيتي (٩٤، ٩٥) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٧، ولأن كونه ملكا ينافي حكمته في خلق الدنيا وهي ترك الناس فيها أحرارا، ولو نزل ملكا من السماء لأجبروا أو أفناهم، انظر الآية (٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٣. وبعد ما فرغ سبحانه من حكاية أباطيلهم في أمر التوحيد والنبوة انتقل إلى حكاية باطل آخر متعلق بأمر الآخرة ليكون مقدمة لبيان ما أعد لهم فيها من الشقاء فقال: بل كذب هؤلاء الكفار بالساعة أي يوم القيامة، وهيأنا لمن كذب بها من أمثالهم نارا مستعرة إذا واجهتهم عن بعد سمعوا لها تغيظا وزفيرا تنخلع له قلوبهم. عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: جهنم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف. وإذا ألقتهم الملائكة في مكان ضيق منها لزيادة نكدهم حال كونهم مقرنين في السلاسل نادوا الهلاك لينقذهم، فيقولون: يا هلاك أدركنا لنستريح انظر الآية (٤٠) من سورة النبأ صفحة ٧٨٨.

لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

المفردات : ﴿لهم فيها ما يشاءون﴾ : ولا ينال العبد الصالح كل ما يشتهى إلا فى الجنة، أما فى الدنيا فلا؛ فقد سأل نبينا ﷺ المغفرة لعمه ولم يُجب، انظر الآية (١١٣) من سورة التوبة صفحة ٢٦١؛ وسأل نوح نجاة ابنه فلم يُجب، انظر آيتى (٤٥، ٤٦) من سورة هود صفحة ٢٩١، إلى غير ذلك، انظر الآية (٣١) من سورة النحل صفحة ٣٤٩، والآية (٣٤) من سورة الزمر صفحة ٦١١، والآية (٣٥) من سورة ق صفحة ٦٩١.

﴿الذكر﴾ : أى تذكر ربهم وعقابه.

﴿بورا﴾ : البور لفظ يطلق على الواحد، والمتعدد، ومعناه فاسد هالك لا خير فيه. ﴿بما تقولون﴾ : الباء بمعنى فى، أى فيما تقولون.

﴿صرفا﴾ : دفعا للعذاب عنكم.

﴿ولا نصرا﴾ : أى لا تستطيعون الحصول على نصر من أحد يساعدكم على دفع العذاب عنكم.

المعنى : . أنهم لما طلبوا الهلاك ليستريحوا تقول لهم الزبانية: لا تطلبوا هلاكا واحدا بل

(١) واحدا
(٢) خالدين
(٣) أانتم
(٤) سبحانك
(٥) آباءهم.

اطلبوا هلاكا كثيرا؛ المراد أن عذابكم سيتجدد ويستمر بلا انقطاع خصوصا عند تجدد جلودكم كما فى صفحة ١٠٩، ثم يوجه الخطاب إليهم تهكما وتقريعا، فيقال لهم: هل ما أنتم فيه من العذاب خير أم الجنة الخالد نعيمها التى وعد الله بها عباده المتقين، كانت فى علم الله جزاء لأعمالهم، ونهاية يرجعون إليها، لهم فى هذه الجنة ما يريدون.

ومن لطف الله بهم أن لا يلقى فى خاطر أحدهم الشعور بأن لغيره منزلة أعلى من منزلته فلا يلتفت لحال غيره ممَّنْ هو أشرف منه بل يكونون جميعا إخوانا متحابين، انظر الآية (٤٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤١، كان ما يشاءونه موعودا به منه تعالى مسئولا، أى يطلبونه من ربهم فيجيبهم كما فى الآية (١٩٤) من سورة آل عمران صفحة ٩٥، وتطلبه لهم الملائكة كما فى آيات (٧، ٨، ٩) من سورة غافر صفحة ٦١٨، واذكر أيها النبى لمشركى مكة محذرا لهم ما سيحصل لهم يوم يحشرهم ربهم هم والملائكة التى عبدوها من دون الله كما فى الآية (٢٦) من سورة الأنبياء صفحتى ٤٢٢، ٤٢٣، والآية (٤٠) من سورة سبأ صفحة ٥٦٨، ثم يقول سبحانه للملائكة: هل أنتم أضللتم عبادى بطلبكم منهم أن يعبدوكم، أم هم الذين ضلوا طريق الصواب من تلقاء أنفسهم.

وسؤال معبود المشركين هذا كسؤال معبود النصارى فى الآية (١١٦) من سورة المائدة صفحتى ١٦٠، ١٦١، وإنما سأل سبحانه هذا السؤال ليجيبوا بما أجابوا به لزيادة تبكيت المشركين وحسرتهم، فتعجبت الملائكة من هذا السؤال بقولهم سبحانك ما كان يصح لنا أن نعقد موالاة من أى نوع بيننا وبين غيرك، انظر الآية (٤١) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٨، ٥٦٩.

ثم أبدت الملائكة أنهم هم الذين ضلوا، وبينت سبب ذلك فقالت : ليس سبب ضلالهم هو إضلالنا لهم، بل السبب هو فساد طبعهم حيث قابلوا نعم ربهم بالكفر كما فى الآية (٢٨) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٤ فأنت يارب لما أنعمت عليهم بالصحة والمال والأولاد لم يصرفوها فى عمارة الأرض ونفع الخلق بل اشتغلوا بملاذ الحياة حتى غفلوا عن ذكرك، وكانوا بسفههم هذا قوما هالكين.

وبعد ذلك يلتفت سبحانه للمشركين ليقيم الحجة عليهم فيقول : فقد كذبكم مَنْ عبدتموهم فى قولكم إنهم آلهة، فصرتم الآن لا تستطيعون دفع العذاب عنكم، ولا تحصلون على نصر من أحد يساعدكم على دفعه.

ثم خاطب سبحانه جميع المكلفين فقال: ومَنْ يظلم منكم نفسه بالكفر الذى هو الظلم العظيم كما فى الآية (١٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٠ نذقه عذابا كبيرا هو عذاب النار. ولما كان قولهم ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام﴾ إلخ، متضمنا أن الرسول لا يكون إلا ملكا، رد سبحانه بقوله:

وما أرسلنا قبلك أحدًا من المرسلين إلا آكلين الطعام وماشين فى الأسواق، أى ولم يكن واحد منهم ملكا فأنت مثلهم، ثم بيَّن سبحانه الحكمة فى جعله كثيرا من الرسل ليسوا أغنياء ولا أصحاب جنات وقصور مع أن كثيرا من الكفار كذلك، فقال تعالى : وجعلنا بعضكم وهم الأغنياء لبعض وهم غيرهم فتنة، أى اختبارا لما فى طبائعكم، هل تصبرون أم تكفرون فنجازى كلا بما يستحق، وكان ربك بصيرا بالصواب، وبمَنْ يصبر بإخلاص، وبغيره؛ أى أنه سبحانه جعل أحوال الناس فى الدنيا مختلفة لحكم منها ما فى الآية (٣٢) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠، ومنها ابتلاء لهم وامتحان ليظهر ما فى دخيلة نفوسهم فيعاملون كلا بما يستحقه فالغنى يُمتحن بوجود الفقير معه.. هل يواسيه ولا يسخر منه، وهذا هو الغنى الشاكر، وإلا فهو الجاحد لنعمة ربه، والفقير يُمتحن بوجود الغنى.. هل يصبر على ماهو فيه ويرضى بقضاء الله، ولا يحسد الغنى، ولا يحقد عليه، وبهذا ينال أجر الصابرين والرسول الذى اختصه الله سبحانه بكرامة الرسالة يُمتحن هل يصبر على حسد الكافرين له ومحاربتهم إياه واحتقارهم كما هنا فى الآية (٧) السابقة والآية (٤١) الآتية والآية (٣١) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠.

وهذا الرسول امتحان لأشراف الناس وكبرائهم هل يخضعون للحق أم يركبهم الغرور فيعاندون كما حصل من الوليد بن المغيرة، انظر الآية (١١) وما بعدها صفحة ٧٧٦.

المفردات : ﴿لا يرجون لقاءنا﴾ : لا يتوقعونه لإنكارهم البعث، فلا يعملون له حسابا، لذلك يجرءون على الكفر والمعاصى، والمراد لقاء حسابه وجزائه سبحانه، انظر الآية (٢٧) من سورة النبأ صفحة ٧٨٨. ﴿لولا﴾ : حرف يدل على طلب ما بعده، كهَلاّ. ﴿استكبروا فى

* وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ (١) أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا (٢) كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ (٣) لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ (٤) هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ (٥) الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ (٦) ۚ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ (٧) تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ (٨) عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي (٩) اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ (١٠) لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ (١١) لِلْإِنسَانِ (١٢) خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ (١٣) إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا

أنفسهم﴾ : أى اعتبروا أنفسهم كبيرة جدا لا يصح أن تخضع لرجل ليس عظيما فى زعمهم، انظر الآية (٣١) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠. ﴿عتوا﴾ : أى تجاوزوا الحد فى الظلم والطغيان، انظر الآية (٧٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٥. ﴿حجرا محجورا﴾ الحجر بكسر الحاء ويصح فتحها أصله المنع، ولذا أطلق على العقل مبالغة فى الآية (٥) من سورة الفجر صفحة ٨٠٦، لأنه يمنع صاحبه عما يضره، وهو هنا مصدر لازم النصب بفعل مقدر، أى نطلب من الله منع ما نكره، ومحجورا أى ذا حجر، ووصف به للتأكيد على عادة العرب كما تقدم فى الآية (١٤) من سورة آل عمران صفحتى ٦٤، ٦٥. والعربى يقول هاتين الكلمتين إذا رأى ما يخيفه طالبا من ربه منع الشر عنه. ﴿قدمنا إلى ما عملوا﴾ : أصل القدوم إلى الشئ الحضور إليه، والمراد هنا قصدنا، وفى الكلام تشبيه حال أعمال الكفار وضياعها بحال مَنْ عملوا ما يرجون نفعه فجاء سلطان قاهر فبعثره فلم يستفيدوا منه. ﴿هباء﴾ : هو ذرات الغبار الصغيرة جدًا التى لا تظهر إلا فى شعاع الشمس الداخل من طاقة فى حائط. ﴿منثورا﴾ : متناثرا لا يمكن جمعه. ﴿مستقرا﴾: هو المكان الذى يقضون فيه أكثر أوقاتهم فى الجنة. ﴿مقيلا﴾ : هو فى الأصل مكان القيلولة وهى الراحة وقت الظهر، والمراد هنا مكان التمتع بالأزواج لأن الجنة لا نوم فيها. ﴿تشقق السماء بالغمام﴾: أى تنفتح بسبب نزول السحاب الذى فيه الملائكة، انظر الآية (٢١٠) من سورة البقرة صفحة ٤١. ﴿يعض الظالم على يديه﴾: عض اليدين والأنامل كناية عن الغيظ ﴿يا ويلتى﴾.. إلخ: الويل الهلاك، وهذا تركيب يقال عند التحسر، والمراد هنا التحسر على مصاحبة الأشرار، انظر الآية (٦٧) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٤. ﴿فلانا﴾ : فلان كناية عن

(١) الملائكة (٢) عتوا (٣) الملائكة (٤) فجعلناه (٥) أصحاب
(٦) بالغمام (٧) الملائكة (٨) الكافرين (٩) ياليتنى
(١٠) يا ويلتا (١١) الشيطان (١٢) للإنسان (١٣) يارب.

كل اسم لذكر عاقل، وفلانة أنثاه. ﴿الذكر﴾ : ذكر الله سبحانه والخوف منه، انظر الآية (١٩) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٨. ﴿الشيطان﴾ : المراد المضلون من الجن والإنس، انظر الآية (١٤) من سورة البقرة صفحة ٥، والآية (١١٢) من سورة الأنعام صفحة ١٨١، والآية (٢٩) من سورة فصلت صفحة ٦٣٣. ﴿خذولا﴾ : كثير الخذلان لمَنْ أطاعة، انظر الآية (١٢٠) من سورة النساء صفحة ١٢٣، والآية (٤٨) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٤، والآية (٢٢) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٣، والآية (١٦) من سورة الحشر صفحة ٧٣٢. ﴿اتخذوا﴾ : أى جعلوا.

المعنى : . بعدما بيَّن سبحانه بعض جرائم الكفار من أول الآية (٣) إلى الآية (٧) انتقل سبحانه إلى بيان جريمة عظمى لهم، لم يجرئهم عليها إلا إنكارهم البعث، وعدم خوفهم من أهواله، تلك هى أنهم لم يكتفوا بما اقترحوه أولاً من أن ينزل الله سبحانه مع الرسول ملكا يصدقه، بل طلبوا أن ينزل الله عليهم جميع الملائكة لتخبرهم بصدق محمَّد، ثم انتقلوا إلى أفظع من ذلك وهو أنهم لا يصدقون إلا إذا رأوا الرب سبحانه ويخبرهم بصدقه ﷺ، ولهذا عقب على قولهم بقوله: ﴿لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوًا كبيرًا﴾ حيث كذبوا رسولنا الصادق الأمين. ثم شرع سبحانه فى بيان ما سيلقونه عند مشاهدة الملائكة الذين طلبوهم فقال ﴿يوم يرون الملائكة﴾ إلخ: أى اذكر لهم أيها النبى ما سيكون يوم يرون الملائكة فإنه لا بشرى يومئذ لهؤلاء المجرمين الآتى بيانهم فى الآية (٣١) الآتية، فإنهم يشاهدون أهوالا ويقولون حجرًا محجورًا. والمعنى أنهم يطلبون نزول الملائكة فإذا رأوهم فزعوا أشد الفزع وقالوا ما كانوا يقولونه عند خوف الخطر. وقدمنا إلى ما عملوا فى الدنيا من أعمال الخير المبينة فى الآية (٣٩) من سورة النور صفحة ٤٦٤ فجعلناه مثل الهباء فى الحقارة وعدم النفع متفرقا لا يمكن جمعه. هذا مصير هؤلاء المجرمين، أما أصحاب الجنة المشار إليهم فى الآية (١٥) المتقدمة، يوم يضيع على الكفار كل آمالهم، فإنهم يكونون خيرا مستقرا وأحسن مقيلا. واذكر لهم أيضا يوم تتشقق السماء بالغمام وتنزل الملائكة تنزيلا عجيبا غير معهود، الملك أى السلطان والاستيلاء الشامل ظاهرا وباطنا ثابت لصاحب الرحمة الواسعة التى أغلقوا أبوابها عنهم بفظاعة جرائمهم، ونظيره فى الآية (٦) من سورة الانفطار صفحة ٧٩٥. فى هذا اليوم يعض الظالم على يديه من شدة الغيظ والحسرة ويقول يا ليتنى لم أتخذ فلانا صديقا لأنه أضلنى عن ذكر الله وكتابه بعد إذ جاءنى على لسان رسوله وخذلنى اليوم لأنه كثير الخذلان لا أمان له، وقال الرسول يارب إن قومى الذين أرسلتنى لإنقاذهم اتخذوا هذا القرآن العظيم الذى فيه صلاحهم مهملا .. إلخ.

ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ

المفردات : . ﴿عدوا﴾ : العدو يطلق على الواحد والأكثر، انظر الآية (٥٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨.

﴿المجرمين﴾ : هم الجاحدون شديدو الإفساد، انظر صفحات ١٨٣، ٢٦٨، ٤١٢، ٤٨٦، ٧٧٧.

﴿لولا﴾ : بمعنى هلا كما تقدم فى الصفحة السابقة.

﴿نزل﴾ : نزل بمعنى أنزل كخبر بفتح الباء المشددة بمعنى أخبر.

﴿بمثَل﴾ : المراد به هنا الكلام الخارج عن المعقول الذى يجرى مجرى الأمثال، والمراد به اقتراحاتهم الباطلة، انظر معنى المثل فى صفحة ٤٤٤.

﴿آتينا موسى﴾ : أى قضينا فى الأزل وقدرنا إعطاءه الكتاب وهو التوراة، انظر مثل ذلك فى الآية (٣٠) من سورة مريم صفحة ٣٩٩، وإنما قلنا ذلك لأن التوراة لم يأخذها موسى إلا بعد غرق فرعون كما تقدم فى آيات (٥٠، ٥٧، ٦٣) من سورة البقرة صفحات ١٠، ١١، ١٣، وآيات (١٣١، ١٣٧، ١٤٢، ١٤٥، ١٥٠، ١٥٤) من سورة الأعراف صفحات من ٢١٣ إلى ٢١٦.

﴿وزيرا﴾ : أى مساعدا، انظر صفحة ٤٠٨.

﴿بآياتنا﴾ : المراد أدلة وجودنا التى نشرناها فى الكون، انظر آيات من (٣٠ إلى ٣٣) من

(١، ٢) القرآن. (٣) واحدة (٤) ورتلناه (٥) جئناك (٦) آتينا
(٧) الكتاب (٨) هارون (٩) بآياتنا (١٠) فدمرناهم (١١) أغرقناهم
(١٢) جعلناهم (١٣) آية (١٤) للظالمين (١٥) ثمود (١٦) أصحاب.

سورة الأنبياء صفحة ٤٢٣ وآيات من (١٧ إلى ٢٠) من سورة الغاشية صفحة ٨٠٥.

﴿آية﴾ : عبرة وعظة.

﴿أصحاب الرس﴾ : الرس فى لغة العرب يطلق على الأثر القليل للشىء كأثر الحمى مثلا بعد البرء منها، وعلى البئر والحفرة فى الأرض، واختار الطبرى أن أصحاب الرس هم أصحاب الأخدود المذكورون فى صفحة ٨٠١، والذى يهمنا فى مكان العبرة أنهم قوم كذبوا رسولهم فأهلكهم الله تعالى.

المعنى : . أهملوا القرآن وما فيه من عقائد وأخلاق وعبادات تهذب النفوس كما فى الآية (٤٥) من سورة البقرة صفحة ١٠، (٤٥) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٧، ثم أراد سبحانه أن يسلى رسوله ويرغبه فى الاقتداء بإخوانه الأنبياء الذين حصل لهم مثل ما حصل له فقال: ﴿وكذلك جعلنا﴾ إلخ:

أى كما جعلنا لك أعداء من المشركين يحاربون دعوتك جعلنا لكل نبى صاحب دعوة أعداء من المجرمين، وذلك حسب سنتنا فى نظام هذا العالم، انظر شرح الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨، وآيتى (٧٨، ٧٩) من سورة النساء صفحة ١١٤ والآيات من (٤ إلى ١٢) من سورة الليل صفحتى ٨١٠، ٨١١، ثم طمأن سبحانه نبيه فقال ﴿وكفى بربك﴾ إلخ :

أى وكفاك ربك هاديًا لك إلى ما يوصلك لأسمى الغايات وناصرا لك عليهم ثم رجع إلى ذكر نوع آخر من تعنت المشركين فقال:

﴿وقال الذين كفروا لولا﴾ أى هلا نزل عليه القرآن دفعة واحدة كما أنزلت الوصايا العشر فى الألواح على موسى، أما بقية أحكام التوراة فكانت توحى إلى موسى فى أوقات متعاقبة، انظر بعض ذلك فى الآيات (٥٧، ٥٨، ٦٠، ٦٧) من سورة البقرة صفحات ١١، ١٢، ١٣.

فرد سبحانه عليهم ببيان بعض حكم إنزاله تدريجا فقال:

﴿كذلك﴾ أى أنزلناه على هذا الوجه الذى طعنوا فيه عنادا لنقوى بهذا التنزيل المفرق فؤادك، فإن فى إنزاله حسب الوقائع واقتضاء الدواعى وإفحام الخصوم عند بروز كل شبهة ما يطمئنك، وييسر عليك حفظه وفهم معانيه، وضبط أحكامه، إلى غير تلك الحكم مما لا يخفى على ذى بصيرة، انظر الآية (١٠٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٩، ورتلناه ترتيلا بديعا، أى ورتلناه عليك بلسان جبريل شيئا فشيئا فى أكثر من عشرين عاما على تؤدة وتمهل ولا يأتونك بكلام شديد البطلان من مزاعم كاذبة واقتراحات متعنتة إلا جئناك بالجواب الحق الماحق لكل باطلهم، وهذا الجواب بالغ غاية الحسن فى البيان، فلا خفاء فيه مطلقا حتى لا يجدوا للجدال معه سبيلا.

ثم هددهم بقوله: ﴿الذين يحشرون﴾ إلخ:

أى هؤلاء الكفار هم الذين سيحشرون مسحوبين على وجوههم إلى جهنم كما فى الآية (٩٧) من سورة الإسراء صفحتى ٣٧٧، ٣٧٨، هؤلاء شر مكانة عند الله وأشد ضلالا عن طريق الخير.

ثم ذكر ما حل بالأمم السابقة عندما كذبوا رسلهم ليكون عبرة لهم لعلهم ينزجرون فقال ﴿ولقد آتينا موسى﴾ إلخ: أى قدرنا إعطاء موسى التوراة وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا، فقلنا لهما أذهبا إلى فرعون وقومه الذين لم يؤمنوا بالأدلة القائمة على وجودنا ووحدتنا حيث أهملوا النظر فيها، فذهبا إليهم وأرشادهم إلى بعض تلك الأدلة، انظر الآيات من (٤٩ إلى ٥٣) من سورة طه صفحتى ٤٠٩، ٤١٠، والآيات من (٢٤ إلى ٢٨) من سورة الشعراء صفحة ٤٨١، فكذبوهما فدمرناهم، أى أهلكناهم إهلاكا شديدا.

وكذلك دمرنا قوم نوح لما كذبوه هو ومَنْ قبله كإدريس وشيث، فأغرقناهم بالطوفان، وجعلناهم للناس عبرة، وهيأنا فى الآخرة لكل ظالم منهم ومن غيرهم عذابا أليما، ودمرنا عادا وثمود وأصحاب الرس وأمما وجدوا بين مَنْ ذكر كثيرا عددهم عندما كذبوا أنبياءهم، وحذرنا كل فريق مما ذكر، وبيّنا له الأمثال.

الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ

المفردات : . ﴿الأمثال﴾ : القصص العجيبة من قصص مَنْ أهلك قبلهم.

﴿تبرنا﴾ : أى أهلكنا، انظر الآية (١٣٩) من سورة الأعراف صفحة ٢١٣، والآية (٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٥. ﴿القرية﴾ : هى أكبر قرى قوم لوط كما فى الآية (٨٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٥، والآية (٧٤) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٨ ﴿السوء﴾ : هو كل ما يسوء كما فى الآية (٩٨) من سورة التوبة صفحة ٢٥٨، وهذا المطر مبين فى الآية (٧٤) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣ ﴿أفلم يكونوا يرونها﴾ : استفهام للتوبيخ.

﴿بل﴾ : حرف يدل على الإضراب عما قبله وإثبات ما بعده.

﴿لا يرجون﴾ : لا يتوقعون كما تقدم فى صفحة ٤٧٣.

﴿نشورا﴾ : أى بعثا من القبور كما تقدم فى الآية (٣) من هذه السورة صفحة ٤٧٠.

﴿إن يتخذونك﴾ : إن حرف نفى بمعنى ما.

﴿هزوا﴾ : أى مهزوءا به، انظر الآية (٦٧) من سورة البقرة صفحة ١٣، ومنه ما فى الآيات من (٢٩) إلى آخر سورة المطففين صفحة ٧٩٨. ﴿إن كاد﴾ : أصلها إنه كاد أو قرب. ﴿أرأيت﴾ : معنى التركيب أخبرنى، انظر تفصيل ذلك التركيب فى الآية (٤٠) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨.

﴿أفأنت﴾ : الاستفهام إنكارى يفيد نفى ما بعده.

(١) الأمثال (٢) آلهتنا (٣) أرأيت (٤) هواه
(٥) كالأنعام (٦) قبضناه (٧) الليل.

﴿وكيلا﴾ : أى حافظا يمنعه من اتباع هواه، انظر الآية (٤٥) من سورة ق صفحة ٦٩٢، والآية (٢٢) من سورة الغاشية صفحة ٨٠٥.

﴿أم تحسب﴾ : أم بمعنى بل المتقدمة، والمراد بل هل تظن. ﴿إن هم﴾ :

﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ﴿ما﴾. ﴿الأنعام﴾ : تقدمت فى الآيات من (١٤٢ إلى ١٤٤) صفحتى ١٨٦، ١٨٧ . ﴿أضل﴾ : لأن الأنعام تنقاد لصاحبها وتعرف مَنْ يحسن إليها ومَنْ يسىء وتتجنب ما يضرها إلى غير ذلك مما تقدم فى الآية (١٧٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢. ﴿عليه دليلا﴾ : المراد لولاها لما وجد كما أن المعلوم لا يوجد بدون الدليل.

﴿قبضناه﴾ : القبض ضد البسط، والمعنى جمعناه، ولما عَبّر عن إحداث الظل بالمد ناسب أن يعبر عن إزالته بالقبض، والمراد محوناه على مهل قليلا قليلا حسب سير الشمس ﴿إلينا﴾ : جاء به ليفيد النص على كون مرجع إزالة الظل إليه سبحانه وحده، فلا يستطيع أحد مشاركته فيه.

﴿لباسا﴾ : أى أن ظلمته تستر كما يستر اللباس.

﴿سباتا﴾ : أصل السبت القطع وفعله كضرب ونصر والمراد قاطعا للعمل ليستريح النائم، انظر الآيات من (٧١ إلى ٧٣) من سورة القصص صفحة ٥١٧، والآيات من (٩ إلى ١١) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧.

﴿نشورا﴾ : المراد به هنا وقت نشور؛ والنشور هنا اليقظة بعد النوم.

المعنى : . وكل فريق مما تقدم بيَّنا له ما حصل للأولين إنذارا، ولما لم يرجعوا عن الشر أهلكناهم إهلاكا لائقا بهم، انظر الآية (٤٠) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٦. ولقد مر فريق من قريش فى سفرهم للتجارة إلى الشام على سدوم كبرى قرى قوم لوط التى أمطر الله تعالى عليها الحجارة المحماة بعد خسفها، هل تعاموا عنها فلم يكونوا يرونها مع أنها فى طريقهم؟ كلا، بل الذى منعهم من الاعتبار أنهم كانوا ينكرون البعث فلم يخافوا عقاب الله، انظر الآية (٧٦) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣.

ثم ذكر بعض جرائمهم فقال: وإذا رأوك أيها النبى لا يتخذونك إلا موضع استهزاء قائلين على سبيل الاحتقار: هل هذا هو الذى بعثه الله رسولا؟ إنه قرب والله من شدة محاجته أن يضلنا أى يصرفنا عن عبادة آلهتنا لولا أن ثبتنا على عبادتها لصرفنا.

ولما تضمن كلامهم أنهم على هدى وأن ما عليه ﷺ ضلال، حماد الله، رد عليهم سبحانه بقوله: ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا﴾ هم أم محمَّد ﷺ، وهذا تهديد بوقوع تعذيبهم قطعا.

ثم أراد سبحانه أن يخفف عن رسوله ﷺ حزنه وضيقه لعدم إيمان قومه كما فى الآية (١٠) من سورة الأنعام صفحة ١٦٣، والآية (٣٣) وما بعدها من نفس السورة صفحة ١٦٧، والآية (١٢٧) من سورة النحل صفحة ٣٦٣، والآية (٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠.

فقال ﴿أرأيت﴾ إلخ : أى أخبرنى أيها النبى هل الرجل الذى جعل شهواته إلها له لا يخضع لغيرها، هل يمكنك هدايته فتكون حافظا له من ذلك! كلا.

ثم بيّن سبحانه سبب عدم هدايتهم بقوله ﴿أم تحسب﴾ إلخ: أى بل هل تظن أن أكثرهم يسمعون نصائحك سماع قبول أو يعقلون الحجج فينفعهم إقامتها؟ كلا، فما هم إلا كالبهائم فى عدم تدبر المصير، بل هم أقل منها لما سبق.

ثم شرع سبحانه فى إقامة خمسة أدلة على وحدانيته يشاهدها كل مبصر وتنتهى فى الآية (٥٤) الآتية فقال:

ألم تنظر أيها المخاطب إلى صنع ربك كيف بسط الظل ولو شاء لجعله ثابتا بوقف حركة الكواكب التى تحدثه، ثم جعل الشمس سبب وجوده، ثم بعد بسطه قبضه إليه على مهل بإيجاد ضوء الشمس مكانه، ولا يقدر مخلوق على تحريك الشمس حتى تمحو الظل، وهو وحده الذى جعل لكم الليل كاللباس، وكما أن اللباس يحفظ من الحر والبرد ويستر العورات، كذلك الليل يستر الخائف من العدو أو الحيوان المفترس، وتستتر به المرأة التى لا تجد ما يليق بسترها إذا خرجت فى الخلاء، إلى غير ذلك، والنوم راحة، وجعل النهار زمن يقظة وسعى فى الرزق.

وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ

المفردات : . ﴿بشرا﴾ : أصلها بشُرا بضمتين بوزن رسل ثم سكنت الشين تخفيفا، ومفردها بشور بفتح أوله كرسول أى كثير التبشير، فالمراد مبشرات، انظر الآية (٤٦) من سورة الروم صفحتى ٥٣٦، ٥٣٧. ﴿بين يدى﴾ : أى أمام.﴿رحمته﴾ : المراد بها هنا المطر لأنه ينبت الزرع ويسقى الخلق كما سيأتى. ﴿طهورا﴾ : شديد الطهارة مطهر غيره. ﴿نحيى به﴾ : إحياء الأرض جعلها تنبت، انظر الآية (٥) من سورة الحج صفحتى ٤٣٣، ٤٣٤، والآية (٥٠) من سورة الروم صفحة ٥٣٧. ﴿بلدة﴾ : أى أرض بلدة. ﴿ميتا﴾ : أى لا نبات فيها، وجاء بالصفة مذكرة لأن البلدة بمعنى البلد. ﴿أنعاما﴾ : تقدم فى الصفحة السابقة، وخصها بالذكر لأن أغلب منافع الإنسان منها.﴿أناسى﴾ : جمع إنسى ككراسى وكرسى. ﴿صرفناه﴾ : أى صرفنا المطر فى أماكن وأوقات مختلفة ومقادير متفاوتة، انظر الآية (٤٣) من سورة النور صفحة ٤٦٥. ﴿نذيرا﴾ : نبيا ينذر أهلها. ﴿جاهدهم به﴾ : أى قاوم الكفار بحجج القرآن حتى تسكتهم، انظر الآية ٧٣ من سورة التوبة صفحتى ٢٥٣، ٢٥٤. ﴿مرج البحرين﴾ : من قول العرب: مرج فلان دابته إذا تركها تذهب كما تشاء، أى تركهما يتحركان لا يستقران ومرج من باب قتل، انظر الآية (١٩) من سورة الرحمن صفحة ٧٠٩. ﴿فرات﴾ : شديد العذوبة. ﴿أجاج﴾ : شديد الملوحة. ﴿برزخا﴾ : البرزخ ما يحجز بين شيئين وهنا هو ما يحجز بين البحرين من الأرض انظر الآية (١٠٠) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٤، والآية (٦١) من سورة النمل صفحتى ٥٠١، ٥٠٢. والآية (٢٠) من سورة الرحمن صفحة ٧٠٩. ﴿حجرا محجورا﴾ : تقدم أن الحجر المنع، فأريد به هنا المانع مبالغة، وهو من عطف الصفة على الموصوف كما

(١) الرياح (٢) لنحيى (٣) أنعاما (٤) صرفناه
(٥) الكافرين (٦) وجاهدهم (٧) أرسلناك (٨) ما أسألكم

فى الآية (٥٣) من سورة البقرة صفحتى ١٠، ١١، والآية (٤٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥، والآية (١٢) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٠. ﴿الماء﴾ : انظر الآية (٤٥) من سورة النور صفحة ٤٦٥. ﴿نسبا﴾ : أصل النسب القرابة من جهة الذكور، والمراد هنا: جعله ذا نسب أى ولدا ذكرًا ينسب إليه. ﴿صهرا﴾ : الصهر القرابة. وأطلقوه على القرابة من جهة الإناث. فالمعنى ذات صهر أى أنثى يصاهر بها. هذا هو المراد هنا كقوله تعالى ﴿خلق الزوجين الذكر والأنثى﴾ الآية (٤٥) من سورة النجم صفحة ٧٠٣، وقد يطلق الصهر على زوج الأنثى من قريبات الرجل كبنته وأخته مثلا. ﴿ظهيرا﴾ : أى معاونا للشيطان على معصية ربه، انظر الآية (٨٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦.

المعنى : . والله وحده هو الذى أرسل الرياح مبشرات بين يدى المطر الذى لولاه لما نبت زرع ولما سقى حيوان، وأنزل سبحانه من جهة السماء ماء شديد الطهارة لينبت به الأرض القاحلة ويسقى منه الأنعام وكثيرا من الإنسان الحى فى وقت نزوله، ولقد نقلنا هذا المطر بين الخلق حسب الحكمة ليتفكروا ويعرفوا كمال القدرة ويقوموا بواجب شكر منزله ومع ذلك امتنع أكثرهم عن عمل شىء مطلقا إلا كفران النعمة فإنهم تمسكوا به. ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نبيا يساعدك فى إنذار أهلها فيخف عنك بعض العبء لكنا قصرنا الأمر عليك إجلالا لك وتعظيما لشأنك، فقابل ذلك بالاجتهاد فى الدعوة، ولا تطع الكافرين فيما يريدونه منك مما أشير إليه فى الآية (٣٥) من سورة الأنعام صفحة ١٦٧، والآية (٧٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٤، وجاهدهم بالقرآن وما فيه من حجج وعبر وتحذير مما حصل لأمثالهم جهادا كبيرا حتى ييأسوا من إبطال دعوتك. والله وحده هو الذى أجرى البحرين المالح والحلو، ومن قدرته أنه مع شدة عذوبة أحدهما وملوحة الآخر حجز بينهما، وكان يمكن أن يطغى أحدهما على الآخر. وهو سبحانه الذى خلق من الماء بشرا فجعل منه ذكرا تنسب إليه الأسرة، وأنثى يصاهر بها الغير. وكان ربك أيها النبى قديرا يفعل ما يشاء، ومع كل هذا فهؤلاء الكفار يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم إن عبدوه ولا يضرهم إن تركوه، وكان الكافر بعمله هذا مساعدا للشيطان على عصيان أوامر ربه. ثم وبخ سبحانه المشركين بأن رسوله لم يطلب منهم مالا بل جاء لنفعهم فقال: وما أرسلناك أيها النبى إلا مبشرا من آمن بالجنة، ونذيرا لمَنْ عصى بالنار. وقل لهم ما أسألكم على تبليغ رسالة ربى بالتبشير والإنذار أجرا لكن مَنْ شاء أن يسلك ربه طريقا يوصله إليه فليفعل، انظر الآية (٢٩) من سورة هود صفحة ٢٨٨، والآية (٧٢) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٢.

أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[1] وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ[2] بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا[3] وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ[4] وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ[5] قَالُوا۟ سَلَٰمًا[6] ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا[7] ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾

المفردات : . ﴿سبح بحمده﴾ : نزه ربك مع حمده على جزيل نعمه. ﴿ستة أيام﴾ : انظر تفصيل ذلك فى الآيات من (٩ إلى ١٢) من سورة فصلت صفحتى ٦٣٠، ٦٣١ واليوم عند الله مدة لا يعلم مقدارها على التحديد إلا هو سبحانه انظر الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١. ﴿فاسأل به خبيرا﴾ : تقول العرب اسأل به وعنه، انظر أول سورة المعارج صفحة ٧٦٤، والآية (٨) من سورة التكاثر صفحة ٨٢٠. وسأل به تفيد سأل سأل مهتما به، وعنه تفيد مفتشا عنه. ﴿بارك﴾ : تقدم أول السورة

﴿بروجا﴾ : جمع برج وهو عند العرب القصر والحصن كما فى صفحة ١١٤، والمراد هنا منازل الشمس الاثنا عشر الآتى بيانها فى صفحة ٨٠٠.

﴿سراجا﴾ : الشمس انظر الآية (٥) من سورة يونس صفحة ٢٦٦.

﴿خلفة﴾ : الخلفة حالة الشىء الذى يخلف صاحبه ويحل محله، والمراد ذوى خلفة أى: يخلف أحدهما صاحبه. ﴿هونا﴾ : الهون هو الرفق واللين وأريد به الصفة أى مشيا هينا ذا وقار لا تكبر معه، انظر الآية (٣٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٩، وآيتى (١٨، ١٩) من سورة لقمان صفحتى ٥٤١، ٥٤٢. ﴿الجاهلون﴾ : السفهاء. ﴿قالوا سلاما﴾ : هو سلام متاركة وتجنب لا سلام تحية، انظر الآية (٥٥) من سورة القصص صفحتى ٥١٤، ٥١٥.

﴿غراما﴾ : أى لازما، ومنه الغريم الذى يلازم مدينه بالمطالبة.

(١) السموات (٢) فاسأل (٣) سراجا (٤) الليل
(٥) الجاهلون (٦) سلاما (٧) قياما.

المعنى : . قل أيها النبى لمَنْ أرسلت إليهم: أنا لا أسألكم أجرا من مال لكن أطلب عمل الصالحات لمَنْ شاء منكم أن يسلك طريقا موصلة لرضا ربه. ثم أمر سبحانه نبيه بأن لا يخشى ضررهم بل يتوكل على ربه الحى الذى لا يموت، وينزهه عن النقص مثنيا عليه ليزيده نعما، وكفى بالله خبيرا بذنوب عباده، ما ظهر منها وما بطن، وفى هذا تهديد وتوبيخ للمشركين حيث اعتمدوا على مَنْ ليس فيه حياة ومَنْ يموتون. ثم وصف الإله الحق الذى يصح التوكل عليه بأنه هو الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش. هو الرحمن فاسأل به خبيرا بما يليق به من أهل الكتاب الذين يعلمون أن معبودات المشركين لا تخلق ذبابا فضلا عن السموات والأرض، انظر الآية (٩٤) من سورة يونس صفحة ٢٨١، والآية (٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١، ونظيره ما فى الآية (٢٠) من سورة الأنعام صفحة ١٦٥. ومن جرائم المشركين أنهم إذا قيل لهم اخضعوا للإله الحق تستجلبوا رحمته قالوا مستهزئين وما الرحمن الذى تأمرنا بالخضوع له وحده؟ فهل يصح أن نسجد لما تأمرنا بالسجود له ونترك آلهتنا؟ وزادهم طلب الخضوع للرحمن نفورا، أى تباعدا عن الإيمان، فكانوا مثل فرعون حين قال وما رب العالمين، انظر الآية (٢٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٨١. ثم بيَّن سفاهتهم وجهلهم بمقام الرحمن بقوله: تبارك الرحمن الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا، ولا تستطيع آلهتكم فعل أقل من ذلك، وهو وحده الذى جعل الليل والنهار يخلف أحدهما الآخر بنظام بديع لينتفع الخلق بذلك مَنْ وفقه الله تعالى ليتذكر نعمة ربه أو أراد كثرة شكره أى أو أرادهما، انظر الآيات من (٧١ إلى ٧٣) من سورة القصص صفحة ٥١٧. ثم بعد ما بيَّن سبحانه حال الكافرين من عبادته أراد أن يبين أوصاف المخلصين من عباده وأحوالهم الدنيوية والأخروية، وأضافهم لنفسه بوصف الرحمة لأنها خاص بهم فقال: وعباد الرحمن الذين يمشون، أى هم الذين يمشون على الأرض مشيا هينا فى سكينة ووقار لا تفاخرا واستكبارا، وإذا خاطبهم السفهاء بما لا يصدر إلا منهم تركوهم بأدب وإغضاء، وهم الذين يقضون كثيرا من الليل فى الصلاة ساجدين قائمين، انظر الآية (١٦) من سورة السجدة صفحة ٥٤٦، والآية (١٧) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٢، وهم الذين يخشون ربهم فيضرعون إليه أن يبعد عنهم عذاب جهنم لأن عذابها لازم لا ينقطع.

إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾

المفردات : . ﴿ساءت﴾ : قبحت.

﴿مستقرا﴾ : مكان استقرار مؤقت.

﴿مقاما﴾ : مكان إقامة دائمة ويكون العطف لإفادة الترقى فى التخويف أى أنه لا يخفف عنهم من عذابها إذا طالت المدة، انظر الآية (٣٦) من سورة فاطر صفحة ٥٧٦.

﴿يقتروا﴾ : يضيعوا ويشحوا ﴿قواما﴾ : عدلا وسطا.

﴿أثاما﴾ : كالوبال، والنكال وزنا ومعنى فهو جزاء الإثم الذى هو الذنب.

﴿يضاعف﴾ : أى يعذب عذابين: واحدا على الكفر وآخر على المعاصى غير الكفر، أو عذابا على الكفر، وآخر على إغرائهم لغيرهم، انظر شرح الآية (١٩) من سورة آل عمران صفحة ٧٤، والآية (٢٠) من سورة هود صفحة ٢٨٧، والآيات (٣٠، ٦٧، ٦٨) من سورة الأحزاب صفحات ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٦٠، ٥٦١

(١) آخر
(٢) يضاعف
(٣) القيامة
(٤) آمن
(٥) صالحا
(٦) حسنات
(٧) صالحا
(٨) بآيات
(٩) أزواجنا
(١٠) ذرياتنا.

﴿يوم القيامة﴾ : بعد الرجوع إلى ما قيل فى شرح الآية (٩) من سورة الحج صفحة ٤٣٤ تعلم أن المراد أن العبد الذى يفعل تلك الجرائم يحكم عليه يوم القيامة بمضاعفة عذابه وبخلوده فيه، فالذى يحصل يوم القيامة هو صدور الحكم، لا مضاعفة العذاب ولا الخلود، لأن هذا إنما يكون بعد انقضاء يوم القيامة كما سبق.

﴿يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾ : يجعل مكان أعمالهم السيئة أعمالاً صالحة، فبعد أن كان من الطالحين صار من الصالحين وهذا غاية السعادة هذا ما رضيه كثير من علماء السلف. ويؤيد أن هذا هو معنى التبديل هنا مقابلة فى الآية (٢٨) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٤، وانظر الآية (١١) من سورة النمل صفحة ٤٩٥، وانظر ما قيل فى حديث رقم ١ من (صفوة صحيح البخارى) عند قوله ﷺ فهجرته إلى الله ورسوله.

﴿لا يشهدون الزور﴾ : أى لا يحضرون مجال الباطل.

﴿لم يخروا عليها﴾ : أصل الخرور السقوط على الأرض بدون نظام ولا ترتيب سابق كما فى صفحة ٣٤٨، وتستعمله العرب فى السجود على الأرض لإعلان الخضوع التام، انظر الآية (١٠٧) من سورة الإسراء صفحة٣٧١، والآية (٥٨) من سورة مريم صفحتى ٤٠١، ٤٠٢.

﴿قرة أعين﴾ : قرة العين كناية عن السرور والفرح، انظر الآية (٤٠) من سورة طه صفحتى ٤٠٨، ٤٠٩، والآية (٩) من سورة القصص صفحة ٥٠٧.

﴿إماما﴾ : أى قدوة فى الخير ليتحقق لنا دخولنا فى دعوة إبراهيم عليه السلام، انظر الآية (١٢٤) من سورة البقرة صفحة ٢٤.

المعنى : - إن جهنم بئست مكانا مطلقا مؤقتا أو دائما. ومن صفات عباد الرحمن أنهم إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يشحوا وكان إنفاقهم وسطا بين الإسراف والتقتير، انظر صفحة ٣٦٨، ثم بعدما وصفهم سبحانه بالصفات الكريمة السابقة أراد أن يعرض بما كان عليه أعداؤهم الكفار من الصفات القبيحة فنفاها عنهم ليوبخ الكفار فقال:

﴿والذين لا يدعون﴾ إلخ: أى لا يشركون معه غيره، ولا يقتلون النفس التى حرم الله قتلها إلا بسبب من أسباب الحق، كالزنا من المحصن، والكفر بعد الإيمان أو قتل النفس البريئه، ولا يزنون، فكأنه سبحانه يقول:

والذين طهرهم الله مما أنتم عليه من الشرك والقتل إلخ. ومَنْ يفعل شيئا من هذه الذنوب من هؤلاء الكفار فقد ضم إلى الكفر جرما آخر فيلقى فى الآخرة جزاء إثمه بمضاعفة العذاب وتشديده عليه. ويخلد فيه محتقرا: فجمع بين العذابين الجسمانى والنفسانى.

ثم بعد هذا التهديد الشديد أراد سبحانه أن يفتح باب التوبة للمستعد، ويغلق باب الشيطان عليه فقال: إلا من تاب مما سبق. وآمن بكل ما يجب الإيمان به، وعمل صالحا، فهؤلاء التائبون المؤمنون الصالحون يمحو الله سابق معاصيهم بقبول التوبة، ويوفقهم لأن يعملوا مكانها الأعمال الحسنة. وكان الله كثير المغفرة واسع الرحمة. وبعد ما بيَّن قبول التوبة من أمهات المعاصى أراد أن يبين أنها كذلك من جميعها بشرط أن تكون خالصة فقال: ومَنْ تاب عن كل معصية بتركها والندم عليها وعمل صالحا كثيرا يعوضه ما سلف فإنه يرجع إلى الله تعالى رجوعا مرضيا عنه منه سبحانه فيجزل ثوابه.

ومن صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون الزور أى الباطل وإذا مروا باللغو وهو ما ليس فيه فائدة من قول وعمل كما تقدم فى صفحة ٤٤٥ مروا كراما أى معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن الوقوع فيه. وهم الذين إذا ذكرهم مذكر بآيات ربهم التى جاءت فى القرآن أكبوا وأقبلوا عليها سامعين بآذان صاغية. ومبصرين بعيون يقظة، وراءها قلوب حية، ولم يقابلوها بالصمم والعمى كما يفعل المشركون.

ففى الكلام تعريض بالكافرين والمنافقين. وعباد الرحمن هم الذين يتجهون إلى الله دائما قائلين يا ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا ما يسرنا بتوفيقهم لطاعتك، وامنحهم الفضائل التى يعلو بها شأن الإنسان. واجعل كل واحد منا قدوة حسنة لغيره، فيجمع كل منا بين ثوابين: ثواب العمل الصالح، وثواب ترغيب الغير فيه.

المفردات : . ﴿الغرفة﴾ : تطلق الغرفة على البناء المرتفع، فالمراد أعلى منازل الجنة، انظر الآية (٥٨) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٩، والآية (٣٧) من سورة سبأ صفحة ٥٦٨، والآية (٢٠) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٨، ٦٠٩.

﴿ويلقون فيها تحية وسلاما﴾ : هذا عطف تفسير فالسلام تفسير للتحية، انظر الآية (١٠) من سورة يونس صفحتى ٢٦٦، ٢٦٧. ﴿مستقرا ومقاما﴾ : أى يستمتعون فيها مهما طال الزمن ﴿يعبأ بكم﴾ : أى يعتد ويعتنى.

﴿دعاؤكم﴾ : عبادتكم. ﴿لزاما﴾ : أى لازما. لا ينقطع.

أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا [١] ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ [٢] فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ [٣] بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

(٢٦) سُورَةُ الشُّعَرَاءِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا سَبْعٌ وَعِشْرُونَ وَمِائَتَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسم [٤] ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ [٥] الْكِتَابِ [٦] الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ [٧] نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً [٨] فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ [٩] لَهَا خَاضِعِينَ [١٠] ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ

سورة الشعراء

المفردات : . ﴿طسم﴾ : تنطق طاسيم ميم. وتقدم المراد منها ومن مثلها أول سورة البقرة.

﴿لعلك﴾ : لعل هنا للاستفهام الذى يراد به الإنكار فتفيد النهى عما بعدها. ﴿باخع نفسك﴾ : أى مهلكها من الحزن، انظر صفحة ٣٨٠.

﴿آية﴾ : أى معجزة قاهرة لهم على الإيمان.

﴿أعناقهم لها خاضعين﴾ يطلق العنق عند العرب على المعروف فى الإنسان، وعلى الجماعة من الناس، وعلى الزعماء من القوم الذين يقال لهم رءوس، وصدور، والمراد هنا الجماعات.

(١) سلاما (٢) خالدين (٣) ما يعبأ
(٤) تنطق هكذا: طا . سيم . بسكون الميم. ميم. بسكون الميم أيضا. (٥) آيات (٦) الكتاب
(٧) باخع (٨) آية (٩) أعناقهم (١٠) خاضعين.

﴿من ذكر﴾ : ﴿من﴾ للنص على العموم فى ذكر، والمراد به الطائفة من القرآن.

﴿محدث﴾ : جديد إنزاله، انظر صفحة ٤٢٠.

المعنى : . هؤلاء العباد الصالحون يجزيهم الله تعالى أرفع منازل الجنة بسبب صبرهم على مشاق الطاعات ورفض الشهوات، وتلقى عليهم الملائكة تحية هى السلام، انظر آيتى (٢٣، ٢٤) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥ خالدين فيها، حسنت مكان استقرار وإقامة.

وبعدما بيَّن سبحانه صفات المتقين الذين حققوا حكمة الله تعالى فى خلقهم المشار إليها فى الآية (٥٦) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦ أمر رسوله ﷺ أن يقول للكفار:

لا يعتد بكم ربى لولا عبادتكم، فإنكم إذا لم تعبدوه وحده كنتم كالبهائم التى لا تستحق عناية خاصة ومنزلة رفيعة، وبما أنكم لم تحققوا هذا وكذبتم رسوله فسوف يكون جزاء تكذيبكم من العذاب لازما لكم خالدا. نسأل الله تعالى السلامة.

المعنى : . تلك الآيات التى ستتلى عليك فى هذه السورة هى آيات الكتاب الظاهر إعجازه وصحته. وإذا رجعت إلى ما قيل فى شرح الآية (٤٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٥ تعلم سبب قوله سبحانه لنبيه ﴿لعلك باخع نفسك﴾ إلخ: أى لا يصح أن تهلك نفسك أيها النبى لعدم إيمان كفار قومك. ثم علل نهيه له عن بخع نفسه حزنا عليهم بقوله ﴿إن نشأ ننزل﴾ إلخ:

أى إن نشأ إيمانهم قهرا عنهم فإنا لا نعجز، بأن ننزل عليهم معجزة من السماء ترغمهم على الإيمان، كما نتقنا الجبل على بنى إسرائيل، انظر صفحتى ٢٢٠، ٢٢١ ولو نزلنا هذه الآية لصارت جماعاتهم كلها خاضعين لها رغم أنوفهم، ولكن حكمتنا فى نظام هذا العالم اقتضت أن نتركهم مختارين، ثم بيَّن سبحانه شدة جمود هؤلاء المشركين على ماهم عليه من الكفر وتكذيب الرسول ليؤكد لرسوله عدم الطمع فى إيمانهم بقوله:

﴿وما يأتيهم من ذكر﴾ إلخ: أى ما يأتيهم طائفة من القرآن من عند ربهم الذى اقتضت رحمته الواسعة نزوله لنفعهم إلا استمروا على إعراضهم عن هذا الخير العظيم، فالكلام تهويل لشناعة جرمهم.

مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُا(١) مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً(٢) وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ(٣) ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ(٤) ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ(٥) إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ(٦) ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ(٧) ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ

المفردات : . ﴿أو لم يروا﴾ : الهمزة للإنكار التوبيخى.

﴿كم أنبتنا﴾ : كم تفيد كثرة ما بعدها.

﴿من كل زوج﴾ : ﴿من﴾ هنا تدل على أن ما بعدها بيان للمراد من ﴿كم﴾ المذكورة قبلها، والزوج الصنف كما فى الآية (٥٣) من سورة طه صفحة ٤١٠، وله إطلاقات أخرى تجدها فى صفحة ١٨٧. والمعنى هنا: أنبتنا فيها عددًا كبيرا من أصناف النبات والشجر.

﴿كريم﴾ : محمود لكثرة منافعه.

﴿لآية﴾ : أى لعظة وعبرة. ﴿ألا﴾ : حرف يدل على عرض ما بعدها على السامع وحثه عليه كقولك: ألا تلقى علينا درسا يذكرنا بالله. ﴿إنا رسول رب العالمين﴾ : الأصل ﴿إنا رسولا﴾ ونظرا لاتحاد مطلبهما جعلهما كأنهما رسول واحد. ﴿لبثت﴾: مكثت.

المعنى : . ما يأتيهم بعض من القرآن لهدايتهم إلا كانوا عنه معرضين، بل لم يكتفوا بالإعراض عنه، بل كذبوا به تكذيبا صريحا، مستهزئين به كما فى صفحة ٤٢٠، فدعهم أيها النبى فسيأتيهم مصداق أخبار القرآن الذى استهزءوا به وقالوا عليه إنه سحر وشعر، وقد وقع فعلاً ما هددهم به من القتل والأسر فى الدنيا، وسيلقون أشد العذاب فى الآخرة. وبعد ما بيَّن إعراضهم عن الآيات المنزلة، أراد أن يبين إعراضهم عن النظر فى الآيات الكونية فقال: ﴿أو لم يروا﴾ إلخ: أى هل أصروا على ما هم عليه من الكفر ولم ينظروا إلى عجائب صنعنا فى الأرض.

(١) أنباء (٢) لآية (٣) الظالمين (٤) هارون
(٥) بآياتنا (٦) العالمين (٧) إسرائيل.

ثم بيَّن ذلك بأنه أنبت فيها عددًا كثيرا من أفراد كل صنف من أصناف الشجر والنبات مختلف الأشكال والألوان، إلى غير ذلك من كل عظيم النفع. إن فى ذلك الإنبات لعظة تدعو إلى الإيمان بإله صانع حكيم. ومع كل هذا فقد تحجرت قلوبهم فلن يؤمن منهم إلا قليل، فلا تحزن لأن ربك هو العزيز أى الغالب الذى لا يغلب وسينتقم منهم، وهو الرحيم لمَنْ آمن منهم ومن غيرهم. ثم أراد سبحانه أن يخفف عن رسوله تألمه من عنادهم فذكر له ما وقع لإخوانه الأنبياء قبله، وما حل بمَنْ كذبوهم، ليظهر له أن أكثر الناس فى كل أمة من حزب الشيطان فقال: ﴿وإذ نادى ربك موسى﴾ إلخ : أى واذكر لقومك وقت نداء ربك لموسى على الطور كما تقدم فى صفحة ٤٠٧ إذ قال له توجه إلى القوم الظالمين لأنفسهم ولغيرهم باستعباد بنى إسرائيل، ثم بينهم بقوله:

قوم فرعون، أى وفرعون، لأنه رأس البلايا، انظر آيتى (١٦، ١٧) من سورة النازعات صفحتى ٧٨٩، ٧٩٠ إئتهم قائلا لهم ألا يتقون ربهم فيمتنعوا عن الظلم. ولما كان عند موسى ما يخشاه وهو أربعة أشياء عرضها على ربه سبحانه ليدبر له أمرها فقال: يارب إنى أخاف أن يكذبونى من أول الأمر فأنفعل فيضيق قلبى فينحبس لسانى فلا أقدر على البيان والمحاجة، فأرسل بفضلك مَنْ يكلف هارون أخى بأن يكون معينا لى، لأنه أفصح منى لسانا، انظر صفحتى ٤٠٨، ٥١١، خصوصا أن لقوم فرعون علىّ شر ذنب فى زعمهم وهو قتل رجل منهم خطأ كما فى صفحة ٥٠٨، فأخاف أن يقتلونى ظلما.

قال سبحانه: كلا، أى لا تخف، فقد أجبتك إلى طلبك من إرسال أخيك معك، فاذهبا إلى فرعون مُؤيَّدَيْنِ بآياتنا الموضحة فى صفحة ٤١٠، إنا معكم أنت وأخيك وفرعون وقومه سامعون لكل ما يجرى بينكم من كيدهم، فأتيا فرعون وليقل كل منكما إنا رسول رب العالمين نبلغك عن ربك أن ترسل معنا بنى إسرائيل، أى تطلقهم ليذهبوا معنا إلى الشام، فذهبا إليه وبلغاه فقال فرعون كيف تجرؤ على ما تقول؟ ألم نربك فى منازلنا حال كونك طفلا قريب عهد بالولادة، ومكثت فى دارنا من عمرك عدد سنين، كانت ٣٠ سنة، ومكث فى مدين ١٠ سنوات، ومكث فى مصر بعد الرسالة يدعوهم ٣٠ سنة، وعاش بعد غرق فرعون ٥٠ سنة، والله تعالى أعلم. وفعلت فعلتك التى فعلتها، يريد قتل الرجل كما تقدم.

وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ

المفردات : ﴿الكافرين﴾ : أى الجاحدين لنعمتنا.

﴿الضالين﴾ : المراد بالضلال هنا الجهل بالعواقب الموقع فى الخطأ.

﴿حكما﴾ : أى حكمة أضع بها كل شىء فى موضعه.

﴿وتلك نعمة﴾ : مقدر معها استفهام إنكارى، أى وهل تلك نعمة.

﴿أن عبدت﴾ : ﴿أن﴾ حرف يدل على أن ما بعده تفسير لما قبله وهو ما اعتبره فرعون نعمة مع أنه نقمة، وعبدت أى اتخذتهم عبيدًا.

المعنى : قال فرعون : فعلت جريمتك يا موسى والحال أنك من الجاحدين لنعمتى عليك.

قال موسى : إنما قتلت هذا القبطى جاهلا أن ضربى للتأديب يذهب حياته، فلما خفت من أن تقتلونى كما فى صفحة ٥٠٩ فررت إلى مدين، فوهب لى ربى حكمة، وجعلنى من رسله. وهل يصح يا فرعون أن تسمى شيئًا ما نعمة وهو فى الحقيقة نقمة، وذلك أن اضطهادك لبنى إسرائيل وذبح رجالهم هو السبب فى خوف أمى علىّ حتى رمتنى فى البحر فوصلت إلى بيتك، ولولا تصرفك لما حصل هذا، انظر صفحة ٥٠٧، وهذا القول لا ينافى ما فى الآية (٤٤) من سورة طه صفحة ٤٠٩، لأن المراد به هناك أول الأمر بدليل ما فى الآية (١٠٢) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٨.

(١) الكافرين (٢) إسرائيل (٣) العالمين
(٤) السموات (٥) آبائكم (٦) الصادقين.

ولما رأى فرعون أن موسى لم يخف منه قال:

وما رب العالمين الذى تقول إنك رسوله؟ فبينه موسى بآثاره وأفعاله البديعة، لأن العقول لا تصل إلى حقيقة ذاته تعالى، فقال:

هو رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم من أهل اليقين الذين يعلمون عجائب هذه الأشياء فيقطعون بأنها لا توجد بدون موجد حكيم.

ولما كان فرعون يوهم قومه الذين استخف عقولهم كما فى صفحة ٦٥٢ بأنه ليس فى الكون رب أعلى منه، وأن هذه الأشياء التى ذكرها موسى قديمة متحركة بذاتها، قال لمَن حوله فى صورة المستهزئ : ألا تسمعون إلى هذا الباطل من أن هناك إلها غيرى كما فى صفحة ٥١٢.

عند ذلك سلك موسى طريقا آخر للمحاجة لا تمكن تلك المكابرة فيه، وهو خلقهم وخلق آبائهم قبلهم. فلا يمكن أن يكون هؤلاء قدما ولا موجودين بدون موجد، فزاد اللعين فى تضليل قومه وفر من الحجة وقال: إن هذا الرجل الذى يدعى أنه رسول مجنون أسأله عن حقيقة إلهه فيجيبنى بشىء آخر. فسلك موسى طريق دليل آخر مشاهد لهم كل يوم، وفيه سبب حياتهم فقال:

هو رب المشرق والمغرب إلخ، أى هو الذى يحرك الشمس بنظام محكم حتى ينتفع بها كل حى. فإن كنتم تعقلون وجب أن تعلموا صحة قولى. فلما انقطع عن فرعون باب التدجيل عمد إلى التهديد كما هى عادة كل جبار ظالم فقال:

وعزتى لئن اتبعت يا موسى إلها غيرى لأجعلنك ضمن المسجونين الذين تعرف ما يقاسونه من العذاب وما يصيرون إليه من الموت.

قال موسى: هل تفعل ذلك حتى لوجئتك بدليل يبين صدقى؟ قال:

فأت بهذا الدليل إن كنت صادقا. فألقى موسى عصاه فإذا هى ثعبان... إلخ.

مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ

المفردات : . ﴿نزع يده﴾ : أى أخرجها من جيبه كما فى الآية (١٢) من سورة النمل صفحة ٤٩٥.

﴿قال للملأ حوله﴾ : إذا جمعنا ما هنا وما تقدم فى صفحة ٢١٠ نعلم أن الذى حصل هو أن موسى لما أظهر المعجزة قال فرعون وبعض ملئه مخاطبين بقية الملأ إن هذا لساحر عليم إلخ، فرد البعض الآخر يطلب إمهالة ودعوة السحرة إلخ.

فالقرآن فى حكاية القول الأول تارة يقتصر على قول الرئيس وهو فرعون كما هنا، وتارة ينسب القول للرئيس ومَن ردد قوله معلنا موافقته كما فى صفحة ٢١٠.

﴿يخرجكم من أرضكم﴾ : تقدم فى صفحتى ٤١٠، ٤١١.

﴿ماذا تأمرون﴾ : أى تشيرون به، مأخوذ من المؤامرة وهى المشاورة.

﴿أرجه﴾ : أمهله، انظر صفحة ٢١٠.

﴿حاشرين﴾ : أى رجالا يجمعون السحرة، انظر أيضا صفحة ٢١٠.

﴿سحار﴾ : عظيم السحر.

﴿لميقات يوم معلوم﴾ : هو يوم الزينة المتقدم فى صفحة ٤١٠.

﴿هل أنتم مجتمعون﴾ : ﴿هل﴾ هنا للحث على الفعل، أى اجتمعوا.

(١) للناظرين (٢) لساحر (٣) حاشرين (٤) لميقات
(٥) الغالبين (٦) أئن (٧) الغالبون.

﴿تلقف﴾ : تبتلع بقوة وسرعة.

﴿يأفكون﴾ : يكذبون به على الناس، انظر صفحة ٢١٠.

﴿فألقى السحرة﴾ : أى خروا على الأرض سجدا لله تعالى، انظر صفحة ٤١١.

المعنى : . ألقى موسى عصاه على الأرض فإذا هى ثعبان واضح لاشك فى أنه ثعبان. وأدخل يده تحت إبطه ثم أخرجها فإذا هى بيضاء بياضا واضحا لكل ناظر أنه يخالف جميع لون بدنه. عند ذلك قال فرعون للزعماء المجتمعين حوله إن هذا الرجل يعنى موسى وعزتى لساحر غزير العلم بالسحر، يريد أن يستولى على ملككم فيطردكم منه فما هو الشىء الذى تأمرون وتشيرون به من حبس أو قتل مثلا؟ ويظهر أن القوم خافوا من فتنة العوام لو قوبل موسى بالغلظة بدون مقابلة عمله بمثله لأن فى عدم المقابلة بالمثل دليل العجز، فقالوا:

أمهله هو وأخاه وابعث رجالا يجمعون من أنحاء المملكة كل متين فى السحر عليم بفنونه، ففعل وجمع السحرة عند حلول زمن مؤقت ومحدد من يوم معلوم هو الضحى من يوم الزينة. وقيل للناس هلموا وأحضروا هذا الاجتماع لعلنا نشاهد انتصار السحرة فنثبت على الدين الذى هم عليه وهو دين فرعون، فلما جاء السحرة لمكان الاجتماع قالوا هل لنا أجرا إن غلبنا موسى؟ قال فرعون: نعم لكم أجر مادى كثير وأجر معنوى وهو أنكم إذا انتصرتم وعزتى لتكونن من المقربين عندى فى الرتبة والجاه، وتكونون من خواصى.

بعد ذلك قال السحرة لموسى: إما أن تلقى ما معك أولاً أو نلقى نحن، قال: ألقوا ما أنتم ملقون من أدوات سحركم، انظر صفحة ٤١١، فألقوا حبالهم، وعصيهم المملوءة بالزئبق كما فى شرح صفحة ٤١١ وقالوا بحق عزة فرعون وقوته إنا لنحن الغالبون. فألقى موسى عصاه ففاجأهم أنها تبتلع كل ما خدعوا به الناس من حبال وعصى، فسقط السحرة على الأرض ساجدين لله من قوة المعجزة.

المفردات : . ﴿من خلاف﴾ : أى يدا من جهة ورجلا من أخرى كما تقدم فى صفحة ٤١٢. ﴿لا ضير﴾ : لا ضرر علينا. ﴿منقلبون﴾ : راجعون كما فى الآية (٣١) من سورة

سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ * وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ

المطففين صفحة ٧٩٨. ﴿أسر بعبادى﴾ : من سرى إذا سار ليلا كما تقدم فى صفحة ٣٦٤. ﴿متبعون﴾ : أى سيتبعكم فرعون وجنوده فتنقضى فيهم قضاءنا. ﴿حاشرين﴾ : أى جامعين للجند من كل مكان. ﴿لشرذمة﴾ : هى الطائفة من الناس التى لا يحسب لها حساب. ﴿لجميع حاذرون﴾ : ﴿جميع﴾ هنا معناها جَمْع بفتح فسكون كما فى الآية (٤٤) من سورة القمر صفحة ٧٠٧، أى إننا لجمع من عادتنا الحذر والاحتراس من أن نفاجأ بمكروه. ﴿فأخرجناهم﴾ : أى حركنا فيهم دواعى الخروج بهذه الأسباب المتقدمة. ﴿مقام كريم﴾ : هى المساكن الحسنة والمجالس البهجة. ﴿كذلك﴾ : أى الأمر كذلك. فالمراد تحقيق ما تقدم. ﴿وأورثناها بنى إسرائيل﴾ : أى أعطيناها لهم. وهذه الجملة وما قبلها ﴿كذلك﴾ متوسطة بين المعطوف ﴿فأتبعوهم﴾ والمعطوف عليه ﴿فأخرجناهم﴾ لأن اتباع فرعون لبنى إسرائيل كان عقب خروجه من عاصمة ملكه لا عقب الميراث. ﴿مشرقين﴾ : أى داخلين فى وقت شروق الشمس كقولهم أمسى إذا دخل فى وقت المساء. ﴿تراءى الجمعان﴾ : أى تقاربا حتى رأى كل منهما الآخر.

المعنى : . فخر السحرة ساجدين لله لعلمهم أن ما أتى به موسى لا يمكن أن يكون سحرا كما تقدم فى صفحتى ٤١١، ٤١٢ حال كونهم قائلين آمنا برب العالمين الذى هو رب موسى وهارون لينصوا على أنه ليس فرعون. قال فرعون آمنتم له قبل أن آذن لكم، ما فعلتم ذلك إلا لأنه رئيسكم فى علم السحر الذى علمكم ذلك. فستعلمون وبال عملكم ثم بيّن ما هدد به بقوله: وعزتى لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ولأصلبنكم بعد ذلك فى جذوع النخل

(١) ساجدين	(٢) آمنا	(٣) العالمين	(٤) هارون	(٥) آمنتم
(٦) آذن	(٧) خلاف	(٨) خطايانا	(٩) حاشرين	(١٠) حاذرون
(١١) فاخرجناهم	(١٢) جنات	(١٣) أورثناها	(١٤) إسرائيل	(١٥) تراءى

لتكونوا عبرة لغيركم. قالوا: لا ضرر علينا فيما تهددنا به لأنا راجعون إلى ربنا بالموت على كل حال فسيجازينا بأحسن الثواب، لأنا نطمع أن يغفر لنا خطايانا فيما أكرهتنا عليه من السحر كما فى صفحة ٤١٢ بسبب كوننا أول مَنْ يؤمن به من أهل هذا المشهد. وبعد ذلك مضى موسى يحذرهم ويظهر لهم دلائل صدقه، ومكث على ذلك نحو ٣٠ عاما فلم يزدهم ذلك إلا عنادا، عند ذلك أوحى الله تعالى إلى موسى أن يسرى ليلا ببنى إسرائيل نحو المشرق، وأخبره بأن فرعون وجنده سيتبعونهم فلا تخافوا فإنى سأهلكهم، فلما خرج موسى بقومه ليلا وعلم فرعون أرسل مَنْ يجمع له الجند من أنحاء ملكه، ولما اجتمعوا قال لهم محرضا لهم على اتباع موسى وقومه بأمور ثلاثة: الأول أنهم جماعة حقيرة، والثانى أنهم فعلوا ما يغيظنا من مخالفة أمرنا ومحاولة الخروج من ملكنا بدون إذن، والثالث أننا قوم من عادتنا شدة الحذر واليقظة فلا يصح أن نقهر على ما لا نريد. فأخرجنا فرعون وجنوده من جنات كانوا طول وقتهم يتنعمون بها، وعيون تجرى بالماء وأموال كثيرة من الذهب والفضة كنزوها ولم ينفقوها فى مصلحة الناس، ومساكن حسنة ومجالس بهجة؛ حقيقة ما حصل هو ذلك الذى ذكرناه لك أيها النبى.

وكانت هذه النعم التى نزعناها من بنى إسرائيل فى النهاية متعة لبنى إسرائيل. ثم رجع سبحانه لتفصيل أصل القصة فقال ﴿فأتبعوهم﴾ أى فأتبع فرعون وجنوده بنى إسرائيل فى وقت شروق الشمس حتى إذا قربوا منهم ورأى بعضهم بعضا قال أصحاب موسى إلى آخر ما سيأتى. وظاهر الكلام يدل على أن بنى إسرائيل رجعوا إلى مصر بعد غرق فرعون، قال بذلك قوم، وأيدوا ما هنا بما فى آيتى (١٠٣، ١٠٤) من سورة الإسراء صفحتى ٣٧٨، ٣٧٩، وآيتى (٥، ٦) من سورة القصص صفحة ٥٠٦، وآيتى (٢٦، ٢٨) من سورة الدخان صفحة ٦٥٨، وقال قوم إنهم لم يرجعوا واستدلوا بما فى الآية (١٣٧) من سورة الأعراف صفحة ٢١٣ من أنه أعطاهم الأرض التى بارك فيها، والأرض التى وصفت بذلك فى القرآن هى الشام كما فى أول سورة الإسراء صفحة ٣٦٤ وآيتى (٧١، ٨١) من سورة الأنبياء صفحتى ٤٢٧، ٤٢٩ وجمع بعضهم بين الآيات بأن فلسطين كانت فى عهد فرعون موسى تابعة لمصر، إن التواريخ كلها ظاهرة، فى أنهم لم يرجعوا، وكذا يقوى عدم الرجوع سياق القصة فى الآيات من (١٣٦ إلى ١٧١) من سورة الأعراف، وإن قوله تعالى هنا فأخرجناهم من جنات إلخ بالتنكير ظاهر فى أنه سبحانه أعطاهم جنات وعيون إلخ مثلها لا عينها، إذ لو كان المراد عين ما فى مصر لقال سبحانه من الجنات... إلخ بالتعريف، والله أعلم... وهذا هو ما اختاره ﴿مولانا محمد على الهندى﴾ فى تعليقه على ترجمته للقرآن إلى اللغة الإنكليزية.

قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ

المفردات : . ﴿كلا﴾ : كلمة تدل على النهى عن قول ما سبقها.

﴿فرق﴾ : أى جزء مما تفرق من ماء البحر.

﴿الطود﴾ : الجبل.

﴿أزلفنا﴾ : أى قربنا إلى وسط الماء.

﴿ثم﴾ : هناك أى وسط البحر.

﴿الآخرين﴾ : فرعون وقومه.

﴿آية﴾ : أى دليل قاطع وعبرة لمن يعتبر.

﴿نظل﴾ : أى نصبر ونواظب. ﴿عاكفين﴾ : أى ملازمين ومداومين . ﴿عدو لى﴾ : تقدم فى صفحة ٣٨٨ أن العدو يطلق على الواحد والأكثر.

المعنى : . قال أصحاب موسى لما رأوا جند فرعون إنا لمدركون. أى قرب أن يلحقنا عدونا فيهلكنا. قال موسى : أزجركم عن قول ذلك، لأن ربى معى بحفظه وعنايته. وسيهدينى إلى طريق الخلاص.

عند ذلك أوحى الله تعالى إلىّ موسى بأن يضرب بعصاه البحر. فضرب فانفلق ماؤه حتى صار كل قطعة منه كالجبل العالى، وصار ما تحته كأنه سرداب يسير فيه العابر فلا تبل قدمه. انظر الآية (٧٧) من سورة طه صفحة ٤١٣.

(١) أصحاب (٢، ٣) الآخرين (٤) لآية
(٥) إبراهيم (٦) عاكفين (٧) آباءنا
(٨) افرأيتم (٩) آباؤكم.

وقربنا إلى هذه السراديب فرعون وقومه فاندفعوا فى الدخول فيها، وأنجينا موسى وقومه أجمعين بإخراجهم قبل انطباق الماء على فرعون، ثم بعد نجاة قوم موسى أغرقنا فرعون وجنده بإرجاع الماء كما كان فغطاهم.

إن فى هذا الصنع المحكم لعبرة ودليلا لمَنْ له عقل يفكر.

ولكن ما كان أكثر المصريين مؤمنين، إذ لم يؤمن منهم إلا الرجل المذكور فى الآية (٢٨) من سورة غافر صفحة ٦٢١، وإلا امرأة فرعون كما فى الآية (١١) من سورة التحريم صفحة ٧٥٣، وإلا السحرة كما تقدم هنا.

وما كان أكثر قوم موسى مطيعين له حق الطاعة لأنهم بعد خروجهم من البحر عبدوا العجل كما فى صفحة ٤١٤، وسألوا رؤية ربهم جهرة كما فى صفحة ١١، وعصوا أمر ربهم فى دخول الأرض المقدسة كما فى صفحتى ١٤٠، ١٤١، وإن ربك أيها النبى لهو العزيز الغالب الذى لا يغلب فلا يعجزه الانتقام من أعدائه، الرحيم بأوليائه المؤمنين برسله. وفى هذا تهديد لكفار قريش إذا لم يعتبروا.

واتل أيها النبى على كفار قومك خبر إبراهيم نبى الله حين قال لأبيه وقومه كما فى صفحة ١٧٤ ما هذا الذى تعبدونه من دون الله؟ قالوا: نعبد أصناما فنصير لأجل تعظيمها مداومين على عبادتها.

قال : هل يسمعونكم حين تنادونهم أو ينفعونكم برزق أو صحة إن عبدتموهم، أو يضرونكم إن أهملتموهم؟ قالوا بل لم يحصل شىء مما تقول، ولكنا وجدنا آباءنا قاصرين عبادتهم عليها فقلدناهم. فأراد إبراهيم أن ينكر عليهم موبخا فقال ﴿أفرأيتم﴾ إلخ : أى هل تأملتم فعلمتم حال ما داومتم على عبادته من هذه الأصنام أنتم وآباؤكم الأقدمون؟ أى كلا لم تتأملوا إذ لو تأملتم لقطعتم بأنهم لا يستحقون ذلك، أما أنا فإنى أبغضهم لأنهم كأعدائى فى كرههم وحب البعد عنهم، ولن يستطيعوا إضرارى بشىء وهذا دليل بطلان ألوهيتهم، انظر نظيره فى قوم نوح وهود فى صفحات ٢٧٧، ٢٩١، ٢٩٢، لكن رب العالمين هو وليى وناصرى ومؤيدى إلخ.

﴿الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾

المفردات : . ﴿أطمع﴾ : المراد أرجو، وإنما قال ذلك هضما لنفسه كأنه لم يعمل شيئا صالحا.

﴿يوم الدين﴾ : يوم الحساب، انظر سورة الفاتحة.

﴿حكما﴾ : حكمة، انظر الآية (٢١) من هذه السورة صفحة ٤٨١. ﴿لسان صدق﴾ : المراد ذكرا حسنا، وهو لا يكون إلا بالتوفيق للأعمال الصالحة، وهذا هو المقصود بالدعاء، انظر صفحة ٤٠١.

﴿قلب سليم﴾ : أى ليس مريضا بكفر ولا نفاق ولا رياء.

﴿أزلفت الجنة﴾ : أى قربت، وعبر بالماضى لتحقق وقوع ذلك.

﴿برزت الجحيم﴾ : أى جعلت بارزة ظاهرة لهم حتى يروا أهوالها. ﴿الغاوين﴾ : يطلق الغاوى على مَنْ يضله غيره كما هنا وكما فى آيتى (١٧٥) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١، و (٤٢) من سورة الحجر صفحة ٣٤١، وعلى مَنْ يضل غيره كما فى الآية (٩٤) الآتية هنا، وجاء المعنيان فى الآية (٦٣) من سورة القصص صفحة ٥١٦، والآية (٣٢) من سورة الصافات صفحة ٥٨٩. ﴿ينتصرون﴾ : بأن يدفعوا العذاب عن أنفسهم. ﴿كبكبوا﴾ : أى طرحوا على وجوههم المرة بعد المرة حتى وصلوا قعر جهنم، وعبّر بالماضى للتحقق كما سبق.

المعنى : . ولكن خالق كل العالم هو وليى فى الدنيا والآخرة، فليس بينى وبينه سوى الموالاة والمحبة، وهو الذى خلقنى، وهو الذى يهدينى لما فيه الخير فى الدنيا والآخرة، وهو الذى يطعمنى برزقه الذى يسوقه لى ويسقينى، ولولاه لما نزل من السماء ماء، وهو وحده الذى ينعم علىّ بالشفاء إذا مرضت، وهو وحده الذى يميتنى الميتة الطبيعية عند حلول أجلى ثم يحيينى

(١) العالمين (٢) بالصالحين (٣) الآخرين

يوم البعث للحساب والجزاء، وهو الذى أرجوه فى خضوع وتواضع أن يغفر ما عسى أن يكون صدر منى من الخطأ يوم الحساب، أى كل هذه الأعمال لا يعلمها غيره تعالى وليس لأصنامكم حظ منها، انظر الآية (١٧) من سورة العنكبوت صفحتى ٥٢٢، ٥٢٣. وبعد أن أثنى إبراهيم على ربه بما ذكر توجه إليه بالدعاء فقال: يارب امنحنى حكمة أضع بها كل شىء فى محله، ووفقنى لأكمل الأعمال حتى أكون فى زمرة الصالحين. وقد أجابه سبحانه كما فى الآية (٧٢) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٧، والآية (٢٧) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤. ووفقنى يارب للأعمال الصالحة حتى يقتدى بى غيرى فيذكرونى بالخير وهم صادقون. واجعلنى يارب ممَنْ يتمتعون بنعيم الجنة كما يتمتع الوارث بما يراه من فيض فضلك. ولما كان وعد أباه آزر بأنه سيستغفر له كما فى الآية (٤٧) من سورة مريم صفحتى ٤٠٠، ٤٠١ بر بوعده وقال: واغفر لأبى ذنوبه لأنه استمر على الضلال مدة طويلة بأن توفقه وتهديه للإيمان.

ولكنه بعدما علم موته على الكفر تبرأ منه كما فى الآية (١١٤) من سورة التوبة صفحتى ٢٦١، ٢٦٢، ولا تخزنى يارب يوم يبعث الخلق بأن تدخلنى النار كما فى الآية (١٩٢) من سورة آل عمران صفحة ٩٥، يوم لا ينفع مال ولا بنون فى دفع العذاب عن العبد، لكن مَنْ أتى الله بقلب سليم خال من أمراض القلوب كالكفر والحسد والنفاق والرياء ينفعه عمله الناتج عن هذا القلب السليم. وهنا انتهى كلام إبراهيم عليه السلام، وشرع سبحانه فى بيان ما سيكون فى ذلك اليوم الذى طلب فيه إبراهيم النجاة فقال: وأزلفت الجنة أى قربت للمتقين حتى يفرحوا بدخولها، انظر الآية (٣١) من سورة ق صفحة ٦٩٠، وأبرزت الجحيم لكل مَنْ ضل وغوى ليسارع إليهم الفزع والحسرة، وتقول لهم زبانية جهنم توبيخا: أين ما كنتم تخضعون لهم تاركين ربكم وراء ظهوركم هل ينصركم أحد منهم اليوم بمنع العذاب عنكم، أو حتى بمنع العذاب عن نفسه هو؟ انظر الآية (٢٨) من سورة يونس صفحتى ٢٧٠، ٢٧١ والآية (٢٢) من سورة الصافات صفحة ٥٨٨. بعد ذلك تدفع الملائكة هؤلاء العابدين لغير الله على وجوههم فى جهنم هم ومَنْ أغواهم من الأحبار والرهبان، انظر الآية (٣١) من سورة التوبة صفحة ٢٤٥، وجنود أبليس من الجن أجمعين.

قالوا وهم فيها يختصمون ﴿٩٦﴾ تالله إن كنا لفي ضلال(1) مبين ﴿٩٧﴾ إذ نسويكم برب العالمين(2) ﴿٩٨﴾ وما أضلنا إلا المجرمون ﴿٩٩﴾ فما لنا من شافعين(3) ﴿١٠٠﴾ ولا صديق حميم ﴿١٠١﴾ فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ﴿١٠٢﴾ إن في ذلك لآية(4) وما كان أكثرهم مؤمنين ﴿١٠٣﴾ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴿١٠٤﴾ كذبت قوم نوح المرسلين ﴿١٠٥﴾ إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ﴿١٠٦﴾ إني لكم رسول أمين ﴿١٠٧﴾ فاتقوا الله وأطيعون ﴿١٠٨﴾ وما أسألكم(5) عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين(6) ﴿١٠٩﴾ فاتقوا الله وأطيعون ﴿١١٠﴾ * قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴿١١١﴾ قال وما علمي بما كانوا يعملون ﴿١١٢﴾ إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون ﴿١١٣﴾

المفردات : . ﴿المجرمون﴾ : المراد بهم هنا كل مَنْ صد عن الحق وحرض على تركه، انظر الآية (١٢٣) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣، والآية (٣١) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٤، والآية (٣٢) من سورة سبأ صفحة ٥٦٧.

﴿من شافعين﴾ : ﴿من﴾ حرف يفيد تأكيد العموم فيما بعدها، وجمع الشافعين وأفرد الصديق لأن العادة كثرة الشفعاء وقلة الأصدقاء.

﴿حميم﴾ : المراد به هنا قوة المحبة المشفق على مَنْ يحبه المهتم بأمره. ﴿فلو﴾ : ﴿لو﴾ مستعملة هنا فى التمنى بمعنى ليت.

﴿كرة﴾ : رجعة إلى الدنيا انظر مثل هذا والرد عليه فى الآية (٢٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦، والآية (٥٣) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٠، ٢٠١ وآيتى (٩٩، ١٠٠) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٤ والآية (١٠٧) من سورة المؤمنون أيضا صفحة ٤٥٥، والآية (٣٦) من سورة فاطر صفحة ٥٧٦، والآية (٥٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٤.

﴿آية﴾ : عبرة وعظة.

﴿كذبت قوم نوح﴾.. إلخ : تقدم بيان ذلك فى الآية (٣٧) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٤.

﴿ألا يتقون﴾ : ﴿ألا﴾ حرف يفيد الرغبة فى فعل ما بعده.

﴿إن أجرى﴾ : إن حرف نفى بمعنى ما.

---

(١) ضلال (٢) العالمين (٣) شافعين
(٤) لآية (٥) أسالكم (٦) العالمين.

﴿الأرذلون﴾ : يريدون بهم أهل الصنائع والفقراء، انظر الآية (٢٧) من سورة هود صفحة ٢٨٨، وانظر نظيره فى آيتى (٥٢، ٥٣) من سورة الأنعام صفحة ١٧٠.

المعنى : . قال العابدون لغير الله وهم فى جهنم يختصمون مع الأحبار والرهبان الذين جعلوا أنفسهم مكان الإله فى التحليل والتحريم، وجنود إبليس الذين زينوا لهم عبادة الأصنام، انظر شرح الآية (١١٧) من سورة النساء صفحة ١٢٢، والآية (٢٨) من سورة يونس صفحتى ٢٧٠، ٢٧١، والله إنا كنا فى ضلال واضح حين كنا نسويكم برب العالمين فى الطاعة والحب والخشية، انظر الآية (١٦٥) من سورة البقرة صفحتى ٣١، ٣٢، وما أضلنا إلا المجرمون من السادة والكبراء ورجال الدين الذين تاجروا بدينهم لجلب متاع زائل، وآباؤنا الذين قلدناهم فكانوا على باطل، انظر الآية (٧٤) المتقدمة، والآية (١٧٠) من سورة البقرة صفحة ٣٢، والآية (١٠٤) من سورة المائدة صفحتى ١٥٧، ١٥٨، والآيات (٢٢، ٢٣، ٢٤) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٩، فليس لنا اليوم شافع يشفع لنا فينقذنا من العذاب، ولا صديق شديد المحبة لنا مشفق علينا، يعطف علينا فيخفف عنا ما نحن فيه، وهذا يدل على الحسرة والحزن، فليت لنا رجعة إلى الدنيا فنؤمن ونعمل صالحا حتى لا نعذب إذا متنا، إن فى كل ما ذكر من قصة إبراهيم لعبرة لمن له قلب سليم، وما كان أكثر قوم إبراهيم مؤمنين، إذ لو كان أكثرهم مؤمنا لما عجل الله تعالى بإفنائهم. وإن ربك أيها النبى لهو العزيز أى الغالب القادر على تعجيل الانتقام من كفار قومك، الرحيم بإمهالهم، وإفساح مجال التوبة لهم، وإخراج ذرية مؤمنة من أصلابهم. وبعد ما قص سبحانه على الكفار قصة إبراهيم وما حصل لخصومه، أراد أن يقص عليهم قصة أبيهم الثانى وهو نوح عليه السلام فقال : ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ حين قال أخوهم فى النسب نوح : ألا تتقون الله فتخافوا عقابه فلا تعبدوا غيره؟ إنى لكم رسول من الله أمين فى تبليغ ما أمرنى ربى بتبليغه لكم، فاتقوا الله وأطيعونى فيما أطلبه منكم من توحيده تعالى، وما أطلب منكم أجرا على هذا التبليغ، فما أطلب أجرًا إلا من رب العالمين، فاتقوا الله وأطيعونى. وكرر الأمر بالتقوى لأنها عماد كل الأعمال فيجب ملاحظتها فى كل شىء، انظر ما حصل بين نوح وقومه فى صفحات ٢٠٢، ٢٨٧ إلى ٢٩١، ٧٦٧ إلى ٧٧٠ قالوا كيف نتبعك والحال أنه لم يتبعك إلا أراذلنا المنافقون فى دعواهم أتباعك، قال نوح : وأى شىء يعلمنى بباطن ما عملوا وليس لى أن أبحث عن البواطن، وإنما أمرت أن أحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر، فما حسابهم على الباطن والظاهر إلا على ربى لو تشعرون شعورًا صادقا لعلمتم ذلك ولكنكم قوم تجهلون.

وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم

المفردات : ﴿بطارد﴾ : الباء لتأكيد نفى ما بعدها عما قبلها. ﴿إن أنا﴾ : أى ما أنا. ﴿المرجومين﴾ : المقتولين رميا بالحجارة. ﴿افتح بينى وبينهم﴾ : أصل الفتح إزالة الإغلاق والإشكال حسيا أو معنويا، الأول كفتح الباب والقفل وغيرهما ومنه ما فى الآية (٦٥) من سورة يوسف صفحتى ٣١٢، ٣١٣، والثانى كفتح أبواب العلم والخيرات، ومنه ما فى الآية (٧٦) من سورة البقرة صفحة ١٥، والآية (٩٦) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٨، والآية (٢) من سورة فاطر صفحة ٥٧١، ومنه فتح فلان القضية إذا حكم فيها وأزال إشكالها، ومن هذا يقال للقاضى الفتاح، ويطلق الفتح على النصر على الأعداء لأنه يزيل قوة الخصم ويلحق به الهزيمة، ومنه ما فى الآية (٨٩) من سورة البقرة صفحة ١٧، والآية (٥٢) من سورة المائدة صفحة ١٤٧، ويطلق الفتح على الحكم وهو المراد هنا ونظيره ما فى الآية (٨٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٧.

﴿الفلك﴾ : السفينة، انظر صفحة ٢٨٩. ﴿المشحون﴾ : المملوء من كل صنف زوجين كما فى صفحة ٢٩٠.

﴿لآية﴾ : لعبرة وعظة.

﴿كذبت عاد المرسلين﴾ : انظر بيان ذلك فى الآية (٥٩) من سورة هود صفحة ٢٩٣.

﴿ألا تتقون﴾ : ألا حرف يفيد الرغبة فى فعل ما بعده كما تقدم.

(١) يا نوح (٢) فانجيناه (٣) لآية
(٤) أسالكم (٥) العالمين (٦) آية.

﴿أتبنون﴾ : الهمزة لإنكار ما بعدها وعدم الرضا عنه.

﴿ريع﴾ : مكان مرتفع. ﴿آية﴾ : قصر كثير الارتفاع كأنه جبل.

﴿تعبثون﴾ : تعملون ما لا فائدة جدية فيه غير التفاخر الأجوف. ﴿مصانع﴾ : المراد حصونا.

﴿لعلكم تخلدون﴾ : لعل هنا تفيد التشبيه أى كأنكم خالدون فى الدنيا.

﴿بطشتم﴾ : البطش الإيذاء العنيف.

المعنى : . وما أنا طارد مَنْ آمن بالله واتبعنى، فما أنا إلا نذير من الله تعالى لِمَنْ عصاه مهما كان عظيما، أى ومبشر مَنْ أطاعه مهما كان فقيرا. قال قوم نوح له: لئن لم تنته عما تدعو إليه وعن الطعن فى آلهتنا لنرجمنك بالحجارة حتى تموت ولما كان قد مكث يدعوهم إلى الحق نحو ألف سنة كما فى صفحة ٥٢٢، فلم يزدهم ذلك إلا عنادًا كما فى صفحة ٧٦٨، قال نوح بعد ذلك: يارب إن قومى كذبونى فاحكم بينى وبينهم حكما يفصل بيننا، ونَجِّنى ومَنْ آمن بك معى، فاستجاب الله سبحانه دعاءه ونجاه ومَنْ معه فى السفينة المملوءة بكل ما يحتاجون إليه، وأغرق بعد نجاتهم الباقين الذين لم يؤمنوا به؛ إن فى إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين وعزة الله لعبرة لقومك أيها النبى. وما كان أكثر قوم نوح مؤمنين، انظر شرح الآية (١٠٣) المتقدمة فى الصفحة السابقة. وإن ربك لهو العزيز أى الغالب فى انتقامه، الرحيم بمَنْ آمن به؛ ثم ذكر قصة هود وقومه للحكمة المتقدمة فقال: كذبت عاد المرسلين هودًا وإخوانه كما تقدم فى قوم نوح، وقد جاء الحديث عنهم فى صفحات ٢٠٣، ٢٩١، ٦٦٩، ٦٩٥، ٧٠٦، ٧٦١ حين قال لهم أخوهم هود ألا تتقون الله فتبتعدوا عما يغضبه، إنى لكم رسول من الله أمين فى تبليغ ما طلبه منكم، فاتقوا الله وأطيعونى، وما أسألكم عليه من أجر، ما أجرى إلا على رب العالمين، وقد تقدم بيان كل هذا، فهل يصح منكم أن تبنوا بكل مكان مرتفع قصرا مشيدا بدون حاجة إلى كل ذلك إلا التفاخر والتعالى على الناس، وتتخذوا لأنفسكم حصونا قوية كأنكم تظنون الخلود فى هذه الدار الفانية، وإذا أردتم البطش بأحد.. إلخ.

بَطَشْتُم جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ

المفردات : . ﴿جبارين﴾ : أى عتاة لا شفقة عندكم. ﴿أمدكم﴾ : أعطاكم وسخر لكم. ﴿إن هذا﴾ : أى ما هذا. ﴿خلق الأولين﴾ : عادة الأولين قبلك. ﴿كذبت ثمود المرسلين﴾ : تقدم بيان ذلك فى الآية (٥٩) من سورة هود صفحة ٢٩٣. ﴿أتتركون﴾ : الهمزة للإنكار المفيد للنفى.

المعنى : . وإذا أردتم إيذاء أحدكم كنتم قساة القلوب لا رحمة عندكم، فاتقوا الله وأطيعونى. ثم كرر طلب التقوى لأنها الركن الأهم فى النجاة كما تقدم، فقال: واتقوا الذى منحكم وسخر لكم ما تعلمونه من أنواع النعم. ثم بين بعض هذه النعم التى لا يجهلونها فقال:

أمدكم بأنعام بينت فى صفحتى ٦٤، ٦٥، وبنين، وجنات، وعيون، إنى أخاف عليكم من عذاب يوم عظيم إذا لم تقابلوا هذه النعم بالشكر وطاعة المنعم بها. قالوا : وعظك وعدمه سواء لدينا فإنا لن نقبل منك شيئا، وما هذا الذى جئت به إلا عادة قوم سبقوك، انظر الآية (٢٥) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٥، ١٦٦، وما نحن بمعذبين فى الدنيا ولا فيما تزعمه من الآخرة. فكذبوه فأهلكناهم بريح صرصر عاتية كما فى صفحة ٧٦١، إن فى ذلك لعبرة، وما كان أكثرهم مؤمنين، وإن ربك لهو العزيز الرحيم، تقدم فى الصفحة السابقة. ثم ذكر سبحانه ما فعلته ثمود مع نبيهم صالح، وقد جاء ذكرهم فى صفحات ٢٠٤، ٢٩٣، ٦٩٥ فقال: ﴿كذبت ثمود المرسلين﴾ حين قال لهم أخوهم فى النسب صالح ألا تتقون إنى لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعونى، وما أسألكم عليه من أجر، فما أجرى إلا على رب العالمين. تقدم بيان كل ذلك فى صفحة ٤٨٦، فهل تظنون أن الله سيترككم فى النعيم الموجود فى هذا المكان حال كونكم آمنين عذابه. ثم بيَّن ما فى المكان من النعيم فقال : ﴿فى جنات وعيون وزروع ونخل﴾ إلخ.

(١) بأنعام (٢) جنات (٣) الواعظين (٤) فأهلكناهم (٥) لآية
(٦) صالح (٧) أسالكم (٨) العالمين (٩) آمنين (١٠) جنات.

طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا

المفردات : . ﴿طلعها﴾ : هو أول ما يطلع من ثمر النخل كنصل السيف، فى جوفه العيدان التى تحمل البلح.

﴿هضيم﴾ : لين لطيف، علامة على خصوبة الأرض وجودة الثمر.

﴿فارهين﴾ : تقول العرب فره الرجل بفتح فضم كسهل إذا صار حاذقا فى الأمر ماهرا فيه.

﴿المسحَّرين﴾ الذين وقع عليهم السحر كثيرًا حتى ذهبت عقولهم.

﴿شرب﴾ : أى نصيب من الماء.

﴿عقروها﴾ : رماها واحد منهم بسهم فماتت، وكان ذلك بأمر من زعمائهم، انظر الآية (٢٩) من سورة القمر صفحة ٧٠٦.

المعنى : . لا تنتظروا أن يترككم ربكم فى ذلك النعيم، ومنه النخل الذى هو أنفع ما فى الجنات، وطلعه يتم نضجه حتى يصير لطيفا، ومما تنعمون به أنكم تنقبون فى الجبال بيوتا حال كونكم ماهرين فى النحت فتصير كأنها مبنية باليد، انظر صفحة ٢٠٤، فاتقوا الله وأطيعونى، ولا تطيعوا أمر رؤسائكم التسعة المفسدين فى الأرض كما فى صفحة ٥٠٠، وليس لهم فيها إصلاح أبدا، فهم شر صرف.

(١) فارهين
(٢) بآية
(٣) الصادقين
(٤) نادمين
(٥) لآية
(٦) أسالكم.

قالوا لصالح: ما أنت إلا رجل مخبول العقل، وما أنت إلا بشر مثلنا، فلا يصح أن تكون رسولاً لله لأنه لا يرسل إلا ملكا، انظر آيات (٩٥) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٧، و (٢٤) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٧، و (١٤) من سورة فصلت صفحة ٦٣١ فأت بعلامة تدل على صدقك إن كنت صادقا. قال: هذه ناقة امتحنكم الله بها كما فى الآية ٢٧ من سورة القمر صفحة ٧٠٦ لها نصيب من الماء، وكان الماء عندهم قليلا فى آبار، فاتركوه لها يوما، ولكم كل الماء يوم آخر، لها شرب ولكم شرب يوم معلوم، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم لشدة ما فيه من الهلاك. فعقروها فحدد لهم صالح ثلاثة أيام وبعدها ينزل بهم العذاب كما فى صفحة ٢٩٤ فصاروا نادمين لا توبة، بل لظنهم احتمال صدق صالح.

وبعد اليوم الثالث أخذتهم رجفة فصاروا كالهشيم المتكسر كما فى صفحة ٧٠٦.

إن فى هذا الذى حصل لقوم صالح لدليلا واضحا على هلاك كل مَنْ يخالف أمر ربه ويكذب رسله، وما كان أكثر قوم صالح مؤمنين، وإن ربك لهو العزيز الرحيم.

تقدم بيان كل ذلك. ثم ذكر لهم ما حصل لقوم لوط، وقد فصله القرآن فى صفحات ٢٠٥، ٢٩٥، ٣٤٢، ٥٢٤، ٦٩٤، ٧٠٧، فقال: ﴿كذبت قوم لوط المرسلين﴾ حين قال لهم أخوهم لوط: ألا تتقون. إنى لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعونى، وما أطلب منكم على تبليغ رسالة ربى أجرا ولو قليلا. فما أجرى إلا على رب العالمين. وقد تقدم بيان كل ذلك فى هذه السورة سابقا.

المفردات : . ﴿تذرون﴾ : تتركون. ﴿عادون﴾ : متعدون الحدود. ﴿القالين﴾ : أى المبغضين الكارهين، انظر الآية (٣) من سورة الضحى صفحتى ٨١١، ٨١٢. ﴿عجوزا﴾ : هى امرأته، انظر الآية (١٠) من سورة التحريم صفحة ٧٥٣. ﴿الغابرين﴾ : أى الهالكين، تقدم معناها فى صفحة ٢٠٦. ﴿مطرا﴾ : جاء فى صفحة ٢٩٦. ﴿ساء﴾ : قبح. ﴿المنذرين﴾ : الذين أنذرهم نبيهم بالعذاب إذا عصوا ربهم. ﴿أصحاب الأيكة﴾ : الأيكة هى الشجر الملتف، وتقدم بيانها فى صفحة ٣٤٣.

عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾

المعنى : . قال لوط موبخا قومه: هل يصح أن تأتوا الذكور من ولد آدم وتتركوا الحلال الذى خلقه لكم ربكم من أزواجكم.

ثم انتقل من التوبيخ إلى التصريح بأنهم تجاوزوا كل حد معقول، فقال : بل أنتم قوم عادون. فردوا أخبث رد على هذا النصح الخالص بقولهم: لئن لم تنته يالوط لتكونن من الذين نخرجهم من ديارنا وننفيهم إلى الصحارى القاحلة. قال عليه السلام: إنى لعملكم هذا من الكارهين ثم اتجه إلى ربه قائلا يارب نجنى وأهلى المؤمنين معى من شر عملهم، فأجاب الله تعالى دعاءه ونجاه وأهله جميعا إلا امرأته فتركها فى الهالكين، انظر صفحة ٧٥٣، ثم دمر الله كل الفاسقين بخسف القرية بهم، وأعقب ذلك بإنزال الحجارة المحماة عليهم زيادة فى النكال. فقبح هذا المطر الذى نزل، لأنه لم يكن مطر ماء يعقبه خير. إن فى هذا الحادث لعبرة ترشد كل ذى عقل للصواب، وما كان أكثر قوم لوط مؤمنين، وإن ربك لهو العزيز الرحيم. تقدم بيانه. ثم قص سبحانه ما حصل من أصحاب الأيكة مع نبيهم شعيب عليه السلام فقال: ﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين﴾ حين كذبوا نبيهم كما تقدم فى الآية (٣٧) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٤ حين قال لهم شعيب ألا تتقون؟ إنى لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعونى، وما أسألكم على تبليغ رسالة ربى أجرا، فما أجرى إلا على رب العالمين.

(٢، ٢) العالمين (٣) أزواجكم (٤) يا لوط (٥) فنجيناه (٦) الغابرين (٧) الآخرين
(٨) لآية (٩) أصحاب (١٠) الأيكة (١١) أسألكم (١٢) العالمين

* أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ

المفردات : . ﴿المخسرين﴾ : الناقصين لحقوق الناس فى الكيل والميزان، انظر الآية (٣) من سورة المطففين صفحة ٧٩٦.

﴿القسطاس﴾ : الميزان المستقيم المعتدل.

﴿تعثوا فى الأرض﴾ : تفسدوا فيها.

﴿مفسدين﴾ : المراد متعمدين الإفساد، انظر الآية (٨٥) من سورة هود صفحة ٢٩٧.

﴿الجبلة﴾ : نطق العرب بكلمات ملاحظين فيها معنى الجبل فى الثبات والعظم والضخامة فقالوا: فلان جبل أى ثابت لا يتزحزح وفلان جُبِل على الكرم بضم الجيم وكسر الباء أى لا يتحول عنه، وفلان ذو جبلة أى ضخم الجسم، وقالوا للجماعة القوية الكثيرة.

﴿جِبِلًّا﴾ بكسرتين وتشديد اللام كما فى الآية (٦٢) من سورة يسٓ صفحة ٥٨٤، وقالوا لتلك الجماعة أيضا.

﴿جبلة﴾ كما هنا.

﴿المسحرين﴾ : تقدم فى صفحة ٤٨٩.

﴿كسفا﴾ : جمع كسفة بكسر فسكون كقطعة وزنا ومعنى.

(١) الكاذبين
(٢) الصادقين
(٣) لآية
(٤) العالمين.

﴿الظلة﴾ : هى سحابة لجأوا إليها من شدة الحر فأمطرت عليهم نارًا فاحترقوا جميعا.

﴿الروح﴾ : هنا هو جبريل عليه السلام.

المعنى : . قال شعيب ناصحا قومه: أوفوا الكيل إذا كلتم، ولا تكونوا من الذين ينقصون حقوق الناس، وزنوا لهم بالميزان المعتدل الذى لا يجور، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، أى لا تنقصوا شيئا من حقوقهم مطلقا، ولا تفسدوا فى الأرض حال كونكم شديدى الإفساد، واتقوا الله الذى خلقكم كما خلق مَنْ كان قبلكم من الأمم العظيمة التى كانت أشد منكم قوة، ومع ذلك أهلكهم لما عصوا، فلستم أقوى منهم، انظر الآية (٦٩) من سورة التوبة صفحتى ٢٥٢، ٢٥٣، والآية (٤٤) من سورة فاطر صفحة ٥٧٨، والآية (١٥) من سورة فصلت صفحة ٦٣١، فردوا عليه بقولهم:

ما أنت إلا من المجانين، وما أنت إلا بشر مثلنا، انظر صفحة ٤٨٩، وما نظنك إلا من الكاذبين فى دعواك، فأسقط علينا قطعا من السماء فيها الهلاك إن كنت من الصادقين، وهذا من تمام الجهل الذى وقع فيه أيضا كفار مكة كما فى صفحات ٢٣١، ٢٧٧ قال شعيب: ربى أعلم بما تعملون، فهو الذى ينزل عليكم العذاب اللائق بكم فى وقته المقدر له، فكذبوه فأفناهم عذاب يوم السحابة التى أظلتهم، وهم فرحون بها من شدة السحر، ولم يدروا أن فيها عذابا أليما كما حصل لقوم عاد، انظر الآية (٢٤) من سورة الأحقاف صفحتى ٦٦٩، ٦٧٠، إن فى ذلك لعبرة، وما كان أكثرهم مؤمنين، وإن ربك لهو العزيز الرحيم، تقدم بيانها، وبعد ما قص سبحانه تلك القصص السبع على سبيل الاختصار تسلية لرسوله وتهديدا للمكذبين به، أراد أن يبين حقيقة ذلك القرآن المشتمل على هذه القصص فقال:

وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين جبريل على قلبك، أى أثبته فيه إثباتا لا ينسى بعده لتكون من عداد رسلنا الذين أرسلناهم ليحذروا أقوامهم عذاب الله إذا عصوه، نزله بلسان عربى واضح.

مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ
ءَايَةً[1] أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟[2] بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ[3] ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ[4]
عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ[5] فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾
لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾
أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ[6] إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ[7]
سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ
عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا
مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ[8] ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ
ٱلشَّيَٰطِينُ[9] ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾
إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ

المفردات : . ﴿مبين﴾ : واضح. ﴿زبر﴾ : جمع زبور، والمراد به هنا كتب السابقين، فهو كجمع رسول على رسل، انظر الآية (٤٤) من سورة النحل صفحة ٣٥١، وآيتى (١٨، ١٩) من سورة الأعلى صفحة ٨٠٤.

﴿آية﴾ : حجة على صدق رسولنا.

﴿أن يعلمه﴾ : المصدر المؤول منها اسم كان مؤخر وخبرها آية.

﴿الأعجمين﴾ : مفرده أعجم، وهو الذى فى لسانه عجمة تجعل العربى لا يفهم كلامه، ومن المعلوم أن كل ما عدا العرب، يقال لهم عَجَم بفتحتين، وعُجْم بضم فسكون كعَرَبَ وعُرْب، وإما إطلاق العجم على دولة الفرس فقط، فهذا اصطلاح خاص نشأ من كثرة إطلاق العام على بعض أفراده، وينسب ﴿الأعجم﴾ للكتاب واللسان، مثلا يقال قرآن أعجمى كما فى الآية (٤٤) من سورة فصلت صفحة ٦٣٦، ولسان أعجمى كما فى الآية (١٠٣) من سورة النحل صفحة ٣٦٠. ولا يقال رجل أعجمى لأن الشىء لا ينسب إلى نفسه، قال ذلك صاحب مختار الصحاح.

وإنما قلنا إن ﴿الأعجمين﴾ : جمع أعجم خلافا لمَنْ تكلف غير ذلك محكما آراء العلماء فى القرآن، لأن القرآن هو الأصل، وهو أوثق الأصول اللغوية التى يرجع إليها غيرها، فلا يصح أن يحكم فيه غيره، انظر شرح ما سبق فى الآية (١١١) من سورة هود صفحة ٣٠٠.

﴿سلكناه﴾ : أدخلناه، انظر الآية (١٢) من سورة الحجر صفحة ٣٢٨.

(١) آية (٢) علماء (٣) إسرائيل (٤) نزلناه (٥) سلكناه
(٦) أفرأيت (٧) متعناهم (٨) ظالمين (٩) الشياطين.

﴿هل نحن﴾ : الاستفهام لطلب تأخير العذاب.

﴿منظرون﴾ : ممهلون.

﴿أفرأيت﴾ : أى أخبرنى، انظر الآية (٤٠) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨، والآية (٦٣) من سورة الكهف صفحة ٣٩٠.

﴿متعناهم سنين﴾ :أى تركناهم يتمتعون بنعيم الدنيا مدة طويلة.

﴿ذكرى﴾ : أى تذكيرا وتنبيها.

﴿السمع﴾ : أى استماع كلام الملائكة التى تنزل بالوحى. انظر الآية (٩) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨.

﴿معزولون﴾ : ممنوعون. انظر الآية (١٨) من سورة الحجر صفحة ٣٣٩. والآيات من (٧ إلى ١٠) من سورة الصافات صفحة ٥٨٧، وآيتى (٨، ٩) من سورة الجن صفحة ٧٧١.

المعنى : . وإن ما فى هذا القرآن من العقائد والفضائل وصفة الرسول وأصحابه وعزته لفى كتب الأنبياء السابقين، انظر الآيات (١٤٦) من سورة البقرة صفحة ٢٨. والآية (٤٦) من سورة النساء صفحة ١٠٨، و (٧٠، ٧١) من سورة آل عمران صفحة ٧٤، و (٤٣) من سورة الرعد صفحة ٣٢٨، و (٢٩) من سورة الفتح صفحتى ٦٨٣، ٦٨٤، و (٦) من سورة الصف صفحتى ٧٣٨، ٧٣٩، و (١٨ ، ١٩) من سورة الأعلى صفحة ٨٠٤، و (١٤٠) من سورة البقرة صفحة ٢٧، و (٩٤) من سورة يونس صفحة ٢٨١؛ وقد أقر بذلك مَنْ أسلم منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه.

هل غفل الكفار عن كل هذا ولم يكن علم بنى إسرائيل بصحته حجة كافية لهم فى الاقتناع، انظر شرح الآية (٥١) من سورة النساء صفحة ١٠٩.

ثم بيَّن سبحانه بعض حكم إنزال القرآن بلسان العرب فقال: ولو نزلنا هذا القرآن على رسول عجمى لا يعرف العربية ما كانوا ليؤمنوا أبدا، ويعتذرون بجهلهم هذا اللسان. فالمراد أنهم يكابرون على كل حال كما فى الآية (٧) من سورة الأنعام صفحة ١٦٣، انظر شرح

الآية (٣٧) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٧، ٣٢٨، والآية (٤) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٩، والآية (٤٤) من سورة فصلت صفحة ٦٣٦.

على هذا الوجه من الدخول أدخلنا القرآن فى قلوب المجرمين فاهمين معانيه مقرين بفصاحته مع اعتراف أهل الكتاب بصحته، فهم لا يمكن أن يؤمنوا به حتى يشاهدوا العذاب الأليم الذى يجعلهم يؤمنون مكرهين، وحينئذ لا يفهم إيمانهم كما فى الآية (١٥٨) من سورة الأنعام صفحتى ١٩٠، ١٩١، وسيأتيهم هذا العذاب فجأة وهم لا يشعرون، وعند حصول مقدماته سيطلبون الإمهال حتى يرجعوا عما هم فيه كما فى الآية (٣٧) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٦، ٥٧٧. ثم وبخهم على قولهم ﴿أسقط علينا كسفا من السماء﴾ وقولهم ﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ فقال تعالى:

أفبعذابنا يستعجلون استهزاء وتكذيبا؟ فأخبرنى أيها السامع هل إن تركناهم يتمتعون بما هم فيه مددا طويلة ما الذى يغنيه عنهم هذا التمتع الذى لابد من زواله؟

وما أهلكنا قرية من القرى المهلكة الظالمى أهلها إلا وقد أرسلنا لها منذرين من رسلنا يحذرونها عقاب الله تعالى إذا عصت أوامره، انظر الآية (١٥) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦؛ أنذرناهم تذكيرا لهم، ولم يكن من شأننا الظلم أبدا، انظر الآية (١١٧) من سورة هود صفحة ٣٠١.

ولما كان مما طعنوا به على القرآن قولهم إن محمدًا تعلمه من الكهان الذين يتلقون عن الشياطين، انظر الآية (٤٢) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٤، رد سبحانه باطلهم بقوله:

﴿وما تنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم﴾ أى ما يسهل عليهم هذا العمل العظيم بل لا يستطيعونه أبدا، لأنهم مبعدون عن سماع كلام الملائكة التى تنزل به كما فى الآيات المتقدمة.

وإذا علمت كل ما ذكر أيها النبى فلا تدع مع الله إلها آخر إلخ.

إِلَـٰهًا ءَاخَرَ^١ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ^٢ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ^٣ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ^٤ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ^٥ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ^٦ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟^٧ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ^٨ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

المفردات : . ﴿عشيرتك﴾ : أقاربك، انظر الآية (٢٤) من سورة التوبة صفحتى ٢٤٣، ٢٤٤. ﴿اخفض جناحك﴾ : تواضع، انظر صفحة ٣٤٤، والآية (٢٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٧. ﴿تقلبك فى الساجدين﴾ : تنقلك من حال إلى حال فى صلاتك مع المؤمنين جماعة، من وقوف إلى ركوع إلى سجود إلى جلوس.

﴿أفاك﴾ : كثير الإفك وهو الكذب.

﴿أثيم﴾ : كثير الوقوع فى الإثم وهو الذنب.

﴿يلقون السمع﴾ : المراد بالسمع هنا : الإذن كما فى الآية (٧) من سورة البقرة صفحة ٤، وإلقاء السمع كناية عن شدة الإصغاء، انظر الآية (٣٧) من سورة ق صفحة ٦٩١.

﴿الشعراء﴾ : يطلق العرب الشعر على كل كلام يستولى على شعور السامع، وأغلبه يكون تخيلات لا حقيقة لها، سواء أكان نظما أو نثرًا، ومراد العرب فى طعنهم فى النبى ﷺ بأنه شاعر هو المعنى الثانى، انظر الآية (٣٠) من سورة الطور صفحة ٦٩٨، وإنما قلنا ذلك لأن العرب ما كانوا يجهلون أن القرآن ليس من أوزان شعرهم المعروفة لهم ﴿الغاوون﴾ : الضالون، انظر الآية (٩١) من هذه السورة صفحة ٤٨٥.

(١) آخر (٢) يراك (٣) الساجدين (٤) الشياطين
(٥) كاذبون (٦) الغاوون (٧) آمنوا (٨) الصالحات.

﴿يهيمون﴾ : الهائم هو الذى يسير بدون قصد إلى غرض معين، فهو فى الغالب على غير هدى. ﴿انتصروا﴾ : المراد بالانتصار هنا: رد الهجاء الباطل بهجاء حق.

﴿أى منقلب﴾ : ﴿أىَّ﴾ نكرة وقعت صفة تفيد المبالغة، أو موصوفها كما تقول فلان رجل أىُّ رجل، أىْ رجلاً كامل الرجولة وموصوفها هنا مصدر مقدر مأخوذ من الفعل العامل فيها وهو ﴿ينقلبون﴾ الآتى بعدها.

و ﴿منقلب﴾ : مرجع ومصير، انظر الآية (٣٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦.

﴿ينقلبون﴾ : يصيرون ويرجعون.

والأصل : وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب فظيع سيلاقونه.

المعنى : ـ لما فرغ سبحانه من تهديد الكفار أراد أن يؤكد المحافظة على توحيده، فوجه الخطاب لرسوله، والمراد له ولأتباعه كل فيما يخصه، فقال: ﴿فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين﴾ وكان يظن أن الإنسان قد ينفع قرابته لمجرد أنهم أقرباؤه، فنبه سبحانه إلى خطأ ذلك فقال: ﴿وأنذر عشيرتك﴾ أى أهلك الأشد قرابة لك، ليعلموا أن نجاتهم فى اتباعك دون مجرد قرابتهم لك، ولذا لما نزلت دعاهم ﷺ وقال: يا عباس عم محمَّد اعمل لنفسك لا أغنى عنك من الله شيئا، يا فاطمة بنت محمَّد اعملى لنفسك فإنى لا أغنى عنك من الله شيئا، وهكذا ذكرهم جميعا، واخفض جناحك لأتباعك المؤمنين ليلتفوا حولك. انظر الآية (١٥٩) من سورة آل عمران صفحة ٨٩.

المراد أنذر قومك فإن أطاعوك فاعطف عليهم، وإن عصوك فأعلن براءتك من أعمالهم حتى لا يصيبك ما ينزل بهم، ولا تبال بشىء ما دمت متوكلا على العزيز الغالب الذى ينصرك عليهم برحمته.

ثم بيّن سبب نصره بقوله: الذى يراك حين تقوم للصلاة فى الليل وحدك، وصلاتك جماعة مع المؤمنين، متنقلا من حال إلى حال.

وخص السجود بالذكر لأنه أعلى أركانها فى الخضوع لله، والعبد فيه أقرب إلى ربه، إنه سبحانه هو السميع لأقوال عباده، العليم بنياتهم، فيجازى كلا بما يستحق.

ولما كان من ضمن ما طعن به المشركون على النبى ﷺ قولهم إنه شاعر وإنه كاهن يتلقى عن الشياطين كما تقدمت الإشارة إليه فى الصفحة السابقة وفى الآية (٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٠، لما كان كل هذا أبطل سبحانه زعمهم برده على كونه كاهنا بقوله: ﴿هل أنبئكم﴾ إلخ:

المعنى : قل أيها النبى لهم هل أعلمكم بجواب الاستفهام القائل: ﴿على مَنْ تنزل الشياطين﴾ اسمعوا الجواب : إنها تنزل على كل كذاب فاجر يصغى إليها باهتمام، وهؤلاء الأفاكون أكثر أقوالهم كاذبة. ورسولنا صادق لم يجرب عليه كذب مرة واحدة باعترافكم. ورد على كونه شاعرا بقوله ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾ ولو كان رسولنا شاعرا لما اتبعه إلا الضالون الذين يجرون وراء المدح بالباطل أو هجو الخصوم بلا حق، وكان الشعر عند العرب أوسع ميدان للتسابق. وأمضى سلاح فى محاربة الخصوم. ثم وصف سبحانه أغلب الشعراء بأنهم فى واد من الكلام وفن من فنونه، من مدح غير المستحق وذم البرىء، وتحريض على مظلوم، إلى غير ذلك. وأنهم يقولون مالا يفعلون، فيمدحون الكرم وهم بخلاء، والصدق وهم كاذبون. والشجاعة وهم جبناء.

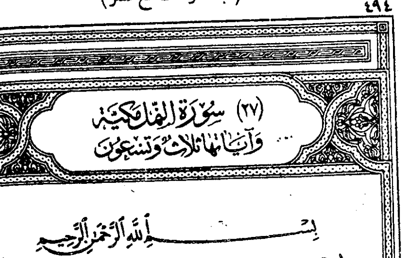
ثم استثنى سبحانه من الشعراء المذمومين شعراء المؤمنين الصالحين الذين يغلب فى شعرهم ذكر الله والحكم والمواعظ، وينتصرون فى شعرهم برد هجوم المشركين بمثله.

وقد أبشع المشركون فى هجوه ﷺ وهجو أصحابه، فكان حسان بن ثابت يرد عليهم فيخرسهم، وكان ﷺ وسلم يقول قولك يا حسان أشد عليهم من وقع السهام، وكان يقول: إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه.

وبعد ما أبطل سبحانه مزاعمهم ختم السورة بالتهديد الشديد لهؤلاء الكافرين فقال: وسيعلم الذين ظلموا، أى ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى، المصير الذى سيصيرون إليه فى النهاية وهو جهنم، وبئس المصير.

نسأل الله تعالى السلامة وحسن الختام.

سورة النمل


(الجزء التاسع عشر) ٤٩٤

(٢٧) سورة النمل مكية وآياتها ثلاث وتسعون

بسم الله الرحمن الرحيم

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿طس﴾: تقرأ: طا، سين، بسكون النون. وتقدم المراد من مثلها فى أول سورة البقرة.

﴿وكتاب مبين﴾: لما لوحظ فى ﴿كتاب﴾ صفته ﴿مبين﴾ صح عطفه على ما قبله، كعطف الصفة على الموصوف كما تقدم فى الآية (٤٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥، وكتاب صار كالعلم لما أنزل على محمد ﷺ فصح وصف القرآن به.

﴿يوقنون﴾: يؤمنون إيمانا قويا، انظر الآية (٤) من سورة البقرة صفحة ٣ .

﴿زينا لهم﴾: يصح أن يكون المراد فى مثل هذا أننا خلينا بينهم وبين الشيطان ولم نحفظهم منه فجعل لهم القبيح حسنا وبالعكس كما فى الآية (٨) من سورة فاطر صفحة ٥٧٢.

---

(١) طا سين
(٢) آيات
(٣) القرآن
(٤) الصلاة
(٥) الزكاة
(٦،٧) بالآخرة
(٨) أعمالهم
(٩) الآخرة
(١٠) القرآن
(١١) آنست
(١٢) سآتيكم
(١٣) آتيكم

وذلك لأنهم لم يؤمنوا برسلنا، ولم يستعيذوا بنا من الشيطان، وقد تقدم ذلك فى الآية (١٠٨) من سورة الأنعام صفحة ١٨٠ .

﴿يعمهون﴾: يتخبطون فى الضلال.

﴿الأخسرون﴾: جمع أخسر وهو الأشد خسرانا.

﴿لتلقى﴾: أى تلقن وتعطى.

﴿من لدن﴾: من عند.

﴿آنست﴾: أبصرت انظر صفحة ٤٠٦ .

﴿شهاب﴾: شعلة من نار.

﴿قبس﴾: أى مقبوس ومأخوذ، انظر صفحة ٤٠٦ أيضًا.

المعنى: تلك الآيات التى فى هذه السورة هى آيات من القرآن الموضح لكل ما فيه سعادة الخلق حال كونه بالغا نهاية الهداية التى تزيد المؤمنين إيمانا، وهو عظيم التبشير للمؤمنين برحمة من الله ورضوانه.

ثم وصف هؤلاء المؤمنين حقا بأنهم هم الذين يؤدون الصلاة على أتم وجوهها، ويؤتون الزكاة، ويوقنون بالآخرة، فيخافون أهوالها ولا يفسدون فى الأرض.

أما الذين ينكرون البعث فإنا قضينا بمجازاتهم على كفرهم بتزيين الشيطان لهم كل قبيح ليزدادوا إثما فيزدادوا عذابا، فهم طول حياتهم يتخبطون على غير هدى.

وهؤلاء هم الذين لهم فى الدنيا العذاب المسىء من الأسر والقتل، وهم فى الآخرة أشد خسرانا مما خسروه فى الدنيا، انظر الآية (٣٤) من سورة الرعد صفحة ٣٢٧، والآية (١٢٧) من سورة طه صفحة ٤١٨ . وإنك أيها النبى لتتلقى هذا القرآن قطعا من عند حكيم فى تدبير خلقه، عليم بما يصلحهم.

وبعد ذلك أراد سبحانه أن يقص على نبيه والمؤمنين ما يطمئنهم ويثبت قلوبهم كما فى الآية (١٢٠) من سورة هود صفحتى ٣٠١، ٣٠٢، ويحذر الكافرين المعاندين من مصير أمثالهم، فذكر له بعض قصص إخوانه الأنبياء مبتدئًا بموسى كليمه. ولم يعن القرآن بسرد حياة نبى من الأنبياء من يوم ولادته إلى موته مثلما عنى بنبى الله موسى عليه السلام، انظر صفحتى ٤٠٨، ٥٠٧.

ولم يذكر قصة مرارا مثل ما ذكر قصته مع فرعون أكبر الطغاة الجبارين الذى لم يرض بأن يكون سلطانا ولا ملكًا مطلقًا بل أصر على أنه هو الرب الأعلى، انظر صفحة ٧٩٠.

ولما كان ما حصل لموسى مع فوعون وملئه ومع قومه من بنى إسرائيل الذى قاسى الشدائد لإنقاذهم فأذاقوه أشد المتاعب ولم يريحوه يوما حتى فارق الدنيا، انظر صفحات ١٠ إلى ١٤، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٩، ٢٧٩، لما كان كل هذا مليئًا بالعبر من جهات شتى، وكان فيه أكبر تسلية لكل مَنْ أصيب بمحاربة المفسدين وفيه أعظم درس لمَنْ تحدثه نفسه بالتعالى على خلق الله، ذكرها سبحانه مرارا بأساليب مختلفة دائرة بين الإجمال والتفصيل لأغراض شتى، يذكر فى كل مقام ما يناسبه لتتجدد العبرة عند كل مناسبة.

ولما كان القرآن ليس كتاب تاريخ يسرد الحوادث سردا جافا، بل هو كتاب إرشاد وهداية يتفنن فى إيقاظ العقول إلى طريق النجاة، فلا تعجب حينئذ إذا رأيت ما صورته صورة تكرار لهذه القصة فى مواضع عدة أبرزها ما هنا وما فى صفحات ٢٠٩ إلى ٢٢١، وفى أول سورة طه صفحة ٤٠٦، وفى أول سورة القصص صفحة ٥٠٦، وفى صفحات ٦٢٠ إلى ٦٢٥.

فسبحان العليم الحكيم ـ قال سبحانه ﴿إذ قال موسى﴾ أى اذكر أيها النبى لقومك ما حصل حين قال موسى لأهله عند رجوعهم إلى مصر من مدين، وكان الجو باردًا والليل مظلمًا، خفى عليه.. الطريق:

إنى رأيت نارا سآتيكم منها بخبر عن الطريق، أو آتيكم بشهاب مقتبس أى مأخوذ منها لعلكم تصطلون. والمراد آتى بهما أو بأحدهما على الأقل، انظر شرح هذه الألفاظ بأوسع مما هنا فى صفحة ٤٠٦.

تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ[1] ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ[2] ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ[3] إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا[4] تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ[5] لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ[6] إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ[7] ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا[8] مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ[9] ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا[10] دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ[11] عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ

المفردات: ﴿تصطلون﴾: تستدفئون بالنار من البرد.

﴿نودى﴾: المراد بالنداء هنا توجيه الخطاب مطلقا، سواء أكان معه حرف نداء أم لا، وقد جاء ذلك كثيرًا فى القرآن، انظر بعضه فى آيات (٢٢) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٤، ١٩٥، و(٤٤، ٤٦) من نفس السورة صفحة ١٩٩، و(٢٤) من سورة مريم صفحة ٣٩٨، ٨٧ من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٩، و(٩) من سورة الجمعة صفحة ٧٤٢، بل قد يكون توجيه ما ليس كلاما كنفخ إسرافيل انظر الآية (٤١) من سورة ق صفحة ٦٩١.

﴿أن بورك﴾: ﴿أن﴾ حرف تفسير يفيد أن ما بعده مفسر لما قبله، أى خوطب بهذه الألفاظ.

﴿مَنْ فى النار﴾: المراد مَنْ فى مكان النار أى بجوارها وهو موسى عليه السلام.

(١) سبحان.
(٢) العالمين.
(٣) يا موسى.
(٤) رآها.
(٥) يا موسى.
(٦) آيات.
(٧) فاسقين
(٨) آياتنا
(٩) عاقبة
(١٠) آتينا.
(١١) سليمان.

﴿ومَنْ حولها﴾: أى ومَنْ هو موجود حول مكانها، وهم الملائكة الذين حضروا هذه اللحظة المباركة وفى آية أخرى ما يفيد أن البركة عمت البقعة أيضًا، انظر الآية (٣٠) من سورة القصص صفحة ٥١١ . ﴿جان﴾: حية سريعة الحركة، انظر ما قيل فى صفحة ٢٠٩ .

﴿ولى مدبرا﴾: أى انصرف مسرعًا جاعلاً ظهره إلى المكان الذى كان واقفا فيه. ﴿لم يعقب﴾: لم يلتفت إلى عقبه، والمراد لم يرجع.

﴿جيبك﴾: هو فتحة الثوب العليا التى يدخل منها الرأس.

﴿فى تسع آيات﴾: براهين، انظرها فى صفحة ٣٧٨ .

﴿مبصرة﴾: أى سببا فى قوة البصيرة والتأمل والمراد واضحة.

﴿جحدوا بها﴾: أى أنكروها كافرين بها.

﴿استيقنتها﴾: أى تيقنتها على أتم وجه.

﴿علوا﴾: أى ترفعا وتكبرا، انظر الآية (١٩) من سورة الدخان صفحة ٦٥٧ .

المعنى: آتيكم بقطعة من النار لعلكم تستدفئون من البرد، فلما جاء موسى إلى مكان النار وجه سبحانه إليه الخطاب بقوله: بارك الله فيك يا موسى وأنت بجوار مكان هذه النار، وبارك فيمَن هو موجود حول مكانها، ووسع بعض علماء السلف حتى جعله يعم الأرض التى بارك الله تعالى فيها بكثرة الخيرات ومهبط النبوات انظر الآية (١٣٧) من سورة الأعراف صفحة ٢١٣ .

ولاشك أن هذه تحية من الله سبحانه وتعالى لموسى أو بشرى بأنه سيكون من عباده المصطفين الأخيار.

ولما كان قد يسبق إلى الوهم أن الله عز وجل يحويه مكان كالخلق، نبه سبحانه نبيه موسى إلى تنزيهه عن ذلك فقال ﴿سبحان الله﴾ إلخ، أى وقل يا موسى أنزه ربى تنزيها كاملا عن كل ما يشبه الحوادث، لأنه هو رب العالمين، أى خالقهم، ولا يمكن التسوية بين الخالق والمخلوق.

وأكد ذلك بقوله: يا موسى إنى أنا الله العزيز القادر على كل شىء، فلا يعجزنى ما سأظهره من المعجزات، الحكيم فى كل ما أفعل.

ثم شرع سبحانه فى تسليح نبيه بالمعجزة فقال: وألق عصاك، أى ارمها على الأرض، فألقاها موسى فإذا هى ثعبان، فلما رآها تهتز بسرعة كأنها جان ولى معطيها ظهره خوفا من أن تناله بسوء ولم يرجع إليها، فقال سبحانه: يا موسى لا تخف لأنى لا يخاف فى حضرتى رسلى..

ولما جعل سبحانه نفى الخوف مقترنا بصفة الرسالة، وهذا ربما يجعل موسى يخاف مما حصل منه قبل الرسالة مما هو مبين فى صفحة ٥٠٨، دفع سبحانه ذلك بقوله ﴿إلا مَنْ ظلم ثم بدل حسنا﴾ إلخ: أى لكن مَنْ ظلم نفسه بما يستاء منه، ثم جعل مكان هذا السوء أعمالاً حسنة، فإنى أغفر له لأنى كثير المغفرة واسع الرحمة.

ثم أمره بأخذ العصا فأخذها فإذا هى كما كانت كما فى صفحة ٤٠٧ ثم بعد ذلك أرشده إلى المعجزة الثانية فقال: ﴿وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾ كما تقدم فى صفحة ٤٠٧، وهاتان الآيتان فى جملة تسع آيات سنظهرها لك فى وقتها مرسلا بها إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين. فلما جاءت فرعون وقومه آياتنا حال كونها حجة واضحة على صدق رسولنا قالوا هذا سحر ظاهر، وأنكروا هذه المعجزات بألسنتهم والحال أن أنفسهم تيقنت أنها ليست سحرًا حال كونهم ظالمين لتلك الآيات حيث أهملوها وأنزلوها إلى مرتبة السحر ونظير ذلك ما فى الآية (٩) من سورة الأعراف صفحة ١٩٣، وحال كونهم مترفعين مستكبرين عن الإيمان بها، انظر الآية (٤٠) من نفس السورة صفحة ١٩٨، فانظر أيها العاقل على أى صفة كانت عاقبة المفسدين الذين هم فرعون وقومه.، وكانت فى الدنيا الإغراق فى البحر، وفى الآخرة الإحراق بالنار.

ثم شرع سبحانه فى قصة سليمان فقال: ولقد آتينا داود وسليمان طائفة من علم الحكم والدين، فقابلا هذه النعمة بالشكر بقولهما: الحمد لله الذى فضلنا بالنبوة والملك على كثير من عباده.

المفردات: ﴿منطق﴾: أصل المنطق والنطق هو التكلم، والمراد: ما تبين به أغراضها بلغة خصّ الله تعالى بمعرفتها نبيه سليمان عليه السلام ويؤيد ذلك كلام الهدهد الآتى فى الآيات (٢٢ إلى ٢٦) هنا وفى الصفحة التالية، ولا غرابة فى ذلك فالمقام مقام خوارق خص الله بها نبيا من أنبيائه، وهو سبحانه قادر لا يعجزه شيء، بل ما هنا أسهل من إنطاق الجوارح يوم القيامة، انظر آيتى (٢٠، ٢١) من سورة فصلت صفحة ٦٣٢ .

مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ[1] دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ[2] جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ[3] لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ[4] وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ[5] وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا[6] تَرْضَاهُ[7] وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ[8] ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ[9] أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ[10] مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ

﴿حشر﴾: أى جمع. ﴿يوزعون﴾: أصل الوزع المنع والكف، والمراد يحبس أولهم حتى يلحق به المتخلف منهم.

﴿وادى النمل﴾: هو مكان يكثر فيه النمل ولا يعنينا تحديده، بل الذى يهمنا هو موضع العبرة فيه.

﴿قالت نملة﴾: المراد أرشدت زميلاتها بالطريقة التى أودعها الله تعالى فيها، انظر ما تقدم هنا فى الآية (١٦) .

---

(١) سليمان
(٢) لسليمان
(٣) مساكنكم
(٤) سليمان،
(٥) والدى
(٦) صالحا
(٧) ترضاه
(٨) الصالحين
(٩) لأذبحنه
(١٠) بسلطان

﴿لا يحطمنكم﴾: الحطم الكسر، والمراد يهلكنكم بالدوس. ظاهر النهى أنه موجه لسليمان وهو فى الحقيقة موجه للنمل، فالمراد لا تعرضن أنفسكن للهلاك، من قبيل قولهم لا يرض عنك الشيطان فتغضب ربك، أى لا تفعل المعاصى التى ترضى الشيطان وتغضب الرب.

﴿فتبسم ضاحكا من قولها﴾: لما كان التبسم قد يكون عن غير رضا كما يقولون تَبسَّم تَبسُّم الغضبان، وتبسم المستهزئ لما كان ذلك قال ﴿ضاحكًا﴾ ليفيد أنه تَبسم سرورًا.

﴿أوزعنى أن أشكر﴾: أى احبسنى على أن أشكر نعمتك لا أتعداه إلى كفرانها بحيث أكون ملازما لشكرها.

﴿تفقد﴾: أصل التفقد البحث عما عساه أن يكون قد غاب أو فقد.

﴿أم كان﴾: ﴿أم﴾ حرف يدل على الانصراف عما قبله والانتقال لما بعده، ويعبر عن معناها ببل.

﴿بسلطان مبين﴾: بحجة واضحة.

﴿فمكث﴾: أى بقى غائبًا. ﴿غير بعيد﴾: أى زمنا غير طويل..

المعنى: . وورث سليمان داود، أى قام مقامه فى النبوة والملك، وقال متحدثا بنعمة ربه: يأيها الناس إن ربى سهل لى فهم ما يريده الطير إذا صوت، وكذا غيره من الحيوان كما سيأتى فى حديث النملة. وإنما خص الطير بالذكر لأنه كان من جنده الذى يحتاج إليه فى الأسفار. وإنما قال علمنا بدل علمت لأنه كان ملكا ونبيا، فخاطب رعيته على عادة الملوك مراعاة لقواعد السياسة من التمهيد لما يراد من رعيته من طاعة وحسن انقياد لما فيه مصلحته، فلم يكن من قبيل التعاظم والتكبر كما فى ملوك الدنيا.

ثم قال: إن الله سبحانه وتعالى آتانا من كل شيء ما يساعدنا على القيام بما يرضيه من عمارة الأرض، وإقامة العدل، وتسخير الجن والريح والطير، وغير ذلك، انظر الآية (٣٥) وما بعدها من سورة ص صفحة ٦٠١، وإن هذا لهو الفضل الظاهر.

ولما أراد سليمان السفر من الشام إلى مكان آخر لا يهمنا أمره لأنه لو كان فى بيانه فائدة لذكره الله عز وجل، أمر منْ يجمع له من أنحاء مملكته جنوده من الإنس والجن والطير، ولما ساروا كان يكف عن السير أولهم حتى يلحق بهم آخرهم لكثرتهم، حتى إذا دخلوا واديا كثير النمل حذرت نملة زميلاتها من الخطر إذا لم يسرعوا إلى دخول منازلهم فى باطن الأرض، وكان ذلك بإلهام من الله، كما ألهم النحل جمع القوت من الشجر وغيره، انظر الآية (٦٨) من سورة النحل صفحة ٣٥٤، فإنكم إن لم تدخلوا أهلككم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون، تريد بهذا أنهم لو شعروا بوجود النمل لتحاشوا تحطيمه، وبهذا تكون عارفة شئون سليمان وسائر الأنبياء عليهم السلام من نفورهم من الظلم والإيذاء، ولهذا كان سرور سليمان من معرفتها أن العدل والرأفة من شيم المؤمنين وأن الله عز وجل أنعم عليه بأن يكون من هؤلاء الرحماء، لذلك سارع بالتوجه إلى ربه شاكرا لأنعمه، ونظير ذلك ما قاله الله سبحانه وتعالى فى جيش سيدنا محمد ﷺ فى الآية (٢٥) من سورة الفتح صفحة ٦٨٢ حيث قال ﴿فتصيبكم منهم معرة بغير علم﴾ إلخ. فتَبسّمَ تَبَسمُّ المسرور من قولها متعجبًا من حسن تدبيرها لإنقاذ أخواتها مما فيه إرشاد لكل عاقل حتى يكون الواحد خيرا للمجموع.

وهنا تنبه سليمان لنعمة الله تعالى عليه فى إطلاعه على هذه الأسرار وتوفيقه لأن يكون رحيما بالضعفاء فقال: يارب اجعلنى لا أشغل نفسى إلا بشكر نعمتك التى أنعمت بها علىّ وعلى والدى من قبل، انظر الآية (١٨ وما بعدها) من سورة ص صفحة ٥٩٩ وإلا بعمل الصالح الذى ترضاه، وأدخلنى برحمتك فى عداد الصالحين.

وفى أثناء الطريق تفقد الجند فلم ير الهدهد، فقال: ما الذى منعنى من رؤية الهدهد؟ أى هل هو حاضر ولم أره؟ ثم قطع بأنه غائب فتوعده بقوله: والله لأعذبنه عذابا شديدًا كنتف ريشه وحبسه فى مكان ضيق أو لأذبحنه إلا إذا جاءنى ببرهان واضح على عذره فى الغياب، فمكث الهدهد غائبًا مدة غير طويلة، ثم حضر فقال:

أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ[1] بِنَبَإٍ[2] يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ[3] أَعْمَٰلَهُمْ[4] فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ۩ * قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ[5] ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى[6] هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟[7] إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ[8] كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ[9] وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾

المفردات: ﴿أحطت بما لم تحط به﴾: الإحاطة بالشىء علما هى علمه من جميع جهاته، انظر الآية (٩١) من سورة الكهف صفحة ٣٩٣، أى علمت علما تاما بأشياء لم تعلمها، ولا مانع من أن يعلم التابع ما لم يعلمه متبوعه، انظر العبد الصالح مع موسى عليه السلام فى صفحة ٣٩٠ . ﴿سبأ﴾: أصل هذا الاسم اسم جد قبيلة، ثم أطلق على القبيلة نفسها وعلى مساكنها أيضًا. ﴿نبأ﴾: خبر مهم. ﴿امرأة﴾: هى بلقيس.

﴿تملكهم﴾: أى ملكة عليهم. ﴿عرش﴾: سرير الملك. ﴿ألا يسجدوا﴾: ﴿ألا﴾ كلمة مركبة من ﴿أن﴾ الناصبة، و﴿لا﴾ النافية.

والأصل ﴿لئلا﴾ والمعنى: زين لهم الشيطان أعمالهم لأجل ألا يسجدوا... إلخ. أى ليبتعدوا عن السجود والخضوع لله تعالى، فهى وما بعدها حتى ﴿رب العرش العظيم﴾ من كلام الهدهد. ﴿الخبء﴾: كل مخبوء فى السماء كالمطر، وفى الأرض كالكنوز والنبات وغيرها. ﴿رب العرش﴾: انظر الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١، ويطلب من القارئ والسامع أن يسجد عند الفراغ من تلاوة كلمة ﴿العظيم﴾. هنا سجدة. ﴿يرجعون﴾: المراد: ما الذى يرجع بعضهم إلى بعض فيه من القول عند التشاور. ﴿الملأ﴾: زعماء القوم، انظر الآية (١٠٩) من سورة الأعراف صفحة ٢١٠ . ﴿كريم﴾: محترم لأنه كان مختومًا بختم صاحبه. ﴿الرحمن﴾: هو الذى وسعت رحمته وإحسانه كل شىء فى هذه الحياة الدنيا، من مؤمن وكافر.

(١) سبأ. (٢) بنبأ. (٣) الشيطان. (٤) أعمالهم. (٥) الكاذبين.
(٦) بكتابى. (٧) الملأ. (٨) كتاب. (٩) سليمان

وكل ذى روح من دابة تدب على وجه الأرض، أو طائر يطير بجناحيه، أو غير ذلك، روى البخارى فى كتاب الأدب أن النبى ﷺ قال: «جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا، وأنزل فى الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه». ﴿الرحيم﴾: هو الذى يتفضل على المؤمنين برحمة خاصة، انظر شرح الآية (١٥٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٧، فمنها أنه يوفقهم لما يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ليفوزوا بالسعادة الخالدة، انظر الآية (٤٣) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٦، ومنها التفضل على بعض عباده باختيارهم رسلاً له إلى عباده، انظر شرح آيتى (٧٣، ٧٤) من سورة آل عمران صفحة ٧٤ . ﴿ألا تعلوا﴾: ﴿ألا﴾ كلمة مركبة من ﴿أن﴾ حرف تفسير، و﴿لا﴾ الناهية والمعنى: أن مضمون خطاب سليمان: لا تتعالوا وتتكبروا، انظر الآية (١٩) من سورة الدخان صفحة ٦٥٧ . ﴿مسلمين﴾: منقادين خاضعين.

المعنى: فحضر الهدهد بعد قليل وقال إنى علمت ما لم تعلم يا نبى الله، ثم شرع يبين ذلك فقال: وجئتك من سبأ بخبر مهم محقق، ثم شرحه بقوله: إنى وجدت امرأة ملكة عليهم، وأعطيت من كل شىء يحتاج إليه الملوك، ولها عرش عظيم تجلس عليه عند النظر فى شئونها؛ وجدتها وقومها فى ضلال حيث عبدوا الشمس دون توحيد الله بالعبادة كما عبد مشركو العرب الأصنام ، وسبب ذلك، أن الشيطان زين لهم من الكفر والمعاصى فمنعهم عن طريق الحق فصاروا لا يهتدون إليه أبدا، وإنما منعهم الشيطان عن ذلك لئلا يسجدوا أى ليبتعدوا عن السجود والخضوع لله الذى يستحق ذلك وحده، لأنه هو وحده الذى يخرج للإنسان وغيره الخير من السماء والأرض الذى لا يعنيه غيره، ويعلم ما تخفون أيها العباد وما تعلنون، وهو الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم بالنسبة إلى كل مخلوق فى السموات والأرض. قال سليمان: سننظر هل أنت صادق فيما تقول أم كنت من المعتادين على الكذب؟ ثم كتب سليمان إلى بلقيس وقومها كتابا، وقال للهدهد اذهب بكتابى هذا فألقه ثم تنح قريبا منهم واستمع مراجعة الملكة وقومها، فقام بما كلف به، فلما قرأته بلقيس جمعت رؤساء الجند وكبار قومها وقالت: يأيها الملأ إنى ألقى إلىّ كتاب، فسألوها ممَّن هذا الكتاب وما مضمونه؟ فقالت إنه من سليمان، وإنه مفتتح باسم الله الرحمن الرحيم، ومضمونه لا تعلوا علىَّ وأتونى مسلمين خاضعين.

قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾

المفردات: ﴿تشهدون﴾: أى تحضرون، والمراد بمشهد منكم.

﴿أولو قوة﴾: أى أصحاب قوة فى الأجسام والعدد وآلات الحروب.

﴿بأس﴾: شجاعة وصلابة فى الحرب.

﴿فناظرة﴾: منتظرة .

﴿أتمدونن بمال﴾: الهمزة للاستفهام التوبيخى، أى هل يصح أن تعطونى مالا؟

﴿بل﴾ حرف يدل على الانتقال من موضوع إلى موضوع، وهنا انتقل من الكلام على الإمداد بالمال إلى الحديث عما حملهم على ذلك.

﴿ارجع إليهم﴾: هذا خطاب لرئيس الوفد.

﴿لا قبل لهم بها﴾: أصل القبل القدرة على المقابلة والمجازاة بالمثل، والمراد هنا الطاقة والقدرة.

﴿أذلة﴾: بعد ذهاب الملك. ﴿صاغرون﴾: أسرى مسترقون. ﴿مسلمين﴾: خاضعين.

﴿عفريت﴾: هو من الجن المارد القوى، والعرب تقول للرجل الشديد إذا كان فيه خبث ودهاء: فلان عفريت، وقد سخر سبحانه الجن لنبيه سليمان فقط ولم يسخره لأحد بعده، انظر الآية (١٢) وما بعدها من سورة سبأ صفحة ٥٦٤، والآية (٣٥) وما بعدها من سورة ص صفحة ٦٠١ .

---

(١) الملأ. (٢) سليمان. (٣) آتانى. (٤) آتاكم.
(٥) صاغرون. (٦) الملأ. (٧) آتيك.

﴿مقامك﴾: مجلسك للحكم بين الرعية، وكان يجلس من الضحوة إلى نصف النهار.

المعنى: بعدما فرغت بلقيس من بيان ما فى الكتاب قالت: يأيها الملأ أفتونى فى الأمر فإنى لا أبت فى أمر إلا بحضوركم.

قالوا نحن أصحاب عدد كثير ومعدات عظيمة وأصحاب شجاعة والأمر موكول إليك فانظرى ما تأمرين به من القتال أو الصلح فإنا لا نخالف لك أمرًا. قالت: إن الملوك إذا دخلوا قرية قهرًا أفسدوها بتخريب عمارها وإتلاف أموالها، وصيروا أهلها أذلاء بالأسر والتشريد، وكذلك سيفعلون معنا لأن هذا هو دأبهم دائمًا وإنى سأرسل إلى سليمان وقومه هدية من نفائس الأموال وانتظر ما الحال الذى سيرجع به مَنْ نرسلهم بها، فإن قبلها كان ملكا ويجب أن نحاربه لأن شره لا يندفع إلا بذلك، وإن لم يقبلها كان نبيًا، والنبى مصلح لا يخشى منه، فخير لنا أن نطيعه لأنه لا يرضى منا إلا ذلك، فلما جاء الوفد بالهدية إلى سليمان قال موبخًا لهم: لست محتاجًا لما لكم، لأن ما أعطانى الله من النبوة والملك الواسع وتسخير الجن والطير كل هذا خير مما عندكم.

ثم انتقل من إنكار إمدادهم له بالمال إلى بيان ما حملهم على ذلك من قياس حاله عليه السلام على حالهم من حب الدنيا وحصرهم فيها، فالمعنى بل أنتم الذين تفرحون بما يهدى إليكم لتفانيكم فى حب الدنيا. ثم وجه الخطاب لرئيس الوفد فقال: أرجع بالهدية إلى بلقيس وقومها فوالله لنأتينهم بجنود لا طاقة لهم بمقاتلتها، ولنخرجنهم من سبأ أذلة وهم محتقرون. ولما رجع الوفد بالهدية وعلمت بلقيس أنه ليس ملكا قررت التوجه إليه مع أشراف قومها. ولما علم سليمان بذلك أراد أن يريها بعض ما خصه الله تعالى به من العجائب الدالة على صدق دعوته وليختبر عقلها فقال: يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يصلوا إلىَّ خاضعين؟ قال مارد من الجن: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مجلسك وإنى لقوى على حمله أمين، لا أضيع منه شيئًا.

وقد اتفق العلماء على أن الجن بصورته الحقيقية لا يراه إلا الله، فالذى كان يكلم سليمان كان فى صورة إنسان.

قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ[1] أَنَا۠ ءَاتِيكَ[2] بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ[3] مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ[4] أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ[5] ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ[6] لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ[7] ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ

المفردات: ﴿الذى عنده علم من الكتاب﴾: اختار الإمام الرازى إنه سليمان نفسه، وعبّر عنه بذلك لبيان منشأ تفوقه فى القدرة على غيره. ﴿الكتاب﴾ هو اللوح المحفوظ المشتمل على ما فى الكون من أسرار يسخر الله بها الملائكة لعمل العجائب كما حصل لقوم لوط، انظر صفحة ٣٤٣. ﴿طرفك﴾: يطلق الطرف على تحريك جفن العين، والمراد هنا الجفن نفسه، قاله الراغب. ﴿ليبلونى﴾: أصل البلاء والابتلاء هو الاختبار، والمراد ليعاملنى معاملة المختبر. ﴿نكروا لها عرشها﴾ أى غيروا أوضاع بعض أجزائه حتى يكون منكرا عندها أى غريبا غير معروف. ﴿الصرح﴾ هو كل بناء مرتفع سواء أكان قصرًا كما هنا أم غيره كما فى قوله تعالى عن حديث فرعون ووزيره هامان ﴿فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى﴾ الآية (٣٨) من سورة القصص صفحة ٥١٢ . وكان لسليمان عليه السلام قصر جعل أرض أبهائه من الزجاج المموج الذى يحاكى تموجات المياه الصافية. ﴿فلما رأته﴾: المراد رأت بعض أجزاء الصرح وهى أرضه. وإطلاق الكل وإرادة الجزء من أجزائه كثير فى كلام العرب. يقول أحدهم رأيت محمدًا، وهو لم ير إلا وجهه فقط، ويقول أمسكت بعلىّ وهو لم يمسك إلا يده. ﴿حسبته﴾: ظننت ما رأته من الزجاج. ﴿لجة﴾: أى ماء كثير يعلوه موج. ﴿ممرد﴾: أى مملس مصقول بطرق خاصة تقول العرب هذه شجرة ممردة أى

(١) الكتاب. (٢) آتيك. (٣) رآه. (٤) أأشكر.
(٥) كافرين. (٦) سليمان. (٧) العالمين.

ليس عليها ورق، ومنه شاب أمرد أى لم ينبت فى وجهه لحية. ﴿قوارير﴾: جمع قارورة وهى القطعة من الزجاج.

المعنى: بعدما قال الجنى أنا آتيك بالعرش قبل أن تقوم من مجلسك، استبطأه سليمان الذى أطلعه الله على بعض أسرار الكون، فقال له: أنا آتيك به قبل أن تغمض عينك، وجاء به فعلا، فلما رآه ثابتا أمامه تذكر فضل الله تعالى عليه، فأسرع بالاعتراف به فقال: هذا من فضل ربى بلا حول منى ولا قوة، فعله سبحانه ليظهر للناس هل أنا عبد شكور أعرف قدر نعمه أم أكفر بها فأقصر فى شكره عليها، ومَنْ شكر ففائدة شكره تعود عليه بالسعادة والنعيم، ومَنْ كفر بترك الشكر فالله ليس فى حاجة إليه، لأنه سبحانه غنى عن شكره، كريم ينعم بدون مقابل. انظر الآية (٨) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٠ .

ثم أراد سليمان أن يختبر عقلها ودقة نظرها ويشعرها بقوته فقال: غيروا لها شكل عرشها مع بقاء أجزائه لننظر أتهتدى للصواب فتعرفه أم تكون من البلهاء. فلما وصلت أطلعوها على العرش وقالوا لها هل عرشك مثل هذا؟! أجابت بما دل على فطنتها فقالت: كأنه هو، ولم تقطع. ولما سمع سليمان إجابتها الدقيقة أدرك أنها بدأت تعلم قدرة إله سليمان ووحدانيته وصحة نبوة سليمان بسبب ما تكرر عليها من العجائب الخارجة عن طاقة البشر كرسالة الهدهد وإحضار عرشها بهذه السرعة من مسافات بعيدة.

عند ذلك بادر سليمان بشكر الله على نعمته عليه وعلى مَنْ آمن به بتوفيقه لهم إلى السبق بالصواب فقال: وأعطانا الله العلم النافع من قبل علمها، ولم نتحول عن الإسلام؛ أما هى فقد منعها عن الحق عبادتها للشمس مدة طويلة دون أن تفرد الله تعالى بالعبادة، وسبب وقوعها فى ذلك أنها كانت من قوم راسخين فى الكفر. ثم أراد سليمان أن يزيدها استعظامًا لأمره وتحقيقًا لنبوته وتثبيتًا لها على ما ظهر لها من الحق فقال: ادخلى هذا القصر، فلما رأت طريقه ظنته لجة ماء لصفاء غطائه من الزجاج، فكشفت ثوبها عن ساقيها خوف البلل. عند ذلك قال لها سليمان: إن هذا الذى ظننته ماء طريق صرح مصقول مأخوذ من الزجاج. عند ذلك تكاملت عندها البراهين على الصواب فقالت: يارب إنى ظلمت نفسى بعبادة غيرك، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين. وبعدما بيّن سبحانه أن مَنْ آمن برسوله سليمان نجا، شرع فى قصة نبى آخر وما حصل لقومه من هلاك عندما كفروا به فقال سبحانه: ﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا﴾ إلى آخر ما تقدم فى صفحة ٤٨٨ .

صَـٰلِحًا[1] أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ[2] لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ[3] عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ[4] ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ[5] مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ[6] وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً[7] لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[8] وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ[9] وَأَنتُمْ

المفردات: ﴿أن اعبدوا الله﴾: المراد أرسلناه برسالة هى الأمر بعبادة الله. ﴿فإذا هم فريقان﴾: مؤمنون وكافرون، انظر الآية (٧٥) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٤، ٢٠٥ ﴿يختصمون﴾: جمع ضمير الفريقين باعتبار تعدد أفراد كل فريق.

﴿لولا﴾: المراد بهذا الحرف هنا هو طلب حصول الفعل المذكور بعده، انظر معانيه فى الآية (٤٣) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨ . ﴿اطيرنا بك﴾ أى تشاءمنا بك، انظر الآية (١٣١) من سورة الأعراف صفحة ٢١٢ .

﴿طائركم عند الله﴾: أى شؤمكم يأتيكم من عند الله على عملكم السيىء، انظر الآية السابقة. ﴿بل﴾: حرف اضراب أى انتقال من كلام إلى آخر.

﴿تفتنون﴾: تمتحنون بتعاقب الشر والخير عليكم. ﴿المدينة﴾: هى الحجر بكسر فسكون، انظر الآية (٨٠) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣ . ﴿تسعة رهط﴾: الرهط اسم جمع لا مفرد له من لفظه، وهو من الثلاثة إلى العشرة ، فكأنه قال: تسعة رجال هم الرهط، وكانوا من أبناء زعمائهم ﴿تقاسموا بالله﴾: أى أمر بعضهم بعضا بأن يقسموا بالله ﴿لنبيتنه﴾: لنقتلنه بياتا أى ليلا، انظر بياتا فى صفحات ١٩٢، ٢٠٨، ٢٧٤ . ﴿ما شهدنا﴾: أى ما حضرنا. ﴿مهلك﴾: مكان هلاك. ﴿ومكروا﴾ إلخ: دبروا فى الخفاء. ﴿أنا دمرناهم﴾: أى أهلكناهم. ﴿خاوية﴾: خربة ليس بها أحد. ﴿لآية﴾: لعبرة وعظة.

---

(١) صالحا. (٢) يا قوم. (٣) طائركم.
(٤) لصادقون. (٥) عاقبة. (٦) دمرناهم.
(٧) لآية. (٨) آمنوا. (٩) الفاحشة.

المعنى: . ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم فى النسب صالحا، ففاجأه انقسامهم إلى فريقين كافر ومؤمن، يتخاصم أفراد كل فريق مع أفراد الفريق الآخر فيقول كل: الحق معى، قال صالح: يا قوم لم تستعجلون بالعقوبة التى تسوءكم، فتقولون ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، انظر صفحة ٢٠٥ قبل التوبة الحسنة التى فيها نجاتكم، فهلا تستغفرون اللّٰه أى أرجوكم أن ترجعوا إلى ربكم لعلكم ترحمون برفع العذاب. قالوا تشاءمنا بك وبمن معك لأنه حصل لنا قحط وشدة فى زمنكم، قال: ما حلَّ بكم علمه عند الله. وهو أعلم بأسبابه التى فعلتموها.

ثم انتقل من بيان ما حلَّ بهم إلى بيان الحكمة فيه، فقال: بل أنتم قوم تفتنون بالخير هل تشكرون، وبالشر هل تصبرون، انظر الآية (٩٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٨، والآية (٣٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٤ . ثم أراد سبحانه أن يبين سبب تغلب الشر وأنه فساد الرؤساء كما فى الآية (١٢٣) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣، والآية (١٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦، والآية (٦٧) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٦٠، ٥٦١ فقال سبحانه: وكان فى المدينة تسعة رجال يفسدون فى الأرض وليس لهم إصلاح مطلقًا.

ثم بين بعض إفسادهم بقوله: ﴿قالوا﴾ إلخ: أى قال بعضهم لبعض تعالوا نقسم بالله لنقتلن صالحا ومَنْ آمن معه ليلا، ثم لنقولن لولى دمه والله ما حضرنا مكان هلاك أصحابه فكيف نشهد هلاكه هو، أى لا علم لنا بذلك، وإنا لصادقون فى قولنا. ودبروا هذا التدبير الخفى، ودبرنا نحن تدبيرا أحكم منه وهم لا يشعرون بما قدرناه لهم، انظر الآية (٢) من سورة الرعد صفحة ٣٢٨، فانظر أيها السامع وتأمل حالة عاقبة مكرهم، ثم بيَّنها بقوله: ﴿إنا دمرناهم﴾ إلخ: أى إنا أهلكناهم هؤلاء التسعة وقومهم الكافرين أجمعين، فهذه بيوتهم خربة بسبب ظلمهم لأنفسهم ونبيهم، إن فى هذا لعبرة وعظة لقوم يعلمون. أى فلو كان قومك أيها النبى عندهم علم صحيح لا تعظوا. وأنجينا الذين آمنوا بالله وبرسالة صالح، وكانوا يتقون الله فلم يفعلوا ما يغضبه. واذكر أيها النبى لقومك أيضًا قصة لوط حين قال لقومه هل يصح أن تفعلوا الفاحشة إلى آخر ما أشير فى صفحة ٤٨٩، ولا تغفل عما تقدم فى شرح الآية (٧) من هذه السورة صفحتى ٤٩٤، ٤٩٥ .

تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ

المفردات: ﴿تبصرون﴾: أى يشاهد بعضكم حال ارتكاب الفاحشة، وهذا منتهى الاستهتار بالفضائل الدال على فقدان الحياة. ﴿قريتكم﴾: هى سدوم ﴿يتطهرون﴾: أى يبتعدون عن القذارة. قالوا ذلك استهزاء كما تقدم فى صفحة ٢٠٥ . ﴿الغابرين﴾: الهالكين، انظر شرح الآية (٨٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٦ . ﴿أمطرنا عليهم﴾: المراد أنزلنا عليهم حجارة، انظر صفحتى ٢٠٦، ٣٤٣ . ﴿فساء﴾: أى فقبح. ﴿المنذرين﴾: الذين أنذرهم أى حذرهم رسولهم. ﴿اللّٰه خير﴾: بمد همزة الاستفهام، والأصل أألله، أى هل اللّٰه خير إلخ. ﴿أما يشركون﴾: أصل أمَّا ﴿أم ما﴾ أى أم الذى يشركونه مع اللّٰه.

﴿فأنبتنا﴾: لم يقل أنبت، وجاء بضمير المتكلم للإشارة إلى بديع الصنع فيما ذكر، انظر الآية (٩٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧٩، والآية (٥٣) من سورة طه صفحة ٤١٠ . ﴿حدائق﴾: جمع حديقة وأصلها البستان المحاط بسور، فهو مأخوذ من الإحداق وهو الإحاطة. ﴿يعدلون﴾: من العدول عن الشيء بمعنى تركه، فالمراد يبعدون عن الصواب. ﴿قرارا﴾: أى مكان استقرار لكل مَنْ عليها. ﴿خلالها﴾: جمع خلل بفتحتين وهو ما توسط شيئين. فالمراد وسطها.

﴿بين البحرين﴾: أى العذب والمالح. ﴿حاجزا﴾: تقدم فى الآية ٥٣ من سورة الفرقان صفحة ٤٧٦ .

(١) آل. (٢) فأنجيناه. (٣) قدرناها. (٤) الغابرين.
(٥) وسلام. (٦) آلله. (٧) أم ما. (٨) السموات
(٩) أإله (١٠) خلالها (١١) أنهارا (١٢) رواسى
(١٣) أإله.

المعنى: ـ إنه بلغ من فُجر قوم لوط أنهم يفعلون الفاحشة علنا ولا يستحى الواحد منهم أن يراه الآخر، انظر ذلك وبقية جرائمهم فى الآية (٢٩) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤، ثم بين سبحانه تلك الفاحشة مع تكرار الإنكار والتأكيد الدال على أنها بلغت من القبح حدًا لا يصدق أحد بلوغه فقال: أئنكم لتأتون الرجال لأجل مجرد الشهوة كالبهائم التى لا تقصد معها نسلا متجاوزين النساء المخلوقات لذلك.

ثم نقل سبحانه الكلام إلى بيان منشأ هذا الإجرام الفظيع فقال: بل أنتم قوم تجهلون العاقبة الوخيمة المعدة لكم وهى نار جهنم. فما كان جوابهم على هذا النصح الخالص إلا قولهم أخرجوا أصحاب لوط الذين اتبعوه، أى وهو من باب أولى من قريتكم، لأنهم زاهدون متقشفون. فماذا كانت النتيجة بعد ذلك؟ قال سبحانه: فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرنا كونها من الهالكين، وأنزلنا عليهم حجارة محماة بعد خسف القرية بهم كما فى الآية (٧٤) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣، فبئس هذا المطر لمَنْ أنذرهم نبيهم فلم يتنبهوا.

﴿قل الحمد لله﴾ إلخ: يلاحظ فى الإرشادات الإلهية أنها تنبه العباد لحمده تعالى على صدق وعده، وعلى قطع دابر المفسدين فى الأرض، وعلى إنجاء الصالحين انظر الآية (٤٥) من سورة الأنعام صفحة ١٦٩، والآية (٢٨) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٨، والآية (٣٤) من سورة فاطر صفحة ٥٧٦، والآية (٧٤) من سورة الزمر صفحتى ٦١٦، ٦١٧ . وقل أيها النبى أنت والمؤمنون: سلام على عباد الله الذين اصطفاهم وهم الرسل عليهم السلام كما فى الآية (١٨١) من سورة ص صفحة ٥٩٧، وبعد ما فرغ سبحانه من قصص الأنبياء وأممهم. وبخ المشركين من العرب بقوله: هل الله خير لهم لأنه هو الذى خلقهم ورزقهم أو ما يشركونه معه من الأصنام التى لا تضر ولا تنفع؟ هل مَنْ خلق السموات والأرض وأنزل من السماء مطرا فأنبت به حدائق ذات بهجة ليس فى إمكانكم أن تنبتوا شجرها؛ هذا الإله صاحب هذه القدرة خير لكم أم الجمادات التى تعبدونها؟ هل هناك إله مع الله يجعل شريكا له؟ كلا بل هؤلاء المشركون بعملهم هذا يبعدون عن الحق، بل هل مَنْ جعل الأرض قرارا، وجعل وسطها أنهارا لدوام الانتفاع بها إذا لم ينزل المطر، وجعل لها الجبال رواسى لئلا تهتز، انظر الآية (٣١) من سورة الأنبياء صفحة (٤٢٣)، وجعل بين البحرين حاجزا من الأرض فلا يختلطان؛ هذا الإله خير أم أصنامكم؟ ثم أكد توبيخهم بقوله: هل هناك إله مع الله حتى تشركوه به؟ كلا بل فعلوا ذلك لأن أكثرهم جهلة لايفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك، وقليل منهم يعلم ويعاند.

لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ

المفردات: ـ ﴿المضطر﴾: المراد به هنا الذى تلجئه الشدة إلى الضراعة إلى الله. ﴿خلفاء الأرض﴾: الأصل خلفاء فى الأرض، أى يخلف بعضكم بعضا قرنا بعد قرن. ﴿بين يدى رحمته﴾: أى أمام وقبيل، ورحمته المراد بها هنا المطر الذى ينقذهم من القحط والعطش. ﴿لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله﴾: أى لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض شيئًا من الغيب، لكن الله وحده هو الذى يعلم، انظر الآية (٥٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧١ .

﴿أيان﴾: متى. ﴿بل﴾: حرف يفيد الانتقال من بيان حال من أحوال الكفار إلى بيان حال آخر لهم أشد. ﴿ادارك﴾: أصله تدارك، والعرب لما أدغمت التاء فى الدال جاءت بالألف فى أوله ليمكن النطق به، يقال تداركت الأشياء، أى أدرك بعضها بعضا، أى تتابعت، والمراد تتابعت أسباب علمهم بأن القيامة لابد منها ولكنهم لم يلتفتوا إليها، انظر الآية (١١٥) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٦، والآية (٣٦) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠ . ﴿منها عمون﴾: عمون جمع عم بفتح أوله وكسر آخره منونا بوزن أب، والمراد به أعمى القلب، أى أنهم عمى، وعماهم ناشئ من كفرهم بها. ﴿إن هذا﴾: ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ﴿ما﴾. ﴿أساطير﴾: أى أكاذيب انظر شرح الآية (٢٥) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٥، ١٦٦ .

(١) أإلة	(٢) ظلمات.	(٣) الرياح.
(٤) أإله.	(٥) تعالى.	(٦) يبدأ.
(٧) أإله.	(٨) برهانكم	(٩) صادقين
(١٠) السموات	(١١) ادارك	(١٢) الآخرة
(١٣) إذا.	(١٤) ترابا	(١٥) آباؤنا
(١٦) إنا	(١٧) آباؤنا	(١٨) أساطير.

المعنى: وقل أيها النبى لكفار قومك هل مَنْ يجيب دعاء المضطر إذا لجأ إليه ويدفع عنه السوء ومَنْ يجعلكم خلفاء مَنْ سبقكم من الأمم فى الأرض، تنتفعون بخيراتها خير، أم آلهتكم الباطلة؟ ثم أكد جهلهم بقوله: ﴿أإله مع اللّه﴾ إلخ: أى هل هناك إله مع اللّه يفعل ذلك؟ كلا، ولكنكم قليلاً جدا ما تذكرون نعمة اللّه عليكم ولذا أشركتم به فى العبادة.

ثم زادهم توبيخا من ناحية أخرى فقال: ﴿أمَّن يهديكم﴾ إلخ: أى هل مَنْ يهديكم بالنجوم فى ظلمات البر والبحر كما فى الآية (٩٧) من سورة الأنعام صفحة ١٧٨، ومَنْ يرسل الرياح مبشرات لكم قبيل نزول المطر الذى هو رحمة منا لكم خير أم آلهتكم التى لا تقدر على شىء؟ فهل هناك إله مع اللّه فعل هذا؟ كلا، تنزه سبحانه عن شرككم.

وقل لهم أيها النبى: هل مَنْ ينشئ الخلق أول مرة ثم يعيده بعد الموت للحساب والجزاء خير أم آلهتكم؟ وإنما احتج عليهم بالإعادة مع أنهم ينكرونها لأن اعترافهم بأنه هو الذى أنشأهم يلزمه قطعا أنه يعيدهم لأنه إله حكيم لا يخلق الناس عبثا كما تقدم، وبدليل ما سيأتى فى الآية (٦٦) هنا، ولهذا ألزمهم بذلك فى الآية (٧٨) وما بعدها من سورة يس صفحة ٥٨٦، وقل لهم مَنْ يرزقكم بكل رزق سماوى من مطر وغيره مما لا يعلمه إلا العلماء المختصون، وبكل رزق أرضى خير أم آلهتكم؟ فاستدل عليهم.

أولاً بأنه هو الذى يبشرهم بالمطر.

وثانيا بأنه هو الذى ينزله فعلا كما ينزل غيره، هل هناك مع اللّه مَنْ يفعل ذلك؟ كلا، قل لهم أيها النبى هاتوا برهانكم على أن مع اللّه إلها غيره إن كنتم صادقين فيما تقولون.

ولما تعرض فيما سبق لإعادة الخلق عند قيام الساعة، وكان الكفار ينكرونها ويلحون فى طلب معرفة زمانها كما فى الآية (٧١) الآتية أمر سبحانه نبيه أن يقول لهم: لا يعلم الغيب الذى من ضمنه وقت قيام الساعة أحد من أهل السموات والأرض، ولكن الذى تفرد بعلم الغيب كله هو اللّه سبحانه، وما يشعر أحد فى أى زمان يبعث.

روى البخارى عن عائشة رضى اللّه تعالى عنها أنها قالت: مَنْ زعم أن محمَّدًا ﷺ يعلم ما فى غد فقد أعظم على اللّه الفرية، أى الكذب، ثم قرأت: ﴿قل لا يعلم مَنْ فى السموات والأرض الغيب إلا اللّه﴾ واللّه سبحانه يطلع رسله على ما يشاء من الغيب كما فى آيتى (٢٦، ٢٧) من سورة الجن صفحتى ٧٧٢، ٧٧٣ .

وبعدما بيَّن سبحانه أن العباد لا يعلمون الغيب، وكان فى ذلك تقرير لعجزهم وقصور علمهم، انتقل من ذلك إلى بيان أن عند الكافرين عجزًا مزريا وهو جهلهم بما لا يصح أن يجهل بعد تكامل أسباب علمه عندهم وهو قيام الساعة فقال:

﴿بل ادارك﴾ أى تكامل لهم أسباب علمهم فى شأن الآخرة وأنها آتية قطعا، ومع ذلك أغفلوا هذه الأسباب.

ثم انتقل إلى ما هو أبشع من الإغفال وهو الحيرة فقال: بل هم فى شك من جميع أمور الآخرة لا فى وقتها فقط، تصدمهم الأدلة عليها فيهربون منها تارة بإنكارها تقليدا للآباء، وأخرى بتمنية نفوسهم بالخلاص من هولها إذا وقعت، انظر الآية (٣٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦، والآية (٥٠) من سورة فصلت صفحة ٦٣٧ .

ثم انتقل من الحيرة والشك إلى ما هو أفظع وهو عمى البصيرة الذى لا يهتدى صاحبه إلى حق مطلقا، فقال بل هم من أحوالها فى عمى شديد.

وبعدما بيَّن سبحانه جهلهم بالآخرة وعماهم عنها أتبع ذلك بما يقولونه فى إنكارها فقال: وقال الذين كفروا بالله وبكتابه فى أسلوب تهكمى: هل نخرج من القبور بعد أن صرنا ترابا نحن وآباؤنا؟ ثم كرروا التهكم فقالوا: هل إنا حقا مخرجون؟

ثم ذكروا منشأ زعمهم فقالوا: لقد وعدنا نحن على لسان محمَّد، ووعد آباؤنا بمثله من قبل على لسان غيره ممَّنْ يدعون أنهم أتباع رسل جاءوا قبل محمَّد عليه الصلاة والسلام، ولم يتحقق شىء من هذه الوعود، ما هذا الوعد إلا أسطوزة مما سطره الأولون من الأكاذيب فى كتبهم فلا حقيقة له.

﴿ٱلْأَوَّلِينَ ۝ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ[1] ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ[2] ۝ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ[3] فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ[4] مُّبِينٍ ۝ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ[5] يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ[6] أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝﴾

المفردات: ﴿ضيق﴾: بفتح أوله هو الضيق بكسر أوله، وهو انقباض الصدر ﴿عسى﴾: قال الزمخشرى: عسى ولعل وسوف فى وعود الملوك تفيد القطع بما بعدها، وإنما يقولونها إظهارا لوقارهم وإشعارا للسامع بأن الرمز منهم كالتصريح من غيرهم. ﴿ردف لكم﴾: أصل معنى ردف تبع وقرب، والمراد قرب لاحقا لكم ولابد، انظر الآية (٩) من سورة الأنفال صفحتى ٢٢٨،٢٢٧ ﴿من غائبة﴾: ﴿من﴾ لتأكيد العموم فيما بعدها، ﴿غائبة﴾ التاء فى غائبة كالتاء فى خافية فى الآية (١٨) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢، والتاء فيها للمبالغة فى معناها كالتاء فى الراوية وهو الرجل الذى يكثر من رواية الشعر، وكالعلامة أى كثير العلم.

المعنى: . بعدما بيَّن سبحانه غفلتهم عن الآخرة وعماهم عنها الذى جرأهم على كل منكر ظانين أنه لا حساب ولا عقاب بعد هذه الحياة، أراد سبحانه أن يهددهم على هذا التكذيب مع توافر الأدلة على بطلان ما يزعمون، ويخوفهم بأن ينزل بهم مثل ما ينزل بالمكذبين قبلهم فى الجملة لأنه ليس عذاب استئصال كما حصل للأمم السابقة لأنه سبحانه منعه عن أمة خاتم الرسل، انظر الآية (٣٣) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١، فقال: قل لهم أيها النبى سيروا فى الأرض فانظروا على أى حال كانت نهاية المجرمين أمثالكم الذين كذبوا رسلهم وأنكروا اليوم الآخر، ثم صبر سبحانه رسوله ووعده بالنصر فقال: ولا تحزن على عدم إيمانهم، ولا تكن فى ضيق صدر من مكرهم وكيدهم لك فإنى عاصمك منهم، انظر الآية (١٢٧) وما بعدها من

---

(١) عاقبة (٢) صادقين (٣) غائبة
(٤) كتاب (٥) القرآن (٦) إسرائيل.

سورة النحل صفحة ٣٦٣، والآية (٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠، والآية (٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٧٩ . ثم بيَّن سبحانه أن هؤلاء الكفار بلغ من تبجحهم أنهم يوجهون إليه ﷺ بطريق التهكم السؤال عن هذا العذاب الذى يتوعدهم به فقال: ويقولون متى يحصل هذا العذاب الموعود به إن كنت صادقا يا محمَّد أنت ومَنْ اتبعك؟ قل لهم عسى أن يحصل لكم قريبا بعض العذاب الذى تستعجلون وقوعه، وقد وقع يوم بدر هذا البعض، ثم تتابع الأسر والقتل حتى محا الكفر من البلاد نهائيًا، وما ينتظرهم فى الآخرة أدهى وأمر. ثم أكد سبحانه جهلهم فى هذا الاستعجال الذى سيحرمهم من التمتع بالحياة الدنيا إلى آخر أعمارهم فقال: ﴿وإن ربك لذو فضل على الناس﴾ بعدم تعجيل أهلاكهم على ذنوبهم ليفسح لهم مجال التوبة ولكن أكثرهم لا يعرفون حق هذه النعمة ولهذا لا يشكرونه عليها، انظر الآية (٦١) من سورة النحل صفحة ٣٥٣ . ولما طمأن سبحانه نبيه بعدم الخوف من كيدهم أكد ذلك بقوله ﴿وإن ربك ليعلم﴾ إلخ: أى يستوى فى علمه ما يخفونه من عداوتك وما يظهرون وسيجازيهم عليه، انظر آيتى (٩، ١٠) من سورة الرعد صفحة ٣٢٢ . ثم أكد إحاطة علمه سبحانه بكل شىء فقال ﴿وما من غائبة﴾ إلخ: أى وما من شىء مهما اشتد خفاؤه فى السموات والأرض إلا فى كتاب مفصل لكل ما فيه، انظر الآية (٥٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧١ . وبعدما أقام سبحانه الأدلة على وجوده ووحدته وعلى البعث واليوم الآخر، أراد أن يبين صحة رسالة نبيه محمَّد ﷺ وصدقه فيما جاء به فقال: إن هذا القرآن الذى يقرؤه محمَّد الأمى الذى لم يقرأ شيئًا من تفاصيل الأديان السابقة يقص على بنى إسرائيل حقيقة كثير مما اختلفوا فيه كالمسيح الذى قدسه النصارى واحتقره اليهود وكلهم من بنى إسرائيل، وكذا العزير الذى جعله بعض اليهود ابن الله وأنكر ذلك النصارى، ودعوى اليهود أن النار لن تمسهم إلا مدة قصيرة كما فى الآية (٨٠) من سورة البقرة صفحتى ١٦،١٥ وخالفهم النصارى إلى غير ذلك. وأن هذا القرآن لشديد الهداية وسبب رحمة للمؤمنين المنتفعين به، وأن ربك أيها النبى يقضى بين جميع المختلفين من المؤمنين والكافرين وبنى إسرائيل بعضهم مع بعض بعدله. وهو سبحانه العزيز أى الغالب الذى لا يعجزه شىء، العليم الذى لا يخطئ فى حكمه، فتوكل على الله إنك على الحق المبين، أى لا تبال بهم جميعًا.

إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ * وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ

المفردات: . ﴿الموتى﴾: المراد بهم الكفار شبهوا بالموتى لعدم انتفاعهم بالأدلة انظر تفصيل ذلك فى الآية (١٢٢) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣ .

﴿مدبرين﴾: معرضين وهو مبالغة فى الانصراف.

﴿إن تسمع﴾: ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى لا، ويوضحها ما فى الآية (٢٢) من سورة فاطر صفحة ٥٧٤ .

﴿وقع﴾: يطلق الوقوع على سقوط الشىء وعلى حصوله، والمراد هنا حصول مضمون القول أى قرب وقوعه، وهذا المعنى يعبر عنه القرآن تارة ﴿بسبق﴾ كما فى الآية (٤٠) من سورة هود صفحة ٢٩٠، وتارة ﴿بحق﴾ كما فى آيات (١٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦، و(٦٣) من سورة القصص صفحة ٥١٦، و(٢٥) من سورة فصلت صفحة ٦٢٣، قال الراغب واستعمال لفظ الوقوع هنا لتأكيد وجوب حصول ما بعده، وأكثر ما جاء فى القرآن لوقوع العذاب والشدائد، وقلما يستعمل فى غيره كما فى الآية (١٠٠) من سورة النساء صفحة ١١٩ .

﴿القول﴾: المراد به هنا الكلام الإلهى الدال على وعيده تعالى للكافرين بالعذاب، انظر الآية (٢٣) من سورة يونس صفحة ٢٧١، والآية (٣١) من سورة الصافات صفحة ٥٨٩، والآية (٧١) من سورة الزمر صفحة ٦١٦، والآية (١٤) من سورة ق صفحة ٦٨٩ .

(١) بهادى (٢) ضلالتهم.
(٣،٤) بآياتنا. (٥) جاءوا
(٦) بآياتى. (٧) الليل
(٨) لآيات (٩) السموات

﴿دابة﴾: ورد فى بعض الأحاديث أنها من علامات الساعة. وقد أكثر قصاص الآثار فى وصف هذه الدابة وبالغوا فى طولها وعرضها، واختلفوا فى زمان خروجها ومكانه، وتكلموا فى اللغة التى تكلم بها الناس ولغاتهم لا تحصر، واختلفوا هل هى حيوان غير إنسان أم إنسان حتى بلغ من سخف بعضهم أن يدعى أنها هى على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه؛ لكل هذا قال الألوسى: ﴿واختلف فيها اختلافات مضطربة يعارض بعضها بعضا﴾ فامتنعنا عن نقله حفظا للوقت من الضياع عبثا. والحق أن أمور الغيب لا يجب التصديق بها إلا إذا ثبتت بدليل قطعى الثبوت والدلالة. قال الراغب الأصفهانى: ﴿قيل الدابة هنا جمع داب بتشديد الباء وأصلها داببَه بباء مكسورة وأخرى مفتوحة وأدغمت إحداهما فى الأخرى فصارت دابَّه بوزن خائنة جمع خائن وكذا قافلة جمع قافل وهو الراجع من سفر، والمراد بالدابة هنا جمع من الأشرار الذين هم فى الجهل بمنزلة ﴿الدواب﴾ ويساعده ﴿أن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾ الآية (٢٢) من سورة الأنفال صفحتى ٢٢٩، ٢٣٠ والآية (١٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦، وما ورد فى الحديث الصحيح من قوله ﷺ (إذا كان أمراؤكم شراركم فبطن الأرض خير من ظهرها) وقوله ﴿من الأرض﴾ إشارة إلى أن هؤلاء الأشرار كالحشرات التى توجد بطريق التولد من التراب لا عن طريق التوالد والتناسل المعروف. وأن طبعهم سفلى ليس فيه من سمو العالم العلوى شىء. ومعنى تكليمهم الناس أنهم يأمرونهم فيطيعون، أى أنهم أصحاب الكلمة كما هو شأن كبار المجرمين مع غيرهم، انظر الآية (١٢٣) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣، والآية (٦٧) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٦٠، ٥٦١، وقوله: ﴿إن الناس كانوا﴾ إلخ: تعليل لاستحقاقهم العذاب، والأصل (لأن الناس إلخ) وورد عن ابن عباس قال: تكلمهم من الكلم بفتح فسكون وهو الجرح بفتح الجيم، فالتكليم التجريح الكثير، والمراد الإيلام للناس حسيا بما يصيبهم فى أجسامهم، ومعنويا بما يصيبهم فى أرزاقهم. ويصح على هذا أن يراد بالدابة كل الحشرات التى يبتلى بها الناس عند انتشار معاصيهم كالطاعون وغيره، ومثل ما حصل لقوم فرعون فى الآيات (١٣٣ إلى ١٣٥) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٢، ٢١٣ لقوله سبحانه ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ الآية (٣٠) من سورة الشورى صفحة ٦٤٣ . وإنما ألجأنا إلى مخالفة عادتنا فى الاختصار فى هذا الموضوع الرغبة فى تنبيه

القارئ إلى خطر الإسرائيليات التى أدخلها اليهود على المسلمين حتى كادت تشوه صفاء الإسلام وسماحته. ﴿بآياتنا﴾: هى الآيات المنزلة فى الكتب السماوية، ويصح أن تشمل أيضًا الآيات الكونية المتضمنة معنى أن الله تعالى موجود واحد قادر، وأن رسله صادقون، انظر الآية (١٠٥) من سورة يوسف صفحة ٣١٩، والآية (٥٣) من سورة فصلت صفحة ٦٣٧ . ﴿فوجا﴾: المراد بهم رءوس الكفر من كل أمة يقدمون على غيرهم فى العذاب، انظر الآية (٩٨) من سورة هود صفحة ٢٩٩، والآية (٦٩) من سورة مريم صفحة ٤٠٣ . ﴿يوزعون﴾: يجمع بعضهم إلى بعض ثم يساقون إلى المحشر.

﴿مبصرًا﴾: المراد يبصرون فيه، انظر الآية (١٢) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٥، ٣٦٦ . ﴿ويوم ينفخ فى الصور ففزع مَنْ فى السموات﴾ إلخ: معطوف على ﴿يوم نحشر﴾ المتقدم فى الآية (٨٣)، وكذا عطف عليه ﴿وترى الجبال﴾ الآتى بعد هذه، فاليوم واحد، انظر ما قلناه فى ﴿إذا﴾ المكررة فى أول سورة التكوير صفحة ٧٩٣، وحوادث هذا اليوم كثيرة، أولها النفخة الأولى التى بها يصعق الأحياء، انظر الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥، وآخرها سوق أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار، انظر صفحة ٦١٦، وفى وسطها النفخة المذكورة هنا. وإذا علمنا أن تسيير الجبال يكون قبل النفخة الثانية التى بعدها الفزع نعلم أنه سبحانه لم يرتب ذكر الحوادث فى ذلك اليوم حسب وقوعها لئلا يتوهم أنه إنذار بشىء واحد، مع أنه إنذار وتخويف بأهوال كثيرة، كل واحد منها يكفى للزجر. فالنفخة الثانية هى نفخة البعث، ويعقب هذا البعث الفزع والذعر الذى يعترى الخلائق إلا من شاء الله، انظر ما سبق فى الآية (١٠٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١، وإنما رتب الفزع على النفخ ﴿بالفاء﴾ فى قوله ﴿ففزع﴾ للإشارة إلى قلة الزمان الفاصل بينهما لسرعة مشاهدتهم تلك الأهوال، فعلى ذلك تكون نفخة البعث هى نفخة الفزع، إلا أن البعث يحصل بعدها مباشرة، والفزع يحصل بعدها عقب البعث.

المعنى: - بعدما بيَّن سبحانه البراهين الدالة على صدق رسوله ﷺ، أراد أن يبين أنه لا أمل فى إيمان كفار قومه فقال: إنك أيها النبى لا تقدر على إسماع الحق للموتى فكذا كفار قومك لأنهم كالموتى، وكذا لا تستطيع أن تسمع الصم نداءك لهم لإنقاذهم خصوصا إذا انصرفوا عنك معرضين، وكذا لا تستطيع أن تهدى العمى وتصرفهم عن ضلالهم إلى الطريق المستقيم

لأنهم لا يمكن أن يروه ماداموا فاقدين للقائد البصير حيث أعرضوا عنه، وما تسمع سماع قبول وانتفاع إلا كل مَنْ يؤمن بآيات ربه، فهم منقادون لأوامره.

وبعدما بيَّن سبحانه أدلة الحق واليأس من هداية المعاند، أراد أن يبين مقدمات العذاب الذى قدره على كل خارج وأهوال يوم القيامة فقال: ﴿وإذا وقع القول﴾: أى إذا قرب وقوع ما أخبر به سبحانه من إهلاك وتعذيب المجرمين أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم لأن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون واذكر لقومك أيها النبى ما سيحصل يوم نحشر من كل أمة زعماء الكفر فيها الذين لم يصدقوا بآياتنا فقلدهم غيرهم فكان عذابهم مضاعفًا، انظر آيتى (٦٧، ٦٨) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٦٠، ٦٥١، فهم يساقون إلى مكان الحساب والجزاء حتى إذا جاءوا فى موقف الحساب قال لهم سبحانه موبخا هل كذبتم بآياتى إلخ: أى هل أقدمتم على تكذيب آياتى والحال أنكم لم تعطوها حقها من البحث الموصل للعلم الصحيح، أى هل يصح أن تقابلوها بالتكذيب من أول وهلة قبل أن تتأملوها.

ثم أكد التبكيت بقوله: أم ماذا كنتم تعملون مع الآيات غير تكذيبكم بها؟ أى لا شىء غير ذلك. ثم بيَّن سبحانه ما سيحصل بعد ذلك فقال ﴿ووقع﴾ إلخ: أى وحصل لهم العذاب الموعود به بسبب ظلمهم وهو تكذيب الآيات فهم بعد ذلك لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون، انظر الآيات (٢٩ إلى ٣٦) من سورة المرسلات، وانظر مع ذلك الآية (٢٤) من سورة النور صفحة ٤٦٠ .

ثم شرع سبحانه فى بيان بعض ما لو تأملوه لما أنكروا فقال: ﴿ألم يروا﴾ إلخ: أى ألم يعلموا أنا بقدرتنا جعلنا الليل ليستريحوا فيه بالنوم، والنهار يبصرون فيه طرق معاشهم، انظر الآيات (٧١ إلى ٧٣) من سورة القصص صفحة ٥١٧ . ومَنْ قدر على النوم الذى هو الموتة الصغرى كما فى الآية (٤٢) من سورة الزمر صفحة ٦١٢، وعلى الإيقاظ وكان قادرا على أن يترك النائم إلى الأبد، مَنْ قدر على ذلك فهو سبحانه قادر على أن يميتكم ثم يحييكم. إن فى ذلك لآيات لقوم مستعدين للإيمان، فاذكر لهم أيها النبى ما سيحصل يوم ينفخ فى الصور النفخة الثانية فيبعث مَنْ فى القبور الأولى؛ ويشمل الخوف جميع مَنْ فى السموات ومَنْ فى الأرض.

إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ (١) ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ (٢) ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا (٣) ٱلْقُرْءَانَ (٤) فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ (٥) فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ (٦) عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

المـفـردات: ﴿إلا مَنْ شـاء اللَّه﴾: هم المذكورون فى الآيات (١٠١، ١٠٢، ١٠٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١ .

﴿داخرين﴾: خاضعين صاغرين.

﴿وترى الجبال تحسبها جامدة﴾: تقدم تفصيل ذلك فى الآية (٤٧) من سورة الكهف صفحة ٣٨٧ . ﴿صنع اللَّه﴾: مصدر منصوب بفعل مقدر مفهوم من السياق، أي صنع الله ذلك صنعا.

﴿مَنْ جاء بالحسنة﴾: تقدم بيان ذلك فى صفحة ١٩١ . ﴿من فزع يومئذ﴾: الفزع هنا غير المتقدم فهذا يكون بعد النفخة الثانية المبينة فى الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥ أما المتقدمة فى الصفحة السابقة فهى بعد النفخة الأولى. ﴿كبت وجوههم﴾: أى ألقيت بعنف والمراد جميع أجسامهم وإنما عبر بالوجه لأنه أشرفها.

﴿البلدة﴾: هى مكة. ﴿حرمها﴾: أىْ حرم إهانتها، انظر ما تقدم فى صفحة ١٥٦ .

المعنى: ونفخ فى الصور النفخة الأولى ففزع... إلخ، إلا مَنْ شاء اللَّه تعالى عدم فزعهم وهم كبار الملائكة، وبعد النفخة الثانية كل المكلفين يأتون المحشر خاضعين، وإذا رأيت الجبال فى هذا الوقت تظنها واقفة مكانها والحال أنها تمر مر السحاب إذا ضربته الريح، فمرورها فى الواقع سريع لكنه لضخامتها يظهر بطيئًا، ولا يقدر على ذلك غير اللَّه تعالى الذى صنع كل شىء صنعا متقنا حسب الحكمة. ولما كانت النفس تتوق بعدما تقدم إلى معرفة

(١) داخرين (٢) آمنون (٣) أتلو
(٤) القرآن (٥) آياته (٦) بغافل.

ما سيكون بعد الحشر قال سبحانه: ﴿إنه خبير بما تفعلون﴾ أى سيجازى العباد على كل كبيرة وصغيرة لأنه بكل أفعالهم ظاهرها وباطنها عليم.

وتم فصل ذلك بقوله: ﴿مَنْ جاء بالحسنة فله خير منها﴾ وهو عشر أمثالها كما فى صفحة ١٩١ وهم من الخوف فى هذا اليوم آمنون كما فى الآية (١٠٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١، ومَنْ جاء بالسيئة يطرحون على وجوههم فى النار، وتقول لهم زبانية جهنم هل تجزون إلا الجزاء المناسب لما كنتم تعملونه فى الدنيا مما يغضب اللَّه.

وبعدما بيَّن سبحانه ما سيكون من أهوال يوم القيامة ونجاة المؤمنين منها، أراد أن يحرك فى نفوس كفار مكة المسارعة إلى ما فيه النجاة مع التلطف فى التنبيه فقال: ﴿إنما أمرت﴾ إلخ: أى قل لهم أيها النبى إنما أمرنى ربى أن أعبد رب هذه البلدة التى حرم اللَّه انتهاكها ولو بقتل حيوان مما يلجأ إليها أو قطع شجر من شجرها فضلاً عن الإنسان وأنتم أولى الناس باحترامها بعبادة رب البيت الذى هو سبب تشريفها وسبب إطعامكم من الجوع وأمنكم من الخوف كما فى صفحة ٨٢٣، وله سبحانه كل شىء خلقا وملكا وتصرفا، لا مكة وحدها، فلا يصح لكم أن تشركوا معه مَنْ لا يملك شيئًا. وقل لهم أيضًا أيها النبى أمرنى ربى أن أكون ممَنْ أسلموا وجوههم خالصة له تعالى لا يخضعون لغيره، انظر الآية (١٢٥) من سورة النساء صفحتى ١٢٣، ١٢٤، وأن أتلو القرآن لأزداد يقينا بما فيه من الفيوضات الإلهية، وينتفع الناس بما فيه من الإرشاد إلى سبيل النجاة، فمَنْ اهتدى بالقرآن إلى الطريق المستقيم بالعمل بما فيه فإنما ثمرة اهتدائه تعود على نفسه، ومَنْ ضل بالإعراض عنه فإنه لا يضر إلا نفسه، ولن يضرك أيها النبى لأنك لم تكلف إلا بإنذارهم كبقية إخوانك الرسل وقد بلغت فأديت الرسالة، وبقى عليهم ضلال وبالهم، وقل أيها النبى الحمد للَّه الذى وفقنى لأداء الأمانة فى تبليغكم وقل لهم إن تمسكتم بإعراضكم فسيريكم سبحانه آياته الدالة على صدق رسوله فتعرفون أنها حق فى وقت لا ينفعكم فيه ذلك، انظر الآية (١٥٨) من سورة الأنعام صفحتى ١٩٠، ١٩١، وما ربك بغافل عما تعملون جميعًا من الحسنات أو السيئات وسيجازى كل بما يستحق. واللَّه أعلم.

(٢٨) سُورَةُ القَصَصِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا ثَمَانٍ وَثَمَانُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ[1] ① تِلْكَ ءَايَٰتُ[2] ٱلْكِتَٰبِ[3] ٱلْمُبِينِ ② نَتْلُوا۟[4] عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ[5] مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ③ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ[6] نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ④ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً[7] وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ[8] ⑤ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ[9] وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ⑥ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ

(سورة القصص)

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿طسم﴾: تقدم المراد من مثلها أول سورة البقرة، وتنطق هكذا طا. سيم بكسر الأول وسكون الثانى. مِيمْ بسكون الأول والأخير.

﴿المبين﴾: يقال بان الشىء فهو بائن وأبان فهو مبين، والكل بمعنى واحد هو الوضوح. ويقال أيضا أبنت الشىء أى وضحته، فأبان يستعمل لازما بمعنى موضحا ومتعديا بمعنى موضحا لغيره.

﴿نبأ موسى﴾: خبره من أول نشأته إلى ما بعد رسالته، ولا تنس ما تقدم فى الآية (٧) من سورة النمل صفحتى ٤٩٤، ٤٩٥.

﴿علا﴾: أى مستعل بالقهر والاستبداد.

﴿شيعا﴾: أى طوائف مختلفة يكرم طائفة ويهين أخرى.

﴿طائفة﴾: هم بنو اسرائيل كما تقدم فى الآية (٤٩) من سورة البقرة صفحة ١٠.

﴿الوارثين﴾: للملك والسلطان من فرعون، انظر ما تقدم فى الآية (٥٩) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٣.

---

(١) طا سيمْ ميمْ.
(٢) آيات.
(٣) الكتاب.
(٤) نتلو.
(٥) نبأ.
(٦) يستحيى.
(٧) أئمة.
(٨) الوارثين.
(٩) هامان.

﴿نمكن لهم فى الأرض﴾: يقال مكن له فى الأرض إذا جعل له فيها مكانا يستقر فيه والمراد أن تكون لهم السلطة.

﴿هامان﴾: هو وزير فرعون.

﴿أوحينا إلى أم موسى﴾: قال بعضهم الإيحاء هنا كان إما برؤيا منامية منفصلة، قطعت رضى الله عنها بأنها من عند الله، وذلك مثل رؤيا خليل الله إبراهيم عليه السلام وأُمر فيها بذبح ولده فى الآية (١٠٢) من سورة الصافات صفحتى ٥٩٢، ٥٩٣. وإما أن يكون الإيحاء بواسطة جبريل عليه السلام، جاءها فى صورة رجل وأخبرها بما ذكر وقطعت أنه من عند الله، ولذلك نظير وهو ما حصل لمريم عليها السلام فى الآية (١٧) وما بعدها من سورة مريم صفحة ٣٩٧ ويبدو أن يكون الوحى هنا لها بما سيأتى من الوعد برده إليها وجعله رسولا.

﴿أن﴾: حرف تفسير لما تضمنه الوحى.

المعنى: تلك الآيات التى فى هذه السورة هى بعض آيات الكتاب الموضح للحلال والحرام وكل ما فيه سعادة البشر، نتلو عليك أيها النبى فى هذا القرآن على لسان جبريل شيئا من خبر موسى وفرعون تلاوة مقترنة بالحق، لأجل انتفاع المؤمنين الموجودين ومن سيوجد.

ثم شرع سبحانه فى بيان ذلك الخبر فقال: (إن فرعون علا): أى تجبر واستعلى على الناس فى أرض مصر، وجعل أهلها طوائف يكرم القبط، ويستضعف بنى إسرائيل، فيذبح كثيرا من أبنائهم الذكور، ويستبقى البنات للخدمة. ومنشأ هذا الظلم فى التفرقة أنه كان من الراسخين فى الإفساد. كان يفعل ذلك فى الوقت الذى كنا نريد فيه أن نمن أى نتفضل على هؤلاء الذين استضعفهم فى أرض مصر، ونجعل منهم أئمة فى الدين وهم أنبياء بنى إسرائيل كما فى الآية (٢٠) من سورة المائدة صفحة ١٤٠، ونجعلهم الوارثين للقوة والدولة من بعد هلاك فرعون. ونرى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرونه من هؤلاء المستضعفين من ضياع ملكهم على أيديهم ثم فصّل سبحانه ما أجمله فيما سبق بقوله: (وأوحينا) إلخ: وذلك أنه لما اشتد قتل فرعون لمواليد بنى إسرائيل وكانت أم موسى فى آخر مدة حملها وخافت إذا هى وضعت ذكرا أن يقتله فرعون، ألهمها سبحانه أو أراها فى المنام ما ينبغى أن تفعله لينجو وليدها، وذلك بأن ترضعه أولاً سرا.. إلخ.

أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ

المفردات: ﴿اليم﴾: البحر، انظر الآية (٣٩) من سورة طه صفحة ٤٠٨.

﴿ليكون لهم عدوا﴾: هذه اللام تسمى لام العاقبة أى لتكون عاقبة عملهم أنه يصير لهم عدوا وحزنا، وليست لام العلة الباعثة، لأن الباعث لهم أن يكون قرة عين كما سيأتى وهذا كما تقول أخذ فلان كذا ليكون فيه سروره فكان فيه شقاؤه.

﴿حزنا﴾: الحزن بفتحتين والحزن بضم فسكون: الغم والمراد هنا محزنا أى سبب حزن.

﴿إمرأة فرعون﴾: هى (آسية) المرأة المؤمنة وكانت من نسل ملك مصر أيام نبى الله يوسف، انظر الآية (١١) من سورة التحريم صفحة ٧٥٣.

﴿قرة عين﴾: المراد منشأ سرور، انظر الآية (٤٠) من سورة طه صفحتى ٤٠٨، ٤٠٩.

﴿فؤاد﴾: لا يطلق الفؤاد على القلب إلا فى حالة توقده وشدة تيقظه.

﴿فارغا﴾: خاليا من العقل الذى يضبط تصرفات صاحبه لشدة خوفه، فهو ليس طبيعيا، انظر الآية (٤٣) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٦.

﴿ربطنا على قلبها﴾: المراد ثبتناها، انظر الآية (١٤) من سورة الكهف صفحة ٢٨١.

(١) آل فرعون.
(٢) هامان.
(٣) خاطئين.
(٤) امرأة.
(٥) قرة.
(٦) فارغا.
(٧) ناصحون.
(٨) فرددناه.

﴿قصيه﴾: تتبعى أثره.

﴿فبصرت به﴾: أبصرته.

﴿عن جنب﴾: الجنب هو الجانب والمراد عن بعد.

﴿حرمنا عليه المراضع﴾: منعناه من الرضاع من جميع المراضع.

المعنى: أوحينا إلى أم موسى قائلين لها أرضعيه، فإذا شعرت بخوف عليه فاطرحيه بالبحر بعد وضعه فى صندوق، ولا تخافى ولا تحزنى لأن ربك سيرده إليك قريبا، وسيعيش حتى يكون من أنبيائه المرسلين، ففعلت أم موسى ما ألهمها الله، فالتقطه آل فرعون ليسروا به فكانت عاقبة التقاطه أنه صار عدوا لهم وسبب حزنهم حيث أغرقه الله هو وجنوده وضاع ملكه. إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين أى مرتكبى الخطايا. ولذا عاقبهم الله تعالى بتربية عدوهم تحت رعايتهم.

ولما هم بعض رجال فرعون بقتله قالت امرأة فرعون هو قرة عين لى ولك لا تقتلوه، نرجو أن ينفعنا لما فيه من أمارات النجابة، أو على الأقل نتخذه ولدا ونحن فى شوق إلى ولد فالتقطوه وانتهى الأمر بمحافظتهم عليه والحال أنهم لا يشعرون أن هلاكهم على يديه.

ولما علمت أم موسى بوقوعه فى يد فرعون صارت كالمجنونة لأنها كادت أى قربت تبدى أى تظهر الحقيقة متحدثة بأمره لولا أن ثبتناها بالصبر لكشف الأمر، وإنما قويناها بالصبر لتكون من الواثقين بوعد الله برده إليها، ولكن قلب الأم ملىء بالرحمة ويريد الاطمئنان دائما على حركات ولدها، فقالت لأخته تتبعى أثره، وانظرى كيف صار حاله، ففعلت وأبصرته عن بعد وهم لا يشعرون أنها أخته وكنا منعناه من كل المراضع من قبل أن تقص أخته أثره. فلما رأته ممتنعا عن الرضاع من المرضعات عرضت مساعدتهم بأسلوب لطيف فقالت هل أدلكم على أهل بيت يرعونه لأجلكم وهم مخلصون له فى التربية لا يقصرون فى إرضاعه وحسن تربيته؟ ففعلوا ما أرشدتهم إليه وسلموه إلى أمه، وفى ذلك يقول سبحانه فرددناه إلى أمه لتقر عينها بولدها ولا تحزن على فراقه، ولتعلم علم مشاهدة أن وعد الله حق.

وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ

المفردات: ﴿بلغ أشده﴾: الأشد جمع شدة بكسر أوله وفتح ثانيه مشددا كأنعم جمع نعمة. والشدة هنا هى القوة، وبلوغها استكمال القوة الجسمانية وانتهاء النمو المعتاد، وقد ناقش المختار كونه جمع شدة فراجعه فقد نقل أنه مفرد جاء على بناء الجمع، أو جمع لا واحد له من لفظه.

﴿استوى﴾: الاستواء هنا هو اعتدال العقل وكماله. ﴿حكما﴾: معناها هنا: الحكمة فهى ملكة يفهم بها أسرار الدين وهو غير النبوة، انظر الآية (٨٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧٦.

﴿المدينة﴾: هى عاصمة الدولة فى عهد فرعون موسى ويقال إن اسمها (منف) بفتح فسكون، ويسميها بعضهم (مصر) كما فى الآية (٩٩) من سورة يوسف صفحتى ٣١٧، ٣١٨.

﴿على حين﴾: (على) هنا بمعنى (فى).

﴿من شيعته﴾: إسرائيلى أى من قومه. ﴿من عدوه﴾: أى من أهل مصر وعبّر بعضهم عنه بلفظ قبطى. ﴿فوكزه﴾: أى ضربه بقبضة يده. ﴿من عمل الشيطان﴾: الذى هيج غضبى لمنع تعديه فوقع القتل خطأ. ﴿مبين﴾: ظاهر والمراد ظاهر العداوة. انظر ما تقدم فى الآية (٢) من هذه السورة صفحة ٥٠٦. ﴿ظهيرا﴾: معينا، انظر الآية (٨٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦. ﴿يترقب﴾: أى ينتظر ما يحصل من فرح أو مكروه. ﴿استنصره﴾: طلب نصره ومعونته. ﴿يستصرخه﴾: يطلب النصر بصوت مرتفع. ﴿لغوى﴾: اللام لتأكيد ثبوت الغواية، وغوى أى شديد الضلال. ﴿أن أراد﴾: (أن) تفيد تأكيد ربط شرط (لما) وهو (أراد) بجوابها وهو (يبطش) والبطش الأخذ بشدة وعنف.

---

(١) آتيناه. (٢) فاستغاثه. (٣) الشيطان. (٤) يا موسى.

المعنى: ولتعلم أم موسى أن وعد الله تعالى بإرجاعه حق، ولكن أكثر الناس فى ذلك الوقت لا يعلمون بأن الله تعالى وعدها، ولا بأن موسى رجع إلى أمه ومكث عندها حتى فطمته ثم أتت به دار فرعون فتربى فيها حتى بلغ أشده فى عدة سنين كما فى الآية (١٨) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٠، قيل مكث عنده ثلاثين سنة، ولما استوى عقله آتيناه حكمة يزن بها الأمور وعلما نافعا. وكما جازينا موسى على إحسانه بثباته على الإيمان بربه مع أنه تربى فى بيت كفر، وعلى صبره على تحمّل إساءة فرعون إلى أبناء جنسه، نجزى كل محسن على إحسانه. وفى ليلة دخل موسى المدينة فى وقت كان أهلها فى غفلة عن الحركة الكثيرة بسبب نوم أو غيره، فوجد فى بعض طرقها رجلين يتضاربان، أحدهما من قومه، والآخر من أعدائه وكان القبطى أقوى من الإسرائيلى، فطلب الإسرائيلى من موسى أن يعينه على عدوه، فضرب موسى القبطى بقبضة يديه وكان قويا كما سيأتى فى الآية (٢٦) من هذه السورة صفحة ٥١٠ فقتله، وعند ذلك ندم على ما حصل منه خطأ فقال: هذا القتل أثر من آثار عمل الشيطان؛ لأنه حرك غضبى حتى قسوت فى كف أذى الرجل فمات خطأ، وما كنت أريد ذلك. ومن عادة الصالحين أنهم ينسبون كل شر إلى الشيطان وكل خير إلى الله تعالى، لأن الشيطان عدو للإنسان مضل له عن الصواب، ظاهر العداوة والإضلال وبالغ موسي في الندم فقال يا رب إني ظلمت نفسي بقتل نفس بدون إذن منك فى قتلها فاغفر لى ولا تؤاخذنى به، فغفر الله تعالى له لأنه سبحانه هو الغفور الرحيم بعباده المخلصين حين يلجأون إلى المخرج وهو استغفاره تعالى، وبعد ذلك قال موسى: يا رب استعطفك بحق إنعامك علىّ المرة بعد المرة، انظر الآية (٣٧) وما بعدها من سورة طه صفحة ٤٠٨، أرجوك أن تحفظنى فلن أكون معينا لمجرم أبدا. ولما انتشر خبر قتل القبطى ولم يعرف قاتله أصبح موسى يسير فى المدينة خائفا مما فعل يترقب ماذا سيحصل، وإذا الإسرائيلى الذى طلب مساعدته بالأمس يطلب منه الخلاص من قبطى آخر بصوت مرتفع، فوجه موسى الخطاب أولا للإسرائيلى بقوله إنك لشديد الغواية والضلال حيث تسببت فى قتل رجل واليوم تقاتل الآخر. وبعد هذا التوبيخ للإسرائيلى وبعدما علمه موسى من كثرة تعدى القبط على بنى إسرائيل أراد أن يضرب القبطى ليتخلص منه صاحبه، عند ذلك فهم القبطى من كلام موسى وتوبيخه لصاحبه أن

أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا[1] الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ[2] إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ[3] ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[4] ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا[5] تَمْشِي عَلَى

موسى هو الذى قتل القبطى بالأمس خصوصا وأنه مد يده ليضربه فقال عند ذلك: يا موسى أتريد .. إلخ.

المفردات: ﴿إن تريد﴾: (إن) حرف نفى بمعنى (ما).

﴿جاء رجل﴾: هو من آل فرعون الآتى ذكره فى الآية (٢٨) من سورة غافر صفحة ٦٢١.

﴿يسعى﴾: يسرع فى السير.

﴿الملأ﴾: كبار الدولة.

﴿يأتمرون بك﴾: يتشاورون فى الأمر بقتلك.

﴿تلقاء﴾: جهة.

﴿مدين﴾: تقدم بيانها فى صفحة (٢٠٦).

﴿عسى﴾: أرجو.

﴿سواء السبيل﴾: سواء الشىء وسطه كما فى الآية (٥٥) من سورة الصافات صفحة (٥٩٠)، والمراد الطريق البعيد عن العقبات.

﴿ماء مدين﴾: هو البئر التى كانوا يستقون منها.

﴿أمة﴾: جماعة كثيرة.

﴿تذودان﴾: تمنعان غنمهما عن الزحام لأن على الماء من هو أقوى منهما.

---

(١) اقصى

(٢) يا موسى.

(٣) الناصحين.

(٤) الظالمين.

(٥) إحداهما.

﴿ما خطبكما﴾: ما هو شأنكما الذى منعكما من أن تسقيا كغيركما.

﴿يصدر﴾: يصرف.

﴿الرعاء﴾: جمع مفرده راع.

المعنى: قال القبطى: يا موسى ما تريد إلا أن تكون جبارا تتطاول على الناس فى غير نظر للعواقب، وما تريد أن تكون من المصلحين بين الناس بدفع الأذى والتخاصم بالتى هى أحسن. ولما كان موسى لا يقصد قتل القبطى وعلم أنه عرف أنه هو القاتل، انصرف ظانا أنه بذلك يمكن عدم انتشار الخبر، ولكن الخبر ذاع حتى وصل فرعون وملأه، فاتفقوا على قتل موسى. عند ذلك جاء رجل من أطراف المدينة لموسى مسرعا وقال يا موسى إن القوم يأتمرون على قتلك فاخرج من مصر حالا إنى لك من الناصحين، فخرج منها خائفا يترقب مستغيثا بالله أن ينجيه من ظلم فرعون وقومه. ولما توجه جهة مدين ولم يكن يعرف طريقها قال أرجو من ربى أن يهدينى طريق النجاة. ولما وصل إلى بئر مدين وجد عليه كثيرا من الناس يسقون أنعامهم ومواشيهم، ووجد فى مكان أقرب إليه من مكان هؤلاء الناس امرأتين تمنعان غنمهما من مكان الزحام. ولما رأى موسى ضعف هاتين المرأتين وخوفهما من الزحام رق لحالهما وسألهما ما سبب عدم ترك غنمكما تشرب؟ قالتا: إن عادتنا أن لا نسقى غنمنا حتى يصرف الرعاة مواشيهم بعد شربها لعجزنا عن المزاحمة وليس لنا رجال غير أبينا ولكنه رجل مسن أضعفه الكبر، فتقدم إلى البئر وسقى لهما وحده ولم يستعن بأحد وبعد انصرافهما توجه إلى ظل شجرة وقال يارب إنى محتاج لما تنزله إلىّ من خير كثير أو قليل، ومراده طلب القوت لشدة جوعه، فاستجاب الله طلبه، فلما رجعت البنتان وذكرتا لأبيهما ما حصل قال لإحداهما اذهبى وأبلغيه أنى أطلب حضوره لأكافئه بما يناسب حاله، فجاءته وهى تمشى محتشمة، ولم يصح حديث فى تعيين من هو هذا الرجل الكبير والد الفتاتين. ويذكر بعضهم أنه شعيب، واستبعده آخرون بأن شعيبا كان قريبا جدا من عهد لوط كما فى الآية (٨٦) من سورة هود صفحة ٢٩٧. ولوط وإبراهيم كانا فى عصر واحد كما فى الآية (٧١) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٧. وبين إبراهيم وموسى زمن بعيد يزيد على ٤٠٠ سنة، فتأمل ذلك.

اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[1] ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا[2] يَا أَبَتِ[3] اسْتَأْجِرْهُ[4] إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ[5] الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ[6] عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ[7] حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ[8] ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ[9] عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ * فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ[10] مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ[11] نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ[12] مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ

المفردات: - ﴿على استحياء﴾ : أى مع استحياء، والمراد مستحيية فى حشمة.

﴿القوى﴾: لعلها علمت ذلك من نزعه الدلو الكبير من البئر وحده.

﴿الأمين﴾: علمته من أمره لها بالمشى خلفه وترشده إلى الطريق حتى لا يرى منها شيئاً قد تكشفه الريح.

﴿تأجرنى﴾: أى تؤجر نفسك لى.

﴿حجج﴾: جمع حجة بكسر أوله وهى السنة.

﴿أيما الأجلين﴾: المراد أى أجل من الأجلين قضيته فى خدمتك.

﴿عدوان﴾: أى تعدى علىَّ منك بطلب الزيادة إن اخترت أنا الثمانى سنين.

﴿بأهله﴾: أى زوجته ومن معه من بعض رعاة غنمه، انظر شرح صفحة ٤٠٦.

---

(١) الظالمين.
(٢) إحداهما.
(٣) يا أبت.
(٤) استأجره.
(٥) استأجرت.
(٦) هاتين
(٧) ثمانى.
(٨) الصالحين.
(٩) عدوان.
(١٠) آنس.
(١١) آنست.
(١٢) آتيكم.

﴿آنس﴾: أبصر، أنظر الآية (١٠) من سورة طه صفحتى ٤٠٦، ٤٠٧.

﴿الطور﴾ : هو الجبل المعروف.

﴿بخبر﴾: أى استدل به على الطريق، انظر الآية (١٠) المشار إليها قبل ذلك.

﴿أوجذوة﴾: هى عود فيه نار بلا لهب كما تقدم فى صفحتى ٤٠٦، ٤٩٤.

المعنى : فجاءته إحداهما تمشى فى حشمة ووقار وقالت إن أبى يدعوك ليكافئك على سقيك أغنامنا . فلما ذهب موسى وقابل الرجل الكبير وقص عليه ما حصل له ولبنى إسرائيل من فرعون قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين لأنه لا سلطان لفرعون على أرضنا . بعد ذلك قالت إحدى البنتين يا أبت استأجره لرعى غنمنا، ثم عللت رغبتها بأنه قوى لا يغلبه أحد على أغنامنا أمين لا يضيع منها شيئاً . قال الرجل لموسى إنى أرغب فى تزويجك إحدى ابنتى هاتين اللتين كانتا مع الغنم على أن يكون صداقها أن تؤجرنى نفسك مدة ثمان سنين فإن أتممت عشر سنين عندى فهذا تفضل من عندك، وما أريد أن أشق عليك بإلزامك إتمام العشر أو تكليفك ما يصعب عليك، ستجدنى إن شاء الله من الصالحين فى حسن المعاملة والوفاء بالعهد.

قال موسى ذلك الذى شارطتنى عليه قائم بينى وبينك لا يخالفه واحد منا، لا أنا فيما شرطت علىَّ، ولا أنت فيما شرطت على نفسك، فأى أجل من الأجلين قضيته فى خدمتك فليس لك أن تظلمنى بطلب غيرما اختار، والله على ما تقول وكيل أى شهيد . فمكث موسى أطول الأجلين على ما روى . وبعد ذلك أخذ زوجته وبعض الأغنام يقتات من لبنها، وبعض دواب يحمل عليها متاعه، وبعض الرعاة يساعدونه، وأراد أن يرجع لمصر ليزى أمه وأخاه ظانا أن ما حدث قد نسى، فلما وصل طور سيناء فى ليلة مظلمة ضل فيها عن الطريق وكان البرد شديداً أبصر من جانب الطور نارًا، فقال لأهله أمكثوا مكانكم إنى رأيت نارًا سأذهب إليها لعلى أعلم مِمَّنْ عندها خبر الطريق، أو آتيكم بقطعة من النار لعلكم تستدفئون بها.

المفردات : ﴿تصطلون﴾ : تستدفئون. (شاطئ الوادى): جانب الوادى الموصوف بالمقدس فى صفحتى ٤٠٧، ٧٨٩. (الأيمن): بالنسبة لموسى (فى البقعة المباركة): أى حال كون موسى

تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَىٰهَا[1] نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ[2] ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ[3] مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ[4] إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ[5] ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا[6] تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ[7] أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ[8] ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ[9] بُرْهَٰنَانِ[10] مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ[11] إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ[12] ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ[13] هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا[14] فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ[15] أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا

موجودًا فى المكان المبارك عليه لسماع فيه كلام ربه واختياره رسولاً. (من الشجرة) بدل من شاطئ الوادى، ويسمى بدل اشتمال لاشتمال الشاطئ عليها أى من عندها. (أن يا موسى): (أن) مفسرة للنداء وكذا يقال فى (أن ألق). (جان) فى سرعة الحركة، انظر شرح الآية (١٠٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٩.

﴿ولى مدبرا﴾ : أى انصرف من المكان حال كونه مدبرًا بظهره أى جاعلا دبره جهة المكان، والمراد مسرعا لا ينظر إلى الخلف. ﴿ولم يعقب﴾: قال قتادة : معناه لم يلتفت. وقال آخرون لم ينتظر . ومنه التعقيب فى المساجد وهو انتظار الصلاة بعد الفراغ من صلاة، والمراد لم يرجع لشدة خوفه.

﴿اسلك﴾: ادخل. ﴿جيبك﴾: فتحة الثوب من أعلى.

﴿جناحك﴾ : المراد به اليد التى خرجت بيضاء لأن اليد للإنسان كالجناح للطائر، ولما كان من عادة الطير أنه إذا خاف نشر جناحيه وإذا اطمأن ضمهما إلى جنبيه، ولما خاف موسى من خروج يده بيضاء خشية أن تكون أصيبت ببرص مثلا، لما كان كل هذا، أمره سبحانه أن يعيدها إلى مكانها من جنبه لتعود إلى حالتها الأولى فيطمئن إلى أنها مجرد معجزة فلا يضطرب أمام فرعون.

---

(١) آتاها. (٢) شاطئ. (٣) المباركة. (٤) يا موسى.
(٥) العالمين. (٦) رآها. (٧) يا موسى. (٨) الآمنين.
(٩) فذانك. (١٠) برهان. (١١) وملئه. (١٢) فاسقين.
(١٣) هارون. (١٤) سلطانا. (١٥) بآياتنا.

﴿من الرهب﴾: الرهب الخوف، و ﴿من﴾ بمعنى لام التعليل كقوله سبحانه ﴿مما خطيئاتهم اغرقوا﴾ الآية (٢٥) من سورة نوح صفحة ٧٦٩، وكقول الفرزدق فى مدح زين العابدين ﴿ويغضى من مهابته﴾ أى لشدة هيبته والمراد لأجل ذهاب الخوف أى لتطمئن. ﴿فذانك﴾: أى فهذان العصا واليد. ﴿ردءا﴾ : معينًا: ﴿يصدقنى﴾ : أى يوضح ما أقول ويبطل شبهاتهم فيظهر صدقى. ﴿سنشد عضدك﴾ : العضد هو ما بين المرفق إلى الكتف، والمرفق تقدم فى الآية (٦) من سورة المائدة صفحتى ١٣٦ ، ١٣٧، والجملة كناية عن تقويته. ﴿سلطانا﴾: أى تسلطا وغلبة . ﴿بآياتنا﴾ : بمعجزاتنا.

المعنى : آتيكم بنار لعلكم تستدفئون من البرد. فلما وصل إلى ما ظنه نارًا سمع نداء صادرًا من شاطئ الوادى الذى على يمينه حال كونه هو فى البقعة المباركة المشتملة على الشجرة التى ظهر منها ما يشبه النار، وفسر هذا النداء بقوله يا موسى إنى أنا الله رب العالمين وألق عصاك، فألقاها فصارت حية تسعى، فلما رآها موسى تهتز مسرعة ولى منصرفًا ولم يرجع من شدة خوفه، فسمع النداء يقول : يا موسى أقبل إلى المكان الذى كنت فيه ولا تخف من سوء إنك من الآمنين، ومد يدك وخذ هذه الحية فإنها ستكون فى يدك عصا كما كانت، انظر الآية (٢١) من سورة طه صفحة ٤٠٧. ثم قال له : ادخل يدك فى جيبك وأخرجها تخرج بيضاء من غير سوء وأضممها ثانيا إلى جنبك لأجل ذهاب خوفك لأنك ستجدها كما كانت، فهاتان حجتان واضحتان أنت مرسل بهما من ربك إلى فرعون وملئه لأنهم قوم استمروا على الفسق وهو الخروج عن الحق مددا طويلة.

قال موسى: يارب إن قتلت منهم نفسا وأخاف أن يقتلونى بدلها، وأخى هارون المقيم الآن بمصر هو أفصح منى لسانا فاجعله رسولا معى يكون عونا لى فى توضيح الرسالة وشرح الحجج وإبطال ما سيحاولون به تضليل الناس من الشبهات لأنى أخاف أن يكذبونى وأعجز عن الإفصاح عما أدفع به كذبهم. فأجاب سبحانه طلبه بقوله : ﴿سنشد﴾ إلخ: أى سنقويك بأخيك هارون ونجعل لكما تسلطا وقوة فلا يصلون إليكما بسوء بسبب قوة معجزاتنا التى ستبهرهم وتعجزهم وتزعجهم، فتكونون أنتما ومَنْ اتبعكما على الإيمان أصحاب الغلبة.

المفردات : ﴿بآياتنا﴾: تقدم المراد منها فى الآية (٥٦) من سورة طه صفحة ٤١٠ . ﴿مفترى﴾: أى افتريت على الله أنها معجزة أيدك بها. ﴿عاقبة الدار﴾ : المراد العاقبة المحمودة لدار الدنيا وهى الجنة، لأن الدنيا دهليز موصل للآخرة، انظر الآية (٢٢) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٤، ٣٢٥.

﴿من إله﴾: (من) للنص على عموم نفى إله غيره ﴿الطين﴾: المراد به القوالب التى تصنع من الطين، وما دامت لم تحرق تسمى لبنا بفتح فكسر، فإذا حرقت تسمى آجراً بمد الهمزة وضم الجيم. ﴿صرحا﴾ : هو البناء العالى. ﴿فأخذناه وجنوده﴾: أصل معناها قبضنا عليهم بأيدينا.

الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ
قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا
الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ
مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي
صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ
الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ
وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ
الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً

﴿فنبذناهم﴾: أصل معناها قذفناهم والمراد خلينا بينهم وبين البحر، ولم ننقذهم ، والكلام كناية عن إهلاكهم غرقا ، فكأنه تعالى فيما فعل بهم أخذهم مع كثرتهم فى قبضة يده وطرحهم فى البحر.

﴿اليم﴾ : البحر . ﴿أئمة﴾: أى قادة فى الكفر والعناد فعليهم مثل ذنوب مَنْ يعمل عملهم إلى يوم القيامة، انظر نظير ذلك فى الآية (٣٢) من سورة المائدة صفحة ١٤٢، ومن هذا قال ﷺ مَنْ سَنَّ سُنَّة سيئة فعليه وزرها ووزر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة.

المعنى : لما خاف موسى طمأنه سبحانه بأن الغلبة ستكون له هو ومَنْ اتبعه، فلما جاء موسى إلى فرعون وقومه مؤيدًا بالمعجزات الواضحات قالوا ما هذا الذى تدعى أنه معجزة

(١) الغالبون.	(٥) عاقبة.	(٩) فأخذناه.	(١٣) وجعلناهم.
(٢) بآياتنا.	(٦) الظالمون.	(١٠) فنبذناهم.	(١٤) أئمة.
(٣) بينات.	(٧) يا هامان.	(١١) عاقبة.	(١٥) القيامة.
(٤) آبائنا.	(٨) الكاذبين.	(١٢) الظالمين.	(١٦) واتبعناهم.

إلا سحر افتريت كذبا أن ربك الذى تزعمه أيدك به ، وما سمعنا بهذا الذى تدعونا إليه من عبادة إله واحد حاصلا فى عهد آبائنا الماضين. قال الزعماء ذلك تضليلا للشعب وتثبيتا لهم على التقليد وهم يعلمون أنهم كاذبون، لأنهم سمعوا بإله واحد من عهد يوسف وهو قريب منهم، انظر قول مؤمن من آل فرعون فى صفحتى ٦٢١، ٦٢٢ خصوصا الآية (٣٤)، وأيضا فرعون نفسه يعلم الحقيقة ولكنه كان يستخفهم، انظر الآية (١٠٢) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٨، وآيتى (٤٦، ٤٧) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٠، والآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥، والآية (٥٤) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٢. ولما كذبوه عنادًا سلك موسى عليه السلام أسلوبا لينا لعله ينجح فقال : ربى سبحانه هو الذى يعلم المحق منا والمبطل، ومَنْ الذى جاء بالحق الذى يوصل إلى طريق الرشاد، ومَنْ الذى له العاقبة المحمودة فى الآخرة، ولا تكون العاقبة الحسنة إلا للمحقين العدول، لأن الظالم لا يفلح أبدًا، بل لابد أن تكون نهايته الخسران. ولما كان هذا الكلام من موسى يدل على ثقته التامة بما يقول وربما أثر فى سامعيه، أسرع فرعون إلى إبطال أثره فقال : يأيها الملأ ما علمت لكم فى زمن من الأزمان إلها غيرى كما يدعى موسى.

ثم وجه الخطاب لوزيره على سبيل التهكم بكلام موسى ليشكك الناس فى صدقه فقال : يا هامان هيئ لى آجرا (طوبا أحمر) ثم ابن به صرحا لأصعد عليه وأشاهد إله موسى الذى يقول به وإنى لأظن موسى من الكاذبين الذين يدعون ما لا يصح، وبذلك تمادى هو وجنوده فى الاستكبار فى أرض مصر بغير استحقاق بل بالباطل، لأن الاستكبار بالحق هو لله وحده وسبب عنادهم وكفرهم ظنهم أنهم لا يبعثون يوم القيام فلا يحاسبون ولا يعاقبون. ثم بيَّن سبحانه ما حل بهم من عذاب الدنيا وما سيكون لهم فى الأخرى فقال: ﴿فأخذناه﴾ إلخ : المراد فأغرقناهم فى البحر، فانظر أيها السامع العاقل كيف كانت عاقبة هؤلاء الظالمين فى الدنيا. ولزيادة عذابهم جعلناهم قدوة يعمل مثل عملهم كل جبار متكبر يريد أن يثبت رئاسته على الطغيان والإرهاب لا على العدل والمحبة، فعلى فرعون وملئه من عذاب ذنوب مَنْ قلدوهم مثل عذابهم ، فهم بعملهم دعوا كل جبار إلى النار، ويوم القيامة لا يدفع عنهم أحد عذاب الله، واتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة من الله والملائكة وكل مَنْ عمل عملهم القبيح من الناس أجمعين، انظر الآية (١٦١) من سورة البقرة صفحة ٣١.

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ[1] ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا[2] مُوسَى الْكِتَابَ[3] مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ[4] ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا[5] وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم[6] مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ[7] وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ

المفردات : ﴿المقبوحين﴾ : يصح أن يكون من قبحه بفتحات بمعنى أبعده، والمراد المبعدين عن الجنة، وأن يكون من قبحت الدمل إذا فتحته قبل نضجه فسال دمه مع الصديد، والمراد المشوهين فى الخلقة بسواد الوجوه كما فى صفحة ٦١٤، وزرقة العيون والأجسام كما فى صفحة ٤١٦.

﴿الكتاب﴾ : التوراة.

﴿بصائر﴾ : جمع بصيرة وهى نور القلب الذى يدرك به الخطأ والصواب والمراد سبب أنوار للقلوب.

﴿بجانب الغربى﴾ : أى بجانب الجبل الواقع غربى موسى وقت تلقيه التوراة مع السبعين رجلا، انظر شرح آيتى (١٤٢، ١٤٣) من سورة الأعراف صفحة ٢١٤.

﴿قضينا إلى موسى الأمر﴾ : أى أوحينا إليه أمرًا مقضيا أى مقطوعًا به وهو إعطاؤه التوراة، انظر الآية (٦٦) من سورة الحجر صفحة ٣٤٢.

﴿الشاهدين﴾ : المراد الحاضرين فى ذلك الزمن، انظر الآية (١٨٥) من سورة البقرة صفحتى ٣٥، ٣٦.

(١) القيامة.
(٢) آتينا.
(٣) الكتاب.
(٤) الشاهدين.
(٥) آياتنا.
(٦) آتاهم.
(٧) آياتك.

﴿تطاول عليهم العمر﴾ : امتد بعدهم الزمن وطال.

﴿ثاويا﴾ : مقيما. ﴿تتلو عليهم آياتنا﴾ : أى تقرأ على أهل مدين على وجه التعلم منهم كما يقرأ المتعلم الدرس على معلمه ليتقن حفظه، انظر الآية (٥) من سورة الفرقان صفحتى ٤٧٠، ٤٧١.

﴿نادينا﴾ : المراد نادينا موسى وكلفناه بالرسالة، انظر الآية (٥٢) من سورة مريم صفحة ٤٠١ ، والآية (١١) من سورة طه صفحة ٤٠٧، والآية (١٠) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٠، والآية (٨) من سورة النمل صفحة ٤٩٥، والآية (١٦) من سورة النازعات صفحة ٧٨٩.

﴿ما آتاهم من نذير﴾ : انظر شرح الآية (٣) من سورة السجدة صفحة ٥٤٥.

﴿ولولا أن تصيبهم﴾ : لولا هذه لا تكون إلا قبل جملتين وتسمى امتناعية لأنها تفيد امتناع مضمون الجملة الثانية بسبب وجود مضمون الجملة الأولى، فإذا قلت لولا محمَّد موجود لعم الفساد، يفهم السامع أن امتناع عموم الفساد سببه وجود محمَّد، والجملة الأولى فيما هنا مأخوذة من مضمون الكلام وهى (فرض اعتذار الكفار بالجهل عند حصول العذاب موجود) والجملة الثانية مقدرة لفهمها من السياق وهى ﴿وما أرسلناك أيها النبى لهم﴾ ومثلها تقدم فى آيتى (١٠ ، ١٤) من سورة النور صفحتى ٤٥٨، ٤٥٩، وانظر معانى لولا فى شرح الآية (٤٦) من سورة النمل صفحة ٥٠٠، والمراد من الكلام قطع حجتهم، وسد باب اعتذارهم عند نزول العذاب كما فى الآية (١٦٥) من سورة النساء صفحة ١٢١، والآية (١٥) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦، والآية (١٣٤) من سورة طه صفحة ٤١٩، وحكمة إرسال الرسول وإن كانت تشمل الإرشاد إلى الصواب وتبشير مَنْ يسمع بالسعادة وتحذير مَنْ يخالف بالشقاء كما فى الآية (١٦٥) المشار إليها صفحة ١٢١، والآية (٤٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٩ لكنه اقتصر هنا على جانب واحد منها لأنه المناسب فى خطاب كفار مكة الذين صمموا على الكفر رغم جميع الأدلة ﴿لولا أرسلت﴾ و ﴿لولا أوتى﴾ : لولا فى هذين الموضعين بمعنى هلا التى تفيد طلب حصول ما بعدها.

المعنى : عاقب سبحانه فرعون وقومه باللعنة فى الدنيا وفى الآخرة بالحرمان من الجنة وبمسخ الخلقة.

وبعد ما فرغ سبحانه من قصة موسى أراد أن يبين الحكمة فى إرساله وإعطائه التوراة ليكون ذلك مقدمة لسبب إرسال خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم وإنزال القرآن عليه فقال: ولقد آتينا موسى الكتاب فيه تنوير بصائر الناس وهدايتهم من الضلال وأسباب رحمة لمَنْ اتبعه ليكونوا على حال يرجى منهم فيها التذكر والاعتبار بما حصل لمَنْ عصوا رسلهم، فهو سبحانه يقول جئنا لهم بهذا الكتاب المنقذ من الضلال بعد ما أهلكنا الأمم التى سبقت كقوم نوح وهود وصالح لما عصوا رسلهم واختل نظام العالم، فأحتاج الناس إلى تشريع جديد يصلح ما فسد.

وبعد ما بيّن سبحانه أنه أرسل موسى فى وقت الحاجة أتبع ذلك ببيان صدق خاتم الرسل، وأنه جاء فى وقت الحاجة إليه أيضا فقال: وما كنت أيها النبى العربى بجانب الغربى حين أعطينا موسى الألواح، انظر الآية (١٥٠) من سورة الأعراف صفحة ٢١٦، بل ما كنت فى ذلك الزمن مطلقا لا قريبا من المكان ولا بعيدا عنه، فتفصيلك ماحدث من الغيوب الماضية من زمن بعيد برهان على صدق نبوتك.

ثم بيَّن الداعى لإرساله فقال : ﴿ولكنا أنشأنا قرونا﴾ إلخ: أى ولكنا خلقنا بين زمانك وزمان موسى خلقاً كثيرًا تطاول عليهم الزمن، فتغيرت الشرائع، وخفيت الحقائق، وقست القلوب، فاقتضت الحكمة إرسالك بشرع صحيح، انظر الآية (٤٤) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥، والآية (١٦) من سورة الحديد صفحة ٧٢١.

ثم ذكر سبحانه دليلا ثانيا فقال ﴿وما كنت ثاويا﴾ إلخ : أى وما كنت مقيما أيها النبى فى أهل مدين حال كونك تتقن عنهم قراءة آياتنا المفصلة لدقائق ما حصل لموسى عندهم، ولكنا نحن الذين اطلعناك عليه بعد إرسالك وإنزال القرآن المفصل لذلك، ولولا ذلك لما علمت هذه الأخبار. ثم شرع سبحانه فى دليل ثالث على صدقه ﷺ فقال: ﴿وما كنت بجانب الطور﴾ إلخ : أى وما كنت بجانب الطور فى ليلة مناجاتنا لموسى وإرساله لفرعون حتى تتحدث بتفصيل ما

حدث فى تلك الليلة مما بيّن فى الصفحات السابقة، ولكنا نحن الذين أرسلناك بالقرآن المفصل لتلك الأخبار وغيرها من كل ما فيه إصلاح البشر لتحذر قومك من كفار قريش الذين استفحل شرهم وطغى جهلهم حتى قرب أن يقضى على البقية الباقية من شرع أبيهم إبراهيم الذى بلغّه لهم نبيهم إسماعيل، وكان فيهم فى كل عصر مصلحون وحكماء يرشدونهم إلى هذا الشرع أمثال قس بن ساعدة، انظر خطبه وهى مشهورة ، وهذا هو ما يتفق مع قوله تعالى ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ أى نبى أو عالم مبلغ عنه، انظر الآية (٢٤) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٤ ، ٥٧٥؛ تنذر قومك أيها النبى لعلهم يتذكرون أن لهم شرعاً صحيحاً فيرجعون إليه، انظر شرح الآية (٦٨) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٢، وإذا كان الترتيب الزمنى لحوادث موسى وقع على هذا الوجه : أولاً : وجوده فى أهل مدين، ثانياً: مناداته بالرسالة عند رجوعه من مدين، ثالثاً : تلقى التوراة بعد خروجه من مصر، فما هو السر فى مخالفة ذلك هنا؟ لعل السر أنه لو جاء بها حسب الترتيب الزمنى لتوهم أن مجموعها دليل واحد على صدقه ﷺ، فتغيير الترتيب يفيد أن كل واقعة من هذه الحوادث الثلاث دليل مستقل على صدق الرسول الكريم.

ومما حسن تقدم قصة تلقى التوراة مع أنها جاءت عقب الحديث عنها فى قوله ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ إلخ، وما ذكر بعدها كان ترتيبهما حسب زمنهما.

ولما كانت تفاصيل أخبار الماضين لا يمكن أن يعلمها ﷺ إلا بأحدى طرق ثلاث:

(١) أن يشاهدها بنفسه، وهذه أبطلت هنا.

(٢) أن يتلقاها من أهل الكتاب، وهذه أبطلها سبحانه مرارا وبصور شتى، انظر آيات (١٥، ١٦، ١٧) من سورة يونس صفحتى ٢٦٧، ٢٦٨، والآيات (١٠١، ١٠٢، ١٠٣) من سورة النحل صفحتى ٣٥٩، ٣٦٠، وآيتى (٤ ، ٥) من سورة الفرقان صفحتى ٤٧٠ ، ٤٧١ ، وأيضا لو كان لا علم عنده ﷺ إلا من طريق كتب أهل الكتاب لما عاب عليهم أنهم حرفوها، انظر الآية (٤٦) من سورة النساء صفحة ١٠٨، والآية (٤١) من سورة المائدة صفحة ١٤٤، وأيضا لما صح أن يجيئ فى شرعه بشيء يخالف ما فيها لكنه ﷺ جاء بأحكام كثيرة تخالف ما فى التوراة، انظر آياتى

(٩٣ ، ٩٤) من سورة آل عمران صفحة ٧٨ والآية (١٦٠) من سورة النساء صفحة ١٣٠، والآية (١٤٦) من سورة الأنعام صفحة ١٨٨.

فلم يبق إلا الطريق الثالث وهو إخباره تعالى له فى القرآن ، وهو عالم الغيب الذى لا يطلع على غيبه أحدا إلا مَنْ يرتضى من رسله، انظر آيتى (٢٦ ، ٢٧) من سورة الجن صفحتى ٧٧٢، ٧٧٣، الآية (٦) من سورة النمل صفحة ٤٩٤.

وبعد ما أقام سبحانه البراهين لكفار العرب على صدقه ﷺ أراد أن يبين أن حكمة إرسال الرسل هى سد باب المعاذير على الكفار حين يشاهدون العذاب فقال ﴿ولولا أن تصيبهم﴾ إلخ : أى ولولا فرض اعتذارهم بقولهم الناتج عن مشاهدة المصائب التى تحل بهم عقابا لهم على ذنوبهم: يا ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا ينبهنا لما يرضيك وما يغضبك فكنا نتبع ما تنزله عليه من آياتك ونكون من المؤمنين بوحدانيتك؛ أى لولا فرض ذلك محقق لما أرسلناك إليهم أيها النبى. فالكلام من قبيل ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾.

وبعدما حذرهم سبحانه من عدم قبول عذرهم شرع فى بيان ما حصل منهم عندما جاءهم هذا الرسول الذى كانوا سيعتذرون بعدم وجوده فقال ﴿فلما جاءهم﴾ إلخ : أى فلما جاءهم القرآن الحق المنزل من عندنا على رسولنا محمَّد ﷺ عاندوا وقالوا هلا آتاه الله الكتاب جملة واحدة كما فعل مع موسى، حيث آتاه الوصايا العشر جملة واحدة، انظر الآية (١٤٥) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٤، ٢١٥ والآية (١٥٠) من نفس السورة صفحة ٢١٦ وقد رد هذا سبحانه فى الآية (٣٢) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٤ بوجه آخر غير ما هنا، فانظره.

المفردات : ﴿سحران﴾: يريدون ما أوتيه موسى وهو التوراة، وما أوتيه محمَّد وهو القرآن .

﴿تظاهرا﴾: أى تعاونا بتصديق كل منهما للآخر، انظر مادة ظاهر فى الآية (٨٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦، والآية (٤) من سورة التحريم صفحة ٧٥٢.

﴿وصلنا﴾ : أصل التوصيل ضم قطع الحبل بعضها إلى بعض، والمراد أنزلنا القرآن على دفع متتابعة للحكمة الموجودة فى الآية (٣٢) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٤.

﴿يدرءون﴾ أى يدفعون.

مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ

﴿اللغو﴾ : هو ما يستحق أن يلغى ويترك من العبث وسخف القول.

المعنى : فلما جاء الرسول قالوا عنادا لا نؤمن به لأنه لم يأت بكتاب جملة واحدة كما جاء موسى بالألواح جملة واحدة. فرد سبحانه عليهم بقوله: ﴿أولم يكفروا﴾ إلخ: أى هل آمن هؤلاء بما أوتى موسى من قبل ولم يكفروا به، ويقولوا إن الله لم ينزل على بشر شيئاً، انظر الآية (٩١) من سورة الأنعام إلى آخر صفحة ١٧٧، وقالوا اليوم بعد مجىء القرآن: توراة موسى وقرآن محمَّد سحران تعاونا فى تصديق كل منهما للآخر، كما فى القرآن فى الآية (٩٢) من سورة الأنعام صفحة ١٧٧، وقالوا إنا بكل من التوراة والقرآن كافرون. عند ذلك أمر سبحانه نبيه أن يتحداهم بأن يأتوا بخير منهما فقال : قل لهم أيها النبى متحديا: فأتوا أنتم بكتاب من عند الله أكثر هداية منهما فإنى أتبعه إن كنتم صادقين فى قولكم إن التوراة والقرآن سحران . وهذا كلام يراد به الإلزام والتبكيت. فإن لم يجيبوا طلبك بالإتيان بكتاب أحسن ولن يفعلوا كما قال فى آيتى (٢٣، ٢٤) من سورة البقرة صفحة ٦، فاعلم أنه لا حجة عندهم وإنما يسيرون وراء شهواتهم فى الكبر والعناد.

وليس فى الوجود أحد أشد ضلالا ممن يتبع فى أمور الدين هواه بعيدا عن هدى الله الذى ينقذه من ضلاله، انظر الآيات (١٠٣ إلى ١٠٦) من سورة الكهف صفحتى ٣٩٤، ٣٩٥ ، ومن كان هذا شأنهم لايهديهم الله تعالى؛ لأنه لا يهدى مَنْ ظلم رسله وظلم الحق، انظر ما قيل فى

(١) تظاهرا. (٢) كافرون. (٣) بكتاب. (٤) صادقين. (٥) هواه.
(٦) الظالمين. (٧) آتيناهم. (٨) الكتاب. (٩) آمنا. (١٠) رزقناهم.

الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨.

وبعد ما أقام عليهم الحجة شرع فى بيان الحكمة فى إنزال القرآن على دفع فقال: ﴿ولقد وصلنا﴾ إلخ : أى ولقد أتبعنا بعض القرآن بعضا فى الإنزال حسب الوقائع وعلى مقتضى الحكمة ليكون أقرب إلى تذكيرهم وأدوم لتنبيههم.

ثم أكد سبحانه صدق القرآن بأن المخلصين من أهل الكتاب آمنوا به، فكان الأولى بِمَنْ لا كتاب لهم أن يؤمنوا به، خصوصا أنه بلسانهم بخلاف الكتب السابقة، انظر شرح الآية (١٠) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١.

وكان مِمَّنْ أسلم من أهل الكتاب قوم من نصارى الحبشة كما فى الآية (٨٣) من سورة المائدة صفحتى ١٥٣ ، ١٥٤، وعبد الله بن سلام وأصحابه من اليهود، وكان هؤلاء إذا تلى عليهم القرآن قالوا آمنا بكل ما فيه لأنه الحق من ربنا وإنا كنا من قبل نزوله على دين الإسلام الذى جاء به إبراهيم وكل الأنبياء، وتحققناه فى القرآن، انظر الآية (١٢٨ وما بعدها حتى ١٣٣) من سورة البقرة صفحتى ٢٥، ٢٦ والآية (١٩) من سورة آل عمران صفحة ٦٥.

هؤلاء النصارى واليهود الذين آمنوا إيمانا صحيحا بالتوراة والإنجيل وأدركوا خاتم الأنبياء وآمنوا به يؤتيهم الله تعالى يوم القيامة أجرهم مرتين : مرة على إيمانهم السابق، وأخرى على اللاحق جزاء صبرهم على أذى الكفار فى العصر الماضى والحاضر، ويصح أن يقال فى أهل الكتاب الذين آمنوا بكتابهم ونبيهم إيماناً صحيحا قبل بعثة خاتم الرسل، ثم آمنوا به وبكتابه بعد بعثته، يؤتون أجرهم مرتين بسبب صبرهم على تحمل الشدائد التى لاقوها من كفار كل من المسيحية والإسلام.

أما مقدار الأجر فى كل مرة فهو مقدار عظيم لا يعلمه إلا علام الغيوب المطلع على ما فى الصدور، فيقدر ثوابهم على قدرة قوة إيمان كل منهم، وشدة إخلاصه بدليل قوله تعالى فى آية أخرى ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ الآية (١٠) من سورة الزمر صفحة ٦٠٧، ومن أخلاقهم التى اكتسبوها بالإيمان أنهم يدفعون بالطاعة أثر المعصية وبالحلم الأذى، وهذا من آثار صبرهم، وينفقون فى وجوه الخير مما رزقهم الله تعالى، وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه لاشتغالهم بكل نافع.

وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى الْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى الْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا

المفردات : ﴿لا نبتغى﴾ : لا نطلب معاشرة الجاهلين.

﴿الجاهلين﴾ المراد بهم هنا السفهاء الحمقى، انظر الآية (٦٧) من سورة البقرة صفحة ١٣.

﴿نتخطف من أرضنا﴾ : أى ينتزعنا منها الأقوياء من المشركين بسرعة.

﴿أو لم نمكن لهم حرما﴾ : الهمزة للاستفهام التقريرى، ونمكن لهم أى نثبتهم جاعلين مكانهم حراما انتهاكه لأنه فيه البيت الحرام، انظر الآية (٩٧) من سورة المائدة صفحتى ١٥٦ ، ١٥٧ ، فالحرام والحرام بمعنى واحد.

﴿آمنا﴾ : أى ذا أمن لا يمس مَنْ فيه بسوء ، انظر الآية (٦٧) من سورة العنكبوت صفحة ٥٣٠.

(١) أعمالنا.
(٢) أعمالكم.
(٣) سلام.
(٤) الجاهلين.
(٥) آمنا.
(٦) ثمرات.
(٧) مساكنهم.
(٨) الوارثين.
(٩) آياتنا.
(١٠) ظالمون.
(١١) فمتاع.
(١٢) الحياة.
(١٣) وعدناه.

﴿يجبى﴾: أى يجمع ويساق إليه.

﴿كم﴾ : كلمة تدل على كثرة ما بعدها .

﴿من قرية﴾ من حرف يدل على أن ما بعده بيان للمراد من ﴿كم﴾.

﴿بطرت﴾: المراد كفرت بالنعمة فلم تقابلها بالشكر، انظر الآية (٤٧) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٤.

﴿معيشتها﴾ : أى ما به حياتها من مطعم ومشرب وملبس، أنظر شرح الآية (٢٠) من سورة الحجر صفحة ٣٣٩.

﴿أمها﴾ : أكبرها التى يسكنها القادة الذين يتبعهم جميع مَنْ حولهم.

المعنى : وقال هؤلاء المؤمنون للذين يلغون : لنا أعمالنا لا نحاسب إلا عليها ، سلام عليكم سلام ترك لا تحية؛ فأنا لا نسير فى طريق الجاهلين، انظر الآية (٦٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٧، والآية (٧٢) من نفس السورة صفحة ٤٧٨. ولما كان ﷺ شديد الحرص على إيمان عمه أبى طالب لأنه كان العون القوى الذى منع عنه إيذاء كفار قريش.

وكان سبحانه يعلم أن أبا طالب مصمم فى قلبه على عدم ترك دين قريش مع اعتقاده صدق ابن أخيه، فى هذا قال سبحانه: إنك أيها النبى لا تستطيع أن توفق مَنْ تحب إلى الإيمان ولو بذلت كل مجهود فلا تتعب نفسك، وليس عليك إلا البلاغ كما فى الآية (٢٧٢) من سورة البقرة صفحة ٥٨، ولكن الله وحده هو الذى يهدى مَنْ يشاء هدايته لحسن استعداده؛ لأنه أعلم بالمستعد للهداية وغيره.

وكان بعض كفار قريش ممن يعرفون الحق يقولون له ﷺ نخشى إن اتبعنا ما جئت به وخالفنا مَنْ حولنا من قبائل العرب القوية كثقيف وغيرها أن يحاربونا ويطردونا من ديارنا، فرد سبحانه عليهم بقوله ﴿أو لم نمكن لهم﴾ إلخ: أى هل لم نحفظهم ونجعل مكانهم مقدسا آمنا كل مَنْ فيه حتى الحيوان، فى الوقت الذى تتقاتل العرب حولهم من كل جهة وهم آمنون فى هذا الحرم الذى يحمل إليه ثمرات من كل ما يحتاجون إليه؛ جعلنا لهم ذلك رزقاً من عندنا؛ والمعنى أن الخوف لا يصح عذرًا لأنا جعلناكم فى بلد أمين من أقدم العصور فكيف

يكون أمنا لكم حال كفركم ولا يكون أمنا إذا آمنتم بمَنْ جعل له هذه القداسة؟ انظر آيتى (٣ ، ٤) من سورة قريش صفحة ٨٢٣، ولكن أكثرهم جهلة لا يتنبهون إلى الصواب الذى فيه خيرهم.

ثم أراد سبحانه أن يرد على شبهتهم من طريق آخر وهو أن عدم الإيمان لا يحفظ النعم بل يزيلها فقال ﴿وكم أهلكنا﴾ إلخ : أى وكثيراً من القرى التى كثر الخير على أهلها حتى بطروا تلك النعم خربناها فأصبحت مساكنهم خاوية لا يسكن فيها أحد من بعدهم إلا قليلا جدا من المارة الذين ينزلون بها يوما أو بعض يوم.

ولم يكن لهم من ذريتهم مَنْ يرثهم فى سكناها بل ورثها الله تعالى وحده، لأن كل شىء ليس له مالك معين يقال إنه ميراث الله عز وجل، انظر الآية (١١٢) من سورة النحل صفحة ٣٦١.

وما صح فى عدل ربك أيها النبى أن يهلك القرى قبل أن يبعث فى كبراها رسولا يتلو عليهم الآيات الناطقة بالحق، فإن اتبعوه نجوا وإلا هلكوا ، لأنهم ظلموا أنفسهم، وظلموا رسولهم، وظلموا الحق ، ثم بيَّن فساد ردهم من وجه ثالث وهو أنه لا يصح أن يكون عدم إيمانهم لمجرد المحافظة على متاع الدنيا، فقال: وكل ما أعطيتم أيها الناس من شىء من الأموال والأولاد فهو متاع الدنيا وزينتها فقط وليس له بقاء وعند الله تعالى من نعم الجنة خير وأبقى؛ هل تجهلون هذا فلا تعقلون الخير من غيره؟

وبعد ما بيَّن التفاوت فى النعيمين أراد أن يبين التفاوت بين صاحبيهما فقال تعالى ﴿أفمن وعدناه وعدا حسنا﴾ إلخ .

المفردات : ﴿المحضرين﴾: الذين تحضرهم الملائكة للعذاب رغم أنوفهم، والقرآن لم يستعمل هذا اللفظ إلا فى ذلك، انظر الآية (١٦) من سورة الروم صفحة ٥٣٢، والآية (٥٧) من سورة الصافات صفحة ٥٩٠.

﴿حق عليهم القول﴾: أى استحقوا العذاب، انظر شرح الآية (٨٢) من سورة النمل صفحة ٥٠٤.

﴿ولو أنهم كانوا يهتدون﴾: جواب لو مفهوم من المقام أى : لما رأوا العذاب ﴿عميت عليهم الأنباء﴾: المراد خفيت عليهم الأنباء فلم يهتدوا إليها.

﴿لا يتساءلون﴾: أى لشدة الهول لا يسأل أحد غيره شيئاً مما يساعده على الخروج من الخطر، انظر الآية (١٠) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥.

﴿الخيرة﴾: مصدر بمعنى الاختيار مأخوذ من تخير كالطيرة، انظر الآية (١٨) من سورة يس صفحة ٥٨٠.

المعنى : هل يستوى المؤمن الذى وعده ربه بالجنة وما فيها فهو واصل لهذا النعيم قطعا لاستحالة تخلف وعده تعالى؛ مع مَنْ تمتع بزخرف الدنيا المشوب بالآلام المهدد بالتحسر على انقطاعه، ثم هو يوم القيامة

فَهُوَ لَاقِيهِ[1] كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ[2] مَتَٰعَ[3] ٱلْحَيَوٰةِ[4] ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ[5] مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ[6] ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ[7] كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ[8] وَعَمِلَ صَٰلِحًا[9] فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ[10] ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ[11] عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ

من العصاة الذين تجرهم الملائكة للعذاب الذى لاشك فيه؟ إنهما بعد هذا التفاوت الظاهر لا يستويان. واذكر أيها النبى لقومك ما سيحصل يوم يناديهم ربهم نداء توبيخ فيقول لهم أين شركائى الذين كنتم تزعمون أنهم شركاء لى؟ وكان هذا التوبيخ على مسمع من معبوداتهم؛ ولذا قال ﴿الذين﴾ إلخ : أى قال الشركاء المزعومون من شياطين الإنس والجن ورءوس الكفر الذين

(١) لاقية.
(٢) متعناه.
(٣) متاع.
(٤) الحياة.
(٥) القيامة.
(٦) شركائي.
(٧) أغويناهم.
(٨) وآمن.
(٩) صالحا.
(١٠) سبحان.
(١١) وتعالى.

ثبت عليهم مضمون قول الله ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس﴾ كما فى الآية (١٣) من سورة السجدة صفحة ٥٤٦، وانظر ما قيل فى الآية (٢٨) من سورة يونس صفحتى ٢٧٠ ، ٢٧١. قالوا تمهيداً للجواب : يا ربنا هؤلاء الذين أشركونا معك فى العبادة أغويناهم بمجرد الوسوسة التى وافقت أهواءهم، ولم يكن لنا عليهم جبر، انظر الآية (٢٢) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٢، فكانوا فى غوايتهم كما غوينا نحن، كل منا باختياره، فنحن اليوم نوجه تبرؤنا إليك منهم ومما اختاروه من الكفر والمعاصى تحت تأثير شهوات أنفسهم، لأنهم فى الحقيقة ماكانوا يعبدوننا، وإنما كانوا يعبدون أهواءهم، انظر الآية (٢٣) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٣، أى فلا تعاقبنا على ضلالهم عذابًا زائدًا على عقابنا على ضلالنا، ثم يوجه الخطاب للمشركين فيقول لهم تهكما : ادعوا شركاءكم الذين زعمتم أنهم يشفعون لكم ليغيثوكم، انظر الآية (١٨) من سورة يونس صفحة ٢٦٨. فلشدة حيرتهم دعوهم فلم يجيبوا لهم دعاء، لأنهم أعجز من أن ينقذوا أنفسهم فضلا عن غيرهم، ورأى الجميع من العابدين والمعبودين النار، ولو أنهم كانوا فى الدنيا مهتدين لما رأوها. وبعد أن يوبخهم على إشراكهم يوجه إليهم نداء توبيخ آخر على موقفهم مع الرسل الذين نهوهم عن الشرك فقال: ويوم يناديهم فيقول ما الذى قلتموه لرسلكم عندما طلبوا منكم توحيدنا؟ فغابت عنهم أخبار ما قالوه من شدة الحيرة فلا يستطيع أن يسأل أحدهم الآخر لأن المقام شديد، يرهب الرسل أنفسهم فضلا عن العصاة المجرمين، انظر الآية (١٠٩) من سورة المائدة صفحة ١٥٩، هذا ما سيحصل لهؤلاء إذا استمروا؛ أما من تاب منهم وعمل صالحا فيرجى له أن يكون من الفائزين. ولما كان مما قاله المشركون لو كان هذا القرآن نزل على عظيم من عظماء مكة لآمنا، انظر الآية (٣١) من سورة الزخرف صفحة ٥٥، رد سبحانه عليهم بقوله: وربك أيها النبى هو الذى يخلق ما يشاء كما يشاء، ويختار من خلقه مَنْ يشاء لتبليغ رسالته، ولا يختار إلا طاهر النفس، حسن الاستعداد، لا صاحب المال والجاه كما فى الآية (١٢٤) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣، فما كان الاختيار لهؤلاء المشركين. تنزيها لله تعالى عن أن ينازعه غيره فى الاختيار، وتعاليا وترفعا له عن شركهم . ولما كان قولهم هذا مجرد حسد وتمويه على الحق، هددهم سبحانه بقوله : وربك يعلم ما تخفيه صدورهم من الحقد عليك أيها النبى.

وما يعلنون ﴿٦٩﴾ وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴿٧٠﴾ قل أرءيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ﴿٧١﴾ قل أرءيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ﴿٧٢﴾ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴿٧٣﴾ ويوم يناديهم فيقول أين شركاءي الذين كنتم تزعمون ﴿٧٤﴾ ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴿٧٥﴾ * إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وءاتيناه

المفردات : ﴿أرايتم﴾: المراد أخبروني . ﴿سرمدا﴾: دائما أبدا ﴿لتبتغوا﴾: تطلبوا بالسعى فى الأرض، انظر الآية (١٥) من سورة الملك صفحة ٧٥٥ . ﴿نزعنا﴾ أحضرنا. ﴿شهيدا﴾: هو نبيها، انظر آيتى (٤١ ، ٤٢) من سورة النساء صفحة ١٠٧ . ﴿ضل﴾: غاب ﴿قارون﴾ : قيل كان من أقارب موسى حتى قال كثير من السلف أنه ابن عمه ولكنه نافق مثل السامرى المذكور فى صفحة ٤١٣ ثم أعلن الكفر أخيرا.

﴿بغى﴾ : تكبر وطلب أن تكون له الكلمة فيهم.

المعنى : الله سبحانه هو الذى يعلم ما تكن صدور المشركين له ﷺ من الحقد وما يعلنونه من الطعن فيه بمثل ما فى صفحة ٤٢٠، ولما كان لا يعلم ما فى الصدور إلا الله الإله الواحد الحق، قال سبحانه: هو الله لا إله إلا هو، أى لا يصح أن يعبد سواه، له وحده الحمد فى الدارين، لأنه مصدر النعيم فيهما، وله الحكم النافذ فى كل شىء، وإليه ترجعون أيها المشركون أنتم والخلق أجمعون فيجازيكم على أعمالكم خيراً أو شراً. ثم شرع فى ذكر بعض نعمه سبحانه فقال ﴿أرايتم﴾ إلخ : أى قل أيها النبى لمشركى قومك أخبرونى إن جعل الله كل أزمانكم ليلاً لا نهار فيها إلى يوم القيامة من هو الإله المغاير لله الذى يستطيع أن يأتيكم بنهار تسعون فيه على رزقكم؟ هل أصبتم بصمم فلا تسمعون هذه العبر سماع فهم وتدبر؟ قل أيضا أخبرونى إن جعل الله كل أزمانكم نهارًا لا ليل فيه مَنْ هو الإله غير الله الذى يأتيكم بليل

(١) الآخرة. (٢) ارايتم. (٣) الليل.
(٤) القيامة. (٥) ارايتم. (٦) القيامة.
(٧) الليل. (٨) شركائى. (٩) برهانكم.
(١٠) قارون. (١١) آتيناه.

تستريحون فيه من عناء العمل؟ هل أصابكم العمى فلا تبصرون آيات الله التى نصبها فى الكون دالة على أنه وحده هو الذى يفعل كل شىء إبصار تأمل واعتبار بعين البصيرة، انظر الآية (١٠٤) من سورة الأنعام صفحة ١٨٠، والآية (٢٠١) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٥، والآية (٢١) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٣ . ثم بيَّن سبحانه حكمته فى خلق الليل والنهار فقال: ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا، أى تستريحوا فى الليل، ولتسعوا فى طلب الرزق فى النهار، ولتكونوا مستعدين لشكره على نعمائه. ولما كان عماد رسالة الرسل هو الدعوة إلى التوحيد، وأنه لا شىء أجلب لغضب الله من الإشراك به، انظر الآية (٤٨) من سورة النساء صفحة ١٠٨، والآية (٧٢) من سورة المائدة صفحتى ١٥١ ، ١٥٢، ولا شىء أجلب لرضا الله من توحيده، أنظر الآية (٧) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٦ ، ٦٠٧، لما كان كل هذا أعاد سبحانه تقريع المشركين على شركهم متبعا التقريع هنا بأنهم أشركوا عن عمى قلب لا عن برهان فقال : ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون﴾ فلما لم يجدوا أحضر سبحانه من كل أمة رسولها الذى أرسل إليها ليشهد لها أو عليها، وقلنا لهؤلاء المشركين هاتوا برهانكم على ما تزعمون، فعجزوا وعلموا أن الحق أى الحجة البالغة لله تعالى عليهم، وغاب عنهم ما كانوا يفترونه على الله كذبا من أنه له شريكا. وبعد ما بيَّن سبحانه محاربة أهل الضلال للحق ومصيرهم فى الآخرة وتحسرهم أراد سبحانه أن يضرب لهم مثلا بما حصل لأمثالهم فى الدنيا قبل الآخرة فقال (إن قارون) إلخ : ومن المعلوم أن رءوس الكفر التى حاربها موسى كانوا فرعون وهامان وقارون، انظر الآية (٣٩) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٦، وسبب طغيان فرعون وهامان هو الخوف على الملك والرياسة كما تقدم؛ أما قارون فكان سبب طغيانه الغنى على حسب الطبع الغالب فى الإنسان المحروم من التوفيق، فإنه يقابل النعمة بدل الشكر عليها بالكفر والعصيان، وقليل من العباد مَنْ يقابلها بالشكر، انظر الآية (١٣) من سورة سبأ، والآية (٣٤) من نفس السورة صفحتى ٥٦٧، ٥٦٨، وآيتى (٦ ، ٧) من سورة العلق صفحة ٨١٤، وقالوا إن من أسباب عداوة قارون لموسى وهارون حسده لهما على أن يكونا رسولين مع أنه أغنى منهما، فلذا لما طلب منه موسى زكاة ماله للفقراء امتنع وطلب أن يكون هو صاحب الكلمة النافذة فى بنى إسرائيل، فى كل هذا قال

مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ

سبحانه: ﴿إن قارون كان من قوم موسى﴾ أى كما أنكم يا كفار قريش من قوم محمَّد، فبغى على موسى وقومه بالتكبر بسبب أنه أعطى من الكنوز ما ليس عندهم، ظن أن العظمة والاستحقاق بالمال، انظر ما قاله كفار مكة فى نبيهم فى الآية (٣١) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠.

المفردات : ﴿الكنوز﴾ التى كانت مدفونة خصوصا فى قبور قدماء المصريين.

﴿ما إن﴾ : (ما) اسم موصول بمعنى التى والجملة المصدرة بأن صلتها. ﴿مفاتحه﴾: جمع مفتح بفتح فسكون، كمرصد ومراصد، وهو المخزن، قال ابن عباس: هى خزائنه وأوعيته.

﴿تنوء﴾ : أى تصير ثقيلة عليهم من قولهم ناء بفلان الحمل إذا أثقله حتى أمال ظهره.

﴿العصبة﴾: الجماعة الكثيرة، انظر الآية (٨) من سورة يوسف صفحة ٣٠٣.

﴿أولى القوة﴾ : أصحاب الشدة. ﴿على علم عندى﴾: المراد لأن عندى علما بمواضع الكنوز، أى حصلت عليه باستحقاق لا فضل لأحد علىَّ فيه. ﴿لا يسأل عن ذنوبهم﴾ لا يسألون سؤال استجلاب للرحمة، فلا ينافى أنهم يسألون سؤال توبيخ وتبكيت، انظر الآية (٩٢) من سورة الحجر صفحة ٣٤٤، وآيتى (٢٤ ، ٢٥) من سورة الصافات صفحة ٥٨٨.

(١) لتنوء.
(٢) آتاك.
(٣) الآخرة.
(٤) يسأل.
(٥) الحياة.
(٦) ياليت.
(٧) قارون.
(٨) آمن.
(٩) صالحا.
(١٠) يلقاها.
(١١) الصابرون.

﴿ويلكم﴾ : أصل معنى ويل الدعاء بالهلاك ثم استعمل فى معنى الزجر عن شىء، فالمراد لا تقولوا هذا الخطأ. ﴿يلقاها﴾ : المراد يتلقى الصالحات ويعطاها من عنده سبحانه، أنظر الآية (١١) من سورة الإنسان صفحة ٧٨٢.

المعنى : وآتينا قارون من الكنوز المقادير التى يشق حمل خزائنها على الجماعة القوية، فأظهر التفاخر والفرح بما أوتيه حين قال له قومه المؤمنون من بنى إسرائيل: لا تفرح ، فرح بطر وشغف بالدنيا، لأن ذلك علامة التفانى فيها ونسيان الآخرة، والله تعالى لا يحب مَنْ كثر فرحه بها حتى شغلته عن آخرته ، واطلب من الغنى بسبب هذا المال الذى تفضل الله به عليك الدار الآخرة بأن تصرف منه فى وجوه الخير، ولا تنس نصيبك من الدنيا بأن تأخذ ما يكفيك ولا تقتر على نفسك وعيالك ، أى اسلك الطريق الوسط، انظر آيتى (٢٦ ، ٢٩) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٨، وأحسن شكر ربك بطاعته كما أحسن إليك بجزيل النعم، ولا تطلب بكثرة المال الفساد فى الأرض لأن الله لا يحب المفسدين، ومن لا يحبه الله يغضب عليه، ومن غضب عليه فقد هوى، انظر الآية (٨١) من سورة طه صفحة ٤١٣.

قال قارون ردا على هذا النصح الجميل: إنما حصلت على هذا المال على استحقاق، لأن عندى من العلم ما استوجب أن أتفوق عليكم جميعا بالجاه والمال، ولم يعترف بأن لله فضلا عليه يلزمه شكره ، فكان رده سبحانه عليه قوله ﴿أولم يعلم﴾ إلخ : أى هل نسى ما جاء فى التوراة من إهلاك عصاة الأمم السابقة، ولم يعلم أن الله قد أهلك منهم مَنْ هم أشد منه قوة وأكثر جمعا للأموال ، انظر الآية (٦٩) من سورة التوبة صفحتى ٢٥٢، ٢٥٣ والاية (٨٢) من سورة غافر صفحة ٦٢٩، وبعد ما بيَّن سبحانه جهل قارون أراد أن يبين ما سيلاقيه هو وأمثاله المجرمين يوم القيامة فقال ﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ أى لا يسأل سبحانه المجرمين يوم القيامة عن ذنوبهم سؤال عتاب مقدمة للرحمة، انظر الآية (٨٤) من سورة النحل صفحة ٣٥٧، والآية (٢٤) من سورة فصلت صفحة ٦٣٣.

ثم شرع سبحانه فى بيان مظهر من مظاهر اغترار قارون بالمال مقدمة لإهلاكه فقال (فخرج) إلخ : أى فخرج قارون على قومه ذات يوم فى زينة عظيمة من مراكب فاخرة وخدم مريدا بذلك التعالى عليهم بإظهار العظمة، قال الذين كُلُّ همهم الدنيا: ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم. وقال الذين أعطاهم الله تعالى العلم الصحيح بما أعده الله لعباده

وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ(١) ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ(٢) نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ(٣) لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ(٤) لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ(٥) مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟(٦) أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ(٧) إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ

المؤمنين فى الآخرة : زجراً لكم عن هذا القول الباطل، فثواب الله فى الآخرة خير من كل هذا المتاع الزائل لمن آمن وعمل صالحا، ولا يمن الله بالتوفيق للأعمال الصالحات إلا على الصابرين على شدائد الدنيا وفتنتها . فخسفنا بقارون الأرض إلخ .

المفردات : ﴿وبداره﴾: المراد المنطقة التى كانوا فيها. ﴿من فئة﴾ : أى جماعة انظر الآية (٢٤٩) من سورة البقرة صفحتى ٥١ ، ٥٢، ومن لتأكيد عموم نفى ﴿ما﴾ التى بعدها.

﴿ويكأن الله﴾: أصل التركيب.

(ويك أن الله) و (ويك) و (وى) كلمتان تستعملان للدلالة على التعجب أو الندم، والمراد هنا الثانى ، والمعنى يا أسفا ألم نعلم أن الله يبسط إلخ. ﴿يبسط الرزق﴾ : أى يوسع ﴿ويقدر﴾ : أى ويضيق ، كما فى الآية (١٦) من سورة الفجر صفحة ٨٠٧. ﴿علوا فى الأرض﴾: أى تعاليا على الناس بالقهر والاستبداد ﴿فرض عليك﴾: أى أوجب عليك العمل به، انظر الآية الأولى من سورة النور صفحتى ٤٥٦ ، ٤٥٧. ﴿لرادك﴾ : جاء الرد فى لغة العرب، على معنيين : الأول : إرجاع الشىء إلى ما كان عليه . والثانى : صرف الشىء من حال إلى حال، ومن جهة إلى

(١) الكافرون.
(٢) الآخرة.
(٣) العاقبة.
(٤) القرآن.
(٥) ضلال.
(٦) ترجو.
(٧) الكتاب.

حال، ومن جهة إلى جهة. فمن الأول ما فى الآية (٢٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦، والآية (٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٥. ومن الثانى فى الآيات (٥٩) من سورة النساء صفحة ١١٠، و(١٤٧) من سورة الأنعام صفحة ١٨٨، و(١٠٧) من سورة يونس صفحتى ٢٨٢، ٢٨٣، ويقال لمَنْ ولد مسلما ثم كفر فلان ارتد أى تحول عن دينه ومنه حديث معاذ بن جبل لما بعثه ﷺ إلى اليمن وقال له بخصوص الزكاة (صدقة تؤخذ من أغنيائهم ترد إلى فقرائهم). فرادك هنا تؤخذ على المعنى الأول فمعناها مرجعك إلى ما كنت فيه. وعلى المعنى الثانى فيكون معناها صارفك وموصلك كما سيأتى فى المعنى. (إلى معاد) : المعاد إما من (عاد) بمعنى (رجع) وإما من (عاد) بمعنى (صار)، والكل كثير فى كلام العرب. فمن الأول ما فى الآية (٢٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦، ومن الثانى ما فى الآية (٣٩) من سورة يس صفحة ٥٨٢ وقوله ﷺ لمعاذ لما أطال الصلاة فوق المطلوب، فتألم الناس (لا تعد فتانا يا معاذ) أى لا تصر منفرًا. ومنه قوله ﷺ فى دعائه (وأصلح لى آخرتى التى فيها (أو إليها معادى) أى مصيرى. فالمعاد إما مكان الرجوع أى المرجع، أو المكان الذى يصير إليه أى المصير والنهاية، فهو اسم مكان كالمفاز فى الآية (٣١) من سورة النبأ صفحة ٧٨٨.

المعنى : لما اغتر قارون بكثرة المال خسف الله به وبداره الأرض، فابتلعته هو وماله ومَنْ كان على مذهبه، وفى التوراة أنهم كانوا أكثر من ٢٥٠ رجلا، انظر سفر العدد فى إصحاح (١٦)، فما كان له قوة غير الله تنصره بمنع العذاب عنه، وما كان هو مستطيعا نصر نفسه بنفسه، وقد حصل ذلك لقارون بعد خروج بنى إسرائيل من مصر، وأصبح الذين تمنوا فى الزمن القريب جدا أن يكونوا فى منزلته فى الدنيا يقولون يا أسفا على ما كنا فيه من الخطأ، ألم نعلم أن الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده لحكمة غير رضاه عنه، ويضيقه على مَنْ يشاء لا لكرهه له، انظر الآية (١٨٠) من سورة آل عمران صفحة ٩٣، والآية (٤٤) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٨ ، ١٦٩، وآيتى (٥٥ ، ٥٦) من سورة المؤمنون صفحتى ٤٥٠ ، ٤٥١، لولا أن مَنَّ الله علينا بحفظنا مما كان عليه قارون من النفاق وغيره لخسف الأرض بنا معه. ثم كرروا الأسف على جهلهم أن الحقيقة أن الكافر بالله تعالى وبنعمه عليه لا يفلح أبدا. ثم أيد سبحانه قول أهل العلم فيما سبق من أن ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا بقوله (تلك

الدار الأخرة) إلخ: أى تلك الدار الرفيعة المنزلة وهى الجنة نجعل نعيمها للذين لا يريدون تكبرا على الحق وعلى الناس، ولا فسادا فى الأرض، لأن العاقبة المحمودة دائما تكون للمتقين.

ثم بيّن ما سيكون يوم القيامة من الجزاء فقال (من جاء بالحسنة فله خير منها) وأقله عشر أمثالها كما فى الآية (١٦٠) من سورة الأنعام صفحة ١٩١، وأكثره لا حد له كما فى الآية (٢٦١) من سورة البقرة صفحة ٥٥، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها، كما فى صفحة ١٩١، وإنما قال يجزى الذين عملوا السيئات وخالف ما فى صفحة ١٩١ للإشعار بقبح السيئة وإنها منشأ إساءتهم، وجمع السيئات للإشارة إلى كثرتها وكثرة أصحابها بالنسبة للطائفتين، انظر الآية (١٠٣) من سورة يوسف صفحة ٣١٨، و(٢، ٣) من سورة العصر صفحتى ٨٢٠، ٨٢١.

وبعد ما بيّن سبحانه لكفار مكة ما حصل لأمثالهم ممن كذبوا رسلهم ما فيه العبرة، وبين عاقبة المتقين أراد سبحانه أن يطمئن رسوله ﷺ بأن النصر فى النهاية له، وأن العاقبة الحسنى ستلاقيه، لأنه قام بما أمر به خير قيام، فقال: إن الذى فرض عليك القرآن أى العمل بما فيه فقمت به خير قيام لابد أن يرجعك إلى مكة بعد أن يتسبب قومك فى إخراجك منها سيرجعك إليها عزيزا منتصرا، ويذلهم ويخزيهم. قال بهذا جماعة من الصحابة والتابعين. أو المعنى: لابد أن يصرفك ويوصلك إلى مصير عظيم جدا يليق بك، وليس ذلك إلا الجنة التى فيها ما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر، وقال بهذا جماعة أيضا منهم علىّ بن أبى طالب عليه السلام وابن عباس، وأبو سعيد الخدرى رضى الله عنهم أجمعين، ولكل وجهة فاختر لنفسك ما يرضيها. والله أعلى وأعلم.

ثم أراد سبحانه أن يؤكد هذا الوعد مع تهديد المشركين بأسلوب لين فقال: (قل ربى) إلخ: أى قل أيها النبى لهم ربى هو الذى يعلم بمن جاء بالهدى من عنده وبما يستحقه من الثواب والنصر، ويعلم من هو فى ضلال واضح وما يستحقه من العذاب والإذلال، ثم أكد صدق وعده مرة أخرى لزيادة تطمينه ﷺ ولتيئيس الكفار فقال (وما كنت ترجو) إلخ أى أنه سيردك إلى معاد كما ألقى إليك الكتاب، وما كنت ترجو ذلك ولكن ألقاه إليك رحمة منه لك وللعباد، لأن القرآن كله هدى ورحمة، وإذًا فلا تكونن معينا للكافرين.

ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

(٢٩) سُورَةُ العَنكَبُوتِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَسِتُّونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾

المفردات: . ﴿ظهيرا﴾: أى معينا كما فى الآية (١٧) المتقدمة صفحة ٥٠٨. ﴿لا يصدنك﴾: أصلها يصدونك فحذفت نون الفعل لوجود النهى وأدخلت عليه نون التوكيد.

المعنى: . فلا تكونن أيها النبى معينا للكافرين. وهذا النهى وما بعده يقصد به قطع أطماع المشركين بإظهار أن المنهى عنه وصل إلى درجة من القبح تطلب أن ينهى عنه من لايتصور وقوعه منه أصلا؛ ولذا قال ابن عباس فى هذا وأمثاله: الخطاب فى الظاهر له ﷺ والمراد غيره، انظر سورة الكافرون صفحة ٨٢٤، والآية (٤٩) من سورة المائدة صفحة ١٤٧، والآية (٧٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٤ والآية (٢٨) من سورة الكهف صفحة ٣٨٤. ولا يصدك هؤلاء الكافرون عن قراءة آيات الله والعمل بها بعد وقت إنزالها عليك المقتضى أنك رسول، وادع الناس إلى توحيد ربك فى العبادة، ولاتكونن من المشركين بسبب معاونتك لهم، ولاتدع مع الله إلها آخر لأنه لا إله إلا هو، وكل شىء قابل للوجود فى هذه الدار فى وقت من الأوقات فإنه قابل للفناء إلا ذاته سبحانه وتعالى فإنه باق أبدا لايتغير، له سبحانه الحكم النافذ فى كل شىء، وإليه ترجعون جميعا للحساب والجزاء. والله تعالى أعلم.

سورة العنكبوت

المفردات: . ﴿الٓمٓ﴾: تنطق هكذا: ألفْ لامْ ميمْ بسكون الجميع، وتقدم المراد منها أول سورة البقرة. ﴿أحسب﴾: أى هل ظن. ﴿أن يتركوا﴾: أى يهملوا بلا اختبار بالتكاليف ولا جزاء فى الآخرة، انظر الآية (٣٦) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠. ﴿أن يقولوا آمنا﴾: أى لمجرد قولهم بأفواههم آمنا. ﴿لايفتنون﴾: أى لايختبرون ولايمتحنون بالتكاليف والمشاق.

(١) الكافرين. (٢) آيات. (٣) آخر. (٤) ألف. لام. ميم. (٥) آمنا. (٦) الكاذبين.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ

المعنى: . ألفْ. لامْ. ميمْ. هل ظن الناس أننا نتركهم لمجرد قولهم آمنا والحال أنهم لايختبرون بما يظهر حقيقتهم وما انطوت عليه نفوسهم؟ كلا، بل لابد من امتحانهم بالعسر واليسر والتكاليف، انظر آيتى (١٥٥، ١٥٦) من سورة البقرة صفحة ٣٠، والآية (١٨٦) من سورة آل عمران صفحة ٩٤، والآية (١٣١) من سورة طه صفحة ٤١٩، والآية (٣٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٤، والآية (١١) من سورة الحج صفحة ٤٣٤، والآية (٢٠) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢، وآيتى (١٦، ١٧) من سورة الجن صفحتى ٧٧١، ٧٧٢. ولقد فتنا الذين من قبلهم كقوم فرعون فى الآية (١٧) من سورة الدخان صفحة ٦٥٧، وغيرهم فى الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢، ومن الآية (٤) إلى الآية (١٠) من سورة البروج صفحة ٨٠١. فالمراد أن هذه هى سنة الله تعالى التى اقتضتها حكمته. وبهذا الامتحان يعلم سبحانه حال الذين صدقوا فى إيمانهم، وحال الكاذبين فيه، فيجازى كلا بما يستحقه.

المفردات: . ﴿أم حسب﴾: المعنى: هل ظن، انظر الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢.
﴿يسبقونا﴾: أى يفوتونا، والمراد يفلتون من عقابنا ﴿ساء﴾: قبح. ﴿مايحكمون﴾: حكمهم.
﴿يرجو لقاء الله﴾: أى يؤمن بالبعث، انظر صفحة ٤٧٣.

﴿بوالديه حسنا﴾: المراد إحسانا تاما حتى كأنه الحسن ذاته، انظر شرح الآية (٢٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٧. ﴿جاهد﴾: أى قاوم نفسه بالصبر على مشاق الطاعة والكف عن الشهوات وغير ذلك، وإنما قلنا ذلك لأن السورة مكية ولم يكن فى مكة جهاد.

﴿أوذى فى الله﴾: أى آذاه الظالمون لأجل إيمانه بالله.

---

(١) يرجو. (٢) لآت. (٣) جاهد. (٤) يجاهد. (٥) العالمين.
(٦) آمنوا. (٧) الصالحات. (٨) الإنسان. (٩) بوالديه. (١٠) جاهداك.
(١١) آمنوا. (١٢) الصالحات. (١٣) الصالحين. (١٤) آمنا. (١٥) ولئن.

﴿فتنة الناس﴾: ما يصيبه من أذيتهم. ﴿أو ليس الله بأعلم﴾: المراد من هذا التركيب أنه سبحانه يعلم قطعا، انظر تفصيل ذلك فى الآية (٤٠) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠.

المعنى: . هل ظن هؤلاء الذين يرتكبون السيئات أن يفلتوا من عقابنا؟ كلا، لن يفلتوا، فبئس حكما حكمهم هذا. ثم أراد سبحانه أن يبين منشأ جرأتهم على المعاصى وهو إنكارهم البعث بعد الموت، فقال ﴿مَنْ كان يرجو﴾ إلخ: المراد مَنْ كان يؤمن بآخرة يلقى فيها ربه ليفيه حسابه كما فى الآية (٣٩) من سورة النور صفحة ٤٦٤، فليسارع إلى فعل ماينفعه، لأن أجل الله الذى حدده لهذا اليوم الآخر آت لاشك فيه. والله وحده هو السميع لكل قول، العليم بالعقائد والأعمال، فيجازى حسبها فى ذلك اليوم. ثم بين سبحانه أن مايطلبه من المكلفين هو لمصلحة أنفسهم فقال ﴿ومن جاهد﴾ إلخ: أى من اجتهد فى حرب نفسه وشهواتها أو فى الخير للمجتمع فثمرة جهاده تعود على نفسه، لأن الله غنى عن كل العالمين، فليس سبحانه محتاجا لعمل مخلوق قال الحسن البصرى: إن الرجل ليجاهد وماضرب يوما بسيف. ثم بيَّن جزاء المطيع فقال: ﴿والذين آمنوا﴾ إلخ: أى والذين آمنوا بالله ورسله وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم التى وقعت منهم، ولنجزينهم أحسن جزاء لأعمالهم، فإذا كان جزاء الحسنة مثلها نجزيهم عشر أمثالها بل وأكثر. ثم بيَّن سبحانه أفضل الطاعات بعد توحيده وهى الإحسان للوالدين فقال ﴿ووصينا﴾ إلخ: أى ووصينا الإنسان وأمرنا أن يحسن لوالديه إحسانا كثيرا جدا حتى كأنه هو الحسن نفسه، وقلنا له داوم على الإحسان إليهما وعلى طاعتهما إلا فى حالة واحدة فلا تطعهما فيها مع بقاء إحسانك لهما فيما عداها وهى حالة ما إذا حرضاك على أن تتبعهما فى أن تشرك، بربك آلهة ليس عندك علم بألوهيتها، وبالأولى ما تعلم بطلانها. وإلى الله مرجعكم أيها الخلق جميعا يوم القيامة: مَنْ آمن منكم ومَنْ كفر، ومَنْ بر والديه ومَنْ عقهما، وسيجازيكم على ذلك. ثم بيَّن سبحانه منزلة عظمى سيمنحها للطائعين فقال ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ وعزتى لأجعلنهم فى زمرة الكاملين فى الصلاح الذى هو متمنى الأنبياء ومنتهى درجات المؤمنين، انظر الآية (٨٤) من سورة المائدة صفحة ١٥٤ والآية (١٩٦) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٥، والآية (١٠١) من سورة يوسف صفحة ٣١٨، والآية (٧٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٨، والآية (٨٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٥، وبعد مابيَّن سبحانه قسمين من الناس هما المؤمن حسن الاعتقاد والعمل، والكافر المجاهر بالكفر والعناد، وبيَّن ما أعد لكل منهما، أراد سبحانه أن يبين قسما ثالثا وهم ضعاف الإيمان

اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ

والمنافقون فقال: ومن الناس فريق يقول آمنا بالله فإذا أصابته شدة من جهة الكفار بسبب إظهاره الإيمان اعتبر ما يصيبه من ايذاء الناس له فى منزلة عذاب الله تعالى له يوم القيامة بجهنم جزاء كفره، والمراد جزع منه كما يجزع من عذاب الله فيرتد إلى الكفر. ولئن جاءك أيها النبى نصر من ربك كنصر على الأعداء أو غنيمة يقولون إنا كنا معكم فى الدين فأشركونا فى ثمرة هذا النصر، انظر آيتى، (٧٢، ٧٣) من سورة النساء صفحة ١١٢، والآية (١٤١) من نفس السورة صفحة ١٢٧، فهل يظن كل واحد منهم أنه هو وحده الذى يعلم ما فى داخل نفسه وليس الله تعالى بعالم ذلك.

المفردات: ﴿بأعلم﴾: الباء لتأكيد نسبة العلم لله سبحانه. ﴿ولنحمل خطاياكم﴾: الأصل اتبعوا سبيلنا نحمل إلخ ولكنهم جاءوا بلام الأمر الدالة على أنهم يوجبون على أنفسهم تحمل خطايا الغير ليشجعوهم على اتباعهم. ﴿من شىء﴾: من لتأكيد عموم نفى ما بعدها. ﴿أثقالهم﴾: المراد أوزارهم. ﴿لبث﴾: أى مكث ﴿ألف سنة إلا خمسين عاما﴾: قال الزمخشرى فى تفسيره: فإن قلت: هلا قيل (تسعمائة وخمسين سنة) قلت: ما أورده الله سبحانه أحكم. لأنه لو قيل كما قلت لجاز أن يتوهم السامع إطلاق هذا العدد على ما يقرب منه. أى ويكون فى الحقيقة أقل مما ذكر. ويزول هذا التوهم بمجيئه على الوجه الذى جاء به القرآن فكأنه

(١) العالمين. (٢) آمنوا. (٣) المنافقين. (٤) آمنوا. (٥) خطاياكم.
(٦) بحاملين. (٧) خطاياهم. (٨) لكاذبون. (٩) ليسألن. (١٠) القيامة.
(١١) ظالمون. (١٢) فأنجيناه. (١٣) أصحاب. (١٤) جعلناها. (١٥) آية.
(١٦) للعالمين. (١٧) إبراهيم. (١٨) أوثانا.

قال: تسعمائة وخمسين سنة كاملة، وافية العدد. كما أن ما جاء فى القرآن أكثر تحديدا، وأعذب لفظا وأملأ فائدة، وفيه نكتة أخرى. وهى أن القصة مسوقة كما قال الفخر الرازى لتسلية النبى ﷺ فإنه كان يضيق صدره بسبب عدم دخول الكفار فى الإسلام وإصرارهم على الكفر، انظر الآية (٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٧٩. فقال له سبحانه: إن نوحا لبث فى قومه ألف سنة تقريبا يدعوهم للإيمان. ولم يؤمن منهم إلا قليل. ومع ذلك صبر وماضجر فأنت أيها النبىّ أولى بالصبر لقصر مدة لبثك فيهم. وكثرة عدد من آمن بك. وأيضًا فقد كان كفار قوم نوح يغترون بتأخير العذاب عنهم هذه المدة الطويلة ومع ذلك لم ينج منه مع هذا المقدار الطويل من التأخير أحد فيجب أن لا يغتر قومك أيها النبى بتأخير العذاب عنهم مدة قصيرة فإنه سيلحقهم قطعا إذا استمروا على كفرهم. لكل ذلك كانت مفاجأة السامع بذكر أكبر عدد يعرفه العرب وهو الألف، أوقع فى النفس، وأوصل إلى الغرض. ثم قال الزمخشرى فإن قلت: فلمَ جاء التمييز أولا (بالسنة) وثانيا (بالعام)، ولم يقل ﴿ألف سنة إلا خمسين سنة﴾ مثلاً، قلت لأن تكرير اللفظ الواحد فى الكلام الواحد جدير بالاجتناب فى البلاغة لما فى التكرار من البشاعة. إلا إذا جاء ذلك لأجل غرض يقصده المتكلم. من تفخيم أو تهويل أو تشويه، أو نحو ذلك مما تجيزه قوانين بلاغة الكلام. وقال فى ذلك الألوسى: إن نوحا بعث على رأس الأربعين سنة كإخوانه الأنبياء. وعاش بعد الطوفان خمسين سنة وذكرت مدة دعوته لقومه بهذا الأسلوب فى القرآن للدلالة على كمال العدد. وكونه معينا نصا. لاتجز فيه، لأن (تسعمائه وخمسين) قد يطلق ويراد به ما يقرب منه، ولما فى ذكر ﴿ألف﴾ أول الأمر من تخيل طول المدة، فإن المقصود من القصة تصبيره ﷺ، وإنما اختلف التمييز لما فى التكرار فى مثل هذا الكلام من البشاعة، والحكمة فى اختيار (السنة) أولاً (والعام) ثانيا. أن السنة كما تطلق على العام تطلق على الشدة والجدب بخلاف العام فناسب اختيار السنة لزمان الدعوة الذى قاسى فيه نوح من الشدائد ما قاسى من قومه، انظر الآية (١٣٠) من سورة الأعراف صفحة ٢١٢. ﴿آية للعالمين﴾: أي عبرة وتذكير لكل مَنْ سمع بها، انظر الآية (١٢) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢. ﴿أوثانا﴾: تماثيل يتقرب بها إلى الله تعالى. ﴿تخلقون﴾: أى تختلقون. ﴿إفكا﴾: كذبا هو ادعاء أنها تشفع لكم عند الله وتقربكم إليه كما فى الآية (١٨) من سورة يونس صفحة ٢٦٨، والآية (٣) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٥، ٦٠٦. ﴿ابتغوا﴾: اطلبوا.

المعنى: . المحقق أن الله أعلم بما فى قلوب المنافقين وغيرهم لايخفى عليه شىء مما فيها، فكيف يخادعون مَنْ لا تخفى عليه خافية؟

وعزته تعالى إنه يعلم المؤمن الصادق والمنافق الكاذب فى ادعاء الإيمان وبعد ما بين سبحانه أن من طرق كفار قريش التى كانوا يسلكونها فى معاملة مَنْ آمن بمحمد القسوة ليرجعوه كافرا، أراد أن يبين طريقا آخر هو طريق اللين والترغيب فى عدم اتباع الرسول ﷺ فقال: (وقال الذين كفروا) إلخ: أى وقال الكافرون من قريش لمَنْ آمن منهم اتبعوا طريقنا فى الدين ونحن نوجب على أنفسنا تحمل نتيجة خطاياكم إن كان لكم خطايا كما يقول محمد، أى لا تخافوا من حساب ولا عقاب فإنه ليس هناك شىء من هذا فردَّ عليهم سبحانه مبطلا زعمهم بقوله: وماهم بحاملين شيئًا من خطاياهم يوم القيامة لأنه يوم لايحمل فيه أحد وزر أحد انظر ما سبق فى الآية (١٦٤) من سورة الأنعام صفحة ١٩١، فهم كاذبون فيما قالوه، بل إن هؤلاء الطغاة سيحملون أوزار أنفسهم ويزادون عليها أوزارًا مثل أوزار مَنْ تسببوا فى إضلالهم من غير أن ينقص ذلك من أوزار الضالين شيئًا، انظر الآية (٢٥) من سورة النحل صفحة ٣٤٨، ثم يسألون بعد ذلك سؤال تبكيت وتقريع عما كانوا يكذبونه فى الدنيا من التغرير وادعاء تحمل ذنوب الغير. ثم أراد سبحانه أن يبين مَنْ ابتلوا بفتن الكفار من الأنبياء وكيف كانت لهم العاقبة ليطمئن المؤمنون فقال: ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فمكث بينهم يدعوهم إلى عبادة رب واحد ألف سنة إلا خمسين عاما فكذبوه فأخذهم الطوفان وهم ظالمون، فأنجيناه ومَنْ حملهم معه فى السفينة، وجعلنا هذه الحادثة عبرة كل معتبر، انظر الآية (٢٥) وما بعدها من سورة هود صفحة ٢٨٧، وسورة نوح صفحة ٧٦٧ ومابعدها، وكذا أرسلنا إبراهيم حين قال لقومه اعبدوا الله وحده وخافوا عقابه، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون أنكم لاتعبدون إلا تماثيل تنحتونها بأيديكم، وتختلقون الكذب أنها تشفع لكم. إن هؤلاء الذين تعبدونهم من غير أن تفردوا الله بالعبادة لايملكون لكم جلب رزق، وإذا كان الأمر كذلك فاطلبوا الرزق عند مَنْ بيده رزق كل شىء.

المفردات : . ﴿بدأ الخلق﴾: تقول العرب بدأ الله الشىء، وبدأ به، وأبدأه كلها بمعنى واحد هو (فَعَلَه ابتداء) أى غير مسبوق به. وجاء من أبدأ اسمه تعالى (المبدئ المعيد) وهذا الفعل

ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ[1] ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ[2] ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ[3] ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ[4] أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟[5] مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ[6] ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ[7] لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾

وهو ﴿أبدأ﴾ فعل مهجور فى الاستعمال، أما مضارعه وهو ﴿يُبدئُ﴾ فهو كثير ولم يرد فى القرآن إلا مصحوبا بـ ﴿يعيد﴾ كما هنا وكما فى الآية (٤٩) من سورة سبأ صفحة ٥٧٠، والآية (١٣) من سورة البروج صفحة ٨٠١؛ أما ﴿بدأ﴾ ففى القرآن كثير، وقد يأتى بدون ﴿يعيد﴾ كما فى الآية (٧) من سورة السجدة صفحة ٥٤٥. ﴿ينشئ﴾: أى يبتدئ ويوجد ﴿النشأة﴾: هى المرة من الإنشاء والمراد بها الإعادة يوم القيامة. ﴿تقلبون﴾: تردون. ﴿بمعجزين﴾: بغالبين الله بالهرب من عقابه. ﴿من ولى﴾: أى صاحب يتولى أموركم ﴿ولانصير﴾: أى ناصر يمنع العذاب.

المعنى: . فاطلبوا أيها المشركون الرزق من عند الله لا عند أوثانكم، واعبدوه وحده، واشكروا له نعمه عليكم، واستعدوا للقائه، لأنه هو الذى سترجعون إليه يوم القيامة فيجازيكم خيرًا أو شرا. ثم حذرهم من إهمال أوامر الله حتى لايحصل لهم ماحصل لأمثالهم فقال ﴿وإن تكذبوا﴾ إلخ: أى تكذبوا رسل الله فيما أخبروكم به فلن تضروا غير أنفسكم، فقد كذب أمم من قبلكم رسلهم فأهلكهم الله وأنجى رسله لأنه ليس على الرسول هداية أمته بل عليه تبليغ أوامر الله لهم واضحة. وبعد ما فرغ إبراهيم عليه السلام من بيان الأصل المهم وهو توحيد الله، وأشار إلى الأصل الثانى وهو الرسالة، أراد أن يبين الأصل الثالث وهو بعث الخلائق يوم القيامة للحساب والجزاء فقال معرضا عن خطابهم احتقارا لهم ﴿أو لم يروا﴾ إلخ: أى هل انطمست أبصارهم فلم ينظروا كيف يوجد الله الأشياء سواء أكانت نباتات أو اشجار أو

(١) البلاغ. (٢) الآخرة. (٣) بآيات. (٤) لقائه.
(٥) يئسوا. (٦) فانجاه. (٧) لآيات

حيوانات، يوجدها سبحانه من العدم ثم يعيدها إلى العدم ثانيا، وهذا يتكرر أمام أعينهم كل حين، وهو مما يستدل به البصير على كمال قدرته تعالى على كل شىء. ثم انتقل سبحانه إلى دليل أوسع وأبهر على قدرته على البعث فقال: قل سيروا إلخ أى إن لم يكفكم مايحيط بكم من صنع الله عز وجل فى إيجاد الأشياء وإعدامها فلتسيروا فى الأرض وتتأملوا فى أقطارها وبحارها وجبالها وأجناس ما فيها فتعلموا من ذلك كيف خلق الله جل وعلا هذه العوالم على أطوار مختلفة وطبائع متغايرة، وأخلاق شتى، وألوان متفاوتة، انظر آيتى (٢٧، ٢٨) من سورة فاطر صفحة ٥٧٥. فتصلوا بذلك إلى أن القادر على كل هذا قادر على إعادتكم يوم القيامة للحساب والجزاء، انظر آيات (٣، ٤، ٥) من سورة الجاثية صفحتى ٦٦٠، ٦٦١، والآية (٣٣) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧١، ولاشك أن القادر على خلقهم أول مرة إلخ قادر على أعادتهم لأن ذلك سهل عليه، انظر الآيات (٤) من سورة يونس صفحتى ٢٦٥، ٢٦٦، و (٣٤) من السورة صفحتى ٢٧١، ٢٧٢، و (١٠٤) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١، (٢٧) من سورة الروم صفحة ٥٣٤. ثم حكى سبحانه ماقاله لنبيه إبراهيم فقال: قل لقومك ياإبراهيم سيروا فى الأرض وتأملوا كيف أوجد الله الخلق ابتداء على أحوال مختلفة وطبائع متغايرة وأخلاق شتى، هذا الإله الذى فعل ذلك هو الذى ينشئ النشأة الآخرة بعد النشأة الأولى التى هى الابتداء. فالمراد أن مَنْ عرف بالقدرة على الإبداء يجب أن يحكم له بالقدرة على الإعادة لأن قدرته ثابتة له دائمًا على كل شىء يستوى عنده بدء الشىء وإعادته. ثم بيّن ما سيكون بعد النشأة الآخرة تهديدا وترغيبا فقال: يعذب مَنْ يشاء تعذيبه وهم المنكرون للآخرة . ويرحم مَنْ يشاء برحمته وهم المؤمنون بها، وإليه ترجعون جميعا فلا مفر من ملاقاة جزائه، وما أنتم بمعجزين الله عن إدراككم مهما حاولتم الاختباء فى جوف الأرض أو الصعود إلى السماء إن استطعتم، انظر الآية (٣٣) من سورة الرحمن صفحة ٧١٠، وما لكم من دون الله صديق يحرسكم من المصائب، ولا نصير يدفعها عنكم. ثم هددهم بما سيكون إذا استمروا فقال ﴿والذين كفروا﴾ إلخ: أى قل لهم أيضًا ياإبراهيم إن الذين كفروا واستمروا على كفرهم بآيات الله المنزلة فى كتبه والمبينة فى الكون الدالة على توحيده وعلى صدق رسله، هؤلاء ستكون عاقبتهم اليأس المحقق من رحمتى وهؤلاء المجرمون سيكون لهم عذاب شديد الألم. فلما أخذتهم الحجة عمدوا إلى القوة

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ

فقال بعضهم لبعض اقتلوه بسيف مثلا أو ألقوه فى النار ليموت حرقا، فألقوه فى النار، فأنجاه الله تعالى منها. إن فى هذه الحادثة لعبرا ومواعظ ينتفع بها المستعدون للإيمان.

المفردات: ﴿أوثانا﴾: تماثيل كما تقدم فى صفحة ٥٢٢. ﴿مودة بينكم﴾: أى لدوام التواد بينكم بالمحافظة على عبادتها حتى لايخالف أحدكم صاحبه. ﴿مأواكم﴾: مكانكم الذى تأوون إليه آخر الأمر. ﴿من ناصرين﴾: ﴿من﴾ حرف يفيد تأكيد العموم فيما بعده. ﴿آمن له لوط﴾ أى صدقه، انظر الآية (١٧) من سورة يوسف صفحتى ٣٠٤، ٣٠٥. ﴿مهاجر إلى ربى﴾: أى تارك أرض الظلم فى العراق وذاهب إلى حيث أمرنى ربى، وهو الشام. ﴿الكتاب﴾: المراد جنس الكتاب فيشمل التوراة والزبور والإنجيل والقرآن.

﴿ولوطا﴾: هو ابن أخى إبراهيم، انظر تفصيل قصته فى صفحة ٤٨٩. ﴿أئنكم﴾: الهمزة للاستفهام الإنكارى المفيد للتوبيخ. ﴿تقطعون السبيل﴾: أى تقفون فى الطرق وتقتلون المارة وتأخذون أموالهم، وجاء الإسلام بعقاب أمثالهم فى الآية (٣٣) من سورة المائدة صفحتى ١٤٢، ١٤٣. ﴿ناديكم﴾: النادى هو مجلس القوم، ولا يقال له ناد إلا فى حال اجتماعهم فيه. ﴿المنكر﴾: المراد به هنا كل ما تتكره الطباع السليمة كتهزئ المارة، وقذفهم بالطوب وكشف العورة، وفحش المزاح من كل ما يدل على فقد الحياء.

---

(١) أوثانا. (٢) الحياة. (٣) القيامة. (٤) ومأواكم. (٥) ناصرين. (٦) فآمن. (٧) إسحاق. (٨) الكتاب. (٩) آتيناه. (١٠) الصالحين. (١١) الفاحشة. (١٢) العالمين. (١٣) أئنكم. (١٤) الصادقين

المعنى: . وقال إبراهيم لقومه لم تعبدوا من دون الله إلا تماثيل لتدوم المودة بينكم فى الدنيا بالمحافظة على عبادتها، أما يوم القيامة فينعكس الحال ويشتد بينكم التخاصم، انظر شرح الآية (٢٨) من سورة يونس صفحتى ٢٧٠، ٢٧١، والآية (٨٢) من سورة مريم صفحة ٤٠٤، ويلعن أهل النار كذلك بعضهم بعضا، انظر الآية (٣٨) من سورة الأعراف صفحة ١٩٨، والآية (٦٨) من سورة الأحزاب صفحة ٥٦١، ومكانكم النار وما لكم من ناصرين يمنعون النار عنكم. وبعد ما قال إبراهيم ذلك أوقدوا له النار ورموه فيها فأنجاه الله تعالى منها كما فى الآية (٦٨) وما بعدها من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٧، والآية (٩٧) وما بعدها من سورة الصافات صفحة ٥٩٢، ولما رأى لوط ابن أخيه هذه المعجزة آمن بما يقول وصدقه.

وقال إبراهيم إنى مهاجر من أرض قومى إلى المكان الذى أمرنى ربى بالهجرة إليه وهو الشام، فهاجر هو ولوط، وأقام هو بفلسطين ، ولوط بشرق الأردن. إن ربى هو وحده العزيز أى الغالب الذى يمنع عنى كيد الأعداء، الحكيم فيما يصنع ويأمر.

وبعد ذلك تزوج بسارة فولدت له على كبر إسحاق، وولد لإسحاق يعقوب، فعاش إبراهيم حتى رأى حفيده. وجعل الله فى ذريته من إسماعيل وإسحاق النبوة فلم يكن نبى إلا منهم، وأنزل عليهم الكتب المقدسة، وآتى سبحانه نبيه إبراهيم أجرًا فى الدنيا من الصلاة عليه من كل مؤمن، والذكر الحسن إلى يوم القيامة، انظر الآية (٥٠) من سورة مريم صفحة ٤٠١، ومحبة أهل الملل جميعا، فكل يفتخر بالانتساب له، وكفاه تخليدا أن اسمه مقترن بركن عظيم من أركان الإسلام وهو الحج إلى البيت الذى بناه هو وابنه اسماعيل كما فى الآية (١٢٧) من سورة البقرة صفحة ١٢٥. وسيكون فى الآخرة من عداد البالغين النهاية فى الصلاح، انظر شرح الآية (٩) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢١. واذكر أيها النبى لقومك قصة لوط حين قال لقومه إنكم لتفعلون الفعلة المتناهية فى الفحش مبتدعين لها لم يفعلها أحد قبلكم، فعليكم وزر كل مَنْ يعملها، ثم بينها مع غيرها فى أسلوب التوبيخ فقال: أنكم لتأتون الرجال بدلاً من النساء، وتفعلون فى مجلسكم ماتنكره الطباع، فلم يجدوا له جوابا إلا قولهم متبجحين: ائتنا

الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ[1] بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ[2] ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ[3] ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ[4] ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ[5] اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ[6] وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ[7] ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا

بعذاب الله إن كنت صادقا فيما تزعم أن عملنا يغضب الله وإنك نبى مستجاب الدعاء. قال لوط يارب انصرنى على هؤلاء المفسدين.

المفردات: . ﴿بالبشرى﴾: بأن يولد له إسحاق ومن بعده يعقوب، انظر الآية (٧١) من سورة هود صفحة ٢٩٥. ﴿هذه القرية﴾: قرية سدوم بشرق الأردن. ﴿الغابرين﴾: أى من الباقين فى العذاب، أو الذاهبين الهالكين، انظر الآية (٨٣) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٥، ٢٠٦. ﴿ولما أن جاءت﴾: ﴿أن﴾ حرف يراد به تأكيد الربط بين شرط ﴿لما﴾ وهو ﴿جاءت رسلنا﴾ وجوابها وهو ﴿سىء بهم﴾ إلخ.

﴿سىء بهم﴾: أى وقعت عليه الإساءة والغم بسببهم، انظر الآية (٧٧) من سورة هود صفحة ٢٩٥. ﴿ضاق بهم ذرعا﴾: المراد بالذرع الطاقة أى قصرت طاقته عن تدبير نجاتهم، انظر صفحة ٢٩٥. ﴿رجزا﴾: الرجز العذاب، انظر تفصيله فى الآية (٨٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٦، وفى صفحة ٤٩٠ تفصيل ماحصل منهم ولهم. ﴿آية﴾: عبره وعظة.

﴿ولا تعثوا فى الأرض مفسدين﴾: أى لاتفسدوا مصممين على الاستمرار فى الفساد، انظر الآية (٨٥) من سورة هود صفحة ٢٩٧.

﴿الرجفة﴾: الزلزلة الشديدة. ﴿جاثمين﴾: أى باركين على ركبهم ميتين، انظر الآية (٧٨) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٥.

(١) إبراهيم. (٢) ظالمين. (٣، ٤) الغابرين. (٥) ياقوم. (٦) الآخر. (٧) جاثمين.

المعنى: ـ لما طلب لوط النصر من ربه استجاب سبحانه دعاءه، وبعث ملائكة ينقذونه منهم بإهلاكهم، وأمرهم أن يمروا على إبراهيم أولاً ليبشروه بأنه سيولد له إسحاق، وسيولد لإسحاق يعقوب، ولما جاءت هذه الملائكة لإبراهيم حاملة البشرى قالوا له إنا سنهلك قرية سدوم بخسف الأرض بها لأن أهلها استمروا على تماديهم فى الظلم لرسولهم وللناس بالمعاصى وأنواع الفساد. عند ذلك خاف إبراهيم على ابن أخيه لوط فحاول تأجيل العذاب مدة لعلهم يرجعون وينج ابن أخيه لوط انظر ماجاء فى صفحة ٢٩٥، فأخبر الملائكة بأنه موجود فى القرية وهو برىء من جرائمهم. قال الملائكة تطمينا لإبراهيم: نحن أعلم بمن فيها، لننجينه ومن آمن من أهله، أما امرأته فإنها ستبقى مع الهالكين، لأنها خانته بالكفر به وإرشاد الفساق لضيوفه، انظر الآية (١٠) من سورة التحريم صفحة ٧٥٣، ولما جاءت الملائكة من عند إبراهيم إلى لوط فى صورة شبان حسان خاف عليهم واستولى عليه الغم لضيق قوته عن دفع الشر عنهم، وحصل بينه وبين قومه ما فصله سبحانه فى صفحات ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٤٢، ٣٤٣. عند ذلك قالت الملائكة له لا تخف علينا ولا تحزن على خراب القرية، وسننجيك وأهلك المؤمنين ماعدا امرأتك فإنها مع الهالكين. ثم بينوا له ما سيفعلون فقالوا: إنا سننزل على أهل هذه القرية عذابا من جهة السماء بسبب استمرارهم على الفسق. وجاء فى آيات أخرى أنهم نسفوا القرية أولا ثم امطروها بالحجارة، انظر الآية (٨٢) من سورة هود صفحة ٢٩٦، والآية (٧٤) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣. ثم أرشد سبحانه كفار مكة إلى مكان العبرة فى هذا الحادث فقال: ولقد تركنا من هذه القرية عبرة واضحة هى مكانها الخراب والماء الأسود الذى ملأ مكانها المسمى الآن بحيرة لوط أو البحر الميت، ينتفع بهذه العبرة العقلاء الذين يمرون عليها، انظر صفحات ٢٩٦، ٥٩٤، ٥٩٥. ثم شرع سبحانه فى عبرة أخرى فقال ﴿وإلى مدين أخاهم﴾ إلخ: أى وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبا فقال ياقوم اعبدوا الله وحده، وافعلوا ماترجون به ثواب يوم القيامة، ولاتشتدوا فى الإفساد فى الأرض، فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين، انظر تفصيل ذلك فى صفحة ٢٠٦. ثم ذكر عبرة ثالثة فقال ﴿وعادًا وثمودًا﴾ إلخ.

وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ[1] وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ[2] أَعْمَٰلَهُمْ[3] فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ[4] وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ[5] وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ[6] فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ[7] ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ[8] نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ[9] ﴿٤٣﴾

المفردات: ـ ﴿مستبصرين﴾: أى متمكنين من الإبصار، وهو التأمل وتمييز الحق من الباطل، ولكنهم أهملوا. ﴿قارون﴾: تقدم فى صفحة ٥١٧. ﴿فرعون وهامان﴾ تقدما فى صفحة ٥١٢. ﴿سابقين﴾: المراد مفلتين من عذابنا. ﴿حاصبا﴾: هى الريح العاصفة فيها حجارة صغيرة ﴿أوهن﴾: أضعف. ﴿الأمثال﴾: المراد أمثال القرآن كهذا المثل وغيره، وهى كثيرة، منها ما فى الآية (١٤) من سورة الرعد صفحة ٣٢٣، والآيات (٢٤) وما بعدها صفحة ٣٣٣، والآية (٧٣) من سورة الحج صفحة ٤٤٤. ﴿نضربها﴾: أى نجعلها ونقدمها لهم.

المعنى: ـ وأهلكنا عادا وثمود، وقد تبين لكم يأهل مكة ماحل بهم من مشاهدة مساكنهم التى تمرون عليها فى رحلاتكم إلى اليمن والشام، وسبب ماحل بهم من الهلاك أنهم خضعوا للشيطان الذى زين لهم المعاصى ومنعهم عن طريق الصواب، مع أن الله خلقهم متمكنين من التبصر ولكنهم لم يفعلوا. وأهلك سبحانه قارون وفرعون وهامان. ثم بين سبحانه إهلاكهم فقال: ولقد جاءهم موسى بالبراهين القاطعة على صدقه فاستكبروا على الله تعالى وعلى رسوله مفسدين فى الأرض، وما كانوا سابقين عذابنا بل أدركهم فأهلكهم. ثم بين كيف أهلكهم فقال ﴿فكلا أخذنا بذنبه﴾ إلخ: أى فكل فريق من هؤلاء الطغاة عاقبناه بذنبه؛ فمنهم

(١) مساكنهم. (٢) الشيطان. (٣) أعمالهم.
(٤) قارون. (٥) هامان. (٦) بالبينات.
(٧) سابقين. (٨) الأمثال. (٩) العالمون.

خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ

من أرسلنا عليه حاصبا كقوم عاد، انظر صفحة ٧٦١، ومنهم مَنْ أخذته الصيحة كثمود، انظر صفحة ٢٩٤، ومنهم من خسفنا به الأرض كقارون، انظر صفحتى ٥١٨، ٥١٩، ومنهم من أغرقنا كقوم نوح وفرعون، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا هم الذين ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن الحق بعد أن تبينوا دليله وامعنوا فى الكبر والإفساد. وبعد ما بين سبحانه أنه أهلك مَنْ أشرك به وكذب رسله، أراد أن ينبه كفار مكة إلى خطأ اتخاذهم معبودات لاتنفعهم، وإن مابنوه عليها من الآمال ضائع، فقال ﴿مثل الذين اتخذوا﴾ إلخ: أى حال هؤلاء الكفار الذين اتخذوا من دونه تعالى أولياء يقربونهم من الله زلفى كما فى صفحة ٦٠٦ كحال العنكبوت، التى اتخذت لنفسها بيتا من نسيج فى منتهى الضعف لتحمى نفسها به، ولا بيت أضعف من بيت العنكبوت، لو كان هؤلاء الكفار ممَنْ يعنون بالعلم النافع لعلموا أن هذه الأصنام ستكون يوم القيامة أضعف من بيت العنكبوت فلا تقيهم عذاب الله؛ ولذا قال ﴿إن الله يعلم مايدعون﴾ إلخ: أى يعلم حقيقة هذا الشيء الذى يعبدونه من دونه، وأنه لاينفعهم مثقال ذرة، لأنه أضعف من بيت العنكبوت. والله وحده هو العزيز الغالب على كل شيء، الحكيم فيما يشرع وفيما يعامل به عباده. وهذا المثل ونظائره من أمثال القرآن نضربها للناس ايضاحا لما أشكل عليهم، ومايتبيه لمغزاها إلا العالمون.

المفردات: . ﴿بالحق﴾: انظر شرح صفحتى ١٧٤، ٢٦٦. ﴿الفحشاء﴾: الفعلة المتناهية فى الفحش كالزنا مثلا. ﴿المنكر﴾: كل ماتنكره الشرائع والعقول السليمة كالقتل والإفساد فى

(١) الكتاب. (٢، ٣) الصلاة. (٤) تجادلوا. (٥) الكتاب.
(٦) آمنا. (٧) واحد. (٨) الكتاب. (٩) آتيناهم. (١٠) الكتاب. (١١) بآياتنا.
(١٢) الكافرون. (١٣) كتاب. (١٤) آيات. (١٥) بينات. (١٦) بآياتنا.

الأرض. ﴿ذكر الله﴾: قال ابن عباس: معناه ذكر الله تعالى لكم بالثناء عليكم والرحمة أكبر لكم من ذكركم له بالطاعة. ﴿آتيناهم الكتاب﴾: المراد بالكتاب هنا جنس الكتاب فيشمل كل كتب الأنبياء السابقين. ﴿هؤلاء﴾: المراد بهم أهل مكة.

﴿يجحد﴾: الجحود إنكار باللسان لما هو ثابت فى القلب، انظر الآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥. ﴿من كتاب﴾: ﴿من﴾ تفيد نفى عموم ما بعدها. ﴿ارتاب﴾: أى شك. ﴿المبطلون﴾: أى المتوغلين فى الباطل.

المعنى: . خلق الله السموات والأرض لحكم ولم يخلقها عبثا؛ إن فى هذا الخلق المتقن لبرهانا على وجود صانع حكيم يستحق العبادة وحده، لايتنبه لهذا البرهان إلا سليم الفطرة الممتلئ قلبه بنور الإيمان انظر الآية (١٩٠) وما بعدها من سورة آل عمران صفحة ٩٥. ثم وجه سبحانه نبيه ﷺ إلى طريق السعادة له ولأمته فقال ﴿اتل ما أوحى إليك﴾ إلخ: أى داوم على تلاوة القرآن تقربا إلى ربك، متأملا لما فيه من الأسرار، لتحمل نفسك وتحمل أمتك على العمل بما فيه من الأحكام ومكارم الأخلاق، وأد الصلاة على أتم وجوهها، لأنها بما حوت من الوقوف بين يدى الله تعالى وذكره وتسبيحه تحرض على البعد عن الفحشاء والمنكر، فكأنها تقول لصاحبها: عار عليك أن تفعل مايغضب ربك مع وقوفك بين يديه وقتا بعد آخر، أى فلا تكن متناقضا مع نفسك، فالصلاة تنهى بلسان حالها، والله سبحانه نهى بصريح القول فى الآية (٩٠) من سورة النحل صفحة ٣٥٨. وإذا ذكرتم ربكم بالطاعة فذكره لكم فى الملأ الأعلى بالثناء والرحمة أكبر نفعا لكم، انظر الآية (١٥٢) من سورة البقرة صفحة ٢٩، فمن رحمته لكم أنه جعل الحسنة بعشر أمثالها. وإذا أردت المزيد فارجع إلى قوله ﷺ فى الحديث القدسى: إذا ذكرنى عبدى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه، انظر حديث ٧٠٠ فى كتابنا «صفوة صحيح البخارى» مع حديث ٦٣٢ من الكتاب نفسه. والله سبحانه يعلم ماتصنعون أيها العباد من خير وشر وسيجازيكم عليه. وبعد ما فرغ سبحانه من تسفيه المشركين وإقامة الحجة عليهم، أتبع ذلك ببيان طريقة إرشاد أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأن يسلك معهم طريق الحجاج بالحسنى، لأنهم يقرون بالأنبياء وباليوم الآخر، وعيبهم أنهم ينكرون نبوة خاتم الرسل ﷺ، والنصارى يقولون المسيح ابن الله، إلا الذين ظلموا منهم بالعناد ورفض الإرشاد، أى فاستعملوا معهم التسفيه كالمشركين، انظر ماقيل فى شرح الآية (١٢٥) من سورة النحل صفحة ٣٦٣ وقولوا فى المجادلة بالحسنى: آمنا بما أنزل إلينا وهو القرآن وبما أنزل إليكم على يد إبراهيم وبنيه كما فى الآية (١٣٦) من سورة البقرة صفحة ٢٦، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له وحده خاضعون.

إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ (٤٩) وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (٥٢) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥) يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ

وكما أنزلنا على الرسل قبلك كتبا أنزلنا إليك القرآن؛ فالذين آتيناهم الكتب السابقة يؤمنون بالقرآن وبأنه حق من عند الله، انظر الآية (١٤٦) من سورة البقرة صفحة ٢٨، وآيتى (٧٠، ٧١) من سورة آل عمران صفحة ٧٤، ومن هؤلاء المشركين بمكة مَنْ يؤمن به فى دخيلة نفسه ولكنهم يجحدون عنادا، ومايجحد إلا المتمكنون من الكفر ثم أكد مايزيل كل شبهة فقال ﴿وماكنت تتلو﴾ إلخ: أى وماكنت يامحمد من قبل إنزال القرآن إليك تقدر على تلاوة كتاب ولاتكتبه، إذ لو كنت تقدر على ذلك لكان فيه منفذ شبهة لقصير النظر المتوغل فى الباطل، الذى عمى عن البراهين الأخرى القاطعة بصدقك، انظر الآية (١٦) من سورة يونس صفحة ٢٦٨. ثم انتقل إلى تأكيد أنه من عند الله فقال: بل هو آيات واضحات فى دلالتها على الحق، وضعها الله فى صدور العلماء، لايقدر أحد على تحريفها، ولايكابر فى إنكار آياتنا إلا الظالمون.

المفردات: . ﴿لولا﴾: كلمة تدل على طلب ما بعدها. ﴿آيات﴾: معجزات حسيات كعصا موسى مثلا. ﴿أو لم يكفهم﴾: انظر شرحها فى الآية (٥٣) من سورة فصلت صفحة ٦٣٧. ﴿ذكرى﴾: أى تذكيرا. ﴿الباطل﴾ المراد به هنا كل ما عبد من دون الله. ﴿أجل مسمى﴾: موعد سماه الله وحدد زمنه فى علمه، انظر الآية (٢) من سورة الأنعام صفحة ١٦٢. ﴿يغشاهم﴾: أى يغطيهم، انظر الآية (١٦) من سورة الزمر صفحة ٦٠٨.

المعنى: . وما يجحد بصدق القرآن إلا المتوغلون فى الظلم بالمكابرة بعد وضوح الحجة، ومن مكابرتهم أنهم مع عجزهم عن أن يأتوا بسورة من هذا القرآن كما فى صفحة ٦ يقولون عنادا

(١) الظالمون. (٢) آيات. (٣) الآيات. (٤) الكتاب. (٦) آمنوا.
(٧) بالباطل. (٨) الخاسرون. (٩) بالكافرين. (١٠) يغشاهم. (١١) يا عبادى.
(١٢) آمنوا. (١٣) واسعة. (١٤) فإياى.

نطلب أن ينزل عليك ربك معجزات حسية كما أنزل على موسى وعيسى مثلا. قل لهم أيها النبى إنما أمر نزول الآيات عند الله، ولو علم فيكم خيرا لأجابكم ولكنه يعلم أنكم متعنتون كما فى صفحتى ١٦٣، ١٨١، وليس من شأنى أنا إلا الإنذار الواضح، وقد فعلت. وقد رد سبحانه هذا التعنت بأسلوب آخر فى صفحات ٣٧٦، ٣٧٧، ٥١٤. ثم أبرز سبحانه تعنتهم فقال ﴿أو لم يكفهم﴾ إلخ: أى هل تركناهم بدون برهان على صدقك ولم يكفهم دليلا يغنى عن سائر الأدلة إنا أنزلنا عليك القرآن يتلى عليهم منك وأنت أمى ماكنت تدرى ماالكتاب ولا الإيمان كما فى الآية (٥٢) من سورة الشورى صفحة ٦٤٦. إن فى ذلك الكتاب العظيم لنعمة عظيمة، وتذكرة لقوم همهم الإيمان لا التعنت، فإن لم يكتفوا بهذا القرآن الحجة الدائمة فقل لهم يكفينى الله شاهدا بينى وبينكم يعلم المحق والمبطل، لأنه وحده هو العليم بكل ما يجرى فى السموات والأرض. ثم هددهم فقال: والذين آمنوا بالمعبودات الباطلة وكفروا بالله، هؤلاء هم وحدهم الخاسرون لكل خير. ولما أنذرهم ﷺ بالعذاب إذا لم يؤمنوا كانوا يطلبون إنزال هذا العذاب استهزاء كما فى الآية (٣٢) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١ يقلدون الكفار قبلهم كما فى الآية (١٨٧) من سورة الشعراء صفحة ٤٩١ فقال فى ذلك: ويستعجلونك استهزاء بوعدك وإنكارا له، ولولا أجل حدده الله لعذاب كل قوم فى الوقت الذى اقتضته حكمته لجاءهم العذاب عاجلا، وعزتى ليأتينهم فجأة من حيث لايقدرونه فى الدنيا كما حصل فى بدر وفى آخر حياتهم عند الموت وما بعده انظر الآية (٩٢) من سورة الأنعام صفحتى ١٧٧، ١٧٨، والآية (٥٠) من سورة الانفال صفحتى ٢٣٤، ٢٣٥، والآية (٢٧) من سورة محمد صفحة ٦٧٦. ثم أبرز سبحانه تمام سفههم ليعجب الناس من جهلهم ببيان أن وراءهم عذاب أكبر مما يستعجلونه، انظر الآية (٢١) من سورة السجدة صفحة ٥٤٧ فقال: يستعجلونك بالعذاب والحال أن جهنم وعزتى لتحيط بهم قطعا لشناعة كفرهم فى يوم يغمرهم العذاب من كل جهاتهم، ويقول ملك العذاب ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون، ولما كان فى مكة بعض المستضعفين من المؤمنين الذين ليس لهم عصبة قوية تدفع عنهم شر كفار قريش، رغبهم سبحانه فى الهجرة إلى بلد يمكنهم فيها القيام بعباداتهم مع البعد عن ايذاء الكفار، فقال ﴿ياعبادى﴾ إلخ: أى أن أرضى واسعة،

ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا[1] وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ[2] لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ[3] خَالِدِينَ[4] فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ[5] ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ[6] وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ[7] الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ[8] لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ

فإن عجزتم عن إخلاص العبادة لى فى أرض ففروا إلى غيرها لتخلصوا لى العبادة فيها، انظر الآية (٩٧) وما بعدها من سورة النساء صفحتى ١١٧، ١١٨؛ ثم أراد سبحانه أن يسهل لهم الهجرة بأن الدنيا ليست دار بقاء وأن وراءها دار الجزاء، فقال ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ إلخ: أى كل نفس حية لابد أن تذوق مرارة الموت، وإذا كان الأمر كذلك فلا يصح التشبث بمكان فيه ذلة ومهانة.

المفردات: - ﴿لنبوئنهم﴾: أى ننزلنهم، انظر الآية (١٢١) من سورة آل عمران صفحة ٨٣. ﴿غرفا﴾: أمكنة عالية كما فى الآية (٢٠) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٨، ٦٠٩. ﴿كأين﴾: كلمة تدل على كثرة مابعدها.

﴿من دابة﴾: ﴿من﴾ حرف يدل على أن ما بعده بيان للمراد من ﴿كأين﴾ و ﴿دابة﴾ كل ما يدب ويتحرك كالملائكة والإنس والجن وكل الحيوانات. ﴿لاتحمل رزقها﴾: لاتستطيع حمله وادخاره. ﴿أنى﴾: كيف. ﴿يؤفكون﴾: أى يصرفون، انظر الآية (٣٠) من سورة التوبة صفحة ٢٤٥. ﴿يبسط﴾: أى يوسع انظر الآية (٢٦) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥. ﴿يقدر﴾: أى يضيق، انظر الآية (١٦) من سورة الفجر صفحة ٨٠٧. ﴿لهو ولعب﴾: تقدم فى الآية (٣٢) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٦، ١٦٧. ﴿الحيوان﴾: أى الدائمة التى يعمل حسابها.

المعنى: - كل حى سيموت. ثم إلينا ترجعون فى الآخرة للحساب والجزاء. ثم بيّن بعض هذا الجزاء فقال: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا﴾ أى علالى تجرى

(١) آمنوا. (٢) الصالحات. (٣) الأنهار. (٤) خالدين.
(٥) العاملين. (٦) السموات. (٧) الحياة. (٨) الآخرة.

تحتها الأنهار مقدرين خلودهم فيها، نعم هذه الغرف أجر العاملين، الذين صبروا على الشدائد ولم يتوكلوا فيما يفعلون ويتركون إلا على ربهم. ولما كان ربما يجول بخاطر المهاجر أنه قد يصعب عليه الحصول على قوته، طمأنهم سبحانه بقوله: ﴿وكأين من دابة﴾ إلخ: أى وكثير من دواب الأرض لاتعرف كيف تحمل رزقها وتصبح ولا شىء عندها، ومع ذلك فالله تكفل برزقها مع ضعفها حيث هيأ لها ووضع فى غريزتها كيفية حصولها على رزقها، انظر الآية (٦) من سورة هود صفحة ٢٨٤. فكيف لايرزقكم مع قوتكم واجتهادكم، وهو السميع لكل مايطلبه العبد وغيره من أقواله، العليم بما فى القلوب فيعلم المخلص من غيره. ثم أراد سبحانه أن يبين جهل هؤلاء المشركين بأوضح صورة فقال: ﴿ولئن سألتهم﴾ إلخ أى ولئن سألت أيها النبى كفار مكة وقلت لهم: مَنْ هو الذى خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر فلا جواب لهم إلا اعترافهم بأنه هو اللهُ وحده الذى فعل ذلك، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يصرفهم الشيطان عن إفراد الله بالعبادة لفرده بالخلق. ولما قال سبحانه فيما سبق أنه وحده هو الرازق أراد أن يبين أن رزقه يتسع ويضيق حسب مشيئته المتفقة مع حكمته فى خلقه، فقال: ﴿الله يبسط الرزق لمَنْ يشاء﴾ بسطه له من عباده، ويقدر أى يضيق على مَنْ يشاء له التضييق، لأنه عليم بكل شىء، فيعلم متى يكون البسط ولمَنْ، ومتى يكون التضييق ولمَنْ؟ ولئن سألت أيها النبى كفار مكة: من الذى نزل من جهة السماء فأحيا به الأرض بالنبات بعد موتها ليقولن معترفين بأنه هو الله، قل الحمد لله الذى أقام من الأدلة على وحدانيته ما أرغمهم على الاعتراف بما يهدم عقائدهم وإظهار أنك على حق.

ولما كان هذا التناقض واضحا، إذ لايعقل أن يقر شخص بخالق رازق ويعبد غيره، انتقل سبحانه إلى بيان ذلك بأنهم لايعقلون مايقولون، لأن شهوة العناد وطغيان الفساد وحب الدنيا والمحافظة على الرياسة جعلهم كالبهائم التى لا تعقل. ثم أتبع سبحانه ذلك ببيان أن ما تهالكوا فى المحافظة عليه من حب الدنيا لا قيمة له إذا قيس بنعيم الآخرة، فقال: وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، وأن الدار الآخرة لهى دار الحياة الدائمة، لو كان هؤلاء الكفار يعلمون ذلك لعملوا ما يقيهم شر الشقاء فيها ولما فضلوا متاع الدنيا الزائل. ثم شرع فى بيان شىء آخر من تناقضهم فقال: ﴿فإذا ركبوا فى الفلك﴾ إلخ...

دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

(٣٠) سُورَةُ الرُّومِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا سِتُّونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم

المفردات: . ﴿الفلك﴾ : السفينة ويطلق على الواحـد والجـمع، انظره فى الآية (٣٧) من سورة هود صفحة ٢٨٩. ﴿الدين﴾ : معناه هنا الطاعـة، والمراد خـلاصـتـهـا وهـو الدعـاء والضـراعـة إليـه سـبـحـانـه. ﴿إذا هم﴾ : إذا حرف يدل على مفاجأة ما بعده لما قبله.

﴿ليكفروا﴾ : اللام للأمر كقولك لمَن تأمره بالقيام ﴿لتقم يافلان﴾ والمراد تهديدهم كما فى الآية (٦٤) من سورة التوبة صفحة ٢٥١، والآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥. ﴿أنا جعلنا حرما إلخ﴾ : المراد شرعنا احـتـرام هذا المكان فى عـهـد إبراهيم عليه السلام وبقى محترما لذلك، وهذا لاينافى أن يخرج ملحـد أو فـاسق على ذلك، فـالكلام تشريع لا إخبار منه سبحانه وتعالى. ﴿حرما﴾ : تقدم فى صفحة ٥١٥ أن الحرم هنا هو الحرام والمراد مكانًا محرمًا امتهانه.

﴿يتخطف﴾ : يخطف الأشرار الأقوياء أموالهم بل وأنفسهم بالقتل، انظر الآية (٥٧) من سورة القصص صفحة ٥١٥. ﴿بالباطل﴾ : تقدم فى الآية (٥٢) من هذه السورة صفحة ٥٢٨، والأصل أفيؤمنون بالباطل الخ ولكنه قدم ﴿بالباطل﴾ وكذا ﴿بنعمة﴾ على ما بعدهما للاهتمام ببيان محل التوبيخ. ﴿جاهدوا فينا﴾ : انظر معنى الجهاد هنا فى الآية (٦) المتقدمة من هذه السورة صفحة ٥٢١.

المعنى: . ومن عجيب أمر هؤلاء المشركين أنهم إذا ركبوا فى السفينة فوق البحر وخافوا الفرق كما فى صفحة ٢٦٩، دعوا الله وحده فى صورة مَنْ يخلص لله العبادة من المؤمنين فلا يدعون غيره، وينسون آلهتهم، فلما نجاهم سبحانه إلى البر حصل إشراكهم بعد نجاتهم مباشرة، ثم هددهم سبحانه فقال ﴿ليكفروا﴾ إلخ: أى ليتمادوا فى الكفر بنعمتنا عليهم

(١) نجاهم. (٢) آتيناهم. (٣) آمنًا. (٤) افبالباطل.
(٥) للكافرين. (٦) جاهدوا. (٧) الف. لام. ميم.

وليتمتعوا بمتاع الدنيا الزائل، فعما قريب يعلمون عاقبة أمرهم عندما يشاهدون العذاب. ثم نبههم إلى نعمة أخرى يعيشون فيها دائما وهم غافلون عنها فقال: ﴿أو لم يروا﴾ إلخ: أى هل عمى كفار مكة ولم يروا إنا جعلنا بلدهم مصونا عن النهب والتعدى، آمنا أهله من السبى والقتل، والحال أن الناس من حولهم ينهبون ويقتلون ويسلبون، هل يصح بعد هذا أن يغفلوه ويؤمنوا بالأصنام التى لم تجعل لهم شيئًا من هذا؟ وبهذه النعمة وغيرها التى أنعم بها عليهم ربهم يكفرون فلا يشكرونه عليها بتوحيده بالعبادة، وإذا كان الأمر كما ذكر فلا أحد أشد ظلما للحق ولنفسه ممَّنْ افترى على الله كذبًا وزعم أن له شريكا يقرب إليه، إلى غير ذلك من جرائمهم المبينة فى صفحات ١٨٦، ١٨٧، ٦٤٨، أو كذب بالكتاب، والرسول الحق لما جاءه؛ فما الذى غرهم بذلك؟ أليس فى جهنم مثوى لهؤلاء الكافرين؟ الحق أنها أعدت لهم وسيقيمون فيها خالدين. ثم ذكر مقابل هؤلاء فقال: والذين جاهدوا بالصبر على الشدائد فى سبيل نصرة ديننا لنزيدنهم هداية لسبيل الوصول إلينا، انظر الآية (١٢) ومابعدها من سورة الكهف صفحة ٣٨١، والآية (٧٦) من سورة مريم صفحة ٤٠٤؛ وذلك لأنهم أحسنوا النيات، والله مع المحسنين بالنصر والإعانة، والله أعلم.